العذاب الأليم * قال قدأجيبت دعوتكما فاستقيما ولاتتبعان سبيل الذين لايعلمون) فذكر الدعاء عن موسى وحده ومن سياق الكلام مايدل على أن هرون أمن فنزل منزلة من دعا لقوله تعالى (قدأجيبت دعوتكما) فدل ذلك على أن من أمن على دعاء فكأنما قاله فلهذا قال من قال إن المأموم لا يقرأ لأن تأمينه على قراءة الفاتحة بمنزلة قراءتها ولهذا جاء فى الحديث « من كان له إمام فقراءة الامام له قراءة » رواه أحمد فى مسنده وكان بلال يقول لاتسبقنى بآمين يارسول الله . فدل هذا المنزع على أن المأموم لاقراءة عليه فى الجهرية والله أعلم ولهذا قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن الحسن حدثنا عبدالله بن محمد بن سلام حدثنا إسحاق بن إبراهيم حدثنا جرير عن ليث عن ابن أبى سليم عن كعب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إذا قال الامام غير المغضوب عليهم ولا الضالين ، فقال آمين ، فوافق آمين أهل الأرض آمين أهل السماء غفر الله للعبد ماتقدم من ذنبه ومثل من لايقول آمين كمثل رجل غزا مع قوم فاقترعوا فخرجت سهامهم ولم يخرج سهمه فقال لم لم يخرج سهمى ؟ فقيل إنك لم تقل آمين »

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ * رب يسر وأعن ياكريم *

تفسير سورة البقرة

(ذكر ماورد فى فضلها) قال الامام أحمد حدثنا عارم حدثنا معتمر عن أبيه عن رجل عن أبيه عن معقل بن يسار أن رسول الله ﷺ قال « البقرة سنام القرآن وذروته نزل مع كل آية منها ثمانون ملكا واستخرجت (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) من تحت العرش فوصلت بها أو فوصلت بسورة البقرة ، ويس قلب القرآن لايقرؤها رجل يريد الله والدار الآخرة الا غفر له واقرءوها على موتاكم » انفرد به أحمد وقد رواه أحمد أيضا عن عارم عن عبد الله بن المبارك عن سليمان التيمى عن أبى عثمان — وليس بالنهدى — عن أبيه عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ « اقرءوها على موتاكم » يعنى يس . فقد تبينا بهذا الاسناد معرفة المبهم فى الرواية الأولى . وقد أخرج هذا الحديث على هذه الصفة فى الرواية الثانية أبوداود والنسائى وابن ماجه ، وقد روى الترمذى من حديث حكيم بن جبير وفيه ضعف عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لكل شىء سنام وإن سنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن آية الكرسى » وفى مسند أحمد وصحيح مسلم والترمذى والنسائى من حديث سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « لا تجعلوا بيوتكم قبوراً فان البيت الذى تقرأ فيه سورة البقرة لايدخله الشيطان » وقال الترمذى حسن صحيح وقال أبوعبيد القاسم بن سلام حدثنى ابن أبى مريم عن ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن سنان بن سعد عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ « إن الشيطان يخرج من البيت اذا سمع سورة البقرة تقرأ فيه » سنان بن سعد ويقال بالعكس وثقه ابن معين واستنكر حديثه أحمد بن حنبل وغيره. وقال أبوعبيد حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن سلمة بن كهيل عن أبى الأحوص عن عبد الله — يعنى ابن مسعود — رضى الله عنه قال ان الشيطان يفر من البيت يسمع فيه سورة البقرة ورواه النسائى فى اليوم والليلة وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة ثم قال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا أبو إسماعيل الترمذى حدثنا أيوب بن سليمان بن بلال حدثنى أبو بكر بن أبى أويس عن سليمان ابن بلال عن محمد بن عجلان عن أبى اسحاق عن أبى الأحوص عن عبدالله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لاألفين أحدكم يضع احدى رجليه على الأخرى يتغنى ويدع سورة البقرة يقرؤها فان الشيطان ينفر من البيت تقرأ فيه سورة البقرة وان أصغر البيوت الجوف الصفر من كتاب الله » وهكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة عن محمد بن نصر عن أيوب بن سليمان به وروى الدارمى فى مسنده عن ابن مسعود قال مامن بيت تقرأ فيه سورة البقرة الاخرج منه الشيطان وله ضراط وقال إن لكل شىء سناما وان سنام القرآن سورة البقرة وان لكل شىء لبابا وان لباب القرآن المفصل. وروى أيضا من طريق الشعبى قال : قال عبد الله بن مسعود من قرأ عشر آيات من سورة البقره فى ليلة لم يدخل دلك البيت شيطان

تلك الليلة ، أربع من أولها وآية الكرسى ، وآيتان بعدها ، وثلاث آيات من آخرها ، وفى رواية لم يقربه ولا أهله يومئذ شيطان . ولا شىء يكرهه ولا يقرأن على مجنون إلا أفاق . وعن سهل بن سعد قال : قال رسول الله ﷺ « إن لكل شىء سناما وإن سنام القرآن البقرة وإن من قرأها فى بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال ومن قرأها فى بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام » رواه أبو القاسم الطبرانى وأبو حاتم وابن حبان فى صحيحة وابن مردويه من حديث الأزرق بن على حدثنا حسان بن إبراهيم حدثنا خالد بن سعيد المدنى عن أبى حازم عن سهل به. وعند ابن حبان خالد بن سعيد المدنى وقد روى الترمذى والنسائى وابن ماجه من حديث عبد الحميد بن جعفر عن سعيد المقبرى عن عطاء مولى أبى أحمد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال « بعث رسول الله ﷺ بعثا وهم ذوو عدد فاستقرأهم فاستقرأ كل واحد منهم مامعه من القرآن فأتى على رجل من أحدثهم سناً فقال مامعك يافلان فقال معى كذا وكذا وسورة البقرة فقال أمعك سورة البقرة ؟ قال نعم قال : اذهب فأنت أميرهم » فقال رجل من أشرافهم والله مامنعنى أن أتعلم سورة البقرة إلا أنى خشيت أن لاأقوم بها . فقال رسول الله ﷺ « تعلموا القرآن واقرءوه فان مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح ريحه فى كل مكان ومثل من تعلمه فيرقد وهو فى جوفه كمثل جراب أوكى على مسك » هذا لفظ رواية الترمذى ثم قال هذا حديث حسن ثم رواه من حديث الليث عن سعيد عن عطاء مولى أبى أحمد مرسلا فالله أعلم قال البخارى وقال الليث حدثنى يزيد بن الهاد عن محمد بن ابراهيم عن أسيد بن حضير رضى الله عنه قال بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة ـ وفرسه مربوطة عنده ـ إذ جالت الفرس ، فسكت فسكنت ، فقرأ فجالت الفرس ، فسكت فسكنت ثم قرأ فجالت الفرس ، فانصرف ، وكان ابنه يحيى قريباً منها . فأشفق أن تصيبه فلما أخذه رفع رأسه إلى السماء حتى مايراها ، فلما أصبح حدث النبى ﷺ فقال « اقرأ يا ابن حضير » قال قد اشفقت يارسول الله على يحيى وكان منها قريبا فرفعت راسى وانصرفت إليه فرفعت رأسى إلى السماء فاذا مثل الظلة فيها امثال المصابيح فخرجت حتى لاأراها قال « وتدرى ماذاك ؟ » قال لا قال « تلك الملائكة دنت لصوتك ولوقرأت لاصبحت ينظر الناس اليها لاتتوارى منهم » وهكذا رواه الامام العالم ابو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب فضائل القرآن عن عبدالله بن صالح ويحيى بن بكير عن الليث به . وقد روى من وجه آخر عن أسيد بن حضير كما تقدم والله اعلم . وقد وقع نحو من هذا لثابت بن قيس بن شماس رضى الله عنه وذلك فيما رواه ابو عبيد حدثنا عباد بن عباد عن جرير بن حازم عن عمه جرير بن يزيد أن اشياخ اهل المدينة حدثوه «أن رسول الله ﷺ قيل له ألم تر ثابت بن قيس بن شماس لم تزل داره البارحة تزهر مصابيح قال « فلعله قرأ سورة البقرة » قال فسألت ثابتا فقال قرأت سورة البقرة » وهذا إسناد جيد إلا أن فيه إبهاما ثم هو مرسل والله أعلم

﴿ ذكر ما ورد فى فضلها مع آل عمران ﴾

قال الامام أحمد حدثنا أبو نعيم حدثنا بشر بن مهاجر حدثنى عبد الله بن بريدة عن أبيه قال كنت جالسا عند النبى ﷺ فسمعته يقول « تعلموا سورة البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة » قال ثم سكت ساعة ثم قال « تعلموا سورة البقرة و آل عمران فانهما الزهراوان يظلان صاحبهما يوم القيامة كأنهما غمامتان أوغيايتان أو فرقان من طير صواف وإن القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له هل تعرفنى ؟ فيقول : ماأعرفك فيقول أنا صاحبك القرآن الذى أظمأتك فى الهواجر وأسهرت ليلك وإن كل تاجر من وراء تجارته وإنك اليوم من وراء كل تجارة فيعطى الملك بيمينه والخلد بشماله ويوضع على رأسه تاج الوقار ويكسى والداه حلتان لايقوم لهما أهل الدنيا فيقولان بما كسينا هذا فيقال بأخذولد كما القرآن ثم يقال اقرأ واصعد فى درج الجنة وغرفها فهو فى صعود مادام يقرأ هذّا كان أوترتيلا » وروى ابن ماجه من حديث بشر بن المهاجر بعضه وهذا إسناد حسن على شرط مسلم فان بشرا هذا خرج له مسلم ووثقه ابن معين وقال النسائى مابه بأس إلا أن الامام أحمد قال فيه هو منكر الحديث قد اعتبرت أحاديثه فاذا هى تأتى بالعجب وقال البخارى يخالف فى بعض حديثه وقال أبو حاتم

الرازى يكتب حديثه ولايحتج به وقال ابن عدى روى مالا يتابع عليه وقال الدار قطنى ليس بالقوى (قلت) ولكن لبعضه شواهد فمن ذلك حديث أبى أمامة الباهلى قال الامام أحمد حدثنا عبد الملك بن عمر حدثنا هشام عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلام عن أبى أمامة قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « اقرءوا القرآن فانه شافع لأهله يوم القيامة اقرءوا الزهراوين البقرة وآل عمران فانهما يأتيان يوم القيامة كأنها غمامتان أو كأنهما غيايتان أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة ثم قال اقرءوا البقرة فان أخذها بركة وتركها حسرة ولاتستطيعها البطلة وقد رواه مسلم فى الصلاة من حديث معاوية بن سلام عن أخيه زيد بن سلام عن جده أبى سلام ممطور الحبشى عن أبى أمامة صدى بن عجلان الباهلى به . الزهراوان : المنيرتان ، والغياية : ماأظلك من فوقك ، والفرق : القطعة من الشىء ، والصواف المصطفة المتضامة : والبطلة السحرة ، ومعنى لاتستطيعها أى لايمكنهم حفظها وقيل لاتستطيع النفوذ فى قارئها والله أعلم . ومن ذلك حديث النواس بن سمعان قال الامام أحمد حدثنا يزيد بن عبد ربه حدثنا الوليد بن مسلم عن محمد بن مهاجر عن الوليد بن عبد الرحمن الجرشى عن جبير بن نفير قال سمعت النواس بن سمعان الكلابى يقول سمعت رسول الله ﷺ يقول « يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به تقدمهم سورة البقرة وآل عمران » وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال مانسيتهن بعد قال « كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شرق أوكأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما » ورواه مسلم عن إسحاق بن منصور عن يزيد بن عبد ربه به ، والترمذى من حديث الوليد بن عبد الرحمن الجرشى به وقال حسن غريب ، وقال أبو عبيد حدثنا حجاج عن حماد بن سلمة عن عبد الملك بن عمير قال : قال حماد أحسبه عن أبى منيب عن عمه أن رجلا قرأ البقرة وآل عمران فلما قضى صلاته قال له كعب أقرأت البقرة وآل عمران ؟ قال نعم قال فوالذى نفسى بيده إن فيهما اسم الله الذى إذادعى به استجاب . قال فأخبرنى به قال لا والله لاأخبرك به ولو أخبرتك به لأوشكت أن تدعوه بدعوة أهلك فيها أنا وأنت ، وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن سليم بن عامر انه سمع ابا امامة يقول إن أخا لكم ارى فى المنام ان الناس يسلكون فى صدع جبل وعر طويل وعلى راس الجبل شجرتان خضراوان يهتفان هل فيكم قارىء يقرا سورة البقرة ؟ وهل فيكم قارىء يقرا سورة آل عمران ؟ قال فاذا قال الرجل نعم دنتا منه بأعذاقهما حتى يتعلق بهما فيخطران به الجبل : وحدثنا عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح عن ابى عمران انه سمع ام الدرداء تقول إن رجلا ممن قرأ القرآن اغار على جاره فقتله وإنه اقيد به فقتل فمازال القرآن ينسل منه سورة سورة حتى بقيت البقرة وآل عمران جمعة ثم إن آل عمران انسلت منه وأقامت البقرة جمعة فقيل لها (مايبدل القول لدى وما أنا بظلام للعبيد) قال فخرجت كأنها السحابة العظيمة قال أبو عبيد أراه يعنى أنهما كانتا معه فى قبره يدفعان عنه ويؤنسانه فكانتا من آخر مابقى معه من القرآن . وقال أيضاً حدثنا أبومسهر الغسانى عن سعيد بن عبد العزيز التنوخى أن يزيد بن الأسود الجرشى كان يحدث أنه من قرأ البقرة وآل عمران فى يوم برئ من النفاق حتى يمسى ومن قرأهما فى ليلة برئ من النفاق حتى يصبح قال فكان يقرؤهما كل يوم وليلة سوى جزئه . وحدثنا يزيد عن ورقاء ابن إياس عن سعيد بن جبير قال : قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه من قرأ البقرة وآل عمران فى ليلة كان أو كتب من القانتين . فيه انقطاع ولكن ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قرأ بهما فى ركعة واحدة

﴿ ذكر ماورد فى فضل السبع الطول ﴾

قال أبو عبيد حدثنا هشام بن اسماعيل الدمشقى عن محمد بن شعيب عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى المليح عن واثلة بن الأسقع عن النبى ﷺ قال « أعطيت السبع الطول مكان التوراة وأعطيت المئين مكان الانجيل وأعطيت المثانى مكان الزبور وفضلت بالمفصل » هذا حديث غريب وسعيد بن أبى بشير فيه لين وقد رواه أبو عبيد عن عبد الله بن صالح عن الليث عن سعيد بن أبى هلال قال بلغنا أن رسول الله ﷺ قال فذكره والله

أعلم ثم قال حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبى عمرو مولى المطلب بن عبد الله بن حنطب عن حبيب بن هند الأسلمى عن عروة عن عائشة رضى الله عنها عن النبى ﷺ قال « من أخذ السبع فهو حبر » وهذا أيضا غريب وحبيب بن هند بن أسماء بن هند بن حارثة الأسلمى وروى عنه عمرو بن عمرو(١) وعبد الله بن أبى بكرة وذكره أبو حاتم الرازى ولم يذكر فيه جرحا فالله أعلم. وقد رواه الأمام أحمد عن سليمان بن داود وحسين كلاهما عن إسماعيل بن جعفر به ورواه أيضا عن أبى سعيد عن سليمان بن بلال عن حبيب بن هند عن عروة عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر » قال أحمد وحدثنا حسين حدثنا ابن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة عن النبى ﷺ مثله قال عبد الله بن أحمد وهذا أرى فيه عن أبيه عن الأعرج ولكن كذا كان فى الكتاب فلا أدرى أغفله أبى أو(٢) كذا هو مرسل وروى الترمذى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ بعث بعثا وهم ذوو عدد وقدم عليهم أحدثهم سنا لحفظه سورة البقرة وقال له « اذهب فأنت أميرهم » وصححه الترمذى ثم قال أبو عبيد حدثنا هشيم أنا أبو بشر عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى (ولقد آتيناك سبعا من المثانى) قال هى السبع الطول البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس قال : وقال مجاهد هى السبع الطول وهكذا قال مكحول وعطية بن قيس وأبو محمد الفارسى وشداد بن أوس ويحيى بن الحارث الذمارى فى تفسير الآية بذلك وفى تعدادها وأن يونس هى السابعة .

﴿ فصل ﴾ والبقرة جميعها مدنية بلا خلاف وهى من أوائل مانزل بها لكن قوله تعالى فيه (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الآية يقال إنها آخر مانزل من القرآن ويحتمل أن تكون منها وكذلك آيات الربا من آخر مانزل وكان خالد بن معدان يسمى البقرة فسطاط القرآن قال بعض العلماء وهى مشتملة على ألف خبر وألف أمر وألف نهى وقال العادون آياتها مائتان وثمانون وسبع آيات وكلماتها ستة آلاف كلمة ومائتان وإحدى وعشرون كلمة وحروفها خمسة وعشرون ألفا وخمسمائة حرف فالله أعلم . قال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس نزلت بالمدينة سورة البقرة ، وقال خصيف عن مجاهد عن عبد الله بن الزبير قال نزلت بالمدينة سورة البقرة وقال الواقدى حدثنى الضحاك بن عثمان عن أبى الزناد عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه قال نزلت البقرة بالمدينة وهكذا قال غير واحد من الأئمة والعلماء والمفسرين ولا خلاف فيه . وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن معمر حدثنا الحسن بن على بن الوليد الفارسى حدثنا خلف بن هشام وحدثنا عيسى بن ميمون عن موسى بن أنس بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « لاتقولوا سورة البقرة ولا سورة آل عمران ولا سورة النساء وكذا القرآن كله ولكن قولوا السورة التى يذكر فيها البقرة والتى يذكر فيها آل عمران وكذا القرآن كله » هذا حديث غريب لا يصح رفعه وعيسى بن ميمون هذا هو أبو سلمة الخواص وهو ضعيف الرواية لايحتج به وقد ثبت فى الصحيحين عن ابن مسعود أنه رمى الجمرة من بطن الوادى فجعل البيت عن يساره ومنى عن يمينه ثم قال هذا مقام الذى أنزلت عليه سورة البقرة أخرجاه ، وروى ابن مردويه من حديث شعبة عن عقيل بن طلحة عن عتبة بن مرثد قال رأى النبى ﷺ فى أصحابه تأخرا فقال « يا أصحاب سورة البقرة » وأظن هذا كان يوم حنين يوم ولوا مدبرين أمر العباس فناداهم « يا أصحاب الشجرة » يعنى أهل بيعة الرضوان وفى رواية « يا أصحاب سورة البقرة » لينشطهم بذلك فجعلوا يقبلون من كل وجه وكذلك يوم اليمامة مع أصحاب مسيلمة جعل الصحابة يفرون لكثافة جيش بنى حنيفة فجعل المهاجرون والأنصار ينادون يا أصحاب سورة البقرة حتى فتح الله عليهم رضى الله عن أصحاب رسول الله أجمعين

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ الٓمٓ ﴾

قد اختلف المفسرون فى الحروف المقطعة التى فى أوائل السور فمنهم من قال هى مما استأثر الله بعلمه فردوا علمها

(١) كذا والذى تقدم عمرو بن أبى عمرو (٢) هكذا فى جميع النسخ والصواب أم

إلى الله ولم يفسروها حكاه القرطبي فى تفسيره عن أبى بكر وعمر وعثمان وعلى وابن مسعود رضى الله عنهم أجمعين ؛ وقاله عامر الشعبي وسفيان الثورى والربيع بن خيثم واختاره أبو حاتم بن حبان . ومنهم من فسرها واختلف هؤلاء فى معناها فقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم إنما هى أسماء السور . قال العلامة أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى فى تفسيره وعليه إطباق الأكثر ونقله عن سيبويه أنه نص عليه ويعتضد لهذا بما ورد فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقرأ فى صلاة الصبح يوم الجمعة الم السجدة وهل أتى على الإنسان وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال : الم،وحم ، والمص، وص،فواتح افتتح الله بها القرآن ، وكذا قال غيره عن مجاهد وقال مجاهد فى رواية أبى حذيفة موسى بن مسعود عن شبل عن ابن أبى نجيح عنه أنه قال الم اسم من أسماء القرآن وهكذا قال قتادة وزيد بن أسلم ولعل هذا يرجع إلى معنى قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه اسم من أسماء السور فان كل سورة يطلق عليها اسم القرآن فانه يبعد أن يكون المص اسما للقرآن كله لأن المتبادر إلى فهم سامع من يقول قرأت المص إنما ذلك عبارة عن سورة الأعراف لا لمجموع القرآن والله أعلم .

وقيل هى اسم من أسماء الله تعالى فقال الشعبي فواتح السور من أسماء الله تعالى وكذلك قال سالم بن عبد الله وإسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير وقال شعبة عن السدى بلغنى أن ابن عباس قال الم اسم من أسماء الله الأعظم(؟) هكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث شعبة ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدى عن شعبة قال سألت السدى عن حم وطس والم فقال: قال ابن عباس هى اسم الله الأعظم وقال ابن جرير وحدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو النعمان حدثنا شعبة عن إسماعيل السدى عن مرة الهمدانى قال : قال عبد الله فذكر نحوه ، وحكى مثله عن على وابن عباس وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس هو قسم أقسم الله به وهو من أسماء الله تعالى وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث ابن علية عن خالد الحذاء عن عكرمة أنه قال الم قسم . ورويا أيضا من حديث شريك بن عبد الله عن عطاء ابن السائب عن أبى الضحى عن ابن عباس : الم قال أنا الله أعلم . وكذا قال سعيد بن جبير وقال السدى عن أبى مالك

وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ الم قال أما الم فهى حروف استفتحت من حروف هجاء أسماء الله تعالى . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى الم قال هذه الأحرف الثلاثة من التسعة والعشرين حرفا دارت فيها الألسن كلها ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسمائه ، وليس منها حرف إلا وهو من آلائه وبلائه ، وليس منها حرف إلا وهو فى مدة أقوام وآجالهم قال عيسى بن مريم عليه السلام وعجب : فقال أعجب أنهم ينطقون بأسمائه ويعيشون فى رزقه فكيف يكفرون به ، فالألف مفتاح اسم الله واللام مفتاح اسمه لطيف والميم مفتاح اسمه مجيد فالألف آلاء الله واللام لطف الله والميم مجد الله ، والألف سنة واللام ثلاثون سنة والميم أربعون سنة

هذا لفظ ابن أبى حاتم ونحوه رواه ابن جرير ثم شرع يوجه كل واحد من هذه الأقوال ويوفق بينها وأنه لا منافاة بين كل واحد منها وبين الآخر وأن الجمع ممكن فهى أسماء للسور ومن أسماء الله تعالى يفتتح بها السور فكل حرف منها دال على اسم من أسمائه وصفة من صفاته كما افتتح سورا كثيرة بتحميده وتسبيحه وتعظيمه ، قال ولا مانع من دلالة الحرف منها على اسم من أسماء الله وعلى صفة من صفاته وعلى مدة وغير ذلك كما ذكره الربيع بن أنس عن أبى العالية لأن الكلمة الواحدة تطلق على معان كثيرة كلفظة الأمة فانها تطلق ويراد به الدين كقوله تعالى (إنا وجدنا آباءنا على أمة) وتطلق ويراد بها الرجل المطيع لله كقوله تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين) وتطلق ويرادبها الجماعة كقوله تعالى (وجد عليه أمة من الناس يسقون) وقوله تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا) وتطلق ويرادبها الحين من الدهر كقوله تعالى (وقال الذى نجا منهما وادكر بعد أمة) أى بعد حين على أصح القولين قال فكذلك هذا

هذا حاصل كلامه موجها ولكن هذا ليس كما ذكره ابو العالية فان ابا العالية زعم ان الحرف دل على هذا وعلى

هذا وعلى هذا معا ولفظة الأمة وما أشبهها من الألفاظ المشتركة فى الاصطلاح انما دل فى القرآن فى كل موطن على معنى واحد دل عليه سياق الكلام فأما حمله على مجموع محامله اذا أمكن فمسئلة مختلف فيها بين علماء الأصول ليس هذا موضع البحث فيها والله أعلم . ثم ان لفظة الأمة تدل على كل من معانيها فى سياق الكلام بدلالة الوضع فأما دلالة الحرف الواحد على اسم يمكن ان يدل على اسم آخر من غير أن يكون أحدهما أولى من الآخر فى التقدير أو الاضمار بوضع ولا بغيره فهذا مما لا يفهم الا بتوقيف ، والمسئلة مختلف فيها وليس فيها اجماع حتى يحكم به وما أنشدوه من الشواهد على صحة اطلاق الحرف الواحد على بقية الكلمة فان فى السياق ما يدل على ما حذف بخلاف هذا كما قال الشاعر :

قلنا قفى لنا فقالت قاف * لا تحسبى أنا نسينا الايجاف

تعنى وقفت . وقال الآخر : ما للظليم عال كيف لايا * ينقد عنه جلده اذا يا

فقال ابن جرير كأنه أراد أن يقول اذا يفعل كذا وكذا فاكتفى بالياء من يفعل وقال الآخر :

بالخير خيرات وان شراً فا * ولا أريد الشر الا ان تا

يقول وان شرا فشر ولا أريد الشر الا أن تشاء فاكتفى بالفاء والتاء من الكلمتين عن بقيتهما ولكن هذا ظاهر من سياق الكلام والله أعلم .

قال القرطبى وفى الحديث « من أعان على قتل مسلم بشطر كلمة » الحديث قال سفيان هو أن يقول فى اقتل « اق » وقال خصيف عن مجاهد إنه قال فواتح السور كلها (ق وص وحم وطسم والر) وغير ذلك هجاء موضوع وقال بعض أهل العربية هى حروف من حروف المعجم استغنى بذكر ما ذكر منها فى أوائل السور عن ذكر بواقيها التى هى تتمة الثمانية والعشرين حرفا كما يقول القائل ابنى يكتب فى ـ اب ت ث ـ أى فى حروف المعجم الثمانية والعشرين فيستغنى بذكر بعضها عن مجموعها حكاه ابن جرير .

قلت مجموع الحروف المذكورة فى أوائل السور بحذف المكرر منها أربعة عشر حرفا وهى ـ الم صر كه يع طس ح ق ن ـ يجمعها قولك : نص حكيم قاطع له سر . وهى نصف الحروف عددا والمذكور منها أشرف من المتروك (١) وبيان ذلك من صناعة التصريف . قال الزمخشرى وهذه الحروف الأربعة عشر مشتملة على أصناف أجناس الحروف يعنى من المهموسة والمجهورة ، ومن الرخوة والشديدة ، ومن المطبقة والمفتوحة ومن المستعلية والمنخفضة ومن حروف القلقلة . وقد سردها مفصلة ثم قال . فسبحان الذى دقت فى كل شىء حكمته . وهذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكورة منها وقد علمت أن معظم الشىء وجله ينزل منزلة كله ومن ههنا لخص بعضهم فى هذا المقام كلاماً فقال : لاشك أن هذه الحروف لم ينزلها سبحانه وتعالى عبثا ولا سدى ؛ ومن قال من الجهلة ان فى القرآن ماهو تعبد لا معنى له بالكلية فقد أخطأ خطأ كبيرا ، فتعين أن لها معنى فى نفس الأمر فان صح لنا فيها عن المعصوم شىء قلنا به وإلا وقفنا حيث وقفنا وقلنا (آمنا به كل من عند ربنا) ولم يجمع العلماء فيها على شىء معين وإنما اختلفوا فمن ظهر له بعض الأقوال بدليل فعليه اتباعه وإلا فالوقف حتى يتبين . هذا مقام .

المقام الآخر فى الحكمة التى اقتضت إيراد هذه الحروف فى أوائل السور ماهى مع قطع النظر عن معانيها فى أنفسها ، فقال بعضهم إنما ذكرت ليعرف بها أوائل السور حكاه ابن جرير وهذا ضعيف لأن الفصل حاصل بدونها فيما لم تذكر فيه وفيما ذكرت فيه البسملة تلاوة وكتابة وقال آخرون بل ابتدىء بها لتفتح لاستماعها أسماع المشركين إذ تواصوا بالاعراض عن القرآن حتى إذا استمعوا له تلا عليهم المؤلف منه حكاه ابن جرير أيضاً وهو ضعيف أيضاً لأنه لو كان كذلك لكان ذلك فى جميع السور لا يكون فى بعضها بل غالبها ليس كذلك ولو كان كذلك أيضاً لانبغى الابتداء بها فى أوائل الكلام معهم سواء كان افتتاح سورة أو غير ذلك ثم إن هذه السورة والتى تليها أعنى البقرة

---

(١) (قوله أشرف الخ) فيه نظر لأن الجميع كلام الله إلا أن يقال أشرف بمعنى أعظم

وآل عمران مدنيتان ليستا خطابا للمشركين فانتقض ماذكروه بهذه الوجوه . وقال آخرون بل إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بيانا لاعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها ، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين ، وحكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا : وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر ، وإليه ذهب الشيخ الامام العلامة أبو العباس ابن تيمية وشيخنا الحافظ المجتهد أبو الحجاج المزي وحكاه لي عن ابن تيمية .

قال الزمخشري ولم ترد كلها مجموعة في أول القرآن وإنما كررت ليكون أبلغ في التحدي والتبكيت كما كررت قصص كثيرة وكرر التحدي بالصريح في أماكن قال وجاء منها على حرف واحد كقوله — ص ن ق — وحرفين مثل (حم) وثلاثة مثل (الم) وأربعة مثل (المر والمص) وخمسة مثل (كهيعص وحمعسق) لأن أساليب كلامهم على هذا من الكلمات ماهو على حرف وعلى حرفين وعلى ثلاثة وعلى أربعة وعلى خمسة لا أكثر من ذلك (قلت) ولهذا كل سورة افتتحت بالحروف فلا بد أن يذكر فيها الانتصار للقرآن وبيان إعجازه وعظمته وهذا معلوم بالاستقراء وهو الواقع في تسع وعشرين سورة ولهذا يقول تعالى (الم ؛ ذلك الكتاب لاريب فيه) (الم ؛ الله لا إله إلا هو الحي القيوم نزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه) (المص ؛ كتاب أنزل إليك فلا يكن في صدرك حرج منه) (الر ؛ كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور باذن ربهم) (الم ، تنزيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين) (حم ؛ تنزيل من الرحمن الرحيم) (حمعسق ؛ كذلك يوحي إليك وإلى الذين من قبلك الله العزيز الحكيم) وغير ذلك من الآيات الدالة على صحة ماذهب إليه هؤلاء لمن أمعن النظر والله أعلم .

وأما من زعم أنها دالة على معرفة المدد وأنه يستخرج من ذلك أوقات الحوادث والفتن والملاحم فقد ادعى ماليس له ؛ وطار في غير مطاره ، وقد ورد في ذلك حديث ضعيف وهو مع ذلك أدل على بطلان هذا المسلك من التمسك به على صحته وهو مارواه محمد بن اسحاق بن يسار صاحب المغازي حدثني الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس عن جابر ابن عبد الله بن رباب قال مر أبو ياسر بن أخطب في رجال من يهود برسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يتلو فاتحة سورة البقرة (الم . ذلك الكتاب لاريب فيه) فأتى أخاه حيي بن أخطب في رجال من اليهود فقال تعلمون والله لقد سمعت محمداً يتلو فيما أنزل الله تعالى عليه (الم . ذلك الكتاب لا ريب فيه) فقال أنت سمعته قال نعم قال فمشى حيي بن أخطب في أولئك النفر من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا محمد ألم يذكر أنك تتلو فيما أنزل الله عليك (الم . ذلك الكتاب) ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بلى » فقالوا جاءك بهذا جبريل من عند الله ؟ فقال « نعم » قالوا لقد بعث الله قبلك أنبياء مانعلمه بين لنبي منهم مامدة ملكه وما أجل أمته غيرك . فقام حيي بن أخطب وأقبل على من كان معه فقال لهم الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون فهذه إحدى وسبعون سنة أفتدخلون في دين نبي إنما مدة ملكه وأجل أمته إحدى وسبعون سنة ؟ ثم أقبل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا محمد هل مع هذا غيره فقال نعم ، قال ماذاك ؟ قال « المص » قال هذا أثقل وأطول ، الألف واحد واللام ثلاثون والميم أربعون والصاد تسعون فهذه إحدى وثلاثون ومائة سنة . هل مع هذا يا محمد غيره : قال : نعم ، قال ماذاك : قال الر . قال هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والراء مائتان فهذه إحدى وثلاثون ومائتا سنة . فهل مع هذا يا محمد غيره ؟ قال « نعم » قال ماذا قال « المر » قال هذا أثقل وأطول الألف واحدة واللام ثلاثون والميم أربعون والراء مائتان فهذه إحدى وسبعون ومائتان ثم قال : لقد لبس علينا أمرك يا محمد حتى ماندري أقليلا أعطيت أم كثيرا . ثم قال قوموا عنه ، ثم قال أبو ياسر لأخيه حيي بن أخطب ولمن معه من الأحبار مايدريكم لعله قد جمع هذا لمحمد كله إحدى وسبعون واحدى وثلاثون ومائة واحدى وثلاثون ومائتان واحدى وسبعون ومائتان فذلك سبعمائة وأربع سنين : فقالوا لقد تشابه علينا أمره فيزعمون ان هؤلاء الآيات نزلت فيهم (هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب وأخر متشابهات) فهذا الحديث مداره على محمد بن السائب الكلبي وهو ممن لا يحتج بما انفرد به ثم

كان مقتضى هذا المسلك إن كان صحيحا أن يحسب مالكل حرف من الحروف الأربعة عشر التى ذكرناها وذلك يبلغ منه جملة كثيرة وإن حسبت مع التكرر فأطم وأعظم والله أعلم

﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

قال ابن جريج قال ابن عباس ذلك الكتاب أى هذا الكتب وكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير والسدى ومقاتل بن حيان وزيد بن أسلم وابن جريج أن ذلك بمعنى هذا والعرب تعارض بين اسمى الاشارة فيستعملون كلامنهما مكان الآخر وهذا معروف فى كلامهم وقد حكاه البخارى عن معمر بن المثنى عن أبى عبيدة وقال الزمخشرى ذلك إشارة إلى (الم) كما قال تعالى (لا فارض ولا بكر عوان بين ذلك) وقال تعالى (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) وقال (ذلكم الله) وأمثال ذلك مما أشير به إلى ماتقدم ذكره والله أعلم . وقد ذهب بعض المفسرين فيما حكاه القرطبي وغيره أن ذلك إشارة إلى القرآن الذى وعد الرسول ﷺ بانزاله عليه أو التوراة أو الانجيل أو نحو ذلك فى أقوال عشرة وقد ضعف هذا المذهب كثيرون والله أعلم .

والكتاب القرآن ومن قال : إن المراد بذلك الكتاب الاشارة إلى التوراة والانجيل كما حكاه ابن جرير وغيره فقد أبعد النجعة وأغرق فى النزع وتكلف مالا علم له به . والريب الشك قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (لاريب فيه) لاشك فيه وقال أبو الدرداء وابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وأبو مالك ونافع مولى ابن عمر وعطاء وأبو العالية والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان والسدى وقتادة وإسمعيل بن أبى خالد ـ وقال ابن أبى حاتم لا أعلم فى هذا خلافا . وقد يستعمل الريب فى التهمة قال جميل :

بثينة قالت ياجميل أربتنى * فقلت كلانا ياثين مريب

واستعمل أيضا فى الحاجة كما قال بعضهم :

قضينا من تهامة كل ريب * وخيبر ثم أجممنا السيوفا

ومعنى الكلام هنا أن هذا الكتاب هو القرآن لاشك فيه أنه نزل من عند الله كما قال تعالى فى السجدة (ألم تنزيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) وقال بعضهم هذا خبر ومعناه النهى أى لاترتابوا فيه . ومن القراء من يقف على قوله تعالى (لا ريب) ويبتدىء بقوله تعالى (فيه هدى للمتقين) والوقف على قوله تعالى (لاريب فيه) أولى للآية التى ذكرناها ولأنه يصير قوله تعالى (هدى) صفة للقرآن وذلك أبلغ من كون فيه هدى . وهدى يحتمل من حيث العربية أن يكون مرفوعا على النعت ومنصوبا على الحال وخصت الهداية للمتقين كما قال (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لايؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد) (وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلاخسارا) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اختصاص المؤمنين بالنفع بالقرآن لأنه هو فى نفسه هدى ولكن لاينالة إلا الأبرار كما قال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين) وقد قال السدى عن ابى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (هدى للمتقين) يعنى نوراً للمتقين وقال أبو روق عن الضحاك عن ابن عباس قال هدى للمتقين قال هم المؤمنون الذين يتقون الشرك بى ويعملون بطاعتى وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد مولى زيد بن ثابت عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (للمتقين) قال الذين يحذرون من الله عقوبته فى ترك مايعرفون من الهدى ويرجون رحمته فى التصديق بما جاء به وقال سفيان الثورى عن رجل عن الحسن البصرى قوله تعالى للمتقين قال : اتقوا ماحرم الله عليهم وأدوا ماافترض عليهم وقال أبو بكر بن عياش سألنى الأعمش عن المتقين قال فأجبته فقال لى سل عنها الكلبى فسألته فقال الذين يجتنبون كبائر الاثم قال فرجعت الى الأعمش فقال يرى أنه كذلك ولم ينكره . وقال قتادة للمتقين هم الذين نعتهم الله بقوله (الذين يؤمنين بالغيب ويقيمون الصلاة)

الآية والتى بعدها واختيار ابن جرير أن الآية تعم ذلك كله وهو كما قال . وقد روى الترمذى وابن ماجه من رواية أبى عقيل عبد الله بن عقيل عن عبد الله بن يزيد عن ربيعة بن يزيد وعطية بن قيس عن عطية السعدى قال : قال رسول الله ﷺ « لا يبلغ العبد أن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأس به حذراً مما به بأس » ثم قال الترمذى حسن غريب وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن عمران عن إسحق بن سليمان يعنى الرازى عن المغيرة بن مسلم عن ميمون أبى حمزة قال : كنت جالسا عند أبى وائل فدخل علينا رجل يقال له أبو عفيف من أصحاب معاذ فقال له شقيق بن سلمة يا أبا عفيف ألا تحدثنا عن معاذ بن جبل قال بلى سمعته يقول يحبس الناس يوم القيامة فى بقيع واحد فينادى مناد أين المتقون ؟ فيقومون فى كنف من الرحمن لا يحتجب الله منهم ولا يستتر . قلت من المتقون قال قوم اتقوا الشرك وعبادة الأوثان وأخلصوا لله العبادة فيمرون إلى الجنة . ويطلق الهدى ويراد به مايقر فى القلب من الايمان وهذا لا يقدر على خلقه فى قلوب العباد إلا الله عز وجل قال الله تعالى (إنك لا تهدى من أحببت) وقال (ليس عليك هداهم) وقال (من يضلل الله فلا هادى له) وقال (من يهد الله فهو المهتد * ومن يضلل فلن تجد له وليا مرشدا) إلى غير ذلك من الآيات ويطلق ويراد به بيان الحق وتوضيحه والدلالة عليه والارشاد إليه قال الله تعالى (وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم) وقال (إنما أنت منذر ولكل قوم هاد) وقال تعالى (وأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وقال (وهديناه النجدين) على تفسير من قال المراد بهما الخير والشر وهو الأرجح والله أعلم وأصل التقوى التوقى مما يكره لأن أصلها وقوى من الوقاية قال النابغة :

سقط النصيف ولم ترد إسقاطه * فتناولته واتقتنا باليد

وقال الآخر : فألقت قناعا دونه الشمس واتقت * بأحسن موصولين كف ومعصم

وقد قيل إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سأل أبى بن كعب عن التقوى فقال له أما سلكت طريقاً ذا شوك ؟ قال بلى قال فما عملت قال شمرت واجتهدت قال فذلك التقوى . وقد أخذ هذا المعنى ابن المعتز فقال

خل الذنوب صغيرها * وكبيرها ذاك التقى * واصنع كماش فوق أر * ض الشوك يحذر مايرى

لا تحقرن صغيرة * إن الجبال من الحصى

وأنشد أبو الدرداء يوما يريد المرء أن يؤتى مناه * ويأبى الله إلا ما أرادا

يقول المرء فائدتى ومالى * وتقوى الله أفضل ما استفادا

وفى سنن ابن ماجه عن أبى أمامة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ما استفاد المرء بعد تقوى الله خيراً من زوجة صالحة إن نظر إليها سرته ، وإن أمرها أطاعته ، وإن أقسم عليها أبرته وإن غاب عنها نصحته فى نفسها وماله »

﴿ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ ﴾

قال أبو جعفر الرازى عن العلاء بن المسيب بن رافع عن أبى اسحق عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : الايمان التصديق ، وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس رضى الله عنهما يؤمنون يصدقون وقال معمر عن الزهرى : الايمان العمل ، وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس يؤمنون يخشون

قال ابن جرير : والأولى أن يكونوا موصوفين بالايمان بالغيب قولا واعتقاداً وعملا وقد تدخل الخشية لله فى معنى الايمان الذى هو تصديق القول بالعمل ، والايمان كلمة جامعة للايمان بالله وكتبه ورسله وتصديق الاقرار بالفعل (قلت) أما الايمان فى اللغة فيطلق على التصديق المحض وقد يستعمل فى القرآن والمراد به ذلك كما قال تعالى (يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين) وكما قال إخوة يوسف لأبيهم (وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين) وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال كقوله تعالى (إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات) فأما إذا استعمل مطلقاً فالايمان الشرعى المطلوب لا يكون إلا اعتقاداً وقولا وعملا . هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة بل قد حكاه الشافعى وأحمد بن حنبل وأبو عبيدة

وغير واحد إجماعا : أن الايمان قول وعمل يزيد وينقص وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أفردنا الكلام فيها فى أول شرح البخارى ولله الحمد والمنة . ومنهم من فسره بالخشية كقوله تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب) وقوله (من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب) والخشية خلاصة الايمان والعلم كما قال تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) وقال بعضهم يؤمنون بالغيب كما يؤمنون بالشهادة وليسوا كما قال تعالى عن المنافقين (وإذا لقوا الذين آمنو قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزؤن) وقال (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) فعلى هذا يكون قوله بالغيب حالا أى فى حال كونهم غيبا عن الناس

وأما الغيب المراد ههنا فقد اختلفت عبارات السلف فيه وكلها صحيحة ترجع إلى أن الجميع مراد ، قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (يؤمنون بالغيب) قال يؤمنون بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وجنته وناره ولقائه ويؤمنون بالحياة بعد الموت وبالبعث ، فهذا غيب كله . وكذا قال قتادة بن دعامة وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبى ﷺ أما الغيب فإنه غاب عن العباد من أمر الجنة وأمر النار وما ذكر فى القرآن ، وقال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس بالغيب قال بما جاء منه — يعنى من الله تعالى — وقال سفيان الثورى عن عاصم عن زر قال الغيب القرآن وقال عطاء بن أبى رباح من آمن بالله فقد آمن بالغيب وقال إسماعيل بن أبى خالد يؤمنون بالغيب قال بغيب الاسلام وقال زيد بن أسلم الذين يؤمنون بالغيب قال بالقدر فكل هذه متقاربة فى معنى واحد لأن جميع هذه المذكورات من الغيب الذى يجب الايمان به .

وقال سعيد بن منصور حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن عمارة بن عمير عن عبد الرحمن بن يزيد قال كنا عند عبد الله ابن مسعود جلوسا فذكرنا أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم وما سبقونا به فقال عبد الله إن أمر محمد ﷺ كان بينا لمن رآه والذى لا إله غيره ما آمن أحد قط إيمانا أفضل من إيمان بغيب ثم قرأ (الم ، ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين الذين يؤمنون بالغيب — إلى قوله — المفلحون) وهكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طرق عن الأعمش به وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وفى معنى هذا الحديث الذى رواه أحمد حدثنا أبو المغيرة أنا الأوزاعى حدثنى أسد بن عبد الرحمن عن خالد بن دريك عن ابن محيريز قال قلت لأبى جمعة حدثنا حديثا سمعته من رسول الله ﷺ قال نعم أحدثك حديثا جيداً : تغدينا مع رسول الله ﷺ ومعنا أبو عبيدة بن الجراح فقال يارسول الله هل أحد خير منا ؟ أسلمنا معك وجاهدنا معك . قال « نعم قوم من بعدكم يؤمنون بى ولم يرونى » طريق أخرى قال أبو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إسماعيل عن عبد الله بن مسعود حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا معاوية بن صالح عن صالح بن جبير قال قدم علينا أبو جمعة الأنصارى صاحب رسول الله ﷺ ببيت المقدس يصلى فيه ومعنا يومئذ رجاء بن حيوة رضى الله عنه فلما انصرف خرجنا نشيعه فلما أراد الانصراف قال إن لكم جائزة وحقا أحدثكم بحديث سمعته من رسول ﷺ قلنا هات رحمك الله قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعنا معاذ بن جبل عاشر عشرة فقلنا يارسول الله هل من قوم أعظم منا أجرا ؟ آمنا بالله واتبعناك ، قال « مايمنعكم من ذلك ورسول الله بين أظهركم يأتيكم بالوحى من السماء بل قوم بعدكم يأتيهم كتاب من بين لوحين يؤمنون به ويعملون بما فيه أولئك أعظم منكم أجرا » مرتين ثم رواه من حديث ضمرة بن ربيعة عن مرزوق بن نافع عن صالح بن جبير عن أبى جمعة بنحوه وهذا الحديث فيه دلالة على العمل بالوجادة التى اختلف فيها أهل الحديث كما قررته فى أول شرح البخارى لأنه مدحهم على ذلك وذكر أنهم اعظم اجراً من هذه الحيثية لا مطلقا وكذا الحديث الآخر الذى رواه الحسن بن عرفة العبدى حدثنا إسماعيل بن عياش الحمصى عن المغيرة بن قيس التميمى عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده قال قال رسول الله ﷺ « أى الخلق أعجب اليكم إيمانا ؟ » قالوا الملائكة قال « ومالهم لايؤمنون وهم عند ربهم ؟ » قالوا فالنبيون قال « ومالهم لايؤمنون

والوحى ينزل عليهم ؟» قالوا فنحن قال «وما لكم لاتؤمنون وأنا بين أظهركم» قال فقال رسول الله ﷺ «ألا إن أعجب الخلق إلىّ إيمانا لقوم يكونون من بعدكم يجدون صحفافيها كتاب يؤمنون بما فيها » قال أبو حاتم الرازى : المغيرة بن قيس البصرى منكر الحديث (قلت) ولكن قدروى أبو يعلى فى مسنده وابن مردويه فى تفسيره والحاكم فى مستدركه من حديث محمد بن حميد ـ وفيه ضعف ـ عن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله أو نحوه وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه وقد روى نحوه عن أنس بن مالك مرفوعا والله أعلم ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن محمد المسندى حدثنا إسحاق بن إدريس أخبرنى إبراهيم بن جعفر بن محمود بن سلمة الأنصارى أخبرنى جعفر بن محمود عن جدته بديلة بنت أسلم قالت صليت الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة فاستقبلنا مسجد ايلياء فصلينا سجدتين ثم جاءنا من يخبرنا أن رسول الله ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام قال إبراهيم فحدثنى رجال من بنى حارثة أن رسول الله ﷺ حين بلغه ذلك قال « أولئك قوم آمنوا بالغيب » هذا حديث غريب من هذا الوجه

﴿ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

قال ابن عباس ويقيمون الصلاة أى يقيمون الصلاة بفروضها وقال الضحاك عن ابن عباس إقامة الصلاة إتمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع والاقبال عليها فيها ، وقال قتادة إقامة الصلاة المحافظة على مواقيتها ووضوئها وركوعها وسجودها وقال مقاتل بن حيان إقامتها المحافظة على مواقيتها وإسباغ الطهور فيها وتمام ركوعها وسجودها وتلاوة القرآن فيها والتشهد والصلاة على النبى ﷺ فهذا إقامتها .

وقال على بن أبى طلحة وغيره عن ابن عباس (ومما رزقناهم ينفقون) قال زكاة أموالهم ، وقال السدى عن أبى مالك وعن ابى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ (ومما رزقناهم ينفقون) قال نفقة الرجل على أهله وهذا قبل أن تنزل الزكاة وقال جويبر عن الضحاك كانت النفقات قربانا يتقربون بها إلى الله على قدر ميسرتهم وجهدهم حتى نزلت فرائض الصدقات سبع آيات فى سورة براءة مما يذكر فيهن الصدقات هن الناسخات المثبتات وقال قتادة (ومما رزقناهم ينفقون) فأنفقوا مما أعطاكم الله ، هذه الأموال عوار وودائع عندك يابن آدم يوشك أن تفارقها

واختار ابن جرير أن الآية عامة فى الزكاة والنفقات فانه قال وأولى التأويلات وأحقها بصفة القوم أن يكونوا لجميع اللازم لهم فى أموالهم مؤدين ـ زكاة كانت ذلك أونفقة من لزمته نفقته من أهل أو عيال وغيرهم ممن يجب عليهم نفقته بالقرابة والملك وغير ذلك لأن الله تعالى عم وصفهم ومدحهم بذلك وكل من الانفاق والزكاة ممدوح به محمود عليه (قلت) كثيراً ما يقرن الله تعالى بين الصلاة والانفاق من الأموال فان الصلاة حق الله وعبادته وهى مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده والابتهال إليه ودعائه والتوكل عليه ، والانفاق هو من الاحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدى إليهم ، وأولى الناس بذلك القرابات والأهلون والمماليك ، ثم الأجانب فكل من النفقات الواجبة والزكاة المفروضة داخل فى قوله تعالى (ومما رزقناهم ينفقون) ولهذا ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « بنى الاسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت » والأحاديث فى هذا كثيرة وأصل الصلاة فى كلام العرب الدعاء . قال الأعشى

لها حارس لايبرح الدهر بيتها * وإن ذبحت صلى عليها وزمزما

وقال أيضا وقابلها الريح فى دنها * وصلى على دنها وارتسم

أنشدهما ابن جرير مستشهدا على ذلك . وقال الآخر وهو الأعشى أيضا :

تقول بنتى وقد قربت مرتحلا * يارب جنب أبى الأوصاب والوجعا
عليك مثل الذى صليت فاغتمضى * نوما فان لجنب المرء مضطجعا

يقول عليك من الدعاء مثل الذى دعيته لى . وهذا ظاهر ثم استعملت الصلاة فى الشرع فى ذات الركوع والسجود والأفعال المخصوصة فى الأوقات المخصوصة بشروطها المعروفة وصفاتها وأنواعها المشهورة . قال ابن جرير وأرى أن الصلاة سميت صلاة لأن المصلى يتعرض لاستنجاح طلبته من ثواب الله بعمله مع ما يسأل ربه من حاجاته وقيل هى مشتقة من الصلوين إذا تحركا فى الصلاة عند الركوع والسجود وهما عرقان يمتدان من الظهر حتى يكتنفان عجب الذنب ومنه سمى المصلى وهو التالى للسابق فى حلبة الخيل ، وفيه نظر . وقيل هى مشتقة من المصلى وهو الملازمة للشىء من قوله تعالى (لا يصلاها) أى لا يلزمها ويدوم فيها (إلا الأشقى) وقيل مشتقة من تصلية الخشبة فى النار لتقوّم كما أن المصلى يقوّم عوجه بالصلاة (إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) واشتقاقها من الدعاء أصح وأشهر والله أعلم .

وأما الزكاة فسيأتى الكلام عليها فى موضعه إن شاء الله تعالى

﴿ وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴾

قال ابن عباس والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك أى يصدقون بما جئت به من الله وما جاء به من قبلك من المرسلين لا يفرقون بينهم ولا يجحدون ما جاءوهم به من ربهم وبالآخرة هم يوقنون أى بالبعث والقيامة والجنة والنار والحساب والميزان وإنما سميت الآخرة لأنها بعد الدنيا وقد اختلف المفسرون فى الموصوفين هنا ، هل هم الموصوفون بما تقدم من قوله تعالى (الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة ومما رزقناهم ينفقون) ومن هم : على ثلاثة أقوال حكاها ابن جرير أحدها أن الموصوفين أولا هم الموصوفون ثانيا وهم كل مؤمن مؤمنو العرب ومؤمنو أهل الكتاب وغيرهم قاله مجاهد وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة ، والثانى هما واحد وهم مؤمنو أهل الكتاب وعلى هذين تكون الواو عاطفة صفات على صفات كما قال تعالى (سبح اسم ربك الأعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى . فجعله غثاء أحوى) وكما قال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام * وليث الكتيبة فى المزدحم

فعطف الصفات بعضها على بعض والموصوف واحد والثالث أن الموصوفين أولا مؤمنو العرب والموصوفون ثانيا بقوله (والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون) لمؤمنى أهل الكتاب نقله السدى فى تفسيره عن ابن عباس وابن مسعود واناس من الصحابة واختاره ابن جرير رحمه الله ويستشهد لما قال بقوله تعالى (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله) الآية وبقوله تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) وبما ثبت فى الصحيحين من حديث الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين رجل من أهل الكتاب آمن بنبيه وآمن بى ورجل مملوك أدى حق الله وحق مواليه ورجل أدب جاريته فأحسن تأديبها ثم أعتقها وتزوجها» وأما ابن جرير فما استشهد على صحة ماقال إلا بمناسبة وهى ان الله وصف فى أول هذه السورة المؤمنين والكافرين فكما انه صنف الكافرين إلى صنفين كافر ومنافق فكذلك المؤمنون صنفهم إلى صنفين عربى وكتابى (قلت) والظاهر قول مجاهد فيما رواه الثورى عن رجل عن مجاهد ورواه غير واحد عن ابن أبى نجيح عن مجاهد انه قال : أربع آيات من أول سورة البقرة فى نعت المؤمنين وآيتان فى نعت الكافرين وثلاثة عشر فى المنافقين فهذه الآيات الأربع عامات فى كل مؤمن اتصف بها من عربى وعجمى وكتابى من إنسى وجى وليس تصح واحدة من هذه الصفات بدون الأخرى

بل كل واحدة مستلزمة للأخرى وشرط معها فلا يصح الايمان بالغيب وإقام الصلاة والزكاة إلا مع الايمان بما جاء به الرسول الله صلى الله عليه وسلم وما جاء به من قبله من الرسل صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين والايقان بالآخرة كما أن هذا لا يصح إلا بهذاك وقد أمر الله المؤمنين بذلك كما قال (يا أيها الذين آمنوا آمنوا بالله ورسوله والكتاب الذى نزل على رسوله والكتاب الذى أنزل من قبل) الآية وقال تعالى (ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم وقولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم وإلهنا وإلهكم واحد) الآية وقال تعالى (يا أيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم) وقال تعالى (قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل إليكم من ربكم) وأخبر تعالى عن المؤمنين كلهم بذلك فقال تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) وقال تعالى (والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أمر جميع المؤمنين بالايمان بالله ورسله وكتبه لكن لمؤمنى أهل الكتاب خصوصية وذلك انهم يؤمنون بما بأيديهم مفصلا فاذا دخلوا فى الاسلام وآمنوا به مفصلا كان لهم على ذلك الأجر مرتين وأما غيرهم فانما يحصل له الايمان بما تقدم مجملا كما جاء فى الصحيح « إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تكذبوهم ولا تصدقوهم ولكن قولوا آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم » ولكن قد يكون إيمان كثير من العرب بالاسلام الذى بعث به محمد صلى الله عليه وسلم أتم وأكمل وأعم وأشمل من إيمان من دخل منهم فى الاسلام فهم وإن حصل لهم أجران من تلك الحيثية فغيرهم يحصل له من التصديق ما ينيف ثوابه على الأجرين اللذين حصلا لهم والله أعلم .

﴿ أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾

يقول الله تعالى (أولئك) أى المتصفون بما تقدم من الإيمان بالغيب وإقام الصلاة والانفاق من الذى رزقهم الله والايمان بما أنزل إلى الرسول ومن قبله من الرسل والايقان بالدار الآخرة وهو مستلزم الاستعداد لها من الأعمال الصالحة وترك المحرمات (على هدى) أى على نور وبيان وبصيرة من الله تعالى (وأولئك هم المفلحون) أى فى الدنيا والآخرة وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (أولئك على هدى من ربهم) أى على نور من ربهم واستقامة على ما جاءهم به (وأولئك هم المفلحون) أى الذين أدركوا ما طلبوا ونجوا من شر ما منه هربوا وقال ابن جرير وأما معنى قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم) فان معنى ذلك فانهم على نور من ربهم وبرهان واستقامة وسداد بتسديده إياهم وتوفيقه لهم وتأويل قوله تعالى (وأولئك هم المفلحون) أى المنجحون المدركون ما طلبوا عند الله بأعمالهم وإيمانهم بالله وكتبه ورسله من الفوز بالثواب ، والخلود فى الجنات والنجاة مما أعد الله لأعدائه من العقاب . وقد حكى ابن جرير قولا عن بعضهم أنه أعاد اسم الاشارة فى قوله تعالى (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) إلى مؤمنى أهل الكتاب الموصوفين بقوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل إليك) الآية على ما تقدم من الخلاف : وعلى هذا فيجوز أن يكون قوله تعالى (والذين يؤمنون بما أنزل اليك) منقطعا مما قبله وأن يكون مرفوعا على الابتداء وخبره (أولئك هم المفلحون) واختار انه عائد الى جميع من تقدم ذكره من مؤمنى العرب وأهل الكتاب لما رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن اناس من أصحاب رسول الله ﷺ . أما الذين يؤمنون بالغيب فهم المؤمنون من العرب والذين يؤمنون بما أنزل اليك وما أنزل من قبلك هم المؤمنون من أهل الكتاب ثم جمع الفريقين فقال (أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون) وقد تقدم من الترجيح ان ذلك صفة للمؤمنين عامة والاشارة عائدة عليهم والله أعلم .

وقد نقل عن مجاهد وأبى العالية والربيع بن أنس وقتادة رحمهم الله وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان ابن صالح المصرى حدثنا أبى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبيد الله بن المغيرة عن أبى الهيثم واسمه سليمان بن عبد الله عن عبد الله ابن عمرو عن النبى صلى الله عليه وسلم وقيل له يارسول الله انا نقرأ من القرآن فنرجو ونقرأ من القرآن فنكاد أن نيأس

أو كما قال: قال « أفلا أخبركم عن أهل الجنة وأهل النار قالوا بلى يارسول الله قال (الم ذلك الكتاب لاريب فيه هدى للمتقين — إلى قوله تعالى — المفلحون) هؤلاء أهل الجنة قالوا إنا نرجو أن نكون هؤلاء ثم قال (إن الذين كفروا سواء عليهم — إلى قوله — عظيم) هؤلاء أهل النار قالوا لسنا هم يارسول الله . قال : أجل»

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

يقول تعالى (إن الذين كفروا) أى غطوا الحق وستروه وقد كتب الله تعالى عليهم ذلك سواء عليهم إنذارك وعدمه فانهم لايؤمنون بما جئتهم به . كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لايؤمنون ولوجاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) وقال تعالى فى حق المعاندين من أهل الكتاب (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك) الآية أى إن من كتب الله عليه الشقاوة فلا مسعدله ومن أضله فلاهادى له فلا تذهب نفسك عليهم حسرات وبلغهم الرسالة فمن استجاب لك فله الحظ الأوفر ومن تولى فلا تحزن عليهم ولايهمنك ذلك (فانما عليك البلاغ وعلينا الحساب * إنما أنت نذير والله على كل شىء وكيل) وقال على بن ابى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) قال كان رسول الله ﷺ يحرص أن يؤمن جميع الناس ويتابعوه على الهدى فاخبره الله تعالى أنه لا يؤمن إلا من سبق له من الله السعادة فى الذكر الأول ولايضل إلا من سبق له من الله الشقاوة فى الذكر الأول ، وقال محمد بن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (إن الذين كفروا) أى بما أنزل إليك وإن قالوا إنا قد آمنا بما جاءنا قبلك (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) أى إنهم قد كفروا بما عندهم من ذكرك وجحدوا ماأخذ عليهم من الميثاق وقد كفروا بما جاءك وبما عندهم مما جاءهم به غيرك فكيف يسمعون منك إنذارا وتحذيرا وقد كفروا بما عندهم من علمك ،وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية قال نزلت هاتان الآيتان فى قادة الأحزاب وهم الذين قال الله فيهم (الم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا واحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها) والمعنى الذى ذكرناه أولا وهو المروى عن ابن عباس فى رواية على ابن أبى طلحة أظهر ويفسر ببقية الآيات التى فى معناها والله أعلم

وقد ذكر ابن أبى حاتم ههنا حديثا فقال حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عثمان بن صالح المصرى حدثنا ابى حدثنا ابن لهيعة حدثنى عبد الله بن المغيرة عن ابى الهيثم عن عبد الله بن عمرو قال قيل يارسول الله إنا نقرأ من القرآن) فنرجو ونقرأ فنكاد ان نيأس فقال « الااخبركم » ثم قال (إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون) «هؤلاء اهل النار » قالوا لسنا منهم يارسول الله قال« اجل » وقوله تعالى (لايؤمنون) محله من الاعراب انه جملة مؤكدة للتى قبلها (سواء عليهم أأنذرتهم ام لم تنذرهم) اىهم كفار فى كلا الحالين فلهذا اكدذلك بقوله تعالى (لايؤمنون) ويحتمل ان يكون لا يؤمنون خبرا لإن تقديره إن الذين كفروا لا يؤمنون ويكون قوله تعالى (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم) جملة معترضة والله أعلم

﴿ خَتَمَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

قال السدى ختم الله أى طبع الله وقال قتادة فى هذه الآية استحوذ عليهم الشيطان إذ أطاعوه فختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة فهم لايبصرون هدى ولايسمعون ولايفقهون ولا يعقلون وقال ابن جريج قال مجاهد ختم الله على قلوبهم قال الطبع ثبتت الذنوب على القلب فحفت به من كل نواحيه حتى تلتقى عليه فالتقاؤها عليه الطبع والطبع الختم قال ابن جريج الختم على القلب والسمع قال ابن جريج وحدثنى عبدالله بن كثير أنه سمع مجاهدا يقول : الران ايسر من الطبع والطبع أيسر من الاقفال ، والاقفال أشد من ذلك كله وقال الأعمش أرانا مجاهد بيده فقال كانوا يرون أن القلب فى مثل هذه يعنى الكف فاذا أذنب العبد ذنباً ضم منه وقال باصبعه الخنصر هكذا فاذا أذنب

ضم وقال باصبع أخرى فاذا أذنب ضم وقال باصبع أخرى هكذا حتى ضم أصابعه كلها ثم قال يطبع عليه بطابع، وقال مجاهد كانوا يرون أن ذلك الرين ، ورواه ابن جرير عن أبي كريب عن وكيع عن الأعمش عن مجاهد بنحوه ، قال ابن جرير وقال بعضهم إنما معنى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم) إخبار من الله عن تكبرهم وإعراضهم عن الاستماع لما دعوا اليه من الحق كما يقال إن فلانا أصم عن هذا الكلام إذا امتنع من سماعه ورفع نفسه عن تفهمه تكبراً قال وهذا لا يصح لأن الله تعالى قد أخبر أنه هو الذى ختم على قلوبهم وأسماعهم (قلت) وقد أطنب الزمخشرى فى تقرير مارده ابن جرير ههنا وتأول الآية من خمسة أوجه وكلها ضعيفة جدا وماجرأه على ذلك إلا اعتزاله لأن الختم على قلوبهم ومنعها من وصول الحق اليها قبيح عنده يتعالى الله عنه فى اعتقاده ولوفهم قوله تعالى (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) وقوله (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) وما أشبه ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى إنما ختم على قلوبهم وحال بينهم وبين الهدى جزاء وفاقا على تماديهم فى الباطل وتركهم الحق وهذا عدل منه تعالى حسن وليس بقبيح فلو أحاط علما بهذا لما قال ما قال والله أعلم

قال القرطبى وأجمعت الأمة على أن الله عزوجل قد وصف نفسه بالختم والطبع على قلوب الكافرين مجازاة لكفرهم. كما قال (بل طبع الله عليها بكفرهم) وذكر حديث تقليب القلوب « ويامقلب القلوب ثبت قلوبنا على دينك » وذكر حديث حذيفة الذى فى الصحيح عن رسول الله ﷺ قال « تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا فأى قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء وأى قلب انكرها نكت فيه نكتة بيضاء حتى تصير على قلبين على أبيض مثل الصفا فلاتضره فتنة مادامت السموات والأرض ، والآخر أسود مرباد كالكوز مجخيا لايعرف معروفا ولاينكر منكرا » الحديث قال ابن جرير والحق عندى فى ذلك ماصح بنظيره الخبر عن رسول الله ﷺ وهو ماحدثنا به محمد بن بشار حدثنا صفوان بن عيسى حدثنا ابن عجلان عن القعقاع عن أبى صالح عن أبى هريرة رضى الله عنه قال قال رسول ﷺ « إن المؤمن إذا اذنب ذنبا كانت نكتة سوداء فى قلبه فان تاب ونزع واستعتب صقل قلبه وان زاد زادت حتى تعلو قلبه فذلك الران الذى قال الله تعالى (كلا بل ران على قلوبهم ما كان يكسبون) هذا الحديث من هذا الوجه قد رواه الترمذى والنسائى عن قتيبة والليث بن سعد وابن ماجه عن هشام بن عمار عن حاتم بن اسماعيل والوليد بن مسلم ثلاثتهم عن محمد بن عجلان به وقال الترمذى حسن صحيح ثم قال ابن جرير فأخبر رسول الله ﷺ ان الذنوب إذا تتابعت على القلوب اغلقتها وإذا اغلقتها اتاها حينئذ الختم من قبل الله تعالى والطبع فلا يكون للايمان اليها مسلك ، ولا للكفر عنها مخلص فذلك هو الختم والطبع الذى ذكر فى قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) نظير الختم والطبع على ماتدركه الأبصار من الأوعية والظروف التى لايوصل الى مافيها الا بفض ذلك عنها ثم حلها فكذلك لايصل الايمان الى قلوب من وصف الله انه ختم على قلوبهم وعلى سمعهم الا بعد فض خاتمه وحله رباطه عنها

واعلم ان الوقف التام على قوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم) وقوله (وعلى أبصارهم غشاوة) جملة تامة فان الطبع يكون على القلب وعلى السمع ، والغشاوة وهى الغطاء يكون على البصر كما قال السدى فى تفسيره عن ابى مالك وعن ابى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى قوله ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم يقول فلا يعقلون ولا يسمعون يقول وجعل على ابصارهم غشاوة يقول على أعينهم فلا يبصرون وقال ابن جرير حدثنى محمد بن سعد حدثنا ابى حدثنى عمى الحسين بن الحسن عن ابيه عن جده عن ابن عباس ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم والغشاوة على أبصارهم قال وحدثنا القاسم حدثنا الحسين يعنى ابن داود وهو سنيد حدثنى حجاج وهو ابن محمد الأعور حدثنى ابن جريج قال : الختم على القلب والسمع والغشاوة على البصر قال الله تعالى (فان يشإ الله يختم على قلبك) وقال (وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة) قال ابن جرير ومن نصب غشاوة من قوله تعالى وعلى أبصارهم غشاوة يحتمل أنه نصبها باضمار فعل تقديره وجعل على أبصارهم غشاوة ويحتمل

أن يكون نصبها على الاتباع على محل وعلى سمعهم كقوله تعالى (وحور عين) وقول الشاعر :

علفتها تبنا وماء بارداً * حتى شتت همالة عيناها

وقال الآخر : ورأيت زوجك فى الوغى * متقلداً سيفا ورمحا

تقديره وسقيتها ماءباردا ومعتقلا رمحا * لما تقدم وصف المؤمنين فى صدر السورة بأربع آيات ثم عرّف حال الكافرين بهاتين الآيتين شرع تعالى فى بيان حال المنافقين الذين يظهرون الايمان ويبطنون الكفر ولما كان أمرهم يشتبه على كثير من الناس أطنب فى ذكرهم بصفات متعددة كل منها نفاق كما أنزل سورة براءة فيهم وسورة المنافقين فيهم وذكرهم فى سورة النور وغيرها من السور تعريفا لأحوالهم لتجتنب ويجتنب من تلبس بها أيضا فقال تعالى

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ * يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴾

النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر وهو أنواع : اعتقادى ، وهو الذى يخلد صاحبه فى النار وعملى وهو من أكبر الذنوب كما سيأتى تفصيله فى موضعه إن شاء الله تعالى وهذا كما قال ابن جريج المنافق يخالف قوله فعله وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه ، وإنما نزلت صفات المنافقين فى السور المدنية لأن مكة لم يكن فيها نفاق بل كان خلافه من الناس من كان يظهر الكفر مستكرها وهو فى الباطن مؤمن فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وكان بها الأنصار من الأوس والخزرج وكانوا فى جاهليتهم يعبدون الأصنام على طريقة مشركى العرب وبها اليهود من أهل الكتاب على طريقة أسلافهم وكانوا ثلاث قبائل بنو قينقاع حلفاءالخزرج وبنو النضير وبنو قريظة حلفاء الأوس فلما قدم رسول الله ﷺ المدينة وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتى الأوس والخزرج وقل من أسلم من اليهود إلا عبد الله بن سلام رضى الله عنه ولم يكن إذذاك نفاق أيضا لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالى المدينة فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته وأعز الاسلام وأهله قال عبد الله بن أبى ابن سلول وكان رأسا فى المدينة وهو من الخزرج وكان سيد الطائفتين فى الجاهلية وكانوا قد عزموا على أن يملكوه عليهم فجاءهم الخير وأسلموا واشتغلوا عنه فبقى فى نفسه من الاسلام وأهله فلما كانت وقعة بدر قال هذا أمر قد توجه فأظهر الدخول فى الاسلام ودخل معه طوائف ممن هو على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب فمن ثم وجد النفاق فى أهل المدينة ومن حولها من الأعراب فأما المهاجرون فلم يكن فيهم أحدهاجر لأنه لم يكن أحديهاجر مكرها بل يهاجر فيترك ماله وولده وأرضه رغبة فيما عند الله فى الدار الآخرة قال محمد بن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) يعنى المنافقين من الأوس والخزرج ومن كان على أمرهم وكذا فسرها بالمنافقين من الأوس والخزرج أبو العالية والحسن وقتادة والسدى ولهذا نبه الله سبحانه على صفات المنافقين لئلا يغترّ بظاهر أمرهم المؤمنون فيقع بذلك فساد عريض من عدم الاحتراز منهم ومن اعتقاد إيمانهم وهم كفار فى نفس الأمر وهذا من المحذورات الكبار أن يظن بأهل الفجور خير فقال تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين) أى يقولون ذلك قولا ليس وراءه شىء آخر كما قال تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم انك لرسوله) أى إنما يقولون ذلك اذا جاءوك فقط لا فى نفس الأمر ولهذا يؤكدون فى الشهادة بإن واللام التأكيد فى خبرها . أكذبوا أمرهم قالوا آمنا بالله وباليوم الآخر وليس الأمر كذلك كما كذبهم الله فى شهادتهم وفى خبرهم هذا بالنسبة إلى اعتقادهم بقوله تعالى (والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وبقوله (وماهم بمؤمنين)

وقوله تعالى (يخادعون الله والذين آمنوا) أى باظهارهم ما أظهروه من الايمان مع إسرارهم الكفر يعتقدون بجهلهم

أنهم يخدعون الله بذلك وأن ذلك نافعهم عنده وأنه يروج عليه كما قد يروج على بعض المؤمنين كما قال تعالى (يوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون) ولهذا قابلهم على اعتقادهم ذلك بقوله (ومايخادعون إلا أنفسهم ومايشعرون) يقول وما يغرون بصنيعهم هذا ولا يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون بذلك من أنفسهم كما قال تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم) ومن القراء من قرأ (ومايخدعون إلا أنفسهم) وكلا القراءتين ترجع إلى معنى واحد . قال ابن جرير فان قال قائل : كيف يكون المنافق لله وللمؤمنين مخادعا وهو لا يظهر بلسانه خلاف ما هو له معتقد إلا تقية ؟ قيل : لاتمتنع العرب أن تسمى من أعطى بلسانه غير الذى فى ضميره تقية لينجو مما هو له خائف مخادعا فكذلك المنافق سمى مخادعا لله وللمؤمنين باظهاره ما اظهره بلسانه تقية بما يخلص به من القتل والسبي والعذاب العاجل وهو لغير ماأظهره مستبطن وذلك من فعله وإن كان خداعا للمؤمنين فى عاجل الدنيا فهو لنفسه بذلك من فعله خادع ، لأنه يظهر لها بفعله ذلك بها أنه يعطيها أمنيتها ، ويسقيها كأس سرورها ، وهو موردها حياض عطبها ، ومجرعها به كأس عذابها ، ومزيرها من غضب الله وأليم عقابه مالا قبل لها به ، فذلك خديعته نفسه ظنا منه مع إساءتة إليها فى أمر معادها أنه إليها محسن كما قال تعالى (ومايخدعون إلا أنفسهم ومايشعرون) إعلاما منه عباده المؤمنين أن المنافقين بإساءتهم إلى أنفسهم فى إسخاطهم عليها ربهم بكفرهم وشكهم وتكذيبهم غير شاعرين ولا دارين ، ولكنهم على عمى من أمرهم مقيمين . وقال ابن أبى حاتم أنبأنا على بن المبارك فيما كتب إلى حدثنا زيد بن المبارك حدثنا محمد بن ثور عن ابن جريج فى قوله تعالى يخادعون الله قال يظهرون لا إله إلا الله يريدون أن يحرزوا بذلك دماءهم وأموالهم وفى أنفسهم غير ذلك . وقال سعيد عن قتادة (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين * يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون إلا أنفسهم وما يشعرون) نعت المنافق عند كثير : خنع الأخلاق يصدق بلسانه وينكر بقلبه ويخالف بعمله يصبح على حال ويمسى على غيره ويمسى على حال ويصبح على غيره ويتكفأ تكفأ السفينة كلما هبت ريح هبت معها

﴿ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴾

قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب رسول الله ﷺ فى هذه الآية (فى قلوبهم مرض) قال شك فزادهم الله مرضا قال شكا . وقال ابن إسحق عن محمد ابن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قلوبهم مرض قال شك . وكذلك قال مجاهد وعكرمة والحسن البصرى وأبو العالية والربيع بن أنس وقتادة . وعن عكرمة وطاوس فى قلوبهم مرض يعنى الرياء . وقال الضحاك عن ابن عباس فى قلوبهم مرض قال نفاق فزادهم الله مرضا قال نفاقاً وهذا كالأول . وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم فى قلوبهم مرض قال هذا مرض فى الدين وليس مرضا فى الأجساد وهم المنافقون والمرض الشك الذى دخلهم فى الاسلام فزادهم الله مرضا قال زادهم رجسا ، وقرأ (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون * وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم) . قال شرا إلى شرهم وضلالة إلى ضلالتهم ، وهذا الذى قاله عبد الرحمن رحمه الله حسن وهو الجزاء من جنس العمل وكذلك قاله الأولون وهو نظير قوله تعالى أيضا (والذين اهتدوا زادهم هدى وآتاهم تقواهم) وقوله (بما كانوا يكذبون) وقرئ يكذّبون وقد كانوا متصفين بهذا وهذا فانهم كانوا كذبة ويكذبون بالغيب يجمعون بين هذا وهذا . وقد سئل القرطبي وغيره من المفسرين عن حكمة كفه عليه الصلاة والسلام عن قتل المنافقين مع علمه بأعيان بعضهم وذكروا أجوبة عن ذلك منها ما ثبت فى الصحيحين أنه ﷺ قال لعمر رضى الله عنه « أكره أن يتحدث العرب أن محمدا يقتل أصحابه » ومعنى هذا خشية أن يقع بسبب ذلك تغير لكثير من الأعراب عن الدخول فى الاسلام ولا يعلمون حكمة قتله لهم وأن قتله إياهم إنما هو على الكفر فانهم إنما يأخذونه بمجرد ما يظهر لهم فيقولون إن محمداً يقتل أصحابه قال القرطبي وهذا قول علمائنا وغيرهم كما كان يعطى المؤلفة مع علمه

بسوء اعتقادهم . قال ابن عطية وهي طريقة أصحاب مالك نص عليه محمد بن الجهم والقاضي إسماعيل والأبهري وعن ابن الماجشون . ومنها : ما قال مالك إنما كف رسول الله ﷺ عن المنافقين ليبين لأمته أن الحاكم لا يحكم بعلمه قال القرطبي : وقد اتفق العلماء عن بكرة أبيهم على أن القاضي لا يقتل بعلمه وإن اختلفوا في سائر الأحكام قال : ومنها ما قال الشافعي إنما منع رسول الله ﷺ من قتل المنافقين ما كانوا يظهرونه من الإسلام مع العلم بنفاقهم لأن ما يظهرونه يجب ما قبله . ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في الحديث المجمع على صحته في الصحيحين وغيرهما « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل » ومعنى هذا أن من قالها جرت عليه أحكام الإسلام ظاهراً فإن كان يعتقدها وجد ثواب ذلك في الدار الآخرة وإن لم يعتقدها لم ينفعه جريان الحكم عليه في الدنيا وكونه كان خليط أهل الإيمان (ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأماني حتى جاء أمر الله) الآية فهم يخالطونهم في بعض المحشر فإذا حقت الحقوقية تميزوا منهم وتخلفوا بعدهم (وحيل بينهم وبين ما يشتهون) ولم يمكنهم أن يسجدوا معهم كما نطقت بذلك الأحاديث ومنها ما قاله بعضهم أنه إنما لم يقتلهم لأنه كان لا يخاف من شرهم مع وجوده ﷺ بين أظهرهم يتلو عليهم آيات الله مبينات فأما بعده فيقتلون إذا أظهروا النفاق وعلمه المسلمون قال مالك : المنافق في عهد رسول الله ﷺ هو الزنديق اليوم (قلت) وقد اختلف العلماء في قتل الزنديق إذا أظهر الكفر هل يستتاب أم لا أو يفرق بين أن يكون داعية أم لا أو يتكرر منه ارتداده أم لا أو يكون إسلامه ورجوعه من تلقاء نفسه او بعد أن ظهر عليه ؟ على اقوال متعددة موضع بسطها وتقريرها وعزوها كتاب الأحكام

﴿ تنبيه ﴾ قول من قال كان عليه الصلاة والسلام يعلم أعيان بعض المنافقين إنما مستنده حديث حذيفة بن اليمان في تسمية أولئك الأربعة عشر منافقا في غزوة تبوك الذين هموا أن يفتكوا برسول الله ﷺ في ظلماء الليل عند عقبة هناك عزموا على أن ينفروا به الناقة ليسقط عنها فأوحى الله اليه أمرهم فاطلع على ذلك حذيفة ولعل الكف عن قتلهم كان لمدرك من هذه المدارك أو لغيرها والله أعلم

فأما غير هؤلاء فقد قال الله تعالى (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) الآية وقال تعالى : (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) ففيها دليل على أنه لم يغربهم ولم يدرك على أعيانهم وإنما كان تذكر له صفاتهم فيتوسمها في بعضهم كما قال تعالى (ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم * ولتعرفنهم في لحن القول) وقد كان من أشهرهم بالنفاق عبدالله بن أبي ابن سلول وقد شهد عليه زيد بن أرقم بذلك الكلام الذي سبق في صفات المنافقين ومع هذا لما مات ﷺ وشهد دفنه كما يفعل ببقية المسلمين وقد عاتبه عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيه فقال « إني أكره أن تتحدث العرب أن محمداً يقتل أصحابه » رواية في الصحيح « إني خيرت فاخترت » وفي رواية « لو أعلم اني لو زدت على السبعين يغفر له لزدت »

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ * أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴾

قال السدي في تفسيره عن ابي مالك وعن ابي صالح عن ابن عباس وعن مرة الطيب الهمداني عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبي ﷺ (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) قال هم المنافقون أما لا تفسدوا في الأرض قال الفساد هو الكفر والعمل بالمعصية وقال ابو جعفر عن الربيع بن انس عن ابي العالية في قوله تعالى (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض) قال يعني لا تعصوا في الأرض وكان فسادهم ذلك معصية الله لأنه من عصى الله في الأرض او امر بمعصيته فقد افسد في الأرض لأن صلاح الأرض والسماء بالطاعة وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وقال ابن جريج عن مجاهد (وإذا قيل لهم لا تفسدوا

فى الأرض) قال إذا ركبوا معصية الله فقيل لهم لاتفعلوا كذا وكذا قالوا إنما نحن على الهدى مصلحون وقال وكيع وعيسى بن يونس وعثام بن على عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عباد بن عبد الله الأسدى عن سلمان الفارسى وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون قال سلمان لم يجىء أهل هذه الآية بعد وقال ابن جرير حدثنى أحمد بن عثمان بن حكيم حدثنا عبد الرحمن بن شريك حدثنى أبى عن الأعمش عن زيد بن وهب وغيره عن سلمان الفارسى فى هذه الآيه قال ماجاء هؤلاء قال ابن جرير يحتمل أن سلمان رضى الله عنه أراد بهذا أن الذين يأتون بهذه الصفة أعظم فسادا من الذين كانوا فى زمن النبى ﷺ لا أنه عنى أنه لم يمض ممن تلك صفته أحد قال ابن جرير فأهل النفاق مفسدون فى الأرض بمعصيتهم فيها ربهم وركوبهم فيها مانهاهم عن ركوبه وتضييعهم فرائضه وشكهم فى دينه الذى لايقبل من أحد عمل إلا بالتصديق به والإيقان بحقيقته وكذبهم المؤمنين بدعواهم غير ماهم عليه مقيمون من الشك والريب ومظاهرتهم أهل التكذيب بالله وكتبه ورسله على أولياء الله إذا وجدوا إلى ذلك سبيلا ، فذلك إفساد المنافقين فى الأرض ، وهم يحسبون أنهم بفعلهم ذلك مصلحون فيها . وهذا الذى قاله حسن فان من الفساد فى الأرض اتخاذ المؤمنين الكافرين أولياء كما قال تعالى (والذين كفروا بعضهم أولياء بعض إلاتفعلوه تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير) فقطع الله الموالاة بين المؤمنين والكافرين كما قال تعالى (ياأيها الذين آمنوا لا تتخذوا الكافرين أولياء من دون المؤمنين أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطانا مبيناً) ثم قال (إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا) فالمنافق لما كان ظاهره الإيمان اشتبه أمره على المؤمنين فكأن الفساد من جهة المنافق حاصل لأنه هو الذى غر المؤمنين بقوله الذى لاحقيقة له ووالى الكافرين على المؤمنين ولو أنه استمر على حاله الأول لكان شره أخف ولو أخلص العمل لله وتطابق قوله وعمله لأفلح وأنجح ولهذا قال تعالى (وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الارض قالوا إنما نحن مصلحون) أى نريد أن ندارى الفريقين من المؤمنين والكافرين ونصطلح مع هؤلاء وهؤلاء كما قال محمد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس وإذا قيل لهم لاتفسدوا فى الأرض قالوا إنما نحن مصلحون أى إنما نريد الاصلاح بين الفريقين من المؤمنين وأهل الكتاب يقول الله (ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون) يقول ألا إن هذا الذى يعتمدونه ويزعمون أنه إصلاح هو عين الفساد ولكن من جهلهم لايشعرون بكونه فسادا

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى وإذا قيل للمنافقين آمنوا كما آمن الناس أى كايمان الناس بالله وملائكته وكتبه ورسله والبعث بعد الموت والجنة والنار وغير ذلك مما أخبر المؤمنين به وعنه ، وأطيعوا الله ورسوله فى امتثال الأوامر وترك الزواجر (قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء) يعنون ـ لعنهم الله ـ أصحاب رسول الله ﷺ رضى الله عنهم قاله أبو العالية والسدى فى تفسيره بسنده عن ابن عباس وابن مسعود وغير واحد من الصحابة وبه يقول الربيع بن أنس وعبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وغيرهم يقولون أنصير نحن وهؤلاء بمنزلة واحدة وعلى طريقة واحدة وهم سفهاء ؟ والسفهاء جمع سفيه لأن الحكماء جمع حكيم والحلماء جمع حليم ، والسفيه هو الجاهل الضعيف الرأى القليل المعرفة بمواضع المصالح والمضار ولهذا سمى الله النساء والصبيان سفهاء فى قوله تعالى (ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياما) قال عامة علماء التفسير هم النساء والصبيان وقد تولى الله سبحانه جوابهم فى هذه المواطن كلها فقال (ألا إنهم هم السفهاء) فأكد وحصر السفاهة فيهم (ولكن لا يعلمون) يعنى ومن تمام جهلهم أنهم لا يعلمون بحالهم فى الضلالة والجهل وذلك أردى لهم وأبلغ فى العمى والبعد عن الهدى

﴿ وَإِذَا لَقُوا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوٓا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ * ٱللَّهُ

يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾

يقول تعالى وإذا لقى هؤلاء المنافقون المؤمنين قالوا : آمنا وأظهروا لهم الإيمان والموالاة والمصافات غروراً منهم للمؤمنين ونفاقا ومصانعة وتقية وليشركوهم فيما أصابوا من خير ومغنم (وإذا خلوا إلى شياطينهم) يعنى إذا انصرفوا وذهبوا وخلصوا إلى شياطينهم فضمن خلوا معنى انصرفوا لتعديته بإلى ليدل على الفعل المضمر والفعل الملفوظ به ومنهم من قال « إلى » هنا بمعنى « مع » والأول أحسن وعليه يدور كلام ابن جرير . وقال السدى عن أبى مالك خلوا يعنى مضوا وشياطينهم سادتهم وكبراؤهم ورؤساؤهم من أحبار اليهود ورءوس المشركين والمنافقين . قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي ﷺ (وإذا خلوا إلى شياطينهم) يعنى هم رؤساءهم فى الكفر . وقال الضحاك عن ابن عباس وإذا خلوا إلى أصحابهم وهم شياطينهم : وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإذا خلوا إلى شياطينهم) من يهود الذين يأمرونهم بالتكذيب وخلاف ما جاء به الرسول ﷺ وقال مجاهد : (وإذا خلوا إلى شياطينهم) إلى أصحابهم من المنافقين والمشركين وقال قتادة (وإذا خلوا إلى شياطينهم) قال إلى رءوسهم وقادتهم فى الشرك والشر وبنحو ذلك فسره أبو مالك وأبو العالية والسدى والربيع بن أنس . قال ابن جرير وشياطين كل شيء مردته ويكون الشيطان من الانس والجن كما قال تعالى (وكذلك جعلنا لكل نبيّ عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا) وفى المسند عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعوذ بالله من شياطين الإنس والجن » فقلت يارسول الله أو للانس شياطين ؟ قال « نعم » وقوله تعالى (قالوا إنا معكم) قال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أى إنا على مثل ما أنتم عليه (إنما نحن مستهزئون) أى إنما نحن نستهزئ بالقوم ونلعب بهم . وقال الضحاك عن ابن عباس قالوا إنما نحن مستهزئون ساخرون بأصحاب محمد ﷺ ، وكذلك قال الربيع بن أنس وقتادة . وقوله تعالى جواباً لهم ومقابلة على صنيعهم (الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) وقال ابن جرير أخبر تعالى أنه فاعل بهم ذلك يوم القيامة فى قوله تعالى (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب) الآية وقوله تعالى (ولا يحسبن الذين كفروا أنما نملى لهم خير لأنفسهم إنما نملى لهم ليزدادوا إثما) الآية قال فهذا وما أشبهه من استهزاء الله تعالى ذكره وسخريته ومكره وخديعته للمنافقين وأهل الشرك به عند قائل هذا القول ومتأول هذا التأويل — قال : وقال آخرون بل استهزاؤه بهم توبيخه إياهم ولومه لهم على ما ركبوا من معاصيه والكفر به. قال: وقال آخرون هذا وأمثاله على سبيل الجواب كقول الرجل لمن يخدعه اذا ظفر به أنا الذى خدعتك . ولم يكن منه خديعة ولكن قال ذلك اذا صار الأمر اليه قالوا وكذلك قوله تعالى (ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين) و (الله يستهزئ بهم) على الجواب والله لا يكون منه المكر ولا الهزء . والمعنى أن المكر والهزء حاق بهم — وقال آخرون قوله تعالى (إنما نحن مستهزئون * الله يستهزئ بهم) وقوله (يخادعون الله وهو خادعهم) وقوله (فيسخرون منهم سخر الله منهم) و (نسوا الله فنسيهم) وما أشبه ذلك إخبار من الله تعالى أنه مجازيهم جزاء الاستهزاء ومعاقبهم عقوبة الخداع فأخرج خبره عن جزائه إياهم وعقابه لهم مخرج خبره عن فعلهم الذى عليه استحقوا العقاب فى اللفظ وان اختلف المعنيان كما قال تعالى (وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله) وقوله تعالى (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه) فالأول ظلم والثانى عدل فهما وان اتفق لفظهما فقد اختلف معناهما قال والى هذا المعنى وجهوا كل ما فى القرآن من نظائر ذلك . قال: وقال آخرون ان معنى ذلك أن الله أخبر عن المنافقين أنهم اذا خلوا الى مردتهم قالوا انا معكم على دينكم فى تكذيب محمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به ، وانما نحن بما نظهر لهم من

قولنا لهم مستهزئون ، فأخبر تعالى أنه يستهزئ بهم فيظهر لهم من أحكامه فى الدنيا يعنى من عصمة دمائهم وأموالهم خلاف الذى لهم عنده فى الآخرة يعنى من العذاب والنكال . ثم شرع ابن جرير يوجه هذا القول وينصره لأن المكر والخداع والسخرية على وجه اللعب والعبث منتف عن الله عز وجل بالاجماع وأما على وجه الانتقام والمقابلة بالعدل والمجازاة فلايمتنع ذلك . قال وبنحو ماقلنا فيه روى الخبر عن ابن عباس حدثنا أبو كريب حدثنا أبو عثمان حدثنا بشر عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (الله يستهزئ بهم) قال يسخر بهم للنقمة منهم وقوله تعالى (ويمدهم فى طغيانهم يعمهون) قال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ : يمدهم يملى لهم وقال مجاهد ، يزيدهم وقال تعالى (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات ؟ بل لايشعرون) وقال (سنستدرجهم من حيث لايعلمون) قال بعضهم كلما أحدثوا ذنبا أحدث لهم نعمة وهى فى الحقيقة نقمة وقال تعالى (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فاذاهم مبلسون * فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) قال ابن جرير والصواب نزيدهم على وجه الاملاء والترك لهم فى عتوهم وتمردهم كما قال تعالى (ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم فى طغيانهم يعمهون) والطيغان هو المجاوزة فى الشىء كماقال تعالى(انا لما طغى الماء حملناكم فى الجارية) وقال الضحاك عن ابن عباس فى طغيانهم يعمهون فى كفرهم يترددون وكذا فسره السدى بسنده عن الصحابة وبه يقول أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس ومجاهد وأبومالك وعبدالرحمن بن زيد فى كفرهم وضلالتهم . قال ابن جرير والعمه الضلال يقال عمه فلان يعمه عمها وعموها اذا ضل قال وقوله فى طغيانهم يعمهون فى ضلالتهم . وكفرهم الذى غمرهم دنسه وعلاهم رجسه يترددون حيارى ضلالا لايجدون الى المخرج منه سبيلا لأن الله قد طبع على قلوبهم وختم عليها وأعمى أبصارهم عن الهدى وأغشاها فلايبصرون رشدا ولايهتدون سبيلا . وقال بعضهم العمى فى العين والعمه فى القلب وقد يستعمل العمى فى القلب أيضا قال الله تعالى (فانها لاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) وتقول عمه الرجل يعمه عموها فهو عمه وعامه وجمعه عمه وذهبت إبله العمهاء اذا لم يدر أين ذهبت .

﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَتْ تِّجَارَتُهُمْ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ ﴾

قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) قال أخذوا الضلالة وتركوا الهدى وقال ابن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى الكفر بالايمان وقال مجاهد آمنوا ثم كفروا وقال قتادة : استحبوا الضلالة على الهدى. وهذا الذى قاله قتادة يشبهه فى المعنى قوله تعالى فى ثمود (فأما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى) وحاصل قول المفسرين فيما تقدم أن المنافقين عدلوا عن الهدى الى الضلال واعتاضوا عن الهدى بالضلالة وهو معنى قوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى بذلوا الهدى ثمنا للضلالة وسواء فى ذلك من كان منهم قد حصل له الايمان ثم رجع عنه الى الكفر كماقال تعالى فيهم (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم) أو أنهم استحبوا الضلالة على الهدى كما يكون حال فريق آخر منهم فانهم أنواع وأقسام ولهذا قال تعالى (فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين) أى ما ربحت صفقتهم فى هذه البيعة وما كانوا مهتدين أى راشدين فى صنيعهم ذلك وقال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة(فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين)قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى إلى الضلالة ومن الجماعة إلى الفرقة ومن الأمن الى الخوف ومن السنة الى البدعة وهكذا رواه ابن أبى حاتم من حديث يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة بمثله سواء .

﴿ مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَّا يُبْصِرُونَ

﴿ صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴾

يقال مثل ومثل ومثيل أيضا والجمع أمثال قال الله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون) وتقدير هذا المثل أن الله سبحانه شبههم فى اشترائهم الضلالة بالهدى ، وصيرورتهم بعد البصيرة إلى العمى ، بمن استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله وانتفع بها وأبصر بها ماعن يمينه وشماله وتأنس بها فبينا هو كذلك إذ طفئت ناره وصار فى ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدى وهومع هذا فهو أصم لايسمع أبكم لاينطق أعمى لوكان ضياء لما أبصر ، فلهذا لايرجع إلى ماكان عليه قبل ذلك فكذلك هؤلاء المنافقون فى استبدا لهم الضلالة عوضا عن الهدى واستحبابهم الغى على الرشد وفى هذا المثل دلالة على أنهم آمنوا ثم كفروا كما أخبر تعالى عنهم فى غير هذا الموضع والله أعلم

وقد حكى هذا الذى قلناه الرازى فى تفسيره عن السدى ثم قال والتشبيه ههنا فى غاية الصحة لأنهم بإيمانهم اكتسبوا أولا نورا ثم بنفاقهم ثانيا أبطلوا ذلك فوقعوا فى حيرة عظيمة فانه لا حيرة أعظم من حيرة الدين

وزعم ابن جرير أن المضروب لهم المثل ههنا لم يؤمنوا فى وقت من الأوقات واحتج بقوله تعالى (ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الاخر وماهم بمؤمنين) والصواب أن هذا إخبار عنهم فى حال نفاقهم وكفرهم وهذا لاينفى أنه كان حصل لهم إيمان قبل ذلك ثم سلبوه وطبع على قلوبهم ولم يستحضر ابن جرير هذه الآية ههنا وهى قوله تعالى (ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لايفقهون) فلهذا وجه هذا المثل بأنهم استضاءوا بما أظهروه من كلمة الايمان أى فى الدنيا ثم أعقبهم ظلمات يوم القيامة قال وضح ضرب مثل الجماعة بالواحد كما قال (رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت) أى كدوران الذى يغشى عليه من الموت وقال تعالى (ماخلقكم ولا بعثكم إلا كنفس واحدة) وقال تعالى (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا) وقال بعضهم تقدير الكلام مثل قصتهم كقصة الذين استوقدوا نارا ، وقال بعضهم المستوقد واحد لجماعة معه وقال آخرون الذى ههنا بمعنى الذين كما قال الشاعر

وإن الذى حانت بفلج دماؤهم * هم القوم كل القوم يا أم خالد

قلت وقد التفت فى أثناء المثل من الواحد إلى الجمع فى قوله تعالى (فلما أضاءت ماحوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون . صم بكم عمى فهم لايرجعون) وهذا أفصح فى الكلام وأبلغ فى النظام وقوله تعالى (ذهب الله بنورهم) أى ذهب عنهم بما ينفعهم وهو النور وأبقى لهم مايضرهم وهو الاحراق والدخان (وتركهم فى ظلمات) وهوماهم فيه من الشك والكفر والنفاق (لا يبصرون) لايهتدون إلى سبيل خير ولايعرفونها وهم مع ذلك (صم) لايسمعون خيراً (بكم) لايتكلمون بما ينفعهم (عمى) فى ضلالة وعماية البصيرة كماقال تعالى (فانهالاتعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) فلهذا لايرجعون إلى ماكانوا عليه من الهداية التى باعوها بالضلالة

﴿ذكر أقوال المفسرين من السلف بنحو ماذكرناه﴾

قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمدانى عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة فى قوله تعالى (فلما أضاءت ماحوله) زعم أن ناسا دخلوا فى الاسلام مقدم نبى الله ﷺ المدينة ثم إنهم نافقوا وكان مثلهم كمثل رجل كان فى ظلمة فأوقد نارا فلما أضاءت ماحوله من قذى أو أذى فأبصره حتى عرف مايتقى منه فبينما هو كذلك إذ طفئت ناره فأقبل لايدرى مايتقى من أذى فذلك المنافق كان فى ظلمة الشرك فأسلم فعرف الحلال والحرام والخير والشر فبينما هو كذلك إذ كفر فصار لايعرف الحلال من الحرام ولا الخير من الشر . وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية قال: أما النور فهو إيمانهم الذى كانوا يتكلمون به وأما الظلمة فهى ضلالتهم وكفرهم الذى كانوا يتكلمون به وهم قوم كانوا على هدى ثم نزع منهم فعتوا بعد ذلك . وقال مجاهد : (فلما أضاءت ماحوله) أما إضاءة النار فإقبالهم إلى المؤمنين والهدى وقال عطاء الخراسانى فى قوله تعالى (مثلهم كمثل

الذى استوقد نارا) قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب . وقال ابن أبى حاتم . وروى عن عكرمة والحسن والسدى والربيع بن أنس نحو قول عطاء الخراسانى وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) قال هذا مثل المنافق يبصر أحيانا ويعرف أحيانا ثم يدركه عمى القلب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) إلى آخر الآية . قال هذه صفة المنافقين كانوا قد آمنوا حتى أضاء الايمان فى قلوبهم كما أضاءت النار لهؤلاء الذين استوقدوا نارا ثم كفروا فذهب الله بنورهم فانتزعه كما ذهب بضوء هذه النار فتركهم فى ظلمات لايبصرون ، وأما قول ابن جرير فيشبه مارواه على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقدنارا) قال هذا مثل ضربه الله للمنافقين أنهم كانوا يعتزون بالاسلام فيناكحهم المسلمون ويوارثونهم ويقاسمونهم الفيء فلما ماتوا سلبهم الله ذلك العز كما سلب صاحب النار ضوءه وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (مثلهم كمثل الذى استوقدنارا) فانما ضوء النار ما أوقدتها فاذا خمدت ذهب نورها وكذلك المنافق كلما تكلم بكلمة الاخلاص بلا إله إلا الله أضاء له فاذا شك وقع فى الظلمة وقال الضحاك (ذهب الله بنورهم) أما نورهم فهو إيمانهم الذى تكلموا به وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ماحوله) فهى لا إله إلا الله أضاءت لهم فأكلوا بها وشربوا وآمنوا فى الدنيا وأنكحوا النساء وحقنوا دماءهم حتى إذا ماتوا ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لايبصرون وقال سعيد عن قتادة فى هذه الآية إن المعنى أن المنافق تكلم بلا إله الا الله فأضاءت له فى الدنيا فناكح بها المسلمين وغازاهم بها ووارثهم بها وحقن بها دمه وماله فلما كان عند الموت سلبها المنافق لأنه لم يكن لها أصل فى قلبه ولاحقيقة فى عمله (وتركهم فى ظلمات لايبصرون) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وتركهم فى ظلمات لايبصرون) يقول فى عذاب إذا ماتوا ، وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس (وتركهم فى ظلمات) أى يبصرون الحق ويقولون به حتى إذا خرجوا من ظلمة الكفر أطفأوه بكفرهم ونفاقهم فيه فتركهم فى ظلمات الكفر فهم لايبصرون هدى ، ولايستقيمون على حق ، وقال السدى فى تفسيره بسنده (وتركهم فى ظلمات) فكانت الظلمة نفاقهم وقال الحسن البصرى وتركهم فى ظلمات لا يبصرون فذلك حين يموت المنافق فيظلم عليه عمله عمل السوء فلايجد له عملا من خير عمل به يصدق به قول لا إله إلا الله (صم بكم عمى) قال السدى بسنده صم بكم عمى فهم خرس عمى ، وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (صم بكم عمى) يقول لا يسمعون الهدى ولا يبصرونه ؛ ولا يعقلونه وكذا قال أبو العالية وقتادة بن دعامة (فهم لايرجعون) قال ابن عباس أى لايرجعون إلى هدى ، وكذا قال الربيع بن أنس : وقال السدى بسنده (صم بكم عمى فهم لايرجعون) إلى الاسلام . وقال قتادة فهم لايرجعون أى لايتوبون ولاهم يذكرون

﴿ أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ * يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾

هذا مثل آخر ضربه الله تعالى لضرب آخر من المنافقين وهم قوم يظهر لهم الحق تارة ويشكون تارة أخرى فقلوبهم فى حال شكهم وكفرهم وترددهم (كصيب) والصيب المطر قاله ابن مسعود وابن عباس وناس من الصحابة وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن البصرى وقتادة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى والسدى والربيع بن أنس وقال الضحاك هو السحاب والأشهر هو المطر نزل من السماء فى حال ظلمات وهى الشكوك والكفر والنفاق ورعد وهو مايزعج القلوب من الخوف فان من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع كما قال تعالى (يحسبون كل صيحة عليهم) وقال (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وماهم منكم ولكنهم قوم يفرقون * لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه

وهم يجمحون) (والبرق) هو مايلمع فى قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين فى بعض الأحيان من نور الايمان ولهذا قال (يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) أى ولا يجدى عنهم حذرهم شيئاً لأن الله محيط بقدرته وهم تحت مشيئته وإرادته كما قال (هل أتاك حديث الجنود فرعون وثمود بل الذين كفروا فى تكذيب والله من ورائهم محيط) بهم ثم قال (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى لشدته وقوته فى نفسه وضعف بصائرهم وعدم ثباتها للايمان وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (يكاد البرق يخطف أبصارهم) يقول يكاد محكم القرآن يدل على عورات المنافقين وقال ابن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (يكاد البرق يخطف أبصارهم) أى لشدة ضوء الحق كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا أى كلما ظهر لهم من الايمان شىء استأنسوا به واتبعوه وتارة تعرض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كلما أضاء لهم مشوا فيه يقول كلما أصاب المنافقين من عز الاسلام اطمأنوا اليه واذا أصاب الاسلام نكبة قاموا ليرجعوا الى الكفر كقوله تعالى (ومن الناس من يعبد الله على حرف فان أصابه خير اطمأن به) وقال محمد ابن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس (كلما أضاء لهم مشوا فيه واذا اظلم عليهم قاموا) أى يعرفون الحق ويتكلمون به فهم من قولهم به على استقامة فاذا ارتكسوا منه الى الكفر قاموا أى متحيرين وهكذا قال أبو العالية والحسن البصرى وقتادة والربيع بن أنس والسدى بسنده عن الصحابة وهو أصح وأظهر والله أعلم ، وهكذا يكونون يوم القيامة عند ما يعطى الناس النور بحسب إيمانهم فمنهم من يعطى من النور ما يضىء له مسيرة فراسخ وأكثر من ذلك وأقل من ذلك ، ومنهم من يطفأ نوره تارة ويضىء أخرى ، ومنهم من يمشى على الصراط تارة ويقف أخرى ، ومنهم من يطفأ نوره بالكلية وهم الخلص من المنافقين الذين قال تعالى فيهم (يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا) وقال فى حق المؤمنين (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية وقال تعالى (يوم لايخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير)

﴿ ذكر الحديث الوارد فى ذلك ﴾

قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة فى قوله تعالى (يوم ترى المؤمنين والمؤمنات) الآية ذكر لنا أن نبى الله ﷺ كان يقول من المؤمنين من يضىء نوره من المدينة الى عدن أبين بصنعاء ودون ذلك حتى إن من المؤمنين من لا يضىء نوره إلا موضع قدميه رواه ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث عمران بن داود القطان عن قتادة بنحوه وهذا كما قال المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبدالله بن مسعود قال يؤتون نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يؤتى نوره كالنخلة ومنهم من يؤتى نوره كالرجل القائم وأدناهم نوراً على إبهامه يطفأ مرة ويتقد مرة وهكذا رواه ابن جرير عن ابن مثنى عن ابن ادريس عن أبيه عن المنهال وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن على بن محمد الطنافسى حدثنا ابن إدريس سمعت أبى يذكر عن المنهال بن عمرو عن قيس بن السكن عن عبد الله بن مسعود (نورهم يسعى بين أيديهم) قال على قدر أعمالهم يمرون على الصراط منهم من نوره مثل الجبل ومنهم من نوره مثل النخلة وأدناهم نوراً من نوره فى إبهامه يتقد مرة ويطفأ أخرى ، وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا محمد بن اسماعيل الأحمسى حدثنا أبو يحيى الحمانى حدثنا عقبة بن اليقظان عن عكرمة عن ابن عباس قال ليس أحد من أهل التوحيد إلا يعطى نوراً يوم القيامة فأما المنافق فيطفأ نوره فالمؤمن مشفق مما يرى من إطفاء نور المنافقين فهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا ، وقال الضحاك ابن مزاحم يعطى كل من كان يظهر الايمان فى الدنيا يوم القيامة نوراً فاذا انتهى إلى الصراط طفىء نور المنافقين فلما رأى ذلك المؤمنون أشفقوا فقالوا ربنا أتمم لنا نورنا

فاذا تقرر هذا صار الناس أقساما ، مؤمنون خلص وهم الموصوفون بالآيات الأربع فى أول البقرة وكفار خلص

وهم الموصوفون بالآيتين بعدها ومنافقون وهم قسمان خلص وهم المضروب لهم المثل النارى ومنافقون يترددون تارة يظهر لهم لمع الايمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائى وهم أخف حالا من الذين قبلهم وهذا المقام يشبه من بعض الوجوة ما ذكر فى سورة النور من ضرب مثل المؤمن وما جعل الله فى قلبه من الهدى والنور بالمصباح فى الزجاجة التى كأنها كوكب درى وهى قلب المؤمن المفطور على الايمان واستمداده من الشريعة الخالصة الصافية الواصلة إليه من غير كدر ولا تخليط كما سيأتى تقريره فى موضعه إن شاء الله ثم ضرب مثل العباد من الكفار الذين يعتقدون أنهم على شىء وليسوا على شىء وهم أصحاب الجهل المركب فى قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) الآية ثم ضرب مثل الكفار الجهال الجهل البسيط وهم الذين قال تعالى فيهم (أو كظلمات فى بحر لجى يغشاه موج من فوقه موج من فوقه سحاب ظلمات بعضها فوق بعض إذا أخرج يده لم يكد يراها ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور) فقسم الكفار ههنا إلى قسمين داعية ومقلد كما ذكرهما فى أول سورة الحج (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريد) وقال (ومن الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير) وقد قسم الله المؤمنين فى أول الواقعة وفى آخرها ، وفى سورة الانسان إلى قسمين سابقون وهم المقربون وأصحاب يمين وهم الأبرار

فتلخص من مجموع هذه الآيات الكريمات أن المؤمنين صنفان مقربون وأبرار وأن الكافرين صنفان دعاة ومقلدون وأن المنافقين أيضا صنفان منافق خالص ومنافق فيه شعبة من نفاق كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عمرو عن النبى ﷺ « ثلاث من كن فيه كان منافقا خالصا ومن كانت فيه واحدة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب واذا وعد أخلف واذا ائتمن خان » استدلوا به على أن الانسان قد تكون فيه شعبة من ايمان وشعبة من نفاق إما عملى لهذا الحديث أو اعتقادى كما دلت عليه الآية كما ذهب اليه طائفة من السلف وبعض العلماء كما تقدم وكما سيأتى ان شاء الله قال الامام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا أبو معاوية يعنى شيبان عن ليث عن عمرو بن مرة عن أبى البخترى عن أبى سعيد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « القلوب أربعة قلب أجرد فيه مثل السراج يزهر وقلب أغلف مربوط على غلافه وقلب منكوس وقلب مصفح فأما القلب الأجرد فقلب المؤمن فسراجه فيه نوره وأما القلب الأغلف فقلب الكافر وأما القلب المنكوس فقلب المنافق الخالص عرف ثم أنكر وأما القلب المصفح فقلب فيه إيمان ونفاق ، ومثل الايمان فيه كمثل البقلة يمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والدم فأى المادتين غلبت على الأخرى غلبت عليه » وهذا إسناد جيد حسن

وقوله تعالى (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إن الله على كل شىء قدير) قال محمد بن إسحق حدثنى محمد ابن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم) قال لما تركوا من الحق بعد معرفته (إن الله على كل شىء قدير) قال ابن عباس أى إن الله على كل ما أراد بعباده من نقمة أو عفو قدير . وقال ابن جرير : إنما وصف الله تعالى نفسه بالقدرة على كل شىء فى هذا الموضع لأنه حذر المنافقين بأسه وسطوته وأخبرهم أنه بهم محيط ، وعلى إذهاب أسماعهم وأبصارهم قدير ، ومعنى قدير قادر كما معنى علم عالم وذهب ابن جرير ومن تبعه من كثير من المفسرين إلى أن هذين المثلين مضروبان لصنف واحد من المنافقين وتكون أو فى قوله تعالى (أو كصيب من السماء) بمعنى الواو كقوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) أو تكون للتخيير أى أضرب لهم مثلا بهذا وان شئت بهذا قال القرطبى : أو للتساوى مثل جالس الحسن أو ابن سيرين على ماوجهه الزمخشرى ان كلا منهما مساو للآخر فى اباحة الجلوس اليه ويكون معناه على قوله سواء ضربت لهم مثلا بهذا أو بهذا فهو مطابق لحالهم (قلت) وهذا يكون باعتبار جنس المنافقين فانهم أصناف ولهم أحوال وصفات كما ذكرها الله تعالى فى سورة براءة — ومنهم — ومنهم — ومنهم — يذكر أحوالهم وصفاتهم وما يعتمدونه من الأفعال والأقوال فجعل هذين المثلين لصنفين منهم أشد مطابقة لأحوالهم وصفاتهم والله أعلم كما ضرب المثلين فى سورة النور لصنفى الكفار الدعاة والمقلدين فى قوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) الى أن قال (أو كظلمات فى

بحرلجى) الآية فالأول للدعاة الذين هم فى جهل مركب والثانى لذوى الجهل البسيط من الأتباع المقلدين والله أعلم بالصواب

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

شرع تبارك وتعالى فى بيان وحدانية ألوهيته بأنه تعالى هو المنعم على عبيده باخراجهم من العدم إلى الوجود وإسباغه عليهم النعم الظاهرة والباطنة بأن جعل لهم الأرض فراشا أى مهدا كالفراش مقررة موطأة مثبتة بالرواسى الشامخات والسماء بناء وهو السقف كما قال فى الآية الأخرى (وجعلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون) وأنزل لهم من السماء ماء والمراد به السحاب ههنا فى وقته عند احتياجهم إليه فأخرج لهم به من أنواع الزروع والثمار ماهو مشاهد رزقا لهم ولأنعامهم كما قرر هذا فى غير موضع من القرآن ، ومن أشبه آية بهذه الآية قوله تعالى (الذى جعل لكم الأرض قراراً والسماء بناء وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات ذلكم الله ربكم فتبارك الله رب العالمين) ومضمونه أنه الخالق الرازق مالك الدار وساكنها ورازقهم فهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يشرك به غيره ولهذا قال (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال قلت يارسول الله أى الذنب أعظم عند الله ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » الحديث وكذا حديث معاذ أتدرى ماحق الله على عباده ؟ « أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا » الحديث ، وفى الحديث الآخر « لايقولن أحدكم ماشاء الله وشاء فلان ولكن ليقل ماشاء الله ثم شاء فلان » وقال حماد بن سلمة حدثنا عبد الملك بن عمير عن ربعى بن حراش عن الطفيل بن سخبرة أخى عائشة أم المؤمنين لأمها قال رأيت فيما يرى النائم كأنى أتيت على نفر من اليهود فقلت من أنتم قالوا نحن اليهود قلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون عزير ابن الله قالوا وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد ، قال ثم مررت بنفر من النصارى فقلت من أنتم قالوا نحن النصارى قلت إنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون المسيح ابن الله ، قالوا وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون ماشاء الله وشاء محمد فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت ثم أتيت النبى ﷺ فأخبرته فقال « هل أخبرت بها أحدا ؟ » قلت نعم فقام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد فان طفيلا رأى رؤيا أخبر بها من أخبر منكم وإنكم قلتم كلمة كان يمنعنى كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ماشاء الله وشاء محمد ولكن قولوا ماشاء الله وحده » هكذا رواه ابن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث حماد بن سلمة به وأخرجه ابن ماجه من وجه آخر عن عبد الملك بن عمير به بنحوه ، وقال سفيان بن سعيد الثورى عن الأجلح بن عبد الله الكندى عن يزيد بن الأصم عن ابن عباس قال قال رجل للنبى ﷺ ما شاء الله وشئت فقال « أجعلتنى لله ندا ؟ قل ماشاء الله وحده » رواه ابن مردويه وأخرجه النسائى وابن ماجه من حديث عيسى بن يونس عن الأجلح به وهذا كله صيانة وحماية لجناب التوحيد والله أعلم . وقال محمد بن إسحاق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال الله تعالى (ياأيها الناس اعبدوا ربكم) للفريقين جميعا من الكفار والمنافقين ، أى وحدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم وبه عن ابن عباس (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) أى لاتشركوا بالله غيره من الأنداد التى لاتنفع ولا تضر وأنتم تعلمون أنه لارب لكم يرزقكم غيره وقد علمتم أن الذى يدعوكم إليه الرسول ﷺ من التوحيد هو الحق الذى لاشك فيه وهكذا قال قتادة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن عمرو بن أبى عاصم حدثنا أبى عمرو حدثنا أبى الضحاك بن مخلد أبو عاصم حدثنا شبيب بن بشر حدثنا عكرمة عن ابن عباس فى قول الله عز وجل (فلا تجعلوا لله أندادا) قال الأنداد هو الشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء فى ظلمة الليل وهو أن يقول والله وحياتك يافلان وحياتى ويقول لولا كلبة هذا لأتانا

اللصوص البارحة ولولا البط فى الدار لأتى اللصوص وقول الرجل لصاحبه ماشاء الله وشئت ، وقول الرجل لولا الله وفلان لاتجعل فيها فلان هـذا كله به شرك وفى الحديث أن رجلا قال لرسول الله ﷺ ماشاء الله وشئت ، قال « أجعلتنى لله ندا » وفى الحديث الآخر « نعم القوم أنتم لولا أنكم تنددون تقولون ماشاء الله وشاء فلان » قال أبو العالية فلا تجعلوا لله أنداد أى عدلاء شركاء وهكذا قال الربيع بن أنس وقتادة والسدى وأبو مالك وإسماعيل بن أبى خالد وقال مجاهد (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون) قال تعلمون أنه إله واحد فى التوراة والانجيل

﴿ ذكر حديث فى معنى هذه الآية الكريمة ﴾

قال الامام أحمد حدثنا عفان حدثنا أبو خلف موسى بن خلف وكان يعد من البدلاء حدثنا يحيى بن أبى كثير عن زيد بن سلام عن جده ممطور عن الحارث الأشعرى أن نبى الله ﷺ قال « إن الله عز وجل أمر يحيى بن زكريا عليه السلام بخمس كلمات أن يعمل بهن وأن يأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن وأنه كاد أن يبطىء بها فقال له عيسى عليه السلام إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن وتأمر بنى إسرائيل أن يعملوا بهن فاما أن تبلغهن وإما أن أبلغهن فقال يا أخى إنى أخشى إن سبقتنى أن أعذب أو يخسف بى قال فجمع يحيى بن زكريا بنى إسرائيل فى بيت المقدس حتى امتلأ المسجد فقعد على الشرف فحمد الله وأثنى عليه ثم قال إن الله أمرنى بخمس كلمات أن أعمل بهن وآمركم أن تعملوا بهن أولهن أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا فان مثل ذلك كمثل رجل اشترى عبدا من خالص ماله بورق أو ذهب فجعل يعمل ويؤدى غلته إلى غير سيده فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا ، وأمركم بالصلاة فان الله ينصب وجه لوجه عبده مالم يلتفت فاذا صليتم فلا تلتفتوا ، وأمركم بالصيام فان مثل ذلك كمثل رجل معه صرة من مسك فى عصابة كلهم يجد ريح المسك وإن خلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، وأمركم بالصدقة فان مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدوا يديه إلى عنقه وقدموه ليضربوا عنقه وقال لهم هل لكم أن أفتدى نفسى منكم فجعل يفتدى نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فك نفسه ، وأمركم بذكر الله كثيرا وإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعا فى أثره فأتى حصنا حصينا فتحصن فيه وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان فى ذكر الله » قال : وقال رسول الله ﷺ « وأنا آمركم بخمس الله أمرنى بهن : الجماعة والسمع والطاعة والهجرة والجهاد فى سبيل الله فانه من خرج من الجماعة قيد شبر فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه إلا أن يراجع ومن دعا بدعوى جاهلية فهو من جثى جهنم » قالوا يارسول الله وإن صام وصلى فقال « وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم فادعوا المسلمين بأسمائهم على ما سماهم الله عز وجل المسلمين المؤمنين عباد الله » هذا حديث حسن والشاهد منه فى هذه الآية قوله « وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئا » وهذه الآية دالة على توحيده تعالى بالعبادة وحده لا شريك له وقد استدل به كثير من المفسرين كالرازى وغيره على وجود الصانع تعالى وهى دالة على ذلك بطريق الأولى فان من تأمل هذه الموجودات السفلية والعلوية واختلاف أشكالها وألوانها وطباعها ومنافعها ووضعها فى مواضع النفع بها محكمة علم قدرة خالقها وحكمته وعلمه وإتقانه وعظيم سلطانه كما قال بعض الأعراب وقد سئل ما الدليل على وجود الرب تعالى ؟ فقال ياسبحان الله إن البعر ليدل على البعير ، وإن أثر الأقدام لتدل على المسير ، فسماء ذات ابراج ، وأرض ذات فجاج . وبحار ذات أمواج ؟ ألا يدل ذلك على وجود اللطيف الخبير ؟

وحكى الرازى عن الامام مالك أن الرشيد سأله عن ذلك فاستدل له باختلاف اللغات والأصوات والنغمات وعن أبى حنيفة أن بعض الزنادقة سألوه عن وجود البارى تعالى فقال لهم دعونى فانى مفكر فى أمر قد أخبرت عنه ذكروا لى أن سفينة فى البحر موقرة فيها أنواع من المتاجر وليس بها أحد يحرسها ولا يسوقها وهى مع ذلك تذهب وتجىء وتسير بنفسها وتخترق الأمواج العظام حتى تتخلص منها وتسير حيث شاءت بنفسها من غير أن يسوقها أحد فقالوا هـذا شىء لايقوله عاقل فقال ويحكم هـذه الموجودات بما فيها من العالم العلوى والسفلى وما اشتملت عليه من الأشياء المحكمة ليس لها صانع فبهت القوم ورجعوا إلى الحق وأسلموا على يديه ، وعن الشافعى أنه سئل عن وجود الصانع فقال هذا

ورق التوت طعمه واحد تأكله الدود فيخرج منه الإبريسم وتأكله النحل فيخرج منه العسل وتأكله الشاة والبقر والأنعام فتلقيه بعرا وروثا وتأكله الظباء فيخرج منها المسك وهو شيء واحد وعن الامام أحمد بن حنبل أنه سئل عن ذلك فقال ههنا حصن حصين أملس ليس له باب ولا منفذ ظاهره كالفضة البيضاء وباطنه كالذهب الإبريز فبينا هو كذلك إذ انصدع جدراه فخرج منه حيوان سميع بصير ذو شكل حسن وصوت مليح يعنى بذلك البيضة اذا خرج منها الدجاجة وسئل أبو نواس عن ذلك فأنشد :

تأمل فى نبات الأرض وانظر * الى آثار ما صنع المليك * عيون من لجين شاخصات
بأحداق هى الذهب السبيك * على قضب الزبرجد شاهدات * بأن الله ليس له شريك

وقال ابن المعتز

فياعجبا كيف يعصى الاله أم كيف يجحده الجاحد
وفى كل شيء له آية * تدل على أنه واحد

وقال آخرون من تأمل هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها وما فيها من الكواكب الكبار والصغار النيرة من السيارة ومن الثوابت وشاهدها كيف تدور مع الفلك العظيم فى كل يوم وليلة دويرة ولها فى أنفسها سير يخصها ، ونظر الى البحار المكتنفة للأرض من كل جانب والجبال الموضوعة فى الأرض لتقر ويسكن ساكنوها مع اختلاف أشكالها وألوانها كما قال تعالى (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود * ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذالك ، إنما يخشى الله من عباده العلماء) وكذلك هذه الأنهار السارحة من قطر إلى قطر للمنافع وما ذرأ فى الأرض من الحيوانات المتنوعة والنبات المختلف الطعوم والأراييح والأشكال والألوان مع اتحاد طبيعة التربة والماء استدل على وجود الصانع وقدرته العظيمة وحكمته ورحمته بخلقه ولطفه بهم وإحسانه إليهم وبره بهم لاإله غيره ولا رب سواه عليه توكلت واليه أنيب ، والآيات فى القرآن الدالة على هذا المقام كثيرة جداً

﴿ وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَى عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِنْ مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ * فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴾

ثم شرع تعالى فى تقرير النبوة بعد أن قرر أنه لا إله إلا هو فقال مخاطبا للكافرين (وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا) يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم فأتوا بسورة من مثل ماجاء به إن زعمتم أنه من عند غير الله فعارضوه بمثل ماجاء به واستعينوا على ذلك بمن شئتم من دون الله فانكم لا تستطيعون ذلك ، قال ابن عباس شهداءكم أعوانكم ، وقال السدى عن أبى مالك شركاءكم أى قوما آخرين يساعدونكم على ذلك أى استعينوا بالهتكم فى ذلك يمدونكم وينصرونكم ، وقال مجاهد وادعوا شهداءكم قال ناس يشهدون به يعنى حكام الفصحاء وقد تحداهم الله تعالى بهذا فى غير موضع من القرآن فقال فى سورة القصص (قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه إن كنتم صادقين) وقال فى سورة سبحان (قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) وقال فى سورة هود (أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وقال فى سورة يونس (وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لاريب فيه من رب العالمين * أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين) وكل هذه الآيات مكية ثم تحداهم بذلك أيضا فى المدينة فقال فى هذه الآية (وإن كنتم فى ريب — أى شك — مما نزلنا على عبدنا — يعنى محمداً صلى الله عليه وسلم — فأتوا بسورة من مثله) يعنى من مثل القرآن قاله مجاهد وقتادة واختاره ابن جرير الطبرى والزمخشرى والرازى ونقله عن عمر وابن مسعود وابن عباس والحسن البصرى وأكثر المحققين ورجح ذلك بوجوه من أحسنها أنه تحداهم كلهم متفرقين

ومجتمعين سواء فى ذلك أميهم وكتابيهم وذلك أكمل فى التحدى وأشمل من أن يتحدى آحادهم الأميين ممن لا يكتب ولا يعانى شيئا من العلوم وبدليل قوله تعالى (فأتوا بعشر سور مثله) وقوله (لا يأتون بمثله) وقال بعضهم من مثل محمد صلى الله عليه وسلم يعنى من رجل أمى مثله والصحيح الأول لأن التحدى عام لهم كلهم مع أنهم أفصح الأمم وقد تحداهم بهذا فى مكة والمدينة مرات عديدة مع شدة عداوتهم له وبغضهم لدينه ومع هذا عجزوا عن ذلك ولهذا قال تعالى (فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا)ولن لنفى التأبيد فى المستقبل أى ولن تفعلوا ذلك أبداً وهذه أيضاً معجزة أخرى وهو أنه أخبر خبرا جازما قاطعا مقدما غير خائف ولا مشفق أن هذا القرآن لايعارض بمثله أبد الآبدين ودهر الداهرين وكذلك وقع الأمر لم يعارض من لدنه الى زماننا هذا ولا يمكن وأنى يتأتى ذلك لأحد والقرآن كلام الله خالق كل شىء وكيف يشبه كلام الخالق كلام المخلوقين ومن تدبر القرآن وجد فيه من وجوه الإعجاز فنونا ظاهرة وخفية من حيث اللفظ ومن جهة المعنى قال الله تعالى (الر ، كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) فأحكمت ألفاظه وفصلت معانيه أو بالعكس على الخلاف فكل من لفظه ومعناه فصيح لايحاذى ولا يدانى فقد أخبر عن مغيبات ماضية كانت ووقعت طبق ما أخبر سواء بسواء وأمر بكل خير ونهى عن كل شر كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أى صدقا فى الأخبار وعدلا فى الأحكام فكله حق وصدق وعدل وهدى ليس فيه مجازفة ولا كذب ولا افتراء كما يوجد فى أشعار العرب وغيرهم من الأكاذيب والمجازفات التى لا يحسن شعرهم إلا بها كماقيل فى الشعر إن أعذبه أكذبه وتجد القصيدة الطويلة المديدة قداستعمل غالبها فى وصف النساء أو الخيل أو الخمر أو فى مدح شخص معين أو فرس أو ناقة أو حرب أو كائنة أو مخافة أو سبع أو شىء من المشاهدات المتعينة التى لا تفيد شيئا إلا قدرة المتكلم المعين على الشىء الخفى أوالدقيق أو إبرازه الى الشىء الواضح ثم تجد له فيه بيتا أو بيتين أوأكثر هى بيوت القصيد وسائرها هذر لاطائل تحته ، وأما القرآن فجميعه فصيح فى غاية نهايات البلاغة عند من يعرف ذلك تفصيلا وإجمالا ممن فهم كلام العرب وتصاريف التعبير ، فانه إن تأملت أخباره وجدتها فى غاية الحلاوة سواء كانت مبسوطة أو وجيزة وسواء تكررت أملا وكلما تكرر حلا وعلا ، لايخلق عن كثرة الرد ، ولا يمل منه العلماء ، وان أخذ فى الوعيد والتهديد جاء منه ما تقشعر منه الجبال الصم الراسيات فما ظنك بالقلوب الفاهمات وان وعد أتى بما يفتح القلوب والآذان ، ويشوق الى دار السلام ومجاورة عرش الرحمن كما قال فى الترغيب (فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا يعملون) وقال (وفيها ماتشتهيه الأنفس وتلذالأعين وأنتم فيها خالدون) وقال فى الترهيب (أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر) (أأمنتم من فى السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هى تمور * أم أمنتم من فى السماء أن يرسل عليكم حاصبا فستعلمون كيف نذير) وقال فى الزجر : (فكلا أخذنا بذنبه) وقال فى الوعظ (أفرأيت إن متعناهم سنين ثم جاءهم ما كانوا يوعدون ما أغنى عنهم ما كانوا يمتعون) إلى غير ذلك من أنواع الفصاحة والبلاغة والحلاوة وإن جاءت الآيات فى الأحكام والأوامر والنواهى اشتملت على الأمر بكل معروف حسن نافع طيب محبوب ، والنهى عن كل قبيح رذيل دنىء ؛ كما قال ابن مسعود وغيره من السلف إذا سمعت الله تعالى يقول فى القرآن ياأيها الذين آمنوا فأرعها سمعك فانها خير يأمر به أوشر ينهى عنه ولهذا قال تعالى (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم) الآية وان جاءت الآيات فى وصف المعاد وما فيه من الأهوال وفى وصف الجنة والنار وما أعد الله فيهما لأوليائه وأعدائه من النعيم والجحيم والملاذ والعذاب الأليم ، بشرت به وحذرت وأنذرت ؛ ودعت الى فعل الخيرات واجتناب المنكرات ، وزهدت فى الدنيا ورغبت فى الأخرى ، وثبتت على الطريقة المثلى ، وهدت الى صراط الله المستقيم ، وشرعه القويم ، ونفت عن القلوب رجس الشيطان الرجيم . ولهذا ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « مامن نبى من الأنبياء الا قد أعطى من الآيات ما آمن على مثله البشر وانما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله الى فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة — لفظ مسلم — وقوله صلى الله عليه وسلم وانما كان الذى أوتيه وحيا أى الذى اختصصت به

من بينهم هذا القرآن المعجز للبشر أن يعارضوه بخلاف غيره من الكتب الالهية فانها ليست معجزة عند كثير من العلماء والله أعلم ، وله عليه الصلاة والسلام من الآيات الدالة على نبوته وصدقه فيما جاء به مالا يدخل تحت حصر ولله الحمد والمنة

وقد قرر بعض المتكلمين الاعجاز بطريق يشمل قول أهل السنة وقول المعتزلة فى الصرفة فقال إن كان هذا القرآن معجزا فى نفسه لا يستطيع البشر الاتيان بمثله ولا فى قواهم معارضته فقد حصل المدعى وهو المطلوب ، وإن كان فى إمكانهم معارضته بمثله ولم يفعلوا ذلك مع شدة عداوتهم له كان ذلك دليلا على أنه من عند الله لصرفه إياهم عن معارضته مع قدرتهم على ذلك ، وهذه الطريقة وإن لم تكن مرضية لأن القرآن فى نفسه معجز لايستطيع البشر معارضته كما قررنا إلا أنها تصلح على سبيل التنزل والمجادلة والمنافحة عن الحق وبهذه الطريقة أجاب الرازى فى تفسيره عن سؤاله فى السور القصار كالعصر وإنا أعطيناك الكوثر

وقوله تعالى (فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين) أما الوقود بفتح الواو فهو مايلقى فى النار لاضرامها كالحطب ونحوه كما قال تعالى (وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطبا) وقال تعالى (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون * لو كان هؤلاء آلهة ماوردوها وكل فيها خالدون) والمراد بالحجارة ههنا هى حجارة الكبريت العظيمة السوداء الصلبة المنتنة وهى أشد الأحجار حرا إذا حميت أجارنا الله منها : وقال عبد الملك بن ميسرة الزراد عن عبد الرحمن بن سابط عن عمرو بن ميمون عن عبد الله بن مسعود فى قوله تعالى (وقودها الناس والحجارة) قال هى حجارة من كبريت خلقها الله يوم خلق السموات والأرض فى السماء الدنيا يعدها للكافرين . رواه ابن جرير وهذا لفظه وابن أبى حاتم والحاكم فى مستدركة وقال على شرط الشيخين . وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة اتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أما الحجارة فهى حجارة فى النار من كبريت أسود يعذبون به مع النار وقال مجاهد حجارة من كبريت أنتن من الجيفة، وقال أبو جعفر محمد بن على حجارة من كبريت وقال ابن جريج حجارة من كبريت أسود فى النار وقال لى عمرو بن دينار أصلب من هذه الحجارة وأعظم . وقيل المراد بها حجارة الأصنام والأنداد التى كانت تعبد من دون الله كما قال تعالى (إنكم وماتعبدون من دون الله حصب جهنم) الآية حكاه القرطبى والرازى ورجحه على الأول : قال لأن أخذ النار فى حجارة الكبريت ليس بمستنكر فجعلها هذه الحجارة أولى . وهذا الذى قاله ليس بقوى وذلك أن النار إذا أضرمت بحجارة الكبريت كان ذلك أشد لحرها وأقوى لسعيرها ولاسيما على ماذكره السلف من أنها حجارة من كبريت معدة لذلك ، ثم ان اخذ النار بهذه الحجارة أيضا مشاهد وهذا الجص يكون أحجارا فيعمل فيه بالنار حتى يصير كذلك . وكذلك سائر الأحجار تفخرها النار وتحرقها وإنما سيق هذا فى حر هذه النار التى وعدوا بها وشدة ضرامها وقوة لهبها كما قال تعالى (كلما خبت زدناهم سعيرا) وهكذا رجح القرطبى أن المراد بها الحجارة التى تسعر بها النار لتحمر ويشتد لهبها قال ليكون ذلك أشد عذابا لأهلها قال وقد جاء فى الحديث عن النبى ﷺ أنه قال « كل مؤذ فى النار » وهذا الحديث ليس بمحفوظ ولا معروف ثم قال القرطبى وقد فسر بمعنيين أحدهما أن كل من آذى الناس دخل النار والآخر أن كل ما يؤذى فى النار يتأذى به أهلها من السباع والهوام وغير ذلك

وقوله تعالى (أعدت للكافرين) الأظهر أن الضمير فى أعدت عائد الى النار التى وقودها الناس والحجارة ويحتمل عوده إلى الحجارة كما قال ابن مسعود ولامنافاة بين القولين فى المعنى لأنهما متلازمان وأعدت أى أرصدت وخصلت للكافرين بالله ورسوله كما قال ابن اسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (أعدت للكافرين) أى لمن كان على مثل ما أنتم عليه من الكفر وقد استدل كثير من أئمة السنة بهذه الآية على أن النار موجودة الآن لقوله تعالى (أعدت) أى أرصدت وهيئت وقد وردت أحاديث كثيرة فى ذلك منها « تحاجت الجنة والنار » ومنها « استأذنت النار ربها فقالت رب أكل بعضى بعضا فأذن لها بنفسين نفس فى الشتاء ونفس فى الصيف » وحديث ابن مسعود سمعنا وجبة فقلنا ما هذه فقال رسول الله ﷺ « هذا حجر ألقى به من شفير جهنم منذ سبعين سنة الآن وصل

إلى قعرها » وهو عند مسلم وحديث صلاة الكسوف وليلة الاسراء وغير ذلك من الأحاديث المتواترة فى هذا المعنى وقد خالفت المعتزلة بجهلهم فى هذا ووافقهم القاضى منذر بن سعيد البلوطى قاضى الأندلس

﴿ تنبيه ينبغى الوقوف عليه ﴾

قول تعالى (فأتوا بسورة من مثلة) وقوله فى سورة يونس (بسورة مثله) يعم كل سورة فى القرآن طويلة كانت أو قصيرة لأنها نكرة فى سياق الشرط فتعم كما هى فى سياق النفى عند المحققين من الأصوليين كما هو مقرر فى موضعه فالاعجاز حاصل فى طوال السور وقصارها وهذا مالا أعلم فيه نزاعا بين الناس سلفا وخلفا وقد قال الرازى فى تفسيره فان قيل قوله تعالى (فأتوا بسورة من مثله) يتناول سورة الكوثر وسورة العصر وقل يا أيها الكافرون ونحن نعلم بالضرورة أن الاتيان بمثله أو بما يقرب منه ممكن ، فان قلتم إن الاتيان بمثل هذه السور خارج عن مقدار البشر كان مكابرة والاقدام على هذه المكابرات مما يطرق بالتهمة إلى الدين (قلنا) فلهذا السبب اخترنا الطريق الثانى وقلنا إن بلغت هذه السورة فى الفصاحة حد الاعجاز فقد حصل المقصود وإن لم يكن كذلك كان امتناعهم من المعارضة مع شدة دواعيهم إلى تهوين أمره معجزا فعلى التقديرين يحصل المعجز هذا لفظه بحروفه والصواب أن كل سورة من القرآن معجزة لا يستطيع البشر معارضتها طويلة كانت أو قصيرة ، قال الشافعى رحمه الله لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم (والعصر إن الإنسان لفى خسر * إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقد روينا عن عمرو بن العاص أنه وفد على مسيلمة الكذاب قبل أن يسلم فقال له مسيلمة ماذا أنزل على صاحبكم بمكة فى هذا الحين فقال له عمرو لقد أنزل عليه سورة وجيزة بليغة فقال وما هى فقال (والعصر إن الإنسان لفى خسر) ففكر ساعة ثم رفع رأسه فقال ولقد أنزل على مثلها فقال وما هو فقال ياوبر ياوبر إنما أنت أذنان وصدر وسائرك حقر فقر ثم قال كيف ترى ياعمرو فقال له عمرو والله إنك لتعلم أنى لأعلم أنك تكذب

﴿ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُوا هَٰذَا ٱلَّذِى رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُوا بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى ماأعده لأعدائه من الأشقياء الكافرين به وبرسله من العذاب والنكال عطف بذكر حال أوليائه من السعداء المؤمنين به وبرسله الذين صدقوا إيمانهم بأعمالهم الصالحة وهذا معنى تسمية القرآن مثانى على أصح أقوال العلماء كما سنبسطه فى موضعه وهو أن يذكر الايمان ويتبع بذكر الكفر أو عكسه أو حال السعداء ثم الأشقياء أو عكسه ، وحاصله ذكر الشىء ومقابله . وأما ذكر الشىء ونظيره فذاك التشابه كما سنوضحه إن شاء الله فلهذا قال تعالى (وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار) فوصفها بأنه تجرى من تحتها الأنهار أى من تحت اشجارها وغرفها وقد جاء فى الحديث ان أنهارها تجرى فى غير أخدود وجاء فى الكوثر ان حافتيه قباب اللؤلؤ المجوف ولا منافاة بينهما فطينها المسك الأذفر ، وحصباؤها اللؤلؤ والجوهر ، نسأل الله من فضله إنه هو البر الرحيم وقال ابن أبى حاتم قرأ على الربيع بن سليمان حدثنا أسد بن موسى حدثنا أبو ثوبان عن عطاء ابن قرة عن عبد الله بن ضمرة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أنهار الجنة تفجر من تحت تلال أو من تحت جبال المسك » وقال أيضا حدثنا أبو سعيد حدثنا وكيع عن الأعمش عن عبد الله بن مرة عن مسروق ، قال : قال عبد الله أنهار الجنة تفجر من جبل مسك

وقوله تعالى (كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قالوا هذا الذى رزقنا من قبل ، قال إنهم أتوا بالثمرة فى الجنة فلما نظروا إليها قالوا هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا وهكذا قال قتادة وعبد الرحمن بن زيد

ابن أسلم ونصره ابن جرير وقال عكرمة (قالوا هذا الذى رزقنا من قبل) قال معناه مثل الذى كان بالأمس وكذا قال الربيع ابن أنس . وقال مجاهد يقولون ما أشبهه به قال ابن جرير وقال آخرون بل تأويل ذلك هذا الذى رزقنا من قبل ثمار الجنة من قبل هذا الشدة مشابهة بعضه بعضا لقوله تعالى (وأتوا به متشابها) قال سنيد بن داود حدثنا شيخ من أهل المصيصة عن الأوزاعى عن يحيى بن ابى كثير قال يؤتى أحدهم بالصحفة من الشىء فيأكل منها ثم يؤتى بأخرى فيقول هذا الذى أتينا به من قبل فتقول الملائكة كل فاللون واحد والطعم مختلف . وقال ابن ابى حاتم حدثنا ابى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عامر بن يساف عن يحيى بن أبى كثير قال عشب الجنة الزعفران وكثبانها المسك ويطوف عليهم الولدان بالفواكه فيأكلونها ثم يؤتون بمثلها فيقول لهم أهل الجنة هذا الذى أتيتمونا آنفا به فتقول لهم الولدان كلوا فاللون واحد والطعم مختلف وهو قول الله تعالى (وأتوا به متشابها) وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (وأتوا به متشابها) قال يشبه بعضه بعضا ويختلف فى الطعم ، قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك وقال ابن جرير باسناده عن السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة فى قوله تعالى (وأتوا به متشابها) يعنى فى اللون والمرأى وليس يشتبه فى الطعم وهذا اختيار ابن جرير وقال عكرمة (وأتوا به متشابها) قال يشبه ثمر الدنيا غير أن ثمر الجنة أطيب وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن أبى ظبيان عن ابن عباس لايشبه شىء مما فى الجنة مافى الدنيا إلا فى الأسماء وفى رواية ليس فى الدنيا مما فى الجنة إلا الأسماء ورواه ابن جرير من رواية الثورى وابن أبى حاتم من حديث أبى معاوية كلاهما عن الأعمش به وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قوله تعالى (وأتوا به متشابها) قال يعرفون أسماءه كما كانوا فى الدنيا التفاح بالتفاح والرمان بالرمان قالوا فى الجنة هذا الذى رزقنا من قبل فى الدنيا وأتوا به متشابها يعرفونه وليس هو مثله فى الطعم

وقوله تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس مطهرة من القذر والأذى . وقال مجاهد من الحيض والغائط والبول والنخام والبزاق والمنى والولد وقال قتادة مطهرة من الأذى والمأثم وفى رواية عنه لاحيض ولا كلف وروى عن عطاء والحسن والضحاك وأبى صالح وعطية والسدى نحو ذلك . وقال ابن جرير حدثنى يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال المطهرة التى لاتحيض ، قال وكذلك خلقت حواء عليها السلام فلما عصت قال الله تعالى إنى خلقتك مطهرة وسأدميك كما أدميت هذه الشجرة — وهذا غريب وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا إبراهيم بن محمد حدثنى جعفر بن محمد بن حرب وأحمد بن محمد الحوارى[1] قالا حدثنا محمد بن عبيد الكندى حدثنا عبد الرزاق بن عمر البزيعى حدثنا عبد الله بن المبارك عن شعبة عن قتادة عن أبى نضرة عن أبى سعيد عن النبى ﷺ فى قوله تعالى (ولهم فيها أزواج مطهرة) قال من الحيض والغائط والنخاعة والبزاق . هذا حديث غريب — وقد رواه الحاكم فى مستدركه عن محمد بن يعقوب عن الحسن بن على بن عفان عن محمد بن عبيد به وقال صحيح على شرط الشيخين وهذا الذى ادعاه فيه نظر فان عبد الرزاق بن عمر البزيعى هذا قال فيه أبو حاتم ابن حبان البستى لا يجوز الاحتجاج به (قلت) والأظهر أن هذا من كلام قتادة كما تقدم والله أعلم

وقوله تعالى (وهم فيها خالدون) هذا هو تمام السعادة فانهم مع هذا النعيم فى مقام أمين من الموت والانقطاع فلا آخر له ولا انقضاء بل فى نعيم سرمدى أبدى على الدوام والله المسئول أن يحشرنا فى زمرتهم إنه جواد كريم بر رحيم

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ * ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ

(١) فى لسان الميزان خورى وفى الميزان جورى بالجيم .

أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾

قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين يعنى قوله تعالى (مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) وقوله (أو كصيب من السماء) الآيات الثلاث قال المنافقون : الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال فأنزل الله هذه الآية إلى قوله تعالى (هم الخسرون) وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة لما ذكر الله تعالى العنكبوت والذباب قال المشركون مابال العنكبوت والذباب يذكران ؟ فأنزل الله (إن الله لايستحيى أن يضرب مثلاما بعوضة فما فوقها) وقال سعيد عن قتادة أى إن الله لايستحيى من الحق أن يذكر شيئا مما قل أو كثر ، وإن الله حين ذكر فى كتابه الذباب والعنكبوت قال أهل الضلالة ماأراد الله من ذكر هذا ؟ فأنزل الله (إن الله لايستحيى ان يضرب مثلاما بعوضة فمافوقها) (قلت) : العبارة الأولى عن قتادة فيها إشعار أن هذه الآية مكية وليس كذلك وعبارة رواية سعيد عن قتادة أقرب والله أعلم . وروى ابن جريج عن مجاهد نحو هذا الثانى عن قتادة وقال ابن أبى حاتم روى عن الحسن وإسماعيل بن أبى خالد نحو قول السدى وقتادة . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس فى هذه الآية قال هذا مثل ضربه الله للدنيا أن البعوضة تحيا ماجاعت فاذا سمنت ماتت وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن إذا امتلأوا من الدنيا ريا أخذهم الله عند ذلك ثم تلا (فلما نسوا ماذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شىء) هكذا رواه ابن جرير ورواه ابن أبى حاتم من حديث أبى جعفر عن الربيع بن أنس عن أبى العالية بنحوه فالله أعلم فهذا اختلافهم فى سبب النزول . وقد اختار ابن جرير ماحكاه السدى لأنه أمس بالسورة وهو مناسب ومعنى الآية انه تعالى أخبر انه لايستحيى أى لا يستنكف وقيل لايخشى ان يضرب مثلاما أى أى مثل كان بأى شىء كان صغيرا كان أو كبيرا وماهنا للتقليل وتكون بعوضة منصوبة على البدل كما تقول لأضربن ضربا ما ، فيصدق بأدنى شيء اوتكون منكرة موصوفة ببعوضة واختار ابن جرير ان ما موصولة وبعوضة معربة باعرابها قال وذلك سائغ فى كلام العرب انهم يعربون صلة ما ومن بإعرابهما لأنهما يكونان معرفة تارة ونكرة اخرى كما قال حسان بن ثابت

يكفى بنا فضلا على من غيرنا * حب النبى محمد إيانا

قال ويجوز ان تكون بعوضة منصوبة بحذف الجار وتقدير الكلام إن الله لايستحيى أن يضرب مثلا ما بين بعوضة إلى مافوقها وهذا الذى اختاره الكسائى والفراء وقرأ الضحاك وإبراهيم بن عبلة بعوضة بالرفع قال ابن جنى وتكون صلة لما وحذف العائد كما فى قوله (تماما على الذى أحسن) اى على الذى هو احسن وحكى سيبويه : ما انا بالذى قائل لك شيئا . اى بالذى هو قائل لك شيئا . وقوله تعالى (فما فوقها) فيه قولان احدهما فمادونها فى الصغر والحقارة كما إذا وصف رجل باللؤم والشح فيقول السامع نعم وهو فوق ذلك ـ يعنى فيما وصفت ـ وهذا قول الكسائى وابى عبيد قاله الرازى واكثر المحققين . وفى الحديث « لوأن الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة لما سقى كافرا منها شربة ماء » والثانى فما فوقها لما هو اكبر منها لأنه ليس شىء احقر ولا اصغر من البعوضة وهذا قول قتادة ابن دعامة واختيار ابن جرير فانه يؤيده مارواه مسلم عن عائشة رضى الله عنها ان رسول الله ﷺ قال « مامن مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب له بها درجة ومحيت عنه بها خطيئة » فأخبرأنه لايستصغر شيئا يضرب به مثلا ولوكان فى الحقارة والصغر كالبعوضة كما لا يستنكف عن خلقها كذلك لايستنكف من ضرب المثل بها كما ضرب المثل بالذباب والعنكبوت فى قوله (يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولواجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) وقال (مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون) وقال تعالى (ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون * ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها

من قرار * يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ويضل الله الظالمين ويفعل الله مايشاء) وقال تعالى (ضرب الله مثلا عبدا مملوكاً لا يقدر على شىء) الآية ثم قال (وضرب الله مثلا رجلين أحدهما أبكم لا يقدر على شىء وهو كل على مولاه أينما يوجهه لايأت بخير هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل) الآية كما قال (ضرب لكم مثلا من أنفسكم هل لكم مما ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم) الآية . وقال (ضرب الله مثلا رجلا فيه شركاء متشاكسون) الآية . وقال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) وفى القرآن أمثال كثيرة : قال بعض السلف اذا سمعت المثل فى القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسى لأن الله قال (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها الا العالمون) وقال مجاهد فى قوله تعالى (ان الله لا يستحيي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) الأمثال صغيرها وكبيرها يؤمن بها المؤمنون ويعلمون أنها الحق من ربهم ويهديهم الله بها . وقال قتادة (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) أى يعلمون أنه كلام الرحمن وانه من عند الله ، وروى عن مجاهد والحسن والربيع بن أنس نحو ذلك وقال أبو العالية (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم) يعنى هذا المثل (وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا) كما قال فى سورة المدثر (وما جعلنا أصحاب النار الا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا * ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين فى قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا * كذلك يضل الله من يشاء ويهدى من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو) وكذلك قال ههنا (يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به الا الفاسقين) قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة يضل به كثيراً يعنى به المنافقين ويهدى به كثيراً يعنى به المؤمنين فيزيد هؤلاء ضلالة الى ضلالتهم لتكذيبهم بما قد علموه حقاً يقينا من المثل الذى ضربه الله بما ضرب لهم وأنه لما ضرب له موافق فذلك إضلال الله إياهم به ، ويهدى به يعنى المثل كثيراً من أهل الايمان والتصديق فيزيدهم هدى إلى هداهم وإيمانا إلى إيمانهم لتصديقهم بما قد علموه حقا يقينا أنه موافق لما ضربه الله له مثلا وإقرارهم به وذلك هداية من الله لهم به (وما يضل به إلا الفاسقين) قال هم المنافقون وقال أبو العالية (وما يضل به إلا الفاسقين) قال هم أهل النفاق وكذا قال الربيع ابن أنس وقال ابن جريج عن مجاهد عن ابن عباس (وما يضل به إلا الفاسقين) قال يقول يعرفه الكافرون فيكفرون به . وقال قتادة (وما يضل به إلا الفاسقين) فسقوا فأضلهم الله على فسقهم وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى عن إسحق بن سليمان عن أبى سنان عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد عن سعد (يضل به كثيرا) يعنى الخوارج . وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن مصعب بن سعد قال سألت أبى فقلت قوله تعالى (الذين ينقضون عهدالله من بعد ميثاقه) إلى آخر الآية فقال هم الحرورية وهذا الاسناد وان صح عن سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه فهو تفسير على المعنى لأن الآية أريد منها التنصيص على الخوارج الذين خرجوا على على بالنهروان فان أولئك لم يكونوا حال نزول الآية وانما هم داخلون بوصفهم فيها مع من دخل لأنهم سموا خوارج لخروجهم عن طاعة الإمام والقيام بشرائع الاسلام والفاسق فى اللغة هو الخارج عن الطاعة أيضا ، وتقول العرب فسقت الرطبة اذا خرجت من قشرتها ، ولهذا يقال للفأرة فويسقة لخروجها عن جحرها للفساد وثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « خمس فواسق يقتلن فى الحل والحرم الغراب والحدأة والعقرب والفأرة والكلب العقور » فالفاسق يشمل الكافر والعاصى ولكن فسق الكافر أشد وأفحش والمراد به من الآية الفاسق الكافر والله أعلم بدليل أنه وصفهم بقوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون) وهذه الصفات صفات الكفار المباينة لصفات المؤمنين كما قال تعالى فى سورة الرعد (أفمن يعلم أنما أنزل اليك من ربك الحق كمن هو أعمى ؟ انما يتذكر أولو الألباب * الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق * والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) الآيات الى أن قال (والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون

فى الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار)وقد اختلف أهل التفسير فى معنى العهد الذى وصف هؤلاء الفاسقين بنقضه فقال بعضهم هو وصية الله الى خلقه وأمره اياهم بما أمرهم به من طاعته ونهيه اياهم عما نهاهم عنه من معصيته فى كتبه وعلى لسان رسله ، ونقضهم ذلك هو تركهم العمل به .

وقال آخرون بل هى فى كفار أهل الكتاب والمنافقين منهم ، وعهد الله الذى نقضوه هو ما أخذه الله عليهم فى التوراة من العمل بما فيها واتباع محمد ﷺ اذا بعث والتصديق به وبما جاء به من عند ربهم ، ونقضهم ذلك هو جحودهم به بعد معرفتهم بحقيقته وانكارهم ذلك وكتمانهم علم ذلك الناس بعد اعطائهم الله من أنفسهم الميثاق ليبيننه للناس ولا يكتمونه فأخبر تعالى أنهم نبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا . وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله وهو قول مقاتل بن حيان

وقال آخرون بل عنى بهذه الآية جميع أهل الكفر والشرك والنفاق وعهده إلى جميعهم فى توحيده ماوضع لهم من الأدلة الدالة على ربوبيته وعهده اليهم فى أمره ونهيه ما احتج به لرسله من المعجزات التى لايقدر أحد من الناس غيرهم أن يأتى بمثله الشاهدة لهم على صدقهم قالوا ونقضهم ذلك تركهم الاقرار بما قد تبينت لهم صحته بالأدلة وتكذيبهم الرسل والكتب مععلمهم أن ماأتوا به حق . وروى عن مقاتل بن حيان أيضا نحو هذا وهو حسن واليه مال الزمخشرى فانه قال (فان قلت) فما المراد بعهد الله ؟ قلت ماركز فى عقولهم من الحجة على التوحيد كأنه أمر وصاهم به ووثقه عليهم وهو معنى قوله تعالى (وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى) إذ أخذ الميثاق عليهم من الكتب المنزلة عليهم كقوله (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) — وقال آخرون العهد الذى ذكره تعالى هو العهد الذى أخذه عليهم حين أخرجهم من صلب آدم الذى وصف فى قوله (وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى شهدنا) الآيتين ونقضهم ذلك تركهم الوفاء به وهكذا روى عن مقاتل بن حيان أيضا حكى هذه الأقوال ابن جرير فى تفسيره .

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه — إلى قوله — أولئك هم الخاسرون) قال هى ست خصال من المنافقين اذا كانت فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال : اذا حدثوا كذبوا ، واذا وعدوا أخلفوا ، واذا اؤتمنوا خانوا ، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه ، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل ، وأفسدوا فى الأرض واذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الخصال الثلاث إذا حدثوا كذبوا ، وإذا وعدوا أخلفوا ، وإذا اؤتمنوا خانوا . وكذا قال الربيع بن أنس أيضا وقال السدى فى تفسيره باسناده قوله تعالى (الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه) قال هو ماعهد إليهم فى القرآن فأقروا به ثم كفروا فنقضوه

وقوله (ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل) قيل المراد به صلة الأرحام والقرابات كما فسره قتادة كقوله تعالى (فهل عسيتم إن توليتم ان تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم) ورجحه ابن جرير وقيل المراد أعم من ذلك فكل ما أمر الله بوصله وفعله فقطعوه وتركوه . وقال مقاتل بن حيان فى قوله تعالى (أولئك هم الخاسرون) قال فى الآخرة وهذا كما قال تعالى (أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار) وقال الضحاك عن ابن عباس كل شىء نسبه الله إلى غير أهل الاسلام من اسم مثل خاسر فانما يعنى به الكفر وما نسبه إلى أهل الاسلام فانما يعنى به الذنب وقال ابن جرير فى قوله تعالى (أولئك هم الخاسرون) الخاسرون جمع خاسر وهم الناقصون أنفسهم حظوظهم بمعصيتهم الله من رحمته كما يخسر الرجل فى تجارته بأن يوضع من رأس ماله فى بيعه وكذلك المنافق والكافر خسر بحرمان الله إياه رحمته التى خلقها لعباده فى القيامة أحوج ما كانوا إلى رحمته يقال منه خسر الرجل يخسر خسراً وحسرانا وخساراً كما قال جرير بن عطية

إن سليطا فى الخسار انه * أولاد قوم خلقوا أقنه

﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

يقول تعالى محتجا على وجوده وقدرته وأنه الخالق المتصرف فى عباده (كيف تكفرون بالله) أى كيف تجحدون وجوده أو تعبدون معه غيره (وكنتم أمواتا فأحياكم) أى وقد كنتم عدما فأخرجكم إلى الوجود كما قال تعالى (أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون) وقال تعالى (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا) والآيات فى هذا كثيرة: وقال سفيان الثورى عن أبى إسحاق عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا) قال هى التى فى البقرة (وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس: كنتم أمواتا فأحياكم: أمواتا فى أصلاب آبائكم لم تكونوا شيئا حتى خلقكم ثم يميتكم موتة الحق ثم يحييكم حين يبعثكم، قال وهى مثل قوله تعالى (أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) قال كنتم ترابا قبل أن يخلقكم فهذه ميتة ثم أحياكم فخلقكم فهذه حياة ثم يميتكم فترجعون إلى القبور فهذه ميتة أخرى ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه حياة أخرى: فهذه ميتتان وحياتان فهو كقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم) وهكذا روى عن السدى بسنده عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة وعن أبى العالية والحسن ومجاهد وقتادة وأبى صالح والضحاك وعطاء الخراسانى نحو ذلك وقال الثورى عن السدى عن أبى صالح (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم إليه ترجعون) قال يحييكم فى القبر ثم يميتكم وقال ابن جرير عن يونس عن ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم: قال خلقهم فى ظهر آدم ثم أخذ عليهم الميثاق ثم أماتهم ثم خلقهم فى الأرحام ثم أماتهم ثم أحياهم يوم القيامة. وذلك كقوله تعالى (قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين) وهذا غريب والذى قبله. والصحيح ما تقدم عن ابن مسعود وابن عباس وأولئك الجماعة من التابعين وهو كقوله تعالى (قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه) الآية كما قال تعالى فى الأصنام (أموات غير أحياء وما يشعرون) الآية (وقال وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون)

﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

لما ذكر تعالى دلالة من خلقهم وما يشاهدونه من أنفسهم ذكر دليلا آخر مما يشاهدونه من خلق السموات والأرض فقال (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات) أى قصد إلى السماء والاستواء ههنا مضمن معنى القصد والاقبال لأنه عدى بالى فسواهن أى فخلق السماء سبعا، والسماء ههنا اسم جنس فلهذا قال (فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم) أى وعلمه محيط بجميع ما خلق، كما قال (ألا يعلم من خلق) وتفصيل هذه الآية فى سورة حم السجدة وهو قوله تعالى (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها اقواتها فى أربعة ايام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين واوحى فى كل سماء امرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) ففى هذا دلالة على انه تعالى ابتدأ بخلق الأرض اولا ثم خلق السموات سبعا وهذا شان البناء ان يبدأ بعمارة أسافله ثم اعاليه بعد ذلك وقد صرح المفسرون بذلك كما سنذكره بعد هذا إن شاء الله. فاما قوله تعالى (أأنتم أشد خلقا ام السماء بناها * رفع سمكها فسواها * واغطش ليلها واخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * اخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال ارساها * متاعا لكم ولأنعامكم) فقد قيل ان ثم ههنا إنما هى لعطف الخبر على الخبر لا لعطف الفعل على الفعل كما قال الشاعر: قل لمن ساد ثم سادأبوه * ثم قد ساد قبل ذلك جده وقيل إن الدحى كان بعد خلق السموات والأرض رواه على بن ابى طلحة عن ابن عباس: وقد قال السدى فى تفسيره عن ابى مالك وعن ابى صالح عن ابن عباس وعن

مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات وهو بكل شىء عليم) قال إن الله تبارك وتعالى كان عرشه على الماء ولم يخلق شيئا غير ما خلق قبل الماء فلما أراد أن يخلق الخلق أخرج من الماء دخانا فارتفع فوق الماء فسما عليه فسماه سماء ثم أيبس الماء فجعله أرضا واحدة ثم فتقها فجعلها سبع أرضين فى يومين فى الأحد والاثنين فخلق الأرض على حوت والحوت هو الذى ذكره الله فى القرآن (ن والقلم) والحوت فى الماء والماء على ظهر صفاة والصفاة على ظهر ملك والملك على صخرة والصخرة فى الريح وهى الصخرة التى ذكر لقمان ليست فى السماء ولا فى الأرض ، فتحرك الحوت فاضطرب فتزلزلت الأرض فأرسى عليها الجبال فقرت فالجبال تفخر على الأرض ، فذلك قوله تعالى (وجعلنا فى الارض رواسى أن تميد بهم) وخلق الجبال فيها وأقوات أهلها وشجرها وما ينبغى لها فى يومين فى الثلاثاء والأربعاء وذلك حين يقول (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها) يقول أنبت شجرها (وقدر فيها أقواتها) لأهلها (فى أربعة أيام سواء للسائلين) يقول من سأل فهكذا الأمر (ثم استوى إلى السماء وهى دخان) وذلك الدخان من تنفس الماء حين تنفس فجعلها سماء واحدة ثم فتقها فجعلها سبع سموات فى يومين فى الخميس والجمعة وإنما سمى يوم الجمعة لأنه جمع فيه خلق السموات والأرض (وأوحى فى كل سماء أمرها) قال خلق الله فى كل سماء خلقها من الملائكة والخلق الذى فيها من البحار وجبال البرد ومما لا يعلم ، ثم زين السماء الدنيا بالكواكب فجعلها زينة وحفظا تحفظ من الشياطين فلما فرغ من خلق ما أحب استوى على العرش فذلك حين يقول (خلق السموات والأرض فى ستة أيام ثم استوى على العرش) ويقول (كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شىء حى) وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا عبد الله بن صالح حدثنى أبو معشر عن سعيد بن أبى سعيد عن عبد الله بن سلام أنه قال إن الله بدأ الخلق يوم الأحد فخلق الأرضين فى الأحد والاثنين وخلق الأقوات والرواسى فى الثلاثاء والأربعاء وخلق السموات فى الخميس والجمعة وفرغ فى آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم على عجل فتلك الساعة التى تقوم فيها الساعة .

وقال مجاهد فى قوله تعالى (هو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعا) قال خلق الله الأرض قبل السماء فلما خلق الأرض ثار منها دخان فذلك حين يقول (ثم استوى إلى السماء وهى دخان فسواهن سبع سموات) قال بعضهن فوق بعض وسبع أرضين يعنى بعضها تحت بعض وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السماء كما قال فى آية السجدة (قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين * وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين * ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين * فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم) فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء وهذا مالا أعلم فيه نزاعا بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة أنه زعم أن السماء خلقت قبل الأرض وقد توقف فى ذلك القرطبى فى تفسيره لقوله تعالى (أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها * رفع سمكها فسواها * وأغطش ليلها وأخرج ضحاها * والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها) قالوا فذكر خلق السماء قبل الأرض وفى صحيح البخارى أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السماء وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسير قديما وحديثا وقد حررنا ذلك فى سورة النازعات وحاصل ذلك أن الدحى مفسر بقوله تعالى (والأرض بعد ذلك دحاها * أخرج منها ماءها ومرعاها * والجبال أرساها) ففسر الدحى باخراج ما كان مودعا فيها بالقوة إلى الفعل لما أكملت سورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض فاخرجت ما كان مودعا فيها من المياه فنبتت النباتات على اختلاف أصنافها وصفاتها وألوانها وأشكالها وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة والله سبحانه وتعالى أعلم . وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه فى تفسير هذه الآية الحديث الذى رواه مسلم والنسائى فى التفسير ايضا من رواية ابن جريج

قال أخبرنى إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد عن عبد الله بن رافع مولى أم سلمة عن أبى هريرة قال أخذ رسول الله ﷺ بيدى فقال « خلق الله التربة يوم السبت وخلق الجبال فيها يوم الأحد وخلق الشجر فيها يوم الاثنين وخلق المكروه يوم الثلاثاء وخلق النور يوم الأربعاء وبث فيها الدواب يوم الخميس وخلق آدم بعد العصر يوم الجمعة من آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل » وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم وقد تكلم عليه على ابن المدينى والبخارى وغير واحد من الحفاظ وجعلوه من كلام كعب ، وأن أباهريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعا وقد حرر ذلك البيهقى .

﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يخبر تعالى بامتنانه على بنى آدم بتنويهه بذكرهم فى الملأ الأعلى قبل إيجادهم فقال تعالى (وإذ قال ربك للملائكة) أى واذكر يامحمد إذ قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك، وحكى ابن جرير عن بعض أهل العربية وهو أبو عبيدة أنه زعم أن إذ ههنا زائدة وأن تقدير الكلام وقال ربك ورده ابن جرير ، قال القرطبى وكذا رده جميع المفسرين حتى قال الزجاج هذا اجتراء من أبى عبيدة (إنى جاعل فى الأرض خليفة) أى قوما يخلف بعضهم بعضا قرنا بعد قرن وجيلا بعد جيل كما قال تعالى (هو الذى جعلكم خلائف الأرض) وقال (ويجعلكم خلفاء الأرض) وقال (ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الأرض يخلفون) وقال (فخلف من بعدهم خلف) وقرىء فى الشاذ (إنى جاعل فى الأرض خليفة) حكاها الزمخشرى وغيره ونقل القرطبى عن زيد بن على وليس المراد ههنا بالخليفة آدم عليه السلام فقط كما يقوله طائفة من المفسرين وعزاه القرطبى إلى ابن عباس وابن مسعود وجميع أهل التأويل وفى ذلك نظر بل الخلاف فى ذلك كثير حكاه الرازى فى تفسيره وغيره والظاهر أنه لم يرد آدم عينا إذ لو كان ذلك لما حسن قول الملائكة (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) فانهم أرادوا أن من هذا الجنس من يفعل ذلك وكأنهم علموا ذلك بعلم خاص أو بما فهموه من الطبيعة البشرية فانه أخبرهم أنه يخلق هذا الصنف من صلصال من حمإ مسنون أو فهموا من الخليفة أنه الذى يفصل بين الناس ما يقع بينهم من المظالم ويردعهم عن المحارم والمآثم قاله القرطبى أو أنهم قاسوهم على من سبق كما سنذكر أقوال المفسرين فى ذلك ، وقول الملائكة هذا ليس على وجه الاعتراض على الله ولا على وجه الحسد لبنى آدم كما قد يتوهمه بعض المفسرين وقد وصفهم الله تعالى بأنهم لا يسبقونه بالقول أى لا يسألونه شيئا لم يأذن لهم فيه وههنا لما أعلمهم بأنه سيخلق فى الأرض خلقا قال قتادة وقد تقدم إليهم أنهم يفسدون فيها فقالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء) الآية وإنما هو سؤال استعلام واستكشاف عن الحكمة فى ذلك يقولون ياربنا ما الحكمة فى خلق هؤلاء مع أن منهم من يفسد فى الأرض ويسفك الدماء فان كان المراد عبادتك فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك أى نصلى لك كما سيأتى . أى ولا يصدر مناشىء من ذلك وهلا وقع الاقتصار علينا ؟ قال الله تعالى مجيبا لهم عن هذا السؤال (إنى أعلم مالا تعلمون) أى إنى أعلم من المصلحة الراجحة فى خلق هذا الصنف على المفاسد التى ذكرتموها مالا تعلمون أنتم فانى سأجعل فيهم الأنبياء وأرسل فيهم الرسل ويوجد منهم الصديقون والشهداء والصالحون والعباد والزهاد والأولياء والأبرار والمقربون والعلماء العاملون والخاشعون والمحبون له تبارك وتعالى المتبعون رسله صلوات الله وسلامه عليهم ، وقد ثبت فى الصحيح أن الملائكة إذا صعدت إلى الرب تعالى بأعمال عباده يسألهم وهو أعلم كيف تركتم عبادى ؟ فيقولون أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون . وذلك لأنهم يتعاقبون فينا ويجتمعون فى صلاة الصبح وفى صلاة العصر فيمكث هؤلاء ويصعد اولئك بالأعمال كما قال عليه الصلاة والسلام « يرفع إليه عمل الليل قبل النهار وعمل النهار قبل الليل » فقولهم أتيناهم وهم يصلون وتركناهم وهم يصلون من تفسير قوله لهم (إنى أعلم

مالا تعلمون) وقيل معنى قوله تعالى جوابا لهم (إنى أعلم مالا تعلمون) إنى لى حكمة مفصلة فى خلق هؤلاء والحالة ماذكرتم لاتعلمونها ، وقيل إنه جواب (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) فقال (إنى أعلم مالا تعلمون) أى من وجود إبليس بينكم وليس هو كما وصفتم أنفسكم به . وقيل بل تضمن قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) طلبا منهم أن يسكنوا الأرض بدل بنى آدم فقال الله تعالى لهم (إنى أعلم مالا تعلمون) من أن بقاءكم فى السماء أصلح لكم وأليق بكم . ذكرها الرازى مع غيرها من الأجوبة والله أعلم

﴿ ذكر أقوال المفسرين ببسط ماذكرناه ﴾

قال ابن جرير حدثنى القاسم بن الحسن حدثنى الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك عن الحسن وأبى بكر عن الحسن وقتادة قالوا: قال الله للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قال لهم إنى فاعل هذا ومعناه أنه أخبرهم بذلك ، وقال السدى استشار الملائكة فى خلق آدم رواه ابن أبى حاتم وقال وروى عن قتادة نحوه وهذه العبارة إن لم ترجع إلى معنى الاخبار ففيها تساهل وعبارة الحسن وقتادة فى رواية ابن جرير أحسن والله أعلم (فى الأرض) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو سلمة حدثنا حماد بن عطاء بن السائب عن عبد الرحمن بن سابط أن رسول الله ﷺ قال « دحيت الأرض من مكة وأول من طاف بالبيت الملائكة فقال الله إنى جاعل فى الأرض خليفة يعنى مكة » وهذا مرسل وفى سنده ضعف وفيه مدرج وهو أن المراد بالأرض مكة والله أعلم فان الظاهر أن المراد بالأرض أعم من ذلك (خليفة) قال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ان الله تعالى قال للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة . قالوا ربنا ومايكون ذاك الخليفة قال يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضم بعضا . قال ابن جرير فكان تأويل الآية على هذا إنى جاعل فى الأرض خليفة منى يخلفنى فى الحكم بالعدل بين خلقى وإن ذلك الخليفة هو آدم ومن قام مقامه فى طاعة الله والحكم بالعدل بين خلقه وأما الافساد وسفك الدماء بغير حقها فمن غير خلفائه : قال ابن جرير وإنما معنى الخلافة التى ذكرها الله إنما هى خلافة قرن منهم قرنا قال والخليفة الفعيلة من قومك خلف فلان فلانا فى هذا الأمر إذا قام مقامه فيه بعده كما قال تعالى (ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون) ومن ذلك قيل للسطان الأعظم خليفة لأنه خلف الذى كان قبله فقام بالأمر فكان منه خلقا. قال وكان محمد بن إسحق يقول فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة) يقول ساكنا وعامرا يعمرها ويسكنها خلقا ليس منكم : قال ابن جرير وحدثنا ابو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس قال إن أول من سكن الأرض الجن فأفسدوا فيها وسفكوا فيها الدماء وقتل بعضهم بعضا قال فبعث الله إليهم إبليس فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال ثم خلق آدم فأسكنه إياها فلذلك قال (إنى جاعل فى الأرض خليفة) وقال سفيان الثورى عن عطاء بن السائب عن ابن سابط (إنى جاعل فى الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟) قال يعنون به بنى آدم وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال الله للملائكة إنى أريد أن أخلق فى الأرض خلقا وأجعل فيها خليفة وليس لله عزوجل خلق إلا الملائكة والأرض وليس فيها خلق قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها . وقدتقدم مارواه السدى عن ابن عباس وابن مسعود وغيرهما من الصحابة أن الله أعلم الملائكة بما تفعله درية آدم فقالت الملائكة ذلك وتقدم آنفا مارواه الضحاك عن ابن عباس أن الجن أفسدوا فى الأرض قبل بنى آدم فقالت الملائكة ذلك فقاسوا هؤلاء بأولئك : وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا ابو معاوية عن الأعمش عن بكير بن الأخنس عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو قال كان الجن بنو الجان فى الأرض قبل أن يخلق آدم بألفى سنة فأفسدوا فى الارض وسفكوا الدماء فبعث الله جندا من الملائكة فضربوهم حتى ألحقوا بجزائر البحور فقال الله للملائكة : إنى جاعل فى الارض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ قال إنى أعلم مالا تعلمون . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس

عن أبى العالية فى قوله تعالى (إنى جاعل فى الأرض خليفة ـ إلى قوله ـ أعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) قال خلق الله الملائكة يوم الأربعاء وخلق الجن يوم الخميس وخلق آدم يوم الجمعة فكفر قوم من الجن فكانت الملائكة تهبط إليهم فى الأرض فتقاتلهم ببغيهم وكان الفساد فى الأرض فمن ثم قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها كما أفسدت الجن ويسفك الدماء كما سفكوا قال ابن أبى حاتم وحدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا مبارك بن فضالة أخبرنا الحسن قال : قال الله للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة قال لهم إنى فاعل فآمنوا بربهم فعلمهم علماً وطوى عنهم علماً علمه ولم يعلموه فقالوا بالعلم الذى علمهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ قال إنى أعلم مالا تعلمون . قال الحسن إن الجن كانوا فى الأرض يفسدون ويسفكون الدماء ولكن جعل الله فى قلوبهم أن ذلك سيكون فقالوا بالقول الذى علمهم . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله (أتجعل فيها من يفسد فيها) كان الله أعلمهم أنه إذا كان فى الأرض خلق أفسدوا فيها وسفكوا الدماء فذلك حين قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا هشام الرازى حدثنا ابن المبارك عن معروف يعنى ابن خربوذ المكى عمن سمع أبا جعفر محمد بن على يقول السجل ملك وكان هاروت وماروت من أعوانه وكان له فى كل يوم ثلاث لحات فى أم الكتاب فنظر نظرة لم تكن له فأبصر فيها خلق آدم وما كان فيه من الأمور فأسر ذلك إلى هاروت وماروت وكانا من أعوانه فلما قال تعالى ، إنى جاعل فى الأرض خليفة — قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء . قالا ذلك استطالة على الملائكة . وهذا أثر غريب وبتقدير صحته إلى أبى جعفر محمد بن على بن الحسين الباقر فهو نقله عن أهل الكتاب وفيه نكارة توجب رده والله أعلم : ومقتضاه أن الذين قالوا ذلك إنما كانوا اثنين فقط وهو خلاف السياق وأغرب منه ما رواه ابن أبى حاتم أيضا حيث قال : حدثنا أبى حدثنا هشام بن أبى عبيد الله حدثنا عبد الله بن يحيى بن أبى كثير قال سمعت أبى يقول إن الملائكة الذين قالوا (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) كانوا عشرة آلاف فخرجت نار من عند الله فأحرقتهم وهذا أيضا إسرائيلى منكر كالذى قبله والله أعلم . قال ابن جرير إنما تكلموا بما أعلمهم الله أنه كائن من خلق آدم فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء : قال ابن جرير وقال بعضهم إنما قالت الملائكة ما قالت أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء لأن الله أذن لهم فى السؤال عن ذلك بعد ما أخبرهم أن ذلك كائن من بنى آدم فسألته الملائكة فقالت على التعجب منها وكيف يعصونك يارب وأنت خالقهم فأجابهم ربهم (إنى أعلم مالا تعلمون) يعنى أن ذلك كائن منهم وإن لم تعلموه أنتم ومن بعض ماترونه لى طائعا قال وقال بعضهم ذلك من الملائكة على وجه الاسترشاد عما لم يعلموا من ذلك فكأنهم قالوا يارب خبرنا — مسئلة استخبار منهم لا على وجه الانكار — واختاره ابن جرير ، وقال سعيد عن قتادة قوله تعالى (وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة) قال استشار الملائكة فى خلق آدم فقالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء — وقد علمت الملائكة أنه لا شىء أكره عند الله من سفك الدماء والفساد فى الأرض — ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم ما لا تعلمون فكان فى علم الله أنه سيكون من ذلك الخليفة أنبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة قال وذكر لنا عن ابن عباس أنه كان يقول : إن الله لما أخذ فى خلق آدم عليه السلام قالت الملائكة ما الله خالق خلقا أكرم عليه منا ولا أعلم منا فابتلوا بخلق آدم وكل خلق مبتلى كما ابتليت السموات والأرض بالطاعة فقال الله تعالى (ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين) وقوله تعالى (ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك) : قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال التسبيح التسبيح والتقديس الصلاة : وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال يقولون نصلى لك وقال مجاهد ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال نعظمك ونكبرك . وقال الضحاك التقديس التطهير وقال محمد بن إسحاق ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال لا نعصى ولا نأتى شيئاً تكرهه . وقال ابن جرير التقديس هو التعظيم والتطهير . ومنه قولهم سبوح قدوس يعنى بقولهم سبوح تنزيه له ، وبقولهم قدوس طهارة وتعظيم له : وكذلك قيل للأرض أرض مقدسة يعنى بذلك المطهرة

فمعنى قوله الملائكة إذاً (ونحن نسبح بحمدك) ننزهك ونبرئك مما يضيفه إليك اهل الشرك بك (ونقدس لك) ننسبك إلى ماهو من صفاتك من الطهارة من الأدناس وما اضاف إليك اهل الكفر بك . وفى صحيح مسلم عن ابى ذر رضى الله عنه ان رسول الله ﷺ سئل اى الكلام افضل ؟ قال « ما اصطفى الله لملائكته سبحان الله وبحمده » وروى البيهقى عن عبد الرحمن بن قرظ ان رسول الله ﷺ ليلة اسرى به سمع تسبيحاً فى السموات العلا « سبحان العلى الأعلى سبحانه وتعالى » (قال إنى اعلم مالا تعلمون) قال قتادة فكان فى علم الله انه سيكون فى تلك الخليقة انبياء ورسل وقوم صالحون وساكنو الجنة وسيأتى عن ابن مسعود وابن عباس وغير واحد من الصحابة والتابعين اقوال فى حكمة قوله تعالى (قال إنى اعلم مالا تعلمون)

وقد استدل القرطبى وغيره بهذه الآية على وجوب نصب الخليفة ليفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه ويقطع تنازعهم وينتصر لمظلومهم من ظالمهم ويقيم الحدود ويزجر عن تعاطى الفواحش إلى غير ذلك من الامور المهمة التى لا تمكن إقامتها إلابالإمام ومالايتم الواجب إلابه فهو واجب . والإمامة تنال بالنص كما يقوله طائفة من اهل السنة فى ابى بكرأو بالايماء إليه كما يقول آخرون منهم اوباستخلاف الخليفة آخر بعده كما فعل الصديق بعمر بن الخطاب او بتركه شورى فى جماعة صالحين كذلك كما فعله عمر اوباجتماع اهل الحل والعقد على مبايعته اوبمبايعة واحد منهم له فيجب التزامها عند الجمهور وحكى على ذلك إمام الحرمين الاجماع والله اعلم . اوبقهر واحد الناس على طاعته فتجب لئلا يؤدى ذلك إلى الشقاق والاختلاف وقد نص عليه الشافعى وهل يجب الاشهاد على عقد الإمامة ؟ فيه خلاف فمنهم من قال لا يشترط وقيل بلى ويكفى شاهدان وقال الجبائى يجب أربعة وعاقد ومعقود له كما ترك عمر رضى الله عنه الأمر شورى بين ستة فوقع الامر على عاقد وهو عبد الرحمن بن عوف ومعقود له وهو عثمان ، واستنبط وجوب الاربعة الشهود من الاربعة الباقين وفى هذا نظر والله اعلم

ويجب أن يكون ذكراً حرا بالغا عاقلا مسلما عدلا مجتهدا بصيرا سليم الأعضاء خبيرا بالحروب والآراء قرشيا على الصحيح ولا يشترط الهاشمى ولا المعصوم من الخطأ خلافا للغلاة الروافض ، ولوفسق الامام هل ينعزل أم لا ؟ فيه خلاف والصحيح أنه لا ينعزل لقوله عليه الصلاة والسلام « إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان » وهل له أن يعزل نفسه فيه خلاف ، وقد عزل الحسن بن على رضى الله عنه نفسه وسلم الأمر إلى معاوية لكن هذا لعذر وقد مدح على ذلك : فأما نصب إمامين فى الأرض أو أكثر فلا يجوز لقوله عليه الصلاة والسلام « من جاءكم وأمركم جميع يريد أن يفرق بينكم فاقتلوه كائنا من كان » وهذا قول الجمهور ، وقد حكى الاجماع على ذلك غير واحد منهم إمام الحرمين وقالت الكرامية يجوز اثنان فاكثر كما كان على ومعاوية إمامين واجبى الطاعة قالوا وإذا جاز بعث نبيين فى وقت واحد وأكثر جاز ذلك فى الإمامة لأن النبوة أعلى رتبة بلا خلاف وحكى إمام الحرمين عن الأستاذ ابى إسحاق أنه جوز نصب إمامين فاكثر إذا تباعدت الأقطار واتسعت الأقاليم بينهما وتردد إمام الحرمين فى ذلك قلت وهذا يشبه حال الخلفاء بنى العباس بالعراق والفاطميين بمصر والأمويين بالمغرب ولنقرر هذا كله فى موضع آخر من كتاب الاحكام إن شاء الله تعالى

﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * قَالُوا۟ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ * قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴾

هذا مقام ذكر الله تعالى فيه شرف آدم على الملائكة بما اختصه من علم أسماء كل شىء دونهم وهذا كان بعد سجودهم له وإنما قدم هذا الفصل على ذاك لمناسبة ما بين هذا المقام وعدم علمهم بحكمة خلق الخليفة حين سألوا عن ذلك

فأخبرهم تعالى بأنه يعلم مالا يعلمون ولهذا ذكر الله هـذا المقام عقيب هذا ليبين لهم شرف آدم بما فضل به عليهم فى العلم فقال تعالى (وعلم آدم الأسماء كلها) قال السدى عمن حدثه عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه أسماء ولده إنسانا إنسانا والدواب فقيل هذا الحمار ، هذا الجمل ، هذا الفرس ، وقال الضحاك عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال هى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودواب وسماء وأرض وسهل وبحر وخيل وحمار وأشباه ذلك من الأمم وغيرها ، وروى ابن أبى حاتم وابن جرير من حديث عاصم بن كليب عن سعيد بن معبد عن ابن عباس (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه اسم الصحفة والقدر قال نعم حتى الفسوة والفسية ، وقال مجاهد (وعلم آدم الأسماء كلها) قال علمه اسم كل دابة وكل طير وكل شىء ، وكذلك روى عن سعيد بن جبير وقتادة وغيرهم من السلف أنه علمه أسماء كل شىء وقال الربيع فى رواية عنه أسماء الملائكة . وقال حميد الشامى أسماء النجوم . وقال عبد الرحمن بن زيد علمه أسماء ذريته كلهم . واختار ابن جرير أنه علمه أسماء الملائكة وأسماء الذرية لأنه قال (ثم عرضهم) وهذا عبارة عما يعقل وهذا الذى رجح به ليس بلازم فانه لاينفى أن يدخل معهم غيرهم ويعبر عن الجميع بصيغة من يعقل للتغليب كما قال تعالى (والله خلق كل دابة من ماء فمنهم من يمشى على بطنه ومنهم من يمشى على رجلين ومنهم من يمشى على أربع يخلق الله مايشاء إن الله على كل شىء قدير) وقد قرأ عبد الله بن مسعود ثم عرضهن . وقرأ أبى بن كعب ثم عرضها أى المسميات . والصحيح أنه علمه أسماء الأشياء كلها ذواتها وصفاتها وأفعالها كما قال ابن عباس حتى الفسوة والفسية يعنى أسماء الذوات والأفعال المكبر والمصغر ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية فى كتاب التفسير من صحيحه . حدثنا مسلم ابن إبراهيم حدثنا هشام عن قتادة عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ قال : وقال لى خليفة حدثنا يزيد بن زريع حدثنا سعيد عن قتادة عن أنس عن النبى ﷺ قال . « يجتمع المؤمنون يوم القيامة فيقولون لو استشفعنا إلى ربنا فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء فاشفع لنا إلى ربك حتى يريحنا من مكاننا هذا ، فيقول لست هناكم ويذكر ذنبه فيستحيى ، ائتوا نوحا فانه أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض . فيأتونه فيقول لست هناكم ، ويذكر سؤاله ربه مالبس له به علم فيستحيى . فيقول ائتوا خليل الرحمن فيأتونه فيقول لست هناكم فيقول ائتوا موسى عبدا كلمه الله وأعطاه التوراة فيأتونه فيقول لست هناكم ويذكر قتل النفس بغير نفس فيستحيى من ربه . فيقول ائتوا عيسى عبد الله ورسوله وكلمة الله وروحه فيأتونه فيقول لست هناكم ائتوا محمدا عبدا غفرله ما تقدم من ذنبه وماتأخر فيأتونى فأنطلق حتى أستأذن على ربى فيأذن لى فاذا رأيت ربى وقعت ساجدا فيدعنى ماشاء الله ثم يقال ارفع رأسك وسل تعطه وقل يسمع واشفع تشفع ، فأرفع رأسى فأحمده بتحميد يعلمنيه ثم أشفع فيحدلى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود اليه فاذا رأيت ربى مثله ثم اشفع فيحد لى حدا فأدخلهم الجنة ثم أعود الثالثة ثم أعود الرابعة فأقول مابقى فى النار إلا من حبسه القرآن ووجب عليه الخلود » هكذا ساق البخارى هذا الحديث ههنا ، وقد رواه مسلم والنسائى من حديث هشام وهو ابن أبى عبد الله الدستوائى عن قتادة به وأخرجه مسلم والنسائى وابن ماجه من حديث سعيد وهو ابن أبى عروبة عن قتادة ، ووجه إيراده ههنا والمقصود منه قوله عليه الصلاة والسلام فيأتون آدم فيقولون أنت أبو الناس خلقك الله بيده وأسجد لك ملائكته وعلمك أسماء كل شىء . فدل هذا على أنه علمه أسماء جميع المخلوقات ولهذا قال (ثم عرضهم على الملائكة) يعنى المسميات كما قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ثم عرض تلك الأسماء على الملائكة (فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (وعلم آدم الأسماء كلها) ثم عرض الخلق على الملائكة . وقال ابن جريج عن مجاهد ثم عرض أصحاب الأسماء على الملائكة وقال ابن جرير : حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى الحجاج عن جرير بن حازم ومبارك بن فضالة عن الحسن وأبى بكر عن الحسن وقتادة قالا : علمه اسم كل شىء وجعل يسمى كل شىء باسمه وعرضت عليه أمة أمة ، وبهذا الاسناد عن الحسن وقتادة فى قوله تعالى (إن كنتم صادقين) إنى لم أخلق خلقا إلا كنتم أعلم منه فأخبرونى باسماء

هؤلاء إن كنتم صادقين . وقال الضحاك عن ابن عباس (إن كنتم صادقين) إن كنتم تعلمون أنى لم أجعل فى الأرض خليفة وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة إن كنتم صادقين أن بنى آدم يفسدون فى الأرض ويسفكون الدماء وقال ابن جرير وأولى الأقوال فى ذلك تأويل ابن عباس ومن قال بقوله ومعنى ذلك فقال أنبئونى بأسماء من عرضته عليكم أيها الملائكة القائلون : أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ؟ من غيرنا أم منا فنحن نسبح بحمدك ونقدس لك . إن كنتم صادقين فى قيلكم إنى إن جعلت خليفتى فى الأرض من غيركم عصانى وذريته وأفسدوا وسفكوا الدماء وإن جعلتكم فيها أطعتمونى واتبعتم أمرى بالتعظيم لى والتقديس فاذا كنتم لاتعلمون أسماء هؤلاء الذين عرضت عليكم وأنتم تشاهدونهم فأنتم بما هو غير موجود من الأمور الكائنة التى لم توجد أحرى أن تكونوا غير عالمين (قالوا سبحانك لاعلم لنا إلا ماعلمتنا إنك أنت العليم الحكيم) هذا تقديس وتنزيه من الملائكة لله تعالى ان يحيط احد بشىء من علمه إلا بما شاء وان يعلموا شيئا إلا ماعلمهم الله تعالى ولهذا قالوا (سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم) أى العليم بكل شىء الحكيم فى خلقك وأمرك وفى تعليمك ما تشاء ومنعك ما تشاء ، لك الحكمة فى ذلك والعدل التام . قال ابن أبى حاتم : حدثنا ابو سعيد الأشج حدثنا حفص بن غياث عن حجاج عن ابن أبى مليكة عن ابن عباس : سبحان الله ، قال تنزيه الله نفسه عن السوء ثم قال عمر لعلى وأصحابه عنده لاإله إلا الله قد عرفناها فما سبحان الله فقال له على كلمة أحبها الله لنفسه ورضيها وأحب أن تقال . قال وحدثنا أبى حدثنا فضيل بن النضر بن عدى قال سأل رجل ميمون بن مهران عن سبحان الله قال اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء

قوله تعالى (قال يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) قال زيد بن أسلم قال أنت جبرائيل أنت ميكائيل أنت إسرافيل حتى عدد الأسماء كلها حتى بلغ الغراب . وقال مجاهد فى قول الله (قال يا آدم انبئهم بأسمائهم) قال اسم الحمامة والغراب واسم كل شىء وروى عن سعيد بن جبير والحسن وقتادة نحو ذلك فلما ظهر فضل آدم عليه السلام على الملائكة عليهم السلام فى سرده ما علمه الله تعالى من أسماء الأشياء ، قال الله تعالى للملائكة (ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) أى ألم أتقدم إليكم انى أعلم الغيب الظاهر والخفى كما قال تعالى (وإن تجهر بالقول فانه يعلم السر وأخفى) وكما قال إخبارا عن الهدهد أنه قال لسليمان (ألا يسجدوا لله الذى يخرج الخبء فى السموات والأرض ويعلم ماتخفون وما تعلنون * الله لا إله إلا هو رب العرش العظيم) وقيل فى قوله تعالى (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) غير ما ذكرناه فروى الضحاك عن ابن عباس (وأعلم ما تبدون وما كنتم تكتمون) قال أعلم السر كما أعلم العلانية يعنى ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار . وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة قال قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء الآية فهذا الذى أبدوا (وما كنتم تكتمون) يعنى ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر وكذلك قال سعيد بن جبير ومجاهد والسدى والضحاك والثورى . واختار ذلك ابن جرير وقال أبو العالية والربيع بن أنس والحسن وقتادة هو قولهم لم يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم عليه منه : وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) فكان الذى أبدوا هو قولهم . أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء وكان الذى كتموا بينهم هو قولهم لن يخلق ربنا خلقا إلا كنا أعلم منه وأكرم . فعرفوا ان الله فضل عليهم آدم فى العلم والكرم وقال ابن جرير حدثنا يونس حدثنا ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى قصة الملائكة وآدم : فقال الله للملائكة كما لم تعلموا هذه الأسماء فليس لكم علم إنما أردت أن أجعلهم ليفسدوا فيها ، هذا عندى قد علمته فكذلك أخفيت عنكم انى أجعل فيها من يعصينى ومن يطيعنى ، قال وقد سبق من الله (لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين) قال ولم تعلم الملائكة ذلك ولم يدروه قال فلما رأوا ما أعطى الله آدم من العلم أقروا له بالفضل .

وقال ابن جرير وأولى الأقوال فى ذلك قول ابن عباس وهو أن معنى قوله تعالى : وأعلم ماتبدون — وأعلم مع علمى غيب السموات والأرض ماتظهرونه بألسنتكم وما كنتم تخفون فى أنفسكم فلايخفى على شىء سواء عندى سرائركم وعلانيتكم والذى أظهروه بألسنتهم قولهم أتجعل فيها من يفسد فيها ، والذى كانوا يكتمون ما كان عليه منطويا إبليس من الخلاف على الله فى أوامره والتكبر عن طاعته : قال وصح ذلك كما تقول العرب قتل الجيش وهزموا ، وإنما قتل الواحد أو البعض وهزم الواحد أو البعض فيخرج الخبر عن المهزوم منه والمقتول مخرج الخبر عن جميعهم كما قال تعالى (إن الذين ينادونك من وراء الحجرات) ذكر أن الذى نادى إنما كان واحدا من بنى تميم ، قال وكذلك قوله (وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون)

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَٰٓئِكَةِ ٱسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوٓا إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

وهذه كرامة عظيمة من الله تعالى لآدم امتن بها على ذريته حيث أخبر أنه تعالى أمر الملائكة بالسجود لآدم ، وقد دل على ذلك أحاديث أيضا كثيرة منها حديث الشفاعة المتقدم وحديث موسى عليه السلام « رب أرنى آدم الذى أخرجنا ونفسه من الجنة فلما اجتمع به قال أنت آدم الذى خلقه الله بيده ونفخ فيه من روحه وأسجد له ملائكته » قال وذكر الحديث كما سيأتى إن شاء الله . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد حدثنا بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس قال كان إبليس من حى من أحياء الملائكة يقال لهم الجن خلقوا من نار السموم من بين الملائكة وكان اسمه الحارث وكان خازنا من خزان الجنة قال وخلقت الملائكة كلهم من نور غير هذا الحى قال وخلقت الجن الذين ذكروا فى القرآن من مارج من نار وهو لسان النار الذى يكون فى طرفها إذا ألهبت قال وخلق الانسان من طين فاول من سكن الأرض الجن فافسدوا فيها وسفكوا الدماء وقتل بعضهم بعضا ، قال فبعث الله إليهم إبليس فى جند من الملائكة وهم هذا الحى الذين يقال لهم الجن فقتلهم إبليس ومن معه حتى ألحقهم بجزائر البحور وأطراف الجبال فلما فعل إبليس ذلك اغتر فى نفسه فقال قد صنعت شيئا لم يصنعه أحد قال فاطلع الله على ذلك من قلبه ولم تطلع عليه الملائكة الذين كانوا معه فقال الله تعالى للملائكة الذين كانوا معه : إنى جاعل فى الأرض خليفة . فقالت الملائكة مجيبين له : اتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء كما افسدت الجن وسفكت الدماء وإنما بعثتنا عليهم لذلك ؟ فقال الله تعالى إنى اعلم مالا تعلمون ، يقول إنى قد اطلعت من قلب إبليس على مالم تطلعوا عليه من كبره واغتراره قال ثم امر بتربة آدم فرفعت فخلق الله آدم من طين لازب واللازب اللازج الطيب من حمإ مسنون منتن وإنما كان حمأ مسنونا بعد التراب فخلق منه آدم بيده قال فمكث اربعين ليلة جسداً ملقى وكان إبليس ياتيه فيضربه برجله فيصلصل فيصوت فهو قول الله تعالى (من صلصال كالفخار) يقول كالشىء المنفرج الذى ليس بمصمت قال ثم يدخل فى فيه ويخرج من دبره ويدخل من دبره ويخرج من فيه ثم يقول لست شيئاً للصلصلة ولشىء ما خلقت ولئن سلطت عليك لأهلكنك ولئن سلطت على لأعصينك . قال فلما نفخ الله فيه من روحه أتت النفخة من قبل راسه فجعل لايجرى شىء منها فى جسده إلا صار لحماً ودماً فلما انتهت النفخة إلى سرته نظر إلى جسده فأعجبه ما راى من جسده فذهب لينهض فلم يقدر فهو قول الله تعالى (وخلق الانسان عجولا) قال ضجراً لاصبر له على سراء ولاضراء قال فلما تمت النفخة فى جسده عطس فقال « الحمد لله رب العالمين » بالهام الله فقال الله له « يرحمك الله يا آدم » قال ثم قال تعالى للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة دون الملائكة الذين فى السموات اسجدوا لآدم فسجدوا كلهم اجمعون إلا إبليس ابى واستكبر لما كان حدث نفسه من الكبر والاغترار فقال لا اسجد له وانا خير منه واكبر سناً واقوى خلقاً خلقتنى من نار وخلقته من طين يقول إن النار اقوى من الطين قال فلما ابى إبليس ان يسجد ابلسه الله اى آيسه من الخير كله وجعله شيطانا رجيما عقوبة لمعصيته ثم علم آدم الأسماء كلها وهى هذه الأسماء التى يتعارف بها الناس إنسان ودابة وارض وسهل وبحر وجبل وحمار واشباه ذلك من الأمم وغيرها ثم عرض هذه الأسماء على اولئك

الملائكة يعنى الملائكة الذين كانوا مع إبليس الذين خلقوا من نار السموم وقال لهم (أنبئونى بأسماء هؤلاء) أى يقول أخبرونى بأسماء هؤلاء (إن كنتم صادقين) إن كنتم تعلمون لم أجعل فى الأرض خليفة ، قال فلما علمت الملائكة موجدة الله عليهم فيما تكلموا به من علم الغيب الذى لايعلمه غيره الذى ليس لهم به علم (قالوا سبحانك) تنزيها لله من أن يكون أحد يعلم الغيب غيره تبنا إليك (لاعلم لنا إلا ما علمتنا) تبريا منهم من علم الغيب إلاما علمتنا كما علمت آدم فقال (يا آدم أنبئهم بأسمائهم) يقول أخبرهم بأسمائهم (فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم) أيتها الملائكة خاصة (إنى أعلم غيب السموات والأرض) ولايعلم غيرى (وأعلم ماتبدون) يقول ماتظهرون (وما كنتم تكتمون) يقول أعلم السر كما أعلم العلانية يعنى ما كتم إبليس فى نفسه من الكبر والاغترار هذا سياق غريب وفيه أشياء فيها نظر يطول مناقشتها وهذا الاسناد إلى ابن عباس يروى به تفسير مشهور وقال السدى فى تفسيره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن أناس من أصحاب النبى ﷺ لما فرغ الله من خلق ما أحب استوى على العرش فجعل إبليس على ملك السماء الدنيا وكان من قبيلة من الملائكة يقال لهم الجن وإنما سموا الجن لأنهم خزان الجنة وكان إبليس مع ملكه خازنا فوقع فى صدره وقال ما أعطانى الله هذا إلا لمزية لى على الملائكة فلما وقع ذلك الكبر فى نفسه اطلع الله على ذلك منه فقال الله للملائكة (إنى جاعل فى الأرض خليفة) فقالوا ربنا وما يكون ذلك الخليفة ؟ قال يكون له ذرية يفسدون فى الأرض ويتحاسدون ويقتل بعضهم بعضا قالوا ربنا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك ؟ قال إنى أعلم مالا تعلمون) يعنى من شأن إبليس . فبعث الله جبريل إلى الارض ليأتيه بطين منها فقالت الأرض إنى أعوذ بالله منك أن تنقص منى أو تشينني فرجع ولم يأخذ وقال يارب إنها عاذت بك فأعذتها ، فبعث ميكائيل فعاذت منه فأعاذها ، فرجع فقال كما قال جبريل فبعث ملك الموت فعاذت منه فقال وأنا أعوذ بالله أن أرجع ولم أنفذ أمره ، فأخذ من وجه الأرض وخلط ولم يأخذ من مكان واحد وأخذ من تربة حمراء وبيضاء وسوداء فلذلك خرج بنو آدم مختلفين فصعد به قبل التراب حتى عاد طينا لازبا واللازب هو الذى يلتزق بعضه ببعض ثم قال للملائكة (إنى خالق بشرا من طين * فاذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين) فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه ليقول له تتكبر عما عملت بيدى ولم أتكبر أنا عنه بخلقه بشراً ، فكان جسداً من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه فكان أشدهم فزعا منه إبليس فكان يمر به فيضربه فيصوت الجسد كما يصوت الفخار يكون له صلصلة فذلك حين يقول (من صلصال كالفخار) ويقول لأمر ماخلقت ، ودخل من فيه فخرج من دبره ، وقال للملائكة لاترهبوا من هذا فان ربكم صمد وهذا أجوف لئن سلطت عليه لأهلكنه ، فلما بلغ الحين الذى يريد الله عز وجل أن ينفخ فيه الروح قال للملائكة إذا نفخت فيه من روحى فاسجدوا له ، فلما نفخ فيه الروح فدخل الروح فى رأسه عطس فقالت الملائكة قل الحمد لله فقال الحمدلله ، فقال له الله « يرحمك ربك » فلما دخلت الروح فى عينيه نظر إلى ثمار الجنة فلما دخل الروح إلى جوفه اشتهى الطعام فوثب قبل أن تبلغ الروح رجليه عجلان إلى ثمار الجنة فذلك حين يقول الله تعالى (خلق الانسان من عجل) فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس أبى أن يكون مع الساجدين ، أبى واستكبر وكان من الكافرين ، قال الله له مامنعك أن تسجد إذ أمرتك لما خلقت بيدى ؟ قال أنا خير منه لم أكن لأسجد لبشر خلقته من طين ، قال الله له (اخرج منها فما يكون لك) يعنى ما ينبغى لك (أن تتكبر فيها فاخرج إنك من الصاغرين) والصغار هو الذل قال (وعلم آدم الأسماء كلها) ثم عرض الخلق على الملائكة (فقال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين) أن بنى آدم يفسدون فى الارض ويسفكون الدماء ، فقالوا (سبحانك لاعلم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم قال) الله (يا آدم أنبئهم بأسمائهم فلما أنبأهم بأسمائهم قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السموات والأرض وأعلم ماتبدون وما كنتم تكتمون) قال : قولهم (أتجعل فيها من يفسد فيها) فهذا الذى ابدوا (وأعلم ما تكتمون) يعنى ما أسر إبليس فى نفسه من الكبر ، فهذا الاسناد إلى هؤلاء الصحابة مشهور فى تفسير السدى ويقع فيه إسرائيليات كثيرة فلعل بعضها مدرج ليس من كلام الصحابة

أو أنهم أخذوه من بعض الكتب المتقدمة والله أعلم . والحاكم يروى فى مستدركه بهذا الإسناد بعينه أشياء ويقول على شرط البخارى .

والغرض أن الله تعالى لما أمر الملائكة بالسجود لآدم دخل إبليس فى خطابهم لأنه وإن لم يكن من عنصرهم إلا أنه كان قد تشبه بهم وتوسم بأفعالهم ، فلهذا دخل فى الخطاب لهم وذم فى مخالفة الأمر ، وسنبسط المسألة إن شاء الله تعالى عند قوله (إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه) ولهذا قال محمد بن إسحاق عن خلاد ابن عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال : كان إبليس قبل أن يركب المعصية من الملائكة اسمه عزازيل وكان من سكان الأرض ، وكان من أشد الملائكة اجتهادا ، وأكثرهم علماً ، فذلك دعاه إلى الكبر ، وكان من حى يسمون جنا وفى رواية عن خلاد عن عطاء عن طاوس أو مجاهد عن ابن عباس أو غيره بنحوه . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سعيد بن سليمان حدثنا عباد يعنى ابن العوام عن سفيان بن حسين عن يعلى بن مسلم عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان إبليس اسمه عزازيل ، وكان من أشراف الملائكة من ذوى الأجنحة الأربعة ، ثم أبلس بعد وقال سنيد : عن حجاج عن ابن جريج قال : قال ابن عباس : كان إبليس من أشراف الملائكة وأكرمهم قبيلة ، وكان خازنا على الجنان ، وكان له سلطان سماء الدنيا ، وكان له سلطان الأرض ، وهكذا روى الضحاك وغيره عن ابن عباس سواء وقال صالح مولى التوأمة عن ابن عباس : إن من الملائكة قبيلا يقال لهم الجن : وكان إبليس منهم ، وكان يسوس مابين السماء والأرض فعصى فمسخه الله شيطانا رجيما ، رواه ابن جرير . وقال قتادة عن سعيد بن المسيب : كان إبليس رئيس ملائكة سماء الدنيا . وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار حدثنا عدى ابن أبى عدى عن عوف عن الحسن قال . ما كان إبليس من الملائكة طرفة عين قط وإنه لأصل الجن كما أن آدم أصل الإنس ، وهذا إسناد صحيح عن الحسن ، وهكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم سواء . وقال شهر بن حوشب : كان إبليس من الجن الذين طردتهم الملائكة فأسره بعض الملائكة فذهب به إلى السماء ، رواه ابن جرير : وقال سنيد بن داود : حدثنا هشيم أنبأنا عبد الرحمن بن يحيى عن موسى بن تمير وعثمان بن سعيد بن كامل عن سعد بن مسعود قال : كانت الملائكة تقاتل الجن فسبى إبليس وكان صغيراً فكان مع الملائكة يتعبد معها فلما أمروا بالسجود لآدم سجدوا فأبى إبليس فلذلك قال تعالى (إلا إبليس كان من الجن) وقال ابن جرير حدثنا محمد بن سنان البزاز حدثنا أبو عاصم عن شريك عن رجل عن عكرمة عن ابن عباس قال : إن الله خلق خلقا فقال اسجدوا لآدم فقالوا لا نفعل فبعث الله عليهم نارا فأحرقتهم ، ثم خلق خلقا آخر فقال (إنى خالق بشراً من طين) اسجدوا لآدم قال فأبوا فبعث الله عليهم ناراً فأحرقتهم ، ثم خلق هؤلاء فقال اسجدوا لآدم قالوا نعم وكان إبليس من أولئك الذين أبوا أن يسجدوا لآدم — وهذا غريب ولا يكاد يصح إسناده فان فيه رجلا مبهما ومثله لا يحتج به والله أعلم . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة حدثنا صالح بن حيان حدثنا عبد الله بن بريدة : قوله تعالى (وكان من الكافرين) من الذين أبوا فأحرقتهم النار وقال أبو جعفر رضى الله عنه عن الربيع عن أبى العالية (وكان من الكافرين) يعنى من العاصين وقال السدى (وكان من الكافرين) الذين لم يخلقهم الله يومئذ يكونون بعد ، وقال محمد بن كعب القرظى ابتدأ الله خلق إبليس على الكفر والضلالة وعمل بعمل الملائكة فصيره الله إلى ما أبدى عليه خلقه من الكفر ، قال الله تعالى (وكان من الكافرين) وقال قتادة فى قوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم) فكانت الطاعة لله والسجدة لآدم أكرم الله آدم أن أسجد له ملائكته ، وقال بعض الناس كان هذا سجود تحية وسلام وإكرام كما قال تعالى (ورفع أبويه على العرش وخروا له سجدا وقال يا أبت هذا تأويل رؤياى من قبل قد جعلها ربى حقا) وقد كان هذا مشروعا فى الأمم الماضية ولكنه نسخ فى ملتنا قال معاذ : قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لأساقفتهم وعلمائهم فأنت يارسول الله أحق أن يسجد لك فقال « لا لو كنت آمرا بشرا أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها » ورجحه الرازى وقال بعضهم بل كانت السجدة لله وآدم قبلة فيها كما قال تعالى (أقم الصلاة لدلوك الشمس) وفى هذا التنظير نظر والأظهر أن القول الأول أولى

والسجدة لآدم إكراما وإعظاما واحتراما وسلاما وهى طاعة لله عزّ وجلّ لأنها امتثال لأمره تعالى وقد قواه الرازى فى تفسيره وضعف ما عداه من القولين الآخرين وهما كونه جعل قبلة إذ لا يظهر فيه شرف والآخر أن المراد بالسجود الخضوع لا الانحناء ووضع الجبهة على الأرض وهو ضعيف كما قال ، وقال قتادة فى قوله تعالى (فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين) حسد عدو الله إبليس آدم عليه السلام على ما أعطاه الله من الكرامة وقال أنا نارى وهذا طينى وكان بدء الذنوب الكبر استكبر عدو الله أن يسجد لآدم عليه السلام قلت وقد ثبت فى الصحيح « لا يدخل الجنة من كان فى قلبه مثقال حبة من خردل من كبر » وقد كان فى قلب إبليس من الكبر — والكفر — والعناد ما اقتضى طرده وإبعاده عن جناب الرحمة وحضرة القدس قال بعض المعربين وكان من الكافرين أى وصار من الكافرين بسبب امتناعه كما قال (فكان من المغرقين) وقال (فتكونا من الظالمين) وقال الشاعر

بتيهاء قفر والمطى كأنها * قطا الحزن قد كانت فراخا بيوضها

أى قد صارت وقال ابن فورك تقديره وقد كان فى علم الله من الكافرين ورجحه القرطبى وذكرهنا مسألة فقال قال علماؤنا من أظهر الله على يديه ممن لبس بنبى كرامات وخوارق للعادات فليس ذلك دالا على ولايته خلافا لبعض الصوفية والرافضة هذا لفظه ثم استدل على ما قال بأنا لانقطع بهذا الذى جرى الخارق على يديه انه يوافى الله بالإيمان وهو لا يقطع لنفسه بذلك يعنى والولى الذى يقطع له بذلك فى نفس الأمر قلت وقد استدل بعضهم على ان الخارق قد يكون على يدى غير الولى بل قد يكون على يد الفاجر والكافر أيضا بما ثبت عن ابن صياد أنه قال هو الدخ حين خبأ له رسول الله ﷺ (فارتقب يوم تأت السماء بدخان مبين) وبما كان يصدر عنه أنه كان يملأ الطريق إذا غضب حتى ضربه عبد الله بن عمر ، وبما ثبتت به الأحاديث عن الدجال بما يكون على يديه من الخوارق الكثيرة من انه يأمر السماء أن تمطر فتمطر والأرض أن تنبت فتنبت وتتبعه كنوز الأرض مثل اليعاسيب وأنه يقتل ذلك الشاب ثم يحييه إلى غير ذلك من الأمور المهولة . وقد قال يونس بن عبد الأعلى الصدفى قلت للشافعى كان الليث بن سعد يقول : إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة فقال الشافعى : قصر الليث رحمه الله بل إذا رأيتم الرجل يمشى على الماء ويطير فى الهواء فلا تغتروا به حتى تعرضوا أمره على الكتاب والسنة (١) وقد حكى الرازى وغيره قولين للعلماء هل المأمور بالسجود لآدم خاص بملائكة الارض أو عام فى ملائكة السموات والارض وقد رجح كلا من القولين طائفة وظاهر الآية الكريمة العموم (فسجد الملائكة كلهم أجمعون إلا إبليس) فهذه أربعة أوجه مقوية للعموم والله أعلم .

﴿ وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ * فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ ﴾

يقول الله تعالى إخبارا عما أكرم به آدم : بعد أن أمر الملائكة بالسجود له فسجدوا إلا إبليس انه أباحه الجنة يسكن منها حيث يشاء ويأكل منها ماشاء رغدا اى هنيئا واسعا طيبا : وروى الحافظ ابو بكر بن مردويه من حديث محمد ابن عيسى الدامغانى حدثنا سلمة بن الفضل عن ميكائيل عن ليث عن ابراهيم التيمى عن ابيه عن ابى ذر قال قلت يارسول الله اريت آدم أنبيا كان قال « نعم نبيا رسولا يكلمه الله قبيلا » — يعنى عيانا — فقال (اسكن انت وزوجك الجنة) وقد اختلف فى الجنة التى أسكنها آدم هى فى السماء أم فى الارض فالأكثرون على الاول وحكى القرطبى عن المعتزلة والقدرية القول بأنها فى الارض وسياتى تقرير ذلك فى سورة الأعراف إن شاء الله تعالى وسياق الآية

(١) هذا بالأصل ، وهو كما ترى لا فرق بين عبارتى الليث والشافعى ولعل عبارة الشافعى لاتعرضوا

يقتضى أن حواء خلقت قبل دخول آدم الجنة وقد صرح بذلك محمد بن إسحق حيث قال لما فرغ الله من معاتبة إبليس أقبل على آدم وقدعلمه الأسماء كلها فقال يا آدم أنبئهم بأسمائهم إلى قوله (إنك أنت العليم الحكيم) قال ثم ألقيت السنة على آدم فيما بلغنا عن أهل الكتاب من أهل التوراة وغيرهم من أهل العلم عن ابن عباس وغيره ثم أخذ ضلعاً من أضلاعه من شقه الأيسر ولأم مكانه لحما وآدم نائم لم يهب من نومه حتى خلق الله من ضلعه تلك زوجته حواء فسواها أمرأة ليسكن إليها فلما كشف عنه السنة وهب من نومه رآها إلى جنبه فقال فيما يزعمون والله أعلم « لحمى ودمى وزوجتى » فسكن اليها فلما زوجه الله وجعل له سكنا من نفسه قال له قبيلا (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين) ويقال إن خلق حواء كان بعد دخول الجنة كما قال السدى فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة أخرج إبليس من الجنة وأسكن آدم الجنة فكان يمشى فيها وحيشا ليس له زوج يسكن اليه فنام نومة فاستيقظ وعند رأسه امرأة قاعدة خلقها الله من ضلعه فسألها ماأنت ؟ قالت امرأة قال ولم خلقت ؟ قالت لتسكن إلى. قالت له الملائكة ينظرون مابلغ من علمه ما اسمها يا آدم قال حواء قالوا ولم حواء ؟ قال إنها خلقت من شىء حى . قال الله (يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة وكلا منها رغداً حيث شئتما) .

وأما قوله (ولا تقربا هذه الشجرة) فهو اختبار من الله تعالى وامتحان لآدم وقد اختلف فى هذه الشجرة ماهى فقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى الكرم وكذا قال سعيد بن جبير والسدى والشعبى وجعدة بن هبيرة ومحمد بن قيس وقال السدى أيضا فى خبر ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة (ولا تقربا هذه الشجرة) هى الكرم. وتزعم يهود أنها الحنطة . وقال ابن جرير وابن أبى حاتم : حدثنا محمد بن اسماعيل بن سمرة الأحمسى حدثنا أبو يحيى الحمانى حدثنا أبو النضر أبو عمر الخراز عن عكرمة عن ابن عباس قال : الشجرة التى نهى عنها آدم عليه السلام هى السنبلة وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة وابن المبارك عن الحسن بن عمارة عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : هى السنبلة ؛ وقال محمد بن اسحق عن رجل من أهل العلم عن حجاج عن مجاهد عن ابن عباس قال : هى البر وقال ابن جرير وحدثنى المثنى بن ابراهيم حدثنا مسلم بن ابراهيم حدثنا القاسم حدثنى رجل من بنى تميم أن ابن عباس كتب الى أبى الجلد يسأله عن الشجرة التى أكل منها آدم والشجرة التى تاب عندها آدم فكتب اليه أبو الجلد سألتنى عن الشجرة التى نهى عنها آدم وهى السنبلة وسألتنى عن الشجرة التى تاب عندها آدم وهى الزيتونة ، وكذلك فسره الحسن البصرى ووهب بن منبه وعطية العوفى وأبو مالك ومحارب بن دثار وعبد الرحمن بن أبى ليلى وقال محمد بن اسحق عن بعض أهل اليمن عن وهب بن منبه أنه كان يقول هى البر ولكن الحبة منها فى الجنة ككلى البقر وألين من الزبد وأحلى من العسل وقال سفيان الثورى عن حصين عن أبى مالك (ولا تقربا هذه الشجرة) قال النخلة ، وقال ابن جرير عن مجاهد (ولا تقربا هذه الشجرة) قال التينة ، وبه قال قتادة وابن جريج وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية كانت الشجرة من أكل منها أحدث ولا ينبغى أن يكون فى الجنة حدث ، وقال عبد الرزاق : حدثنا عمر بن عبد الرحمن بن مهران قال : سمعت وهب بن منبه يقول : لما أسكن الله آدم وزوجته الجنة ونهاه عن أكل الشجرة وكانت شجرة غصونها متشعب بعضها من بعض وكان لها ثمر تأكله الملائكة لخلدهم وهى الشجرة التى نهى الله عنها آدم وزوجته .

فهذه أقوال ستة فى تفسير هذه الشجرة . قال الامام العلامة أبو جعفر بن جرير رحمه الله : والصواب فى ذلك أن يقال إن الله عزوجل ثناؤه نهى آدم وزوجته عن أكل شجرة بعينها من أشجار الجنة دون سائر أشجارها فأكلا منها ولا علم عندنا بأى شجرة كانت على التعيين لأن الله لم يضع لعباده دليلا على ذلك فى القرآن ولا من السنة الصحيحة وقد قيل : كانت شجرة البر وقيل كانت شجرة العنب وقيل كانت شجرة التين وجائز أن تكون واحدة منها وذلك علم اذا علم لم ينفع العالم به علمه وإن جهله جاهل لم يضره جهله به والله أعلم ، وكذلك رجح الابهام الرازى فى تفسيره وغيره

وهو الصواب وقوله تعالى (فأزلهما الشيطان عنها) يصح أن يكون الضمير فى قوله عنها عائداً الى الجنة فيكون معنى الكلام كما قرأ عاصم فازا لهما أى فنحاها ويصح أن يكون عائداً على أقرب المذكورين وهو الشجرة فيكون معنى الكلام كما قال الحسن وقتادة فازلهما أى من قبل الزلل فعلى هذا يكون تقدير الكلام (فأزلهما الشيطان عنها) أى بسببها كما قال تعالى (يؤفك عنه من أفك) أى يصرف بسببه من هو مأفوك ولهذا قال تعالى (فأخرجهما مما كانا فيه) أى من اللباس والمنزل الرحب والرزق الهنىء والراحة (وقلنا اهبطوا بعضكم لبعض عدوّ ولكم فى الأرض مستقرّ ومتاع الى حين) أى قرار وأرزاق وآجال ـ إلى حين ـ أى الى وقت مؤقت ومقدار معين ثم تقوم القيامة ، وقد ذكر المفسرون من السلف كالسدى باسانيده وأبى العالية ووهب بن منبه وغيرهم ههنا أخباراً إسرائيلية عن قصة الحية وإبليس وكيف جرى من دخول إبليس الى الجنة ووسوسته وسنبسط ذلك إن شاء الله فى سورة الأعراف فهناك القصة أبسط منها ههنا والله الموفق وقد قال ابن أبى حاتم ههنا : حدثنا على بن الحسن بن إشكاب ، حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله خلق آدم رجلا طوالا كثير شعر الرأس كأنه نخلة سحوق فلما ذاق الشجرة سقط عنه لباسه فأول مابدا منه عورته فلما نظر إلى عورته جعل يشتد فى الجنة فأخذت شعره شجرة فنازعها فناداه الرحمن يا آدم منى تفر » فلما سمع كلام الرحمن قال يارب لا ، ولكن استحياء . قال: وحدثنى جعفر بن أحمد بن الحكم القرشى سنة أربع وخمسين ومائتين ، حدثنا سليمان بن منصور بن عمار حدثنا على بن عاصم عن سعيد عن قتادة عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله ﷺ « لما ذاق آدم من الشجرة فر هاربا فتعلقت شجرة بشعره فنودى : يا آدم أفراراً منى ؟ قال : بل حياء منك قال : يا آدم اخرج من جوارى فبعزتى لايساكننى فيها من عصانى ولو خلقت مثلك ملء الأرض خلقاً ثم عصونى لأسكنتهم دار العاصين » هذا حديث غريب وفيه انقطاع بل إعضال بين قتادة وأبى بن كعب رضى الله عنهما . وقال الحاكم حدثنا أبو بكر بن باكويه عن محمد بن أحمد بن النضر عن معاوية بن عمرو عن زائدة عن عمار بن أبى معاوية البجلى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : ما أسكن آدم الجنة إلا مابين صلاة العصر إلى غروب الشمس ، ثم قال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقال عبد بن حميد فى تفسيره حدثنا روح عن هشام عن الحسن قال : لبث آدم فى الجنة ساعة من نهار تلك الساعة ثلاثون ومائة سنة من أيام الدنيا . وقال أبو جعفر الرازى : عن الربيع بن أنس : قال خرج آدم من الجنة للساعة التاسعة أو العاشرة فأخرج آدم معه غصناً من شجر الجنة على رأسه تاج من شجر الجنة وهو الإكليل من ورق الجنة . وقال السدى : قال الله تعالى (اهبطوا منها جميعاً) فهبطوا ونزل آدم بالهند ونزل معه الحجر الأسود وقبضة من ورق الجنة فبثه بالهند فنبتت شجرة الطيب فانما أصل مايجاء به من الطيب من الهند من قبضة الورق التى هبط بها آدم ، وإنما قبضها آدم أسفاً على الجنة حين أخرج منها . وقال عمران بن عيينة. عن عطاء بن السائب عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : أهبط آدم بدحنا أرض الهند . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا جرير عن عطاء عن سعيد عن بن عباس قال : أهبط آدم عليه السلام إلى أرض يقال لها دحنا بين مكة والطائف . وعن الحسن البصرى قال : أهبط آدم بالهند ، وحواء بجدة ، وإبليس بدستميسان من البصرة على أميال وأهبطت الحية باصبهان رواه ابن أبى حاتم ، وقال محمد بن أبى حاتم . حدثنا محمد بن عمار بن الحارث حدثنا محمد ابن سعيد بن سابق حدثنا عمر بن أبى قيس عن الزبير بن عدى عن ابن عمر قال أهبط آدم بالصفا وحواء بالمروة . وقال رجاء بن سلمة اهبط آدم عليه السلام يداه على ركبتيه مطأطئا رأسه ، واهبط إبليس مشبكا بين أصابعه رافعاً رأسه إلى السماء . وقال عبد الرزاق قال معمر أخبرنى عوف عن قسامة بن زهير عن أبى موسى قال إن الله حين أهبط آدم من الجنة إلى الأرض علمه صنعة كل شىء وزوده من ثمار الجنة فثماركم هذه من ثمار الجنة غير ان هذه تتغير وتلك لا تتغير وقال الزهرى عن عبد الرحمن بن هرمز الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة فيه خلق آدم وفيه أدخل الجنة وفيه أخرج منها » رواه مسلم والنسائى . وقال

الرازى : اعلم ان فى هذه الآية تهديدا عظيما عن كل المعاصى من وجوه (الأول) أن من تصور ماجرى على آدم بسبب إقدامه على هذه الزلة الصغيرة كان على وجل شديد من المعاصى قال الشاعر :

يا ناظرا يرنو بعينى راقد * ومشاهدا للامر غير مشاهد * تصل الذنوب إلى الذنوب وترتجى
درج الجنان ونيل فوز العابد * أنسيت ربك حين أخرج آدما * منها الى الدنيا بذنب واحد

قال ابن القيم ولكننا سبى العدو فهل ترى * نعود إلى أوطاننا ونسلم

قال الرازى عن فتح الموصلى أنه قال كنا قوما من أهل الجنة فسبانا إبليس إلى الدنيا فليس لنا إلا الهم والحزن حتى نرد الى الدار التى أخرجنا منها . فان قيل فاذا كانت جنة آدم التى أخرج منها فى السماء كما يقوله الجمهور من العلماء فكيف تمكن إبليس من دخول الجنة وقد طرد من هنالك طردا قدريا والقدرى لايخالف ولا يمانع ؟ فالجواب ان هذا بعينه استدل به من يقول إن الجنة التى كان فيها آدم فى الارض لا فى السماء كما قد بسطنا هذا فى أول كتابنا البداية والنهاية وأجاب الجمهور بأجوبة أحدها أنه منع من دخول الجنة مكرما فأما على وجه السرقة والاهانة فلايمتنع ولهذا قال بعضهم كما جاء فى التوراة أنه دخل فى فم الحية الى الجنة . وقد قال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما وهو خارج باب الجنة. وقال بعضهم : يحتمل أنه وسوس لهما وهو فى الارض وهما فى السماء ذكرها الزمخشرى وغيره . وقد أورد القرطبى ههنا أحاديث فى الحيات وقتلهن وبيان حكم ذلك فأجاد وأفاد

﴿ فَتَلَقَّىٰ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قيل إن هذه الكلمات مفسرة بقوله تعالى . (قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وروى هذا عن مجاهد . وسعيد بن جبير وابى العالية والربيع بن انس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب القرظى وخالد بن معدان وعطاء الخراسانى وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال ابو اسحق السبيعى عن رجل من بنى تميم قال اتيت ابن عباس فسألته ما الكلمات التى تلقى آدم من ربه ؟ قال علم شأن الحج وقال سفيان الثورى عن عبد العزيز بن رفيع أخبرنى من سمع عبيد بن عمير وفى رواية قال أخبرنى مجاهد عن عبيد بن عمير أنه قال: قال آدم يارب خطيئتى التى أخطأت شىء كتبته على قبل أن تخلقنى أو شىء ابتدعته من قبل نفسى ؟ قال « بل شىء كتبته عليك قبل أن اخلقك » قال فكما كتبته على فاغفرلى ، قال فذلك قوله تعالى (فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه) وقال السدى عمن حدثه عن ابن عباس فتلقى آدم من ربه كلمات قال: قال آدم عليه السلام يارب ألم تخلقنى بيدك ؟ قيل له بلى ونفخت فىّ من روحك ؟ قيل له بلى ، وعطست فقلت يرحمك الله وسبقت رحمتك غضبك ؟ قيل له بلى وكتبت علىّ أن أعمل هذا ؟ قيل له بلى قال أرأيت إن تبت هل أنت راجعى إلى الجنة ؟ قال نعم . وهكذا رواه العوفى وسعيد بن جبير وسعيد بن معبد عن ابن عباس بنحوه ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث ابن جبير عن ابن عباس وقال صحيح الاسناد ولم يخرجاه وهكذا فسره السدى وعطية العوفى وقد روى ابن أبى حاتم ههنا حديثا شبيها بهذا فقال حدثنا على بن الحسين بن اشكاب حدثنا على بن عاصم عن سعيد بن ابى عروبة عن قتادة عن الحسن عن أبى بن كعب قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قال آدم عليه السلام أرأيت يارب إن تبت ورجعت أعائدى إلى الجنة ؟ قال نعم فذلك قوله (فتلقى آدم من ربه كلمات) وهذا حديث غريب من هذا الوجه وفيه انقطاع : وقال ابو جعفر الرازى عن الربيع بن انس عن ابى العالية فى قوله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه . قال إن آدم لما أصاب الخطيئة قال أرأيت يارب إن تبت وأصلحت ؟ قال الله « إذا أدخلك الجنة » فهى الكلمات ، ومن الكلمات ايضا (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين) وقال ابن ابى نجيح عن مجاهد انه كان يقول فى قول الله تعالى فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه قال الكلمات اللهم لا اله الا انت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فاغفرلى انك خير الغافرين ، اللهم لااله الاانت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فارحمنى إنك خير الراحمين ، اللهم لا إله إلا أنت سبحانك وبحمدك رب إنى ظلمت نفسى فتب على انك أنت التواب الرحيم . وقوله تعالى (إنه هو التواب الرحيم) أى انه يتوب على من تاب

إليه وأناب كقوله (ألم يعلموا أن الله هو يقبل التوبة عن عباده) وقوله (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه) الآية وقوله (ومن تاب وعمل صالحا) وغير ذلك من الآيات الدالة على أنه تعالى يغفر الذنوب ، ويتوب على من يتوب وهذا من لطفه بخلقه ورحمته بعبيده ، لا إله إلا هو التواب الرحيم

﴿ قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى مخبرا عما أندربه آدم وزوجته وإبليس حين أهبطهم من الجنة والمراد الذرية إنه سينزل الكتب ويبعث الأنبياء والرسل كما قال أبو العالية الهدى الأنبياء والرسل والبينات والبيان ، وقال مقاتل بن حيان الهدى محمد صلى الله عليه وسلم ، وقال الحسن الهدى القرآن ، وهذان القولان صحيحان وقول أبى العالية أعم (فمن اتبع هداى) أى من أقبل على ماأنزلت به الكتب وأرسلت به الرسل (فلا خوف عليهم) أى فيما يستقبلونه من أمر الآخرة (ولاهم يحزنون) على مافاتهم من أمور الدنيا كما قال فى سورة طه (قال اهبطا منها جميعا بعضكم لبعض عدو فاما يأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولايشقى) قال ابن عباس فلا يضل فى الدنيا ولايشقى فى الآخرة (ومن أعرض عن ذكرى فان له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى) كما قال ههنا (والذين كفروا وكذبوا بآياتنا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) أى مخلدون فيها لامحيد لهم عنها ولا محيص. وقد أورد ابن جرير ههنا حديثا ساقه من طريقين عن أبى سلمة سعيد بن يزيد عن أبى نضرة المنذر بن مالك بن قطعة عن أبى سعيد واسمه سعد بن مالك بن سنان الخدرى قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما أهل النار الذين هم أهلها فلايموتون فيها ولا يحيون ولكن أقوام أصابتهم النار بخطاياهم فأماتتهم إماتة حتى إذا صاروا فحما أذن فى الشفاعة » وقد رواه مسلم من حديث شعبة عن أبى سلمة به . وذكر هذا الاهباط الثانى لما تعلق به مابعده من المعنى المغاير للأول وزعم بعضهم أنه تأكيد وتكرير كما يقال قم قم ، وقال آخرون بل الاهباط الأول من الجنة الى السماء الدنيا والثانى من سماء الدنيا إلى الارض والصحيح الأول والله أعلم

﴿ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ * وَآمِنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أَوَّلَ كَافِرٍ بِهِ وَلَا تَشْتَرُوا بِآيَاتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ ﴾

يقول تعالى آمرا بنى اسرائيل بالدخول فى الاسلام ، ومتابعة محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام ، ومهيجا لهم بذكر أبيهم اسرائيل وهو نبى الله يعقوب عليه السلام ، وتقديره يابنى العبد الصالح المطيع لله كونوا مثل أبيكم فى متابعة الحق كما تقول يا ابن الكريم افعل كذا ؛ يا ابن الشجاع بارز الابطال ؛ يا ابن العالم اطلب العلم ، ونحو ذلك . ومن ذلك أيضا قوله تعالى (ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبدا شكورا) فإسرائيل هو يعقوب بدليل مارواه أبو داود الطيالسى حدثنا عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب قال حدثنى عبد الله بن عباس قال حضرت عصابة من اليهود نبى الله صلى الله عليه وسلم فقال لهم « هل تعلمون أن اسرائيل يعقوب ؟ » قالوا اللهم نعم ، فقال النبى صلى الله عليه وسلم « اللهم اشهد » وقال الأعمش عن اسماعيل بن رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن عبد الله بن عباس أن اسرائيل كقولك عبد الله وقوله تعالى (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) قال مجاهد نعمة الله التى أنعم بها عليهم فيما سمى وفيما سوى ذلك أن فجر لهم الحجر وأنزل عليهم المن والسلوى ونجاهم من عبودية آل فرعون وقال أبو العالية نعمته أن جعل منهم الانبياء والرسل وأنزل عليهم الكتب قلت وهذا كقول موسى عليه السلام لهم (ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) يعنى فى زمانهم وقال محمد ابن اسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أوسعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (اذكروا نعمتى التى

أنعمت عليكم) أى بلائى عندكم وعند آبائكم لما كان نجاهم من فرعون وقومه (وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم) قال بعهدى الذى أخذت فى أعناقكم للنبى ﷺ إذا جاءكم أنجز لكم ما وعدتكم عليه من تصديقه واتباعه بوضع ما كان عليكم من الآصار والأغلال التى كانت فى أعناقكم بذنوبكم التى كانت من احداثكم . وقال الحسن البصرى هو قوله تعالى (ولقد أخذالله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضاً حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار) الآية وقال آخرون هو الذى أخذ الله عليهم فى التوراة أنه سيبعث من بنى إسماعيل نبيا عظيما يطيعه جميع الشعوب والمراد به محمد ﷺ فمن اتبعه غفر الله له ذنبه وأدخله الجنة وجعل له أجرين . وقد أورد الرازى بشارات كثيرة عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بمحمد ﷺ ، وقال ابو العالية (وأوفوا بعهدى) قال عهده الى عباده دين الاسلام وان يتبعوه ، وقال الضحاك عن ابن عباس أوف بعهدكم قال أرض عنكم وأدخلكم الجنة وكذا قال السدى والضحاك وابو العالية والربيع بن انس ، وقوله تعالى (وإياى فارهبون) اى فاخشون قاله ابو العالية والسدى والربيع بن انس وقتادة وقال ابن عباس فى قوله تعالى (وإياى فارهبون) أى أن أنزل بكم ما انزلت بمن كان قبلكم من آبائكم من النقمات التى قد عرفتم من المسخ وغيره وهذا انتقال من الترغيب الى الترهيب فدعاهم اليه بالرغبة والرهبة لعلهم يرجعون الى الحق واتباع الرسول ﷺ والاتعاظ بالقرآن وزواجره وامتثال أوامره وتصديق أخباره والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم ، ولهذا قال (وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم) يعنى به القرآن الذى انزل على محمد ﷺ النبى الأمى العربى بشيراً ونذيراً وسراجاً منيراً مشتملا على الحق من الله تعالى مصدقاً لما بين يديه من التوراة والانجيل قال ابو العالية رحمه الله فى قوله تعالى (وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم) يقول يامعشر اهل الكتاب آمنوا بما انزلت مصدقاً لما معكم يقول لأنهم يجدون محمداً ﷺ مكتوباً عندهم فى التوراة والانجيل ، وروى عن مجاهد والربيع بن انس وقتادة نحو ذلك وقوله (ولا تكونوا أول كافربه) قال بعض المعربين اول فريق كافربه أو نحو ذلك قال ابن عباس ولا تكونوا اول كافربه وعندكم فيه من العلم ما ليس عند غيركم ، قال ابو العالية يقول ولا تكونوا اول من كفر بمحمد ﷺ يعنى من جنسكم أهل الكتاب بعد سماعكم بمبعثه وكذا قال الحسن والسدى والربيع بن أنس واختار ابن جرير أن الضمير فى قوله به عائد على القرآن الذى تقدم ذكره فى قوله (بما أنزلت) وكلا القولين صحيح لأنهما متلازمان لأن من كفر بالقرآن فقد كفر بمحمد ﷺ ومن كفر بمحمد ﷺ فقد كفر بالقرآن وأما قوله (أول كافربه) فيعنى به أول من كفر به من بنى إسرائيل لأنه قد تقدمهم من كفار قريش وغيرهم من العرب بشر كثير وإنما المراد أول من كفر به من بنى إسرائيل مباشرة فان يهود المدينة أول بنى إسرائيل خوطبوا بالقرآن فكفرهم به يستلزم أنهم أول من كفر به من جنسهم ، وقوله تعالى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) يقول لا تعتاضوا عن الإيمان بآياتى وتصديق رسولى بالدنيا وشهواتها فانها قليلة فانية كما قال عبد الله بن المبارك أنبأنا عبد الرحمن بن زيد بن جابر عن هرون بن يزيد قال سئل الحسن يعنى البصرى عن قوله تعالى (ثمنا قليلا) قال الثمن القليل الدنيا بحذافيرها وقال ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) إن آياته كتابه الذى أنزله اليهم وإن الثمن القليل الدنيا وشهواتها ، وقال السدى ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا يقول لا تأخذوا طمعا قليلا ولا تكتموا اسم الله فذلك الطمع هو الثمن ، وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (ولا تشتروا بآياتى ثمنا قليلا) يقول لا تأخذوا عليه أجراً قال وهو مكتوب عندهم فى الكتاب الأول يا ابن آدم علم مجانا كما علمت مجانا ، وقيل معناه لا تعتاضوا عن البيان والايضاح ونشر العلم النافع فى الناس بالكتمان واللبس لتستمروا على رياستكم فى الدنيا القليلة الحقيرة الزائلة عن قريب ، وفى سنن أبى داود عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « من تعلم علما مما يبتغى به وجه الله لا يتعلمه إلا ليصيب به

عرضا من الدنيا لم يرح رائحة الجنة يوم القيامة » فأما تعليم العلم بأجرة فان كان قد تعين عليه فلا يجوز أن يأخذ عليه أجرة ويجوز أن يتناول من بيت المال ما يقوم به حاله وعياله فان لم يحصل له منه شيء وقطعه التعليم عن التكسب فهو كما لم يتعين عليه وإذا لم يتعين عليه فانه يجوز أن يأخذ عليه أجرة عند مالك والشافعي وأحمد وجمهور العلماء كما في صحيح البخاري عن أبي سعيد في قصة اللديغ « إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله » وقوله في قصة المخطوبة « زوجتكها بما معك من القرآن » فأما حديث عبادة بن الصامت أنه علم رجلا من أهل الصفة شيئا من القرآن فأهدى له قوسا فسأل عنه رسول الله ﷺ فقال « إن أحببت أن تطوّق بقوس من نار فاقبله » فتركه رواه ابو داود وروى مثله عن أبي ابن كعب مرفوعا فان صح إسناده فهو محمول عند كثير من العلماء منهم ابو عمر بن عبد البر على انه لما علمه الله لم يجز بعد هذا أن يعتاض عن ثواب الله بذلك القوس فأما إذا كان من أول الأمر على التعليم بالأجرة فانه يصح كما في حديث اللديغ وحديث سهل في المخطوبة والله أعلم وقوله (وإياي فاتقون) قال ابن أبي حاتم حدثنا ابو عمر الدوري حدثنا ابو إسماعيل المؤدب عن عاصم الأحول عن ابي العالية عن طلق بن حبيب قال: التقوى أن تعمل بطاعة الله رجاء رحمة الله على نور من الله وان تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله ومعنى قوله (وإياي فاتقون) انه تعالى يتوعدهم فيما يتعمدونه من كتمان الحق وإظهار خلافه ومخالفتهم الرسول صلوات الله وسلامه عليه

﴿ وَلَا تَلْبِسُوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴾

يقول تعالى ناهياً لليهود عما كانوا يتعمدونه من تلبيس الحق بالباطل . وتمويهه به وكتمانهم الحق وإظهارهم الباطل (ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) فنهاهم عن الشيئين معا وأمرهم باظهار الحق والتصريح به ولهذا قال الضحاك عن ابن عباس ـ ولا تلبسوا الحق بالباطل ـ لا تخلطوا الحق بالباطل والصدق بالكذب ، وقال ابو العالية ـ ولا تلبسوا الحق بالباطل ـ يقول ولا تخلطوا الحق بالباطل وأدوا النصيحة لعباد الله من امة محمد ﷺ ويروى عن سعيد بن جبير والربيع بن أنس نحوه وقال قتادة (ولا تلبسوا الحق بالباطل) ولا تلبسوا اليهودية والنصرانية بالاسلام وأنتم تعلمون أن دين الله الاسلام وأن اليهودية والنصرانية بدعة ليست من الله . وروى عن الحسن البصري نحو ذلك وقال محمد بن إسحاق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وتكتموا الحق وأنتم تعلمون) اى لا تكتموا ما عندكم من المعرفة برسولي وبما جاء به وانتم تجدونه مكتوبا عندكم فيما تعلمون من الكتب التي بأيديكم وروى عن أبي العالية نحو ذلك وقال مجاهد والسدي وقتادة والربيع بن أنس (وتكتموا الحق) يعني محمداً ﷺ (قلت) وتكتموا يحتمل أن يكون مجزوما ويحتمل أن يكون منصوبا اى لا تجمعوا بين هذا وهذا كما يقال لا تأكل السمك وتشرب اللبن ، قال الزمخشري وفي مصحف ابن مسعود وتكتمون الحق أي في حال كتمانكم الحق وانتم تعلمون حال أيضا ، ومعناه وانتم تعلمون الحق ويجوز ان يكون المعنى وانتم تعلمون ما في ذلك من الضرر العظيم على الناس من إضلالهم عن الهدى المفضي بهم الى النار إن سلكوا ما تبدونه لهم من الباطل المشوب بنوع من الحق لتروّجوه عليهم والبيان الايضاح وعكسه الكتمان وخلط الحق بالباطل (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين) قال مقاتل قوله تعالى لأهل الكتاب (وأقيموا الصلاة) امرهم ان يصلوا مع النبي ﷺ (وآتوا الزكاة) امرهم ان يؤتوا الزكاة اى يدفعونها الى النبي ﷺ (واركعوا مع الراكعين) امرهم ان يركعوا مع الراكعين من امة محمد ﷺ يقول كونوا معهم ومنهم وقال علي بن طلحة عن ابن عباس يعني بالزكاة طاعة الله والاخلاص ، وقال وكيع عن ابي جناب عن عكرمة عن ابن عباس في قوله وآتوا الزكاة قال ما يوجب الزكاة قال مائتان فصاعدا ، وقال مبارك بن فضالة عن الحسن في قوله

تعالى (وآتوا الزكاة) قال فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا بها وبالصلاة ، وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا جرير عن أبي حيان التيمي عن الحارث العكلي في قوله تعالى (وآتوا الزكاة) قال صدقة الفطر وقوله تعالى (واركعوا مع الراكعين) أي وكونوا مع المؤمنين في أحسن أعمالهم ومن أخص ذلك وأكمله الصلاة . وقد استدل كثير من العلماء بهذه الآية على وجوب الجماعة ، وأبسط ذلك في كتاب الأحكام الكبير إن شاء الله تعالى ، وقد تكلم القرطبي على مسائل الجماعة والامامة فأجاد .

﴿ أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى كيف يليق بكم يامعشر أهل الكتاب وأنتم تأمرون الناس بالبر وهو جماع الخير ان تنسوا أنفسكم فلا تأمرون بما تأمرون الناس به وأنتم مع ذلك تتلون الكتاب وتعلمون مافيه على من قصر في أوامر الله ؟ أفلا تعقلون ما أنتم صانعون بأنفسكم . فتنتهوا من رقدتكم . وتتبصروا من عمايتكم . وهذا كما قال عبدالرزاق عن معمر عن قتادة في قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) قال كان بنو إسرائيل يأمرون الناس بطاعة الله وبتقواه وبالبر ويخالفون فيعرهم الله عز وجل وكذلك قال السدى وقال ابن جريج (أتأمرون الناس بالبر) أهل الكتاب والمنافقون كانوا يأمرون الناس بالصوم والصلاة ويدعون العمل بما يأمرون به الناس فعيرهم الله بذلك فمن أمر بخير فليكن أشد الناس فيه مسارعة وقال محمد بن إسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وتنسون أنفسكم) أي تتركون أنفسكم (وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) أي تنهون الناس عن الكفر بما عندكم من النبوة والعهد من التوراة وتتركون أنفسكم أي وأنتم تكفرون بما فيها من عهدي اليكم في تصديق رسولي وتنقضون ميثاقي وتجحدون ماتعلمون من كتابي ، وقال الضحاك عن ابن عباس في هذه الآية يقول أتأمرون الناس بالدخول في دين محمد ﷺ وغير ذلك مما أمرتم به من إقام الصلاة وتنسون أنفسكم ، وقال أبو جعفر بن جرير حدثني علي بن الحسن حدثنا أسلم الحرمي حدثنا مخلد بن الحسين عن أيوب السختياني عن أبي قلابة في قول الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب) قال أبو الدرداء رضي الله عنه لايفقه الرجل كل الفقه حتى يمقت الناس في ذات الله ثم يرجع إلى نفسه فيكون لها أشد مقتا ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم في هذه الآية هؤلاء اليهود إذا جاء الرجل سألهم عن الشيء ليس فيه حق ولا رشوة أمروه بالحق فقال الله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون) والغرض أن الله تعالى ذمهم على هذا الصنيع ونبههم على خطئهم في حق أنفسهم حيث كانوا يأمرون بالخير ولا يفعلونه وليس المراد ذمهم على أمرهم بالبر مع تركهم له بل على تركهم له فان الأمر بالمعروف معروف وهو واجب على العالم ولكن الواجب والأولى بالعالم أن يفعله مع من أمرهم به ولا يتخلف عنهم كما قال شعيب عليه السلام (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) فكل من الأمر بالمعروف وفعله واجب لا يسقط أحدهما بترك الآخر على أصح قولي العلماء من السلف والخلف وذهب بعضهم إلى أن مرتكب المعاصي لاينهى غيره عنها وهذا ضعيف وأضعف منه تمسكهم بهذه الآية فانه لاحجة لهم فيها ، والصحيح أن العالم يأمر بالمعروف وإن لم يفعله وينهى عن المنكر وإن ارتكبه ، قال مالك عن ربيعة سمعت سعيد بن جبير يقول لو كان المرء لا يأمر بالمعروف ولا ينهى عن المنكر حتى لا يكون فيه شيء ما أمر أحد بمعروف ولا نهى عن منكر . قال مالك وصدق من ذا الذي ليس فيه شيء ؟ (قلت) لكنه والحالة هذه مذموم على ترك الطاعة وفعله المعصية لعلمه بها ومخالفته على بصيرة فانه ليس من يعلم كمن لايعلم ولهذا جاءت الأحاديث في الوعيد على ذلك كما قال الإمام أبو القاسم الطبراني في معجمه الكبير حدثنا أحمد بن المعلى الدمشقي والحسن بن علي العمري قالا حدثنا هشام بن عمار حدثنا علي بن سليمان الكلبي حدثنا الأعمش عن أبي تميمة الهجيمي عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « مثل العالم الذي يعلم الناس الخير ولا يعمل به كمثل السراج يضيء للناس ويحرق نفسه » هذا حديث غريب من هذا الوجه *

حديث آخر * قال الامام أحمد بن حنبل فى مسنده حدثنا وكيع حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد هو ابن جدعان عن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مررت ليلة أسرى بى على قوم تقرض شفاههم بمقاريض من نار - قال قلت من هؤلاء ؟ قالوا خطباء أمتك من أهل الدنيا ممن كانوا يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب أفلا يعقلون » ورواه عبد بن حميد فى مسنده وتفسيره عن الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة به ورواه ابن مردويه فى تفسيره من حديث يونس بن محمد المؤدب والحجاج بن منهال كلاهما عن حماد بن سلمة به وكذا رواه يزيد بن هرون عن حماد بن سلمة به ، ثم قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبدالله بن إبراهيم حدثنا موسى ابن هرون حدثنا إسحق بن ابراهيم التسترى ببلخ حدثنا مكى بن ابراهيم حدثنا عمر بن قيس عن على بن زيد عن ثمامة عن أنس قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « مررت ليلة أسرى بى على أناس تقرض شفاههم وألسنتهم بمقاريض من نار قلت من هؤلاء ياجبريل قال هؤلاء خطباء أمتك الذين يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم » وأخرجه ابن حبان فى صحيحه وابن أبى حاتم وابن مردويه أيضا من حديث هشام الدستوائى عن المغيرة يعنى ابن حبيب ختن مالك بن دينار عن مالك بن دينار عن ثمامة عن أنس بن مالك قال لما عرج برسول الله ﷺ مرّ بقوم تقرض شفاههم فقال يا جبريل من هؤلاء ؟ قال هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم أفلا يعقلون * حديث آخر * قال الامام أحمد حدثنا يعلى بن عبيد حدثنا الأعمش عن أبى وائل قال قيل لأسامة وانا رديفه الا تكلم عثمان فقال إنكم ترون أنى لا أكلمه الا أسمعكم إنى لأكلمه فيما بينى وبينه دون ان افتتح أمرا أحب أن أكون أول من افتتحه والله لا أقول لرجل إنك خير الناس وإن كان علىّ أميراً بعد أن سمعت رسول الله ﷺ يقول قالوا وما سمعته يقول ؟ قال سمعته يقول « يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى فى النار فتندلق به أقتابه فيدور بها فى النار كما يدور الحمار برحاه فيطيف به أهل النار فيقولون يافلان ماأصابك ألم تكن تأمرنا بالمعروف وتنهانا عن المنكر ؟ فيقول كنت آمركم بالمعروف ولا آتيه وأنهاكم عن المنكر وآتيه » ورواه البخارى ومسلم من حديث سليمان بن مهران الأعمش به نحوه وقال أحمد حدثنا سيار بن حاتم حدثنا جعفر بن سليمان عن ثابت عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يعافى الأميين يوم القيامة مالا يعافى العلماء » وقد ورد فى بعض الآثار أنه يغفر للجاهل سبعين مرة حتى يغفر للعالم مرة واحدة ليس من يعلم كمن لايعلم. وقال تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون إنما يتذكر أولوا الألباب) وروى ابن عساكر فى ترجمة الوليد بن عقبة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن أناساً من أهل الجنة يطلعون على أناس من أهل النار فيقولون بم دخلتم النار ؟ فوالله مادخلنا الجنة إلا بما تعلمنا منكم فيقولون إنا كنا نقول ولا نفعل » ورواه ابن جرير الطبرى عن أحمد بن يحيى الخباز الرملى عن زهير بن عباد الرواسى عن أبى بكر الزاهرى عبدالله بن حكيم عن إسماعيل بن أبى خالد عن الشعبى عن الوليد بن عقبة فذكره وقال الضحاك عن ابن عباس أنه جاءه رجل فقال يا ابن عباس إنى أريد ان آمر بالمعروف وأنهى عن المنكر ، قال أبلغت ذلك ؟ قال أرجو ، قال إن لم تخش أن تفتضح بثلاث آيات من كتاب الله فافعل ، قال وما هن ؟ قال قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) أحكمت هذه ؟ قال لا ، قال فالحرف الثانى قال قوله تعالى (لم تقولون مالا تفعلون ؟ كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) أحكمت هذه ؟ قال لا قال فالحرف الثالث قال قول العبد الصالح شعيب عليه السلام (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح) أحكمت هذه الآية ؟ قال لا قال فابدأ بنفسك رواه ابن مردويه فى تفسيره وقال الطبرانى حدثنا عبدان بن أحمد حدثنا زيد بن الحارث حدثنا عبدالله بن خراش عن العوام بن حوشب عن المسيب بن رافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من دعا الناس إلى قول أو عمل ولم يعمل هو به لم يزل فى ظل سخط الله حتى يكف أو يعمل ماقال أو دعا اليه » اسناده فيه ضعف وقال ابراهيم النخعى انى لأكره القصص لثلاث آيات قوله تعالى (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم) وقوله (يا أيها الذين آمنوا لم تقولون مالا تفعلون * كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون) وقوله اخبارا عن شعيب (وما أريد أن

أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وماتوفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب)

﴿ وَٱسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ۝ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عبيده فيما يؤملون من خير الدنيا والآخرة بالاستعانة بالصبر والصلاة كما قال مقاتل بن حيان في تفسير هذه الآية استعينوا على طلب الآخرة بالصبر على الفرائض والصلاة فأما الصبر فقيل إنه الصيام نص عليه مجاهد قال القرطبي وغيره ولهذا يسمى رمضان شهر الصبر كما نطق به الحديث وقال سفيان الثوري عن أبي إسحق عن جرى ابن كليب عن رجل من بني سليم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « الصوم نصف الصبر » وقيل المراد بالصبر الكف عن المعاصي ولهذا قرنه بأداء العبادات وأعلاها فعل الصلاة . قال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا عبدالله بن حمزة بن إسماعيل حدثنا إسحق بن سليمان عن أبي سنان عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال الصبر صبران صبر عند المصيبة حسن وأحسن منه الصبر عن محارم الله . قال وروى عن الحسن البصري نحو قول عمر وقال ابن المبارك عن ابن لهيعة عن مالك بن دينار عن سعيد بن جبير قال الصبر اعتراف العبد لله بما أصيب فيه واحتسابه عند الله ورجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو يتجلد لايرى منه إلا الصبر . وقال أبو العالية في قوله تعالى (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال على مرضاة الله واعلموا أنها من طاعة الله وأما قوله والصلاة إن الصلاة من أكبر العون على الثبات في الأمر كما قال تعالى (اتل ما أوحي اليك من الكتاب وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر ولذكر الله أكبر) الآية وقال الإمام أحمد حدثنا خلف بن الوليد حدثنا يحي بن زكريا بن أبي زائدة عن عكرمة بن عمار عن محمد بن عبدالله الدؤلي قال: قال عبد العزيز أخو حذيفة قال حذيفة يعني ابن اليمان رضي الله عنه كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر صلى وراوه أبوداود عن محمد بن عيسى عن يحي بن زكريا عن عكرمة بن عمار كما سيأتي وقد رواه ابن جرير من حديث ابن جريج عن عكرمة بن عمار عن محمد بن أبي عبيد بن أبي قدامة عن عبدالعزيز بن اليمان عن حذيفة قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ورواه بعضهم عن عبد العزيز ابن أخي حذيفة ويقال أخي حذيفة مرسلا عن النبي صلى الله عليه وسلم وقال محمد بن نصر المروزي في كتاب الصلاة حدثنا سهل بن عثمان العسكري حدثنا يحي بن زكريا بن أبي زائدة قال : قال عكرمة بن عمار قال محمد بن عبد الله الدؤلي قال عبد العزيز قال حذيفة رجعت إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليلة الأحزاب وهو مشتمل في شملة يصلي وكان إذا حزبه أمر صلى . حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبي حدثنا شعبة عن أبي إسحق سمع حارثة بن مضرب سمع عليا رضي الله عنه يقول لقد رأيتنا ليلة بدر ومافينا إلا نائم غير رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي ويدعو حتى أصبح . قال ابن جرير وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه مر بأبي هريرة وهو منبطح على بطنه فقال له « أشكم درد » ومعناه أيوجعك بطنك ؟ قال نعم — قال « قم فصل فان الصلاة شفاء » قال ابن جرير وقد حدثنا محمد بن الفضل ويعقوب بن إبراهيم قالا حدثنا ابن علية حدثنا عيينة بن عبد الرحمن عن أبيه أن ابن عباس نعي اليه أخوه قثم وهو في سفر فاسترجع ثم تنحى عن الطريق فأناخ فصلى ركعتين أطال فيهما الجلوس ثم قام يمشي إلى راحلته وهو يقول (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج (واستعينوا بالصبر والصلاة) قال انهما معونتان على رحمة الله . والضمير في قوله وإنها لكبيرة عائد إلى الصلاة نص عليه مجاهد واختاره ابن جرير ويحتمل أن يكون عائدا على مايدل عليه الكلام وهو الوصية بذلك كقوله تعالى في قصة قارون (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون) وقال تعالى (ولاتستوي الحسنة ولا السيئة ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم * وما يلقاها إلا الذين صبروا ومايلقاها إلا ذو حظ عظيم) أي وما يلقى هذه الوصية إلا الذين صبروا ومايلقاها

أى يؤتاها ويلهمها إلا ذو حظ عظيم . وعلى كل تقدير فقوله تعالى وانها لكبيرة أى مشقة ثقيلة إلا على الخاشعين قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى المصدقين بما أنزل الله ، وقال مجاهد المؤمنين حقا وقال أبو العالية إلا على الخاشعين الخائفين وقال مقاتل بن حيان إلا على الخاشعين يعنى به المتواضعين وقال الضحاك وإنها لكبيرة قال انها لثقيلة إلا على الخاضعين لطاعته الخائفين سطوته المصدقين بوعده ووعيده . وهذا يشبه ماجاء فى الحديث « لقد سألت عن عظيم وإنه ليسير على من يسره الله عليه » وقال ابن جرير معنى الآية واستعينوا أيها الأحبار من أهل الكتاب بحبس أنفسكم على طاعة الله وبإقامة الصلاة المانعة من الفحشاء والمنكر المقربة من رضا الله العظيمة إقامتها إلا على الخاشعين أى المتواضعين المستكينين لطاعته المتذللين من مخافته . هكذا قال والظاهر أن الآية وإن كانت خطابا فى سياق إنذار بنى إسرائيل فإنهم لم يقصدوا بها على سبيل التخصيص وإنما هى عامة لهم ولغيرهم والله أعلم .

وقوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم وأنهم إليه راجعون) هذا من تمام الكلام الذى قبله أى أن الصلاة أوالوصاة لثقيلة إلا على الخاشعين الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم أى يعلمون أنهم محشورون إليه يوم القيامة معروضون عليه وأنهم إليه راجعون أى أمورهم راجعة إلى مشيئته يحكم فيها ما يشاء بعدله فلهذا لما أيقنوا بالمعاد والجزاء سهل عليهم فعل الطاعات وترك المنكرات فأما قوله (يظنون أنهم ملاقوا ربهم) قال ابن جرير رحمه الله العرب قد تسمى اليقين ظنا والشك ظناً نظير تسميتهم الظلمة سدفة والضياء سدفة والمغيث صارخا والمستغيث صارخا وماأشبه ذلك من الأسماء التى يسمى بها الشىء وضده كما قال دريد بن الصمة

فقلت لهم ظنوا بألفى مدجج * سراتهم فى الفارسى المسرد

يعنى بذلك تيقنوا بألفى مدجج يأتيكم ، وقال عمير بن طارق

فإن يعبروا قومى وأقعد فيكم * وأجعل منى الظن غيبا مرجما

يعنى وأجعل منى اليقين غيبا مرجما ، قال والشواهد من أشعار العرب وكلامها على أن الظن فى معنى اليقين أكثر من أن تحصر وفيما ذكرنا لمن وفق لفهمه كفاية ومنه قول الله تعالى (ورأى المجرمون النار فظنوا أنهم مواقعوها) ثم قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عاصم حدثنا سفيان عن جابر عن مجاهد كل ظن فى القرآن يقين أى ظننت وظنوا ، وحدثنى المثنى حدثنا إسحق حدثنا أبو داود الحبرى عن سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال كل ظن فى القرآن فهو علم وهذا سند صحيح وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) قال الظن ههنا يقين ، قال بن أبى حاتم وروى عن مجاهد والسدى والربيع بن أنس وقتادة نحو قول أبى العالية ، وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج (الذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) علموا أنهم ملاقو ربهم كقوله (إنى ظننت أنى ملاق حسابيه) يقول علمت وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (قلت) وفى الصحيح ان الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة « ألم أزوجك ألم أكرمك ألم أسخرلك الخيل والإبل وأذرك ترأس وتربع ؟» فيقول بلى فيقول الله تعالى « أظننت أنك ملاقى ؟» فيقول لا فيقول الله « اليوم أنساك كما نسيتنى » وسيأتى مبسوطا عند قوله تعالى (نسوا الله فنسيهم) إن شاء الله تعالى .

﴿ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾

يذكرهم تعالى بسالف نعمه على آبائهم وأسلافهم وماكان فضلهم به من إرسال الرسل منهم وإنزال الكتب عليهم وعلى سائر الأمم من أهل زمانهم كما قال تعالى (ولقد اخترناهم على علم على العالمين) وقال تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم مالم يؤت أحدا من العالمين) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (وأنى فضلتكم على العالمين) قال بما أعطوا من الملك والرسل والكتب على عالم من كان فى ذلك الزمان فإن لكل زمان عالما ، وروى عن مجاهد والربيع بن أنس وقتادة وإسماعيل

ابن أبى خالد نحو ذلك ويجب الحمل على هذا لأن هذه الأمة أفضل منهم لقوله تعالى . خطابا لهذه الأمة (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم) وفى المسانيد والسنن عن معاوية بن حيدة القشيرى قال : قال رسول الله ﷺ «أنتم توفون سبعين أمة أنتم خيرها وأكرمها على الله» ، والأحاديث فى هذا كثيرة تذكر عند قوله تعالى (كنتم خير أمة أخرجت للناس) وقيل المراد تفضيل بنوع مامن الفضل على سائر الناس ولا يلزم تفضيلهم مطلقا حكاه الرازى وفيه نظر ؛ وقيل إنهم فضلوا على سائر الأمم لاشتمال أمتهم على الأنبياء منهم حكاه القرطبى فى تفسيره وفيه نظر لأن العالمين عام يشمل من قبلهم ومن بعدهم من الأنبياء فابراهيم الخليل قبلهم وهو أفضل من سائر أنبيائهم ومحمد بعدهم وهو أفضل من جميع الخلق وسيد ولد آدم فى الدنيا والآخرة صلوات الله وسلامه عليه .

﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

لما ذكرهم تعالى بنعمه أولا عطف على ذلك التحذير من طول نقمه بهم يوم القيامة فقال (واتقوا يوما) يعنى يوم القيامة (لا تجزى نفس عن نفس شيئاً) أى لا يغنى أحد عن أحد كما قال (ولا تزر وازرة وزر أخرى) وقال (لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه) وقال (يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ولا مولود هو جاز عن والده شيئا) فهذا أبلغ المقامات أن كلا من الوالد وولده لا يغنى أحدهما عن الآخر شيئا ، وقوله تعالى (ولا يقبل منها شفاعة) يعنى من الكافرين كما قال (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) وكما قال عن أهل النار (فما لنا من شافعين ولا صديق حميم) وقوله تعالى (ولا يؤخذ منها عدل) أى لا يقبل منها فداء كما قال تعالى (ان الذين كفروا وماتوا وهم كفار فلن يقبل من أحدهم ملء الأرض ذهبا ولو افتدى به) وقال (ان الذين كفروا لو أن لهم ما فى الأرض جميعا ومثله معه ليفتدوا به من عذاب يوم القيامة ماتقبل منهم ولهم عذاب أليم) وقال تعالى (وان تعدل كل عدل لا يؤخذ منها) وقال (فاليوم لا يؤخذ منكم فدية ولا من الذين كفروا مأواكم النار هى مولاكم) الآية فأخبر تعالى أنهم ان لم يؤمنوا برسوله ويتابعوه على مابعثه به ووافوا الله يوم القيامة على ماهم عليه فانه لا ينفعهم قرابة قريب ولا شفاعة ذى جاه ولا يقبل منهم فداء ولو بملء الأرض ذهبا كما قال تعالى (من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) وقال (لا بيع فيه ولا خلال) قال سنيد حدثنى حجاج حدثنى ابن جريج قال قال مجاهد قال ابن عباس (ولا يؤخذ منها عدل) قال بدل والبدل الفدية ، وقال السدى أما عدل فيعدلها من العدل يقول لو جاءت بملء الأرض ذهبا تفتدى به ماتقبل منها ، وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله (ولا يقبل منها عدل) يعنى فداء قال ابن أبى حاتم وروى عن أبى مالك والحسن وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس نحو ذلك ، وقال عبد الرزاق أنبأنا الثورى عن الأعمش عن ابراهيم التيمى عن أبيه عن على رضى الله عنه فى حديث طويل قال والصرف والعدل التطوع والفريضة وكذا قال الوليد بن مسلم عن عثمان بن أبى العاتكة عن عمير بن هانئ وهذا القول غريب ههنا والقول الأول أظهر فى تفسير هذه الآية وقد ورد حديث يقويه وهو ماقال ابن جرير حدثنى نجيح بن ابراهيم حدثنا على بن حكيم حدثنا حميد بن عبد الرحمن عن أبيه عن عمرو بن قيس الملائى عن رجل من بنى أمية من أهل الشام أحسن عليه الثناء قال قيل يارسول الله ما العدل ؟ قال « العدل الفدية » وقوله تعالى (ولا هم ينصرون) أى ولا أحد يغضب لهم فينصرهم وينقذهم من عذاب الله كما تقدم من انه لا يعطف عليهم ذو قرابة ولا ذو جاه ولا يقبل منهم فداء هذا كله من جانب التلطف ولا لهم ناصر من أنفسهم ولا من غيرهم كما قال (فما له من قوة ولا ناصر) اى انه تعالى لا يقبل فيمن كفر به فدية ولا شفاعة ولا ينقذ أحدا من عذابه منقذ ولا يخلص منه أحد ولا يجير منه أحد كما قال تعالى (وهو يجير ولا يجار عليه) وقال (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) وقال (مالكم لا تناصرون بل هم اليوم مستسلمون) وقال (فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم) الآية ، وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (مالكم لا تناصرون)

مالكم اليوم لا تمانعون منا هيهات ليس ذلك لكم اليوم قال ابن جرير وتأويل قوله (ولاهم ينصرون) يعنى أنهم يومئذ لاينصرهم ناصر كما لا يشفع لهم شافع ولا يقبل منهم عدل ولا فدية بطلت هنالك المحاباة واضمحلت الرشا والشفاعات وارتفع من القوم التناصر والتعاون وصار الحكم إلى الجبار العدل الذى لا ينفع لديه الشفعاء والنصراء فيجزى بالسيئة مثلها وبالحسنة أضعافها وذلك نظير قوله تعالى (وقفوهم إنهم مسئولون * مالكم لاتناصرون ؟ بل هم اليوم مستسلمون)

﴿ وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ ٱلْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ * وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمُ ٱلْبَحْرَ فَأَنجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا ءَالَ فِرْعَوْنَ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴾

يقول تعالى اذكروا يابنى إسرائيل نعمتى عليكم إذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب أى خلصتكم منهم وأنقذتكم من أيديهم صحبة موسى عليه السلام وقد كانوا يسومونكم أى يوردونكم ويذيقونكم ويولونكم سوء العذاب وذلك أن فرعون لعنه الله كان قد رأى رؤيا هالته رأى نارا خرجت من بيت المقدس فدخلت بيوت القبط ببلاد مصر إلا بيوت بنى إسرائيل مضمونها أن زوال ملكه يكون على يدى رجل من بنى إسرائيل ويقال بعد تحدث سماره عنده بأن بنى إسرائيل يتوقعون خروج رجل منهم يكون لهم به دولة ورفعة وهكذا جاء فى حديث الفتون كما سيأتى فى موضعه فى سورة طه إن شاء الله تعالى فعند ذلك أمر فرعون لعنه الله بقتل كل ذكر يولد بعد ذلك من بنى إسرائيل وأن تترك البنات وأمر باستعمال بنى إسرائيل فى مشاق الأعمال وأرذلها وههنا فسر العذاب بذبح الأبناء وفى سورة إبراهيم عطف عليه كما قال (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) وسيأتى تفسير ذلك فى أول سورة القصص إن شاء الله تعالى وبه الثقة والمعونة والتأييد . ومعنى يسومونكم يولونكم قاله أبو عبيدة كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها قال عمرو بن كلثوم :

إذا ما الملك سام الناس خسفا * أبينا أن نقر الخسف فينا

وقيل معناه يديمون عذابكم كما يقال سائمة الغنم من إدامتها الرعى نقله القرطبى وإنما قال ههنا (يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) ليكون ذلك تفسيرا للنعمة عليهم فى قوله (يسومونكم سوء العذاب) ثم فسره بهذا لقوله ههنا (اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم) وأما فى سورة ابراهيم فلما قال (وذكرهم بأيام الله) أى بأياديه ونعمه عليهم فناسب أن يقول هناك (يسومونكم سوء العذاب ويذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم) فعطف عليه الذبح ليدل على تعدد النعم والأيادى على بنى إسرائيل . وفرعون علم على كل من ملك مصر كافراً من العماليق وغيرهم كما ان قيصر علم على كل من ملك الروم مع الشام كافرا وكسرى لمن ملك الفرس ، وتبع لمن ملك اليمن كافرا ، والنجاشى لمن ملك الحبشة ، وبطليموس لمن ملك الهند ويقال كان اسم فرعون الذى كان فى زمن موسى عليه السلام الوليد بن مصعب بن الريان وقيل مصعب بن الريان فكان من سلالة عمليق بن الأود بن إرم بن سام بن نوح وكنيته أبو مرة وأصله فارسى من اصطخر وأيا ما كان فعليه لعنة الله ، وقوله تعالى (وفى ذلكم بلاء من ربكم عظيم) قال ابن جرير وفى الذى فعلنا بكم من إنجائنا آباءكم مما كنتم فيه من عذاب آل فرعون بلاء لكم من ربكم عظيم أى نعمة عظيمة عليكم فى ذلك ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قوله تعالى (بلاء من ربكم عظيم) قال نعمة ، وقال مجاهد (بلاء من ربكم عظيم) قال نعمة من ربكم عظيمة ، وكذا قال أبو العالية وأبو مالك والسدى وغيرهم وأصل البلاء الاختبار وقد يكون بالخير والشر كما قال تعالى (ونبلوكم بالشر والخير فتنة) وقال (وبلوناهم بالحسنات والسيئات لعلهم يرجعون) قال ابن جرير وأكثر مايقال فى الشر بلوته أبلوه بلاء وفى الخير أبليه إبلاء وبلاء ، قال زهير بن أبى سلمى :

جزى الله بالاحسان مافعلا بكم * وأبلاهما خير البلاء الذى يبلو

قال فجمع بين اللغتين لأنه أراد فأنعم الله عليهما خير النعم التى يختبر بها عباده وقيل المراد بقوله (وفى ذلكم بلاء)

إشارة إلى ما كانوا فيه من العذاب المهين من ذبح الأبناء واستحياء النساء قال القرطبي وهذا قول الجمهور ولفظه بعد ما حكى القول الأول ، ثم قال : وقال الجمهور الإشارة إلى الذبح ونحوه والبلاء ههنا فى الشر والمعنى وفى الذبح مكروه وامتحان وقوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) معناه وبعد أن أنقذناكم من آل فرعون وخرجتم مع موسى عليه السلام خرج فرعون فى طلبكم ففرقنا بكم البحر كما أخبر تعالى عن ذلك مفصلا كما سيأتى فى مواضعه ومن أبسطها مافى سورة الشعراء إن شاء الله (فأنجيناكم) أى خلصناكم منهم وحجزنا بينكم وبينهم وأغرقناهم وأنتم تنظرون ليكون ذلك أشفى لصدوركم وأبلغ فى إهانة عدوكم . قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن أبى إسحاق الهمدانى عن عمرو بن ميمون الأودى فى قوله تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر — إلى قوله — وأنتم تنظرون) قال لما خرج موسى ببنى إسرائيل بلغ ذلك فرعون فقال لاتتبعوهم حتى تصيح الديكة قال فوالله ما صاح ليلتئذ ديك حتى أصبحوا فدعا بشاة فذبحت ثم قال لا أفرغ من كبدها حتى يجتمع إلى ستمائة ألف من القبط فلم يفرغ من كبدها حتى اجتمع إليه ستمائة ألف من القبط فلما أتى موسى البحر قال له رجل من أصحابه يقال له يوشع ابن نون أين أمر ربك ؟ قال أمامك يشير إلى البحر فأقحم يوشع فرسه فى البحر حتى بلغ الغمر فذهب به الغمر ثم رجع فقال أين أمر ربك ياموسى ؟ فو الله ما كذبت ولا كذبت ،فعل ذلك ثلاث مرات ثم أوحى الله إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم — يقول مثل الجبل — ثم سار موسى ومن معه واتبعهم فرعون فى طريقهم حتى إذا تتاموا فيه أطبقه الله عليهم فذلك قال (وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون) وكذلك قال غير واحد من السلف كما سيأتى بيانه فى موضعه وقد ورد أن هذا اليوم كان يوم عاشوراء كما قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا أيوب عن عبد الله بن سعيد بن جبير عن أبيه عن ابن عباس قال قدم رسول الله ﷺ المدينة فرأى اليهود يصومون يوم عاشوراء فقال « ما هذا اليوم الذى تصومون ؟» قالوا هذا يوم صالح هذا يوم نجى الله عز وجل فيه بنى إسرائيل من عدوهم فصامه موسى عليه السلام فقال رسول الله ﷺ « أنا أحق بموسى منكم » فصامه رسول الله ﷺ وأمر بصومه وروى هذا الحديث البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه من طرق عن أيوب السختيانى به نحو ماتقدم وقال أبو يعلى الموصلى حدثنا أبو الربيع حدثنا سلام يعنى ابن سليم عن زيد العمى عن يزيد الرقاشى عن أنس عن النبى ﷺ قال « فلق الله البحر لبنى إسرائيل يوم عاشوراء » وهذا ضعيف من هذا الوجه فان زيدا العمى فيه ضعف وشيخه يزيد الرقاشى أضعف منه

﴿ وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ * ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَإِذْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى عفوى عنكم لما عبدتم العجل بعد ذهاب موسى لميقات ربه عند انقضاء أمد المواعدة وكانت أربعين يوما وهى المذكورة فى الأعراف فى قوله تعالى (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر) قيل إنها ذو القعدة بكماله وعشر من ذى الحجة وكان ذلك بعد خلاصهم من فرعون وإنجائهم من البحر وقوله تعالى (وإذا آتينا موسى الكتاب) يعنى التوراة (والفرقان) وهو ما يفرق بين الحق والباطل والهدى والضلالة (لعلكم تهتدون) وكان ذلك أيضا بعد خروجهم من البحر كما دل عليه سياق الكلام فى سورة الأعراف ولقوله تعالى (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما أهلكنا القرون الأولى بصائر للناس وهدى ورحمة لعلهم يتذكرون) وقيل الواو زائدة والمعنى ولقد آتينا موسى الكتاب الفرقان وهذا غريب وقيل عطف عليه وإن كان المعنى واحدا كما فى قول الشاعر :

وقدمت الأديم لراقشبه * فألفى قولها كذبا ومينا

وقال الآخر : ألا حبذا هند وأرض بها هند * وهند أتى من دونها النأى والبعد

فالكذب هو المين ، . والنأى هو البعد . وقال عنترة

حييت من طلل تقادم عهده * أقوى وأقفر بعد أم الهيثم

فعطف الإقفار على الإقواء وهو هو

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يَٰقَوْمِ إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴾

هذه صفة توبته تعالى على بنى إسرائيل من عبادة العجل ، قال الحسن البصرى رحمه الله فى قوله تعالى (وإذ قال موسى لقومه ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) فقال ذلك حين وقع فى قلوبهم من شأن عبادتهم العجل ما وقع حتى قال الله تعالى (ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا) الآية . قال . فذلك حين يقول موسى (ياقوم إنكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل) وقال أبو العالية وسعيد بن جبير والربيع بن أنس (فتوبوا إلى بارئكم) أى إلى خالقكم قلت وفى قوله ههنا (إلى بارئكم) تنبيه على عظم جرمهم أى فتوبوا إلى الذى خلقكم وقد عبدتم معه غيره . وقد روى النسائى وابن جرير وابن أبى حاتم من حديث يزيد بن هارون عن الأصبغ بن زيد الوراق عن القاسم بن أبى أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : فقال الله تعالى إن توبتهم أن يقتل كل واحد منهم من لقى من والد وولد فيقتله بالسيف ولا يبالى من قتل فى ذلك الموطن فتاب أولئك الذين كانوا خفى على موسى وهارون ما اطلع الله على ذنوبهم فاعترفوا بها وفعلوا ما أمروا به فغفر الله للقاتل والمقتول وهذا قطعة من حديث الفتون وسيأتى فى سورة طه بكماله إن شاء الله . وقال ابن جرير : حدثنى عبد الكريم بن الهيثم حدثنا إبراهيم بن بشار حدثنا سفيان بن عيينة : قال: قال أبو سعيد عن عكرمة عن ابن عباس قال : قال موسى لقومه توبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم * قال أمر موسى قومه عن أمر ربه عز وجل أن يقتلوا أنفسهم قال : وأخبر الذين عبدوا العجل فجلسوا وقام الذين لم يعكفوا على العجل فأخذوا الخناجر بأيديهم وأصابتهم ظلمة شديدة فجعل يقتل بعضهم بعضا فانجلت الظلمة عنهم وقد جلوا عن سبعين ألف قتيل كل من قتل منهم كانت له توبة وكل من بقى كانت له توبة . وقال ابن جرير : أخبرنى القاسم بن أبى برة أنه سمع سعيد بن جبير ومجاهداً يقولان فى قوله تعالى (فاقتلوا أنفسكم) قالا : قام بعضهم إلى بعض بالخناجر يقتل بعضهم بعضا لا يحنوا رجل على قريب ولا بعيد حتى ألوى موسى بثوبه فطرحوا ما بأيديهم فكشف عن سبعين ألف قتيل وإن الله أوحى إلى موسى أن حسبى فقد اكتفيت فذلك حين ألوى موسى بثوبه وروى عن على رضى الله عنه نحو ذلك وقال قتادة : أمر القوم بشديد من الأمر فقاموا يتناحرون بالشفار يقتل بعضهم بعضا حتى بلغ الله فيهم نقمته فسقطت الشفار من أيديهم فأمسك عنهم القتل فجعل لحيهم توبة وللمقتول شهادة. وقال الحسن البصرى : أصابتهم ظلمة حندس فقتل بعضهم بعضا ثم انكشف عنهم فجعل توبتهم فى ذلك وقال السدى : فى قوله (فاقتلوا أنفسكم) قال فاجتلد الذين عبدوه والذين لم يعبدوه بالسيوف فكان من قتل من الفريقين شهيداً حتى كثر القتل حتى كادوا أن يهلكوا حتى قتل منهم سبعون ألفاً وحتى دعا موسى وهارون ربنا أهلكت بنى إسرائيل ربنا البقية البقية فأمرهم أن يلقوا السلاح وتاب عليهم فكان من قتل منهم من الفريقين شهيداً ومن بقى مكفرا عنه فذلك قوله (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم) وقال الزهرى : لما أمرت بنو إسرائيل بقتل أنفسها برزوا ومعهم موسى فاضطربوا بالسيوف وتطاعنوا بالخناجر وموسى رافع يديه حتى إذا فتر بعضهم قالوا يانبى الله ادع الله لنا وأخذوا بعضديه يسندون يديه فلم يزل أمرهم على ذلك حتى إذا قبل الله توبتهم قبض أيديهم بعضهم عن بعض فألقوا السلاح وحزن موسى وبنو إسرائيل للذى كان من القتل فيهم فأوحى الله جل

ثناؤه إلى موسى ما يحزنك أمامن قتل منهم فحي عندي يرزقون وأمامن بقي فقد قبلت توبته فسر بذلك موسى وبنو إسرائيل رواه ابن جرير باسناد جيد عنه وقال ابن إسحاق لما رجع موسى إلى قومه وأحرق العجل وذراه فى اليم خرج إلى ربه بمن اختار من قومه فأخذتهم الصاعقة ثم بعثوا فسأل موسى ربه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل فقال لا إلا أن يقتلوا أنفسهم قال فبلغنى أنهم قالوا لموسى نصبر لأمر الله فأمر موسى من لم يكن عبد العجل أن يقتل من عبده فجلسوا بالأفنية وأصلت عليهم القوم السيوف فجعلوا يقتلونهم فهش موسى فبكى إليه النساء والصبيان يطلبون العفو عنهم فتاب الله عليهم وعفا عنهم وأمر موسى أن ترفع عنهم السيوف وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما رجع موسى إلى قومه وكانوا سبعين رجلا قد اعتزلوا مع هارون العجل لم يعبدوه فقال لهم موسى انطلقوا إلى موعد ربكم فقالوا يا موسى مامن توبة قال بلى : اقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم فتاب عليكم ـ الآية فاخترطوا السيوف والجزرة والخناجر والسكاكين . قال وبعث عليهم ضبابة قال فجعلوا يتلامسون بالأيدى ويقتل بعضهم بعضا قال ويلقى الرجل أباه وأخاه فيقتله وهو لا يدرى . قال وينادون فيها رحم الله عبدا صبر نفسه حتى يبلغ الله رضاه ، قال فقتلاهم شهداء وتيب على أحيائهم ثم قرأ (فتاب عليكم إنه هو التواب الرحيم)

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ * ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى بعثى لكم بعد الصعق إذ سألتم رؤيتى جهرة عيانا مما لا يستطاع لكم ولا لأمثالكم كما قال ابن جريج قال ابن عباس فى هذه الآية (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال علانية وكذا قال إبراهيم بن طهمان عن عباد بن إسحق عن أبى الحويرث عن ابن عباس أنه قال فى قول الله تعالى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) أى علانية أى حتى نرى الله وقال قتادة والربيع بن أنس (حتى نرى الله جهرة) أى عيانا وقال أبو جعفر عن الربيع بن أنس هم السبعون الذين اختارهم موسى فساروا معه قال فسمعوا كلاما فقالوا (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال فسمعوا صوتا فصعقوا يقول ماتوا . وقال مروان بن الحكم فيما خطب به على منبر مكة الصاعقة صيحة من السماء وقال السدى فى قوله (فأخذتكم الصاعقة) الصاعقة: نار ، وقال عروة بن رويم فى قوله (وأنتم تنظرون) قال صعق بعضهم وبعض ينظرون ثم بعث هؤلاء وصعق هؤلاء وقال السدى (فأخذتكم الصاعقة) فماتوا فقام موسى يبكى ويدعو الله ويقول رب ماذا أقول لبنى إسرائيل إذا أتيتهم وقد أهلكت خيارهم (لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى أتهلكنا بما فعل السفهاء منا) فأوحى الله إلى موسى ان هؤلاء السبعين ممن اتخذوا العجل ثم إن الله أحياهم فقاموا وعاشوا رجل رجل ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون ؟ قال فذلك قوله تعالى (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) وقال الربيع بن أنس كان موتهم عقوبة لهم فبعثوا من بعد الموت ليستوفوا آجالهم وكذا قال قتادة وقال ابن جرير حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق ، قال لما رجع موسى إلى قومه فرأى ما هم عليه من عبادة العجل وقال لأخيه وللسامرى ما قال وحرق العجل وذراه فى اليم اختار موسى منهم سبعين رجلا الخير فالخير وقال انطلقوا إلى الله وتوبوا إلى الله مما صنعتم واسألوه التوبة على من تركتم وراءكم من قومكم ، صوموا وتطهروا وطهروا ثيابكم . فخرج بهم إلى طور سيناء لميقات وقته له ربه وكان لا يأتيه إلا بإذن منه وعلم فقال له السبعون فيما ذكر لى حين صنعوا ما أمروا به وخرجوا للقاء الله قالوا ياموسى اطلب لنا إلى ربك نسمع كلام ربنا فقال أفعل فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه الغمام حتى تغشى الجبل كله ودنا موسى فدخل فيه وقال للقوم ادنوا وكان موسى إذا كلمه الله وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد من بنى آدم أن ينظر إليه فضرب دونه بالحجاب ودنا القوم حتى إذا دخلوا فى الغمام وقعوا سجودا فسمعوه وهو يكلم موسى يأمره وينهاه افعل ولا تفعل فلما فرغ إليه من أمره انكشف

عن موسى الغمام فأقبل اليهم فقالوا لموسى (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) فأخذتهم الرجفة وهى الصاعقة فماتوا جميعا وقام موسى يناشد ربه ويدعوه ويرغب إليه ويقول (رب لو شئت أهلكتهم من قبل وإياى) قد سفهوا أفتهلك من ورائى من بنى إسرائيل بما يفعل السفهاء منا ؟ أى إن هذا لهم هلاك واخترت منهم سبعين رجلا الخير فالخير أرجع إليهم وليس معى منهم رجل واحد فما الذى يصدقونى به ويأمنونى عليه بعد هذا ؟ (إناهدنا اليك) فلم يزل موسى يناشد ربه عز وجل ويطلب إليه حتى رد إليهم أرواحهم وطلب إليه التوبة لبنى إسرائيل من عبادة العجل فقال لا إلا أن يقتلوا أنفسهم ـ هذا سياق محمد بن إسحق ـ وقال إسماعيل بن عبد الرحمن السدى الكبير لما تابت بنو إسرائيل من عبادة العجل وتاب الله عليهم بقتل بعضهم لبعض كما أمرهم الله به أمر الله موسى أن يأتيه فى كل أناس من بنى إسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل ووعدهم موسى فاختار موسى سبعين رجلا على عينه ثم ذهب بهم ليعتذروا وساق البقية وهذا السياق يقتضى أن الخطاب توجه إلى بنى إسرائيل فى قوله (وإذ قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) والمراد السبعون المختارون منهم ولم يحك كثير من المفسرين سواه ، وقد أغرب الرازى فى تفسيره حين حكى فى قصة هؤلاء السبعين أنهم بعد إحيائهم قالوا ياموسى إنك لا تطلب من الله شيئاً إلا أعطاك فادعه أن يجعلنا أنبياء فدعا بذلك فأجاب الله دعوته ، وهذا غريب جدا إذلا يعرف فى زمان موسى نبى سوى هرون ثم يوشع بن نون وقد غلط أهل الكتاب أيضا فى دعواهم أن هؤلاء رأوا الله عز وجل فإن موسى الكليم عليه السلام قد سأل ذلك فمنع منه فكيف يناله هؤلاء السبعون .

القول الثانى فى الآية قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى تفسير هذه الآية قال لهم موسى لما رجع من عند ربه بالألواح قد كتب فيها التوراة فوجدهم يعبدون العجل ، فأمرهم بقتل أنفسهم ففعلوا فتاب الله عليهم فقال إن هذه الألواح فيها كتاب الله فيه أمركم الذى أمركم به ونهيكم الذى نهاكم عنه . فقالوا ومن يأخذه بقولك أنت ؟ لا والله حتى نرى الله جهرة حتى يطلع الله علينا فيقول هذا كتابى فخذوه فماله لا يكلمنا كما يكلمك أنت يا موسى وقرأ قول الله (لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) قال فجاءت غضبة من الله فجاءتهم صاعقة بعد التوبة فصعقتهم فماتوا أجمعون ، قال ثم أحياهم الله من بعد موتهم وقرأ قول الله (ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون) فقال لهم موسى خذوا كتاب الله فقالوا لا ، فقال أى شىء أصابكم ؟ فقالوا أصابنا أنا متنا ثم أحيينا ، قال خذوا كتاب الله قالوا لا ، فبعث الله ملائكة فنتقت الجبل فوقهم . وهذا السياق يدل على أنهم كلفوا بعد ما أحيوا . وقد حكى الماوردى فى ذلك قولين أحدهما أنه سقط التكليف عنهم لمعاينتهم الأمر جهرة حتى صاروا مضطرين إلى التصديق والثانى أنهم مكلفون لئلا يخلو عاقل من تكليف قال القرطبى وهذا هو الصحيح لأن معاينتهم للأمور الفظيعة لا تمنع تكليفهم لأن بنى إسرائيل قد شاهدوا أموراً عظاما من خوارق العادات وهم فى ذلك مكلفون وهذا واضح والله أعلم

﴿ وَظَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾

لما ذكر تعالى مادفعه عنهم من النقم شرع يذكرهم أيضا بما أسبغ عليهم من النعم فقال (وظللنا عليكم الغمام) وهو جمع غمامة سمى بذلك لأنه يغم السماء أى يواريها ويسترها وهو السحاب الأبيض ظللوا به فى التيه ليقيهم حر الشمس كما رواه النسائى وغيره عن ابن عباس فى حديث الفتون قال ثم ظلل عليهم فى التيه بالغمام قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر والربيع بن أنس وأبى مجلز والضحاك والسدى نحو قول ابن عباس وقال الحسن وقتادة (وظللنا عليكم الغمام) كان هذا فى البرية ظلل عليهم الغمام من الشمس وقال ابن جرير قال آخرون وهو غمام أبرد من هذا وأطيب . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (وظللنا عليكم الغمام) قال ليس

بالسحاب هو الغمام الذى يأتى الله فيه يوم القيامة ولم يكن إلا لهم . وهكذا رواه ابن جرير عن المثنى بن إبراهيم عن أبى حذيفة وكذا رواه الثورى وغيره عن ابن أبى نجيح عن مجاهد وكأنه يريد والله أعلم انه ليس من زى هذا السحاب بل أحسن منه وأطيب وأبهى منظرا كما قال سنيد فى تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جريج قال: قال ابن عباس (وظللنا عليكم الغمام) قال غمام أبرد من هذا وأطيب وهو الذى يأتى الله فيه فى قوله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) وهو الذى جاءت فيه الملائكة يوم بدر . قال ابن عباس وكان معهم فى التيه : وقوله تعالى (وأنزلنا عليكم المن) اختلفت عبارات المفسرين فى المن ماهو ؟ فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس كان المن ينزل عليهم على الأشجار فيغدون إليه فيأكلون منه ماشاءوا . وقال مجاهد المن صمغة وقال عكرمة المن شىء أنزله الله عليهم مثل الطل شبه الرب الغليظ وقال السدى قالوا ياموسى كيف لنا بما ههنا أين الطعام فأنزل الله عليهم المن فكان يسقط على شجرة الزنجبيل وقال قتادة كان المن ينزل عليهم فى محلهم سقوط الثلج أشد بياضا من اللبن وأحلى من العسل يسقط عليهم من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس يأخذ الرجل منهم قدر مايكفيه يومه ذلك فاذا تعدى ذلك فسد ولم يبق حتى إذا كان يوم سادسه يوم جمعته أخذ مايكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عيد لايشخص فيه لأمر معيشته ولايطلبه لشىء وهذا كله فى البرية وقال الربيع بن أنس المن شراب كان ينزل عليهم مثل العسل فيمزجونه بالماء ثم يشربونه . وقال وهب بن منبه وسئل عن المن فقال خبز رقاق مثل الذرة أو مثل النقى وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى محمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا إسرائيل عن جابر عن عامر وهو الشعبى قال عسلكم هذا جزء من سبعين جزءا من المن وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم انه العسل ووقع فى شعر أمية بن أبى الصلت حيث قال :

فرأى الله أنهم بمضيع * لابذى مزرع ولامشمورا * فسناها عليهم غاديات
ويرى مزنهم خلايا وخورا * عسلا ناطفا وماء فراتا * وحليبا ذا بهجة مزمورا

فالناطف هو السائل والحليب المزمور الصافى منه والغرض أن عبارات المفسرين متقاربة فى شرح المن فمنهم من فسره بالطعام ومنهم من فسره بالشراب والظاهر والله أعلم أنه كل ماامتن الله به عليهم من طعام وشراب وغير ذلك مما ليس لهم فيه عمل ولا كد فالمن المشهور إن أكل وحده كان طعاما وحلاوة وإن مزج مع الماء صار شرابا طيبا وان ركب مع غيره صار نوعا آخر ولكن ليس هو المراد من الآية وحده والدليل على ذلك قول البخارى حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن عبد الملك بن عمير بن حريث عن سعيد بن زيد رضى الله عنه قال قال النبى ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وهذا الحديث رواه الامام أحمد عن سفيان بن عيينة عن عبد الملك وهو ابن عمير به وأخرجه الجماعة فى كتبهم إلا أبا داود من طرق عن عبد الملك وهو ابن عمير به وقال الترمذى حسن صحيح ورواه البخارى ومسلم من رواية الحكم عن الحسن العرنى عن عمرو بن حريث به وقال الترمذى حدثنا أبو عبيدة بن أبى السفر ومحمود بن غيلان قالا حدثنا سعيد بن عامر عن محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « العجوة من الجنة وفيها شفاء من السم والكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » تفرد باخراجه الترمذى ثم قال هذا حديث حسن غريب لانعرفه إلا من حديث محمد بن محمد بن عمرو وإلا من حديث سعيد بن عامر عنه ، وفى الباب عن سعيد بن زيد وأبى سعيد وجابر — كذا قال — وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من طريق آخر عن أبى هريرة فقال حدثنا أحمد بن الحسن بن أحمد البصرى حدثنا أسلم بن سهل حدثنا القاسم بن عيسى حدثنا طلحة بن عبد الرحمن عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وهذا حديث غريب من هذا الوجه وطلحة بن عبد الرحمن هذا السلمى الواسطى يكنى بأبى محمد وقيل أبو سليمان المؤدب قال فيه الحافظ أبو أحمد بن عدى : روى عن قتادة أشياء لايتابع عليها . ثم قال الترمذى حدثنا محمد بن بشار حدثنا معاذ بن هشام حدثنا أبى عن قتادة عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة أن ناسا من أصحاب النبى ﷺ قالوا الكمأة جدرى الأرض فقال نبى الله صلى الله عليه

وسلم « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهى شفاء من السم » وهذا الحديث قد رواه النسائى عن محمد بن بشار به وعنه عن غندر عن شعبة عن أبى بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة به وعن محمد بن بشار عن عبد الأعلى عن خالد الحذاء عن شهر بن حوشب بقصة الكمأة فقط . وروى النسائى أيضا وابن ماجه من حديث محمد بن بشار عن أبى عبد الصمد بن عبد العزيز بن عبد الصمد عن مطر الوراق عن شهر بقصة العجوة عند النسائى وبالقصتين عند ابن ماجه وهذه الطريق منقطعة بين شهر بن حوشب وأبى هريرة فانه لم يسمع منه بدليل ماروا النسائى فى الوليمة من سننه عن على بن الحسين الدرهمى عن عبد الأعلى عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن شهر بن حوشب عن عبد الرحمن بن غنم عن أبى هريرة . قال خرج رسول الله ﷺ وهم يذكرون الكمأة وبعضهم يقول جدرى الأرض فقال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وروى عن شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر كما قال الإمام أحمد حدثنا أسباط بن محمد حدثنا الأعمش عن جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن جابر بن عبد الله وأبى سعيد الخدرى قالا : قال رسول الله ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وهى شفاء من السم » وقال النسائى فى الوليمة أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر جعفر بن إياس عن شهر بن حوشب عن أبى سعيد وجابر رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » ثم رواه أيضا وابن ماجه من طرق عن الأعمش عن أبى بشر عن شهر عنهما به وقد رويا — أعنى النسائى من حديث جرير وابن ماجه من حديث سعيد بن أبى سلمة — كلاهما عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن أبى نضرة عن أبى سعيد رواه النسائى وحديث جابر عن النبى ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » ورواه ابن مردويه عن أحمد بن عثمان عن عباس الدورى عن لاحق بن صواب عن عمار بن رزيق عن الأعمش كابن ماجه وقال ابن مردويه أيضا حدثنا أحمد بن عثمان حدثنا عباس الدورى حدثنا الحسن بن الربيع حدثنا أبو الأحوص عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبى سعيد الخدرى قال خرج علينا رسول الله ﷺ وفى يده كمآت فقال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » وأخرجه النسائى عن عمرو بن منصور عن الحسن بن الربيع به ثم ابن مردويه رواه أيضا عن عبد الله بن إسحق عن الحسن بن سلام عن عبيد الله بن موسى عن شيبان عن الأعمش به ، وكذا رواه النسائى عن أحمد بن عثمان بن حكيم عن عبيد الله ابن موسى وقد روى من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه كما قال ابن مردويه حدثنا محمد بن عبد الله بن إبراهيم حدثنا حمدون بن أحمد حدثنا جويرة بن أشرس حدثنا حماد عن شعيب بن الحبحاب عن أنس أن أصحاب رسول الله ﷺ تداروا فى الشجرة التى اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار ، فقال بعضهم نحسبه الكمأة فقال رسول الله ﷺ « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين والعجوة من الجنة وفيها شفاء من السم » وهذا الحديث محفوظ أصله من رواية حماد بن سلمة . وقد روى الترمذى والنسائى من طريقه شيئا من هذا والله أعلم . وروى عن شهر عن ابن عباس كما رواه النسائى أيضا فى الوليمة عن أبى بكر أحمد بن على بن سعيد عن عبد الله بن عون الخراز عن أبى عبيدة الحداد عن عبد الجليل بن عطية عن عبد الله بن عباس عن النبى ﷺ قال « الكمأة من المن وماؤها شفاء للعين » فقد اختلف كما ترى فيه على شهر بن حوشب ويحتمل عندى أنه حفظه ورواه من هذه الطرق كلها وقد سمعه من بعض الصحابة وبلغه عن بعضهم فان الأسانيد إليه جيدة وهو لا يتعمد الكذب وأصل الحديث محفوظ عن رسول الله ﷺ كما تقدم من رواية سعيد بن زيد رضى الله عنه .

وأما السلوى فقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس السلوى طائر يشبه بالسمانى . كانوا يأكلون منه . وقال السدى فى خبره ذكره عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود وعن ناس من الصحابة السلوى طائر يشبه السمانى ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنا قرة ابن خالد عن جهضم عن ابن عباس ، قال السلوى هو السمانى وكذا قال مجاهد والشعبى والضحاك والحسن وعكرمة

والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى وعن عكرمة أما السلوى فطير كطير يكون بالجنة أكبر من العصفور أو نحو ذلك وقال قتادة : السلوى كان من طير الى الحمرة تحشرها عليهم الريح الجنوب وكان الرجل يذبح منها قدر ما يكفيه يومه ذلك فاذا تعدى فسد ولم يبق عنده حتى إذا كان يوم سادسه ليوم جمعته أخذ ما يكفيه ليوم سادسه ويوم سابعه لأنه كان يوم عبادة لايشخص فيه لشيء ولا يطلبه ، وقال وهب بن منبه : السلوى طير سمين مثل الحمامة كان يأتيهم فيأخذون منه من سبت إلى سبت وفى رواية عن وهب قال سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام لحما فقال الله لأطعمنهم من أقل لحم يعلم فى الأرض فأرسل عليهم ريحا فأذرت عند مساكنهم السلوى وهو السمانى مثل ميل فى ميل قيد رمح فى السماء فجأوا للغد فنتن اللحم وخنز الخبز ، وقال السدى لما دخل بنو إسرائيل التيه قالوا لموسى عليه السلام كيف لنا بما ههنا أين الطعام فأنزل الله عليهم المن فكان ينزل على شجر الزنجبيل ، والسلوى وهو طائر يشبه السمانى أكبر منه فكان يأتى أحدهم فينظر إلى الطير فان كان سمينا ذبحه وإلا أرسله فاذا سمن أتاه فقالوا هذا الطعام فأين الشراب ؟ فأمر موسى فضرب بعصاه الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فشرب كل سبط من عين ، فقالوا هذا الشراب فأين الظل فظلل عليهم الغمام ، فقالوا هذا الظل فأين اللباس ؟ فكانت ثيابهم تطول معهم كما تطول الصبيان ولا يتخرق لهم ثوب فذلك قوله تعالى (وظللنا عليهم الغمام وأنزلنا عليهم المن والسلوى) وقوله (وإذ استسقى موسى لقومه فقلنا اضرب بعصاك الحجر فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا قد علم كل أناس مشربهم كلوا واشربوا من رزق الله ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) وروى عن وهب بن منبه وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم نحو ماقاله السدى وقال سعيد عن حجاج عن ابن جريج قال قال ابن عباس خلق لهم فى التيه ثياب لاتخرق ولاتدرن ، قال ابن جريج : فكان الرجل إذا أخذ من المن والسلوى فوق طعام يوم فسد الا أنهم كانوا يأخذون فى يوم الجمعة طعام يوم السبت فلا يصبح فاسدا قال ابن عطية السلوى طير باجماع المفسرين وقد غلط الهذلى فى قوله انه العسل وأنشد فى ذلك مستشهدا :

وقاسمها بالله جهدا لأنتم * ألذ من السلوى اذا ما أشورها

قال فظن أن للسلوى عسلا ، قال القرطبى • دعوى الاجماع لاتصح لأن المؤرج أحد علماء اللغة والتفسير قال انه العسل واستدل ببيت الهذلى هذا وذكر أنه كذلك فى لغة كنانة لأنه يسلى به ومنه عين سلوان ، وقال الجوهرى : السلوى العسل واستشهد ببيت الهذلى أيضا والسلوانة بالضم خرزة كانوا يقولون إذا صب عليها ماء المطر فشربها العاشق سلا قال الشاعر : شربت على سلوانة ماء مزنة * فلا وجديد العيش يامى ما أسلو

واسم ذلك الماء السلوان ، وقال بعضهم السلوان دواء يشفى الحزين فيسلو والأطباء يسمونه ﴿مفرح﴾ ، قالوا والسلوى جمع بلفظ الواحد أيضا كما يقال سمانى للمفرد والجمع وويلى[1] كذلك ، وقال الخليل واحده سلواة وأنشد :

وإنى لتعرونى لذكراك هزة * كما انتفض السلواة من بلل القطر

وقال الكسائى : السلوى واحدة وجمعه سلاوى : نقله كله القرطبى . وقوله تعالى (كلوا من طيبات مارزقناكم) أمر إباحة وإرشاد وامتنان ، وقوله تعالى (وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون) أى أمرناهم بالأكل مما رزقناهم وأن يعبدوا كما قال (كلوا من رزق ربكم واشكروا له) فخالفوا وكفروا فظلموا أنفسهم هذا مع ماشاهدوه من الآيات البينات والمعجزات القاطعات ، وخوارق العادات ، ومن ههنا تتبين فضيلة أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم على سائر أصحاب الأنبياء فى صبرهم وثباتهم وعدم تعنتهم مع ما كانوا معه فى أسفاره وغزواته منها عام تبوك فى ذلك القيظ والحر الشديد والجهد لم يسألوا خرق عادة ولا إيجاد أمر مع أن ذلك كان سهلا على النبى صلى الله عليه وسلم ولكن لما أجهدهم الجوع سألوه فى تكثير طعامهم فجمعوا مامعهم فجاء قدر مبرك الشاة فدعا الله فيه وأمرهم فملأوا كل وعاء معهم وكذا لما احتاجوا إلى الماء سأل الله تعالى فجاءتهم سحابة فأمطرتهم فشربوا وسقوا الإبل وملأوا أسقيتهم ثم نظروا فاذا هى لم تجاوز العسكر . فهذا هو الأكمل فى اتباع الشيء مع قدر الله مع متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) هكذا فى النسخ وفى شرح القاموس مانصه : وفى الصحاح قال الأخفش لم أسمع له بواحد قال وهو يشبه أن واحده سلوى مثل جماعته كما قالوا دفلى للواحد والجماعة اه فليحرر

﴿ وَإِذْ قُلْنَا ادْخُلُوا هٰذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَغْفِرْ لَكُمْ خَطَايَاكُمْ وَسَنَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ * فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا رِجْزًا مِنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾

يقول تعالى لائما لهم على نكولهم عن الجهاد ودخولهم الأرض المقدسة لما قدموا من بلاد مصر صحبة موسى عليه السلام فأمروا بدخول الأرض المقدسة التى هى ميراث لهم عن أبيهم إسرائيل وقتال من فيها من العماليق الكفرة فنكلوا عن قتالهم وضعفوا واستحسروا فرماهم الله فى التيه عقوبة لهم كما ذكره تعالى فى سورة المائدة ، ولهذا كان أصح القولين أن هذه البلدة هى بيت المقدس كما نص على ذلك السدى والربيع بن أنس وقتادة وأبو مسلم الاصفهانى وغير واحد وقد قال الله تعالى حاكيا عن موسى (ياقوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا) الآيات . وقال آخرون هى أريحاء ، ويحكى عن ابن عباس وعبد الرحمن بن زيد وهذا بعيد لأنها ليست على طريقهم وهم قاصدون بيت المقدس لا أريحاء ، وأبعد من ذلك قول من ذهب إلى أنها مصر ، حكاه الرازى فى تفسيره والصحيح الاول أنها بيت المقدس ، وهذا كان لما خرجوا من التيه بعد أربعين سنة مع يوشع بن نون عليه السلام وفتحها الله عليهم عشية جمعة وقد حبست لهم الشمس يومئذ قليلا حتى أمكن الفتح ، ولما فتحوها أمروا أن يدخلوا الباب باب البلد (سجدا) أى شكرا لله تعالى على ما أنعم به عليهم من الفتح والنصر ورد بلدهم عليهم وانقاذهم من التيه والضلال ، قال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس أنه كان يقول فى قوله تعالى (وادخلوا الباب سجدا) أى ركعا ، وقال ابن جرير : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو أحمد الزبيرى حدثنا سفيان عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (وادخلوا الباب سجدا) قال ركعا من باب صغير رواه الحاكم من حديث سفيان به ، ورواه ابن أبى حاتم من حديث سفيان وهو الثورى به وزاد فدخلوا من قبل أستاههم ؛ وقال الحسن البصرى أمروا أن يسجدوا على وجوههم حال دخولهم واستبعده الرازى وحكى عن بعضهم أن المراد ههنا بالسجود الخضوع لتعذر حمله على حقيقته ، وقال خصيف : قال عكرمة قال ابن عباس كان الباب قبل القبلة ، وقال ابن عباس ومجاهد والسدى وقتادة والضحاك هو باب الحطة من باب إيلياء بيت المقدس ، وحكى الرازى عن بعضهم أنه عنى بالباب جهة من جهات القبلة ، وقال خصيف قال عكرمة قال ابن عباس فدخلوا على شق ، وقال السدى عن أبى سعيد الأزدى عن أبى الكنود عن عبد الله بن مسعود قيل لهم ادخلوا الباب سجدا فدخلوا مقنعى رءوسهم أى رافعى رءوسهم خلاف ما أمروا ، وقوله تعالى (وقولوا حطة) قال الثورى عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وقولوا حطة) قال مغفرة استغفروا ، وروى عن عطاء والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه ، وقال الضحاك عن ابن عباس (وقولوا حطة) قال قولوا هذا الأمر حق كما قيل لكم وقال عكرمة قولوا (لا إله الا الله) وقال الأوزاعى . كتب ابن عباس إلى رجل قد سماه فسأله عن قوله تعالى (وقولوا حطة) فكتب إليه أن أقروا بالذنب وقال الحسن وقتادة أى احطط عنا خطايانا (نغفر لكم خطاياكم وسنزيد المحسنين) وقال هذا جواب الأمر أى إذا فعلتم ما أمرناكم غفرنا لكم الخطيئات وضاعفنا لكم الحسنات وحاصل الأمر أنهم أمروا أن يخضعوا لله تعالى عند الفتح بالفعل والقول وأن يعترفوا بذنوبهم ويستغفروا منها والشكر على النعمة عندها والمبادرة إلى ذلك من المحبوب عند الله تعالى كما قال تعالى (إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا) فسره بعض الصحابة بكثرة الذكر والاستغفار عند الفتح والنصر ، وفسره ابن عباس بأنه نعى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أجله فيها وأقره على ذلك عمر رضى الله عنه ، ولا منافاة بين أن يكون قد أمر بذلك عند ذلك ونعى إليه روحه الكريمة أيضا ولهذا كان عليه الصلاة والسلام يظهر عليه الخضوع جدا عند النصر كما روى انه كان يوم الفتح فتح مكة داخلا إليها من الثنية العليا وانه لخاضع لربه حتى

ان عثنونه ليمس مورك رحله شكراً لله على ذلك ، ثم لما دخل البلد اغتسل وصلى ثمانى ركعات وذلك ضحى فقال بعضهم هذه صلاة الضحى وقال آخرون بل هى صلاة الفتح فاستحبوا للامام وللأمير إذا فتح بلداً أن يصلى فيه ثمانى ركعات عند أول دخوله كما فعل سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه لما دخل إيوان كسرى صلى فيه ثمانى ركعات والصحيح أنه يفصل بين كل ركعتين بتسليم ؛ وقيل يصليها كلها بتسليم واحد والله أعلم .

وقوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) قال البخارى حدثنى محمد حدثنا عبدالرحمن بن مهدى عن ابن المبارك عن معمر عن همام بن منبه عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : « قيل لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة ـ فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا حبة فى شعرة » ورواه النسائى عن محمد ابن اسماعيل بن ابراهيم عن عبدالرحمن به موقوفا وعن محمد بن عبيد بن محمد عن ابن المبارك ببعضه مسنداً فى قوله تعالى (حطة) قال فبدلوا وقالوا حبة وقال عبدالرزاق أنبأنا معمر عن همام بن منبه أنه سمع أباهريرة يقول قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال الله لبنى إسرائيل (ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم)فبدلوا ودخلوا الباب يزحفون على أستاههم فقالوا حبة فى شعرة » وهذا حديث صحيح رواه البخارى عن إسحق بن نصر ومسلم عن محمد بن رافع والترمذى عن عبدالرحمن بن حميد كلهم عن عبدالرزاق به ، وقال الترمذى حسن صحيح ، وقال محمد بن إسحق كان تبديلهم كما حدثنى صالح بن كيسان عن صالح مولى التوأمة عن أبى هريرة وعمن لا أتهم عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ قال: « دخلوا الباب ـ الذى أمروا أن يدخلوا فيه سجدا ـ يزحفون على أستاههم وهم يقولون حنطة فى شعيرة » وقال أبو داود حدثنا أحمد بن صالح وحدثنا سليمان بن داود حدثنا عبدالله بن وهب حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه عن النبى ﷺ : «قال الله لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم» ثم قال أبو داود حدثنا أحمد بن مسافر حدثنا ابن أبى فديك عن هشام بمثله هكذا رواه منفرداً به فى كتاب الحروف مختصرا وقال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن جعفر حدثنا إبراهيم بن مهدى حدثنا أحمد بن محمد بن المنذر القزاز حدثنا محمد بن إسماعيل بن أبى فديك عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال سرنا مع رسول الله ﷺ حتى إذا كان من آخر الليل أجزنا فى ثنية يقال لها ذات الحنظل فقال رسول الله ﷺ « مامثل هذه الثنية الليلة إلا كمثل الباب الذى قال الله لبنى إسرائيل ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة نغفر لكم خطاياكم » وقال سفيان الثورى عن أبى إسحق عن البراء (سيقول السفهاء من الناس) قال اليهود قيل لهم ادخلوا الباب سجداً قال ركعا وقولوا حطة أى مغفرة فدخلوا على أستاههم وجعلوا يقولون حنطة حمراء فيها شعيرة فذلك قول الله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وقال الثورى عن السدى عن أبى سعد الأزدى عن أبى الكنود عن ابن مسعود وقولوا حطة فقالوا حنطة حبة حمراء فيها شعيرة فأنزل الله (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وقال أسباط عن السدى عن مرة عن ابن مسعود أنه قال إنهم قالوا هطاسمعانا أزبة مزبا فهى بالعربية حبة حنطة حمراء مثقوبة فيها شعرة سوداء فذلك قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وقال الثورى عن الأعمش عن المنهال عن سعيد عن ابن عباس فى قوله تعالى (ادخلوا الباب سجداً) قال ركعا من باب صغير فدخلوا من قبل أستاههم وقالوا حنطة فذلك قوله تعالى (فبدل الذين ظلموا قولا غير الذى قيل لهم) وهكذا روى عن عطاء ومجاهد وعكرمة والضحاك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن رافع . وحاصل ماذكره المفسرون ومادل عليه السياق أنهم بدلوا أمر الله لهم من الخضوع بالقول والفعل فأمروا أن يدخلوا سجداً فدخلوا يزحفون على أستاههم من قبل أستاههم رافعى رءوسهم وأمروا أن يقولوا حطة أى احطط عنا ذنوبنا وخطايانا فاستهزءوا فقالوا حنطة فى شعيرة وهذا فى غاية ما يكون من المخالفة والمعاندة ولهذا أنزل الله بهم بأسه وعذابه بفسقهم وهو خروجهم عن طاعته . ولهذا قال (فأنزلنا على الذين ظلموا رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون) وقال الضحاك عن ابن عباس كل شىء فى كتاب الله من الرجز يعنى به العذاب وهكذا روى عن مجاهد وأبى مالك والسدى والحسن وقتادة أنه العذاب وقال أبو العالية الرجز الغضب ، وقال الشعبى الرجز إما الطاعون

وإما البرد وقال سعيد بن جبير هو الطاعون وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا وكيع عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت عن ابراهيم بن سعد يعني ابن أبي وقاص عن سعد بن مالك وأسامة بن زيد وخزيمة بن ثابت رضى الله عنهم قالوا : قال رسول الله ﷺ « الطاعون رجز عذاب عذب به من كان قبلكم » وهكذا رواه النسائى من حديث سفيان الثورى به وأصل الحديث فى الصحيحين من حديث حبيب بن أبي ثابت « إذا سمعتم الطاعون بأرض فلا تدخلوها » الحديث قال ابن جرير أخبرنى يونس بن عبدالأعلى عن ابن وهب عن يونس عن الزهرى قال أخبرنى عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أسامة بن زيد عن رسول الله ﷺ قال « إن هذا الوجع والسقم رجز عذب به بعض الأمم قبلكم » وهذا الحديث أصله مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى ومن حديث مالك عن محمد بن المنكدر وسالم بن أبي النضر عن عامر بن سعد بنحوه .

﴿ وَإِذِ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ كُلُوا وَٱشْرَبُوا مِن رِّزْقِ ٱللَّهِ وَلَا تَعْثَوْا فِى ٱلْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى إجابتى لنبيكم موسى عليه السلام حين استسقاني لكم وتيسيرى لكم الماء وإخراجه لكم من حجر يحمل معكم وتفجيرى الماء لكم منه من ثنتى عشرة عينا لكل سبط من أسباطكم عين قد عرفوها فكلوا من المن والسلوى واشربوا من هذا الماء الذى أنبعته لكم بلاسعى منكم ولا كد واعبدوا الذى سخر لكم ذلك (ولا تعثوا فى الأرض مفسدين) ولا تقابلوا النعم بالعصيان فتسلبوها . وقد بسطه المفسرون فى كلامهم كما قال ابن عباس رضى الله عنه وجعل بين ظهرانيهم حجر مربع وأمر موسى عليه السلام فضربه بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فى كل ناحية منه ثلاث عيون وأعلم كل سبط عينهم يشربون منها لا يرتحلون من منقلة إلا وجدوا ذلك معهم بالمكان الذى كان منهم بالمنزل الأول وهذا قطعة من الحديث الذى رواه النسائى وابن جرير وابن أبي حاتم وهو حديث الفتون الطويل . وقال عطية العوفى وجعل لهم حجراً مثل رأس الثور يحمل على ثور فاذا نزلوا منزلا وضعوه فضربه موسى عليه السلام بعصاه فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا فاذا ساروا حملوه على ثور فاستمسك الماء وقال عثمان بن عطاء الخراسانى عن أبيه كان لبنى إسرائيل حجر فكان يضعه هرون ويضرب به موسى بالعصا وقال قتادة كان حجراً طوريا من الطور يحملونه معهم حتى إذا نزلوا ضربه موسى بعصاه ، وقال الزمخشرى وقيل كان من رخام وكان ذراعا فى ذراع وقيل مثل رأس الانسان وقيل كان من الجنة طوله عشرة أذرع على طول موسى وله شعبتان تتقدان فى الظلمة وكان يحمل على حمار قال وقيل أهبطه آدم من الجنة فتوارثوه حتى وقع إلى شعيب فدفعه اليه مع العصا وقيل هو الحجر الذى وضع عليه ثوبه حين اغتسل فقال له جبريل ارفع هذا الحجر فان فيه قدرة ولك فيه معجزة فحمله فى مخلاته ، قال الزمخشرى ويحتمل أن تكون اللام للجنس لا للعهد أى اضرب الشىء الذى يقال له الحجر وعن الحسن لم يأمره أن يضرب حجراً بعينه ، قال وهذا أظهر فى المعجزة وأبين فى القدرة فكان يضرب الحجر بعصاه فينفجر ثم يضربه فييبس فقالوا إن فقد موسى هذا الحجر عطشنا ، فأوحى الله اليه أن يكلم الحجارة فتنفجر ولا يمسها بالعصا لعلهم يقرون والله أعلم ، وقال يحيى بن النضر : قلت لجويبر كيف علم كل أناس مشربهم ؟ قال : كان موسى يضع الحجر ويقوم من كل سبط رجل ويضرب موسى الحجر فينفجر منه اثنتا عشرة عينا فينضح من كل عين على رجل فيدعو ذلك الرجل سبطه إلى تلك العين ، وقال الضحاك : قال ابن عباس لما كان بنو إسرائيل فى التيه شق لهم من الحجر أنهاراً ، وقال الثورى عن أبي سعيد عن عكرمة عن ابن عباس : قال ذلك فى التيه ضرب لهم موسى الحجر فصار منه اثنتا عشرة عينا من ماء لكل سبط منهم عين يشربون منها ، وقال مجاهد نحو قول ابن عباس وهذه القصة شبيهة بالقصة التى فى سورة الأعراف ولكن تلك مكية ، فلذلك كان الإخبار عنهم بضمير الغائب لأن الله تعالى يقص

على رسوله ﷺ مافعل بهم . وأما فى هـذه السورة وهى البقرة فهى مدنيـة فلهذا كان الخطاب فيها متوجها إليهم وأخبر هناك بقوله (فانبجست منه اثنتا عشرة عينا) وهو أول الانفجار وأخبر ههنا بما آل اليه الحال آخراً وهو الانفجار فناسب ذكر الانفجار ههنا وذاك هناك والله أعلم . وبين السياقين تباين من عشرة أوجه لفظية ومعنوية قد سأل عنها الزمخشرى فى تفسيره وأجاب عنها بما عنده والأمر فى ذلك قريب والله أعلم .

﴿ وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ ۚ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾

يقول تعالى واذكروا نعمتى عليكم فى إنزالى عليكم المن والسلوى طعاما طيبا نافعا هنيئا سهلا واذكروا دبركم وضجركم مما رزقناكم وسؤالكم موسى استبدال ذلك بالأطعمة الدنيئة[1] من البقول ونحوها مما سألتم قال الحسن البصرى فبطروا ذلك فلم يصبروا عليه وذكروا عيشهم الذى كانوا فيه وكانوا قوما أهل أعـداس وبصل وبقل وفوم فقالوا (ياموسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها) وإنما قالوا على طعام واحد وهم يأكلون المن والسلوى لأنه لايتبدل ولا يتغير كل يوم فهو مأكل واحد . فالبقول والقثاء والعدس والبصل كلها معروفة ، وأما الفوم فقد اختلف السلف فى معناه فوقع فى قراءة ابن مسعود وثومها بالثاء ، وكذا فسره مجاهد فى رواية ليث بن أبى سليم عنه بالثوم . وكذا الربيع بن أنس وسعيد بن جبير ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمرو بن رافع حدثنا أبو عمارة يعقوب بن إسحق البصرى عن يونس عن الحسن فى قوله (وفومها) قال : قال ابن عباس الثوم ، قال وفى اللغة القديمة فوموا لنا بمعنى اختبزوا ، قال ابن جرير : فان كان ذلك صحيحا فانه من الحروف المبدلة كقولهم : وقعوا فى عاثور شر وعافور شر وأثافى واثافى ومغافير ومغاثير واشباه ذلك مما تقلب الفاء ثاء والثاء فاء لتقارب مخرجيهما والله اعلم . وقال آخرون الفوم الحنطة وهو البر الذى يعمل منه الخبز قال ابن أبى حاتم . حدثنا يونس بن عبد الأعلى قراءة انبأنا ابن وهب قراءة حدثنى نافع بن أبى نعيم أن ابن عباس سئل عن قول الله (وفومها) مافومها ؟ قال الحنطة . قال ابن عباس : اما سمعت قول احيحة بن الجلاح وهو يقول :

قد كنت اغنى الناس شخصا واحداً * ورد المـدينة عن زراعة فوم

وقال ابن جرير حدثنا على بن الحسن حدثنا مسلم الجهنى حدثنا عيسى بن يونس عن رشيد بن كريب عن ابيه عن ابن عباس فى قول الله تعالى (وفومها) قال الفوم الحنطة بلسان بنى هاشم ، وكذا قال على بن أبى طلحة والضحاك عن ابن عباس وعكرمة عن ابن عباس أن الفوم الحنطة ، وقال سفيان الثورى : عن ابن جريج عن مجاهد وعطاء (وفومها) قالا وخبزها وقال هشيم عن يونس عن الحسين وحصين عن أبى مالك (وفومها) قال الحنطة وهو قول عكرمة والسدى والحسن البصرى وقتادة وعبد الرحمن بن زيد بن اسلم وغيرهم فالله اعلم . وقال الجوهرى : الفوم الحنطة وقال ابن دريد : الفوم السنبلة . وحكى القرطبى عن عطاء وقتادة أن الفوم كل حب يختبز . قال وقال بعضهم هو الحمص لغة شامية ومنه يقال لبـائعه فامى مغير عن فومى ، قال البخارى . وقال بعضهم الحبوب التى تؤكل كلها فوم . وقوله تعالى (قال اتستبدلون الذى هو ادنى بالذى هو خير) فيه تقريع لهم وتوبيخ على ماسألوا من هـذه الأطعمة الدنيئة مع ماهم فيه من العيش الرغيـد والطعام الهنىء الطيب النـافع . وقوله تعالى (اهبطوا مصرا) هكذا هو منون مصروف مكتوب بالألف فى المصاحف الأئمة العثمانية وهو قراءة الجمهور بالصرف . قال ابن جرير . ولا أستجيز القراءة بغير ذلك لاجماع المصاحف على ذلك . وقال ابن عباس (اهبطوا مصرا) قال مصرا من الأمصار رواه ابن أبى حاتم من حديث أبى سعيد البقال سعيد بن المرزبان عن عكرمة عنه قال . وروى عن السدى وقتادة والربيع بن انس نحو ذلك وقال ابن جرير وقع فى قراءة أبى بن كعب وابن مسعود (اهبطوا مصر) من غير إجراء يعنى من غير صرف . ثم روى عن أبى العالية والربيع

(١) فى هذا التركيب مخالفة لما هو المعهود من دخول الباء على المبدل منه كما فى الآية وأمثالها ولعله من غلط الطبع اهـ

ابن أنس أنهما فسرا ذلك بمصر فرعون وكذا رواه ابن أبي حاتم عن أبي العالية والربيع وعن الأعمش أيضا. قال ابن جرير ويحتمل أن يكون المراد مصر فرعون على قراءة الاجراء أيضا . ويكون ذلك من باب الاتباع لكتابة المصحف كما في قوله تعالى (قواريرا قواريرا) ثم توقف في المراد ماهو أمصر فرعون أم مصر من الأمصار وهذا الذي قاله فيه نظر والحق أن المراد مصر من الأمصار كما روى عن ابن عباس وغيره والمعنى على ذلك لأن موسى عليه السلام يقول لهم هذا الذي سألتم ليس بأمر عزيز بل هو كثير في أي بلد دخلتموها وجدتموه فليس يساوي مع دناءته وكثرته في الأمصار أن أسأل الله فيه . ولهذا قال (أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فان لكم ماسألتم) أي ماطلبتم ولما كان سؤالهم هذا من باب البطر والأشر ولا ضرورة فيه لم يجابوا إليه والله أعلم .

﴿ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ وَٱلْمَسْكَنَةُ وَبَآءُو بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴾

يقول تعالى (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) أي وضعت عليهم وألزموا بها شرعا وقدرا أي لايزالون مستذلين من وجدهم استذلهم وأهانهم وضرب عليهم الصغار وهم مع ذلك في أنفسهم أذلاء مستكينون . قال الضحاك عن ابن عباس (وضربت عليهم الذلة والمسكنة) قال هم أصحاب القبالات ، يعني الجزية . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الحسن وقتادة في قوله تعالى (وضربت عليهم الذلة) قال يعطون الجزية عن يدوهم صاغرون وقال الضحاك وضربت عليهم الذلة قال الذل . وقال الحسن أذلهم الله فلا منعة لهم وجعلهم تحت أقدام المسلمين ولقد أدركتهم هذه الأمة وإن المجوس لتجبيهم الجزية ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدي المسكنة الفاقة . وقال عطية العوفي الخراج وقال الضحاك الجزية . وقوله تعالى (وباؤا بغضب من الله) قال الضحاك استحقوا الغضب من الله ، وقال الربيع بن أنس فحدث عليهم غضب من الله وقال سعيد بن جبير (وباؤا بغضب من الله) يقول استوجبوا سخطا ، وقال ابن جرير : يعني بقوله (وباؤا بغضب من الله) انصرفوا ورجعوا ولايقال باء إلا موصولا إما بخير وإما بشر يقال منه باء فلان بذنبه يبوء به بوءا وبواء ومنه قوله تعالى (إني أريد أن تبوء بإثمي وإثمك) يعني تنصرف متحملهما وترجع بهما قد صارا عليك دوني . فمعنى الكلام إذا رجعوا منصرفين متحملين غضب الله قد صار عليهم من الله غضب ووجب عليهم من الله سخط * وقوله تعالى (ذلك بأنهم كانوا يكفرون بآيات الله ويقتلون النبيين بغير الحق) يقول تعالى هذا الذي جازيناهم من الذلة والمسكنة وإحلال الغضب بهم من الذلة بسبب استكبارهم عن اتباع الحق وكفرهم بآيات الله وإهانتهم حملة الشرع وهم الأنبياء وأتباعهم فانتقصوهم إلى أن أفضى بهم الحال إلى أن قتلوهم فلا كفر أعظم من هذا ، إنهم كفروا بآيات الله وقتلوا أنبياء الله بغير الحق ، ولهذا جاء في الحديث المتفق على صحته أن رسول الله ﷺ قال « الكبر بطر الحق وغمط الناس » وقال الإمام أحمد رحمه الله حدثنا إسماعيل عن ابن عون عن عمرو بن سعيد عن حميد ابن عبد الرحمن قال قال ابن مسعود كنت لا أحجب عن النجوى ولا عن كذا ولا عن كذا فاتيت رسول الله ﷺ وعنده مالك بن مرارة الرهاوي فأدركته من آخر حديثه وهو يقول يارسول الله قد قسم لي من الجمال ماترى فما أحب أن أحداً من الناس فضلني بشراكين فما فوقهما أليس ذلك هو البغي ؟ فقال « لاليس ذلك من البغي ولكن البغي من بطر أوقال سفه الحق وغمط الناس » يعني رد الحق وانتقاص الناس والازدراء بهم والتعاظم عليهم ولهذا لما ارتكب بنو إسرائيل ما ارتكبوه من الكفر بآيات الله وقتلهم أنبياءه أحل الله بهم بأسه الذي لا يرد وكساهم ذلا في الدنيا موصولا بذل الآخرة جزاء وفاقا ، قال أبو داود الطيالسي حدثنا شعبة عن الأعمش عن إبراهيم عن أبي معمر عن عبد الله بن مسعود قال كانت بنو إسرائيل في اليوم تقتل ثلثمائة نبي ثم يقيمون سوق بقلهم من آخر النهار وقد قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبان حدثنا عاصم عن أبي وائل عن عبد الله يعني ابن مسعود أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم قال « أشد الناس عذابا يوم القيامة رجل قتله نبي أو قتل نبياً وإمام ضلالة وممثل من الممثلين » وقوله تعالى (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) وهذه علة أخرى فى مجازاتهم بما جوزوا به أنهم كانوا يعصون ويعتدون فالعصيان فعل المناهى والاعتداء المجاوزة فى حد المأذون فيه والمأمور به والله أعلم .

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَٱلَّذِينَ هَادُوا وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

لما بين تعالى حال من خالف أوامره وارتكب زواجره وتعدى فى فعل مالا إذن فيه وانتهك المحارم وما أحل بهم من النكال نبه تعالى على أن من أحسن من الأمم السالفة وأطاع فان له جزاء الحسنى وكذلك الأمر إلى قيام الساعة كل من اتبع الرسول النبي الأمي فله السعادة الأبدية ولا خوف عليهم فيما يستقبلونه ولاهم يحزنون على ما يتركونه ويخلفونه كما قال تعالى (ألا إن أولياء الله لاخوف عليهم ولاهم يحزنون) وكما تقول الملائكة للمؤمنين عند الاحتضار فى قوله (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التى كنتم توعدون) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عمر بن أبى عمر العدوى حدثنا سفيان عن ابن أبى نجيح عن مجاهد قال: قال سلمان رضى الله عنه سألت النبي ﷺ عن أهل دين كنت معهم فذكرت من صلاتهم وعبادتهم فنزلت (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر) إلى آخر الآية وقال السدى (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا) الآية نزلت فى أصحاب سلمان الفارسى بينا هو يحدث النبي ﷺ إذ ذكر أصحابه فأخبره خبرهم فقال كانوا يصلون ويصومون ويؤمنون بك ويشهدون أنك ستبعث نبياً فلما فرغ سلمان من ثنائه عليهم قال له نبي الله ﷺ « ياسلمان هم من أهل النار » فاشتد ذلك على سلمان فأنزل الله هذه الآية فكان إيمان اليهود(١) أنه من تمسك بالتوراة وسنة موسى عليه السلام حتى جاء عيسى فلما جاء عيسى كان من تمسك بالتوراة وأخذ بسنة موسى فلم يدعها ولم يتبع عيسى كان هالكا وإيمان النصارى أن من تمسك بالانجيل منهم وشرائع عيسى كان مؤمنا مقبولا منه حتى جاء محمد ﷺ فمن لم يتبع محمداً ﷺ منهم ويدع ما كان عليه من سنة عيسى والانجيل كان هالكا . قال ابن أبى حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو هذا (قلت) وهذا لا ينافى ماروى على ابن أبى طلحة عن ابن عباس (إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر) الآية(٢) — قال — فأنزل الله بعد ذلك (ومن يبتغ غير الإسلام دينا فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين) فان هذا الذى قاله ابن عباس إخبار عن أنه لا يقبل من أحد طريقة ولا عملا إلا ما كان موافقا لشريعة محمد ﷺ بعد أن بعثه بما بعثه به فأما قبل ذلك فكل من اتبع الرسول فى زمانه فهو على هدى وسبيل ونجاة فاليهود أتباع موسى عليه السلام الذين كانوا يتحاكمون إلى التوراة فى زمانهم * واليهود من الهوادة وهى المودة أو التهود وهى التوبة كقول موسى عليه السلام (إنا هدنا اليك) أى تبنا فكأنهم سموا بذلك فى الأصل لتوبتهم ومودتهم فى بعضهم لبعض وقيل لنسبتهم إلى يهودا أكبر أولاد يعقوب ، وقال أبو عمرو بن العلاء لأنهم يتهودون أى يتحركون عند قراءة التوراة فلما بعث عيسى ﷺ وجب على بنى إسرائيل اتباعه والانقياد له فاصحابه وأهل دينه هم النصارى وسموا بذلك لتناصرهم فيما بينهم وقد يقال لهم أنصار أيضا كما قال عيسى عليه السلام (من أنصارى إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله) وقيل إنهم إنما سموا بذلك من أجل أنهم نزلوا أرضا يقال لها ناصرة ، قاله قتادة وابن جريج وروى عن ابن عباس أيضا والله أعلم . والنصارى جمع نصران كندامى جمع نشوان وسكارى جمع سكران ويقال للمرأة نصرانة قال الشاعر : — نصرانة لم تحنف —

فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم خاتما للنبيين ورسولا إلى بنى آدم على الاطلاق وجب عليهم تصديقه فما

(١ — ٢) قوله أنه من تمسك إلى آخره ، وقوله بعد ذلك فأنزل الله إلى آخره كذا بالأصل لعله سقط من الناسخ فحرر اه .

أخبر وطاعته فيما أمر والانكفاف عما عنه زجر وهؤلاء هم المؤمنون حقاً وسميت أمة محمد ﷺ مؤمنين لكثرة إيمانهم وشدة إيقانهم ولأنهم يؤمنون بجميع الأنبياء الماضية والغيوب الآتية ، وأما الصابئون فقد اختلف فيهم فقال سفيان الثورى عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد، قال الصابئون قوم بين المجوس واليهود والنصارى ليس لهم دين وكذا رواه ابن أبى نجيح عنه وروى عن عطاء وسعيد بن جبير نحو ذلك وقال أبو العالية والربيع بن أنس والسدى وأبو الشعثاء جابر بن زيد والضحاك وإسحق بن راهويه الصابئون فرقة من أهل الكتاب يقرءون الزبور ولهذا قال أبو حنيفة وإسحق لا بأس بذبائحهم ومناكحتهم وقال هشيم عن مطرف كنا عند الحكم بن عتبة فحدثه رجل من أهل البصرة عن الحسن أنه كان يقول فى الصابئين إنهم كالمجوس فقال الحكم ألم أخبركم بذلك، وقال عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن عبد الكريم سمعت الحسن ذكر الصابئين فقال هم قوم يعبدون الملائكة وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه عن الحسن قال أخبر زياد أن الصابئين يصلون إلى القبلة ويصلون الخمس قال فأراد أن يضع عنهم الجزية قال فخبر بعد أنهم يعبدون الملائكة ، وقال أبو جعفر الرازى بلغنى أن الصابئين قوم يعبدون الملائكة ويقرءون الزبور ويصلون للقبلة وكذا قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن أبى الزناد عن ابيه قال الصابئون قوم مما يلى العراق وهم بكوثى وهم يؤمنون بالنبيين كلهم ويصومون من كل سنة ثلاثين يوما ويصلون إلى اليمن كل يوم خمس صلوات ، وسئل وهب بن منبه عن الصابئين فقال الذى يعرف الله وحده وليست له شريعة يعمل بها ولم يحدث كفرا ، وقال عبد الله بن وهب قال عبد الرحمن بن زيد الصابئون أهل دين من الأديان كانوا بجزيرة الموصل يقولون لا إله إلا الله وليس لهم عمل ولا كتاب ولا نبى إلا قول لا إله إلا الله قال ولم يؤمنوا برسول فمن أجل ذلك كان المشركون يقولون للنبى ﷺ وأصحابه هؤلاء الصابئون يشبهونهم بهم يعنى فى قول لا إله إلا الله وقال الخليل هم قوم يشبه دينهم دين النصارى إلا أن قبلتهم نحو مهب الجنوب يزعمون أنهم على دين نوح عليه السلام وحكى القرطبى عن مجاهد والحسن وابن أبى نجيح أنهم قوم تركب دينهم بين اليهود والمجوس ولا تؤكل ذبائحهم ولا تنكح نساؤهم ، قال القرطبى والذى تحصل من مذهبهم فيما ذكره بعض العلماء أنهم موحدون ويعتقدون تأثير النجوم وأنها فاعلة ولهذا أفتى أبو سعيد الاصطخرى بكفرهم للقادر بالله حين سأله عنهم واختار الرازى أن الصابئين قوم يعبدون الكواكب بمعنى أن الله جعلها قبلة للعبادة والدعاء أو بمعنى أن الله فوض تدبير أمر هذا العالم إليها قال وهذا القول هو المنسوب إلى الكشرانيين الذين جاءهم إبراهيم عليه السلام رادا عليهم ومبطلا لقولهم وأظهر الأقوال والله أعلم. قول مجاهد ومتابعيه ووهب بن منبه أنهم قوم ليسوا على دين اليهود ولا النصارى ولا المجوس ولا المشركين وإنما هم قوم باقون على فطرتهم ولا دين مقرر لهم يتبعونه ويقتفونه . ولهذا كان المشركون ينبزون من أسلم بالصابئ أى أنه قد خرج عن سائر أديان أهل الأرض إذذاك . وقال بعض العلماء الصابئون الذين لم تبلغهم دعوة نبى والله أعلم .

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾

يقول تعالى مذكرا بنى إسرائيل ما أخذ عليهم من العهود والمواثيق بالايمان به وحده لا شريك له واتباع رسله وأخبر تعالى أنه لما أخذ عليهم الميثاق رفع الجبل فوق رءوسهم ليقروا بما عوهدوا عليه ويأخذوه بقوة وجزم وامتثال كما قال تعالى (وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم خذوا ما آتيناكم بقوة واذكروا مافيه لعلكم تتقون) فالطور هو الجبل كما فسره به فى الأعراف ونص على ذلك ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن والضحاك والربيع ابن أنس وغير واحد وهذا ظاهر وفى رواية عن ابن عباس الطور ما أنبت من الجبال ومالم ينبت فليس بطور وفى حديث

الفتون عن ابن عباس أنهم لما امتنعوا عن الطاعة رفع عليهم الجبل ليسمعوا : وقال السدى فلما أبوا أن يسجدوا أمر الله الجبل أن يقع عليهم فنظروا اليه وقد غشيهم فسقطوا سجدا فسجدوا على شق ونظروا بالشق الآخر فرحمهم الله فكشفه عنهم فقالوا والله ماسجدة أحب إلى الله من سجدة كشف بها العذاب عنهم فهم يسجدون كذلك . وذلك قول الله تعالى (ورفعنا فوقكم الطور) وقال الحسن فى قوله (خذوا ما آتيناكم بقوة) يعنى التوراة ، وقال أبو العالية والربيع بن أنس بقوة أى بطاعة وقال مجاهد : بقوة بعمل بما فيه ، وقال قتادة (خذوا ما آتيناكم بقوة) القوة: الجد والا قذفته عليكم قال فأقروا بذلك أنهم يأخذون ما أوتوا بقوة ومعنى قوله وإلا قذفته عليكم أى أسقطته عليكم ، يعنى الجبل وقال أبو العالية والربيع (واذكروا مافيه) يقول اقرءوا مافى التوراة واعملوا به * وقوله تعالى (ثم توليتم من بعد ذلك فلولا فضل الله) يقول تعالى ثم بعد هذا الميثاق المؤكد العظيم توليتم عنه وانثنيتم ونقضتموه (فلولا فضل الله عليكم ورحمته) أى بتوبته عليكم وإرساله النبيين والمرسلين إليكم (لكنتم من الخاسرين) بنقضكم ذلك الميثاق فى الدنيا والآخرة

﴿ وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلَّذِينَ ٱعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي ٱلسَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَٰسِئِينَ * فَجَعَلْنَٰهَا نَكَٰلًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴾

يقول تعالى (ولقد علمتم) يامعشر اليهود ماأحل من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره إذ كان مشروعا لهم فتحيلوا على اصطياد الحيتان فى يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل والبرك قبل يوم السبت فلما جاءت يوم السبت على عادتها فى الكثرة نشبت بتلك الحبائل والحيل فلم تخلص منها يومها ذلك فلما كان الليل أخذوها بعد انقضاء السبت ، فلما فعلوا ذلك مسخهم الله إلى صورة القردة وهى أشبه شىء بالأناسى فى الشكل الظاهر وليست بإنسان حقيقة ، فكذلك أعمال هؤلاء وحيلتهم لما كانت مشابهة للحق فى الظاهر ومخالفة له فى الباطن كان جزاؤهم من جنس عملهم ، وهذه القصة مبسوطة فى سورة الأعراف حيث يقول تعالى (واسألهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر إذ يعدون فى السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لايسبتون لاتأتيهم كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون) القصة بكمالها . وقال السدى : أهل هذه القرية هم أهل أيلة ، وكذا قال قتادة وسنورد أقوال المفسرين هناك مبسوطة إن شاء الله وبه الثقة ، وقوله تعالى (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال مسخت قلوبهم ولم يمسخوا قردة . وإنما هو مثل ضربه الله (كمثل الحمار يحمل أسفاراً) ورواه ابن جرير عن المثنى عن أبى حذيفة وعن محمد بن عمر الباهلى وعن أبى عاصم عن عيسى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد به وهذا سند جيد عن مجاهد وقول غريب خلاف الظاهر من السياق فى هذا المقام وفى غيره قال الله تعالى (قل هل أنبئكم بشر من ذلك مثوبة عند الله من لعنه الله وغضب عليه وجعل منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت) الآية وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فجعل الله منهم القردة والخنازير ، فزعم أن شباب القوم صاروا قردة وأن الشيخة صاروا خنازير : وقال شيبان النحوى عن قتادة (فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) فصار القوم قردة تعاوى لها أذناب بعدما كانوا رجالا ونساء وقال عطاء الخراسانى نودوا ياأهل القرية (كونوا قردة خاسئين) فجعل الذين نهوهم يدخلون عليهم فيقولون يافلان ألم ننهكم فيقولون برءوسهم أى بلى ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسن حدثنا عبد الله بن محمد ابن ربيعة بالمصيصة حدثنا محمد بن مسلم يعنى الطائفى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال إنما كان الذين اعتدوا فى السبت فجعلوا قردة فواقا ثم هلكوا ما كان للمسخ نسل . وقال الضحاك عن ابن عباس فمسخهم الله قردة بمعصيتهم يقول إذ لايحيون فى الأرض إلا ثلاثة أيام قال ولم يعش مسخ فوق ثلاثة أيام ولم يأكل ولم يشرب ولم ينسل ، وقد خلق الله القردة والخنازير وسائر الخلق فى الستة الأيام التى ذكرها الله فى كتابه فمسخ هؤلاء القوم فى صورة القردة

وكذلك يفعل بمن يشاء كما يشاء . ويحوله كما يشاء وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبي العالية في قوله (كونوا قردة خاسئين) قال يعني أذلة صاغرين ، وروى عن مجاهد وقتادة والربيع وأبي مالك نحوه وقال محمد بن اسحق عن داود بن أبي الحصين عن عكرمة قال : قال ابن عباس إن الله إنما افترض على بني اسرائيل اليوم الذي افترض عليكم في عيدكم . يوم الجمعة فخالفوا إلى السبت فعظموه وتركوا ما أمروا به فلما أبوا إلا لزوم السبت ابتلاهم الله فيه فحرم عليهم ما أحل لهم في غيره وكانوا في قرية بين أيلة والطور يقال لها مدين ؛ فحرم الله عليهم في السبت الحيتان صيدها وأكلها وكانوا إذا كان يوم السبت أقبلت إليهم شرعا إلى ساحل بحرهم حتى إذا ذهب السبت ذهبن فلم يروا حوتا صغيرا ولا كبيرا حتى إذا كان يوم السبت أتين سرا حتى إذا ذهب السبت ذهبن فكانوا كذلك حتى طال عليهم الأمد وقرموا إلى الحيتان عمد رجل منهم فأخذ حوتا سرا يوم السبت فحزمه بخيط ثم أرسله في الماء وأوتد له وتدا في الساحل فأوثقه ثم تركه حتى إذا كان الغد جاء فأخذه أي إني لم آخذه في يوم السبت فانطلق به فأكله حتى إذا كان يوم السبت الآخر عادل مثل ذلك ووجد الناس ريح الحيتان فقال أهل القرية والله لقد وجدنا ريح الحيتان ، ثم عثروا على صنيع ذلك الرجل ، قال ففعلوا كما فعل وصنعوا سرا زمانا طويلا لم يعجل الله عليهم العقوبة حتى صادوها علانية وباعوها بالأسواق . فقالت طائفة منهم من أهل البقية ويحكم اتقوا الله وانهوهم عما كانوا يصنعون ، فقالت طائفة أخرى لم تأكل الحيتان ولم تنه القوم عما صنعوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا ؟ قالوا معذرة إلى ربكم بسخطنا أعمالهم ولعلهم يتقون ، قال ابن عباس : فبينما هم على ذلك أصبحت تلك البقية في أنديتهم ومساجدهم فقدوا الناس فلم يروهم قال: فقال بعضهم لبعض إن للناس شأنا فانظروا ماهو فذهبوا ينظرون في دورهم فوجدوها مغلقة عليهم قد دخلوها ليلا فغلقوها على أنفسهم كما يغلق الناس على أنفسهم فأصبحوا فيها قردة وإنهم ليعرفون الرجل بعينه وإنه لقرد والمرأة بعينها وإنها لقردة والصبي بعينه وإنه لقرد ، قال : قال ابن عباس فلولا ما ذكر الله أنه نجى الذين نهوا عن السوء لقد أهلك الله الجميع منهم ، قال وهي القرية التي قال جل ثناؤه لمحمد ﷺ (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر) الآية . وروى الضحاك عن ابن عباس نحوا من هذا وقال السدي في قوله تعالى (ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم في السبت فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين) قال هم أهل أيلة ؛ وهي القرية التي كانت حاضرة البحر فكانت الحيتان اذا كان يوم السبت . وقد حرم الله على اليهود أن يعملوا في السبت شيئا . لم يبق في البحر حوت إلا خرج حتى يخرجن خراطيمهن من الماء فإذا كان يوم الأحد لزمن سفل البحر فلم ير منهن شيء حتى يكون يوم السبت فذلك قوله تعالى (واسألهم عن القرية التي كانت حاضرة البحر إذ يعدون في السبت إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم) فاشتهى بعضهم السمك فجعل الرجل يحفر الحفيرة ويجعل لها نهرا إلى البحر ، فاذا كان يوم السبت فتح النهر فأقبل الموج بالحيتان يضربها حتى يلقيها في الحفيرة فيريد الحوت أن يخرج فلا يطيق من أجل قلة ماء النهر فيمكث فيها فاذا كان يوم الأحد جاء فأخذه فجعل الرجل يشوي السمك فيجد جاره روائحه فيسأله فيخبره فيصنع مثل ما صنع جاره حتى فشا فيهم أكل السمك ، فقال لهم علماؤهم . ويحكم انما تصطادون يوم السبت وهو لا يحل لكم ، فقالوا إنما صدناه يوم الأحد حين أخذناه ، فقال الفقهاء لا ولكنكم صدتموه يوم فتحتم له الماء فدخل ، قال وغلبوا أن ينتهوا . فقال بعض الذين نهوهم لبعض (لم تعظون قوما الله مهلكهم أو معذبهم عذابا شديدا) يقول لم تعظوهم وقد وعظتموهم فلم يطيعوكم ، فقال بعضهم (معذرة إلى ربكم ولعلهم يتقون) فلما أبوا قال المسلمون والله لا نساكنكم في قرية واحدة فقسموا القرية بجدار ففتح المسلمون بابا والمعتدون في السبت بابا ولعنهم داود عليه السلام ، فجعل المسلمون يخرجون من بابهم ، والكفار من بابهم فخرج المسلمون ذات يوم ولم يفتح الكفار بابهم فلما أبطأوا عليهم تسور المسلمون عليهم الحائط فإذا هم قردة يثب بعضهم على بعض ففتحوا عنهم فذهبوا في الأرض فذلك قول الله تعالى (فلما عتوا عما نهوا عنه قلنا لهم كونوا قردة خاسئين) وذلك حين يقول (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم) الآية فهم القردة (قلت) والغرض من هذا السياق عن هؤلاء الأئمة بيان خلاف ماذهب اليه مجاهد رحمه الله من أن مسخهم إنما كان معنويا لا صوريا بل الصحيح

أنه معنوى صورى والله تعالى أعلم . وقوله تعالى (فجعلناها نكالا) قال بعضهم الضمير فى فجعلناها عائد على القردة وقيل على الحيتان وقيل على العقوبة وقيل على القرية حكاها ابن جرير والصحيح أن الضمير عائد على القرية ، أى فجعل الله هذه القرية والمراد أهلها بسبب اعتدائهم فى سبتهم (نكالا) أى عاقبناهم عقوبة فجعلناها عبرة كما قال الله عن فرعون (فأخذه الله نكال الآخرة والأولى) وقوله تعالى(لما بين يديها وما خلفها) أى من القرى ، قال ابن عباس . يعنى جعلناها بما أحللنا بها من العقوبة عبرة لما حولها من القرى كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون) ومنه قوله تعالى (أو لم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) الآية على أحد الأقوال فالمراد لما بين يديها وما خلفها فى المكان كما قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس . لما بين يديها من القرى وما خلفها من القرى ، وكذا قال سعيد بن جبير لما بين يديها وما خلفها ، قال من بحضرتها من الناس يومئذ . وروى عن إسماعيل بن أبى خالد وقتادة وعطية العوفى (فجعلناها نكالا لما بين يديها) قال ما قبلها من الماضين فى شأن السبت ، وقال أبو العالية والربيع وعطية : وما خلفها لما بقى بعدهم من الناس من بنى إسرائيل أن يعملوا مثل عملهم ، وكان هؤلاء يقولون المراد لما بين يديها وما خلفها فى الزمان . وهذا مستقيم بالنسبة إلى من يأتى بعدهم من الناس أن تكون أهل تلك القرية عبرة لهم ، وأما بالنسبة إلى من سلف قبلهم من الناس فكيف يصح هذا الكلام أن تفسر الآية به وهو أن يكون عبرة لمن سبقهم ؟ وهذا لعل أحدا من الناس لا يقوله بعد تصوره — فتعين أن المراد بما بين يديها وما خلفها فى المكان وهو ما حولها من القرى كما قاله ابن عباس وسعيد بن جبير والله أعلم . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها) أى عقوبة لما خلا من ذنوبهم ، وقال ابن أبى حاتم : وروى عن عكرمة ومجاهد والسدى والفراء وابن عطية . لما بين يديها من ذنوب القوم وما خلفها لمن يعمل بعدها مثل تلك الذنوب ، وحكى الرازى ثلاثة أقوال أحدها أن المراد بما بين يديها وما خلفها من تقدمها من القرى بما عندهم من العلم بخبرها بالكتب المتقدمة ومن بعدها . والثانى المراد بذلك من بحضرتها من القرى والأمم . والثالث أنه تعالى جعلها عقوبة لجميع ما ارتكبوه من قبل هذا الفعل وما بعده وهو قول الحسن (قلت) وأرجح الأقوال المراد بما بين يديها وما خلفها من بحضرتها من القرى يبلغهم خبرها وماحل بها كما قال تعالى (ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى) الآية وقال تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة) الآية وقال تعالى (أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها) فجعلهم عبرة ونكالا لمن فى زمانهم وموعظة لمن يأتى بعدهم بالخبر المتواتر عنهم ولهذا قال (وموعظة للمتقين) : وقوله تعالى (وموعظة للمتقين) قال محمد بن إسحق عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس(وموعظة للمتقين) الذين من بعدهم إلى يوم القيامة وقال الحسن وقتادة (وموعظة للمتقين) بعدهم فيتقون نقمة الله ويحذرونها وقال السدى وعطية العوفى (وموعظة للمتقين) قال أمة محمد ﷺ (قلت) المراد بالموعظة ههنا الزاجر أى جعلنا ما أحللنا بهؤلاء من البأس والنكال فى مقابلة ما ارتكبوه من محارم الله وما تحيلوا به من الحيل فليحذر المتقون صنيعهم لئلا يصيبهم ما أصابهم كما قال الإمام أبو عبد الله بن بطة حدثنا أحمد بن محمد بن مسلم حدثنا الحسن ابن محمد بن الصباح الزعفرانى حدثنا يزيد بن هارون حدثنا محمد بن عمر عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « لا ترتكبوا ما ارتكبت اليهود فتستحلوا محارم الله بأدنى الحيل » وهذا إسناد جيد وأحمد بن محمد بن مسلم هذا وثقه الحافظ أبو بكر الخطيب البغدادى وباقى رجاله مشهورون على شرط الصحيح والله أعلم

﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴾

يقول تعالى واذكروا يابنى إسرائيل نعمتى عليكم فى خرق العادة لكم فى شأن البقرة وبيان القاتل من هو بسببها وإحياء الله المقتول ونصه على من قتله منهم

﴿ ذكر بسط القصة ﴾

قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا يزيد بن هارون أنبأنا هشام بن حسان عن محمد بن سيرين عن عبيدة السلمانى ، قال . كان رجل من بنى إسرائيل عقيما لا يولد له وكان له مال كثير وكان ابن أخيه وارثه فقتله ثم احتمله ليلا فوضعه على باب رجل منهم ثم أصبح يدعيه عليهم حتى تسلحوا وركب بعضهم على بعض . فقال ذوو الرأى منهم والنهى : علام يقتل بعضكم بعضا وهذا رسول الله فيكم ؟ فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له فقال (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتتخذنا هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) قال فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة ولكنهم شددوا فشدد عليهم حتى انتهوا إلى البقرة التى أمروا بذبحها فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها فقال والله لا أنقصها من ملء جلدها ذهبا فأخذوها بملء جلدها ذهبا فذبحوها فضربوه ببعضها فقام فقالوا من قتلك ؟ فقال : هذا — لا بن أخيه ، ثم مال ميتا فلم يعط من ماله شيئاً فلم يورث قاتل بعد ورواه ابن جرير من حديث أيوب عن محمد بن سيرين عن عبيدة بنحو من ذلك والله أعلم . ورواه عبد بن حميد فى تفسيره أنبأنا يزيد ابن هارون به ورواه آدم بن أبى إياس فى تفسيره عن أبى جعفر هو الرازى عن هشام بن حسان به ، وقال آدم ابن أبى إياس فى تفسيره : أنبأنا أبو جعفر الرازى عن الربيع عن ابى العالية فى قول الله تعالى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال كان رجل من بنى إسرائيل وكان غنيا ولم يكن له ولد وكان له قريب وكان وارثه فقتله ليرثه ثم ألقاه على مجمع الطريق وأتى موسى عليه السلام فقال له إن قريبى قتل وأتى إلى أمر عظيم وإنى لا أجد أحداً يبين لى من قتله غيرك يانبى الله قال فنادى موسى فى الناس فقال : أنشد الله من كان عنده من هذا علم إلا بينه لنا ، فلم يكن عندهم علم فأقبل القاتل على موسى عليه السلام ، فقال له أنت نبى الله فسل لنا ربك أن يبين لنا ، فسأل ربه فأوحى الله (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فعجبوا من ذلك فقالوا (أتتخذنا هزوا ؟ قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ قال إنه يقول إنها بقرة لا فارض) يعنى لا هرمة (ولا بكر) يعنى ولا صغيرة (عوان بين ذلك) أى نصف بين البكر والهرمة (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها ؟ قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) أى صاف لونها (تسر الناظرين) أى تعجب الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى ؟ إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لا ذلول) أى لم يذللها العمل (تثير الأرض ولا تسقى الحرث) يعنى وليست بذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث يعنى ولا تعمل فى الحرث (مسلمة) يعنى مسلمة من العيوب (لاشية فيها) يقول لا بياض فيها (قالوا الآن جئت بالحق فذبحوها وما كادوا يفعلون) قال ولو أن القوم حين أمروا بذبح بقرة استعرضوا بقرة من البقر فذبحوها لكانت إياها ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ولولا أن القوم استثنوا فقالوا وإنا إن شاء الله لمهتدون لما هدوا إليها أبدا فبلغنا أنهم لم يجدوا البقرة التى نعتت لهم إلا عند عجوز وعندها يتامى وهى القيمة عليهم فلما علمت أنه لا يزكوا لهم غيرها أضعفت عليهم الثمن فأتوا موسى فأخبروه أنهم لم يجدوا هذا النعت إلا عند فلانة وأنها سألت أضعاف ثمنها ، فقال موسى إن الله قد خفف عليكم فشددتم على أنفسكم فأعطوها رضاها وحكمها ففعلوا وأشتروها فذبحوها فأمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما منها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع إليه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتاً كما كان فأخذ قاتله وهو الذى كان أتى موسى عليه السلام فشكا إليه فقتله الله على أسوإ عمله ، وقال محمد بن جرير حدثنى محمد بن سعيد حدثنى أبى حدثنى عمى حدثنى أبى عن أبيه عن ابن عباس فى قوله فى شان البقرة وذلك أن شيخاً من بنى إسرائيل على عهد موسى عليه السلام كان مكثراً من المال وكان بنو أخيه فقراء لامال لهم وكان الشيخ لاولد له وكان بنو أخيه ورثته فقالوا ليت عمنا قد مات فورثنا ماله وإنه لما تطاول عليهم ألا يموت عمهم أتاهم الشيطان فقال لهم هل لكم إلى أن تقتلوا عمكم فترثوا ماله وتغرموا أهل المدينة التى لستم بها ديته وذلك أنهما كانتا مدينتين كانوا فى إحداها

وكان القتيل إذاقتل وطرح بين المدينتين قيس مابين القتيل والقريتين فأيتهما كانت أقرب إليه غرمت الدية وأنهم لما سول لهم الشيطان ذلك وتطاول عليهم أن لايموت عمهم عمدوا إليه فقتلوه ثم عمدوا فطرحوه على باب المدينة التى ليسوا فيها فلما أصبح أهل المدينة جاء بنو أخى الشيخ فقالوا عمنا قتل على باب مدينتكم فوالله لتغرمن لنادية عمنا قال أهل المدينة نقسم بالله ماقتلنا ولاعلمنا قاتلا ولا فتحنا باب مدينتنا منذ أغلق حتى أصبحنا ، وإنهم عمدوا إلى موسى عليه السلام فلما أتوه قال بنو أخى الشيخ عمنا وجدناه مقتولا على باب مدينتهم وقال أهل المدينة نقسم بالله ماقتلناه ولافتحنا باب المدينة من حين أغلقناه حتى أصبحنا وإن جبرائيل جاء بأمر السميع العليم إلى موسى عليه السلام فقال قل لهم (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) فتضربوه ببعضها وقال السدى (واذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قال كان رجل من بنى إسرائيل مكثرا من المال فكانت له ابنة وكان له ابن أخ محتاج فخطب إليه ابن أخيه ابنته فأبى أن يزوجه فغضب الفتى وقال والله لأقتلن عمى ولآخذن ماله ، ولأنكحن ابنته ولآكلن ديته فأتاه الفتى وقدقدم تجار فى بعض أسباط بنى إسرائيل فقال ياعم انطلق معى فخذلى من تجارة هؤلاء القوم لعلى أن أصيب منها فانهم اذا رأوك معى أعطونى فخرج العم مع الفتى ليلا فلما بلغ الشيخ ذلك السبط قتله الفتى ثم رجع إلى أهله فلما أصبح جاء كأنه يطلب عمه كأنه لا يدرى أين هو فلم يجده فانطلق نحوه فاذا هو بذلك السبط مجتمعين عليه فأخذهم وقال قتلتم عمى فأدوا إلى ديته فجعل يبكى ويحثو التراب على رأسه وينادى واعماه فرفعهم إلى موسى فقضى عليهم بالدية فقالوا له يارسول الله ادع لنا ربك حتى يبين لنا من صاحبه فيؤخذ صاحب القضية فوالله إن ديته علينا لهينة ولكن نستحي أن نعير به فذلك حين يقول تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها والله مخرج ما كنتم تكتمون) فقال لهم موسى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) قالوا نسألك عن القتيل وعمن قتله وتقول اذبحوا بقرة أتهزأ بنا (قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين) قال ابن عباس فلو اعترضوا بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا وتعنتوا على موسى فشدد الله عليهم فقالوا (ادع لنا ربك يبين لنا ماهى قال انه يقول انها بقرة لافارض ولا بكر عوان بين ذلك) والفارض الهرمة التى لاتولد والبكر التى لم تلد الا ولدا واحدا والعوان النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها (فافعلوا ما تؤمرون * قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما لونها قال إنه يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها) قال تقى لونها (تسر الناظرين) قال تعجب الناظرين (قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ماهى إن البقر تشابه علينا وإنا إن شاء الله لمهتدون * قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولاتسقى الحرث مسلمة لاشية فيها) من بياض ولاسواد ولاحمرة (قالوا الآن جئت بالحق) فطلبوها فلم يقدروا عليها وكان رجل فى بنى إسرائيل من أبر الناس بأبيه وإن رجلا مر به معه لؤلؤ يبيعه وكان أبوه نائما تحت رأسه المفتاح فقال له الرجل تشترى منى هذا اللؤلؤ بسبعين ألفا ؟ فقال له الفتى كما أنت حتى يستيقظ أبى فآخذه منك بثمانين ألفا ، قال الآخر أيقظ أباك وهو لك بستين ألفا فجعل التاجر يحط له حتى بلغ ثلاثين ألفا وزاد الآخر على أن ينتظر أباه حتى يستيقظ حتى بلغ مائة ألف فلما أكثر عليه قال والله لا أشتريه منك بشىء أبدا وأبى أن يوقظ أباه فعوضه الله من ذلك اللؤلؤ أن جعل له تلك البقرة فمرت به بنو إسرائيل يطلبون البقرة وأبصروا البقرة عنده فسألوه أن يبيعهم إياها بقرة ببقرة فأبى فأعطوه ثنتين فأبى فزادوه حتى بلغوا عشرا فقالوا والله لانتركك حتى نأخذها منك فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام فقالوا يانبى الله إنا وجدناها عند هذا وأبى أن يعطيناها وقد أعطيناه ثمنا فقال له موسى أعطهم بقرتك فقال يارسول الله أنا أحق بمالى فقال صدقت وقال للقوم أرضوا صاحبكم فأعطوه وزنها ذهبا فأبى فأضعفوه له حتى أعطوه وزنها عشر مرات ذهبا فباعهم اياها وأخذ ثمنها فذبحوها ، قال اضربوه ببعضها فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين فعاش فسألوه من قتلك فقال لهم ابن أخى قال : أقتله فآخذ ماله وأنكح ابنته . فأخذوا الغلام فقتلوه ، وقال سنيد حدثنا حجاج هو ابن محمد عن ابن جريج عن مجاهد وحجاج عن أبى معشر عن محمد بن كعب القرظى ومحمد بن قيس - دخل حديث بعضهم فى حديث بعض - ، قالوا إن سبطا من بنى إسرائيل لما رأوا كثرة شرور الناس بنوا مدينة فاعتزلوا شرور الناس فكانوا إذا أمسوا لم يتركوا أحدا منهم خارجا الا أدخلوه وإذا أصبحوا

قام رئيسهم فنظر وأشرف فاذا لم ير شيئا فتح المدينة فكانوا مع الناس حتى يمسوا قال وكان رجل من بنى إسرائيل له مال كثير ولم يكن له وارث غير أخيه فطال عليه حياته فقتله ليرثه ثم حمله فوضعه على باب المدينة ثم كمن فى مكان هو وأصحابه قال فأشرف رئيس المدينة على باب المدينة فنظر فلم ير شيئا ففتح الباب فلما رأى القتيل ردالباب فناداه أخو المقتول وأصحابه هبهات قتلتموه ثم تردون الباب ، وكان موسى لما رأى القتل كثيرا فى بنى إسرائيل كان إذا رأى القتيل بين ظهرانى القوم أخذهم فكاد يكون بين أخى المقتول وبين أهل المدينة قتال حتى لبس الفريقان السلاح ثم كف بعضهم عن بعض فأتوا موسى فذكروا له شأنهم ، قالوا ياموسى إن هؤلاء قتلوا قتيلا ثم ردو الباب قال أهل المدينة يا رسول الله قد عرفت اعتزالنا الشرور وبنينا مدينة كما رأيت نعتزل شرور الناس والله ماقتلنا ولا علمنا قاتلا فأوحى الله تعالى إليه أن يذبحوا بقرة فقال لهم موسى (إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة) وهذه السياقات عن عبيدة وأبى العالية والسدى وغيرهم فيها اختلاف ما والظاهر أنها ماخوذة من كتب بنى إسرائيل وهى مما يجوز نقلها ولكن لاتصدق ولا تكذب فلهذا لايعتمد عليها إلا ماوافق الحق عندنا والله أعلم .

﴿ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَٰلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْنُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ * قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّا إِن شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْتَ بِالْحَقِّ فَذَبَحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ ﴾

أخبر تعالى عن تعنت بنى إسرائيل وكثرة سؤالهم لرسولهم ولهذا لما ضيقوا على أنفسهم ضيق الله عليهم ولو أنهم ذبحوا أى بقرة كانت لوقعت الموقع عنهم كما قال ابن عباس وعبيدة وغير واحد ولكنهم شددوا فشدد عليهم فقالوا (ادع لنا ربك يبين لنا ماهى) أى ماهذه البقرة وأى شىء صفتها قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا هشام بن على عن الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لو أخذوا أدنى بقرة لا كتفوا بها ولكنهم شددوا فشدد عليهم ـ اسناد صحيح ـ وقد رواه غير واحد عن ابن عباس وكذا قال عبيدة والسدى ومجاهد وعكرمة وأبو العالية وغير واحد . وقال ابن جريج قال لى عطاء لوأخذوا أدنى بقرة لكفتهم قال ابن جريج قال رسول الله ﷺ « إنما أمروا بأدنى بقرة ولكنهم لما شددوا شدد الله عليهم وايم الله لوأنهم لم يستثنوا لما بينت لهم آخر الأبد » قال (إنه يقول إنها بقرة لافارض ولابكر) أى لا كبيرة هرمة ولا صغيرة لم يلحقها الفحل كما قاله أبو العالية والسدى ومجاهد وعكرمة وعطية العوفى وعطاء الخراسانى ووهب بن منبه والضحاك والحسن وقتادة وقاله ابن عباس أيضا وقال الضحاك عن ابن عباس عوان بين ذلك يقول نصف بين الكبيرة والصغيرة وهى أقوى مايكون من الدواب والبقر واحسن ماتكون وروى عن عكرمة ومجاهد وأبى العالية والربيع بن انس وعطاء الخراسانى والضحاك نحو ذلك ، وقال السدى العوان النصف التى بين ذلك التى قد ولدت وولد ولدها : وقال هشيم عن جويبر عن كثير ابن زياد عن الحسن فى البقرة كانت بقرة وحشية : وقال ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس من لبس نعلا صفراء لم يزل فى سرور مادام لابسها وذلك قوله تعالى (تسر الناظرين) وكذا قال مجاهد ووهب بن منبه كانت صفراء وعن ابن عمر كانت صفراء الظلف وعن سعيد بن جبير كانت صفراء القرن والظلف وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا نصر بن على حدثنا نوح بن قيس أنبانا أبو رجاء عن الحسن فى قوله تعالى (بقرة صفراء فاقع لونها) قال سوداء شديدة السواد وهذا غريب والصحيح الأول ولهذا أكد صفرتها بأنه (فاقع لونها) وقال عطية العوفى (فاقع لونها) تكاد تسود من صفرتها وقال سعيد بن جبير (فاقع لونها) قال صافية اللون . وروى عن أبى العالية والربيع بن انس والسدى والحسن وقتادة نحوه:

وقال شريك عن معمر عن ابن عمر (فاقع لونها) قال صاف ، وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس (فاقع لونها) شديدة الصفرة تكاد من صفرتها تبيض وقال السدى (تسر الناظرين) أى تعجب الناظرين وكذا قال أبو العالية وقتادة والربيع ابن أنس . وقال وهب بن منبه إذا نظرت إلى جلدها تخيلت أن شعاع الشمس يخرج من جلدها . وفى التوراة أنها كانت حمراء فلعل هذا خطأ فى التعريب ، أو كما قال الأول إنها كانت شديدة الصفرة تضرب الى حمرة وسواد والله أعلم . وقوله تعالى (إن البقر تشابه علينا) أى لكثرتها فميز لنا هذه البقرة وصفها وحلها لنا (وإنا إن شاء الله) إذا بينتها لنا (لمهتدون) إليها وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن يحيى الأودى الصوفى حدثنا أبو سعيد أحمد بن داود الحداد حدثنا سرور بن المغيرة الواسطى ابن أخى منصور بن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن أبى رافع عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن بنى إسرائيل قالوا (وإنا إن شاء الله لمهتدون) لما أعطوا ولكن استثنوا » ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره من وجه آخر عن سرور بن المغيرة عن زاذان عن عباد بن منصور عن الحسن عن حديث أبى رافع عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لولا أن بنى إسرائيل قالوا (وإنا إن شاء الله لمهتدون) ما أعطوا أبدا ولو أنهم اعترضوا بقرة من البقر فذبحوها لأجزأت عنهم ولكن شددوا فشدد الله عليهم » وهذا حديث غريب من هذا الوجه وأحسن أحواله أن يكون من كلام أبى هريرة كما تقدم مثله عن السدى والله أعلم (قال إنه يقول إنها بقرة لاذلول تثير الأرض ولا تسقى الحرث) أى إنها ليست مذللة بالحراثة ولا معدة للسقى فى السانية بل هى مكرمة حسنة صبيحة مسلمة صحيحة لا عيب فيها (لاشية فيها) أى ليس فيها لون غير لونها وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة مسلمة يقول لاعيب فيها وكذا قال أبو العالية والربيع وقال مجاهد مسلمة من الشية ، وقال عطاء الخراسانى مسلمة القوائم والخلق لاشية فيها ، قال مجاهد لا بياض ولا سواد وقال أبو العالية والربيع والحسن وقتادة ليس فيها بياض وقال عطاء الخرسانى لاشية فيها قال لونها واحد بهيم ، وروى عن عطية العوفى ووهب بن منبه وإسماعيل بن أبى خالد نحو ذلك ، وقال السدى لاشية فيها من بياض ولا سواد ولا حمرة وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى ، وقد زعم بعضهم أن المعنى فى ذلك قوله تعالى (إنها بقرة لاذلول) ليست بمذللة بالعمل ثم استأنف فقال (تثير الأرض) أى يعمل عليها بالحراثة لكنها لا تسقى الحرث وهذا ضعيف لأنه فسر الذلول التى لم تذلل بالعمل بأنها لاتثير الأرض ولا تسقى الحرث ، كذا قرره القرطبى وغيره (قالوا الآن جئت بالحق) قال قتادة الآن بينت لنا وقال عبد الرحمن ابن زيد بن أسلم وقيل ذلك والله جاءهم الحق (فذبحوها وما كادوا يفعلون) قال الضحاك عن ابن عباس كادوا أن لا يفعلوا ولم يكن ذلك الذى أرادوا لأنهم أرادوا أن لا يذبحوها ، يعنى أنهم مع هذا البيان وهذه الأسئلة والأجوبة والايضاح ماذبحوها إلا بعد الجهد ، وفى هذا ذم لهم وذلك أنه لم يكن غرضهم إلا التعنت فلهذا ما كادوا يذبحونها * وقال محمد بن كعب ومحمد بن قيس فذبحوها وما كادوا يفعلون لكثرة ثمنها وفى هذا نظر لأن كثرة الثمن لم يثبت إلا من نقل بنى إسرائيل كما تقدم من حكاية أبى العالية والسدى ، ورواه العوفى عن ابن عباس ، وقال عبيدة ومجاهد ووهب بن منبه وأبو العالية وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم اشتروها بمال كثير وفيه اختلاف ثم قد قيل فى ثمنها غير ذلك وقال عبد الرزاق أنبأنا ابن عيينة أخبرنى محمد بن سوقة عن عكرمة قال : ما كان ثمنها إلا ثلاثة دنانير وهذا إسناد جيد عن عكرمة والظاهر أنه نقله عن أهل الكتاب أيضا وقال ابن جرير وقال آخرون لم يكادوا أن يفعلوا ذلك خوف الفضيحة إن اطلع الله على قاتل القتيل الذى اختصموا فيه ولم يسنده عن أحد ثم اختار أن الصواب فى ذلك أنهم لم يكادوا يفعلوا ذلك لغلاء ثمنها وللفضيحة وفى هذا نظر بل الصواب والله أعلم ماتقدم من رواية الضحاك عن ابن عباس على ماوجهناه وبالله التوفيق

(مسئلة) استدل بهذه الآية فى حصر صفات هذه البقرة حتى تعينت أو تم تقييدها بعد الاطلاق على صحة السلم فى الحيوان كما هو مذهب مالك والأوزاعى والليث والشافعى وأحمد وجمهور العلماء سلفا وخلفا بدليل ماثبت فى الصحيحين عن النبى صلى الله عليه وسلم « لا تنعت المرأة المرأة لزوجها كأنه ينظر إليها » وكما وصف النبى صلى الله عليه وسلم إبل الدية فى قتل الخطأ وشبه العمد بالصفات المذكورة بالحديث وقال أبو حنيفة والثورى والكوفيون لا يصح السلم فى

الحيوان لأنه لا تنضبط أحواله وحكى مثله عن ابن مسعود وحذيفة بن اليمان وعبد الرحمن بن سمرة وغيرهم ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّارَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مَّا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ * فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَٰلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قال البخارى (فادّارأتم فيها) اختلفتم وهكذا قال مجاهد فيما رواه ابن أبى حاتم عن أبيه عن أبى حذيفة عن شبل عن ابن أبى نجيح عن مجاهد أنه قال فى قوله تعالى (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) اختلفتم ، وقال عطاء الخراسانى والضحاك اختصمتم فيها ، وقال ابن جريج (وإذ قتلتم نفسا فادارأتم فيها) قال قال بعضهم أنتم قتلتموه ، وقال آخرون بل أنتم قتلتموه وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم (والله مخرج ما كنتم تكتمون) قال مجاهد ما تغيبون ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرة بن أسلم البصرى حدثنا محمد بن الطفيل العبدى حدثنا صدقة بن رستم سمعت المسيب ابن رافع يقول ما عمل رجل حسنة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله وما عمل رجل سيئة فى سبعة أبيات إلا أظهرها الله وتصديق ذلك فى كلام الله (والله مخرج ما كنتم تكتمون * فقلنا اضربوه ببعضها) هذا البعض أى شىء كان من أعضاء هذه البقرة فالمعجزة حاصلة به وخرق العادة به كائن وقد كان معينا فى نفس الأمر فلو كان فى تعيينه لنا فائدة تعود علينا فى أمر الدين أو الدنيا لبينه الله تعالى لنا ولكنه أبهمه ولم يجىء من طريق صحيح عن معصوم بيانه فنحن نبهمه كما أبهمه الله ولهذا قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عفان بن مسلم حدثنا عبدالواحد بن زياد حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال إن أصحاب بقرة بنى إسرائيل طلبوها أربعين سنة حتى وجدوها عند رجل فى بقر له وكانت بقرة تعجبه قال فجعلوا يعطونه بها فيأبى حتى أعطوه ملء مسكها دنانير فذبحوها فضربوه - يعنى القتيل - بعضو منها فقام تشخب أوداجه دما فقالوا له من قتلك قال قتلنى فلان ، وكذا قال الحسن وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنه ضرب ببعضها ، وفى رواية عن ابن عباس أنه ضرب بالعظم الذى يلى الغضروف . وقال عبدالرزاق أنبأنا معمر قال : قال أيوب عن ابن سيرين عن عبيدة ضربوا القتيل ببعض لحمها قال معمر قال قتادة ضربوه بلحم فخذها فعاش فقال قتلنى فلان وقال وكيع بن الجراح فى تفسيره حدثنا النضر ابن عربى عن عكرمة (فقلنا اضربوه ببعضها) فضرب بفخذها فقام فقال قتلنى فلان ، قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وقتادة وعكرمة نحو ذلك . وقال السدى فضربوه بالبضعة التى بين الكتفين فعاش فسألوه فقال قتلنى ابن أخى وقال أبو العالية أمرهم موسى عليه السلام أن يأخذوا عظما من عظامها فيضربوا به القتيل ففعلوا فرجع اليه روحه فسمى لهم قاتله ثم عاد ميتا كما كان ؛ وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : فضربوه ببعض آرابها وقيل بلسانها وقيل بعجب ذنبها ، وقوله تعالى (كذلك يحيي الله الموتى) أى فضربوه فحيي ونبه تعالى على قدرته وإحيائه الموتى بما شاهدوه من أمر القتيل جعل تبارك وتعالى ذلك الصنيع حجة لهم على المعاد ، وفاصلا ما كان بينهم من الخصومة والعناد ، والله تعالى قد ذكر فى هذه السورة مما خلقه من إحياء الموتى فى خمسة مواضع (ثم بعثناكم من بعد موتكم) وهذه القصة وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت وقصة الذى مرّ على قرية وهى خاوية على عروشها وقصة إبراهيم عليه السلام والطيور الأربعة ، ونبه تعالى بإحياء الأرض بعد موتها على إعادة الأجسام بعد صيرورتها رميما كما قال أبو داود الطيالسى : حدثنا شعبة أخبرنى يعلى بن عطاء قال سمعت وكيع بن عدس يحدث عن أبى رزين العقيلى رضى الله عنه ، قال قلت يارسول الله كيف يحيي الله الموتى ؟ قال « أما مررت بواد ممحل ثم مررت به خضراً » ؟ قال بلى . قال « كذلك النشور » أو قال « كذلك يحيي الله الموتى » وشاهد هذا قوله تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون * وجعلنا فيها جنات من نخيل وأعناب وفجرنا فيها من العيون ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا يشكرون) (مسئلة) استدل لمذهب الإمام مالك فى كون قول الجريح فلان قتلنى

لوثا بهذه القصة لأن القتيل لما حي سئل عمن قتله فقال فلان قتلني فكان ذلك مقبولا منه لأنه لا يخبر حينئذ إلا بالحق ولا يتهم والحالة هذه ورجحوا ذلك لحديث أنس أن يهودياً قتل جارية على أوضاح لها فرضخ رأسها بين حجرين فقيل من فعل بك هذا أفلان ؟ أفلان ؟ حتى ذكروا اليهودي فأومأت برأسها فأخذ اليهودي فلم يزل به حتى اعترف فأمر رسول الله ﷺ أن يرض رأسه بين حجرين ، وعند مالك إذا كان لوثا حلف أولياء القتيل قسامة وخالف الجمهور في ذلك ولم يجعلوا قول القتيل في ذلك لوثا .

﴿ ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً وَإِنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الْمَاءُ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى توبيخاً لبني إسرائيل وتقريعا لهم على ماشاهدوه من آيات الله تعالى وإحيائه الموتى (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك) كله فهي كالحجارة التي لا تلين أبداً ولهذا نهى الله المؤمنين عن مثل حالهم فقال (ألم يأن للذين آمنوا أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون) قال العوفي في تفسيره عن ابن عباس لما ضرب المقتول ببعض البقرة جلس أحياما كان قط فقيل له من قتلك قال بنو أخي قتلوني ثم قبض فقال بنو أخيه حين قبضه الله والله ما قتلناه فكذبوا بالحق بعد أن رأوه فقال الله ثم قست قلوبكم من بعد ذلك يعني أبناء أخي الشيخ فهي كالحجارة أو أشد قسوة فصارت قلوب بني إسرائيل مع طول الأمد قاسية بعيدة عن الموعظة بعد ماشاهدوه من الآيات والمعجزات فهي في قسوتها كالحجارة التي لا علاج للينها أو أشد قسوة من الحجارة فإن من الحجارة مايتفجر منها العيون بالأنهار الجارية ومنها ما يشقق فيخرج منه الماء وإن لم يكن جاريا ومنها مايهبط من رأس الجبل من خشية الله وفيه إدراك لذلك بحسبه كما قال (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن وإن من شيء إلا يسبح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليما غفوراً) وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد انه كان يقول كل حجر يتفجر منه الماء أو يتشقق عن ماء أو يتردى من رأس جبل لمن خشية الله نزل بذلك القرآن وقال محمد بن إسحق حدثني محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله) أي وإن من الحجارة لألين من قلوبكم عما تدعون إليه من الحق (وما الله بغافل عما تعملون) وقال أبو علي الجياني في تفسيره (وإن منها لما يهبط من خشية الله) هو سقوط البرد من السحاب قال القاضي الباقلاني وهذا تأويل بعيد وتبعه في استبعاده الرازي وهو كما قال فان هذا خروج عن اللفظ بلا دليل والله أعلم وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا هشام بن عمار حدثنا الحكم بن هشام الثقفي حدثني يحي ابن أبي طالب يعني ويحي بن يعقوب في قوله تعالى (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار) قال كثرة البكاء (وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء) قال قليل البكاء (وإن منها لما يهبط من خشية الله) قال بكاء القلب من غير دموع العين وقد زعم بعضهم أن هذا من باب المجاز وهو إسناد الخشوع إلى الحجارة كما أسندت الارادة إلى الجدار في قوله (يريد أن ينقض) قال الرازي والقرطبي وغيرهما من الأئمة ولا حاجة إلى هذا فان الله تعالى يخلق فيها هذه الصفة كما في قوله تعالى (إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها) وقال (تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن) الآية وقال (والنجم والشجر يسجدان * أولم يروا إلى ماخلق الله من شيء يتفيأ ظلاله) الآية (قالتا أتينا طائعين * لو أنزلنا هذا القرآن على جبل) الآية (وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله) الآية وفي الصحيح « هذا جبل يحبنا ونحبه » وكحنين الجذع المتواتر خبره وفي صحيح مسلم « إني لأعرف حجرا بمكة كان يسلم علي قبل أن أبعث إني لأعرفه الآن » وفي صفة الحجر الأسود أنه يشهد لمن استلم بحق يوم القيامة وغير ذلك مما في معناه وحكى القرطبي قولا أنها للتخيير أي مثلا لهذا وهذا وهذا مثل جالس الحسن أو ابن سيرين . . وكذا حكاه

الرازى فى تفسيره وزاد قولا آخر إنها للإبهام بالنسبة إلى المخاطب كقول القائل أكلت خبزا أو تمرا ، وهو يعلم أيهما أكل وقال آخر إنها بمعنى قول القائل كل حلوا أوحامضا ، أى لا يخرج عن واحد منهما أى وقلوبكم صارت كالحجارة أو أشد قسوة منها لا تخرج عن واحد من هذين الشيئين والله أعلم .

﴿ تنبيه ﴾ اختلف علماء العربية فى معنى قوله تعالى (فهى كالحجارة أو أشد قسوة) بعد الاجماع على استحالة كونها للشك فقال بعضهم أو ههنا بمعنى الواو تقديره : فهى كالحجارة وأشد قسوة : كقوله تعالى (ولا تطع منهم آثما أو كفورا) (عذرا أو نذرا) وكما قال النابغة الذبيانى .

قالت ألا ليتما هذا الحمام لنا * إلى حمائما أو نصفه فقد

تريد ونصفه قاله ابن جرير : وقال جرير بن عطية

نال الخلافة أو كانت له قدرا * كما أتى ربه موسى على قدر

قال ابن جرير يعنى نال الخلافة وكانت له قدرا وقال آخرون أو ههنا بمعنى بل فتقديره : فهى كالحجارة بل أشد قسوة وكقوله (إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) (وأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (فكان قاب قوسين أو أدنى) وقال آخرون معنى ذلك (فهى كالحجارة أو أشد قسوة) عندكم حكاه ابن جرير : وقال آخرون المراد بذلك الإبهام على المخاطب كما قال أبو الأسود

أحب محمداً حبا شديداً * وعباسا وحمزة والوصيا * فان يك حبهم رشدا أصبه * وليس بمخطىء إن كان غيا

وقال ابن جرير قالوا ولا شك أن أبا الأسود لم يكن شاكا فى أن حب من سمى رشد ولكنه أبهم على من خاطبه قال وقد ذكر عن أبى الأسود انه لما قال هذه الأبيات قيل له شككت فقال كلا والله ثم انتزع بقول الله تعالى (وإنا وإياكم لعلى هدى أوفى ضلال مبين) فقال أوكان شاكا من أخبر بهذا من الهادى منهم ومن الضال ؟ وقال بعضهم معنى ذلك فقلوبكم لا تخرج عن أحد هذين المثلين إما أن تكون مثل الحجارة فى القسوة وإما أن تكون أشد منها فى القسوة . قال ابن جرير ومعنى ذلك على هذا التأويل فبعضها كالحجارة قسوة وبعضها أشد قسوة من الحجارة وقد رجحه ابن جرير مع توجيه غيره (قلت) وهذا القول الأخير يبقى شبيها بقوله تعالى(مثلهم كمثل الذى استوقد نارا) مع قوله (أو كصيب من السماء) وكقوله (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة) مع قوله (أو كظلمات فى بحر لجى) الآية أى إن منهم من هو هكذا ومنهم من هو هكذا والله أعلم : وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن أيوب حدثنا محمد بن عبدالله بن أبى الثلج حدثنا على بن حفص حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن حاطب عن عبدالله ابن دينار عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال « لا تكثروا الكلام بغير ذكر الله فان كثرة الكلام بغير ذكر الله قسوة القلب وإن أبعد الناس من الله القلب القاسى » رواه الترمذى فى كتاب الزهد من جامعه عن محمد بن عبد الله بن أبى الثلج صاحب الإمام أحمد به ومن وجه آخر عن إبراهيم بن عبد الله بن الحارث بن حاطب به ، وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث إبراهيم . وروى البزار عن أنس مرفوعا « أربع من الشقاء جمود العين وقساوة القلب وطول الأمل والحرص على الدنيا »

﴿ أَفَتَطْمَعُونَ أَن يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ * وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ آمَنُوا قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَا بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُم بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُم بِهِ عِندَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾

يقول تعالى (أفتطمعون) أيها المؤمنون (أن يؤمنوا لكم) أى ينقادلكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شاهد آباؤهم من الآيات البينات ماشاهدوه ثم قست قلوبهم من بعد ذلك (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم

يحرفونه) أى يتأولونه على غير تأويله (من بعد ماعقلوه) أى فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيرة (وهم يعلمون) أنهم مخطئون فيما ذهبوا إليه من تحريفه وتأويله وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه) قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أنه قال ثم قال الله تعالى لنبيه ﷺ ولمن معه من المؤمنين يؤيسهم منهم (أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله) وليس قوله يسمعون[1] التوراة كلهم قد سمعها ولكن هم الذين سألوا موسى رؤية ربهم فأخذتهم الصاعقة فيها . وقال محمد بن إسحق فيما حدثنى بعض أهل العلم أنهم قالوا لموسى ياموسى قد حيل بيننا وبين رؤية ربنا تعالى فأسمعنا كلامه حين يكلمك فطلب ذلك موسى إلى ربه تعالى فقال نعم مرهم فليتطهروا وليطهروا ثيابهم ويصوموا ففعلوا ثم خرج بهم حتى أتوا الطور فلما غشيهم الغمام أمرهم موسى أن يسجدوا فوقعوا سجودا وكلمه ربه فسمعوا كلامه يأمرهم وينهاهم حتى عقلوا منه ماسمعوا ثم انصرف بهم إلى بنى إسرائيل فلما جاءوهم حرف فريق منهم ماأمرهم به وقالوا حين قال موسى لبنى إسرائيل إن الله قد أمركم بكذا وكذا قال ذلك الفريق الذين ذكرهم الله إنما قال كذا وكذا خلافا لما قال الله عزوجل لهم فهم الذين عنى الله لرسوله ﷺ ، وقال السدى (وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) قال هى التوراة حرفوها وهذا الذى ذكره السدى أعم مما ذكره ابن عباس وابن إسحق وإن كان قد اختاره ابن جرير لظاهر السياق فانه ليس يلزم من سماع كلام الله أن يكون منه كما سمعه الكليم موسى بن عمران عليه الصلاة والسلام وقد قال الله تعالى (وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله) أى مبلغا إليه ولهذا قال قتادة فى قوله (ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون) قال هم اليهود كانوا يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه ووعوه وقال مجاهد الذين يحرفونه والذين يكتمونه هم العلماء منهم وقال أبو العالية عمدوا إلى ما أنزل الله فى كتابهم من نعت محمد ﷺ فحرفوه عن مواضعه وقال السدى (وهم يعلمون) أى أنهم أذنبوا وقال ابن وهب قال ابن زيد فى قوله (يسمعون كلام الله ثم يحرفونه) قال التوراة التى أنزلها الله عليهم يحرفونها يجعلون الحلال فيها حراما والحرام فيها حلالا والحق فيها باطلا والباطل فيها حقا ، إذا جاءهم المحق برشوة أخرجوا له كتاب الله وإذا جاءهم المبطل برشوة أخرجوا له ذلك الكتاب فهو فيه محق ، وإذا جاءهم أحد يسألهم شيئا ليس فيه حق ولا رشوة ولا شىء أمروه بالحق فقال الله لهم (أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب أفلا تعقلون)

وقوله تعالى (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض) الآية قال محمد بن إسحق حدثنا محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا) أى ان صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا : لاتحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم فأنزل الله (واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) أى تقرون بأنه نبى وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه وهو يخبرهم أنه النبى الذى كنا ننتظر ونجد فى كتابنا ، اجحدوه ولاتقروا به . يقول الله تعالى (أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون) وقال الضحاك عن ابن عباس : يعنى المنافقين من اليهود كانوا إذا لقوا أصحاب محمد ﷺ قالوا آمنا ، وقال السدى . هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا . وكذا قال الربيع بن أنس وقتادة وغير واحد من السلف والخلف حتى قال عبد الرحمن بن زيد بن اسلم فيما رواه ابن وهب عنه كان رسول الله ﷺ قد قال « لايدخلن علينا قصبة المدينة إلا مؤمن » فقال رؤساؤهم من أهل الكفر والنفاق اذهبوا فقولوا آمنا وا كفروا إذا رجعتم إلينا فكانوا يأتون المدينة بالبكر ويرجعون إليهم بعد العصر . وقرأ قول الله تعالى (وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه النهار وا كفروا آخره لعلهم يرجعون) وكانوا يقولون إذا دخلوا المدينة نحن مسلمون ليعلموا خبر رسول الله ﷺ وأمره . فاذا رجعوا رجعوا إلى الكفر فلما أخبر الله نبيه ﷺ قطع ذلك عنهم فلم يكونوا يدخلون . وكان المؤمنون يظنون أنهم مؤمنون فيقولون اليس قد قال الله لكم كذا وكذا . فيقولون بلى . فاذا رجعوا إلى

(١) فى ابن جرير الطبرى عن ابن إسحق قال ليس قوله يسمعون كلام الله يسمعون التوراة كلهم قد سمعها الخ .

قومهم يعنى الرؤساء فقالوا (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) الآية . وقال أبو العالية (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) يعنى بما أنزل عليكم فى كتابكم من نعت محمد ﷺ وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم) قال كانوا يقولون سيكون نبى فخلا بعضهم ببعض فقالوا (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) . قول آخر فى المراد بالفتح قال ابن جريج : حدثنى القاسم بن أبى برزة عن مجاهد فى قوله تعالى (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) قال قام النبى ﷺ يوم قريظة تحت حصونهم ، فقال يا إخوان القردة والخنازير ويا عبدة الطاغوت فقالوا من أخبر بهذا الأمر محمداً ؟ ما خرج هذا القول إلا منكم (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) بما حكم الله للفتح ليكون لهم حجة عليكم قال ابن جريج عن مجاهد هذا حين أرسل إليهم عليا فآذوا محمدا ﷺ ، وقال السدى (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) من العذاب (ليحاجوكم به عند ربكم) هؤلاء ناس من اليهود آمنوا ثم نافقوا فكانوا يحدثون المؤمنين من العرب بما عذبوا به . فقال بعضهم لبعض (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) من العذاب ليقولوا نحن أحب إلى الله منكم وأكرم على الله منكم وقال عطاء الخراسانى (أتحدثونهم بما فتح الله عليكم) يعنى بما قضى لكم وعليكم . وقال الحسن البصرى : هؤلاء اليهود كانوا إذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال بعضهم لا تحدثوا أصحاب محمد بما فتح الله عليكم مما فى كتابكم ليحاجوكم به عند ربكم فيخصموكم . وقوله تعالى (أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون ومايعلنون) قال أبو العالية : يعنى ما أسروا من كفرهم بمحمد ﷺ وتكذيبهم به وهم يجدونه مكتوبا عندهم وكذا قال قتادة ، وقال الحسن (إن الله يعلم مايسرون) قال كان ما أسروا أنهم كانوا إذا تولوا عن أصحاب محمد ﷺ وخلا بعضهم إلى بعض تناهوا أن يخبر أحد منهم أصحاب محمد ﷺ بما فتح الله عليهم مما فى كتابهم خشية أن يحاجهم أصحاب محمد ﷺ بما فى كتابهم عند ربهم (وما يعلنون) يعنى حين قالوا لأصحاب محمد صلى الله عليه وسلم آمنا . وكذا قال أبو العالية والربيع وقتادة.

﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ * فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَّهُم مِّمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَّهُمْ مِّمَّا يَكْسِبُونَ ﴾

يقول تعالى (ومنهم أميون) أى ومن أهل الكتاب قاله مجاهد ، والأميون جمع أمى وهو الرجل الذى لا يحسن الكتابة قاله أبو العالية والربيع وقتادة وإبراهيم النخعى وغير واحد وهو ظاهر فى قوله تعالى (لا يعلمون الكتاب) أى لا يدرون مافيه . ولهذا فى صفات النبى ﷺ : أنه الأمى لأنه لم يكن يحسن الكتابة كما قال تعالى (وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون) وقال عليه الصلاة والسلام « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب الشهر هكذا وهكذا وهكذا » الحديث أى لا نفتقر فى عباداتنا ومواقيتها إلى كتاب ولا حساب ، وقال تبارك وتعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) وقال ابن جرير : نسبت العرب من لا يكتب ولا يخط من الرجال إلى أمه فى جهله بالكتاب دون أبيه . قال وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنهما قول خلاف هذا وهو ما حدثنا به أبو كريب حدثنا عثمان بن سعيد عن بشر بن عمارة عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (ومنهم أميون) قال الأميون قوم لم يصدقوا رسولا أرسله الله ولا كتابا أنزله الله فكتبوا كتابا بأيديهم ثم قالوا لقوم سفلة جهال هذا من عند الله ، وقال قد أخبرأنهم يكتبون بأيديهم ثم سماهم أميين لجحودهم كتب الله ورسله ، ثم قال ابن جرير : وهذا التأويل تأويل على خلاف مايعرف من كلام العرب المستفيض بينهم ، وذلك أن الأمى عند العرب الذى لا يكتب . قلت ثم فى صحة هذا عن ابن عباس بهذا الاسناد نظر والله أعلم . وقوله تعالى (إلا أمانى) قال ابن أبى طلحة عن ابن عباس إلا أمانى الأحاديث وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله تعالى (إلا أمانى) يقول إلا قولا يقولون بأفواههم كذبا . وقال مجاهد إلا كذبا : وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج عن مجاهد (ومنهم أميون

لايعلمون الكتاب إلا أمانى) قال أناس من اليهود لم يكونوا يعلمون من الكتاب شيئا وكانوا يتكلمون بالظن بغير مافى كتاب الله ويقولون هو من الكتاب ، أمانى يتمنونها وعن الحسن البصرى نحوه ، وقال أبو العالية والربيع وقتادة إلا أمانى يتمنون على الله ماليس لهم ، وقال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم إلا أمانى قال تمنوا فقالوا نحن من أهل الكتاب وليسوا منهم ، قال ابن جرير والأشبه بالصواب قول الضحاك عن ابن عباس وقال مجاهد إن الأميين الذين وصفهم الله تعالى أنهم لايفقهون من الكتاب الذى أنزله الله تعالى على موسى شيئا ولكنهم يتخرصون الكذب ويتخرصون الأباطيل كذبا وزورا ، والتمنى فى هذا الموضع هو تخلق الكذب وتخرصه ، ومنه الخبر المروى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه ماتغنيت ولا تمنيت يعنى ماتخرصت الباطل ولا اختلقت الكذب : وقيل المراد بقوله إلا أمانى بالتشديد والتخفيف أيضا أى الا تلاوة فعلى هذا يكون استثناء منقطعا واستشهدوا على ذلك بقوله تعالى (إلا إذا تمنى - أى تلا - ألقى الشيطان فى أمنيته) الآية ، وقال كعب بن مالك الشاعر :

تمنى كتاب الله أول ليله * وآخره لاقى حمام المقادر

وقال آخر تمنى كتاب الله آخر ليله * تمنى داود الكتاب على رسل

وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (لايعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون) أى ولايدرون مافيه وهم يجدون نبوتك بالظن وقال مجاهد (وان هم إلا يظنون) يكذبون وقال قتادة وأبو العالية والربيع : يظنون بالله الظنون بغير الحق . وقوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) الآية هؤلاء صنف آخر من اليهود وهم الدعاة إلى الضلال بالزور والكذب على الله وأكل أموال الناس بالباطل . والويل الهلاك والدمار وهى كلمة مشهورة فى اللغة : وقال سفيان الثورى عن زياد بن فياض سمعت أبا عياض يقول ويل صديد فى أصل جهنم وقال عطاء بن يسار . الويل واد فى جهنم لو سيرت فيه الجبال لماعت . وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث عن دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ويل واد فى جهنم يهوى فيه الكافر أربعين خريفا قبل أن يبلغ قعره » ورواه الترمذى عن عبد الرحمن بن حميد عن الحسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج به وقال هذا حديث غريب لانعرفه الا من حديث ابن لهيعة (قلت) لم ينفرد به ابن لهيعة كما ترى ولكن الآفة ممن بعده وهذا الحديث بهذا الاسناد مرفوعا منكر والله أعلم . وقال ابن جرير حدثنا المثنى حدثنا ابراهيم بن عبدالسلام حدثنا صالح القشيرى حدثنا على بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوى عن عثمان بن عفان رضى الله عنه عن رسول الله ﷺ (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) قال « الويل جبل فى النار » وهو الذى أنزل فى اليهود لأنهم حرفوا التوراة زادوا فيها ما أحبوا ومحوا منها ما يكرهون ومحوا اسم محمد ﷺ من التوراة ولذلك غضب الله عليهم فرفع بعض التوراة فقال تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) وهذا غريب أيضا جدا ، وعن ابن عباس الويل المشقة من العذاب وقال الخليل بن أحمد الويل شدة الشر وقال سيبويه ويل لمن وقع فى الهلكة وويح لمن أشرف عليها وقال الأصمعى الويل تفجع والويح ترحم وقال غيره الويل الحزن ، وقال الخليل وفى معنى ويل ويح وويش وويه وويك وويب ومنهم من فرق بينها ، وقال بعض النحاة انما جاز الابتداء بها وهى نكرة لأن فيها معنى الدعاء ومنهم من جوز نصبها بمعنى ألزمهم ويلا (قلت) لكن لم يقرأ بذلك أحد ، وعن عكرمة عن ابن عباس رضى الله عنهما (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) قال هم أحبار اليهود وكذا قال سعيد عن قتادة هم اليهود وقال سفيان الثورى عن عبد الرحمن بن علقمة سألت ابن عباس رضى الله عنه عن قوله تعالى (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم) قال نزلت فى المشركين وأهل الكتاب وقال السدى كان ناس من اليهود كتبوا كتابا من عندهم يبيعونه من العرب ويحدثونهم أنه من عند الله فيأخذوا به ثمنا قليلا وقال الزهرى أخبرنى عبيد الله بن عبدالله عن ابن عباس أنه قال : يامعشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب عن شىء وكتاب الله الذى أنزله على نبيه أحدث أخبار

الله تقرءونه غضا لم يشب وقدحدثكم الله تعالى أن أهل الكتاب قد بدلوا كتاب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم الكتاب وقالوا هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، أفلا ينهاكم ماجاءكم من العلم عن مساءلتهم ولا والله ما رأينا منهم أحدا قط سألكم عن الذى أنزل عليكم رواه البخارى من طرق عن الزهرى ، وقال الحسن بن أبى الحسن البصرى : الثمن القليل الدنيا بحذافيرها . وقوله تعالى (فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون) أى فويل لهم مما كتبوا بأيديهم من الكذب والبهتان والافتراء وويل لهم مما أكلوا به من السحت كما قال الضحاك عن ابن عباس رضى الله عنهما (فويل لهم) يقول فالعذاب عليهم من الذى كتبوا بأيديهم من ذلك الكذب وويل لهم مما يكسبون يقول مما يأكلون به الناس السفلة وغيرهم .

﴿ وَقَالُوا لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلَّا أَيَّامًا مَّعْدُودَةً . قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى إخبارا عن اليهود فيما تقلوه وادعوه لأنفسهم من أنهم لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ثم ينجون منها فرد الله عليهم ذلك بقوله تعالى (قل أتخذتم عند الله عهدا) أى بذلك فان كان قد وقع عهد فهو لا يخلف عهده ولكن هذا ماجرى ولا كان ولهذا أتى بأم التى بمعنى بل أى بل تقولون على الله مالا تعلمون من الكذب والافتراء عليه قال محمد ابن إسحق عن سيف بن سليمان عن مجاهد عن ابن عباس أن اليهود كانوا يقولون إن هذه الدنيا سبعة آلاف سنة وانما نعذب بكل ألف سنة يوما فى النار وانما هى سبعة أيام معدودة فأنزل الله تعالى (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) إلى قوله (خالدون) ثم رواه عن محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس بنحوه ، وقال العوفى عن ابن عباس (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) اليهود قالوا لن تمسنا النار إلا أربعين ليلة زاد غيره وهى مدة عبادتهم العجل وحكاه القرطبى عن ابن عباس وقتادة ، وقال الضحاك قال ابن عباس زعمت اليهود أنهم وجدوا فى التوراة مكتوبا ان ما بين طرفى جهنم مسيرة أربعين سنة إلى أن ينتهوا إلى شجرة الزقوم التى هى ثابتة فى أصل الجحيم ، وقال أعداء الله إنما نعذب حتى ننتهى إلى شجرة الزقوم فتذهب جهنم وتهلك . فذلك قوله تعالى (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) يعنى الأيام التى عبدنا فيها العجل وقال عكرمة خاصمت اليهود رسول الله ﷺ فقالوا لن ندخل النار إلا أربعين ليلة وسيخلفنا فيها قوم آخرون يعنون محمدا ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم فقال رسول الله ﷺ بيده على رءوسهم « بل أنتم خالدون مخلدون لا يخلفكم فيها أحد » فأنزل الله عزوجل (وقالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة) الآية : وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه رحمه الله حدثنا عبد الرحمن بن جعفر حدثنا محمد بن محمد بن صخر حدثنا أبو عبد الرحمن المقرئ حدثنا ليث بن سعد حدثنى سعيد بن أبى سعيد عن أبى هريرة قال لما فتحت خيبر أهديت لرسول الله صلى الله عليه وسلم شاة فيها سم فقال رسول الله ﷺ « اجمعوا لى من كان من اليهود ههنا » فقال لهم رسول الله ﷺ « من أبوكم ؟ » قالوا فلان قال « كذبتم بل أبوكم فلان » فقالوا صدقت وبررت ثم قال لهم « هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا نعم يا أبا القاسم وإن كذبناك عرفت كذبنا كما عرفته فى أبينا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أهل النار ؟ » فقالوا نكون فيها يسيرا ثم تخلفونا فيها فقال لهم رسول الله ﷺ « اخسئوا والله لا نخلفكم فيها أبدا » ثم قال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل أنتم صادقىّ عن شىء إن سألتكم عنه ؟ » قالوا نعم يا أبا القاسم قال « هل جعلتم فى هذه الشاة سما ؟ » فقالوا نعم قال « فما حملكم على ذلك » فقالوا أردنا ان كنت كاذبا ان نستريح منك وان كنت نبيا لم يضرك ورواه الإمام أحمد والبخارى والنسائى من حديث الليث بن سعد بنحوه .

﴿ بَلَىٰ مَن كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ * وَالَّذِينَ آمَنُوا

وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾

يقول تعالى ليس الأمر كما تمنيتم ولا كما تشتهون بل الأمر أنه من عمل سيئة وأحاطت به خطيئته وهو من وافى يوم القيامة وليست له حسنة بل جميع أعماله سيئات فهذا من أهل النار (والذين آمنوا وعملوا الصالحات) أى آمنوا بالله ورسوله وعملوا الصالحات من العمل الموافق للشريعة فهم من أهل الجنة وهذا المقام شبيه بقوله تعالى (ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءا يجز به ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيراً * ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا) قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس (بلى من كسب سيئة) أى عمل مثل أعمالكم وكفر بمثل ما كفرتم به حتى يحيط به كفره فماله من حسنة ، وفى رواية عن ابن عباس قال الشرك ، قال ابن أبى حاتم وروى عن أبى وائل وأبى العالية ومجاهد وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس نحوه وقال الحسن أيضا والسدى السيئة الكبيرة من الكبائر وقال ابن جريج عن مجاهد (وأحاطت به خطيئته) قال بقلبه وقال أبو هريرة وأبو وائل وعطاء والحسن (وأحاطت به خطيئته) قالوا أحاط به شركه وقال الأعمش عن أبى رزين عن الربيع بن خيثم (وأحاطت به خطيئته) قال الذى يموت على خطاياه من قبل أن يتوب وعن السدى وأبى رزين نحوه وقال أبو العالية ومجاهد والحسن فى رواية عنهما وقتادة والربيع بن أنس (وأحاطت به خطيئته) الموجبة الكبيرة وكل هذه الأقوال متقاربة فى المعنى والله أعلم. ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا سليمان بن داود حدثنا عمرو بن قتادة عن عبد ربه عن أبى عياض عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ قال « إياكم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكنه » وإن رسول الله ﷺ ضرب لهم مثلا كمثل قوم نزلوا بأرض فلاة فحضر صنيع القوم فجعل الرجل ينطلق فيجىء بالعود والرجل يجىء بالعود حتى جمعوا سوادا وأججوا ناراً فأنضجوا ما قذفوا فيها. وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس (والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون) أى من آمن بما كفرتم وعمل بما تركتم من دينه فلهم الجنة خالدين فيها يخبرهم أن الثواب بالخير والشر مقيم على أهله أبداً لا انقطاع له

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِنْكُمْ وَأَنْتُمْ مُعْرِضُونَ ﴾

يذكر تبارك وتعالى بنى إسرائيل بما أمرهم به من الأوامر وأخذه ميثاقهم على ذلك وأنهم تولوا عن ذلك كله وأعرضوا قصدا وعمدا وهم يعرفونه ويذكرونه فأمرهم تعالى أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا وبهذا أمر جميع خلقه ولذلك خلقهم كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) وقال تعالى (ولقد بعثنا فى كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) وهذا هو أعلى الحقوق وأعظمها وهو حق الله تبارك وتعالى أن يعبد وحده لا شريك له ثم بعده حق المخلوقين وآكدهم وأولاهم بذلك حق الوالدين ولهذا يقرن تبارك وتعالى بين حقه وحق الوالدين كما قال تعالى (أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير) وقال تبارك وتعالى (وقضى ربك أن لا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا) إلى أن قال (وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل) وفى الصحيحين عن ابن مسعود قلت يا رسول الله أى العمل أفضل ؟ قال « الصلاة على وقتها » قلت ثم أى ؟ «قال بر الوالدين » قلت ثم أى قال « الجهاد فى سبيل الله » ولهذا جاء فى الحديث الصحيح أن رجلا قال يا رسول الله من أبر ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال « أمك » قال ثم من ؟ قال « أباك ؟ ثم أدناك ثم أدناك » وقوله تعالى (لا تعبدون إلا الله) قال الزمخشرى خبر بمعنى الطلب وهو آكد وقيل كان أصله (أن لا تعبدوا إلا الله) كما قرأها من قرأها من السلف فحذفت أن فارتفع وحكى عن أبى وابن مسعود أنهما قرءاها (لا تعبدوا إلا الله) ونقل هذا التوجيه القرطبى فى تفسيره عن سيبويه . قال واختاره الكسائى

والفراء قال (واليتامى) وهم الصغار الذين لا كاسب لهم من الآباء والمساكين الذين لا يجدون ما ينفقون على أنفسهم وأهليهم وسيأتى الكلام على هذه الأصناف عند آية النساء التى أمرنا الله تعالى بها صريحا فى قوله (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا) الآية وقوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) أى كلموهم طيبا ولينوا لهم جانبا ويدخل فى ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر بالمعروف كما قال الحسن البصرى فى قوله تعالى (وقولوا للناس حسنا) فالحسن من القول يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ويحلم ويعفو ويصفح ويقول للناس حسنا كما قال الله وهو كل خلق حسن رضيه الله

وقال الإمام أحمد : حدثنا روح حدثنا أبو عامر الخراز عن أبى عمران الجونى عن عبد الله بن الصامت عن أبى ذر رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « لا تحقرن من المعروف شيئا وإن لم تجد فالق أخاك بوجه منطلق » وأخرجه مسلم فى صحيحه والترمذى وصححه من حديث أبى عامر الخراز واسمه صالح بن رستم به وناسب أن يأمرهم بأن يقولوا للناس حسنا بعد ما أمرهم بالإحسان إليهم بالفعل فجمع بين طرفى الإحسان الفعلى والقولى ، ثم أكد الأمر بعبادته والإحسان إلى الناس بالمتعين من ذلك وهو الصلاة والزكاة فقال (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة) وأخبر أنهم تولوا عن ذلك كله أى تركوه وراء ظهورهم وأعرضوا عنه على عمد بعد العلم به إلا القليل منهم وقد أمر الله هذه الأمة بنظير ذلك فى سورة النساء بقوله(واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم ، إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) فقامت هذه الأمة من ذلك بما لم تقم به أمة من الأمم قبلها ولله الحمد والمنة . ومن النقول الغريبة ههنا ماذكره ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا أبى حدثنا محمد بن خلف العسقلانى حدثنا عبدالله بن يوسف يعنى التنيسى حدثنا خالد بن صبيح عن حميد بن عقبة عن أسد بن وداعة أنه كان يخرج من منزله فلا يلقى يهوديا ولا نصرانيا إلا سلم عليه فقيل له : ماشأنك تسلم على اليهودى والنصرانى ؟ فقال : إن الله تعالى يقول (وقولوا للناس حسنا) وهو السلام . قال وروى عن عطاء الخراسانى نحوه (قلت) وقد ثبت فى السنة أنهم لا يبدءون بالسلام والله أعلم

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَارِهِمْ تَظَاهَرُونَ عَلَيْهِم بِالْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَارَىٰ تُفَادُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ، وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى منكرا على اليهود الذين كانوا فى زمان رسول الله ﷺ بالمدينة وما كانوا يعانونه من القتال مع الأوس والخزرج ، وذلك أن الأوس والخزرج وهم الأنصار كانوا فى الجاهلية عباد أصنام ، وكانت بينهم حروب كثيرة ، وكانت يهود المدينة ثلاث قبائل بنو قينقاع وبنو النضير حلفاء الخزرج وبنو قريظة حلفاء الأوس ، فكانت الحرب إذا نشبت بينهم قاتل كل فريق مع حلفائه فيقتل اليهودى أعداءه، وقد يقتل اليهودى الآخر من الفريق الآخر ، وذلك حرام عليهم فى دينهم ونص كتابهم ، ويخرجونهم من بيوتهم وينتهبون ما فيها من الأثاث والأمتعة والأموال ثم إذا وضعت الحرب أوزارها استفكوا الأسارى من الفريق المغلوب عملا بحكم التوراة ، ولهذا قال تعالى (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟) ولهذا قال تعالى (وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم

ولا تخرجون أنفسكم من دياركم) أى لايقتل بعضكم بعضا ولايخرجه من منزله ولا يظاهر عليه كما قال تعالى (فتوبوا إلى بارئكم فاقتلوا أنفسكم ذلكم خير لكم عند بارئكم) وذلك أن أهل الملة الواحدة بمنزلة النفس الواحدة كما قال عليه الصلاة والسلام « مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتواصلهم بمنزلة الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر » وقوله تعالى (ثم أقررتم وأنتم تشهدون) أى ثم أقررتم بمعرفة هذا الميثاق وصحته وأنتم تشهدون به (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) الآية ، قال محمد بن اسحق بن يسار حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أوعكرمة عن ابن عباس (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم) الآية قال . أنبأهم الله بذلك من فعلهم وقد حرم عليهم فى التوراة سفك دمائهم وافترض عليهم فيها فداء أسراهم فكانوا فريقين طائفة منهم بنو قينقاع وهم حلفاء الخزرج والنضير ، وقريظة وهم حلفاء الأوس فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظاهر كل واحد من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى تسافكوا دماءهم بينهم وبأيديهم التوراة يعرفون فيها ماعليهم وما لهم والأوس والخزرج أهل شرك يعبدون الأوثان ولا يعرفون جنة ولا نارا ولا بعثا ولا قيامة ولا كتابا ولا حلالا ولا حراما فاذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسراهم تصديقا لما فى التوراة وأخذا به بعضهم من بعض يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم فى أيدى الأوس ويفتدى النضير وقريظة ما كان فى أيدى الخزرج منهم ويطلبون ما أصابوا من دمائهم وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم يقول الله تعالى ذكره حيث أنأهم بذلك (أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض) أى تفادونهم بحكم التوراة وتقتلونهم وفى حكم التوراة أن لايقتل ولايخرج من داره ولا يظاهر عليه من يشرك بالله ويعبد الأوثان من دونه ابتغاء عرض الدنيا ؟ فى ذلك من فعلهم مع الأوس والخزرج فيما بلغنى نزلت هذه القصة . وقال أسباط عن السدى . كانت قريظة حلفاء الأوس وكانت النضير حلفاء الخزرج فكانوا يقتتلون فى حرب بينهم فتقاتل بنو قريظة مع حلفائها النضير وحلفاءهم وكانت النضير تقاتل قريظة وحلفاءها ويغلبونهم فيخربون ديارهم ويخرجونهم منها فاذا أسر رجل من الفريقين كلاهما جمعوا له حتى يفدوه فتعيرهم العرب بذلك ويقولون : كيف تقاتلونهم وتفدونهم ؟ قالوا : إنا أمرنا أن نفديهم وحرم علينا قتالهم قالوا : فلم تقاتلونهم ؟ قالوا : إنا نستحيي أن تستذل حلفاؤنا فذلك حين عيرهم الله تبارك وتعالى فقال تعالى (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) الآية : وقال أسباط عن السدى عن الشعبي نزلت هذه الآية فى قيس بن الحطيم (ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم) الآية : وقال أسباط عن السدى عن عبد خير قال : غزونا مع سلمان بن ربيعة الباهلى بلنجر فحاصرنا أهلها ففتحنا المدينة وأصبنا سبايا واشترى عبدالله بن سلام يهودية بسبعمائة فلما مر برأس الجالوت نزل به فقال له عبد الله : يارأس الجالوت هل لك فى عجوز ههنا من أهل دينك تشتريها منى قال نعم ، قال : أخذتها بسبعمائة درهم قال : فإنى أربحك سبعمائة أخرى قال : فإنى قد حلفت أن لا أنقصها من أربعة آلاف قال لاحاجة لى فيها قال والله لتشترينها منى أو لتكفرن بدينك الذى أنت عليه قال : ادن منى فدنا منه فقرأ فى أذنه مما فى التوراة : إنك لاتجد مملوكا من بنى إسرائيل إلا اشتريته فأعتقته (وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم) قال : أنت عبد الله بن سلام ؟ قال : نعم : قال فجاء بأربعة آلاف فأخذ عبد الله ألفين ورد عليه ألفين. وقال آدم بن أبى إياس فى تفسيره حدثنا أبو جعفر يعنى الرازى حدثنا الربيع بن أنس أخبرنا أبو العالية : أن عبدالله بن سلام مر على رأس الجالوت بالكوفة وهو يفادى من النساء من لم يقع عليه العرب ولايفادى من وقع عليه العرب ، فقال عبدالله : أما انه مكتوب عندك فى كتابك أن تفاديهن كلهن والذى أرشدت اليه الآية الكريمة وهذا السياق ذم اليهود فى قيامهم بأمر التوراة التى يعتقدون صحتها ومخالفة شرعها مع معرفتهم بذلك وشهادتهم له بالصحة فلهذا لا يؤتمنون على مافيها ولا على نقلها ولا يصدقون فيما كتموه من صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم ونعته ومبعثه ومخرجه ومهاجره وغير ذلك من شؤونه التى أخبرت بها الأنبياء قبله عليهم الصلاة والسلام ، واليهود عليهم لعائن الله يتكاتمونه بينهم ولهذا قال تعالى (فما جزاء من يفعل ذلك منكم

إلا خزى فى الحياة الدنيا) أى بسبب مخالفتهم شرع الله وأمره (ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب) جزاء على مخالفتهم كتاب الله الذى بأيديهم (وما الله بغافل عما تعملون * أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة) أى استحبوها على الآخرة واختاروها (فلا يخفف عنهم العذاب) أى لا يفتر عنهم ساعة واحدة (ولا هم ينصرون) أى وليس لهم ناصر ينقذهم مما هم فيه من العذاب الدائم السرمدى ولا يجيرهم منه

﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ وَقَفَّيْنَا مِنۢ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَآءَكُمْ رَسُولٌۢ بِمَا لَا تَهْوَىٰٓ أَنفُسُكُمُ ٱسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴾

ينعت تبارك وتعالى بنى اسرائيل بالعتو والعناد والمخالفة والاستكبار على الأنبياء وأنهم انما يتبعون أهواءهم فذكر تعالى أنه آتى موسى الكتاب وهو التوراة فحرفوها وبدلوها وخالفوا أوامرها وأولوها ، وأرسل الرسل والنبيين من بعده الذين يحكمون بشريعته كما قال تعالى (انا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والأحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء) الآية ولهذا قال تعالى (وقفينا من بعده بالرسل) قال السدى عن أبى مالك : أتبعنا . وقال غيره . أردفنا . والكل قريب كما قال تعالى (ثم أرسلنا رسلنا تترى) حتى ختم أنبياء بنى اسرائيل بعيسى بن مريم فجاء بمخالفة التوراة فى بعض الأحكام ولهذا أعطاه الله من البينات وهى المعجزات . قال ابن عباس من إحياء الموتى ، وخلقه من الطين كهيئة الطير فينفخ فيها فتكون طيراً بإذن الله ، وابراء الأسقام ، واخباره بالغيوب ، وتأييده بروح القدس وهو جبريل عليه السلام - مايدلهم على صدقه فيما جاءهم به ، فاشتد تكذيب بنى اسرائيل له وحسدهم وعنادهم لمخالفة التوراة فى البعض كما قال تعالى اخباراً عن عيسى (ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم وجئتكم بآية من ربكم) الآية فكانت بنوا إسرائيل تعامل الأنبياء أسوأ المعاملة ففريقا يكذبونه ، وفريقا يقتلونه ، وماذاك إلا لأنهم يأتونهم بالأمور المخالفة لأهوائهم وآرائهم وبالالزام بأحكام التوراة التى قد تصرفوا فى مخالفتها ، فلهذا كان ذلك يشق عليهم فكذبوهم وربما قتلوا بعضهم ولهذا قال تعالى (أفكلما جاءكم رسول بمالاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقا كذبتم وفريقا تقتلون)

والدليل على أن روح القدس هو جبريل كما نص عليه ابن مسعود فى تفسير هذه الآية وتابعه على ذلك ابن عباس ومحمد بن كعب واسماعيل بن خالد والسدى والربيع بن أنس وعطية العوفى وقتادة مع قوله تعالى (نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين) ماقال البخارى . وقال ابن أبى الزناد عن أبيه عن أبى هريرة عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع لحسان بن ثابت منبرا فى المسجد فكان ينافح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم أيد حسان بروح القدس كما نافح عن نبيك » فهذا من البخارى تعليقا وقد رواه أبو داود فى سننه عن ابن سيرين والترمذى عن على بن حجر واسماعيل بن موسى الفزارى ثلاثتهم عن أبى عبد الرحمن بن أبى الزناد عن أبيه وهشام بن عروة كلاهما عن عروة عن عائشة به قال الترمذى حسن صحيح وهو حديث أبى الزناد وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبى هريرة أن عمر ابن الخطاب مر بحسان وهو ينشد الشعر فى المسجد فلحظ اليه فقال قد كنت أنشد فيه وفيه من هو خير منك ثم التفت إلى أبى هريرة فقال أنشدك الله أسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أجب عنى اللهم أيده بروح القدس » فقال اللهم نعم وفى بعض الروايات أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لحسان « اهجهم - أو هاجهم - وجبريل معك » وفى شعر حسان قوله :

وجبريل رسول الله فينا * وروح القدس ليس به خفاء

وقال محمد بن اسحق حدثنى عبد الرحمن بن أبى حسين المكى عن شهر بن حوشب الأشعرى أن نفراً من اليهود سألوا رسول الله صلى الله وسلم قالوا أخبرنا عن الروح فقال « أنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون

أنه جبرائيل وهو الذى يأتينى ؟ » قالوا نعم : وفى صحيح ابن حبان عن ابن مسعود أن رسول الله ﷺ قال « إن روح القدس نفث فى روعى أنه لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها وأجلها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب » * أقوال أخر — قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا منجاب بن الحارث حدثنا بشر عن أبى روق عن الضحاك عن ابن عباس (وأيدناه بروح القدس) قال : هو الاسم الأعظم الذى كان عيسى يحيى به الموتى . وقال ابن جرير حدثت عن المنجاب فذكره وقال ابن أبى حاتم وروى عن سعيد بن جبير نحو ذلك ونقله القرطبى عن عبيد بن عمير أيضاً قال : وهو الاسم الأعظم . وقال ابن أبى نجيح : الروح هو حفظة على الملائكة وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس . القدس هو الرب تبارك وتعالى . وهو قول كعب وحكى القرطبى عن مجاهد والحسن البصرى أنهما قالا . القدس هو الله تعالى وروحه جبريل . فعلى هذا يكون القول الأول وقال السدى : القدس البركة . وقال العوفى عن ابن عباس القدس الطهر وقال ابن جرير حدثنا يونس بن عبد الأعلى أنبأنا ابن وهب قال: قال ابن زيد فى قوله تعالى (وأيدناه بروح القدس) قال : أيد الله عيسى بالإنجيل روحا كما جعل القرآن روحا كلاهما روح الله كما قال تعالى (وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا) ثم قال ابن جرير وأولى التأويلات فى ذلك بالصواب قول من قال الروح فى هذا الموضع جبرائيل فان الله تعالى أخبر أنه أيد عيسى به كما أخبر فى قوله تعالى (إذ قال الله ياعيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) الآيه فذكر أنه أيده به فلو كان الروح الذى أيده به هو الانجيل لكان قوله (وإذ أيدتك بروح القدس* وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل) تكرير قول لامعنى له والله سبحانه وتعالى أعز وأجل أن يخاطب عباده بما لايفيدهم به (قلت) ومن الدليل على أنه جبرائيل ماتقدم من أول السياق ولله الحمد -وقال الزمخشرى (بروح القدس) بالروح المقدسة كما تقول حاتم الجود ورجل صدق ووصفها بالقدس كما قال (وروح منه) فوصفه بالاختصاص والتقريب تكرمة وقيل لأنه لم تضمه الأصلاب والأرحام الطوامث وقيل بجبريل وقيل بالإنجيل كما قال فى القرآن (روحا من أمرنا) وقيل باسم الله الأعظم الذى كان يحيى الموتى بذكره فتضمن كلامه قولا آخر وهو أن المراد روح عيسى نفسه المقدسة المطهرة وقال الزمخشرى فى قوله تعالى (ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) إنما لم يقل وفريقاً قتلتم لأنه أراد بذلك وصفهم فى المستقبل أيضاً لأنهم حاولوا قتل النبى ﷺ بالسم والسحر وقد قال عليه السلام فى مرض موته « مازالت أكلة خيبر تعادنى فهذا أوان انقطاع أبهرى » (قلت) وهذا الحديث فى صحيح البخارى وغيره

﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) أى فى أكنة: وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) أى لاتفقه وقال العوفى عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) هى القلوب المطبوع عليها وقال مجاهد (وقالوا قلوبنا غلف) عليها غشاوة وقال عكرمة : عليها طابع ، وقال أبو العالية: أى لاتفقه ، وقال السدى يقولون عليها غلاف وهو الغطاء : وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : فلاتعى ولاتفقه قال مجاهد وقتادة : وقرأ ابن عباس غلف بضم اللام وهو جمع غلاف أى قلوبنا أوعية لكل علم فلا نحتاج إلى علمك قاله ابن عباس وعطاء (بل لعنهم الله بكفرهم) أى طردهم الله وأبعدهم من كل خير (فقليلا ما يؤمنون) قال قتادة معناه لايؤمن منهم إلا القليل (وقالوا قلوبنا علف) هو كقوله (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) وقال عبد الرحمن بن زيد ابن أسلم فى قوله غلف قال تقول قلبى فى غلاف فلايخلص إليه مما تقول شىء وقرأ (وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه) وهذا الذى رجحه ابن جرير واستشهد بما روى من حديث عمرو بن مرة الجملى عن أبى البخترى عن حذيفة قال «القلوب أربعة» فذكر منها « وقلب أغلف مغضوب عليه وذاك قلب الكافر » وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد ابن عبد الرحمن العرزمى أنبأنا أبى عن جدى عن قتادة عن الحسن فى قوله (قلوبنا غلف) قال لم تختن وهذا القول يرجع

معناه إلى ما تقدم من عدم طهارة قلوبهم وأنها بعيدة من الخير * قول آخر — قال الضحاك عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) قال يقولون قلوبنا غلف مملوءة لاتحتاج إلى علم محمد ولاغيره . وقال عطية العوفى عن ابن عباس (وقالوا قلوبنا غلف) أى أوعية للعلم وعلى هذا المعنى جاءت قراءة بعض الأنصار فيما حكاه ابن جرير وقالوا قلوبنا غلف بضم اللام نقلها الزمخشرى أى جمع غلاف أى أوعية بمعنى أنهم ادعوا أن قلوبهم مملوة بعلم لايحتاجون معه إلى علم آخر كما كانوا يفتون بعلم التوراة ولهذا قال تعالى (بل لعنهم الله بكفرهم فقليلا ما يؤمنون) أى ليس الأمر كما ادعوا بل قلوبهم ملعونة مطبوع عليها كما قال فى سورة النساء (وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلايؤمنون إلاقليلا) وقد اختلفوا فى معنى قوله (فقليلاما يؤمنون) وقوله (فلا يؤمنون إلا قليلا) فقال بعضهم فقليل من يؤمن منهم وقيل فقليل إيمانهم بمعنى أنهم يؤمنون بما جاءهم به موسى من أمر المعاد والثواب والعقاب ولكنه إيمان لاينفعهم لأنه مغمور بما كفروا به من الذى جاءهم به محمد ﷺ ، وقال بعضهم إنما كانوا غير مؤمنين بشىء وإنما قال فقليلاما يؤمنون وهم بالجميع كافرون كما تقول العرب قلما رأيت مثل هذا قط . تريد مارأيت مثل هذا قط وقال الكسائى تقول العرب من زنى بأرض قلما تنبت أى لاتنبت شيئاً حكاه ابن جرير رحمه الله والله أعلم

﴿ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾

يقول تعالى (ولما جاءهم يعنى اليهود كتاب من عند الله وهو القرآن الذى أنزل على محمد ﷺ) (مصدق لما معهم) يعنى من التوراة وقوله (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) أى وقد كانوا من قبل مجىء هذا الرسول بهذا الكتاب يستنصرون بمجيئه على أعدائهم من المشركين إذا قاتلوهم يقولون إنه سيبعث نبى فى آخر الزمان نقتلكم معه قتل عاد وإرم كما قال محمد بن إسحق عن عاصم بن عمرو عن قتادة الأنصارى عن أشياخ منهم قال فينا والله وفيهم يعنى فى الأنصار وفى اليهود الذين كانوا جيرانهم نزلت هذه القصة يعنى (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ماعرفوا كفروابه) قالوا كنا قد علونا هم قهراً دهراً فى الجاهلية ونحن أهل شرك وهم أهل كتاب وهم يقولون إن نبياً سيبعث الآن نتبعه قد أظل زمانه فنقتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما بعث الله رسوله من قريش واتبعناه كفروا به ، يقول الله تعالى (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وقال الضحاك عن ابن عباس فى قوله (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) قال يستنصرون يقولون نحن نعين محمداً عليهم وليسوا كذلك بل يكذبون ، وقال محمد بن إسحق أخبرنى محمد بن أبى محمد أخبرنى عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس أن يهود كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه فلما بعثه الله من العرب كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معرور وداود بن سلمة يامعشر يهود اتقوا الله وأسلموا فقد كنتم تستفتحون علينا بمحمد ﷺ ونحن أهل شرك وتخبروننا بأنه مبعوث وتصفونه بصفته فقال سلام بن مشكم أخو بنى النضير ماجاءنا بشىء نعرفه وماهو بالذى كنا نذكر لكم . فأنزل الله فى ذلك من قولهم (ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم) الآية وقال العوفى عن ابن عباس (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا) يقول يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركى العرب ، يعنى بذلك أهل الكتاب فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم كفروا به وحسدوه . وقال أبو العالية : كانت اليهود تستنصر بمحمد ﷺ على مشركى العرب يقولون اللهم ابعث هذا النبى الذى نجده مكتوبا عندنا حتى نعذب المشركين ونقتلهم . فلما بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم ورأوا أنه من غيرهم كفروا به حسداً للعرب وهم يعلمون أنه رسول الله ﷺ ؛ فقال الله تعالى (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) وقال قتادة (وكانوا من قبل يستفتحون على الذين

كفروا) قال وكانوا يقولون إنه سيأتى نبى . (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به) وقال مجاهد (فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين) قال هم اليهود

﴿ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَى مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُو بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾

قال مجاهد (بئسما اشتروا به أنفسهم) يهود شروا الحق بالباطل وكتمان ماجاء به محمد ﷺ بأن يبينوه وقال السدى (بئسما اشتروا به أنفسهم) يقول باعوابه أنفسهم يقول بئسما اعتاضوا لأنفسهم فرضوا به وعدلوا إليه من الكفر بما أنزل الله على محمد ﷺ عن تصديقه وموازرته ونصرته وإنما حملهم على ذلك البغى والحسد والكراهية لـ(أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) ولا حسد أعظم من هذا ، قال ابن إسحق عن محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس (بئسما اشتروا به أنفسهم أن يكفروا بما أنزل الله بغياً أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده) أى أن الله جعله من غيرهم (فباؤا بغضب على غضب) قال ابن عباس فى الغضب على الغضب فغضب عليهم فيما كانوا ضيعوا من التوراة وهى معهم وغضب بكفرهم بهذا النبى الذى بعث الله إليهم (قلت) ومعنى (باؤا) استوجبوا واستحقوا واستقروا بغضب على غضب ، وقال أبو العالية : غضب الله عليهم بكفرهم بالإنجيل وعيسى ثم غضب الله عليهم بكفرهم بمحمد ﷺ وبالقرآن ، وعن عكرمة وقتادة مثله قال السدى : أما الغضب الأول فهو حين غضب عليهم فى العجل وأماالغضب الثانى فغضب عليهم حين كفروا بمحمد ﷺ وعن ابن عباس مثله * وقوله تعالى (وللكافرين عذاب مهين) لما كان كفرهم سببه البغى والحسد ومنشأ ذلك التكبر قوبلوا بالإهانة والصغار فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (إن الذين يستكبرون عن عبادتى سيدخلون جهنم داخرين) أى صاغرين حقيرين ذليلين راغمين وقد قال الإمام أحمد حدثنا يحيى حدثنا ابن عجلان عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال « يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر فى صور الناس يعلوهم كل شىء من الصغار حتى يدخلوا سجناً فى جهنم يقال له بولس تعلوهم نار الأنيار يسقون من طينة الخبال عصارة أهل النار »

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴾

يقول تعالى (وإذا قيل لهم) أى لليهود وأمثالهم من أهل الكتاب (آمنوا بما أنزل الله) على محمد ﷺ وصدقوه واتبعوه (قالوا نؤمن بما أنزل علينا) أى يكفينا الإيمان بما أنزل علينا من التوراة والإنجيل ولا نقر إلا بذلك (ويكفرون بما وراءه) يعنى بما بعده (وهو الحق مصدقاً لما معهم) أى وهم يعلمون أن ما أنزل على محمد ﷺ (الحق مصدقاً لما معهم) منصوباً على الحال أى فى حال تصديقه لما معهم من التوراة والإنجيل ، فالحجة قائمة عليهم بذلك كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) ثم قال تعالى (فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) أى إن كنتم صادقين فى دعواكم الإيمان بما أنزل اليكم فلم قتلتم الأنبياء الذين جاءوكم بتصديق التوراة التى بأيديكم والحكم بها وعدم نسخها وأنتم تعلمون صدقهم ؟ قتلتموهم بغياً وعناداً واستكباراً على رسل الله فلستم تتبعون إلا مجرد الأهواء والآراء والتشهى كما قال تعالى (أفكلما جاءكم رسول بما لاتهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون) وقال السدى فى هذه الآية يعيرهم الله تبارك وتعالى (قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين) وقال أبوجعفر بن جرير قل يامحمد ليهود بنى إسرائيل إذا قلت لهم

آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا لم تقتلون - إن كنتم مؤمنين بما أنزل الله - أنبياء الله يامعشر اليهود وقد حرم الله فى الكتاب الذى أنزل عليكم قتلهم بل أمركم باتباعهم وطاعتهم وتصديقهم وذلك من الله تكذيب لهم فى قولهم نؤمن بما أنزل علينا وتعيير لهم (ولقد جاءكم موسى بالبينات) أى بالآيات الواضحات والدلائل القاطعات على أنه رسول الله وأنه لا إله إلا الله والآيات البينات هى الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم والعصا واليد وفرق البحر وتظليلهم بالغمام والمن والسلوى والحجر وغير ذلك من الآيات التى شاهدوها ثم اتخذتم العجل أى معبودا من دون الله فى زمان موسى وأيامه ، وقوله من بعده أى من بعد ماذهب عنكم إلى الطور لمناجاة الله عزوجل كما قال تعالى (واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلا جسداً له خوار) (وأنتم ظالمون) أى وأنتم ظالمون فى هذا الصنيع الذى صنعتموه من عبادتكم العجل وأنتم تعلمون أنه لا إله إلا الله كما قال تعالى (ولما سقط فى أيديهم ورأوا أنهم قد ضلوا قالوا لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين)

﴿ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا مَا ءَاتَيْنَٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يعدد سبحانه وتعالى عليهم خطأهم ومخالفتهم للميثاق وعتوهم وإعراضهم عنه حتى رفع الطور عليهم حتى قبلوه ثم خالفوه (ولهذا قالوا سمعنا وعصينا) وقد تقدم تفسير ذلك (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) قال عبد الرزاق عن قتادة (وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم) قال أشربوا حبه حتى خلص ذلك إلى قلوبهم وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقال الإمام أحمد حدثنا عصام بن خالد حدثنى أبو بكر بن عبد الله بن أبى مريم الغسانى عن خالد بن محمد الثقفى عن بلال بن أبى الدرداء عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ : قال « حبك الشىء يعمى ويصم » ورواه أبو داود عن حيوة بن شريح عن بقية عن أبى بكر بن عبد الله بن أبى مريم به ، وقال السدى أخذ موسى عليه السلام العجل فذبحه بالمبرد ثم ذراه فى البحر ثم لم يبق بحر يجرى يومئذ إلا وقع فيه شىء ثم قال لهم موسى اشربوا منه فشربوا فمن كان يحبه خرج على شاربيه الذهب فذلك حين يقول الله تعالى (وأشربوا فى قلوبهم العجل) وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبد الله بن رجاء حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عمارة بن عمير وأبى عبد الرحمن السلمى عن على رضى الله عنه قال عمد موسى إلى العجل فوضع عليه المبارد فبرده بها وهو على شاطىء نهر فما شرب أحد من ذلك الماء ممن كان يعبد العجل إلا اصفرّ وجهه مثل الذهب ، وقال سعيد بن جبير (وأشربوا فى قلوبهم العجل) قال لما أحرق العجل برد ثم نسف فحسوا الماء حتى عادت وجوههم كالزعفران ، وحكى القرطبى عن كتاب القشيرى أنه ماشرب أحد «منه» ممن عبد العجل إلا جنّ ثم قال القرطبى وهذا شىء غير ماههنا لأن المقصود من هذا السياق أنه ظهر على شفاههم ووجوههم والمذكور ههنا أنهم أشربوا فى قلوبهم العجل يعنى فى حال عبادتهم له ثم أنشد قول النابغة فى زوجته عثمة

تغلغل حب عثمة فى فؤادى * فباديه مع الخافى يسير * تغلغل حيث لم يبلغ شراب
ولا حزن ولم يبلغ سرور * أكاد إذا ذكرت العهد منها * أطير لو ان إنسانا يطير

وقوله (قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين) أى بئسما تعتمدونه فى قديم الدهر وحديثه من كفركم بآيات الله ومخالفتكم الأنبياء ثم اعتمادكم فى كفركم بمحمد ﷺ وهذا أكبر ذنوبكم وأشد الأمور عليكم إذ كفرتم بخاتم الرسل وسيد الأنبياء والمرسلين المبعوث إلى الناس أجمعين فكيف تدّعون لأنفسكم الإيمان وقد فعلتم هذه الأفاعيل القبيحة من نقضكم المواثيق وكفركم بآيات الله وعبادتكم العجل من دون الله

﴿ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْءَاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ * وَلَن

يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ * وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَوٰةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِ مِنَ الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴾

قال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنه يقول الله تعالى لنبيه محمد ﷺ (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين) أى ادعوا بالموت على أى الفريقين أكذب ، فأبوا ذلك على رسول الله ﷺ (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) أى يعلمهم بما عندهم من العلم بل والكفر بذلك ولو تمنوه يوم قال لهم ذلك مابقى على الأرض يهودى إلا مات . وقال الضحاك عن ابن عباس فتمنوا الموت ـ فسلوا الموت وقال عبد الرزاق عن معمر عن عبد الكريم الجزرى عن عكرمة قوله : فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . قال قال ابن عباس لو تمنى يهود الموت لماتوا . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا على بن محمد الطنافسى حدثنا عثام سمعت الأعمش قال لا أظنه إلا عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لو تمنوا الموت لشرق أحدهم بريقه ، وهذه أسانيد صحيحة إلى ابن عباس ، وقال ابن جرير فى تفسيره وبلغنا أن النبى ﷺ قال « لو أن اليهود تمنوا الموت لماتوا ولرأوا مقاعدهم من النار ولو خرج الذين يباهلون رسول الله ﷺ (لرجعوا لا يجدون أهلا ولا مالا » ، حدثنا بذلك أبو كريب حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عبد الكريم عن عكرمة عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ ورواه الإمام أحمد عن إسماعيل بن يزيد الرقى حدثنا فرات عن عبد الكريم به ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار حدثنا سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قال قول الله ما كانوا ليتمنوه بما قدمت أيديهم . قلت أرأيتك لو أنهم أحبوا الموت حين قيل لهم تمنوا الموت أتراهم كانوا ميتين قال : لا والله ما كانوا ليموتوا ولو تمنوا الموت وما كانوا ليتمنوه وقد قال الله ما سمعت (ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين) وهذا غريب عن الحسن ، ثم هذا الذى فسر به ابن عباس الآية هو المتعين وهو الدعاء على أى الفريقين أكذب منهم أو من المسلمين على وجه المباهلة ، ونقله ابن جرير عن قتادة وأبى العالية والربيع بن أنس رحمهم الله تعالى ، ونظير هذه الآية قوله تعالى فى سورة الجمعة (قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين * ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * قل إن الموت الذى تفرون منه فإنه ملاقيكم ثم تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون) فهم عليهم لعائن الله تعالى لما زعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى دعوا إلى المباهلة والدعاء على أكذب الطائفتين منهم أو من المسلمين فلما نكلوا عن ذلك علم كل أحد أنهم ظالمون لأنهم لو كانوا جازمين بما هم فيه لكانوا أقدموا على ذلك ، فلما تأخروا علم كذبهم وهذا كما دعا رسول الله ﷺ وفد نجران من النصارى بعد قيام الحجة عليهم فى المناظرة وعتوهم وعنادهم إلى المباهلة ، فقال تعالى (فمن حاجك فيه من بعد ماجاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين) فلما رأوا ذلك قال بعض القوم لبعض والله لئن باهلتم هذا النبى لا يبقى منكم عين تطرف ، فعند ذلك جنحوا للسلم وبذلوا الجزية عن يد وهم صاغرون فضربها عليهم وبعث معهم أبا عبيدة بن الجراح أميناً ، ومثل هذا المعنى أو قريب منه قول الله تعالى لنبيه أن يقول للمشركين (قل من كان فى الضلالة فليمدد له الرحمن مدا) أى من كان فى الضلالة منا ومنكم فزاده الله مما هو فيه ومد له واستدرجه كما سيأتى تقريره فى موضعه إن شاء الله تعالى

وأما من فسر الآية على معنى (إن كنتم صادقين) أى فى دعواكم فتمنوا الآن الموت ولم يتعرض هؤلاء للمباهلة كما قرره طائفة من المتكلمين وغيرهم ، ومال إليه ابن جرير بعد ما قارب القول الأول ؟ فإنه قال القول فى تأويل قوله

تعالى (قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس) الآية فهذه الآية مما احتج الله سبحانه لنبيه ﷺ على اليهود الذين كانوا بين ظهرانى مهاجره وفضح بها أحبارهم وعلماءهم وذلك أن الله تعالى أمر نبيه صلى الله عليه وسلم إلى قضية[1] عادلة فيما كان بينه وبينهم من الخلاف كما أمره أن يدعو الفريق الآخر من النصارى إذ خالفوه فى عيسى بن مريم عليه السلام وجادلوه فيه إلى فاصلة بينه وبينهم من المباهلة ، فقال لفريق اليهود إن كنتم محقين فتمنوا الموت فان ذلك غير ضاركم إن كنتم محقين فيما تدعون من الإيمان وقرب المنزلة من الله لكم لكى يعطيكم[2] أمنيتكم من الموت إذا تمنيتم فانما تصيرون إلى الراحة من تعب الدنيا ونصبها وكدر عيشها والفوز بجوار الله فى جناته إن كان الأمر كما تزعمون من أن الدار الآخرة لكم خاصة دوننا وإن لم تعطوها علم الناس أنكم المبطلون ونحن المحقون فى دعوانا وانكشف أمرنا وأمركم لهم فامتنعت اليهود من الإجابة إلى ذلك لعلمها ، أنها إن تمنت الموت هلكت فذهبت دنياها وصارت إلى خزى الأبد فى آخرتها كما امتنع فريق النصارى (الذين جادلوا النبى ﷺ فى عيسى إذ دعوا للمباهلة من المباهلة) .

فهذا الكلام منه أوله حسن وآخره فيه نظر ، وذلك أنه لا تظهر الحجة عليهم على هذا التأويل إذ يقال إنه لا يلزم من كونهم يعتقدون أنهم صادقون فى دعواهم أنهم يتمنون الموت فإنه لا ملازمة بين وجود الصلاح وتمنى الموت وكم من صالح لا يتمنى الموت بل يود أن يعمر ليزداد خيراً وترتفع درجته فى الجنة كما جاء فى الحديث « خيركم من طال عمره وحسن عمله » ولهم مع ذلك أن يقولوا على هذا فها أنتم تعتقدون أيها المسلمون أنكم أصحاب الجنة وأنتم لا تتمنون فى حال الصحة الموت ، فكيف تلزموننا بما لا يلزمكم ؟ وهذا كله إنما نشأ من تفسير الآية على هذا المعنى ، فأما على تفسير ابن عباس فلا يلزم عليه شىء من ذلك بل قيل لهم كلام نصف إن كنتم تعتقدون أنكم أولياء الله من دون الناس وأنكم أبناء الله وأحباؤه وأنكم من أهل الجنة ومن عداكم من أهل النار فباهلوا على ذلك وادعوا على الكاذبين منكم أو من غيركم ، واعلموا أن المباهلة تستأصل الكاذب لامحالة ، فلما تيقنوا ذلك وعرفوا صدقه نكلوا عن المباهلة لما يعلمون من كذبهم وافترائهم وكتمانهم الحق من صفة الرسول ﷺ ونعته وهم يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ويتحققونه ، فعلم كل أحد باطلهم وخزيهم وضلالهم وعنادهم عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة وسميت هذه المباهلة تمنياً لأن كل محق يود لو أهلك الله المبطل المناظر له ولا سيما إذا كان فى ذلك حجة له فى بيان حقه وظهوره وكانت المباهلة بالموت لأن الحياة عندهم عزيزة عظيمة لما يعلمون من سوء مآلهم بعد الموت ، ولهذا قال تعالى (ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين * ولتجدنهم أحرص الناس على حياة) أى على طول العمر لما يعلمون من مآلهم السىء وعاقبتهم عند الله الخاسرة لأن الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر فهم يودون لو تأخروا عن مقام الآخرة بكل ما أمكنهم وما يحاذرون منه واقع بهم لا محالة حتى وهم أحرص من المشركين الذين لا كتاب لهم وهذا من باب عطف الخاص على العام قال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ومن الذين أشركوا) قال الأعاجم ، وكذا رواه الحاكم فى مستدركه من حديث الثورى وقال صحيح على شرطهما ولم يخرجاه . قال وقد اتفقا على سند تفسير الصحابى ، وقال الحسن البصرى ولتجدنهم أحرص الناس على حياة . قال المنافق أحرص الناس وأحرص من المشرك على حياة يود أحدهم أى يود أحد اليهود كما يدل عليه نظم السياق ، وقال أبو العالية يود أحدهم أى أحد المجوس وهو يرجع إلى الأول لو يعمر ألف سنة قال الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال هو كقول الفارسى « ده هزارسال » يقول عشرة آلاف سنة . وكذا روى عن سعيد بن جبير نفسه أيضاً ، وقال ابن جرير حدثنا محمد بن على بن الحسن بن شقيق سمعت أبى يقول حدثنا أبو حمزة عن الأعمش عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال هو قول الأعاجم هزارسال نوروز ومهرجان[3] وقال مجاهد (يود أحدهم لو يعمر ألف سنة) قال : حببت إليهم الخطيئة طول العمر وقال مجاهد بن إسحاق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس

(١) هكذا بالأصل وفى تفسير الطبرى أن يدعوهم وما بين القوسين آخر العبارة لم يوجد بالأصل وصحح من الطبرى اهـ

(٢) عبارة ابن جرير فى تفسيره بل إن أعطيتم اهـ (٣) نص تفسير ابن جرير سال زه نوروز مهرجان حر اهـ

(وما هو بمزحزه من العذاب أن يعمر) أى وما هو بمنجيه من العذاب ، وذلك أن الشرك لا يرجو بعثاً بعد الموت فهو يحب طول الحياة وأن اليهودى قد عرف ماله فى الآخرة من الخزى بماضيع ماعنده من العلم وقال العوفى عن ابن عباس (وما هو بمزحزه من العذاب أن يعمر) قال هم الذين عادوا جبرائيل ، قال أبو العالية وابن عمر ثما ذاك بمغيثه من العذاب ولا منجيه منه . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم فى هذه الآية يهود أحرص على الحياة من هؤلاء وقد ود هؤلاء لو يعمر أحدهم ألف سنة وليس ذلك بمزحزه من العذاب لو عمر كما عمر إبليس لم ينفعه إذ كان كافراً ، (والله بصير بما يعملون) أى خبير بصير بما يعمل عباده من خير وشر وسيجازى كل عامل بعمله

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ * مَن كَانَ عَدُوًّا لِّلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِّلْكَافِرِينَ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير الطبرى رحمه الله أجمع أهل العلم بالتأويل جميعاً أن هذه الآية نزلت جوابا لليهود من بنى اسرائيل إذ زعموا أن جبريل عدو لهم وأن ميكائيل ولى لهم ثم اختلفوا فى السبب الذى من أجله قالوا ذلك فقال بعضهم إنما كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أمر نبوته ﴿ ذكر من قال ذلك ﴾ حدثنا أبو كريب حدثنا يونس بن بكير عن عبد الحميد بن بهرام عن شهر بن حوشب عن ابن عباس أنه قال حضرت عصابة من اليهود رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا يا أبا القاسم حدثنا عن خلال نسألك عنهن لا يعلمهن إلا نبى فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سلوا عما شئتم ولكن اجعلوا لى ذمة وما أخذ يعقوب على بنيه لئن أنا حدثتكم عن شىء فعرفتموه لتتابعننى على الإسلام » فقالوا ذلك لك فقال رسول الله ﷺ « سلوا عما شئتم » قالوا أخبرنا عن أربع خلال نسألك عنهن ، أخبرنا أى الطعام حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ؟ وأخبرنا كيف ماء المرأة وماء الرجل وكيف يكون الذكر منه والأنثى ؟ وأخبرنا بهذا النبى الأمى فى التوراة ومن وليه من الملائكة ؟ فقال النبى ﷺ « عليكم عهد الله لئن أنا أنبأتكم لتتابعننى ؟ » فأعطوه ماشاء الله من عهد وميثاق فقال « نشدتكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن إسرائيل يعقوب مرض مرضاً شديداً فطال سقمه منه فنذر لله نذراً لئن عافاه الله من مرضه ليحرمن أحب الطعام والشراب اليه وكان أحب الطعام اليه لحوم الإبل وأحب الشراب اليه ألبانها » فقالوا اللهم نعم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اشهد عليهم[1] ، وأنشدكم بالله الذى لا إله إلا هو الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن ماء الرجل غليظ أبيض وأن ماء المرأة رقيق أصفر فأيهما علا كان له الولد والشبه بإذن الله عز وجل وإذا علا ماء الرجل ماء المرأة كان الولد ذكراً بإذن الله وإذا علا ماء المرأة ماء الرجل كان الولد أنثى بإذن الله عز وجل » قالوا اللهم نعم « قال اللهم اشهد ، وأنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى هل تعلمون أن هذا النبى الأمى تنام عيناه ولا ينام قلبه » قالوا اللهم نعم قال « اللهم اشهد » قالوا أنت الآن فحدثنا من وليك من الملائكة فعندها نجامعك أو نفارقك قال « فإن ولي جبريل ولم يبعث الله نبيا قط إلا وهو وليه » قالوا فعندها نفارقك ولو كان وليك سواه من الملائكة تابعناك وصدقناك قال « فما يمنعكم أن تصدقوه » ؟ قالوا إنه عدونا فأنزل الله عز وجل (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقاً لما بين يديه — الى قوله — لو كانوا يعلمون) فعندها باؤا بغضب على غضب وقد رواه الإمام أحمد فى مسنده عن أبى النضر هاشم بن القاسم وعبد الرحمن بن حميد فى تفسيره عن أحمد بن يونس كلاهما عن عبد الحميد بن بهرام به ، ورواه أحمد أيضا عن الحسين بن محمد المروزى عن عبد الحميد بنحوه وقد رواه محمد بن إسحق بن يسار ، حدثنا عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى حسين عن شهر بن حوشب فذكره مرسلا وزاد فيه قالوا فأخبرنا عن الروح قال « فأنشدكم بالله وبأيامه عند بنى إسرائيل هل تعلمون أنه جبريل وهو الذى يأتينى » قالوا اللهم نعم ولكنه عدو لنا وهو ملك إنما يأتى بالشدة وسفك الدماء فلولا

(١) عبارة تفسير ابن جرير « أشهد الله عليكم » إلخ

ذلك اتبعناك فأنزل الله تعالى فيهم (قل من كان عدواً لجبريل — إلى قوله — لا يعلمون) وقال الإمام أحمد حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد الله بن الوليد العجلى عن بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال أقبلت يهود على رسول الله ﷺ فقالوا يا أبا القاسم أخبرنا عن خمسة أشياء فان أنبأتنا بهن عرفنا أنك نبي واتبعناك فأخذ عليهم ما أخذ إسرائيل على بنيه اذ قال والله على ما نقول وكيل قال «هاتوا» قالوا فأخبرنا عن علامة النبي؟ قال «تنام عيناه ولا ينام قلبه» قالوا أخبرنا كيف تؤنث المرأة وكيف تذكر قال «يلتقى الماءان فاذا علا ماء الرجل ماء المرأة أذكرت واذا علا ماء المرأة ماء الرجل أنثت» قالوا أخبرنا ما حرم اسرائيل على نفسه قال «كان يشتكى عرق النساء فلم يجد شيئاً يلائمه الا ألبان كذا» قال أحمد قال بعضهم يعنى الإبل فحرم لحومها قالوا صدقت قالوا أخبرنا ما هذا الرعد قال «ملك من ملائكة الله عز وجل موكل بالسحاب بيديه أو فى يديه مخراق من نار يزجر به السحاب يسوقه حيث أمره الله تعالى» قالوا فما هذا الصوت الذى نسمع؟ قال «صوته» قالوا صدقت قالوا انما بقيت واحدة وهى التى تتابعك ان أخبرتنا بها انه ليس من نبي الا وله ملك يأتيه بالخبر فأخبرنا من صاحبك؟ قال «جبريل عليه السلام» قالوا جبريل ذاك الذى ينزل بالحرب والقتال والعذاب عدونا لو قلت ميكائيل الذى ينزل بالرحمة والقطر والنبات لكان فأنزل الله تعالى (قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) الى آخر الآية، ورواه الترمذى والنسائى من حديث عبد الله بن الوليد به، وقال الترمذى حسن غريب. وقال سنيد فى تفسيره عن حجاج بن محمد عن ابن جريج أخبرنى القاسم بن أبى بزة أن يهود سألوا النبى ﷺ عن صاحبه الذى ينزل عليه بالوحى قال «جبرائيل» قالوا فإنه عدو لنا ولا يأتى إلا بالحرب والشدة والقتال فنزلت (قل من كان عدواً لجبريل) الآية قال ابن جرير قال مجاهد قالت يهود يا محمد ما نزل جبريل الا بشدة وحرب وقتال فانه لنا عدو فنزل (قل من كان عدواً لجبريل) الآية قال البخارى قوله تعالى (من كان عدواً لجبريل) قال عكرمة جبر وميك واسراف: عبد إيل: الله: حدثنا عبد الله بن منير سمع عبد الله بن بكر حدثنا حميد عن أنس بن مالك، قال سمع عبد الله بن سلام بمقدم رسول الله ﷺ وهو فى أرض يخترف فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن الا نبي: ما أول أشراط الساعة وما أول طعام أهل الجنة وما ينزع الولد الى أبيه أو الى أمه، قال «أخبرنى بهذه جبرائيل آنفا» قال جبريل؟ قال «نعم» قال ذاك عدو اليهود من الملائكة فقرأ هذه الآية (من كان عدواً لجبريل فانه نزله على قلبك) «وأما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق الى المغرب. وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت؛ واذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع الولد واذا سبق ماء المرأة نزعت» قال: أشهد أن لا اله الا الله وأنك رسول الله. يا رسول الله إن اليهود قوم بهت وانهم ان يعلموا باسلامى قبل أن تسألهم يبهتونى، فجاءت اليهود فقال لهم رسول الله ﷺ «أى رجل عبد الله بن سلام فيكم؟» قالوا خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا قال «أرأيتم إن أسلم» قالوا أعاذه الله من ذلك فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا اله الا الله وأشهد أن محمدا رسول الله. فقالوا هو شرنا وابن شرنا وانتقصوه فقال هذا الذى كنت أخاف يا رسول الله — انفرد به البخارى من هذا الوجه وقد أخرجاه من وجه آخر عن أنس بنحوه وفى صحيح مسلم عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قريب من هذا السياق كما سيأتى فى موضعه ان شاء الله تعالى وحكاية البخارى كما تقدم عن عكرمة هو المشهور أن إيل هو الله وقد رواه سفيان الثورى عن خصيف عن عكرمة ورواه عبد بن حميد عن ابراهيم ابن الحكم عن أبيه عن عكرمة، ورواه ابن جرير عن الحسين بن يزيد الطحان عن اسحق بن منصور عن قيس ابن عاصم عن عكرمة انه قال ان جبريل اسمه عبد الله وميكائيل اسمه عبد الله. إيل الله ورواه يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس مثله سواء وكذا قال غير واحد من السلف كما سيأتى قريبا ومن الناس من يقول إيل عبارة عن عبد والكلمة الأخرى هى اسم الله لأن كلمة إيل لا تتغير فى الجميع فوزانه عبد الله عبد الرحمن عبد الملك عبد القدوس عبد السلام عبد الكافى عبد الجليل فعبد موجودة فى هذا كله واختلفت الأسماء المضاف اليها وكذلك جبرائيل وميكائيل وعزرائيل واسرافيل ونحو ذلك وفى كلام غير العرب يقدمون المضاف اليه على المضاف والله أعلم

ثم قال ابن جرير وقال آخرون بل كان سبب قيلهم ذلك من أجل مناظرة جرت بينهم وبين عمر بن الخطاب فى أمر النبى ﷺ ﴿ ذكر من قال ذلك ﴾ حدثنى محمد بن المثنى حدثنى ربعى بن علية عن داود بن أبى هند عن الشعبى ، قال نزل عمر الروحاء فرأى رجالا يبتدرون أحجاراً يصلون إليها فقال ما بال هؤلاء ؟ قالوا يزعمون أن رسول الله ﷺ صلى ههنا ، قال فكفر ذلك ، وقال أيما رسول الله صلى الله عليه وسلم أدركته الصلاة بواد صلاها ثم ارتحل فتركه ثم أنشأ يحدثهم فقال كنت أشهد اليهود يوم مدراسهم فأعجب من التوراة كيف تصدق القرآن ومن القرآن كيف يصدق التوراة فبينا أنا عندهم ذات يوم قالوا : يا ابن الخطاب ما من أصحابك أحد أحب إلينا منك (قلت) ولم ذلك قالوا لأنك تغشانا وتأتينا فقلت إنى آتيكم فأعجب من القرآن كيف يصدق التوراة ومن التوراة كيف تصدق القرآن ، قالوا ومر رسول الله ﷺ فقالوا يا ابن الخطاب ذاك صاحبكم فالحق به قال فقلت لهم عند ذلك نشدتكم بالله الذى لا إله إلا هو وما استرعاكم من حقه وما استودعكم من كتابه هل تعلمون أنه رسول الله ؟ قال فسكتوا فقال لهم عالمهم وكبيرهم إنه قد غلظ عليكم فأجيبوه قالوا فأنت علمنا وكبيرنا فأجبه أنت قال أما إذا نشدتنا بما نشدتنا فانا نعلم أنه رسول الله قلت ويحكم إذا هلكتم ، قالوا إنا لم نهلك ، قلت كيف ذلك وأنتم تعلمون أنه رسول الله ولا تتبعونه ولا تصدقونه ، قالوا إن لنا عدوا من الملائكة وسلما من الملائكة وإنه قرن بنبوته عدونا من الملائكة قلت ومن عدوكم ومن سلمكم ؟ قالوا عدونا جبريل وسلمنا ميكائيل قالوا إن جبرائيل ملك الفظاظه والغلظة والإعسار والتشديد والعذاب ونحو هذا ، وإن ميكائيل ملك الرحمة والرأفة والتخفيف ونحو هذا ، قال قلت وما منزلتهما من ربهما عز وجل ؟ قالوا أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، قال فقلت فوالذى لا إله إلا هو إنهما والذى بينهما لعدو لمن عاداهما وسلم لمن سالمهما وما ينبغى لجبرائيل أن يسالم عدو ميكائيل وما ينبغى لميكائيل أن يسالم عدو جبرائيل قال ثم قمت فاتبعت النبى صلى الله عليه وسلم فلحقته وهو خارج من خوخة لبنى فلان فقال «يا ابن الخطاب ألا أقرئك آيات نزلن قبل» فقرأ علىّ (من كان عدوا لجبرائيل فانه نزله على قلبك بإذن الله حتى قرأ الآيات : قال قلت بأبى وأمى أنت يا رسول الله والذى بعثك بالحق لقد جئت أنا أريد أن أخبرك وأنا أسمع اللطيف الخبير قد سبقنى إليك بالخبر ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج : حدثنا أبو أسامة عن مجالد أنبأنا عامر قال انطلق عمر بن الخطاب إلى اليهود فقال أنشدكم بالذى أنزل التوراة على موسى هل تجدون محمداً فى كتبكم قالوا نعم ، قال فما يمنعكم أن تتبعوه قالوا إن الله لم يبعث رسولا إلا جعل له من الملائكة كفلا وإن جبرائيل كفل محمدا وهو الذى يأتيه وهو عدونا من الملائكة وميكائيل سلمنا لو كان ميكائيل الذى يأتيه أسلمنا ، قال فإنى أنشدكم بالله الذى أنزل التوراة على موسى ما منزلتهما عند الله تعالى قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن شماله . قال عمر وإنى أشهد ما ينزلان إلا بإذن الله وما كان ميكائيل ليسالم عدو جبرائيل وما كان جبرائيل ليسالم عدو ميكائيل فبينا هو عندهم إذ مر النبى صلى الله عليه وسلم فقالوا هذا صاحبك يا ابن الخطاب فقام إليه عمر فأتاه وقد أنزل الله عز وجل (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) وهذان الإسنادان يدلان على أن الشعبى حدث به عن عمر ولكن فيه انقطاع بينه وبين عمر فإنه لم يدرك زمانه والله أعلم : وقال ابن جرير حدثنا بشير حدثنا يزيد بن زريع عن سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن عمر بن الخطاب انطلق ذات يوم إلى اليهود فلما انصرف رحبوا به فقال لهم عمر أما والله ما جئتكم لحبكم ولا لرغبة فيكم ولكن جئت لأسمع منكم فسألهم وسألوه ، فقالوا من صاحب صاحبكم ؟ فقال لهم جبرائيل فقالوا ذاك عدونا من أهل السماء يطلع محمدا على سرنا وإذا جاء جاء بالحرب والسنة ولكن صاحب صاحبنا ميكائيل وكان إذا جاء جاء بالخصب والسلم ، فقال لهم عمر هل تعرفون جبرائيل وتنكرون محمداً ﷺ ففارقهم عمر عند ذلك وتوجه نحو النبى ﷺ ليحدثه حديثهم فوجده قد أنزلت عليه هذه الآية (قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله) الآيات .

ثم قال حدثنى المثنى حدثنا آدم حدثنا أبو جعفر حدثنا قتادة . قال بلغنا أن عمر أقبل إلى اليهود يوماً فذكر نحوه

وهذا فى تفسير آدم وهو أيضاً منقطع وكذلك رواه أسباط عن السدى عن عمر مثل هذا أو نحوه وهو منقطع أيضاً وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عمار حدثنا عبد الرحمن يعنى الدستى حدثنا أبو جعفر عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبى ليلى أن يهوديا لقى عمر بن الخطاب فقال إن جبرائيل الذى يذكر صاحبكم عدو لنا فقال عمر (من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) قال فنزلت على لسان عمر رضى الله عنه ، ورواه عبد بن حميد عن أبى النضر هاشم بن القاسم عن أبى جعفر هو الرازى : وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن ابراهيم حدثنى هشيم أخبرنا حصين بن عبد الرحمن عن ابن أبى ليلى فى قوله تعالى (من كان عدوا لجبريل) قال قالت اليهود للمسلمين لو أن ميكائيل كان هو الذى ينزل عليكم اتبعناكم فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، وإن جبرائيل ينزل بالعذاب والنقمة فإنه عدو لنا ، قال فنزلت هذه الآية حدثنا يعقوب أخبرنا هشيم أخبرنا عبد الملك عن عطاء بنحوه ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (قل من كان عدوا لجبريل) قال قالت اليهود إن جبرائيل عدو لنا لأنه ينزل بالشدة والسنة وإن ميكائيل ينزل بالرخاء والعافية والخصب فجبرائيل عدو لنا . فقال الله تعالى (من كان عدوا لجبريل) الآية.

وأما تفسير الآية فقوله تعالى (قل من كان عدواً لجبريل) فإنه نزله على قبلك بإذن الله ، أى من عادى جبرائيل فليعلم أنه الروح الأمين الذى نزل بالذكر الحكيم على قلبك من الله بإذنه له فى ذلك فهو رسول من رسل الله ملكى ، ومن عادى رسولا فقد عادى جميع الرسل كما أن من آمن برسول فإنه يلزمه الإيمان بجميع الرسل وكما أن من كفر برسول فإنه يلزمه الكفر بجميع الرسل كما قال تعالى (إن الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض) الآيتين فحكم عليهم بالكفر المحقق إذا آمنوا ببعض الرسل وكفروا ببعضهم ، وكذلك من عادى جبرائيل فإنه عدو لله لأن جبرائيل لا ينزل بالأمر من تلقاء نفسه وإنما ينزل بأمر ربه كما قال (وما نتنزل إلا بأمر ربك) الآية وقال تعالى (وإنه لتنزيل رب العالمين * نزل به الروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين) وقد روى البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «من عادى لى وليا فقد بارزنى بالحرب » ولهذا غضب الله لجبرائيل على من عاداه ، فقال تعالى (من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قبلك بإذن الله مصدقا لما بين يديه) أى من الكتب المتقدمة (وهدى وبشرى للمؤمنين) أى هدى لقلوبهم وبشرى لهم بالجنة وليس ذلك إلا للمؤمنين كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء) الآية وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين) الآية ثم قال تعالى (من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فان الله عدو للكافرين) يقول تعالى من عادانى وملائكتى ورسلى .. ورسله تشمل رسله من الملائكة والبشر كما قال تعالى (الله يصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس) . (وجبريل وميكال) وهذا من باب عطف الخاص على العام فإنهما دخلا فى الملائكة فى عموم الرسل ثم خصصا بالذكر لأن السياق فى الانتصار لجبرائيل وهو السفير بين الله وأنبيائه وقرن معه ميكائيل فى اللفظ لأن اليهود زعموا أن جبرائيل عدوهم وميكائيل وليهم فأعلمهم الله تعالى أن من عادى واحداً منهما فقد عادى الآخر وعادى الله أيضاً ولأنه أيضاً ينزل على أنبياء الله بعض الأحيان كما قرن برسول الله ﷺ فى ابتداء الأمر ولكن جبرائيل أكثر وهى وظيفته وميكائيل موكل بالنبات والقطر هذاك بالهدى وهذا بالرزق كما أن إسرافيل موكل بالنفخ فى الصور للبعث يوم القيامة ولهذا جاء فى الصحيح أن رسول الله ﷺ كان إذا قام من الليل يقول «اللهم رب جبرائيل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ، اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم» وقد تقدم ما حكاه البخارى ورواه ابن جرير عن عكرمة وغيره أنه قال جبر، وميك، وإسراف : عبيد، وإيل: الله وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن الأعمش عن إسماعيل بن أبى رجاء عن عمير مولى ابن عباس عن ابن عباس قال : إنما كان قوله جبرائيل كقوله عبد الله وعبد الرحمن ، وقيل جبر: عبد، وإيل: الله. وقال محمد بن إسحق عن الزهرى عن على بن الحسين قال : أتدرون ما اسم جبرائيل من أسمائكم قلنا لا ، قال : اسمه عبد الله وكل اسم مرجعه إلى إيل فهو إلى الله عز

وجل . قال ابن أبى حاتم وروى عن عكرمة ومجاهد والضحاك ويحيى بن يعمر نحو ذلك . ثم قال حدثنى أبى حدثنا أحمد بن أبى الحوارى حدثنى عبد العزيز بن عمير قال : اسم جبرائيل فى الملائكة خادم الله قال : فحدثت به أبا سليمان الدارانى فانتفض ، وقال : لهذا الحديث أحب إلى من كل شىء فى دفتر كان بين يديه . وفى جبرائيل وميكال لغات وقراآت تذكر فى كتب اللغة والقراآت ولم نطول كتابنا هذا بسرد ذلك إلا أن يدور فهم المعنى عليه ، أو يرجع الحكم فى ذلك إليه وبالله الثقة وهو المستعان ، وقوله تعالى (فإن الله عدو للكافرين) فيه إيقاع المظهر مكان المضمر حيث لم يقل فإنه عدو بل قال : (فإن الله عدو للكافرين) كما قال الشاعر :

لا أرى الموت يسبق الموت شىء * سبق الموت ذا الغنى والفقيرا

وقال الآخر : ليت الغراب غداة ينعب دائبا * كان الغراب مقطع الأوداج

وإنما أظهر الله هذا الاسم ههنا لتقرير هذا المعنى واظهاره وإعلامهم أن من عادى وليا لله فقد عادى الله ومن عادى الله فإن الله عدو له ومن كان الله عدوه فقد خسر الدنيا والآخرة كما تقدم الحديث « من عادى لى وليا فقد آذنته بالمحاربة » وفى الحديث الآخر « إنى لأثأر لأوليائى كما يثأر الليث الحرب » وفى الحديث الصحيح « من كنت خصمه خصمته »

﴿ وَلَقَدْ أَنزَلْنَا إِلَيْكَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَآ إِلَّا ٱلْفَٰسِقُونَ * أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ * وَلَمَّا جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ كَأَنَّهُمْ لَا يَعْلَمُونَ * وَٱتَّبَعُوا۟ مَا تَتْلُوا۟ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُوا۟ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا۟ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا۟ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ * وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴾

قال الإمام أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) الآية أى أنزلنا إليك يا محمد علامات واضحات دالات على نبوتك وتلك الآيات هى ماحواه كتاب الله من خفا يا علوم اليهود ومكنونات سرائر أخبارهم وأخبار أوائلهم من بنى إسرائيل والنبأ عما تضمنته كتبهم التى لم يكن يعلمها إلا أحبارهم وعلماؤهم وماحرفه أوائلهم وأواخرهم وبدلوه من أحكامهم التى كانت فى التوراة فأطلع الله فى كتابه الذى أنزله على نبيه محمد ﷺ ، فكان فى ذلك من أمره الآيات البينات لمن أنصف من نفسه ولم يدعها إلى هلاكها الحسد والبغى إذ كان فى فطرة كل ذى فطرة صحيحة تصديق من أتى بمثل ماجاء به محمد ﷺ من الآيات البينات التى وصف من غير تعلم تعلمه من بشر ولا أخذ شيئاً منه عن آدمى ، كما قال الضحاك عن ابن عباس (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات) يقول فأنت تتلوه عليهم وتخبرهم به غدوة وعشية وبين ذلك وأنت عندهم أمى لم تقرأ كتاباً وأنت تخبرهم بما فى أيديهم على وجهه ، يقول الله تعالى لهم فى ذلك عبرة وبيان وعليهم حجة لو كانوا يعلمون . وقال محمد بن إسحق : حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال : قال ابن صوريا القطوينى لرسول الله ﷺ يا محمد ماجئتنا بشىء نعرفه وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك فأنزل الله فى ذلك من قوله (ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون) وقال مالك بن الصيف حين بعث رسول الله ﷺ وذكرهم ما أخذ عليهم من الميثاق وما

عهد إليهم فى محمد ﷺ : والله ماعهد إلينا فى محمد وما أخذ علينا ميثاقا . فأنزل الله تعالى (أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم) وقال الحسن البصرى : فى قوله (بل أكثرهم لا يؤمنون) قال نعم ليس فى الأرض عهد يعاهدون عليه إلا نقضوه ونبذوه يعاهدون اليوم وينقضون غداً . وقال السدى : لايؤمنون بما جاء به محمد ﷺ وقال قتادة . نبذه فريق منهم ، أى نقضه فريق منهم . وقال ابن جرير أصل النبذ الطرح والإلقاء ومنه سمى اللقيط منبوذاً ومنه سمى النبيذ وهو التمر والزبيب إذا طرحا فى الماء . قال أبو الأسود الدؤلى :

نظرت إلى عنوانه فنبذته * كنبذك نعلا أخلقت من نعالكا

قلت فالقوم ذمهم الله بنبذهم العهود التى تقدم الله إليهم فى التمسك بها والقيام بحقها ولهذا أعقبهم ذلك التكذيب بالرسول المبعوث إليهم وإلى الناس كافة الذى فى كتبهم نعته وصفته وأخباره وقد أمروا فيها باتباعه وموازرته ونصرته كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل) الآية وقال ههنا (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) الآية أى طرح طائفة منهم كتاب الله الذى بأيديهم مما فيه البشارة بمحمد ﷺ وراء ظهورهم ، أى تركوها كأنهم لا يعلمون ما فيها وأقبلوا على تعلم السحر واتباعه ولهذا أرادوا كيداً برسول الله ﷺ وسحروه فى مشط ومشاقة وجف طلعة ذكر تحت راعوفة بئر أروان وكان الذى تولى ذلك منهم رجل يقال له لبيد بن الأعصم لعنه الله وقبحه فأطلع الله على ذلك رسوله ﷺ وشفاه منه وأنقذه كما ثبت ذلك مبسوطاً فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها كما سيأتى بيانه . قال السدى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) قال : لما جاءهم محمد ﷺ عارضوه بالتوراة فخاصموه بها فاتفقت التوراة والقرآن فنبذوا التوراة وأخذوا بكتاب آصف وسحر هاروت وماروت فلم يوافق القرآن فذلك قوله (كأنهم لا يعلمون) وقال قتادة فى قوله (كأنهم لايعلمون) قال : إن القوم كانو يعلمون ولكنهم نبذوا علمهم وكتموه وجحدوا به وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين) الآية وكان حين ذهب ملك سليمان ارتد فئام من الجن والإنس واتبعوا الشهوات ، فلما أرجع الله إلى سليمان ملكه وقام الناس على الدين كما كان وان سليمان ظهر على كتبهم فدفنها تحت كرسيه وتوفى سليمان عليه السلام حدثان ذلك فظهر الإنس والجن على الكتب بعد وفاة سليمان وقالوا هذا كتاب من الله نزل على سليمان فأخفاه عنا فأخذوا به فجعلوه ديناً فأنزل الله تعالى (ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم) الآية واتبعوا الشهوات التى كانت تتلو الشياطين وهى المعازف واللعب وكل شى يصد عن ذكر الله . وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو أسامة عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان آصف كاتب سليمان وكان يعلم الاسم الأعظم وكان يكتب كل شىء بأمر سليمان ويدفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان أخرجته الشياطين فكتبوا بين كل سطرين سحراً وكفراً وقالوا هذا الذى كان سليمان يعمل بها قال : فأكفره جهال الناس وسبوه ووقف علماء الناس فلم يزل جهال الناس يسبونه حتى أنزل الله على محمد ﷺ (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال ابن جرير : حدثنى أبو السائب سلمة بن جنادة السوائى حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن المنهال عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كان سليمان عليه السلام إذا أراد أن يدخل الخلاء أو يأتى شيئاً من نسائه أعطى الجرادة وهى امرأة خاتمه ، فلما أراد الله أن يبتلى سليمان عليه السلام بالذى ابتلاه به أعطى الجرادة ذات يوم خاتمه فجاء الشيطان فى صورة سليمان فقال هاتى خاتمى فأخذه ولبسه فلما لبسه دانت له الشياطين والجن والإنس . قال فجاءها سليمان فقال لها هاتى خاتمى فقالت كذبت لست سليمان ، قال فعرف سليمان أنه بلاء ابتلى به . قال فانطلقت الشياطين فكتبت فى تلك الأيام كتباً فيها سحر وكفر فدفنوها تحت كرسى سليمان ثم أخرجوها وقرءوها على الناس وقالوا إنما كان سليمان يغلب الناس بهذه الكتب ، قال فبرىء الناس من سليمان وكفروه حتى بعث الله محمداً ﷺ فأنزل عليه (وما كفر

سليمان ولكن الشياطين كفروا) ثم قال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن حصين بن عبد الرحمن عن عمران وهو الحارث قال : بينما نحن عند ابن عباس رضى الله عنهما إذ جاء رجل فقال له من أين جئت ، قال من العراق قال من أيه ؟ قال من الكوفة قال فما الخبر ؟ قال تركتهم يتحدثون أن عليا خارج اليهم ففزع ثم قال ما تقول لا أبالك ؟ لو شعرنا ما نكحنا نساءه ولا قسمنا ميراثه ، أما إني سأحدثكم عن ذلك ، إنه كانت الشياطين يسترقون السمع من السماء فيجيء أحدهم بكلمة حق قد سمعها فاذا جرت منه وصدق كذب معها سبعين كذبة قال فتشربها قلوب الناس ، قال فأطلع الله عليها سليمان عليه السلام فدفنها تحت كرسيه ، فلما توفى سليمان عليه السلام قام شيطان الطريق فقال هل أدلكم على كنزه المنع الذى لا كنز له مثله ؟ : تحت الكرسى . فأخرجوه فقال هذا سحر فتناسخها الأمم حتى بقاياها ما يتحدث به أهل العراق فأنزل الله عز وجل (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) الآية وروى الحاكم فى مستدركه عن أبى زكريا العنبرى عن محمد بن عبد السلام عن إسحق ابن ابراهيم عن جرير[1] به وقال السدى فى قوله تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) أى على عهد سليمان قال كانت الشياطين تصعد الى السماء فتقعد منها مقاعد للسمع فيستمعون من كلام الملائكة ما يكون فى الأرض من موت أو غيب أو أمر فيأتون الكهنة فيخبرونهم فتحدث الكهنة الناس فيجدونه كما قالوا فلما أمنتهم الكهنة كذبوا لهم وأدخلوا فيه غيره فزادوا مع كل كلمة سبعين كلمة فاكتتب الناس ذلك الحديث فى الكتب وفشى ذلك فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب ، فبعث سليمان فى الناس فجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق ثم دفنها تحت كرسيه ولم يكن أحد من الشياطين يستطيع أن يدنو من الكرسى إلا احترق ، وقال لا أسمع أحداً يذكر أن الشياطين يعلمون الغيب إلا ضربت عنقه ، فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان وخلف من بعد ذلك خلف تمثل الشيطان فى صورة إنسان ثم أتى نفراً من بنى إسرائيل فقال لهم هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبداً[2] قالوا نعم قال فاحفروا تحت الكرسى فذهب معهم وأراهم المكان وقام ناحيته فقالوا له فاذن فقال لا ولكننى ههنا فى أيديكم فان لم تجدوه فاقتلونى فحفروا فوجدوا تلك الكتب فلما أخرجوها قال الشيطان إن سليمان إنما كان يضبط الانس والشياطين والطير بهذا السحر ثم طار وذهب وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحراً واتخذت بنو إسرائيل تلك الكتب فلما جاء محمد ﷺ خاصموه بها فذلك حين يقول الله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال الربيع بن أنس إن اليهود سألوا محمداً ﷺ زمانا عن أمور من التوراة لا يسألونه عن شىء من ذلك الا أنزل الله سبحانه وتعالى ماسألوه عنه فيخصمهم فلما رأوا ذلك قالوا هذا أعلم بما أنزل الله الينا منا وانهم سألوه عن السحر وخاصموه به فأنزل الله عز وجل (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) وإن الشياطين عمدوا الى كتاب فكتبوا فيه السحر والكهانة وما شاء الله من ذلك فدفنوه تحت كرسى مجلس سليمان وكان عليه السلام لا يعلم الغيب فلما فارق سليمان الدنيا استخرجوا ذلك السحر وخدعوا الناس وقالوا هذا علم كان سليمان يكتمه ويحسد الناس عليه فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الحديث فرجعوا من عنده وقد خرجوا[3] وقد أدحض الله حجتهم ، وقال مجاهد فى قوله تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) قال كانت الشياطين تستمع الوحى فما سمعوا من كلمة زادوا فيها مائتين مثلها فأرسل سليمان عليه السلام الى ما كتبوا من ذلك فلما توفى سليمان وجدته الشياطين وعلمته الناس وهو السحر وقال سعيد بن جبير كان سليمان يتتبع ما فى أيدى الشياطين من السحر فيأخذه منهم فيدفنه تحت كرسيه فى بيت خزانته فلم تقدر الشياطين أن يصلوا اليه فدنت الى الإنس فقالوا لهم أتدرون ما العلم الذى كان سليمان يسخر به الشياطين والرياح وغير ذلك ؟ قالوا نعم قالوا فإنه فى بيت خزانته وتحت كرسيه فاستثار به الإنس واستخرجوه وعملوا بها فقال أهل الحجاز كان سليمان يعمل بهذا وهذا سحر فأنزل الله تعالى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم براءة سليمان عليه السلام فقال تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) وقال محمد بن إسحق بن يسار عمدت الشياطين حين عرفت موت سليمان بن داود

(١) كذا فى الأصل ولم يذكر المروى فإن كان عين الأول فالواجب أن يقال ورواه الحاكم أو يقال فى آخره : مثله . (٢) أى لا ينفد بالأكل منه (٣) فى تفسير ابن جرير وقد حزنوا .

عليه السلام فكتبوا أصناف السحر من كان يحب أن يبلغ كذاوكذافليفعل كذا وكذا حتى إذا صنفوا[1] أصناف السحر جعلوه فى كتاب ثم ختموه بخاتم على نقش خاتم سليمان وكتبوا فى عنوانه : هذا ما كتب آصف بن برخيا الصديق للملك سليمان بن داود من ذخائر كنوز العلم . ثم دفنوه تحت كرسيه واستخرجته بعد ذلك بقايا بنى إسرائيل حتى أحدثوا ما أحدثوا فلما عثروا عليه قالوا والله ما كان ملك سليمان إلا بهذا فأفشوا السحر فى الناس فتعلموه وعلموه فليس هو فى أحد أكثر منه فى اليهود لعنهم الله فلما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما نزل عليه من الله سليمان ابن داود وعده فيمن عد من المرسلين قال من كان بالمدينة من اليهود ألا تعجبون من محمد يزعم أن ابن داود كان نبياً والله ما كان إلا ساحراً وأنزل الله فى ذلك من قولهم (واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا) الآية * وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا حسين بن الحجاج عن أبى بكر عن شهر بن حوشب قال لما سلب سليمان ملكه كانت الشياطين تكتب السحر فى غيبة سليمان فكتبت من أراد أن يأتى كذا وكذا فليستقبل الشمس وليقل كذا كذا ومن أراد أن يفعل كذا وكذا فليستدبر الشمس وليقل كذا وكذا ، فكتبته وجعلت عنوانه . هذا ما كتب آصف بن برخيا للملك سليمان بن داود عليهما السلام من ذخائر كنوز العلم . ثم دفنه تحت كرسيه فلما مات سليمان عليه السلام قام إبليس لعنه الله خطيباً فقال يا أيها الناس إن سليمان لم يكن نبيا إنما كان ساحراً فالتمسوا سحره فى متاعه وبيوته ، ثم دلهم على المكان الذى دفن فيه فقالوا والله لقد كان سليمان ساحراً هذا سحره بهذا تعبدنا وبهذا قهرنا فقال المؤمنون بل كان نبياً مؤمناً فلما بعث الله النبى محمداً صلى الله عليه وسلم وذكر داود وسليمان فقالت اليهود انظروا إلى محمد يخلط الحق بالباطل يذكر سليمان مع الأنبياء إنما كان ساحراً يركب الريح فأنزل الله تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان) الآية * وقال ابن جرير حدثنا محمد بن عبد الأعلى الصنعانى : حدثنا المعتمر بن سليمان قال سمعت عمران بن جرير عن أبى مجلز قال أخذ سليمان عليه السلام من كل دابة عهدا فاذا أصيب رجل فسأل بذلك العهد خلى عنه فزاد الناس السجع والسحر فقالوا هذا يعمل به سليمان بن داود عليهما السلام فقال الله تعالى (وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر) * وقال ابن أبى حاتم حدثنا عصام بن روّاد حدثنا آدم حدثنا المسعودى عن زياد مولى ابن مصعب عن الحسن (واتبعوا ماتتلو الشياطين) قال ثلث الشعر وثلث السحر وثلث الكهانة ، وقال حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبد الله بن بشار الواسطى حدثنى سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) وتبعته اليهود على ملكه وكان السحر قبل ذلك فى الأرض لم يزل بها ولكنه إنما اتبع على ملك سليمان فهذه نبذة من أقوال أئمة السلف فى هذا المقام ولا يخفى ملخص القصة والجمع بين أطرافها وأنه لا تعارض بين السياقات على اللبيب الفهم والله الهادى. وقوله تعالى (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) أى واتبعت اليهود الذين أوتوا الكتاب من بعد إعراضهم عن كتاب الله الذى بأيديهم ومخالفتهم لرسول الله محمد ﷺ ماتتلوه الشياطين أى ما ترويه وتخبر به وتحدثه الشياطين على ملك سليمان وعداه بعلى لأنه تضمن تتلو تكذب، وقال ابن جرير « على » ههنا بمعنى فى أى تتلو فى ملك سليمان ونقله عن ابن جريج وابن اسحق (قلت) والتضمن أحسن وأولى والله أعلم . وقول الحسن البصرى رحمه الله : وكان السحر قبل زمان سليمان بن داود — صحيح لاشك فيه لأن السحرة كانوا فى زمان موسى عليه السلام وسليمان بن داود بعده كما قال تعالى (ألم تر إلى الملأ من بنى اسرائيل من بعد موسى) الآية ثم ذكر القصة بعدها وفيها (وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة) وقال قوم صالح وهم قبل ابراهيم الخليل عليه السلام لنبيهم صالح إنما (أنت من المسحرين) أى المسحورين على المشهور : وقوله تعالى (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه) اختلف الناس فى هذا المقام فذهب بعضهم الى أن « ما » نافية أعنى التى فى قوله (وما أنزل على الملكين) قال القرطبى ما نافية ومعطوف على قوله (وما كفر سليمان) ثم قال (ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين) وذلك أن اليهود كانوا يزعمون أنه نزل به جبريل وميكائيل فأكذبهم الله

(١) فى تفسير ابن جرير صنعوا .

وجعل قوله (هاروت وماروت) بدلا من الشياطين قال وصح ذلك إما لأن الجمع يطلق على الاثنين كما فى قوله تعالى (فإن كان له إخوة) أو لكونهما لهما أتباع أوذكرا من بينهم لتمردهما تقدير الكلام[1] عنده يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت . ثم قال وهذا أولى ما حملت عليه الآية وأصح ولا يلتفت إلى ماسواه ، وروى ابن جرير بإسناده من طريق العوفى عن ابن عباس فى قوله (وما أنزل على الملكين ببابل) الآية يقول لم ينزل الله السحر وباسناده عن الربيع بن أنس فى قوله (وما أنزل على الملكين) قال ما أنزل الله عليهما السحر قال ابن جرير فتأويل الآية على هذا (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) من السحر وما كفر سليمان ولا أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون قوله ببابل هاروت وماروت من المؤخر الذى معناه المقدم[2] قال فإن قال لنا قائل كيف وجه تقديم ذلك قيل وجه تقديمه أن يقال (واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان) من السحر وما كفر سليمان وما أنزل الله السحر على الملكين ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر ببابل هاروت وماروت فيكون معنيا بالملكين جبريل وميكائيل عليهما السلام لأن سحرة اليهود فيما ذكرت كانت تزعم أن الله أنزل السحر على لسان جبريل وميكائيل إلى سليمان بن داود فأكذبهم الله بذلك وأخبر نبيه محمداً ﷺ أن جبريل وميكائيل لم ينزلا بسحر وبرأ سليمان عليه السلام مما نحلوه من السحر وأخبرهم أن السحر من عمل الشياطين وأنها تعلم الناس ذلك ببابل وأن الذين يعلمونهم ذلك رجلان اسم أحدهما هاروت واسم الآخر ماروت فيكون هاروت وماروت على هذا التأويل ترجمة عن الناس ورداً عليهم . هذا لفظه بحروفه وقد قال ابن أبى حاتم حدثت عن عبيد الله بن موسى أخبرنا فضيل بن مرزوق عن عطية (وما أنزل على الملكين) قال . ما أنزل الله على جبريل وميكائيل السحر قال ابن أبى حاتم وأخبرنا الفضل ابن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا يعلى يعنى ابن أسد أخبرنا بكر يعنى ابن مصعب أخبرنا الحسن بن أبى جعفر أن عبد الرحمن بن أبزى كان يقرؤها (وما أنزل على الملكين داود وسليمان) وقال أبو العالية لم ينزل عليهما السحر يقول علما الإيمان والكفر فالسحر من الكفر فهما ينهيان عنه أشد النهى رواه ابن أبى حاتم ، ثم شرع ابن جرير فى رد هذا القول وان مابمعنى الذى وأطال القول فى ذلك وادعى أن هاروت وماروت ملكان أنزلهما الله الى الأرض وأذن لهما فى تعليم السحر اختباراً لعباده وامتحاناً بعد أن بين لعباده أن ذلك مما ينهى عنه على ألسنة الرسل وادعى أن هاروت وماروت مطيعان فى تعلم ذلك لأنهما امتثلا ما أمرا به وهذا الذى سلكه غريب جداً وأغرب منه قول من زعم أن هاروت وماروت قبيلان من الجن كما زعمه ابن حزم وروى ابن أبى حاتم باسناده عن الضحاك بن مزاحم أنه كان يقرؤها (وما أنزل على الملكين) ويقول هما علجان من أهل بابل ووجه أصحاب هذا القول الإنزال بمعنى الخلق لا بمعنى الإيحاء كما فى قوله تعالى (وما أنزل على الملكين) كما قال تعالى (وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج) (وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد) (وينزل لكم من السماء رزقاً) وفى الحديث « ما أنزل الله داء إلا أنزل له دواء » وكما يقال «أنزل الله الخير والشر » وحكى القرطبى عن ابن عباس وابن أبزى والحسن البصرى أنهم قرءوا (وما أنزل على الملكين) بكسر اللام ، قال ابن أبزى وهما داود وسليمان قال القرطبى فعلى هذا تكون ما نافية أيضاً وذهب آخرون إلى الوقف على قوله (يعلمون الناس السحر) وما نافية : قال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنا الليث عن يحيى بن سعيد عن القاسم بن محمد وسأله رجل عن قول الله (يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) فقال الرجلان يعلمان الناس ما أنزل عليهما ويعلمان الناس مالم ينزل عليهما فقال القاسم ما أبالى أيتهما كانت ثم روى عن يونس عن أنس بن عياض عن بعض أصحابه أن القاسم قال فى هذه القصة لاأبالى أى ذلك كان إنى آمنت به . وذهب كثير من السلف إلى أنهما كانا ملكين من السماء وأنهما أنزلا الى الأرض فكان من أمرهما ما كان ، وقد ورد فى ذلك حديث مرفوع رواه الإمام أحمد فى مسنده رحمه الله كما سنورده إن شاء الله وعلى هذا فيكون الجمع بين هذا وبين ماورد من الدلائل على عصمة الملائكة أن هذين سبق فى علم الله لهما هذا فيكون تخصيصا لهما فلا تعارض حينئذ كما سبق فى علمه من أمر إبليس ما سبق وفى قول إنه كان من الملائكة . لقوله تعالى (وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا

(١) قوله تقدير الكلام الخ كذا بالنسخ التى بأيدينا ولايخفى أنه لايتم التقدير الا بذكر المبدل منه على إعرابه وهو قوله ولكن الشياطين ولعله سقط من الناسخ اهـ (٢) فى تفسير ابن جرير التقديم

إبليس أبى) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ذلك مع أن شأن هاروت وماروت على ما ذكر أخف مما وقع من إبليس لعنه الله تعالى . وقد حكاه القرطبي عن على وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وكعب الأحبار والسدى والكلبى

﴿ ذكر الحديث الوارد فى ذلك إن صح سنده ورفعه وبيان الكلام عليه ﴾

قال الامام أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى فى مسنده أخبرنا يحيى بن بكير حدثنا زهير بن محمد عن موسى بن جبير عن نافع عن عبدالله بن عمر رضى الله عنهما أنه سمع نبي الله صلى الله عليه وسلم يقول : «إن آدم عليه السلام لما أهبطه الله إلى الأرض قالت الملائكة أى رب (أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إنى أعلم مالا تعلمون) قالوا ربنا نحن أطوع لك من بنى آدم قال الله تعالى للملائكة هلموا ملكين من الملائكة حتى نهبطهما إلى الأرض فننظر كيف يعملان قالوا ربنا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض ومثلت لهما الزهرة امرأة من أحسن البشر فجاءتهما فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تتكلما بهذه الكلمة من الإشراك فقالا والله لانشرك بالله شيئاً أبداً ، فذهبت عنهما ثم رجعت بصبي تحمله فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تقتلا هذا الصبي فقالا لا والله لا نقتله أبداً ، فذهبت ثم رجعت بقدح خمر تحمله فسألاها نفسها فقالت لا والله حتى تشربا هذا الخمر ، فشربا فسكرا فوقعا عليها وقتلا الصبي فلما أفاقا قالت المرأة والله ماتركتما شيئاً أبيتماه على إلا قد فعلتماه حين سكرتما فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا» . وهكذا رواه أبو حاتم بن حبان فى صحيحه عن الحسن عن سفيان عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يحيى بن بكير — به وهذا حديث غريب من هذا الوجه ورجاله كلهم ثقات من رجال الصحيحين إلا موسى بن جبير هذا وهو الأنصارى السلمى مولاهم المدينى الحذاء وروى عن ابن عباس وأبى أمامة بن سهل بن حنيف ونافع وعبدالله بن كعب بن مالك وروى عنه ابنه عبدالسلام وبكر بن مضر وزهير بن محمد وسعيد بن سلمة وعبدالله بن لهيعة وعمرو بن الحارث ويحيى بن أيوب : وروى له أبوداود وابن ماجه وذكره ابن أبى حاتم فى كتاب الجرح والتعديل ولم يحك فيه شيئا من هذا ولا هذا فهو مستور الحال[1] وقد تفرد به عن نافع مولى ابن عمر عن ابن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﷺ ، وروى له متابع من وجه آخر عن نافع كما قال ابن مردويه حدثنا دعلج ابن أحمد حدثنا هشام بن على بن هشام حدثنا عبدالله بن رجاء حدثنا سعيد بن سلمة حدثنا موسى بن سرجس عن نافع عن ابن عمر سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول فذكره بطوله ، وقال أبوجعفر بن جرير رحمه الله حدثنا القاسم أخبرنا الحسين وهو سنيد بن داود صاحب التفسير أخبرنا الفرج بن فضالة عن معاوية بن صالح عن نافع قال سافرت مع ابن عمر فلما كان من آخر الليل قال يانافع انظر طلعت الحمراء ؟ قلت لا مرتين أو ثلاثاً ثم قلت قد طلعت قال لامرحباً بها ولا أهلا قلت سبحان الله نجم مسخر سامع مطيع : قال ما قلت لك إلا ماسمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم أوقال : قال لى رسول الله ﷺ «إن الملائكة قالت يارب كيف صبرك على بنى آدم فى الخطايا والذنوب قال إنى ابتليتهم وعافيتكم قالوا لو كنا مكانهم ماعصيناك ، قال فاختاروا ملكين منكم قال فلم يألوا جهداً أن يختاروا فاختاروا هاروت وماروت» وهذان أيضاً غريبان جداً . وأقرب ما يكون فى هذا أنه من رواية عبد الله بن عمر عن كعب الأحبار لاعن النبى صلى الله عليه وسلم كما قال عبد الرزاق فى تفسيره عن الثورى عن موسى بن عقبة عن سالم عن ابن عمر عن كعب الأحبار قال ذكرت الملائكة أعمال بنى آدم وما يأتون من الذنوب فقيل لهم اختاروا منكم اثنين فاختاروا هاروت وماروت فقال لهما إنى أرسل الى بنى آدم رسلا وليس بينى وبينكم رسول انزلا لا تشركا بى شيئا ولا تزنيا ولا تشربا الخمر ، قال كعب فوالله ما أمسيا من يومهما الذى أهبطا فيه حتى استكملا جميع مانهيا عنه ، رواه ابن جرير من طريقين عن عبد الرزاق به ورواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن عصام عن مؤمل عن سفيان الثورى به ورواه ابن جرير أيضاً حدثنى المثنى أخبرنا المعلى وهو ابن أسد أخبرنا عبد العزيز بن المختار عن موسى بن عقبة حدثنى سالم أنه سمع عبد الله يحدث عن كعب الأحبار فذكره فهذا أصح وأثبت الى عبد الله بن عمر من الاسنادين المتقدمين وسالم أثبت فى أبيه من مولاه نافع فدار الحديث ورجع الى نقل كعب الأحبار عن كتب بنى إسرائيل والله أعلم

(١) قال ابن حبان : كان يخطىء ويخالف وقال ابن القطان لايعرف حاله اهـ من تهذيب التهذيب.

﴿ ذكر الآثار الواردة فى ذلك عن الصحابة والتابعين رضى الله عنهم أجمعين ﴾

قال ابن جرير : حدثنى المثنى حدثنا الحجاج أخبرنا حماد عن خالد الحذاء عن عمير بن سعيد قال : سمعت عليا رضى الله عنه يقول كانت الزهرة امرأة جميلة من أهل فارس وإنها خاصمت إلى الملكين هاروت وماروت فراوداها عن نفسها فأبت عليهما إلا أن يعلماها الكلام الذى إذا تكلم به أحد يعرج به إلى السماء فعلماها فتكلمت به فعرجت إلى السماء فمسخت كوكبا — وهذا الإسناد رجاله ثقات وهو غريب جداً — وقال ابن أبى حاتم أخبرنا الفضل بن شاذان أخبرنا محمد بن عيسى أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا معاوية عن أبى خالد عن عمير بن سعيد عن على رضى الله عنه . قال هما ملكان من ملائكة السماء ، يعنى (وما أنزل على الملكين) ورواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره بسنده عن مغيث عن مولاه جعفر بن محمد عن أبيه عن جده عن على مرفوعاً وهذا لا يثبت من هذا الوجه . ثم رواه من طريقين آخرين عن جابر عن أبى الطفيل عن على رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لعن الله الزهرة فإنها هى التى فتنت الملكين هاروت وماروت » وهذا أيضا لا يصح وهو منكر جداً والله أعلم

وقال ابن جرير : حدثنى المثنى بن إبراهيم أخبرنا الحجاج بن منهال حدثنا حماد عن على بن زيد عن أبى عثمان النهدى عن ابن مسعود وابن عباس أنهما قالا جميعاً لما كثر بنو آدم وعصوا دعت الملائكة عليهم والأرض والجبال ربنا لا تمهلهم فأوحى الله إلى الملائكة إنى أزلت الشهوة والشيطان من قلوبكم وأنزلت الشهوة والشيطان فى قلوبهم ولو نزلتم لفعلتم أيضا . قال فحدثوا أنفسهم أن لو ابتلوا اعتصموا فأوحى الله إليهم أن اختاروا ملكين من أفضلكم فاختاروا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض وأنزلت الزهرة إليهما فى صورة امرأة من أهل فارس يسمونها بيذخت ، قال فوقعا بالخطيئة فكانت الملائكة يستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شىء رحمة وعلما ، فلما وقعا بالخطيئة استغفروا لمن فى الأرض ألا إن الله هو الغفور الرحيم ، فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا عبد الله بن جعفر الرقى أخبرنا عبد الله يعنى ابن عمرو عن زيد بن أبى أنيسة عن المنهال ابن عمرو ويونس بن خباب عن مجاهد . قال كنت نازلا على عبد الله بن عمر فى سفر ، فلما كان ذات ليلة قال لغلامه انظر هل طلعت الحمراء لا مرحباً بها ولا أهلا ولا حياها الله هى صاحبة الملكين ، قالت الملائكة يارب كيف تدع عصاة بنى آدم وهم يسفكون الدم الحرام وينتهكون محارمك ويفسدون فى الأرض قال إنى ابتليتهم فلعل إن ابليتكم بمثل الذى ابتليتهم به فعلتم كالذى يفعلون ، قالوا لا ، قال : فاختاروا من خياركم اثنين فاختاروا هاروت وماروت ، فقال لهما إنى مهبطكما إلى الأرض وعاهد إليكما أن لا تشركا ولا تزنيا ولا تخونا فأهبطا إلى الأرض وألقى عليهما الشهوة وأهبطت لهما الزهرة فى أحسن صورة امرأة فتعرضت لهما فراوداها عن نفسها ، فقالت إنى على دين لا يصح لأحد أن يأتينى إلا من كان على مثله ، قالا ومادينك ، قالت المجوسية ، قالا الشرك هذا شىء لا نقربه فمكثت عنهما ماشاء الله تعالى . ثم تعرضت لهما فراوداها عن نفسها . فقالت ماشئتما غير أن لى زوجا وأنا أكره أن يطلع على هذا منى فأفتضح فإن أقررتما لى بدينى وشرطتما لى أن تصعدا بى إلى السماء فعلت فأقرا لها بدينها وأتياها فيما يريان ثم صعدا بها إلى السماء فلما انتهيا بها إلى السماء اختطفت منهما وقطعت أجنحتهما فوقعا خائفين نادمين يبكيان وفى الأرض نبى يدعو بين الجمعتين فإذا كان يوم الجمعة أجيب . فقالا : لو أتينا فلاناً فسألناه فطلب لنا التوبة فأتياه فقال رحمكما الله كيف يطلب التوبة أهل الأرض لأهل السماء قالا إنا قد ابتلينا ، قال ائتيانى يوم الجمعة فأتياه ، فقال ما أجبت فيكما بشىء ائتيانى فى الجمعة الثانية فأتياه ، فقال اختارا فقد خيرتما إن اخترتما معافاة الدنيا وعذاب الآخرة وإن أحببتما فعذاب الدنيا وأنتما يوم القيامة على حكم الله ، فقال أحدهما إن الدنيا لم يمض منها إلا القليل وقال الآخر ويحك إنى قد أطعتك فى الأمر الأول فأطعنى الآن إن عذابا يفنى ليس كعذاب يبقى . فقال إننا يوم القيامة على حكم الله فأخاف أن يعذبنا ، قال لا . إنى أرجو إن علم الله أنا قد اخترنا عذاب الدنيا مخافة عذاب الآخرة أن لا يجمعهما علينا ، قال فاختارا عذاب الدنيا فجعلا فى بكرات من حديد فى قليب مملوءة من نار عاليهما سافلهما — وهذا إسناد جيد إلى عبد الله بن عمر —

وقد تقدم فى رواية ابن جرير من حديث معاوية بن صالح عن نافع عنه رفعه وهذا أثبت وأصح إسناداً ثم هو والله أعلم من رواية ابن عمر عن كعب كما تقدم بيانه من رواية سالم عن أبيه . وقوله إن الزهرة نزلت فى صورة امرأة حسناء وكذا فى المروى عن على فيه غرابة جداً

وأقرب ماورد فى ذلك ماقال ابن أبى حاتم أخبرنا عصام بن رواد أخبرنا آدم أخبرنا أبو جعفر حدثنا الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : لما وقع الناس من بعد آدم عليه السلام فيما وقعوا فيه من المعاصى والكفر بالله قالت الملائكة فى السماء يارب هذا العالم الذى إنما خلقتهم لعبادتك وطاعتك قد وقعوا فيما وقعوا فيه وركبوا الكفر وقتل النفس وأكل المال الحرام والزنا والسرقة وشرب الخمر فجعلوا يدعون عليهم ولايعذرونهم فقيل إنهم فى غيب فلم يعذروهم ، فقيل لهم اختاروا من أفضلكم ملكين آمرهما وأنهاهما فاختاروا هاروت وماروت فأهبطا إلى الأرض وجعل لهما شهوات بنى آدم وأمرهما الله أن يعبداه ولايشركا به شيئاً ونهيا عن قتل النفس الحرام وأكل المال الحرام وعن الزنا والسرقة وشرب الخمر فلبثا فى الأرض زماناً يحكمان بين الناس بالحق وذلك فى زمن إدريس عليه السلام ، وفى ذلك الزمان امرأة حسنها فى النساء كحسن الزهرة فى سائر الكواكب وإنهما أتيا عليها فخضعا لها فى القول وأراداها على نفسها فأبت إلا أن يكونا على أمرها وعلى دينها فسألاها عن دينها فأخرجت لهما صنماً فقالت هذا أعبده فقالا لا حاجة لنا فى عبادة هذا فذهبا فعبرا ماشاء الله ، ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها ففعلت مثل ذلك فذهبا ثم أتيا عليها فأراداها على نفسها فلما رأت أنهما قد أبيا أن يعبدا الصنم قالت لهما اختارا أحدا الخلال الثلاث إما أن تعبدا هذا الصنم وإما أن تقتلا هذه النفس وإما أن تشربا هذه الخمر ، فقالا كل هذا لاينبغى وأهون هذا شرب الخمر فشربا الخمر فأخذت فيهما فواقعا المرأة فخشيا أن يخبر الإنسان عنهما فقتلاه فلما ذهب عنهما السكر وعلما ما وقعا فيه من الخطيئة أرادا أن يصعدا إلى السماء فلم يستطيعا وحيل بينهما وبين ذلك وكشف الغطاء فيما بينهما وبين أهل السماء فنظرت الملائكة إلى ماوقعا فيه فعجبوا كل العجب وعرفوا أنه من كان فى غيب فهو أقل خشية فجعلوا بعد ذلك يستغفرون لمن فى الأرض فنزل فى ذلك (والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن فى الأرض) فقيل لهما اختارا عذاب الدنيا أو عذاب الآخرة ، فقالا أما عذاب الدنيا فإنه ينقطع ويذهب وأما عذاب الآخرة فلا انقطاع له ، فاختارا عذاب الدنيا ، فجعلا ببابل فهما يعذبان وقد رواه الحاكم فى مستدركه مطولا عن أبى زكريا العنبرى عن محمد بن عبد السلام عن إسحق ابن راهويه عن حكام بن سلم الرازى وكان ثقة[1] عن أبى جعفر الرازى به : ثم قال صحيح الإسناد لم يخرجاه فهذا أقرب ماروى فى شأن الزهرة والله أعلم .

وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا مسلم أخبرنا القاسم بن الفضل الحذائى أخبرنا يزيد يعنى الفارسى عن ابن عباس أن أهل سماء الدنيا أشرفوا على أهل الأرض فرأوهم يعملون بالمعاصى فقالوا : يارب أهل لأرض كانوا يعملون بالمعاصى، فقال الله أنتم معى وهم فى غيب عنى فقيل لهم اختاروا منكم ثلاثة فاختاروا منهم ثلاثة على أن يهبطوا إلى الأرض على أن يحكموا بين أهل الأرض وجعل فيهم شهوة الآدميين فأمروا أن لايشربوا خمراً ولا يقتلوا نفساً ولايزنوا ولا يسجدوا لوثن ، فاستقال منهم واحد فأقيل فأهبط اثنان إلى الأرض فأتتهما امرأة من أحسن الناس يقال لها مناهية فهوياها جميعاً ثم أتيا منزلها فاجتمعا عندها فأراداها فقالت لهما لا حتى تشربا خمرى وتقتلا ابن جارى وتسجدا لوثنى فقالا لانسجد ثم شربا من الخمر ثم قتلا ثم سجدا فأشرف أهل السماء عليهما وقالت لهما أخبرانى بالكلمة التى إذا قلتماها طرتما فأخبراها فطارت فمسخت جمرة وهى هذه الزهرة وأماها فأرسل إليهما سليمان بن داود فخيرهما بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فهما مناطان بين السماء والأرض وهذا السياق فيه زيادة كثيرة وإغراب ونكارة والله أعلم بالصواب .

وقال عبد الرزاق : قال معمر قال قتادة والزهرى عن عبيد الله بن عبد الله (وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت) كانا ملكين من الملائكة فأهبطا ليحكما بين الناس ، وذلك أن الملائكة سخروا من حكام بنى آدم

(١) ولكنه كان يروى الغرائب كما فى التقريب وفى تهذيب التهذيب عن أحمد . كان يحدث عن عنبسة أحاديث غرائب ا هـ .

فحاكمت اليهما امرأة فحافا لها ثم ذهبا يصعدان فحيل بينهما وبين ذلك ثم خيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا . وقال معمر : قال قتادة فكانا يعلمان الناس السحر فأخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر

وقال أسباط عن السدى أنه قال كان من أمر هاروت وماروت أنهما طعنا على أهل الأرض فى أحكامهم فقيل لهما إنى أعطيت بنى آدم عشراً من الشهوات فبها يعصوننى ، قال هاروت وماروت : ربنا لو أعطيتنا تلك الشهوات ثم نزلنا لحكمنا بالعدل ، فقال لهما انزلا فقد أعطيتكما تلك الشهوات العشر فاحكما بين الناس فنزلا ببابل دياوند فكانا يحكمان حتى إذا أمسيا عرجا فاذا أصبحا هبطا فلم يزالا كذلك حتى أتتهما امرأة تخاصم زوجها فأعجبهما حسنها واسمها بالعربية الزهرة وبالنبطية بيدخت وبالفارسية أناهيد : فقال أحدهما لصاحبه إنها لتعجبنى ، قال الآخر قد أردت أن أذكر لك فاستحييت منك . فقال الآخر ، هل لك أن أذكرها لنفسها ؟ قال نعم ، ولكن كيف لنا بعذاب الله ؟ قال الآخر إنا لنرجو رحمة الله فلما جاءت تخاصم زوجها ذكرا إليها نفسها فقالت لا حتى تقضيا لى على زوجى فقضيا لها على زوجها ثم واعدتهما خربة من الخرب يأتيانها فيها فأتياها لذلك فلما أراد الذى يواقعها قالت ما أنا بالذى أفعل حتى تخبرانى بأى كلام تصعدان إلى السماء وبأى كلام تنزلان منها فأخبراها فتكلمت فصعدت فأنساها الله تعالى ما تنزل به فثبتت مكانها وجعلها الله كوكبا ، فكان عبد الله بن عمر كلما رآها لعنها وقال هذه التى فتنت هاروت وماروت ، فلما كان الليل أرادا أن يصعدا فلم يطيقا فعرفا الهلكة فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فاختارا عذاب الدنيا فعلقا ببابل وجعلا يكلمان الناس كلامها وهو السحر .

وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد أما شأن هاروت وماروت فإن الملائكة عجبت من ظلم بنى آدم وقد جاءتهم الرسل والكتب والبينات فقال لهم ربهم تعالى : اختاروا منكم ملكين أنزلهما يحكمان فى الأرض فاختاروا فلم يألوا هاروت وماروت ، فقال لهما حين أنزلهما أعجبتما من بنى آدم من ظلمهم ومعصيتهم وإنما تأتيهم الرسل والكتب من وراء وراء وإنكما ليس بينى وبينكما رسول فافعلا كذا وكذا ودعا كذا كذا ، فأمرهما بأمور ونهاهما ، ثم نزلا على ذلك ليس أحد أطوع لله منهما فحكما فعدلا فكانا يحكمان فى النهار بين بنى آدم فاذا أمسيا عرجا فكانا مع الملائكة وينزلان حين يصبحان فيحكمان فيعدلان حتى أنزلت عليها الزهرة فى أحسن صورة امرأة تخاصم فقضيا عليها فلما قامت وجد كل واحد منهما فى نفسه ، فقال أحدهما لصاحبه وجدت : مثل الذى وجدت ؟ قال نعم ، فبعثا إليها أن ائتيانا نقض لك ، فلما رجعت قالا وقضيا لها فأتتهما فكشفا لها عن عورتيهما وإنما كانت سوآتهما فى أنفسهما ولم يكونا كبنى آدم فى شهوة النساء ولذاتها ، فلما بلغا ذلك واستحلا افتتنا فطارت الزهرة فرجعت حيث كانت ، فلما أمسيا عرجا فزجرا فلم يؤذن لهما ولم تحملهما أجنحتهما فاستغاثا برجل من بنى آدم فأتياه فقالا ادع لنا ربك فقال كيف يشفع أهل الأرض لأهل السماء قالا سمعنا ربك يذكرك بخير فى السماء ، فوعدهما يوماً وعدا يدعوهما فدعا لهما فاستجيب له فخيرا بين عذاب الدنيا وعذاب الآخرة فنظر أحدهما إلى صاحبه فقال ألا تعلم أن أفواج عذاب الله فى الآخرة كذا وكذا فى الخلد وفى الدنيا تسع مرات مثلها ؟ فأمرا أن ينزلا ببابل فتم عذابهما ، وزعم أنهما معلقان فى الحديد مطويان يصفقان بأجنحتهما وقد روى فى قصة هاروت وماروت عن جماعة من التابعين كمجاهد والسدى والحسن البصرى وقتادة وأبى العالية والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وغيرهم وقصها خلق من المفسرين من المتقدمين والمتأخرين ، وحاصلها راجع فى تفصيلها إلى أخبار بنى إسرائيل إذ ليس فيها حديث مرفوع صحيح متصل الإسناد إلى الصادق المصدوق المعصوم الذى لا ينطق عن الهوى وظاهر سياق القرآن إجمال القصة من غير بسط ولا إطناب فنحن نؤمن بما ورد فى القرآن على ما أراده الله تعالى والله أعلم بحقيقة الحال

وقد ورد فى ذلك أثر غريب وسياق عجيب فى ذلك أحببنا أن ننبه عليه قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله تعالى : أخبرنا الربيع بن سليمان أخبرنا ابن وهب أخبرنا ابن أبى الزناد حدثنى هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة

زوج النبي ﷺ أنها قالت : قدمت على امرأة من أهل دومة الجندل جاءت تبتغي رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد موته حداثة ذلك تسأله عن أشياء دخلت فيه من أمر السحر ولم تعمل به وقالت عائشة رضى الله عنها لعروة : يا ابن أختي فرأيتها تبكي حين لم تجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيشفيها فكانت تبكي حتى إني لأرحمها وتقول : إني أخاف أن أكون قد هلكت : كان لي زوج فغاب عني فدخلت عليّ عجوز فشكوت ذلك إليها فقالت إن فعلت ما آمرك به فأجعله يأتيك ، فلما كان الليل جاءتني بكلبين أسودين فركبت أحدهما وركبت الآخر فلم يكن شيء حتى وقفنا ببابل وإذا برجلين معلقين بأرجلهما فقالا : ماجاء بك ؟ قلت تتعلم السحر فقالا إنما نحن فتنة فلا تكفري فارجعي فأبيت وقلت . لا قالا . فاذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت ففزعت ولم أفعل فرجعت إليهما فقالا : أفعلت ، فقلت . نعم فقالا . هل رأيت شيئاً ؟ فقلت لم أر شيئا فقالا لم تفعلي ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فأربيت وأبيت فقالا اذهبي إلى ذلك التنور فبولي فيه فذهبت فاقشعررت وخفت ثم رجعت إليهما وقلت . قد فعلت فقالا . فما رأيت ؟ قلت لم أر شيئا فقالا . كذبت لم تفعلي ارجعي إلى بلادك ولا تكفري فإنك على رأس أمرك فأربيت وأبيت فقالا . اذهبي إلى التنور فبولي فيه فذهبت إليه فبلت فيه فرأيت فارساً مقنعا بحديد خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه فجئتهما فقلت قد فعلت فقالا فما رأيت قلت رأيت فارساً مقنعاً خرج مني فذهب في السماء وغاب حتى ما أراه فقالا صدقت ذلك إيمانك خرج منك اذهبي فقلت للمرأة والله ما أعلم شيئا وما قالا لي شيئاً فقالت بلى لم تريدي شيئاً إلا كان خذي هذا القمح فابذري فبذرت وقلت . اطلعي فأطلعت وقلت احقلي فأحقلت ثم قلت افركي فأفركت ثم قلت أيبسي فأيبست ثم قلت اطحني فأطحنت ثم قلت اخبزي فأخبزت . فلما رأيت أني لا أريد شيئاً إلا كان سقط في يدي وندمت والله ياأم المؤمنين ما فعلت شيئاً ولا أفعله أبداً ، ورواه ابن أبي حاتم عن الربيع بن سليمان به مطولا كما تقدم وزاد بعد قولها ولا أفعله أبداً فسألت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حداثة وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وهم يومئذ متوافرون فما دروا ما يقولون لها وكلهم هاب وخاف أن يفتيها بما لا يعلمه إلا أنه قد قال لها ابن عباس أو بعض من كان عنده لوكان أبواك حيين أو أحدهما . قال هشام فلو جاءتنا أفتيناها بالضمان . قال ابن أبي الزناد . وكان هشام يقول . إنهم كانوا من أهل الورع والخشية من الله ثم يقول هشام . لو جاءتنا مثلها اليوم لوجدت نوكى أهل حمق وتكلف بغير علم فهذا إسناد جيد إلى عائشة رضى الله عنها

وقد استدل بهذا الأثر من ذهب إلى أن الساحر له تمكن في قلب الأعيان لأن هذه المرأة بذرت واستغلت في الحال . وقال آخرون : بل ليس له قدرة إلا على التخييل كما قال تعالى (سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم) وقال تعالى (يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى) استدل به على أن بابل المذكورة في القرآن هي بابل العراق لا بابل دينا وند كما قاله السدي وغيره ، ثم الدليل على أنها بابل العراق ما قال ابن أبي حاتم أخبرنا علي ابن الحسين أخبرنا أحمد بن صالح حدثني ابن وهب حدثني ابن لهيعة ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادي عن أبي صالح الغفاري أن علي بن أبي طالب رضى الله عنه مر ببابل وهو يسير فجاء المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فاقام الصلاة فلما فرغ قال . إن حبيبي صلى الله عليه وسلم نهاني أن أصلي بأرض المقبرة ونهاني أن أصلي ببابل فإنها ملعونة ، وقال أبو داود أخبرنا سليمان بن داود أخبرنا بن وهب ويحيى بن أزهر عن عمار بن سعد المرادي عن أبي صالح الغفاري أن عليا مر ببابل وهو يسير فجاءه المؤذن يؤذنه بصلاة العصر فلما برز منها أمر المؤذن فأقام الصلاة فلما فرغ قال إن حبيبي صلى الله عليه وسلم نهاني أن أصلي في المقبرة ونهاني أن أصلي بأرض بابل فإنها ملعونة . حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرني يحيى بن أزهر وابن لهيعة عن حجاج بن شداد عن أبي صالح الغفاري عن علي بمعنى حديث سليمان بن داود قال : فلما خرج منها برز ، وهذا الحديث حسن عند الإمام أبي داود لأنه رواه وسكت عليه ففيه من الفقه كراهية الصلاة بأرض بابل كما تكره بديار ثمود الذي نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدخول إلى منازلهم إلا أن يكونوا باكين . قال أصحاب الهيئة : وبعد مابين بابل

وهى من إقليم العراق عن البحر المحيط الغربى ويقال له أوقيانوس سبعون درجة ويسمون هـذا طولا ، وأما عرضهما وهو بعد ما بينها وبين وسط الأرض من ناحية الجنوب وهو السامت لخط الاستواء اثنان وثلاثون درجة والله أعلم

وقوله تعالى (ومايعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلاتكفر) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن قيس بن عباد عن ابن عباس قال : فإذا أتاهما الآتى يريد السحر نهياه أشد النهى وقالا له : إنما نحن فتنةفلا تكفر وذلك أنهما علما الخير والشر والكفر والإيمان ، فعرفا أن السحر من الكفر قال فإذا أبى عليهما أمراه أن يأتى مكان كذا وكذا فإذا أتاه عاين الشيطان فعلمه فإذا تعلمه خرج منه النور فنظر إليه ساطعاً فى السماء فيقول : ياحسرتاه يا ويله ماذا صنع . وعن الحسن البصرى أنه قال فى تفسير هـذه الآية : نعم أنزل الملكان بالسحر ليعلما الناس البلاء الذى أراد الله أن يبتلى به النـاس فأخذ عليهم الميثاق أن لا يعلما أحداً حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر رواه ابن أبى حاتم وقال قتادة : كان أخذ عليهما أن لا يعلما أحداً حتى يقولا إنمـا نحن فتنة أى بلاء ابتلينا به فلا تكفر . وقال السدى إذا أتاهما إنسان يريد السحر وعظاه وقالا له : لا تكفر إنمـا نحن فتنة فإذا أبى قالا له . ائت هذا الرماد فبل عليه فإذابال عليه خرج منه نور فسطع حتى يدخل السماء وذلك الإيمان وأقبل شىء أسود كهيئة الدخان حتى يدخل فى مسامعه وكل شىء وذلك غضب الله فإذا أخبرهما بذلك علماه السحر فذلك قول الله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنمـا نحن فتنة فلا تـكفر) الآية . وقال سنيد عن حجاج عن ابن جريج فى هذه الآية لا يجترىء على السحر إلا كافر ، وأما الفتنة فهى المحنة والاختبار ومنه قول الشاعر

وقد فتن الناس فى دينهم * وخلى ابن عفان شرا طويلا

وكذلك قوله تعالى إخباراً عن موسى عليه السلام حيث قال (إن هى إلا فتنتك) أى ابتلاؤك واختبارك وامتحانك (تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء) وقد استدل بعضهم بهذه الآية على تكفير من تعلم السحر واستشهد له بالحديث الذى رواه الحافظ أبو بكر البزار حدثنا محمد بن المثنى أخبرنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن همام عن عبدالله قال : « من أتى كاهناً أوساحراً فصدقه بمـا يقول فقد كفر بمـا أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم » وهذا إسناد صحيح وله شواهد أخر ، وقوله تعالى (فيتعلمون منهما ما يفرقون به بين المرء وزوجه) أى فيتعلم الناس من هاروت وماروت من علم السحر مايتصرفون به فيما يتصرفون من الأفاعيل المذمومة ما إنهم ليفرقون به بين الزوجين مع مابينهما من الخلطة والائتلاف ، وهذا من صنيع الشياطين كما رواه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش عن أبى سفيان عن طلحة بن نافع عن جابر بن عبـد الله رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « إن الشيطان ليضع عرشه على المـاء ثم يبعث سراياه فى الناس فأقربهم عنده منزلة أعظمهم عنده فتنة ، يجىء أحدهم فيقول . مازلت بفلان حتى تركته وهو يقول كذا وكذا فيقول إبليس : لا والله ماصنعت شيئاً ! ويجىء أحـدهم فيقول : ماتركته حتى فرقت بينـه وبين أهله قال : فيقربه ويدنيه ويلتزمه ويقول : نعم أنت » وسبب التفريق بين الزوجين بالسحر مايخيل إلى الرجل أو المرأة من الآخر من سوء منظر أو خلق أو نحو ذلك أوعقد أو بغضة أو نحو ذلك من الأسباب المقتضية للفرقة والمرء عبارة عن الرجل وتأنيثه امرأة ويثنى كل منهما ولا يجمعان والله أعلم

وقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا بإذن الله) قال سفيان الثورى إلا بقضاء الله وقال محمد بن إسحاق إلا بتخلية الله بينه وبين ماأراد ، وقال الحسن البصرى (وماهم بضارين به من أحد الا بإذن الله) قال نعم من شاء الله سلطهم عليه ومن لم يشأ الله لم يسلط ولا يستطيعون من أحد إلا بإذن الله كما قال الله تعالى وفى رواية عن الحسن أنه قال لايضر هذا السحر إلا من دخل فيه ، وقوله تعالى (ويتعلمون ما يضرهم ولاينفعهم) أى يضرهم فى دينهم وليس له نفع يوازى ضرره (ولقد علموا لمن اشتره ماله فى الآخرة من خلاق) أى ولقد علم اليهود الذين استبدلوا بالسحر عن متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم لمن فعل فعلهم ذلك أنه ماله فى الآخرة من خلاق ، قال ابن عباس ومجاهد والسدى من نصيب ، وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ماله فى الآخرة من جهة عند الله ، وقال عبد الرزاق وقال الحسن ليس له دين ، وقال

سعد عن قتادة (ماله فى الآخرة من خلاق) قال ولقد علم أهل الكتاب فيما عهد الله إليهم أن الساحر لا خلاق له فى الآخرة وقوله تعالى (ولبئس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون * ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون) يقول تعالى (ولبئس) البديل ما استبدلوا به من السحر عوضا عن الإيمان ومتابعة الرسول لو كان لهم علم بما وعظوا به (ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير) أى ولو أنهم آمنوا بالله ورسله واتقوا المحارم لكان مثوبة الله على ذلك خيراً لهم مما استخاروا لأنفسهم ورضوا به كما قال تعالى (وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن وعمل صالحا ولا يلقاها إلا الصابرون)

وقد استدل بقوله (ولو أنهم آمنوا واتقوا) من ذهب إلى تكفير الساحر كما هو رواية عن الإمام أحمد بن حنبل وطائفة من السلف وقيل بل لا يكفر ولكن حده ضرب عنقه لما رواه الشافعى وأحمد بن حنبل قالا أخبرنا سفيان هو ابن عيينة عن عمرو بن دينار أنه سمع بجالة بن عبدة يقول كتب عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن اقتلوا كل ساحر وساحرة قال فقتلنا ثلاث سواحر وقد أخرجه البخارى فى صحيحه أيضاً وهكذا صح أن حفصة أم المؤمنين سحرتها جارية لها فأمرت بها فقتلت قال الإمام أحمد بن حنبل صح عن ثلاثة من أصحاب النبى ﷺ فى قتل الساحر وروى الترمذى من حديث إسماعيل بن مسلم عن الحسن عن جندب الأزدى أنه قال : قال رسول الله ﷺ «حد الساحر ضربه بالسيف » ثم قال لا نعرفه مرفوعا إلا من هذا الوجه ، وإسماعيل بن مسلم يضعف فى الحديث والصحيح عن الحسن عن جندب موقوفا قلت قد رواه الطبرانى من وجه آخر عن الحسن عن جندب مرفوعاً والله أعلم . وقد روى من طرق متعددة أن الوليد ابن عقبة كان عنده ساحر يلعب بين يديه فكان يضرب رأس الرجل ثم يصيح به فيرد إليه رأسه فقال الناس سبحان الله يحيى الموتى ورآه رجل من صالحى المهاجرين فلما كان الغد جاء مشتملا على سيفه وذهب يلعب لعبه ذلك فاخترط الرجل سيفه فضرب عنق الساحر وقال إن كان صادقا فليحى نفسه وتلا قوله تعالى (أفتأتون السحر وأنتم تبصرون) فغضب الوليد إذ لم يستأذنه فى ذلك فسجنه ثم أطلقه والله أعلم ، وقال الإمام أبو بكر الخلال : أخبرنا عبد الله بن أحمد ابن حنبل حدثنى ابى أخبرنا يحيى بن سعيد حدثنى أبو إسحق عن حارثة قال كان عند بعض الأمراء رجل يلعب فجاء جندب مشتملا على سيفه فقتله قال أراه كان ساحراً وحمل الشافعى رحمه الله قصة عمر وحفصة على سحر يكون شركا والله أعلم

﴿ فصل ﴾ حكى أبو عبد الله الرازى فى تفسيره عن المعتزلة أنهم أنكروا وجود السحر ، قال : وربما كفروا من اعتقد وجوده ، قال وأما أهل السنة فقد جوزوا أن يقدر الساحر أن يطير فى الهواء ويقلب الإنسان حماراً والحمار إنساناً إلا أنهم قالوا إن الله يخلق الأشياء عند ما يقول الساحر تلك الرقى والكلمات المعينة فأما أن يكون المؤثر فى ذلك هو الفلك والنجوم ، فلا ، خلافا للفلاسفة والمنجمين والصابئة ، ثم استدل على وقوع السحر وأنه يخلق الله تعالى بقوله تعالى (وما هم بضارين به من أحد إلا باذن الله) ومن الاخبار بأن رسول الله ﷺ سحر وأن السحر عمل فيه وبقصة تلك المرأة مع عائشة رضى الله عنها وماذكرت تلك المرأة من إتيانها بابل وتعلمها السحر قال وبما يذكر فى هذا الباب من الحكايات الكثيرة ، ثم قال بعد هذا

﴿ المسئلة الخامسة ﴾ فى أن العلم بالسحر ليس بقبيح ولا محظور ـ اتفق المحققون على ذلك لأن العلم لذاته شريف وأيضاً لعموم قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) ولأن السحر لو لم يكن يعلم لما أمكن الفرق بينه وبين المعجزة والعلم بكون المعجز معجزاً واجب وما يتوقف الواجب عليه فهو واجب فهذا يقتضى أن يكون تحصيل العلم بالسحر واجبا وما يكون واجباً فكيف يكون حراماً وقبيحاً ؟ هذا لفظه بحروفه فى هذه المسئلة وهذا الكلام فيه نظر من وجوه أحدها قوله العلم بالسحر ليس بقبيح إن عنى به ليس بقبيح عقلا فخالفوه من المعتزلة يمنعون هذا وإن عنى أنه ليس بقبيح شرعا ، ففى هذه الآية الكريمة تبشيع لتعلم السحر وفى الصحيح « من أتى عرافاً أو كاهناً فقد كفر بما أنزل على محمد » وفى السنن « من عقد عقدة ونفث فيها فقد سحر » ، وقوله ولا محظور اتفق المحققون

على ذلك . كيف لا يكون محظورا مع ما ذكرناه من الآية والحديث واتفاق المحققين يقتضى أن يكون قد نص على هذه المسئلة أئمة العلماء أو أكثرهم وأين نصوصهم على ذلك ؟ ثم إدخاله علم السحر فى عموم قوله تعالى (قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون) فيه نظر لأن هذه الآية إنما دلت على مدح العالمين العلم الشرعى ولم قلت إن هذا منه ثم ترقيه إلى وجوب تعلمه بأنه لا يحصل العلم بالمعجز إلا به ضعيف بل فاسد لأن أعظم معجزات رسولنا عليه الصلاة والسلام هى القرآن العظيم الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ثم إن العلم بأنه معجز لا يتوقف على علم السحر أصلا ، ثم من العلوم بالضرورة أن الصحابة والتابعين وأئمة المسلمين وعامتهم كانوا يعلمون المعجز ويفرقون بينه وبين غيره ، ولم يكونوا يعلمون السحر ولا تعلموه ولا علموه والله أعلم .

ثم قد ذكر أبو عبدالله الرازى أن أنواع السحر ثمانية (الأول) سحر الكذابين والكشدانيين الذين كانوا يعبدون الكواكب السبعة المتحيرة وهى السيارة وكانوا يعتقدون أنها مدبرة العالم وأنها تأتى بالخير والشر وهم الذين بعث الله اليهم ابراهيم الخليل صلى الله عليه وسلم مبطلا لمقالتهم ورادا لمذهبهم ، وقد استقصى فى (كتاب السر المكتوم ، فى مخاطبة الشمس والنجوم) المنسوب اليه كما ذكرها القاضى ابن خلكان وغيره ويقال إنه تاب منه ، وقيل بل صنفه على وجه اظهار الفضيلة لا على سبيل الاعتقاد ، وهذا هو المظنون به إلا أنه ذكر فيه طريقهم فى مخاطبة كل من هذه الكواكب السبعة وكيفية مايفعلون ومايلبسونه وما يتنسكون به

قال (والنوع الثانى) سحر أصحاب الأوهام والنفوس القوية ، ثم استدل على أن الوهم له تأثير بأن الانسان يمكنه ان يمشى على الجسر الموضوع على وجه الأرض ولا يمكنه المشى عليه إذا كان ممدودا على نهر أو نحوه ، قال وكما أجمعت الأطباء على نهى المرعوف عن النظر الى الأشياء الحمر والمصروع الى الأشياء القوية اللمعان أو الدوران وما ذاك إلا لأن النفوس خلقت مطيعة للأوهام . قال : وقد اتفق العقلاء على ان الاصابة بالعين حق — وله أن يستدل على ذلك بما ثبت فى الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « العين حق ولو كان شىء سابق القدر لسبقته العين » — قال فاذا عرفت هذا فنقول النفس التى تفعل هذه الأفاعيل قد تكون قوية جدا فتستغنى فى هذه الأفاعيل عن الاستعانة بالآلات والأدوات وقد تكون ضعيفة فتحتاج الى الاستعانة بهذه الآلات ، وتحقيقه ان النفس إذا كانت متعلية على البدن شديدة الانجذاب الى عالم السماوات صارت كأنها روح من الأرواح السماوية فكانت قوية على التأثير فى مواد هذا العالم ، واذا كانت ضعيفة شديدة التعلق بهذه الذات البدنية فحينئذ لا يكون لها تأثير البتة إلا فى هذا البدن ، ثم أرشد إلى مداواة هذا الداء بتقليل الغذاء ، والانقطاع عن الناس والرياء (قلت) وهذا الذى يشير إليه هو التصرف بالحال : وهو على قسمين تارة تكون حالا صحيحة شرعية يتصرف بها فيما أمر الله ورسوله ﷺ ، ويترك مانهى الله تعالى عنه ورسوله صلى الله عليه وسلم ، فهذه الأحوال مواهب من الله تعالى وكرامات للصالحين من هذه الأمة ولا يسمى هذا سحرا فى الشرع . وتارة تكون الحال فاسدة لا يمتثل صاحبها ما أمر الله ورسوله ﷺ ولا يتصرف بها فى ذلك ، فهذه حال الأشقياء المخالفين للشريعة ولا يدل إعطاء الله إياهم هذه الأحوال على محبته لهم كما أن الدجال له من الخوارق للعادات مادلت عليه الأحاديث الكثيرة مع أنه مذموم شرعا لعنه الله ، وكذلك من شابهه من مخالفى الشريعة المحمدية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام ، وبسط هذا يطول جدا وليس هذا موضعه :

قال (والنوع الثالث) من السحر الاستعانة بالأرواح الأرضية وهم الجن خلافا للفلاسفة والمعتزلة وهم على قسمين . مؤمنون ، وكفار وهم الشياطين . قال واتصال النفوس الناطقة بها أسهل من اتصالها بالأرواح السماوية لما بينهما من المناسبة والقرب ، ثم إن أصحاب الصنعه وأرباب التجربه شاهدوا أن الاتصال بهذه الأرواح الأرضية يحصل بأعمال سهلة قليلة من الرقى والدخن والتجريد ، وهذا النوع هو المسمى بالعزائم وعمل التسخير .

(النوع الرابع) من السحر التخيلات والأخذ بالعيون والشعبذة ومبناه على ان البصر قد يخطىء ويشتغل بالشىء

المعين دون غيره ، ألا ترى ذا الشعبذة الحاذق يظهر عمل شيء يذهل أذهان الناظرين به ويأخذ عيونهم اليه حتى إذا استفرغهم الشغل بذلك الشيء بالتحديق ونحوه عمل شيئا آخر عملا بسرعة شديدة وحينئذ يظهر لهم شيء آخر غير ما انتظروه فيتعجبون منه جدا ولو أنه سكت ولم يتكلم بما يصرف الخواطر إلى ضد مايريد أن يعمله ولم تتحرك النفوس والأوهام إلى غير مايريد إخراجه لفطن الناظرون لكل مايفعله (قال) وكلما كانت الأحوال تفيد حسن البصر نوعا من أنواع الخلل أشد كان العمل أحسن مثل أن يجلس الشعبذ فى موضع مضيء جدا أو مظلم فلا تقف القوة الناظرة على أحوالها والحالة هذه .

(قلت) وقد قال بعض المفسرين : إن سحر السحرة بين يدى فرعون إنما كان من باب الشعبذة ولهذا قال تعالى (فلما القوا سحروا أعين الناس واسترهبوهم وجاؤا بسحر عظيم) وقال تعالى (يخيل اليه من سحرهم أنها تسعى) قالوا : ولم تكن تسعى فى نفس الأمر والله أعلم .

(النوع الخامس من السحر) الأعمال العجيبة التى تظهر من تركيب آلات مركبة على النسب الهندسية كفارس على فرس فى يده بوق كلما مضت ساعة من النهار ضرب بالبوق من غير أن يمسه أحد . ـ ومنها الصور التى تصورها الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بينها وبين الانسان حتى يصورونها ضاحكة وباكية إلى أن قال : فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل قال : وكان سحر سحرة فرعون من هذا القبيل (قلت) يعنى ماقاله بعض المفسرين : إنهم عمدوا إلى تلك الحبال والعصى فحشوها زئبقا فصارت تتلوى بسبب مافيها من ذلك الزئبق فيخيل إلى الرائى انها تسعى باختيارها قال الرازى : ومن هذا الباب تركيب صندوق الساعات ، ويندرج فى هذا الباب علم جر الأثقال بالآلات الخفيفة قال : وهذا فى الحقيقة لاينبغى أن يعد من باب السحر لأن لها أسبابا معلومة يقينية من اطلع عليها قدر عليها (قلت) ومن هذا القبيل حيل النصارى على عامتهم بما يرونهم إياه من الأنوار كقضية قمامة الكنيسة التى لهم ببلد المقدس وما يحتالون به من إدخال النار خفية إلى الكنيسة واشعال ذلك القنديل بصنعة لطيفة تروج على الطغام منهم . وأما الخواص فهم معترفون بذلك ولكن يتأولون أنهم يجمعون شمل أصحابهم على دينهم فيرون ذلك سائغا لهم . وفيهم شبهة على الجهلة الأغبياء من متعبدى الكرامية الذين يرون جواز وضع الأحاديث فى الترغيب والترهيب فيدخلون فى عداد من قال رسول الله ﷺ فيهم « من كذب علىّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار » وقوله « حدثوا عنى ولا تكذبوا علىّ فانه من يكذب علىّ يلج النار » ثم ذكرهنا حكاية عن بعض الرهبان وهو أنه سمع صوت طائر حزين الصوت ضعيف الحركة فاذا سمعته الطيور ترق له فتذهب فتلقى فى وكره من ثمر الزيتون ليتبلغ به فعمد هذا الراهب إلى صنعة طائر على شكله وتوصل إلى ان جعله أجوف فاذا دخلته الريح يسمع منه صوت كصوت ذلك الطائر وانقطع فى صومعة ابتناها وزعم انها على قبر بعض صالحيهم وعلق ذلك الطائر فى مكان منها فاذا كان زمان الزيتون فتح بابا من ناحيته فيدخل الريح إلى داخل هذه الصورة فيسمع صوتها كل طائر فى شكله أيضا فتأتى الطيور فتحمل من الزيتون شيئا كثيرا فلا ترى النصارى إلا ذلك الزيتون فى هذه الصومعة ولا يدرون ماسببه ، ففتنهم بذلك وأوهم ان هذا من كرامات صاحب هذا القبر عليهم لعائن الله المتتابعة إلى يوم القيامة .

(قال الرازى : النوع السادس من السحر) الاستعانة بخواص الأدوية يعنى فى الأطعمة والدهانات قال : واعلم أنه لاسبيل الى إنكار الخواص فان تأثير المغناطيس مشاهد (قلت) يدخل فى هذا القبيل كثير ممن يدعى الفقر ويتحيل على جهلة الناس بهذه الخواص مدعيا انها أحوال له من مخالطة النيران ومسك الحيات الى غير ذلك من المحالات .

قال (النوع السابع من السحر) التعليق للقلب وهو ان يدعى الساحر انه عرف الاسم الأعظم وان الجن يطيعونه وينقادون له فى أكثر الأمور فإذا اتفق ان يكون السامع لذلك ضعيف العقل قليل التمييز اعتقد أنه حق وتعلق قلبه بذلك وحصل فى نفسه نوع من الرعب والمخافة فاذا حصل الخوف ضعفت القوى الحساسة فحينئذ يتمكن الساحر أن يفعل مايشاء (قلت) هذا النمط يقال له التنبلة وإنما يروج على الضعفاء العقول من بنى آدم . وفى علم الفراسة ما يرشد الى

معرفة كامل العقل من ناقصه ، فاذا كان النبيل حاذقا فى علم الفراسة عرف من يقاده من الناس من غيره

قال (النوع الثامن من السحر) السعى بالنميمة والتقريب[1] من وجوه خفيفة لطيفة وذلك شائع فى الناس (قلت) النميمة على قسمين تارة تكون على وجه التحريش بين الناس وتفريق قلوب المؤمنين فهذا حرام متفق عليه ، فأما إن كانت على وجه الإصلاح بين الناس وائتلاف كلمة المسلمين كما جاء فى الحديث « ليس بالكذاب من ينم خيرا » أو يكون على وجه التخذيل والتفريق بين جموع الكفرة فهذا أمر مطلوب كما جاء فى الحديث « الحرب خدعة » وكما فعل نعيم بن مسعود فى تفريقه بين كلمة الأحزاب وبين قريظة : جاء الى هؤلاء فنمى اليهم عن هؤلاء كلاما ، ونقل من هؤلاء إلى أولئك شيئاً آخر ، ثم لأم بين ذلك فتناكرت النفوس وافترقت ، وانما يحذو على مثل هذا الذكاء ذو البصيرة النافذة والله المستعان .

ثم قال الرازى فهذه جملة الكلام فى أقسام السحر وشرح أنواعه وأصنافه (قلت) وانما أدخل كثيرا من هذه الأنواع المذكورة فى فن السحر للطافة مداركها لأن السحر فى اللغة عبارة عما لطف وخفى سببه ولهذا جاء فى الحديث « إن من البيان لسحرا » وسمى السحور لكونه يقع خفيا آخر الليل ، والسحر الرئة وهى محل الغذاء وسميت بذلك لخفائها ولطف مجاريها الى أجزاء البدن وغضونه كما قال أبوجهل يوم بدر لعتبة . انتفخ سحره أى انتفخت رئته من الخوف . وقالت عائشة رضى الله عنها : توفى رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى ، وقال تعالى (سحروا أعين الناس) أى أخفوا عنهم عملهم والله أعلم .

وقال أبوعبد الله القرطبى : وعندنا أن السحر حق وله حقيقة يخلق الله عنده ما يشاء خلافا للمعتزلة وأبى إسحق الاسمرايني من الشافعية حيث قالوا . انه تمويه وتخييل قال ومن السحر ما يكون بخفة اليد كالشعوذة والشعوذى البريد لخفة سيره قال ابن فارس : وليست هذه الكلمة من كلام أهل البادية قال القرطبى : ومنه ما يكون كلاما يحفظ ورقى من أسماء الله تعالى وقد يكون من عهود الشياطين ويكون أدوية وأدخنة وغير ذلك قال : وقوله عليه السلام « إن من البيان لسحرا » يحتمل أن يكون مدحا كما تقوله طائفة ، ويحتمل أن يكون ذما للبلاغة قال : وهذا أصح قال لأنها تصوب الباطل حتى توهم السامع أنه حق كما قال عليه الصلاة والسلام « فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له » الحديث .

﴿ فصل ﴾ وقد ذكر الوزير أبو المظفر يحيى بن محمد بن هبيرة رحمه الله فى كتابه (الاشراف على مذاهب الاشراف) بابا فى السحر فقال أجمعوا على أن السحر له حقيقة إلا أبا حنيفة فانه قال . لاحقيقة له عنده واختلفوا فيمن يتعلم السحر ويستعمله ، فقال أبوحنيفة ومالك وأحمد يكفر بذلك ومن أصحاب أبى حنيفة من قال إن تعلمه ليتقيه أو ليجتنبه فلا يكفر ومن تعلمه معتقدا جوازه أو أنه ينفعه كفر ، وكذا من اعتقد أن الشياطين تفعل له مايشاء فهو كافر . وقال الشافعى رحمه الله إذا تعلم السحر قلنا له صف لنا سحرك فان وصف مايوجب الكفر مثل ما اعتقده أهل بابل من التقرب الى الكواكب السبعة وأنها تفعل ما يلتمس منها فهو كافر ، وان كان لا يوجب الكفر فان اعتقد اباحته فهو كافر ، قال ابن هبيرة : وهل يقتل بمجرد فعله واستعماله ؟ فقال مالك وأحمد نعم ، وقال الشافعى وأبوحنيفة لا ؛ فأما إن قتل بسحره إنسانا فانه يقتل عند مالك والشافعى وأحمد . وقال أبوحنيفة : لايقتل حتى يتكرر منه ذلك أو يقر بذلك فى حق شخص معين ، واذا قتل فانه يقتل حدا عندهم إلا الشافعى فانه قال يقتل والحالة هذه قصاصا قال وهل اذا تاب الساحر تقبل توبته ؟ فقال مالك وأبوحنيفة وأحمد فى المشهور عنهم : لا تقبل ، وقال الشافعى وأحمد فى الرواية الأخرى تقبل وأما ساحر أهل الكتاب فعند أبى حنيفة أنه يقتل كما يقتل الساحر المسلم وقال مالك وأحمد والشافعى : لايقتل يعنى لقصة لبيد بن الأعصم واختلفوا فى المسلمة الساحرة فعند أبى حنيفة انها لاتقتل ولكن تحبس ، وقال الثلاثة حكمها حكم الرجل والله أعلم . وقال أبوبكر الخلال . أخبرنا أبو بكر المروزى قال قرأ على أبى عبد الله — يعنى أحمد بن حنبل — عمر بن هرون أخبرنا يونس عن الزهرى : قال يقتل ساحر

(١) فى تفسير الرازى والتضريب بالضاد .

المسلمين ولا يقتل ساحر المشركين لأن رسول الله ﷺ سحرته امرأة من اليهود فلم يقتلها . وقد نقل القرطبي عن مالك رحمه الله أنه قال فى الذمى يقتل إن قتل سحره وحكى ابن خويز منداد عن مالك روايتين فى الذمى اذا سحر : إحداهما أنه يستتاب فان أسلم والا قتل ، والثانية أنه يقتل وان أسلم ، وأما الساحر المسلم فان تضمن سحره كفرا كفر عند الأئمة الأربعة وغيرهم لقوله تعالى (وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر) لكن قال مالك إذا ظهر عليه لم تقبل توبته لأنه كالزنديق فان تاب قبل أن يظهر عليه وجاءنا تائبا قبلناه ، فان قتل سحره قتل قال الشافعى : فان قال لم أتعمد القتل فهو مخطىء تجب عليه الدية .

﴿ مسئلة ﴾ وهل يسئل الساحر حلا لسحره فأجاز سعيد بن المسيب فيما نقله عنه البخارى ، وقال عامر الشعبى : لابأس بالنشرة وكره ذلك الحسن البصرى ، وفى الصحيح عن عائشة انها قالت يارسول الله هلا تنشرت ، فقال « أما الله فقد شفانى وخشيت أن أفتح على الناس شرا » وحكى القرطبى عن وهب : أنه قال يؤخذ سبع ورقات من سدر فتدق بين حجرين ثم تضرب بالماء ويقرأ عليها آية الكرسى ويشرب منها المسحور ثلاث حسوات ثم يغتسل بباقيه فانه يذهب مابه ، وهو جيد للرجل الذى يؤخذ عن امرأته (قلت) أنفع مايستعمل لإذهاب السحر ما أنزل الله على رسوله فى إذهاب ذلك وهما المعوذتان ، وفى الحديث « لم يتعوذ المتعوذ بمثلهما » وكذلك قراءة آية الكرسى فانها مطردة للشيطان :

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقُولُوا۟ رَٰعِنَا وَقُولُوا۟ ٱنظُرْنَا وَٱسْمَعُوا۟ ۗ وَلِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ * مَّا يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَلَا ٱلْمُشْرِكِينَ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْكُم مِّنْ خَيْرٍ مِّن رَّبِّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾

نهى الله تعالى عباده المؤمنين أن يتشبهوا بالكافرين فى مقالهم وفعالهم ، وذلك أن اليهود كانوا يعانون من الكلام مافيه تورية لما يقصدونه من التنقيص عليهم لعائن الله فاذا أرادوا أن يقولوا اسمع لنا يقولوا راعنا ويورون بالرعونة كما قال تعالى (من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعناً فى الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيراً لهم وأقوم ، ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا) وكذلك جاءت الأحاديث بالإخبار عنهم بأنهم كانوا اذا سلموا إنما يقولون السام عليكم ، والسام هو الموت ولهذا أمرنا أن نرد عليهم بوعليكم ، وانما يستجاب لنا فيهم ولا يستجاب لهم فينا ، والغرض أن الله تعالى نهى المؤمنين عن مشابهة الكافرين قولا وفعلا ، فقال (يا أيها الذين آمنوا لاتقولوا راعنا وقولوا انظرنا واسمعوا وللكافرين عذاب أليم) وقال الإمام أحمد : أخبرنا أبوالنضر أخبرنا عبد الرحمن أخبرنا ثابت أخبرنا حسان بن عطية عن أبى منيب الجرشى عن ابن عمر رضى الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « بعثت بين يدى الساعة بالسيف حتى يعبد الله وحده لاشريك له ، وجعل رزقى تحت ظل رمحى ، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمرى . ومن تشبه بقوم فهو منهم » . وروى أبوداود عن عثمان بن أبى شيبة عن أبى النضر هاشم أخبرنا ابن القاسم به « من تشبه بقوم فهو منهم » ففيه دلالة على النهى الشديد والتهديد والوعيد على التشبه بالكفار فى أقوالهم وأفعالهم ولباسهم وأعيادهم وعباداتهم وغير ذلك من أمورهم التى لم تشرع لنا ولا نقر عليها . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا نعيم بن حماد أخبرنا عبدالله ابن المبارك أخبرنا مسعر عن ابن معن وعون أو أحدهما أن رجلا أتى عبد الله بن مسعود فقال اعهد إلى ، فقال اذا سمعت الله يقول (يا أيها الذين آمنوا) فأرعها سمعك فانه خير يأمر به أو شر ينهى عنه وقال الأعمش عن خيثمة قال ماتقرءون فى القرآن (يا أيها الذين آمنوا) فانه فى التوراة ياأيها المساكين . وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أوعكرمة عن ابن عباس (راعنا) أى أرعنا سمعك . وقال الضحاك : عن ابن عباس (يا أيها

الذين آمنوا لا تقولوا راعنا) قال كانوا يقولون للنبي صلى الله عليه وسلم أرعنا سمعك وإنما راعنا كقولك عاطنا . وقال ابن أبي حاتم وروى عن أبي العالية وأبي مالك والربيع بن أنس وعطية العوفي وقتادة نحو ذلك ، وقال مجاهد (لاتقولوا راعنا) لاتقولوا خلافا ، وفي رواية لاتقولوا اسمع منا ونسمع منك . وقال عطاء لاتقولوا (راعنا) كانت لغة تقولها الأنصار فنهى الله عنها . وقال الحسن : (لا تقولوا راعنا) قال الراعن من القول السخرى منه نهاهم الله أن يسخروا من قول محمد صلى الله عليه وسلم ، وما يدعوهم إليه من الإسلام . وكذا روى عن ابن جريج أنه قال مثله وقال أبو صخر (لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ، إذا أدبر ناداه من كانت له حاجة من المؤمنين فيقول أرعنا سمعك فأعظم الله رسوله صلى الله عليه وسلم أن يقال ذلك له . وقال السدى : كان رجل من اليهود من بني قينقاع يدعى رفاعة بن زيد يأتي النبي ﷺ فاذا لقيه فكلمه قال : أرعنى سمعك واسمع غير مسمع ، وكان المسلمون يحسبون أن الأنبياء كانت تفخم بهذا فكان ناس منهم يقولون : اسمع غير مسمع غير صاغر ، وهي كالتي في سورة النساء فتقدم الله إلى المؤمنين أن لايقولوا راعنا وكذا قال عبدالرحمن بن زيد بن أسلم بنحو من هذا . قال ابن جرير والصواب من القول في ذلك عندنا أن الله نهى المؤمنين أن يقولوا لنبيه صلى الله عليه وسلم راعنا . لأنها كلمة كرهها الله تعالى أن يقولوها لنبيه صلى الله عليه وسلم نظير الذى ذكر عن النبي ﷺ أنه قال : « لاتقولوا للعنب الكرم ولكن قولوا الحبلة ولاتقولوا عبدى ولكن قولوا فتاى » وما أشبه ذلك . وقوله تعالى (مايود الذين كفروا من أهل الكتاب ولا المشركين أن ينزل عليكم من خير من ربكم) يبين بذلك تعالى شدة عداوة الكافرين من أهل الكتاب والمشركين الذين حذر الله تعالى من مشابهتهم للمؤمنين ليقطع المودة بينهم وبينهم ، ونبه تعالى على ما أنعم به على المؤمنين من الشرع التام الكامل الذى شرعه لنبيهم محمد صلى الله عليه وسلم حيث يقول تعالى (والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم)

﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴾

قال ابن أبي طلحة عن ابن عباس رضى الله عنهما (مانبدل من آية) مانبدل من آية. وقال ابن جريج عن مجاهد (ماننسخ من آية) اى مانمحو من آية ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (ماننسخ من آية) قال نثبت خطها ونبدل حكمها حدث به عن أصحاب عبد الله بن مسعود رضى الله عنهم . وقال ابن أبي حاتم . وروى عن أبي العالية ومحمد بن كعب القرظي نحو ذلك . وقال الضحاك (ماننسخ من آية) ماننسك وقال عطاء أما (ماننسخ) فما نترك من القرآن . وقال ابن أبي حاتم يعنى ترك فلم ينزل على محمد ﷺ . وقال السدى (ماننسخ من آية) نسخها قبضها . وقال ابن أبي حاتم : يعنى قبضها رفعها مثل قوله « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموها البتة » وقوله « لوكان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثا » وقال ابن جرير (ماننسخ من آية) ماننقل من حكم آية إلى غيره فنبدله ونغيره وذلك أن نحول الحلال حراما والحرام حلالا والمباح محظورا والمحظور مباحا ولايكون ذلك إلا في الأمر والنهى والحظر والاطلاق والمنع والاباحة . فأما الأخبار فلا يكون فيها ناسخ ولامنسوخ ، وأصل النسخ من نسخ الكتاب وهو نقله من نسخة أخرى إلى غيرها فكذلك معنى نسخ الحكم إلى غيره إنما هو تحويله ونقل عبارة إلى غيرها وسواء نسخ حكمها أو خطها إذ هى في كلتا حالتيها منسوخة . وأما علماء الأصول فاختلفت عباراتهم في حد النسخ والأمر في ذلك قريب ، لأن معنى النسخ الشرعى معلوم عند العلماء ولحظ بعضهم أنه رفع الحكم بدليل شرعى متأخر . فاندرج في ذلك نسخ الأخف بالأثقل وعكسه والنسخ لا إلى بدله[1] وأما تفاصيل أحكام النسخ وذكر أنواعه وشروطه فمبسوطة في أصول الفقه . وقال الطبراني . أخبرنا أبو سنبل عبيد الله بن عبدالرحمن بن واقد أخبرنا أبي أخبرنا العباس بن الفضل عن سليمان بن أرقم عن الزهرى عن سالم عن أبيه قال : قرأ رجلان سورة أقرأهما رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان

(١) الأظهر أن يقال : لا إلى بدل .

يقرآن بها فقاما ذات ليلة يصليان فلم يقدرا منها على حرف فأصبحا غاديين على رسول الله ﷺ ، فذكرا ذلك له فقال رسول الله ﷺ ، إنها مما نسخ وأنسى فالهوا عنها فكان الزهرى يقرؤها (ما ننسخ من آية أوننسها) بضم النون الخفيفة سلمان بن الأرقم ضعيف . وقد روى أبو بكر بن الأنبارى عن أبيه عن نصر بن داود عن أبى عبيد الله عن عبد الله بن صالح عن الليث عن يونس وعقيل عن ابن شهاب عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف مثله مرفوعا ذكره القرطبى وقوله تعالى (أوننسها) فقرىء على وجهين ننسأها وننسها ، فأما من قرأها بفتح النون والهمزة بعد السين فمعناه نؤخرها . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ماننسخ من آية أوننسأها) يقول ما نبدل من آيه أو نتركها لا نبدلها . وقال مجاهد عن أصحاب ابن مسعود أو ننسأها نثبت خطها ونبدل حكمها . وقال عبد بن عمير ومجاهد وعطاء أوننسأها نؤخرها ونرجئها . وقال عطية العوفى : أوننسأها : نؤخرها فلا ننسخها . وقال السدى مثله أيضا وكذا الربيع بن أنس ، وقال الضحاك (ماننسخ من آية أوننسأها) يعنى الناسخ من المنسوخ . وقال أبو العالية (ما ننسخ من آيه أوننسأها) نؤخرها عندنا ، وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا عبيد الله بن إسمعيل البغدادى أخبرنا خلف أخبرنا الخفاف عن إسمعيل يعنى ابن أسلم عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال خطبنا عمر رضى الله عنه فقال يقول الله عز وجل (ماننسخ من آية أو ننسأها) أى نؤخرها ، وأما على قراءة (أوننسها) فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة فى قوله (ما ننسخ من آية أوننسها) قال كان الله عز وجل ينسى نبيه صلى الله عليه وسلم مايشاء وينسخ ما يشاء

وقال ابن جرير . أخبرنا سواد بن عبد الله أخبرنا خالد بن الحارث أخبرنا عوف عن الحسن أنه قال فى قوله (أو ننسها) قال : إن نبيكم صلى الله عليه وسلم قرأ قرآنا ثم نسيه ، وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا ابن نفيل أخبرنا محمد بن الزبير الحرانى عن الحجاج يعنى الجزرى عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان مما ينزل على النبى صلى الله عليه وسلم الوحى بالليل وينساه بالنهار فأنزل الله عز وجل (ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) قال ابن أبى حاتم : قال لى أبو جعفر بن نفيل ليس هو الحجاج بن أرطاة هو شيخ لنا جزرى وقال عبيد بن عمير (أو ننسها) نرفعها من عندكم وقال ابن جرير حدثنى يعقوب بن إبراهيم أخبرنا هشيم عن يعلى بن عطاء عن القاسم بن ربيعة قال سمعت سعد ابن أبى وقاص يقرأ (ماننسخ من آية أو ننسها) قال : قلت له فان سعيد بن المسيب يقرأ (أو ننساها[1]) قال : فقال سعد إن القرآن لم ينزل على المسيب ولا على آل المسيب قال : قال الله جل ثناؤه (سنقرئك فلا تنسى) (واذكر ربك إذا نسيت) وكذا رواه عبد الرزاق عن هشيم وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى حاتم الرازى عن آدم عن شعبة عن يعلى بن عطاء به وقال على شرط الشيخين ولم يخرجاه . قال ابن أبى حاتم وروى عن محمد بن كعب وقتاده وعكرمة نحو قول سعيد . وقال الإمام أحمد أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان الثورى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال عمر على أقضانا وأبىّ أقرؤنا وإنا لندع من قول أبى وذلك أن أبيا يقول : ما أدع شيئا سمعته من رسول الله ﷺ والله يقول (ماننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها) قال البخارى أخبرنا يحيى أخبرنا سفيان عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال عمر : أقرؤنا أبىّ وأقضانا على وإنا لندع من قول أبى وذلك أن أبيا يقول : لاأدع شيئا سمعته من رسول الله ﷺ وقد قال الله (ما ننسخ من آية أو ننسها) وقوله (نأت بخير منها أومثلها) أى فى الحكم بالنسبة إلى مصلحة المكلفين كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (نأت بخير منها) يقول خير لكم فى المنفعة وأرفق بكم . وقال أبو العالية (ما ننسخ من آية) فلا نعمل بها (او ننسأها) أى نرجئها عندنا نأت بها أو نظيرها . وقال السدى (نأت بخير منها أو مثلها) يقول نأت بخير من الذى نسخناه أو مثل الذى تركناه . وقال قتادة (نأت بخير منها أومثلها) يقول آية فيها تخفيف فيها رخصة فيها أمر فيها نهى وقوله (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض وما لكم من دون الله من ولى ولا نصير) يرشد عباده تعالى بهذا إلى أنه المتصرف فى خلقه بما يشاء فله الخلق والأمر وهو المتصرف فكما خلقهم كما يشاء ويسعد من يشاء ويشقى من يشاء ويصح من يشاء ويمرض من يشاء ويوفق من يشاء ويخذل من يشاء كذلك

(١) هكذا فى جميع النسخ التى بأيدينا وفى ابن جرير قال سمعت سعد بن أبى وقاص يقول ما ننسخ من آية أو تنساها قلت له : فان سعيد بن المسيب يقرؤها أو ننسها إلخ

يحكم فى عباده بمايشاء فيحل مايشاء ويحرم مايشاء ويبيح مايشاء ويحظر مايشاء وهو الذى يحكم مايريد لامعقب لحكمه، ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، ويختبر عباده وطاعتهم لرسله بالنسخ فيأمر بالشىء لما فيه من المصلحة التى يعلمها تعالى ثم ينهى عنه لما يعلمه تعالى ، فالطاعة كل الطاعة فى امتثال أمره واتباع رسله فى تصديق ما أخبروا ، وامتثال ما أمروا ، وترك ماعنه زجروا وفى هذا المقام رد عظيم وبيان بليغ لكفر اليهود وتزييف شبههم لعنهم الله فى دعوى استحالة النسخ إما عقلا كما زعمه بعضهم جهلا وكفراً وإما نقلا كما تخرصه آخرون منهم افتراء وإفكا قال الإمام أبو جعفر بن جرير رحمه الله : فتأويل الآية ألم تعلم يامحمد أن لى ملك السموات والأرض وسلطانهما دون غيرى أحكم فيهما وفيما فيهما بما أشاء وآمر فيهما وفيما فيهما بما أشاء وأنهى عما أشاء وأنسخ وأبدل وأغير من أحكامى التى أحكم بها فى عبادى بما أشاء إذ أشاء وأقر فيهما ما أشاء ثم قال وهذا الخبر وإن كان خطابا من الله تعالى لنبيه ﷺ على وجه الخبر عن عظمته فانه منه جل ثناؤه تكذيب لليهود الذين أنكروا نسخ أحكام التوراة وجحدوا نبوة عيسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام لمجيئهما بما جاءا به من عند الله بتغيير ما غير الله من حكم التوراة فأخبرهم الله أن له ملك السموات والأرض وسلطانهما وأن الخلق أهل مملكته وطاعته وعليهم السمع والطاعة لأمره ونهيه وأن له أمرهم بما يشاء ونهيهم عما يشاء ونسخ مايشاء وإقرار مايشاء وإنشاء ما يشاء من إقراره وأمره ونهيه (قلت) الذى يحمل اليهود على البحث فى مسألة النسخ إنما هو الكفر والعناد فانه ليس فى العقل مايدل على امتناع النسخ فى أحكام الله تعالى لأنه يحكم مايشاء كما أنه يفعل مايريد مع أنه قد وقع ذلك فى كتبه المتقدمة وشرائعه الماضية كما أحل لآدم تزويج بناته من بنيه ثم حرم ذلك وكما أباح لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات ثم نسخ حل بعضها ، وكان نكاح الأختين مباحا لاسرائيل وبنيه وقد حرم ذلك فى شريعة التوراة وما بعدها وأمر ابراهيم عليه السلام بذبح ولده ثم نسخه قبل الفعل وأمر جمهور بنى إسرائيل بقتل من عبد العجل منهم ثم رفع عنهم القتل كيلا يستأصلهم القتل ، وأشياء كثيرة يطول ذكرها وهم يعترفون بذلك ويصدقون عنه ، وما يجاب به عن هذه الأدلة بأجوبة لفظية فلا يصرف الدلالة فى المعنى إذ هو المقصود وكما فى كتبهم مشهورا من البشارة بمحمد ﷺ والأمر باتباعه ، فانه يفيد وجوب متابعته عليه الصلاة والسلام وأنه لايقبل عمل إلا على شريعته ، وسواء قيل إن الشرائع المتقدمة مغياة الى بعثته عليه السلام فلا يسمى ذلك نسخا لقوله (ثم أتموا الصيام إلى الليل) وقيل إنها مطلقة وإن شريعة محمد صلى الله عليه وسلم نسختها ، فعلى كل تقدير فوجوب متابعته متعين لأنه جاء بكتاب هو آخر الكتب عهداً بالله تبارك وتعالى ، ففى هذا المقام بين تعالى جواز النسخ رداً على اليهود عليهم لعنة الله حيث قال تعالى (ألم تعلم أن الله على كل شىء قدير ؟ * ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض) الآية فكما أن له الملك بلا منازع فكذلك له الحكم بما يشاء (ألا له الخلق والأمر) وقرىء(١) فى سورة آل عمران التى نزل فى صدرها خطابا مع أهل الكتاب وقوع النسخ فى قوله تعالى (كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ماحرم إسرائيل على نفسه) الآية كما سيأتى تفسيره والمسلمون كلهم متفقون على جواز النسخ فى أحكام الله تعالى لما له فى ذلك من الحكمة البالغة وكلهم قال بوقوعه . وقال أبو مسلم الأصبهانى المفسر : لم يقع شىء من ذلك فى القرآن وقوله ضعيف مردود مرذول . وقد تعسف فى الأجوبة عما وقع من النسخ ، فمن ذلك قضية العدة بأربعة أشهر وعشر بعد الحول لم يجب عن ذلك بكلام مقبول ، وقضية تحويل القبلة الى الكعبة عن بيت المقدس لم يجب بشىء ، ومن ذلك نسخ مصابرة المسلم لعشرة من الكفرة إلى مصابرة الاثنين ، ومن ذلك نسخ وجوب الصدقة قبل مناجاة الرسول ﷺ وغير ذلك والله أعلم .

﴿ أَمْ تُرِيدُونَ أَن تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ وَمَن يَتَبَدَّلِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾

(١) كذا فى الأصل ولعله : وقرر .

نهى الله تعالى المؤمنين فى هذه الآية الكريمة عن كثرة سؤال النبى ﷺ عن الأشياء قبل كونها كما قال تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم) أى وإن تسألوا عن تفصيلها بعد نزولها تبين لكم ولا تسألوا عن الشىء قبل كونه فلعله أن يحرم من أجل تلك المسألة : ولهذا جاء فى الصحيح « إن أعظم المسلمين جرما من سأل عن شىء لم يحرم فحرم من أجل مسئلته » ولما سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يجد مع امرأته رجلا فان تكلم تكلم بأمر عظيم وإن سكت سكت على مثل ذلك فكره رسول الله ﷺ المسائل وعابها ، ثم أنزل الله حكم الملاعنة . ولهذا ثبت فى الصحيحين من حديث المغيرة ابن شعبة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : كان ينهى عن قيل وقال ، وإضاعة المال ، وكثرة السؤال . وفى صحيح مسلم « ذرونى ماتركتكم فانما هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم فإذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ما استطعتم ، وإن نهيتكم عن شىء فاجتنبوه » وهذا إنما قاله بعد ما أخبرهم أن الله كتب عليهم الحج فقال رجل أكل عام يارسول الله ؟ فسكت عنه رسول الله ﷺ ثلاثا . ثم قال عليه السلام « لا ولو قلت نعم لوجبت ولو وجبت لما استطعتم » ثم قال « ذرونى ما تركتكم » الحديث ولهذا قال أنس بن مالك : نهينا أن نسأل رسول الله ﷺ عن شىء فكان يعجبنا أن يأتى الرجل من أهل البادية فيسأله ونحن نسمع . وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده أخبرنا أبو كريب أخبرنا إسحق بن سليمان عن أبى سنان عن أبى إسحق عن البراء ابن عازب قال : إن كان ليأتى علىّ السنة أريد أن أسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الشىء فأتهيب منه وان كنا لنتمنى الأعراب . وقال البزار : أخبرنا محمد بن المثنى . أخبرنا ابن فضيل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : مارأيت قوماً خيراً من أصحاب محمد ﷺ ما سألوه الا عن اثنتى عشرة مسألة كلها فى القرآن (يسألونك عن الخمر والميسر - و - يسألونك عن الشهر الحرام - ويسألونك عن اليتامى) يعنى هذا وأشباهه

وقوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) أى بل تريدون أو هى على بابها فى الاستفهام وهو إنكارى وهو يعمّ المؤمنين والكافرين فانه عليه السلام رسول الله الى الجميع كما قال تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم) قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد عن ابن عباس قال: قال رافع بن حريملة ووهب بن زيد يامحمد ائتنا بكتاب تنزله علينا من السماء نقرؤه وفجر لنا أنهاراً نتبعك ونصدقك . فأنزل الله من قولهم (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل ؟ ومن يتبدل الكفر بالإيمان فقد ضل سواء السبيل)

وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) قال: قال رجل يارسول الله لو كانت كفارتنا ككفارة بنى إسرائيل فقال النبى ﷺ « اللهم لانبغيها - ثلاثا - ما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل كانت بنو إسرائيل إذا أصاب أحدهم الخطيئة وجدها مكتوبة على بابه وكفارتها فان كفرها كانت له خزيا فى الدنيا وان لم يكفرها كانت له خزيا فى الآخرة ، فما أعطاكم الله خير مما أعطى بنى إسرائيل » قال (ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما) وقال « الصلوات الخمس من الجمعة الى الجمعة كفارة لما بينهن » وقال « من همّ بسيئة فلم يعملها لم تكتب عليه وان عملها كتبت سيئة واحدة ، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة واحدة وان عملها كتبت له عشر أمثالها ولا يهلك على الله إلا هالك » فأنزل الله (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) وقال مجاهد (أم تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى من قبل) ان يريهم الله جهرة قال : سألت قريش محمداً ﷺ ان يجعل لهم الصفا ذهبا قال « نعم وهو لكم كالمائدة لبنى إسرائيل » فأبوا ورجعوا . وعن السدى وقتادة نحو هذا والله أعلم والمراد ان الله ذم من سأل الرسول ﷺ عن شىء على وجه التعنت والاقتراح كما سألت بنو إسرائيل موسى عليه السلام تعنتا وتكذيباً وعنادا . قال الله تعالى (ومن يتبدل الكفر بالإيمان) أى ومن يشترى الكفر بالإيمان (فقد ضل سواء السبيل)

أى فقد خرج عن الطريق المستقيم إلى الجهل والضلال. وهكذا حال الذين عدلوا عن تصديق الأنبياء واتباعهم والانقياد لهم إلى مخالفتهم وتكذيبهم والاقتراح عليهم بالأسئلة التى لا يحتاجون اليها على وجه التعنت والكفر كما قال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار) وقال أبو العالية يتبدل الشدة بالرخاء .

﴿ وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

يحذر تعالى عباده المؤمنين عن سلوك طريق الكفار من أهل الكتاب ويعلمهم بعداوتهم لهم فى الباطن والظاهر وما هم مشتملون عليه من الحسد للمؤمنين مع علمهم بفضلهم وفضل نبيهم ويأمر عباده المؤمنين بالصفح والعفو أو الاحتمال حتى يأتى أمر الله من النصر والفتح ويأمرهم بإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة ويحثهم على ذلك ويرغبهم فيه كما قال محمد بن إسحق ، حدثنى محمد بن أبى محمد عن سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال : كان حيى بن أخطب وأبو ياسر ابن أخطب من أشد يهود للعرب حسدا إذ خصهم الله برسوله صلى الله عليه وسلم وكانا جاهدين فى رد الناس عن الإسلام ما استطاعا فأنزل الله فيهما (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم) الآية . وقال عبد الرزاق عن معمر عن الزهرى فى قوله تعالى (ود كثير من أهل الكتاب) قال هو كعب بن الأشرف ، وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا أبى أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك عن أبيه أن كعب بن الأشرف اليهودى كان شاعرا وكان يهجو النبى صلى الله عليه وسلم وفيه أنزل الله (ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم) إلى قوله (فاعفوا واصفحوا) وقال الضحاك عن ابن عباس أن رسولا أميا يخبرهم بما فى أيديهم من الكتب والرسل والآيات ثم يصدق بذلك كله مثل تصديقهم ولكنهم جحدوا ذلك كفرا وحسدا وبغيا وكذلك قال الله تعالى (كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق) يقول من بعد ما أضاء لهم الحق لم يجهلوا منه شيئا ولكن الحسد حملهم على الجحود فعيرهم ووبخهم ولامهم أشد اللامة وشرع لنبيه صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ما هم عليه من التصديق والإيمان والاقرار بما أنزل الله عليهم وما أنزل من قبلهم بكرامته وثوابه الجزيل ومعونته لهم . وقال الربيع بن أنس (من عند أنفسهم) من قبل أنفسهم وقال أبو العالية (من بعد ما تبين لهم الحق) من بعد ما تبين أن محمداً رسول الله يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل فكفروا به حسدا وبغيا إذ كان من غيرهم وكذا قال قتادة والربيع بن أنس وقوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) مثل قوله تعالى (ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا) الآية . قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) والسدى[1] وقوله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره) نسخ ذلك قوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وقوله (قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر) إلى قوله (- وهم صاغرون) فنسخ هذا عفوه عن المشركين وكذا قال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدى إنها منسوخة بآية السيف ويرشد إلى ذلك أيضا قوله تعالى (حتى يأتى الله بأمره) وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهرى أخبرنى عروة ابن الزبير أن أسامة بن زيد أخبره قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب كما أمرهم الله ويصبرون على الأذى . قال الله (فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره إن الله على كل شىء قدير) وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتأول من العفو ما أمره الله به حتى أذن الله فيهم بالقتل فقتل الله به من قتل من صناديد قريش وهذا إسناده صحيح ولم أره فى شىء من الكتب الستة ولكن له أصل فى الصحيحين عن أسامة بن زيد .

(١) قوله والسدى وقوله الخ لعله زيادة من الناسخ فإنه ذكر بعد أن السدى قال بنسخ آية العفو بآيات السيف .

وقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) يحثهم تعالى على الاشتغال بما ينفعهم وتعود عليهم عاقبته يوم القيامة من إقام الصلاة وإيتاء الزكاه حتى يمكن لهم الله النصر فى الحياه الدنيا ويوم يقوم الأشهاد (يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار) ولهذا قال تعالى (إن الله بما تعملون بصير) يعنى أنه تعالى لا يغفل عن عمل عامل ولا يضيع لديه سواء كان خيراً أو شرا فانه سيجازى كل عامل بعمله . وقال أبو جعفر بن جرير فى قوله تعالى (إن الله بما تعملون بصير) هذا الخبر من الله للذين خاطبهم بهذه الآيات من المؤمنين أنهم مهما فعلوا من خير أو شر سرا وعلانية فهو به بصير لا يخفى عليه منه شىء فيجزيهم بالإحسان خيرا وبالاساءة مثلها وهذا الكلام وإن كان قد خرج مخرج الخبر فان فيه وعدا ووعيدا وأمرا وزجرا وذلك أنه أعلم القوم أنه بصير بجميع أعمالهم ليجدّوا فى طاعته إذ كان ذلك مذخورا لهم عنده حتى يثيبهم عليه كما قال تعالى (وما تقدموا لأنفسكم من خير تجدوه عند الله) وليحذروا معصيته قال وأما قوله (بصير) فانه مبصر صرف إلى بصير كما صرف مبدع إلى بديع ومؤلم إلى أليم والله أعلم.وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا أبوزرعة أخبرنا ابن بكير حدثنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن أبى الخير عن عقبة بن عامر قال . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ هذه الآية سميع بصير يقول بكل شىء بصير.

﴿ وَقَالُوا لَن يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ * بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِندَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَىٰ عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَىٰ لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَٰلِكَ قَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾

يبين تعالى اغترار اليهود والنصارى بما هم فيه حيث ادعت كل طائفة من اليهود والنصارى أنه لن يدخل الجنة إلا من كان على ملتها كما أخبر الله عنهم فى سورة المائدة أنهم قالوا (نحن أبناء الله وأحباؤه) فأكذبهم الله تعالى بما أخبرهم أنه معذبهم بذنوبهم ولو كانوا كما ادعوا لما كان الأمر كذلك وكما تقدم من دعواهم أنه لن تمسهم النار إلا أياما معدودة ثم ينتقلون إلى الجنة ورد عليهم تعالى فى ذلك وهكذا قال لهم فى هذه الدعوى التى ادعوها بلا دليل ولا حجة ولا بينة فقال (تلك أمانيهم) وقال أبو العالية أمانىّ تمنوها على الله بغير حق وكذا قال قتادة والربيع بن أنس ثم قال تعالى (قل) أى يا محمد (هاتوا برهانكم) قال أبو العالية ومجاهد والسدى والربيع بن أنس حجتكم وقال قتادة بينتكم على ذلك (إن كنتم صادقين) أى فيما تدعونه ، ثم قال تعالى (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) أى من أخلص العمل لله وحده لا شريك له كما قال تعالى (فان حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعن) الآية وقال أبو العالية والربيع (بلى من أسلم وجهه لله) يقول من أخلص لله وقال سعيد بن جبير (بلى من أسلم) أخلص (وجهه) قال دينه (وهو محسن) أى اتبع فيه الرسول صلى الله عليه وسلم فان للعمل المتقبل شرطين أحدهما أن يكون خالصا لله وحده والآخر أن يكون صوابا موافقا للشريعة فمتى كان خالصا ولم يكن صوابا لم يتقبل ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد » رواه مسلم من حديث عائشة عنه عليه الصلاة والسلام فعمل الرهبان ومن شابههم وإن فرض أنهم مخلصون فيه لله فانه لا يتقبل منهم حتى يكون ذلك متابعا للرسول صلى الله عليه وسلم المبعوث اليهم وإلى الناس كافة وفيهم وأمثالهم قال الله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا) وقال تعالى (وجوه يومئذ خاشعة عاملة ناصبة تصلى نارا حامية تسقى من عين آنية) وروى عن أمير المؤمنين عمر رضى الله عنه أنه تأولها

فى الرهبان كما سيأتى ، وأما إن كان العمل موافقاً للشريعة فى الصورة الظاهرة ولكن لم يخلص عامله القصد لله فهو أيضاً مردود على فاعله وهذا حال المرائين والمنافقين كما قال تعالى (إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا الى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا) وقال تعالى (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون الذين هم يراءون ويمنعون الماعون) ولهذا قال تعالى (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) وقال فى هذه الآية الكريمة (بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن) وقوله (فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) ضمن لهم تعالى على ذلك تحصيل الأجور وآمنهم مما يخافونه من المحذور فـ(لا خوف عليهم) فيما يستقبلونه ، (ولا هم يحزنون) على مامضى مما يتركونه ، كما قال سعيد بن جبير فـ(لا خوف عليهم) يعنى فى الآخرة (ولا هم يحزنون) يعنى لا يحزنون للموت .

وقوله تعالى (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب) بين به تعالى تناقضهم وتباغضهم وتعاديهم وتعاندهم ، كما قال محمد بن إسحق : حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أحبار يهود فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شىء وكفر بعيسى وبالإنجيل وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شىء وجحد نبوة موسى وكفر بالتوراة . فأنزل الله فى ذلك من قولهما (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب) قال إن كلا يتلو فى كتابه تصديق من كفر به أن يكفر اليهود بعيسى وعندهم التوراة فيها ما أخذ الله عليهم على لسان موسى بالتصديق بعيسى وفى الإنجيل ما جاء به عيسى بتصديق موسى وما جاء من التوراة من عند الله وكل يكفر بما فى يد صاحبه ، وقال مجاهد فى تفسير هذه الآية قد كانت أوائل اليهود والنصارى على شىء . وقال قتادة (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء) قال بلى قد كانت أوائل النصارى على شىء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا (وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) قال بلى قد كانت أوائل اليهود على شىء ولكنهم ابتدعوا وتفرقوا ، وعنه رواية أخرى كقول أبى العالية والربيع بن أنس فى تفسير هذه الآية (وقالت اليهود ليست النصارى على شىء وقالت النصارى ليست اليهود على شىء) هؤلاء أهل الكتاب الذين كانوا على عهد رسول الله ﷺ وهذ القول يقتضى أن كلا من الطائفتين صدقت فيما رمت به الطائفة الأخرى ولكن ظاهر سياق الآية يقتضى ذمهم فيما قالوه مع علمهم بخلاف ذلك ولهذا قال تعالى (وهم يتلون الكتاب) أى وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعة فى وقت ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادا وكفرا ومقابلة للفاسد بالفاسد كما تقدم عن ابن عباس ومجاهد وقتادة فى الرواية الأولى عنه فى تفسيرها والله أعلم وقوله (كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم) بين بهذا جهل اليهود والنصارى فيما تقابلوا به من القول وهذا من باب الإيماء والإشارة . وقد اختلف فيمن عنى بقوله تعالى (الذين لا يعلمون) فقال الربيع بن أنس وقتادة (كذلك قال الذين لا يعلمون) قالا : وقالت النصارى مثل قول اليهود وقيلهم . وقال ابن جريج : قلت لعطاء من هؤلاء الذين لا يعلمون؟ قال أمم كانت قبل اليهود والنصارى وقبل التوراة والإنجيل وقال السدى كذلك (قال الذين لا يعلمون) فهم العرب قالوا ليس محمد على شىء ، واختار أبو جعفر بن جرير انها عامة تصلح للجميع وليس ثم دليل قاطع يعين واحدا من هذه الأقوال والحمل على الجميع أولى والله أعلم . وقوله تعالى (فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون) أى أنه تعالى يجمع بينهم يوم المعاد ويفصل بينهم بقضائه العدل الذى لا يجور فيه ولا يظلم مثقال ذرة ، وهذه الآية كقوله تعالى فى سورة الحج (إن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا إن الله يفصل بينهم يوم القيامة إن الله على كل شىء شهيد) وكما قال تعالى (قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق وهو الفتاح العليم)

﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَاجِدَ اللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَىٰ فِي خَرَابِهَا ۚ أُولَٰئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَا

إِلَّا خَائِفِينَ * لَهُمْ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾

اختلف المفسرون فى المراد من الذين منعوا مساجد الله وسعوا فى خرابها على قولين : أحدهما مارواه العوفى فى تفسيره عن ابن عباس فى قوله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) قال هم النصارى . وقال مجاهد هم النصارى كانوا يطرحون فى بيت المقدس الأذى ويمنعون الناس أن يصلوا فيه. وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (وسعى فى خرابها) قال هو بختنصر وأصحابه خرب بيت المقدس وأعانه على ذلك النصارى . وقال سعيد عن قتادة : قال أولئك أعداء الله النصارى حملهم بغض اليهود على أن أعانوا بختنصر البابلى المجوسى على تخريب بيت المقدس . وقال السدى : كانوا ظاهروا بختنصر على خراب بيت المقدس حتى خربه وأمر أن تطرح فيه الجيف وإنما أعانه الروم على خرابه من أجل أن بنى إسرائيل قتلوا يحيى بن زكريا . وروى نحوه عن الحسن البصرى (القول الثانى) مارواه ابن جرير : حدثنى يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب قال : قال ابن زيد فى قوله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها) قال هؤلاء المشركون الذين حالوا بين رسول الله ﷺ يوم الحديبية وبين أن يدخلوا مكة حتى نحر هديه بذى طوى وهادنهم وقال لهم « ما كان أحد يصد عن هذا البيت ، وقد كان الرجل يلقى قاتل أبيه وأخيه فلا يصده » فقالوا لا يدخل علينا من قتل آباءنا يوم بدر وفينا باق . وفى قوله (وسعى فى خرابها) قال إذ قطعوا من يعمرها بذكره ويأتيها للحج والعمرة . وقال ابن أبى حاتم ذكر عن سلمة قال . قال محمد بن إسحق . حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد ابن جبير عن ابن عباس أن قريشاً منعوا النبى ﷺ الصلاة عند الكعبة فى المسجد الحرام فأنزل الله (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه) ثم اختار ابن جرير القول الأول واحتج بأن قريشا لم تسع فى خراب الكعبة وأما الروم فسعوا فى تخريب بيت المقدس (قلت) والذى يظهر . والله أعلم . القول الثانى كما قاله ابن زيد . وروى عن ابن عباس لأن النصارى إذا منعت اليهود الصلاة فى البيت المقدس كان دينهم أقوم من دين اليهود وكانوا أقرب منهم ولم يكن ذكر الله من اليهود مقبولا إذ ذاك لأنهم لعنوا من قبل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . وأيضا فانه تعالى لما وجه الذم فى حق اليهود والنصارى شرع فى ذم المشركين الذين أخرجوا الرسول ﷺ وأصحابه من مكة ومنعوهم من الصلاة فى المسجد الحرام وأما اعتماده على أن قريشاً لم تسع فى خراب الكعبة ، فأى خراب أعظم مما فعلوا ؟ أخرجوا عنها رسول الله ﷺ وأصحابه واستحوذوا عليها بأصنامهم وأندادهم وشركهم كما قال تعالى (وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون) وقال تعالى (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون * إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) وقال تعالى (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) فقال تعالى (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله) فاذا كان من هو كذلك مطروداً منها مصدودا عنها فأى خراب لها أعظم من ذلك ؟ وليس المراد من عمارتها زخرفتها وإقامة صورتها فقط إنما عمارتها بذكر الله فيها وإقامة شرعه فيها ورفعها عن الدنس والشرك . وقوله تعالى (أولئك ما كان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) هذا خبر معناه الطلب أى لا تمكنوا هؤلاء إذا قدرتم عليهم من دخولها إلا تحت الهدنة والجزية ولهذا لما فتح رسول الله ﷺ مكة أمر من العام القابل فى سنة تسع أن ينادى برحاب منى « ألا لا يحجن بعد العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ومن كان له أجل فأجله الى مدته » وهذا إذا كان تصديقا وعملا بقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) وقال بعضهم ما كان ينبغى لهم

أن يدخلوا مساجد الله إلا خائفين على حال التهيب وارتعاد الفرائص من المؤمنين أن يبطشوا بهم فضلا أن يستولوا عليها ويمنعوا المؤمنين منها . والمعنى ماكان الحق والواجب إلا ذلك لولا ظلم الكفرة وغيرهم وقيل إن هذا بشارة من الله للمسلمين أنه سيظهرهم على المسجد الحرام وعلى سائر المساجد وأنه يذل المشركين لهم حتى لايدخل المسجد الحرام أحد منهم إلا خائفاً يخاف أن يؤخذ فيعاقب أو يقتل إن لم يسلم . وقد أنجز الله هذا الوعد كما تقدم من منع المشركين من دخول المسجد الحرام وأوصى رسول الله ﷺ أن لا يبقى بجزيرة العرب دينان وأن يجلى اليهود والنصارى منها ولله الحمد والمنة . وما ذاك إلا تشريف أكناف المسجد الحرام وتطهير البقعة التى بعث الله فيها رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً صلوات الله وسلامه عليه وهذا هو الخزى لهم فى الدنيا لأن الجزاء من جنس العمل فكما صدوا المؤمنين عن المسجد الحرام صدوا عنه وكما أجلوهم من مكة أجلوا عنها (ولهم فى الآخرة عذاب عظيم) على ماانتهكوا من حرمة البيت وامتهنوه من نصب الأصنام حوله ودعاء غير الله عنده والطواف به عريا وغير ذلك من أفاعليهم التى يكرهها الله ورسوله وأما من فسر بيت المقدس فقال كعب الأحبار إن النصارى لما ظهروا على بيت المقدس خربوه فلما بعث الله محمداً ﷺ أنزل عليه (ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى فى خرابها أولئك ماكان لهم أن يدخلوها إلا خائفين) الآية فليس فى الأرض نصرانى يدخل بيت المقدس إلا خائفاً . وقال السدى فليس فى الأرض رومى يدخله اليوم إلا وهو خائف أن يضرب عنقه أو قد أخيف بأداء الجزية فهو يؤديها . وقال قتادة لايدخلون المساجد إلا مسارقة (قلت) وهذا لاينفى أن يكون داخلا فى معنى عموم الآية فان النصارى لما ظلموا بيت المقدس بامتهان الصخرة التى كانت تصلى اليها اليهود عوقبوا شرعا وقدرا بالذلة فيه إلا فى أحيان من الدهر أشحن بهم بيت المقدس . وكذلك اليهود لما عصوا الله فيه ايضاً أعظم من عصيان النصارى كانت عقوبتهم أعظم والله أعلم . وفسر هؤلاء الخزى فى الدنيا بخروج المهدى عند السدى وعكرمة ووائل بن داود ، وفسره قتادة بأداء الجزية عن يد وهم صاغرون . والصحيح أن الخزى فى الدنيا أعم من ذلك كله ، وقد ورد الحديث بالاستعاذه من خزى الدنيا وعذاب الآخرة كما قال الإمام أحمد أخبرنا الهيثم بن خارجة أخبرنا محمد بن أيوب بن ميسرة بن حلس سمعت أبى يحدث عن بشر بن أرطاة . قال كان رسول الله ﷺ يدعو « اللهم أحسن عاقبتنا فى الأمور كلها وأجرنا من خزى الدنيا وعذاب الآخرة » وهذا حديث حسن وليس فى شىء من الكتب الستة وليس لصحابيه وهو بشر بن أرطاة ويقال ابن أبى أرطاة حديث سواه وسوى حديث لا تقطع الأيدى فى الغزو

﴿ وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

وهذا والله أعلم فيه تسلية للرسول ﷺ وأصحابه الذين أخرجوا من مكة وفارقوا مسجدهم ومصلاهم وقد كان رسول الله ﷺ يصلى بمكة إلى بيت المقدس والكعبة بين يديه . فلما قدم المدينة وجه إلى بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهرا ثم صرفه الله إلى الكعبة بعد ولهذا يقول تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) قال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الناسخ والمنسوخ : أخبرنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان ابن عطاء عن عطاء عن ابن عباس قال : أول مانسخ لنا من القرآن فيما ذكر لنا والله أعلم شأن القبلة . قال الله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) فاستقبل رسول الله ﷺ فصلى نحو بيت المقدس وترك البيت العتيق ثم صرفه إلى بيته العتيق ونسخها . فقال (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام ، وحيث ماكنتم فولوا وجوهكم شطره) وقال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كان أول مانسخ من القرآن القبلة . وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة وكان أهلها اليهود أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهرا وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم وكان يدعو

وينظر إلى السماء فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) إلى قوله (فولوا وجوهكم شطره) فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب) وقال (فأينما تولوا فثم وجه الله) وقال عكرمة عن ابن عباس (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال قبلة الله أينما توجهت شرقا أو غربا . وقال مجاهد (فأينما تولوا فثم وجه الله) حيثما كنتم فلكم قبلة تستقبلونها الكعبة . وقال ابن أبى حاتم بعد رواية الأثر المتقدم عن ابن عباس فى نسخ القبلة عن عطاء عنه وروى عن أبى العالية والحسن وعطاء الخراسانى وعكرمة وقتادة والسدى وزيد بن أسلم نحو ذلك . وقال ابن جرير وقال آخرون بل أنزل الله هذه الآية قبل أن يفرض التوجه إلى الكعبة وانما أنزلها ليعلم نبيه ﷺ وأصحابه أن لهم التوجه بوجوههم للصلاة حيث شاءوا من نواحى المشرق والمغرب لأنهم لا يوجهون وجوههم وجها من ذلك وناحية إلا كان جل ثناؤه فى ذلك الوجه وتلك الناحية لأن له تعالى المشارق والمغارب وأنه لا يخلو منه مكان كما قال تعالى (ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم أينما كانوا) قالوا ثم نسخ ذلك بالفرض الذى فرض عليهم التوجه إلى المسجد الحرام هكذا قال. وفى قوله وانه تعالى لا يخلو منه مكان إن أراد علمه تعالى فصحيح ، فان علمه تعالى محيط بجميع المعلومات ،وأما ذاته تعالى فلا تكون محصورة فى شىء من خلقه تعالى الله عن ذلك علواً كبيرا . قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية على رسول الله صلى الله عليه وسلم إذنا من الله أن يصلى المتطوع حيث توجه من شرق أو غرب فى مسيره فى سفره وفى حال المسايفة وشدة الخوف . حدثنا أبو كريب أخبرنا ابن إدريس حدثنا عبد الملك هو ابن أبى سليمان عن سعيد بن جبير عن ابن عمر أنه كان يصلى حيث توجهت به راحلته . ويذكر أن رسول الله ﷺ كان يفعل ذلك ويتأول هذه الآية (فأينما تولوا فثم وجه الله) ورواه مسلم والترمذى والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه من طرق عن عبد الملك بن أبى سليمان به وأصله فى الصحيحين من حديث ابن عمر وعامر بن ربيعة من غير ذكر الآية . وفى صحيح البخارى من حديث نافع عن ابن عمر أنه كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها : ثم قال فإن كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا قياما على أقدامهم وركبانا مستقبلى القبلة وغير مستقبليها . قال نافع ولا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ

﴿ مسألة ﴾ ولم يفرق الشافعى فى المشهور عنه بين سفر المسافة وسفر العدوى فالجميع عنه يجوز التطوع فيه على الراحلة وهو قول أبى حنيفة خلافا لمالك وجماعته واختار أبو يوسف وأبو سعيد الاصطخرى التطوع على الدابة فى المصر وحكاه أبو يوسف عن أنس بن مالك رضى الله عنه واختاره أبو جعفر الطبرى حتى للماشى أيضا . قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية فى قوم عميت عليهم القبلة فلم يعرفوا شطرها فصلوا على أنحاء مختلفة فقال الله تعالى : لى المشارق والمغارب فأين وليتم وجوهكم فهناك وجهى وهو قبلتكم فيعلمكم بذلك أن صلاتكم ماضية . حدثنا محمد بن إسحق الأهوازى أخبرنا أبو أحمد الزبيرى أخبرنا أبو الربيع السمان عن عاصم بن عبيد الله عن عبد الله بن عامر بن ربيعة عن أبيه قال : كنا مع رسول الله ﷺ فى ليلة سوداء مظلمة فنزلنا منزلا فجعل الرجل يأخذ الأحجار فيعمل مسجدا يصلى فيه ، فلما أن أصبحنا إذا نحن قد صلينا إلى غير القبلة فقلنا يارسول الله لقد صلينا ليلتنا هذه لغير القبلة فأنزل الله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) الآية ثم رواه عن سفيان بن وكيع عن أبيه عن أبى الربيع السمان بنحوه . ورواه الترمذى عن محمود بن غيلان عن وكيع وابن ماجه عن يحيى بن حكيم عن أبى داود عن أبى الربيع السمان ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن سعيد بن سليمان عن أبى الربيع السمان واسمه أشعث بن سعيد البصرى وهو ضعيف الحديث وقال الترمذى هذا حديث حسن وليس إسناده بذاك ولا نعرفه إلا من حديث الأشعث السمان ، وأشعث يضعف فى الحديث . قلت وشيخه عاصم أيضاً ضعيف . قال البخارى منكر الحديث . وقال ابن معين : ضعيف لا يحتج به وقال ابن حبان . متروك والله أعلم

وقد روى من طريق آخر عن جابر فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية أخبرنا إسماعيل بن على ابن إسماعيل أخبرنا الحسن بن على بن شبيب حدثنى أحمد بن عبد الله بن الحسن قال : وجدت فى كتاب أبى أخبرنا

عبد الملك العزرمى عن عطاء بن جابر قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم سرية كنت فيها فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة فقالت طائفة منا قد عرفنا القبلة هى ههنا قبل الشمال فصلوا وخطوا خطوطا فلما أصبحوا وطلعت الشمس أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي صلى الله عليه وسلم فسكت وأنزل الله تعالى (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) ثم رواه من حديث محمد بن عبيد الله العزرمى عن عطاء عن جابر به ، وقال الدارقطنى قرئ على عبد الله بن عبد العزيز وأنا أسمع حدثكم داود بن عمرو أخبرنا محمد بن يزيد الواسطى عن محمد بن سالم عن عطاء عن جابر قال كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى مسير فأصابنا غيم فتحيرنا فاختلفنا فى القبلة فصلى كل رجل منا على حدة وجعل أحدنا يخط بين يديه لنعلم أمكنتنا فذكرنا ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلم يأمرنا بالإعادة وقال قد أجزت صلاتكم ثم قال الدارقطنى كذا قال عن محمد بن سالم ، وقال غيره عن محمد بن عبد الله العزرمى عن عطاء وهما ضعيفان ، ورواه ابن مردويه أيضا من حديث الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ بعث سرية فأخذتهم ضبابة فلم يهتدوا الى القبلة فصلوا لغير القبلة ثم استبان لهم بعد ماطلعت الشمس أنهم صلوا لغير القبلة ، فلما جاءوا إلى رسول الله ﷺ حدثوه فأنزل الله تعالى هذه الآية (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) وهذه الأسانيد فيها ضعف ولعله يشد بعضها بعضا وأما إعادة الصلاة لمن تبين له خطؤه ففيها قولان للعلماء وهذه دلائل على عدم القضاء والله أعلم .

قال ابن جرير وقال آخرون بل نزلت هذه الآية فى سبب النجاشى كما حدثنا محمد بن بشار أخبرنا معاذ بن هشام حدثنى أبى عن قتادة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال إن أخا لكم قد مات فصلوا عليه قالوا نصلى على رجل ليس بمسلم ؟ قال فنزلت (وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل اليكم وما أنزل اليهم خاشعين لله) قال قتادة فقالوا إنه كان لايصلى إلى القبلة فأنزل الله (ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله) وهذا غريب والله أعلم وقد قيل إنه كان يصلى الى بيت المقدس قبل أن يبلغه الناسخ الى الكعبة كما حكاه القرطبي عن قتادة وذكر القرطبي أنه لما مات صلى عليه رسول الله ﷺ فأخذ بذلك من ذهب الى الصلاة على الغائب قال وهذا خاص عند أصحابنا من ثلاثة أوجه — أحدها — أنه عليه السلام شاهده حين سوّى عليه طويت له الأرض . الثانى أنه لما لم يكن عنده من يصلى عليه صلى عليه واختاره ابن العربى ، قال القرطبي ويبعد أن يكون ملك مسلم ليس عنده أحد من قومه على دينه وقد أجاب ابن العربى عن هذا لعلهم لم يكن عندهم شرعية الصلاة على الميت . وهذا جواب جيد : الثالث أنه عليه الصلاة والسلام إنما صلى عليه ليكون ذلك كالتأليف لبقية الملوك والله أعلم .

وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث أبى معشر عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما بين المشرق والمغرب قبلة لأهل المدينة وأهل الشام وأهل العراق » وله مناسبة ههنا وقد أخرجه الترمذى وابن ماجه من حديث أبى معشر واسمه نجيح بن عبد الرحمن السندى المدنى به « مابين المشرق والمغرب قبلة » وقال الترمذى وقد روى من غير وجه عن أبى هريرة وتكلم بعض أهل العلم فى أبى معشر من قبل حفظه ، ثم قال الترمذى حدثنى الحسن بن بكر المروزى أخبرنا المعلى بن منصور أخبرنا عبد الله بن جعفر المخزومى عن عثمان بن محمد بن المغيرة الأخنس[1] عن أبى سعيد المقبرى عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مابين المشرق والمغرب قبلة » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح ، وحكى عن البخارى أنه قال هذا أقوى من حديث أبى معشر وأصح ، قال الترمذى وقد روى عن غير واحد من الصحابة « مابين المشرق المغرب قبلة » منهم عمر بن الخطاب وعلى وابن عباس رضى الله عنهم أجمعين . وقال ابن عمر إذا جعلت المغرب عن يمينك والمشرق عن يسارك فما بينهما قبلة إذا استقبلت القبلة ثم قال ابن مردويه حدثنا على بن أحمد بن عبد الرحمن أخبرنا يعقوب بن يوسف مولى بنى هاشم أخبرنا شعيب بن أيوب أخبرنا ابن نمير عن عبد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « مابين المشرق والمغرب قبلة » وقد رواه الدارقطنى والبيهقى : وقال المشهور عن ابن عمر عن عمر رضى

(١) فى خلاصة تذهيب الكمال وفى صحيح الترمذى أيضا عبد الله بن جعفر المخرمى عن عثمان بن محمد بن المغيرة بن الأخنس اهـ

الله عنهما قوله(١) قال ابن جرير ويحتمل فأينما تولوا وجوهكم فى دعائكم لى فهنالك وجهى أستجيب لكم دعاءكم كما حدثنا القاسم أخبرنا الحسين حدثنى حجاج قال . قال ابن جريج : قال مجاهد لما نزلت (ادعونى أستجب لكم) قالوا إلى أين فنزلت (فأينما تولوا فثم وجه الله) قال ابن جرير ومعنى قوله (إن الله واسع عليم) يسع خلقه كلهم بالكفاية والجود والإفضال : وأما قوله (عليم) فانه يعنى عليم بأعمالهم مايغيب عنه منها شىء ولايعزب عن علمه بل هو بجميعها عليم.

﴿ وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَل لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَّهُ قَانِتُونَ * بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة والتى تليها على الرد على النصارى عليهم لعائن الله وكذا من أشبههم من اليهود ومن مشركى العرب ممن جعل الملائكة بنات الله فأكذب الله جميعهم فى دعواهم وقولهم إن لله ولدا فقال تعالى (سبحانه) أى تعالى وتقدس وتنزه عن ذلك علوا كبيرا (بل له مافى السموات والأرض) أى ليس الأمر كما افتروا وإنما له ملك السموات والأرض ومن فيهن وهو المتصرف فيهم وهو خالقهم ورازقهم ومقدرهم ومسخرهم ومسيرهم ومصرفهم كما يشاء والجميع عبيده وملك له فكيف يكون له ولد منهم والولد إنما يكون متولدا من شيئين متناسبين وهو تبارك وتعالى ليس له نظير ولا مشارك فى عظمته وكبريائه ولا صاحبة له فكيف يكون له ولد ؟ كما قال تعالى (بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم) وقال تعالى (وقالوا اتخذ الرحمن ولدا لقد جئتم شيئا إدا * تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدا * أن دعوا للرحمن ولدا * وماينبغى للرحمن أن يتخذ ولدا إن كل من فى السموات والأرض إلا آت الرحمن عبدا لقد أحصاهم وعدهم عدا وكلهم آتيه يوم القيامة فردا) وقال تعالى (قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفوا أحد) فقرر تعالى فى هذه الآيات الكريمة أنه السيد العظيم الذى لانظير له ولاشبيه له وأن جميع الأشياء غيره مخلوقة له مربوبة فكيف يكون له منها ولد ؟ ولهذا قال البخارى فى تفسير هذه الآية من البقرة : أخبرنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن عبد الله بن أبى الحسين حدثنا نافع بن جبير هو ابن مطعم عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « قال الله تعالى كذبنى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتمنى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فيزعم أنى لا أقدر أن أعيده كما كان ، وأما شتمه إياى فقوله إن لى ولدا فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا » انفرد به البخارى من هذا الوجه . وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل أخبرنا محمد بن إسماعيل الترمذى أخبرنا محمد بن إسحق بن محمد القروى أخبرنا مالك عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « يقول الله تعالى كذبنى ابن آدم وما ينبغى له ان يكذبنى وشتمنى وما ينبغى له أن يشتمنى ، فأما تكذيبه إياى فقوله لن يعيدنى كما بدأنى وليس أول الخلق بأهون علىّ من إعادته وأما شتمه إياى فقوله : اتخذ الله ولدا . وأنا الله الأحد الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد » وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » وقوله (كل له قانتون) قال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا اسباط عن مطرف عن عطية عن ابن عباس قال (قانتين) مصلين وقال عكرمة وأبو مالك (كل له قانتون) مقرون له بالعبودية وقال سعيد بن جبير كل له قانتون يقول الاخلاص وقال الربيع بن أنس يقول (كل له قانتون) أى قائم يوم القيامة ، وقال السدى (كل له قانتون) أى مطيعون يوم القيامة ، وقال خصيف عن مجاهد (كل له قانتون) قال مطيعون كن إنسانا فكان ، وقال كن حمارا فكان ، وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد كل له قانتون مطيعون قال طاعة الكافر فى سجود ظله وهو كاره وهذا القول عن مجاهد وهو اختيار ابن جرير يجمع الأقوال كلها وهو ان القنوت والطاعة والاستكانة الى الله وهو شرعى وقدرى كما قال تعالى (ولله يسجد من فى السموات ومن فى الأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال) . وقد ورد حديث فيه بيان القنوت فى القرآن ما هو المراد به كما قال ابن أبى حاتم أخبرنا يوسف بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى عمرو بن الحارث ان دراجا أبا السمح حدثه عن أبى الهيثم عن

(١) كذا فى الأصل ولعله « من قوله » أى أنه غير مرفوع .

أبى سعيد الخدرى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «كل حرف من القرآن يذكر فيه القنوت فهو الطاعة» وكذا رواه الإمام أحمد عن حسن بن موسى عن ابن لهيعة عن دراج باسناده مثله ولكن فى هذا الإسناد ضعف لا يعتمد عليه، ورفع هذا الحديث منكر وقد يكون من كلام الصحابى أو من دونه والله أعلم. وكثير ما يأتى بهذا الإسناد تفاسير فيها نكارة فلا يغتر بها فإن السند ضعيف والله أعلم:

وقوله تعالى (بديع السموات والأرض) أى خالقهما على غير مثال سبق: قال مجاهد والسدى وهو مقتضى اللغة ومنه يقال للشىء المحدث بدعة كما جاء فى صحيح مسلم فإن كل محدثة بدعة والبدعة على قسمين تارة تكون بدعة شرعية كقوله «فإن كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» وتارة تكون بدعة لغوية كقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب عن جمعه إياهم على صلاة التراويح واستمرارهم: نعمت البدعة هذه وقال ابن جرير (بديع السموات والأرض) مبدعها وإنما هو مفعل فصرف إلى فعيل كما صرف المؤلم إلى الأليم والمسمع إلى السميع ومعنى المبدع المنشىء والمحدث مالا يسبقه إلى إنشاء مثله وإحداثه أحد قال ولذلك سمى المبتدع فى الدين مبتدعا لإحداثه فيه مالم يسبق إليه غيره وكذلك كل محدث قولا أو فعلا لم يتقدم فيه متقدم فإن العرب تسميه مبتدعاً ومن ذلك قول أعشى بن ثعلبة فى مدح هوذة بن على الحنفى

يدعى إلى قول سادات الرجال إذا * أبدوا له الحزم أو ما شاءه ابتدعا

أى يحدث ماشاء قال ابن جرير فمعنى الكلام سبحان الله أن يكون له ولد وهو مالك ما فى السموات والأرض تشهد له جميعها بدلالتها عليه بالوحدانية وتقر له بالطاعة وهو بارئها وخالقها وموجدها من غير أصل ولا مثال احتذاها عليه وهذا إعلام من الله لعباده أن ممن يشهد له بذلك المسيح الذى أضافوا إلى الله بنوته وإخبار منه لهم أن الذى ابتدع السموات والأرض من غير أصل وعلى غير مثال هو الذى ابتدع المسيح عيسى من غير والد بقدرته وهذا من ابن جرير رحمه الله كلام جيد وعبارة صحيحة. وقوله تعالى وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون يبين بذلك تعالى كمال قدرته وعظيم سلطانه وأنه إذا قدر أمراً وأراد كونه فإنما يقول له كن أى مرة واحدة فيكون أى فيوجد على وفق ما أراد كما قال تعالى (إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون) وقال تعالى (إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) وقال تعالى (وما أمرنا إلا واحدة كلمح بالبصر) وقال الشاعر:

إذا ما أراد الله أمراً فإنما يقول له كن قولة فيكون

ونبه بذلك أيضاً على أن خلق عيسى بكلمة كن فكان كما أمره الله، قال الله تعالى (إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون)

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا ءَايَةٌ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْآيَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾

قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس، قال قال رافع بن حريملة لرسول الله ﷺ يا محمد إن كنت رسولا من الله كما تقول فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه فأنزل الله فى ذلك من قوله (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) وقال مجاهد (وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية) قال النصارى تقوله، وهو اختيار ابن جرير قال لأن السياق فيهم. وفى ذلك نظر وحكى القرطبى (لولا يكلمنا الله) أى يخاطبنا بنبوتك يا محمد (قلت) وهو ظاهر السياق والله أعلم، وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة والسدى فى تفسير هذه الآية هذا قول كفار العرب (كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم) قال هم اليهود والنصارى ويؤيد هذا القول وأن القائلين ذلك هم مشركو العرب قوله تعالى (وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتى مثل ما أوتى رسل الله) الآية وقوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا) إلى قوله (قل سبحان ربى هل كنت إلا بشراً رسولا) وقوله تعالى (وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا

الملائكة أو نرى ربنا) الآية وقوله تعالى (بل يريد كل امرئ منهم أن يؤتى صحفاً منشرة) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على كفر مشركى العرب وعتوهم وعنادهم وسؤالهم مالا حاجة لهم به إنما هو الكفر والمعاندة كما قال من قبلهم من الأمم الخالية من أهل الكتابين وغيرهم كما قال تعالى (يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة) وقال تعالى (وإذ قلتم يا موسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة) وقوله تعالى (تشابهت قلوبهم) أى أشبهت قلوب مشركى العرب قلوب من تقدمهم فى الكفر والعناد والعتو كما قال تعالى (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به ؟) الآية وقوله تعالى (قد بينا الآيات لقوم يوقنون) أى قد أوضحنا الدلالات على صدق الرسل بما لا يحتاج معها إلى سؤال آخر وزيادة أخرى لمن أيقن وصدق واتبع الرسل وفهم ما جاءوا به عن الله تبارك وتعالى وأما من ختم الله على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة فأولئك قال الله فيهم (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم)

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ ﴾

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أخبرنا عبد الرحمن بن صالح أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الفزارى عن شيبان النحوى أخبرنى قتادة عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « أنزلت على (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً) قال بشيراً بالجنة ونذيراً من النار » وقوله (ولا تسئل عن أصحاب الجحيم) قراءة أكثرهم ولا تسئل بضم التاء على الخبر وفى قراءة أبى بن كعب وما تسئل وفى قراءة ابن مسعود ولن تسئل عن أصحاب الجحيم نقلها ابن جرير أى لا نسألك عن كفر من كفر بك كقوله (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) وكقوله تعالى (فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمسيطر) الآية وكقوله تعالى (نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد) وأشباه ذلك من الآيات ، وقرأ آخرون « ولا تسأل عن أصحاب الجحيم » بفتح التاء على النهى أى لا تسأل عن حالهم كما قال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن موسى بن عبيدة عن محمد بن كعب القرظى قال ، قال رسول الله ﷺ « ليت شعرى ما فعل أبواى ليت شعرى ما فعل أبواى ليت شعرى ما فعل أبواى ؟» فنزلت (ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) فما ذكرهما حتى توفاه الله عز وجل ورواه ابن جرير عن أبى كريب عن وكيع عن موسى بن عبيدة وقد تكلموا فيه عن محمد بن كعب بمثله وقد حكاه القرطبى عن ابن عباس ومحمد بن كعب قال القرطبى : وهذا كما يقال لا تسأل عن فلان أى قد بلغ فوق ما تحسب وقد ذكرنا فى التذكرة أن الله أحيا له أبويه حتى آمنا به وأجبنا عن قوله « إن أبى وأباك فى النار » (قلت) والحديث المروى فى حياة أبويه عليه السلام ليس فى شىء من الكتب الستة ولا غيرها وإسناده ضعيف والله أعلم . ثم قال ابن جرير وحدثنى القاسم أخبرنا الحسين حدثنى حجاج عن ابن جريج أخبرنى داود بن أبى عاصم به أن النبى ﷺ قال ذات يوم « أين أبواى » ؟ فنزلت (إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم) وهذا مرسل كالذى قبله وقد رد ابن جرير هذا القول المروى عن محمد بن كعب وغيره فى ذلك لاستحالة الشك من الرسول ﷺ فى أمر أبويه واختار القراءة الأولى وهذا الذى سلكه ههنا فيه نظر لاحتمال أن هذا كان فى حال استغفاره لأبويه قبل أن يعلم أمرهما فلما علم ذلك تبرأ منهما وأخبر عنهما أنهما من أهل النار كما ثبت هذا فى الصحيح ، ولهذا أشباه كثيرة ونظائر ولا يلزم ما ذكر ابن جرير والله أعلم

وقال الإمام أحمد أخبرنا موسى بن داود حدثنا فليح بن سليمان عن هلال بن على عن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله ابن عمرو بن العاص فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال : أجل والله إنه لموصوف فى التوراة بصفته فى القرآن . يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحرزا للأميين : وأنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ، لا فظ ولا غليظ ولا سخاب فى الأسواق ولا يدفع بالسيئة السيئة ولكن يعفو ويغفر ولن يقبضه حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله فيفتح به أعينا عمياً وآذانا صماً وقلوباً غلفاً . انفرد بإخراجه

البخارى فرواه فى البيوع عن محمد بن سنان عن فليح به وقال تابعه عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال . وقال سعيد عن هلال عن عطاء عن عبدالله بن سلام ، ورواه فى التفسير عن عبدالله عن عبد العزيز بن أبى سلمة عن هلال عن عطاء عن عبد الله بن عمرو بن العاص به فذكر نحوه ، فعبد الله هذا هو ابن صالح كما صرح به فى كتاب الأدب ، وزعم ابن مسعود الدمشقى أنه عبد الله بن رجاء ، وقد رواه الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من البقرة عن أحمد بن الحسن ابن أيوب عن محمد بن أحمد بن البراء عن المعافى بن سليمان عن فليح به وزاد : قال عطاء ثم لقيت كعب الأحبار فسألته فما اختلفا فى حرف إلا أن كعبا قال : بلغته أعينا عمومى وآذاناً صمومى وقلوباً غلوفاً

﴿ وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ * ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَتْلُونَهُۥ حَقَّ تِلَاوَتِهِۦٓ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴾

قال ابن جرير يعنى بقوله جل ثناؤه (ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم) وليست اليهود يا محمد ولا النصارى براضية عنك أبداً فدع طلب مايرضيهم ويوافقهم وأقبل على طلب رضا الله فى دعائهم إلى مابعثك الله به من الحق ، وقوله تعالى (قل إن هدى الله هو الهدى) أى قل يا محمد إن هدى الله الذى بعثنى به هو الهدى يعنى هو الدين المستقيم الصحيح الكامل الشامل ، قال قتادة فى قوله (قل إن هدى الله هو الهدى) قال خصومة علمها الله محمداً ﷺ وأصحابه يخاصمون بها أهل الضلالة ، قال قتادة : وبلغنا أن رسول الله ﷺ كان يقول : « لاتزال طائفة من أمتى يقاتلون على الحق ظاهرين لايضرهم من خالفهم حتى يأتى أمر الله » (قلت) هذا الحديث مخرج فى الصحيح عن عبد الله بن عمرو (ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير) فيه تهديد ووعيد شديد للأمة عن اتباع طرائق اليهود والنصارى بعد ما علموا من القرآن والسنة عياذاً بالله من ذلك فإن الخطاب مع الرسول والأمر لأمته : وقد استدل كثير من الفقهاء بقوله (حتى تتبع ملتهم) حيث أفرد الملة على أن الكفر كله ملة واحدة كقوله تعالى (لكم دينكم ولى دين) فعلى هذا لايتوارث المسلمون والكفار وكل منهم يرث قرينه سواء كان من أهل دينه أم لا لأنهم كلهم ملة واحدة وهذا مذهب الشافعى وأبى حنيفة وأحمد فى رواية عنه ، وقال فى الرواية الأخرى كقول مالك ، إنه لايتوارث أهل ملتين شتى كما جاء فى الحديث والله أعلم — وقوله (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة : هم اليهود والنصارى وهو قول عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وقال سعيد عن قتادة : هم أصحاب رسول الله ﷺ وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا إبراهيم بن موسى وعبد الله بن عمران الاصبهانى قال أخبرنا يحيى بن يمان حدثنا أسامة بن زيد عن أبيه عن عمر ابن الخطاب (يتلونه حق تلاوة) قال : إذا مر بذكر الجنة سأل الله الجنة ، وإذا مر بذكر النار تعوذ بالله من النار ، وقال أبو العالية قال ابن مسعود والذى نفسى بيده إن حق تلاوته أن يحل حلاله ويحرم حرامه ويقرأه كما أنزله الله ولا يحرف الكلم عن مواضعه ولايتأول منه شيئاً على غير تأويله وكذا رواه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ومنصور ابن المعتمر عن ابن مسعود قال السدى عن أبى مالك عن ابن عباس فى هذه الآية قال : يحلون حلاله ويحرمون حرامه ولا يحرفونه عن مواضعه . قال ابن أبى حاتم : وروى عن ابن مسعود نحو ذلك ، وقال الحسن البصرى : يعملون بمحكمه ويؤمنون بمتشابهه ويكلون ماأشكل عليهم إلى عالمه . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو زرعة أخبرنا إبراهيم بن موسى أخبرنا ابن أبى زائدة أخبرنا داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى قوله (يتلونه حق تلاوته) قال . يتبعونه حق اتباعه ثم قرأ (والقمر إذا تلاها) يقول اتبعها قال . وروى عن عكرمة وعطاء ومجاهد وأبى رزين وإبراهيم النخعى نحو ذلك . وقال سفيان الثورى أخبرنا زبيد عن مرة عن عبد الله بن مسعود فى قوله (يتلونه حق تلاوته) قال

يتبعونه حق اتباعه ، قال القرطبي وروى نصر بن عيسى عن مالك عن نافع عن ابن عمر عن النبي ﷺ في قوله (يتلونه حق تلاوته) قال « يتبعونه حق اتباعه » ثم قال في إسناده غير واحد من المجهولين فيما ذكره الخطيب إلا أن معناه صحيح . وقال أبو موسى الأشعري : من يتبع القرآن يهبط به على رياض الجنة وعن عمر بن الخطاب : هم الذين إذا مروا بآية رحمة سألوها من الله ، وإذا مروا بآية عذاب استعاذوا منها قال : وقد روى هذا المعنى عن النبي ﷺ أنه كان إذا مر بآية رحمة سأل ، وإذا مر بآية عذاب تعوذ وقوله (أولئك يؤمنون به) خبر عن (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته) أي من أقام كتابه من أهل الكتب المنزلة على الأنبياء المتقدمين حق إقامته آمن بما أرسلتك به يا محمد كما قال تعالى (ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم) الآية وقال (قل يا أهل الكتاب لستم على شيء حتى تقيموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليكم من ربكم) أي إذا أقمتموها حق الإقامة وآمنتم بها حق الإيمان وصدقتم ما فيها من الأخبار بمبعث محمد ﷺ ونعته وصفته والأمر باتباعه ونصره وموازرته قادكم ذلك إلى الحق واتباع الخير في الدنيا والآخرة كما قال تعالى (الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل) الآية وقال تعالى (قل آمنوا به أو لا تؤمنوا إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجداً ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا) أي إن كان ما وعدنا به من شأن محمد ﷺ لواقعا وقال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون * وإذا يتلى عليهم قالوا آمنا به إنه الحق من ربنا إنا كنا من قبله مسلمين * أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرؤن بالحسنة السيئة ومما رزقناهم ينفقون) وقال تعالى (وقل للذين أوتوا الكتاب والأميين أأسلمتم ؟ فإن أسلموا فقد اهتدوا وإن تولوا فإنما عليك البلاغ والله بصير بالعباد) ولهذا قال تعالى (ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون) كما قال تعالى (ومن يكفر به من الأحزاب فالنار موعده) . وفي الصحيح « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم لا يؤمن بي إلا دخل النار » .

﴿ يَٰبَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتِيَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ وَأَنِّي فَضَّلۡتُكُمۡ عَلَى ٱلۡعَٰلَمِينَ * وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا لَّا تَجۡزِي نَفۡسٌ عَن نَّفۡسٖ شَيۡـٔٗا وَلَا يُقۡبَلُ مِنۡهَا عَدۡلٞ وَلَا تَنفَعُهَا شَفَٰعَةٞ وَلَا هُمۡ يُنصَرُونَ ﴾

قد تقدم نظير هذه الآية في صدر السورة وكررت ههنا للتأكيد والحث على اتباع الرسول النبي الأمي الذي يجدون صفته في كتبهم ونعته واسمه وأمره وأمته فحذرهم من كتمان هذا ، وكتمان ما أنعم به عليهم وأمرهم أن يذكروا نعمة الله عليهم من النعم الدنيوية والدينية ولا يحسدوا بني عمهم من العرب على ما رزقهم الله من إرسال الرسول الخاتم منهم ، ولا يحملهم ذلك الحسد على مخالفته وتكذيبه والحيد عن موافقته ، صلوات الله وسلامه عليه دائماً إلى يوم الدين

﴿ وَإِذِ ٱبۡتَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٖ فَأَتَمَّهُنَّۖ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامٗاۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِيۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهۡدِي ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

يقول تعالى منبها على شرف إبراهيم خليله عليه السلام وأن الله تعالى جعله إماماً للناس يقتدى به في التوحيد حين قام بما كلفه الله تعالى به من الأوامر والنواهي ولهذا قال (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) أي واذكر يا محمد لهؤلاء المشركين وأهل الكتابين الذين ينتحلون ملة إبراهيم وليسوا عليها وإنما الذي هو عليها مستقيم فأنت والذين معك من المؤمنين اذكر لهؤلاء ابتلاء الله إبراهيم أي اختباره له بما كلفه به من الأوامر والنواهي (فأتمهن) أي قام بهن كلهن كما قال تعالى (وإبراهيم الذي وفى) أي وفى جميع ما شرع له فعمل به صلوات الله عليه وقال تعالى : (إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين * شاكراً لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه في الدنيا حسنة وإنه في الآخرة لمن

الصالحين * ثم أوحينا إليك أن اتبع ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وقال تعالى (قل إننى هدانى ربى الى صراط مستقيم * ديناً قيماً ملة إبراهيم حنيفاً وما كان من المشركين) وقال تعالى (ما كان إبراهيم يهودياً ولانصرانياً لكن كان حنيفاً مسلما وما كان من المشركين* إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبي والذين آمنوا والله ولىّ المؤمنين) وقوله تعالى (بكلمات) أى بشرائع وأوامر ونواه ، فان الكلمات تطلق ويراد بها الكلمات القدرية كقوله تعالى عن مريم عليها السلام (وصدقت بكلمات ربها وكتبه وكانت من القانتين) وتطلق ويراد بها الشرعية كقوله تعالى (وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً) أى كلماته الشرعية ، وهى إما خبر صدق وإما طلب عدل إن كان أمراً أو نهياً ومن ذلك هذه الآية الكريمة (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) أى قام بهن قال (إنى جاعلك للناس إماما) أى جزاء على ما فعل كما قام بالأوامر وترك الزواجر جعله الله للناس قدوة وإماما يقتدى به ويحتذى حذوه

وقد اختلف فى تعيين الكلمات التى اختبر الله بها إبراهيم الخليل عليه السلام ، فروى عن ابن عباس فى ذلك روايات فقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة قال ابن عباس : ابتلاه الله بالمناسك ، وكذا رواه أبو إسحق السبيعى عن التيمى عن ابن عباس . وقال عبد الرزاق أيضاً أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات) قال ابتلاه بالطهارة خمس فى الرأس وخمس فى الجسد ، فى الرأس قص الشارب والمضمضة والاستنشاق والسواك وفرق الرأس وفى الجسد تقليم الأظفار وحلق العانة والختان ونتف الإبط وغسل أثر الغائط والبول بالماء ، قال ابن أبى حاتم: وروى عن سعيد بن المسيب ومجاهد والشعبى والنخعى وأبى صالح وأبى الجلد[1] نحو ذلك (قلت) وقريب من هذا ماثبت فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ « عشر من الفطرة قص الشارب وإعفاء اللحية والسواك واستنشاق الماء وقص الأظفار وغسل البراجم ونتف الإبط وحلق العانة وانتقاص الماء . ونسيت العاشرة الا أن تكون المضمضة » . قال وكيع : انتقاص الماء يعنى الاستنجاء وفى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « الفطرة خمس : الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الأظفار ونتف الإبط » ولفظه لمسلم وقال ابن أبى حاتم : أنبأنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن حنش بن عبد الله الصنعانى عن ابن عباس أنه كان يقول فى تفسير هذه الآية (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال عشر ست فى الإنسان وأربع فى المشاعر . فأما التى فى الإنسان حلق العانة ونتف الإبط والختان[2] وكان ابن هبيرة يقول : هؤلاء الثلاثة واحدة ، وتقليم الأظفار وقص الشارب والسواك وغسل يوم الجمعة والأربعة التى فى المشاعر الطواف والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار والإفاضة . وقال داود ابن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : ما ابتلى بهذا الدين أحد فقام به كله إلا ابراهيم قال الله تعالى (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قلت له وما الكلمات التى ابتلى الله ابراهيم بهن فأتمهن ؟ قال : الإسلام ثلاثون سهماً منها عشر آيات فى براءة (التائبون العابدون) الى آخر الآية ، وعشر آيات فى أول سورة (قد أفلح المؤمنون) و (سأل سائل بعذاب واقع) وعشر آيات فى الأحزاب (إن المسلمين والمسلمات) الى آخر الآية فأتمهن كلهن فكتبت له براءة قال الله (وابراهيم الذى وفى) هكذا رواه الحاكم وأبو جعفر بن جرير وأبو محمد بن أبى حاتم بأسانيدهم الى داود بن أبى هند به وهذا لفظ ابن أبى حاتم وقال محمد بن اسحق عن محمد بن أبى محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس قال : الكلمات التى ابتلى الله بهن ابراهيم فأتمهن ، فراق قومه فى الله حين أمر بمفارقتهم . ومحاجته نمروذ فى الله حين وقفه على ما وقفه عليه من خطر الأمر الذى فيه خلافه ، وصبره على قذفه إياه فى النار ليحرقوه فى الله على هول ذلك من أمرهم ، والهجرة بعد ذلك من وطنه وبلاده فى الله حين أمره بالخروج عنهم وما أمره به من الضيافة والصبر عليها بنفسه وماله ، وما ابتلى به من ذبح ابنه حين أمره . بذبحه ، فلما مضى على ذلك من الله كله وأخلصه للبلاء قال الله له (أسلم قال أسلمت لرب العالمين) على ما كان من خلاف الناس وفراقهم . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا إسماعيل بن علية عن أبى رجاء

(١) فى ابن جرير أبى الخلد فليحرر . (٢) كذا فى النسخ المطبوعة ونسخة خزانة الأزهر المخطوطة وفى الدر المنثور أو الختان وبهذا التشكيك يصح العدد ، وليس فيه : هؤلاء الثلاثة واحدة .

عن الحسن يعنى البصرى (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال ابتلاه بالكوكب فرضى عنه ، وابتلاه بالقمر فرضى عنه ، وابتلاه بالشمس فرضى عنه ، وابتلاه بالهجرة فرضى عنه ، وابتلاه بالختان فرضى عنه ، وابتلاه بابنه فرضى عنه . وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع أخبرنا سعيد عن قتادة قال كان الحسن يقول اى والله لقد ابتلاه بأمر فصبر عليه — ابتلاه بالكوكب والشمس والقمر فأحسن فى ذلك وعرف أن ربه دائم لايزول فوجه وجهه للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما كان من المشركين ، ثم ابتلاه بالهجرة فخرج من بلاده وقومه حتى لحق بالشام مهاجراً الى الله ، ثم ابتلاه بالنار قبل الهجرة فصبر على ذلك وابتلاه بذبح ابنه والختان فصبر على ذلك وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عمن سمع الحسن يقول فى قوله (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) قال ابتلاه الله بذبح ولده وبالنار وبالكوكب والشمس والقمر وقال أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا سلم بن قتيبة أخبرنا أبو هلال عن الحسن (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) قال ابتلاه بالكوكب وبالشمس والقمر فوجده صابراً وقال العوفى فى تفسيره عن ابن عباس (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) فمنهن (قال إنى جاعلك للناس إماماً) ومنهن (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) ومنهن الآيات فى شأن المنسك والمقام الذى جعل لإبراهيم والرزق الذى رزق ساكنو البيت ومحمد بعث فى دينهما : وقال ابن أبى حاتم أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا شبابة عن ورقاء عن ابن أبى نجيح عن مجاهد فى قوله تعالى (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال الله لإبراهيم إنى مبتليك بأمر فما هو ؟ قال : تجعلنى للناس إماما ؟ قال نعم : قال : ومن ذريتى ؟ (قال لاينال عهدى الظالمين) قال : تجعل البيت مثابة للناس . قال نعم : قال: وأمناً . قال نعم : قال وتجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك . قال نعم . قال : وترزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله . قال نعم قال ابن أبى نجيح سمعته من عكرمة فعرضته على مجاهد فلم ينكره ، وهكذا رواه ابن جرير من غير وجه عن ابن أبى نجيح عن مجاهد ، وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن) قال ابتلى بالآيات التى بعدها (إنى جاعلك للناس إماماً . قال ومن ذريتى قال لاينال عهدى الظالمين) وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس (وإذ ابتلى ابراهيم ربه بكلمات) قال الكلمات (إنى جاعلك للناس إماماً) وقوله (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً) وقوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقوله (وعهدنا إلى ابراهيم وإسماعيل) الآية وقوله (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) الآية قال فذلك كله من الكلمات التى ابتلى بهن ابراهيم، وقال السدى الكلمات التى ابتلى بهن ابراهيم ربه (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذرينا أمة مسلمة لك . ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) وقال القرطبى وفى الموطأ وغيره عن يحيى بن سعيد أنه سمع سعيد بن المسيب يقول : ابراهيم عليه السلام أول من اختتن وأول من ضاف الضيف وأول من قلم أظفاره وأول من قص الشارب وأول من شاب فلما رأى الشيب قال ماهذا ؟ قال وقار قال . يارب زدنى وقاراً وذكر ابن أبى شيبة عن سعد بن ابراهيم عن أبيه قال أول من خطب على المنابر ابراهيم عليه السلام ، قال غيره وأول من برّد البريد وأول من ضرب بالسيف وأول من استاك وأول من استنجى بالماء وأول من لبس السراويل ، وروى عن معاذ بن جبل قال : قال رسول الله ﷺ « إن أتخذ المنبر فقد اتخذه أبى ابراهيم ، وان أتخذ العصا فقد اتخذها أبى ابراهيم » (قلت) هذا حديث لايثبت والله أعلم . ثم شرع القرطبى يتكلم على مايتعلق بهذه الأشياء من الأحكام الشرعية .

قال أبو جعفر بن جرير ماحاصله انه يجوز أن يكون المراد بالكلمات جميع ماذكر وجائز أن يكون بعض ذلك ولا يجوز الجزم بشىء منها أنه المراد على التعيين الا بحديث أو إجماع قال ولم يصح فى ذلك خبر بنقل الواحد ولا بنقل الجماعة الذى يجب التسليم له . قال غير أنه قد روى عن النبى ﷺ فى نظير معنى ذلك خبران أحدهما ماحدثنا به أبو كريب أخبرنا راشد بن سعد حدثنى زبان بن فائد عن سهل بن معاذ بن أنس قال كان النبى ﷺ يقول « ألا أخبركم لم سمى الله ابراهيم خليله . الذى وفى .لأنه كان يقول كلما أصبح وكلما أمسى . (سبحان الله حين تمسون وحين تصبحون * وله الحمد فى السموات والأرض وعشيا وحين تظهرون) الى آخر الآية» قال والآخر منهما

ما حدثنا به أبو كريب أخبرنا الحسن عن عطية أخبرنا إسرائيل عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي أمامة قال: قال رسول الله ﷺ (وإبراهيم الذي وفى) قال « أتدرون ما وفى ؟ » قالوا الله ورسوله أعلم قال « وفى عمل يومه أربع ركعات فى النهار » ورواه آدم فى تفسيره عن حماد بن سلمة وعبد بن حميد عن يونس بن محمد عن حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير به ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين وهو كما قال فإنه لا يجوز روايتهما إلا ببيان ضعفهما وضعفهما من وجوه عديدة فإن كلا من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء مع ما فى متن الحديث مما يدل على ضعفه والله أعلم . ثم قال ابن جرير ولو قال قائل إن الذي قاله مجاهد وأبو صالح والربيع بن أنس أولى بالصواب من القول الذي قاله غيرهم كان مذهبا لأن قوله (إني جاعلك للناس إماما) وقوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين) الآية وسائر الآيات التي هي نظير ذلك كالبيان عن الكلمات التي ذكر الله أنه ابتلى بهن إبراهيم (قلت) والذي قاله أولا من أن الكلمات تشمل جميع ما ذكر أقوى من هذا الذي جوزه من قول مجاهد ومن قال مثله لأن السياق يعطى غير ما قالوه والله أعلم

وقوله قال (ومن ذريتي) قال (لا ينال عهدي الظالمين) لما جعل الله إبراهيم إماماً سأل الله أن تكون الأئمة من بعده من ذريته فأجيب إلى ذلك وأخبر أنه سيكون من ذريته ظالمون وأنه لا ينالهم عهد الله ولا يكونون أئمة فلا يقتدى بهم والدليل على أنه أجيب إلى طلبته قوله تعالى فى سورة العنكبوت (وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) فكل نبي أرسله الله وكل كتاب أنزله الله بعد إبراهيم ففي ذريته صلوات الله وسلامه عليه وأما قوله تعالى (قال لا ينال عهدي الظالمين) فقد اختلفوا فى ذلك فقال خصيف عن مجاهد فى قوله (قال لا ينال عهدي الظالمين) قال إنه سيكون فى ذريتك ظالمون ، وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (قال لا ينال عهدي الظالمين) قال لا يكون لي إمام ظالم ، وفى رواية لا أجعل إماما ظالما يقتدى به . وقال سفيان عن منصور عن مجاهد فى قوله تعالى (قال لا ينال عهدي الظالمين) قال لا يكون إمام ظالم يقتدى به . وقال ابن أبي حاتم أخبرنا أبي أخبرنا مالك بن إسماعيل أخبرنا شريك عن منصور عن مجاهد فى قوله (ومن ذريتي) قال أما من كان منهم صالحاً فأجعله إماما يقتدى به وأما من كان ظالما فلا ولا نعمة عين . وقال سعيد بن جبير (لا ينال عهدي الظالمين) المراد به الشرك لا يكون إمام ظالم يقول لا يكون إمام مشرك ، وقال ابن جريج عن عطاء قال (إني جاعلك للناس إماماً) قال ومن ذريتي فأبى أن يجعل من ذريته إماماً ظالماً قلت لعطاء ما عهده قال أمره : وقال ابن أبي حاتم أخبرنا عمرو ابن ثور القيساري فيما كتب إلى أخبرنا الفريابي حدثنا إسماعيل حدثنا سماك بن حرب عن عكرمة عن ابن عباس ، قال قال الله لإبراهيم إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي فأبى أن يفعل ثم قال (لا ينال عهدي الظالمين) وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبي محمد عن سعيد أو عكرمة عن ابن عباس (قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) يخبره أنه كائن فى ذريته ظالم لا ينال عهده ولا ينبغي أن يوليه شيئاً من أمره وإن كان من ذرية خليله ، ومحسن ستنفذ فيه دعوته وتبلغ له فيه ما أراد من مسئلته . وقال العوفي عن ابن عباس (لا ينال عهدي الظالمين) قال يعني لا عهد لظالم عليك فى ظلمه أن تطيعه فيه ، وقال ابن جرير حدثنا إسحق أخبرنا عبد الرحمن بن عبد الله عن إسرائيل عن مسلم الأعور عن مجاهد عن ابن عباس قال (لا ينال عهدي الظالمين) قال ليس للظالمين عهد وإن عاهدته أنقضه : وروى عن مجاهد وعطاء ومقاتل بن حيان نحو ذلك : وقال الثوري عن هارون بن عنترة عن أبيه قال ليس لظالم عهد وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (لا ينال عهدي الظالمين) قال لا ينال عهد الله فى الآخرة الظالمين فأما فى الدنيا فقد ناله الظالم فآمن به وأكل وعاش ، وكذا قال إبراهيم النخعي وعطاء والحسن وعكرمة ، وقال الربيع بن أنس عهد الله الذي عهد إلى عباده دينه يقول لا ينال دينه الظالمين ألا ترى أنه قال (وباركنا عليه وعلى إسحق ومن ذريتهما محسن وظالم لنفسه مبين) يقول ليس كل ذريتك يا إبراهيم على الحق وكذا روى عن أبي العالية وعطاء ومقاتل بن حيان وقال جويبر عن الضحاك لا ينال طاعتي عدو لي يعصيني ولا أنحلها إلا وليا لي يطيعني . وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا عبد الرحمن بن محمد بن حامد أخبرنا أحمد بن عبد الله بن سعيد الدامغاني أخبرنا وكيع عن الأعمش عن سعيد بن عبيدة عن أبي عبد الرحمن السلمي عن علي بن أبي طالب عن النبي

ﷺ قال (لاينال عهدى الظالمين) قال لاطاعة إلا فى المعروف ، وقال السدى (لا ينال عهدى الظالمين) يقول عهدى نبوتى — فهذه أقوال مفسرى السلف فى هذه الآية على ماتقله ابن جرير وابن أبى حاتم رحمهما الله تعالى واختار ابن جرير أن هذه الآية وإن كانت ظاهرة فى الخبر أنه لاينال عهد الله بالإمامة ظالما ففيها إعلام من الله لإبراهيم الخليل عليه السلام أنه سيوجد من ذريتك من هو ظالم لنفسه كما تقدم عن مجاهد وغيره والله أعلم . وقال ابن خويز منداد المالكى . الظالم لايصلح أن يكون خليفة ولا حاكما ولا مفتياً ولاشاهداً ولا راوياً

﴿ وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِيمَ مُصَلًّى ﴾

قال العوفى عن ابن عباس قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) يقول لايقضون فيه وطراً ، يأتونه ثم يرجعون إلى أهليهم ثم يعودون إليه . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس مثابة للناس يقول يثوبون . رواهما ابن جرير . وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا عبد الله بن رجاء أخبرنا إسرائيل عن مسلم عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) قال يثوبون إليه ثم يرجعون قال وروى عن أبى العالية وسعيد بن جبير فى رواية وعطاء ومجاهد والحسن وعطية والربيع بن أنس والضحاك نحو ذلك . وقال ابن جرير . حدثنى عبد الكريم بن أبى عمير حدثنى الوليد بن مسلم قال: قال أبو عمرو يعنى الأوزاعى . حدثنى عبدة بن أبى لبابة فى قوله تعالى (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) قال لاينصرف عنه منصرف وهو يرى أنه قد قضى منه وطراً . وحدثنى يونس عن ابن وهب قال: قال ابن زيد (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس) قال يثوبون إليه من البلدان كلها ويأتونه . وما أحسن ما قال الشاعر فى هذا المعنى أورده القرطبي

جعل البيت مثاباً لهم * ليس منه الدهر يقضون الوطر

وقال سعيد بن جبير فى الرواية الأخرى وعكرمة وقتادة وعطاء الخراسانى (مثابة للناس) أى مجمعاً (وأمنا) قال الضحاك عن ابن عباس . أى أمناً للناس . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمنا) يقول وأمنا من العدو وأن يحمل فيه السلاح وقد كانوا فى الجاهلية يتخطف الناس من حولهم وهم آمنون لايسبون . وروى عن مجاهد وعطاء والسدى وقتادة والربيع بن أنس قالوا من دخله كان آمنا .

ومضمون مافسر به هؤلاء الأئمة هذه الآية أن الله تعالى يذكر شرف البيت وماجعله موصوفاً به شرعاً وقدراً من كونه مثابة للناس أى جعله محلا تشتاق إليه الأرواح وتحن إليه ولاتقضى منه وطراً ولو ترددت إليه كل عام استجابة من الله تعالى لدعاء خليله إبراهيم عليه السلام فى قوله فاجعل أفئدة من الناس تهوى إليهم إلى أن قال (ربنا وتقبل دعائى) ويصفه تعالى بأنه جعله أمنا من دخله أمن ولو كان قد فعل مافعل ثم دخله كان آمنا . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : كان الرجل يلقى قاتل أبيه أوأخيه فيه فلا يعرض له كما وصف فى سورة المائدة بقوله تعالى (جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس) أى يدفع عنهم بسبب تعظيمها السوء كما قال ابن عباس : لو لم يحج الناس هذا البيت لأطبق الله السماء على الأرض وماهذا الشرف إلا لشرف بانيه أولا وهو خليل الرحمن كما قال تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بى شيئاً) وقال تعالى (إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين * فيه آيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنا) وفى هذه الآية الكريمة نبه على مقام إبراهيم مع الأمر بالصلاة عنده . فقال (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) وقد اختلف المفسرون فى المراد بالمقام ما هو فقال ابن أبى حاتم : أخبرنا عمرو بن شبة النميرى حدثنا أبو حلف يعنى عبد الله بن عيسى أخبرنا داود بن أبى هند عن مجاهد عن ابن عباس (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال مقام إبراهيم الحرم كله . وروى عن مجاهد وعطاء مثل ذلك . وقال أيضاً أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج عن ابن جريج قال : سألت عطاء عن (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) فقال سمعت ابن عباس قال : أما مقام إبرهيم الذى ذكرهنا فمقام إبراهيم هذا الذى فى المسجد ثم قال ومقام إبراهيم يعد كثير مقام إبراهيم الحج كله . ثم فسره لى عطاء فقال : التعريف وصلاتان بعرفة والمشعر ومنى ورمى الجمار والطواف بين الصفا والمروة ، فقلت أفسره ابن عباس ؟ قال لا . ولكن قال مقام إبراهيم الحج

كله . قلت أسمعت ذلك لهذا أجمع ؟ قال نعم سمعته منه . وقال سفيان الثورى عن عبدالله بن مسلم عن سعيد بن جبير (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال الحجر مقام ابراهيم نبى الله قد جعله الله رحمة فكان يقوم عليه ويناوله إسماعيل الحجارة ولو غسل رأسه كما يقولون لاختلف رجلاه . وقال السدى : المقام الحجر الذى وضعته زوجة اسماعيل تحت قدم ابراهيم حتى غسلت رأسه . حكاه القرطبى وضعفه ورجحه غيره ، وحكاه الرازى فى تفسيره عن الحسن البصرى وقتادة والربيع بن أنس . وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا عبد الوهاب بن عطاء عن ابن جريج عن جعفر بن محمد عن أبيه سمع جابرا يحدث عن حجة النبى ﷺ قال : لما طاف النبى صلى الله عليه وسلم قال له عمر هذا مقام أبينا ؟ قال نعم ، قال أفلا نتخذه مصلى ؟ فأنزل الله عز وجل (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال عثمان بن أبى شيبة أخبرنا أبو أسامة عن زكريا عن أبى إسحق عن أبى ميسرة قال : قال عمر قلت يارسول الله هذا مقام خليل ربنا ؟ قال نعم ، قال أفلا نتخذه مصلى ؟ فنزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال ابن مردويه أخبرنا دعلج بن أحمد أخبرنا غيلان بن عبد الصمد أخبرنا مسروق بن المرزبان أخبرنا زكريا بن أبى زائدة عن أبى اسحق عن عمرو بن ميمون عن عمر بن الخطاب أنه مر بمقام ابراهيم فقال : يارسول الله أليس نقوم بمقام خليل ربنا ؟ قال بلى ، قال أفلا نتخذه مصلى ؟ فلم يلبث إلا يسيرا حتى نزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال ابن مردويه أخبرنا على بن أحمد بن محمد القزوينى أخبرنا على بن الحسين حدثنا الجنيد أخبرنا هشام بن خالد أخبرنا الوليد عن مالك ابن أنس عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : لما وقف رسول الله ﷺ يوم فتح مكة عند مقام ابراهيم قال له عمر يارسول الله هذا مقام ابراهيم الذى قال الله (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) قال نعم : قال الوليد : قلت لمالك هكذا حدثك واتخذوا قال نعم هكذا وقع فى هذه الرواية وهو غريب وقد روى النسائى من حديث الوليد بن مسلم نحوه . وقال البخارى : باب قوله (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) مثابة يثوبون يرجعون حدثنا مسدد أخبرنا يحيى عن حميد عن أنس بن مالك . قال : قال عمر بن الخطاب : وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث : قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقلت يارسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب . قال وبلغنى معاتبة النبى صلى الله عليه وسلم بعض نسائه فدخلت عليهن فقلت إن انتهيتن أوليبدلن الله رسوله خيراً منكن حتى أتيت إحدى نسائه قالت : ياعمر أما فى رسول الله مايعظ نساءه حتى تعظهن أنت فأنزل الله (عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات) الآية وقال ابن أبى مريم أخبرنا يحيى بن أيوب حدثنى حميد قال سمعت أنسا عن عمر رضى الله عنهما هكذا ساقه البخارى ههنا وعلق الطريق الثانية عن شيخه سعيد بن الحكم المعروف بابن أبى مريم المصرى وقد تفرد عنه بالرواية البخارى من بين أصحاب الكتب الستة . وروى عنه الباقون بواسطة وغرضه من تعليق هذا الطريق ليبين فيه اتصال إسناد الحديث وانما لم يسنده لأن يحيى بن أبى أيوب الغافقى فيه شىء كما قال الإمام أحمد فيه هو سيء الحفظ والله أعلم . وقال الإمام أحمد حدثنا هشيم أخبرنا حميد عن أنس قال : قال عمر رضى الله عنه وافقت ربى عز وجل فى ثلاث قلت : يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقلت يارسول الله إن نساءك يدخل عليهن البر والفاجر فلو أمرتهن أن يحتجبن فنزلت آية الحجاب . واجتمع على رسول الله ﷺ نساؤه فى الغيرة فقلت لهن عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن فنزلت كذلك ، ثم رواه أحمد عن يحيى وابن أبى عدى كلاهما عن حميد عن أنس عن عمر أنه قال وافقت ربى فى ثلاث أو وافقنى ربى فى ثلاث فذكره . وقد رواه البخارى عن عمر وابن عون والترمذى عن أحمد بن منيع والنسائى عن يعقوب بن ابراهيم الدورقى وابن ماجه عن محمد بن الصباح كلهم عن هشيم بن بشير به . ورواه الترمذى أيضا عن عبد بن حميد عن حجاج بن منهال عن حماد بن سلمة والنسائى عن هناد عن يحيى بن أبى زائدة كلاهما عن حميد وهو ابن تيرويه الطويل به . وقال الترمذى حسن صحيح . ورواه الإمام على بن المدينى عن يزيد بن زريع عن

حميد به وقال هذا من صحيح الحديث وهو بصرى ورواه الإمام مسلم بن حجاج فى صحيحه بسند آخر ولفظ آخر فقال أخبرنا عقبة بن مكرم أخبرنا سعيد بن عامر عن جويرية بن أسماء عن نافع عن ابن عمر عن عمر قال : وافقت ربى فى ثلاث فى الحجاب وفى أسارى بدر وفى مقام إبراهيم . وقال أبو حاتم الرازى : أخبرنا محمد بن عبدالله الأنصارى أخبرنا حميد الطويل عن أنس بن مالك قال : قال عمر بن الخطاب وافقنى ربى فى ثلاث ، أو وافقت ربى فى ثلاث ، قلت يارسول الله لو اتخذت من مقام ابراهيم مصلى فنزلت (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقلت يارسول الله لو حجبت النساء فنزلت آية الحجاب ، والثالثة لما مات عبد الله بن أبى جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلى عليه قلت ، يارسول الله تصلى على هذا الكافر المنافق . فقال : ايها عنك يا ابن الخطاب فنزلت (ولاتصل على أحد منهم مات أبدا ولاتقم على قبره) وهذا إسناد صحيح أيضا ولا تعارض بين هذا ولا هذا بل الكل صحيح ومفهوم العدد اذا عارضه منطوق قدم عليه والله أعلم : وقال ابن جريج أخبرنى جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر أن رسول الله ﷺ رمل ثلاثة أشواط ومشى أربعا حتى اذا فرغ عمد الى مقام ابراهيم فصلى خلفه ركعتين ، ثم قرأ (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) وقال ابن جرير حدثنا يوسف بن سلمان أخبرنا حاتم بن إسماعيل أخبرنا جعفر بن محمد عن أبيه عن جابر قال : استلم رسول الله ﷺ الركن فرمل ثلاثا ومشى أربعا ثم نفذ الى مقام ابراهيم فقرأ (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) فجعل المقام بينه وبين البيت فصلى ركعتين وهذا قطعة من الحديث الطويل الذى رواه مسلم فى صحيحه من حديث حاتم بن اسماعيل وروى البخارى بسنده عن عمرو بن دينار : قال سمعت ابن عمر يقول قدم رسول الله ﷺ فطاف بالبيت سبعا وصلى خلف المقام ركعتين ، فهذا كله مما يدل على ان المراد بالمقام إنما هو الحجر الذى كان ابراهيم عليه السلام يقوم عليه لبناء الكعبة لما ارتفع الجدار أتاه إسماعيل عليه السلام به ليقوم فوقه ويناوله الحجارة فيضعها بيده لرفع الجدار وكلما كمل ناحية انتقل الى الناحية الأخرى يطوف حول الكعبة وهو واقف عليه كلما فرغ من جدار نقله الى الناحية التى تليها وهكذا حتى تم جدران الكعبة كما سيأتى بيانه فى قصة ابراهيم وإسماعيل فى بناء البيت من رواية ابن عباس عند البخارى وكانت آثار قدميه ظاهرة فيه ولم يزل هذا معروفا تعرفه العرب فى جاهليتها ولهذا قال أبو طالب فى قصيدته المعروفة اللامية .

وموطئ إبراهيم فى الصخر رطبة * على قدميه حافياً غير ناعل

وقد أدرك المسلمون ذلك فيه أيضا كما قال عبدالله بن وهب أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب أن أنس بن مالك حدثهم ، قال رأيت المقام فيه أصابعه عليه السلام وأخمص قدميه غير أنه أذهبه مسح الناس بأيديهم ، وقال ابن جرير أخبرنا بشر بن معاذ أخبرنا يزيد بن زريع أخبرنا سعيد عن قتادة (واتخذوا من مقام ابراهيم مصلى) إنما أمروا أن يصلوا عنده ولم يؤمروا بمسحه . وقد تكلفت هذه الأمة شيئا ماتكلفته الأمم قبلها ولقد ذكر لنا من رأى أثر عقبه وأصابعه فيه فما زالت هذه الأمة يمسحونه حتى اخلولق وانمحى (قلت) وقد كان هذا المقام ملصقا بجدار الكعبة قديما ومكانه معروف اليوم الى جانب الباب مما يلى الحجر يمنة الداخل من الباب فى البقعة المستقلة هناك وكان الخليل عليه السلام لما فرغ من بناء البيت وضعه الى جدار الكعبة أو أنه انتهى عنده البناء فتركه هناك ولهذا والله أعلم أمر بالصلاة هناك عند الفراغ من الطواف وناسب أن يكون عند مقام ابراهيم حيث انتهى بناء الكعبة فيه وانما أخره عن جدار الكعبة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه أحد الأئمة المهديين والخلفاء الراشدين الذين أمرنا باتباعهم وهو أحد الرجلين اللذين قال فيهما رسول الله ﷺ « اقتدوا باللذين من بعدى أبى بكر وعمر » وهو الذى نزل القرآن بوفاقه فى الصلاة عنده ولهذا لم ينكر ذلك أحد من الصحابة رضى الله عنهم أجمعين ، قال عبدالرزاق عن ابن جريج حدثنى عطاء وغيره من أصحابنا : قال أول من نقله عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال عبد الرزاق أيضا عن معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال أول من أخر المقام الى موضعه الآن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وقال الحافظ أبو بكر أحمد بن على بن الحسين البيهقى أخبرنا أبو الحسين بن الفضل القطان أخبرنا القاضى أبو بكر أحمد

ابن كامل حدثنا أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل السلمى حدثنا أبو ثابت حدثنا الدراوردى عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها أن المقام كان زمان رسول الله صلى الله عليه وسلم وزمان أبى بكر رضى الله عنه ملتصقا بالبيت ثم أخره عمر بن الخطاب رضى الله عنه وهـذا إسناد صحيح مع ما تقـدم وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا ابن أبى عمر العدنى قال : قال سفيان يعنى ابن عيينة وهو إمام المكيين فى زمانه كان المقـام من سقع البيت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فحوله عمر إلى مكانه بعد النبى ﷺ وبعد قوله (واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى) قال ذهب السيل به بعد تحويل عمر إياه من موضعه هذا فرده عمر إليه : وقال سفيان لا أدرى كم بينه وبين الكعبة قبـل تحويله وقال سفيان لا أدرى أكان لا صقا بها أم لا ؟ فهذه الآثار متعاضدة على ما ذكرناه والله أعلم : وقد قال الحافظ أبو بكر ابن مردويه أخبرنا ابن عمر وهو أحمـد بن محمـد بن حكيم أخبرنا محمـد بن عبـد الوهاب بن أبى تمـام أخبرنا آدم هو ابن أبى إياس فى تفسيره أخبرنا شريك عن إبراهيم بن المهاجر عن مجاهد قال : قال عمر بن الخطاب يا رسـول الله لو صلينا خلف المقـام فأنزل الله (واتخذوا من مقـام إبراهيم مصلى) فـكان المقام عنـد البيت فحوله رسـول الله صلى الله عليه وسلم إلى موضعه هذا. قال مجاهد وكان عمر يرى الرأى فينزل به القرآن هذا مرسل عن مجاهد وهو مخالف لما تقدم من رواية عبد الرزاق عن معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد أن أول من أخر المقام إلى موضعه الآن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه وهذا أصح من طريق ابن مردويه مع اعتضاد هذا بما تقدم والله أعلم

﴿ وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ * وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ * وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِيمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴾

قال الحسن البصرى قوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل) قال أمرهما الله أن يطهراه من الأذى والنجس ولا يصيبه من ذلك شىء ، وقال ابن جريج قلت لعطاء ما عهده ؟ قال أمره . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم (وعهدنا إلى إبراهيم) أى أمرناه كذا قال والظاهر أن هـذا الحرف إنمـا عدى بإلى لأنه فى معنى تقدمنا وأوحينا ، وقال سعيد ابن جبير عن ابن عبـاس قوله (أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين) قال من الأوثان وقال مجاهد وسعيد بن جبير (طهرا بيتى للطائفين) إن ذلك من الأوثان والرفث وقول الزور والرجس . قال ابن أبى حاتم وروى عن عبيد ابن عمير وأبى العالية وسعيد بن جبير ومجاهد وعطاء وقتادة (أن طهرا بيتى) أى بلا إله إلا الله من الشرك وأما قوله تعالى (للطائفين) فالطواف بالبيت معروف . وعن سعيد بن جبير أنه قال فى قوله تعالى (للطائفين) يعنى من أتاه من غربة (والعاكفين) المقيمين فيه ، وهكذا روى عن قتادة والربيع بن أنس انهما فسرا العاكفين بأهله المقيمين فيـه كما قال سعيد بن جبير وقال يحيى القطان عن عبد الملك هو ابن أبى سليمان عن عطاء فى قوله (والعاكفين) قال من انتابه من الأمصار فأقام عنده وقال لنا ونحن مجاورون أنتم من العاكفين وقال وكيع عن أبى بكر الهذلى عن عطاء عن ابن عباس قال إذا كان جالسا فهو من العاكفين وقال ابن أبى حاتم أخبرنا أبى أخبرنا موسى بن إسماعيل أخبرنا حمـاد بن سلمة أخبرنا ثابت ، قال قلنا لعبـد الله بن عبيد بن عمير ما أرانى إلا مكلم الأمير أن امنع الذين ينامون فى المسجد الحرام فإنهم يجنبون ويحدثون . قال لا تفعل فإن ابن عمر سئل عنهم فقال هم العاكفون . ورواه عبد بن حميد عن سليمان بن حرب عن حماد بن سلمة به (قلت) وقد ثبت فى الصحيح أن ابن عمر كان ينام فى مسجد الرسـول

ﷺ وهو عزب وأما قوله تعالى (والركع السجود) فقال وكيع عن أبي بكر الهذلي عن عطاء عن ابن عباس والركع السجود قال إذا كان مصليا فهو من الركع السجود وكذا قال عطاء وقتادة

في يومه أربع في النهار ثم شرع ابن جرير يضعف هذين الحديثين فإن كلا من السندين مشتمل على غير واحد من الضعفاء وهو كما قال فإنه لا يجوز روايتهما (١)

قال ابن جرير رحمه الله فمعنى الآية وأمرنا إبراهيم وإسماعيل بتطهير بيتي للطائفين والتطهير الذي أمرهما به في البيت هو تطهيره من الأصنام وعبادة الأوثان فيه ومن الشرك ثم أورد سؤالا فقال فان قيل فهل كان قبل بناء إبراهيم عند البيت شيء من ذلك الذي أمر بتطهيره منه وأجاب بوجهين : (أحدهما) أنه أمرهما بتطهيره مما كان يعبد عنده زمان قوم نوح من الأصنام والأوثان ليكون ذلك سنة لمن بعدهما إذ كان الله تعالى قد جعل إبراهيم إماما يقتدى به كما قال عبد الرحمن بن زيد (أن طهرا بيتي) قال من الأصنام التي يعبدون التي كان المشركون يعظمونها (قلت) وهذا الجواب مفرع على أنه كان يعبد عنده أصنام قبل إبراهيم عليه السلام ويحتاج إثبات هذا إلى دليل عن المعصوم محمد صلى الله عليه وسلم (الجواب الثاني) أنه أمرهما أن يخلصا في بنائه لله وحده لا شريك له فيبنياه مطهرا من الشرك والريب كما قال جل ثناؤه (أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار) قال فكذلك قوله (وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي) أي ابنياه على طهر من الشرك بي والريب كما قال السدي (أن طهرا بيتي) ابنيا بيتي للطائفين ، و لخص هذا الجواب أن الله تعالى أمر إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام أن يبنيا الكعبة على اسمه وحده لا شريك له للطائفين به والعاكفين عنده والمصلين إليه من الركع السجود كما قال تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت أن لا تشرك بي شيئاً وطهر بيتي للطائفين والقائمين والركع السجود) الآيات.

وقد اختلف الفقهاء أيما أفضل الصلاة عند البيت أو الطواف به ؟ فقال مالك رحمه الله . الطواف به لأهل الأمصار أفضل . وقال الجمهور : الصلاة أفضل مطلقا ، وتوجيه كل منهما يذكر في كتاب الأحكام ، والمراد من ذلك الرد على المشركين الذين كانوا يشركون بالله عند بيته المؤسس على عبادته وحده لا شريك له ثم مع ذلك يصدون أهله المؤمنين عنه كما قال تعالى : (إن الذين كفروا ويصدون عن سبيل الله والمسجد الحرام الذي جعلناه للناس سواء العاكف فيه والباد ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) ثم ذكر أن البيت إنما أسس لمن يعبد الله وحده لا شريك له إما بطواف أو صلاة فذكر في سورة الحج أجزاءها الثلاثة قيامها وركوعها وسجودها ولم يذكر العاكفين لأنه تقدم (سواء العاكف فيه والباد) وفي هذه الآية الكريمة ذكر الطائفين والعاكفين واكتفى بذكر الركوع والسجود عن القيام لأنه قد علم أنه لا يكون ركوع ولا سجود إلا بعد قيام وفي ذلك أيضاً رد على من لا يحجه من أهل الكتابين اليهود والنصارى لأنهم يعتقدون فضيلة إبراهيم الخليل وإسماعيل ويعلمون أنه بنى هذا البيت للطواف في الحج والعمرة وغير ذلك وللاعتكاف والصلاة عنده وهم لا يفعلون شيئاً من ذلك فكيف يكونون مقتدين بالخليل وهم لا يفعلون ما شرع الله له ؟ وقد حج البيت موسى بن عمران وغيره من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام كما أخبر بذلك المعصوم الذي لا ينطق عن الهوى (إن هو إلا وحي يوحى)

وتقدير الكلام إذا (وعهدنا إلى إبراهيم) أي تقدمنا بوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل (أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود) أي طهراه من الشرك والريب وابنياه خالصا لله معقلا للطائفين والعاكفين والركع السجود ، وتطهير المساجد مأخوذ من هذه الآية الكريمة ومن قوله تعالى (في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال) ومن السنة من أحاديث كثيرة من الأمر بتطهيرها وتطييبها وغير ذلك من صيانتها من الأذى والنجاسات وما أشبه ذلك . ولهذا قال عليه السلام « إنما بنيت المساجد لما بنيت له » وقد جمعت في ذلك جزءاً على حدة ولله الحمد والمنة وقد اختلف الناس في أول من بنى الكعبة فقيل الملائكة قبل آدم روى هذا عن أبي جعفر الباقر محمد بن علي

(١) قوله : في يومه أربع في النهار لا معنى له والكلام قد تم قبله . وقوله بعده ثم شرع ابن جرير الخ لا محل له هنا وليس قبله حديثان ضعيفان : وهو وما قبله ليس في نسخة خزانة الأزهر اه .

ابن الحسين ذكره القرطبي وحكى لفظه وفيه غرابة وقيل آدم عليه السلام رواه عبد الرزاق عن ابن جريج عن عطاء وسعيد بن المسيب وغيرهم أن آدم بناه من خمسة أجبل من حراء وطورسيناء وطور زيتا وجبل لبنان والجودى ، وهذا غريب أيضا . وروى عن ابن عباس وكعب الأحبار وقتادة وعن وهب بن منبه أن أول من بناه شيث عليه السلام وغالب من يذكر هذا إنما يأخذه من كتب أهل الكتاب وهى مما لا يصدق ولا يكذب ولا يعتمد عليها بمجردها وأما إذا صح حديث فى ذلك فعلى الرأس والعين

وقوله تعالى (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال الإمام أبو جعفر بن جرير أخبرنا ابن بشار أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى أخبرنا سفيان عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه وإنى حرمت المدينة مابين لابتيها فلا يصاد صيدها ولا يقطع عضاهها » وهكذا رواه النسائى عن محمد بن بشار عن بندار به وأخرجه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وعمرو بن الناقد كلاهما عن أبى أحمد الزبيرى عن سفيان الثورى وقال ابن جرير أيضاً أخبرنا أبو كريب وأبو السائب قالا حدثنا ابن إدريس وأخبرنا أبو كريب أخبرنا عبد الرحيم الرازى قالا جميعاً سمعنا أشعث عن نافع عن أبى هريرة قال قال رسول الله ﷺ « إن إبراهيم كان عبد الله وخليله وإنى عبد الله ورسوله وإن إبراهيم حرم مكة وإنى حرمت المدينة مابين لابتيها عضاهها وصيدها لا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يقطع منها شجرة إلا لعلف بعير » وهذه الطريق غريبة ليست فى شىء من الكتب الستة وأصل الحديث فى صحيح مسلم من وجه آخر عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : كان الناس إذا رأوا أول الثمر جاءوا به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فإذا أخذه رسول الله ﷺ قال « اللهم بارك لنا فى ثمرنا وبارك لنا فى مدينتنا وبارك لنا فى صاعنا وبارك لنا فى مدنا ، اللهم إن إبراهيم عبدك وخليلك ونبيك وإنى عبدك ونبيك وإنه دعاك لمكة ، وإنى أدعوك للمدينة بمثل ما دعاك لمكة ومثله معه » ثم يدعو أصغر وليد له فيعطيه ذلك الثمر وفى لفظ « بركة مع بركة » (١) ثم يعطيه أصغر من يحضره من الولدان — لفظ مسلم ثم قال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا قتيبة بن سعيد أخبرنا بكر بن مضر عن ابن الهاد عن أبى بكر بن محمد عن عبد الله ابن عمرو بن عثمان عن رافع بن خديج قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم مكة وإنى أحرم ما بين لابتيها » انفرد بإخراجه مسلم فرواه عن قتيبة عن بكر بن مضر به ولفظه كلفظه سواء وفى الصحيحين عن أنس ابن مالك قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبى طلحة « التمس لى غلاما من غلمانكم يخدمنى فخرج بى أبو طلحة يردفنى وراءه فكنت أخدم رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما نزل وقال فى الحديث ثم أقبل حتى إذا بدا له أحد قال « هذا جبل يحبنا ونحبه » فلما أشرف على المدينة قال « اللهم إنى أحرم ما بين جبليها مثل ما حرم به إبراهيم مكة اللهم بارك لهم فى مدهم وصاعهم » وفى لفظ لهما « اللهم بارك لهم فى مكيالهم وبارك لهم فى صاعهم وبارك لهم فى مدهم » زاد البخارى يعنى أهل المدينة ولهما أيضا عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « اللهم اجعل بالمدينة ضعفى ما جعلته بمكة من البركة » وعن عبد الله بن زيد بن عاصم رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم « إن إبراهيم حرم مكة ودعا لها وحرمت المدينة كما حرم إبراهيم مكة ودعوت لها فى مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم لمكة » رواه البخارى وهذا لفظه ولمسلم ولفظه ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ان ابراهيم حرم مكة ودعا لأهلها . وانى حرمت المدينة كما حرم ابراهيم مكة وانى دعوت فى صاعها ومدها بمثلى ما دعا به إبراهيم لأهل مكة » وعن أبى سعيد رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « اللهم إن إبراهيم حرم مكة فجعلها حراما وانى حرمت المدينة حراماً ما بين مأزميها أن لا يهراق فيها دم ولا يحمل فيها سلاح لقتال ولا يخبط فيها شجرة الا لعلف : اللهم بارك لنا فى مدينتنا اللهم بارك لنا فى صاعنا اللهم بارك لنا فى مدنا اللهم اجعل مع البركة بركتين » الحديث رواه مسلم ، والأحاديث فى تحريم المدينة كثيرة وانما أوردنا منها ماهو متعلق بتحريم إبراهيم عليه السلام لمكة لما فى ذلك من مطابقة الآية الكريمة . وتمسك بها من ذهب الى أن تحريم مكة انما كان على لسان ابراهيم الخليل وقيل إنها محرمة منذ خلقت مع الأرض وهذا أظهر وأقوى والله أعلم

(١) ورد هذا اللفظ فى رواية أخرى هذا نصها « اللهم بارك لنا فى مدينتنا وفى ثمارنا وفى مدنا وفى صاعنا بركة مع بركة »

وقد وردت أحاديث أخر تدل على أن الله تعالى حرم مكة قبل خلق السموات والأرض كما جاء فى الصحيحين عن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ يوم فتح مكة « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة . وإنه لم يحل القتال فيه لأحد قبلى ولم يحل لى إلا ساعة من نهار فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ، لا يعضد شوكه ولا ينفر صيده ولا يلتقط لقطته إلا من عرّفها ولا يختلى خلاها » فقال العباس : يا رسول الله إلا الإذخر فإنه لقينهم ولبيوتهم فقال « إلا الإذخر » وهذا لفظ مسلم ولهما عن أبى هريرة نحو من ذلك ثم قال البخارى بعد ذلك : وقال أبان بن صالح عن الحسن بن مسلم عن صفية بنت شيبة : سمعت النبى صلى الله عليه وسلم مثله وهذا الذى علقه البخارى رواه الإمام أبو عبد الله بن ماجه عن محمد بن عبد الله بن نمير عن يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن أبان بن صالح عن الحسن بن مسلم بن يناق عن صفية بنت شيبة : قالت سمعت رسول الله ﷺ يخطب عام الفتح فقال « يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض فهى حرام إلى يوم القيامة لا يعضد شجرها ولا ينفر صيدها ولا يأخذ لقطتها إلا منشد » فقال العباس . إلا الإذخر فإنه للبيوت والقبور ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إلا الإذخر » وعن أبى شريح العدوى أنه قال لعمرو ابن سعيد وهو يبعث البعوث إلى مكة ائذن لى أيها الأمير أن أحدثك قولا قام به رسول الله صلى الله عليه وسلم الغد من يوم الفتح سمعته أذناى ووعاه قلبى وأبصرته عيناى حين تكلم به — إنه حمد الله وأثنى عليه ثم قال « إن مكة حرمها الله ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دماً ولا يعضد بها شجرة فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم . وإنما أذن لى فيها ساعة من نهار وقد عادت حرمتها اليوم كحرمتها بالأمس فليبلغ[1] الشاهد الغائب » فقيل لأبى شريح ماقال لك عمرو ؟ قال أنا أعلم بذلك منك يا أبا شريح ، إن الحرم لا يعيذ عاصيا ولا فاراً بدم ولا فاراً بخربة رواه البخارى ومسلم وهذا لفظه

فإذا علم هذا فلا منافاة بين هذه الأحاديث الدالة على أن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض وبين الأحاديث الدالة على أن إبراهيم عليه السلام حرمها لأن إبراهيم بلغ عن الله حكمه فيها وتحريمه إياها وأنها لم تزل بلداً حراما عند الله قبل بناء إبراهيم عليه السلام لها ، كما أنه قد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مكتوبا عند الله خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته ومع هذا قال إبراهيم عليه السلام (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) الآية وقد أجاب الله دعاءه بما سبق فى علمه وقدره . ولهذا جاء فى الحديث أنهم قالوا يا رسول الله أخبرنا عن بدء أمرك. فقال «دعوة أبى إبراهيم عليه السلام وبشرى عيسى بن مريم ورأت أمى كأنه خرج منها نور أضاء له قصور الشام » أى أخبرنا عن بدء ظهور أمرك كما سيأتى قريباً إن شاء الله

وأما مسئلة تفضيل مكة على المدينة كما هو قول الجمهور أو المدينة على مكة كما هو مذهب مالك وأتباعه فتذكر فى موضع آخر بأدلتها إن شاء الله وبه الثقة . وقوله تعالى إخبارا عن الخليل أنه قال (رب اجعل هذا بلدا آمنا) أى من الخوف أى لا يرعب أهله وقد فعل الله ذلك شرعاً وقدراً . كقوله تعالى (ومن دخله كان آمنا) وقوله (أو لم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم) إلى غير ذلك من الآيات وقد تقدمت الأحاديث فى تحريم القتال فيه . وفى صحيح مسلم عن جابر سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يحل لأحد أن يحمل بمكة السلاح » وقال فى هذه السورة (رب اجعل هذا بلدا آمنا) أى اجعل هذه البقعة بلداً آمناً وناسب هذا لأنه قبل بناء الكعبة . وقال تعالى فى سورة إبراهيم (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنا) وناسب هذا هناك لأنه والله أعلم كأنه وقع دعاء مرة ثانية بعد بناء البيت واستقرار أهله به وبعد مولد إسحق الذى هو أصغر سنا من إسماعيل بثلاث عشرة سنة ، ولهذا قال فى آخر الدعاء (الحمد لله الذى وهب لى على الكبر إسماعيل وإسحق إن ربى لسميع الدعاء)

وقوله تعالى (وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية عن أبى بن كعب (قال ومن كفر

(١) الذى فى البخارى ومسلم : وليبلغ اهـ .

فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) قال هو قول الله تعالى وهذا قول مجاهد وعكرمة وهو الذى صوبه ابن جرير رحمه الله . قال وقرأ آخرون (قال ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) فجعلوا ذلك من تمام دعاء إبراهيم كما رواه أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية قال كان ابن عباس يقول ذلك قول إبراهيم يسأل ربه أن من كفر فأمتعه قليلا ، وقال أبو جعفر عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد (ومن كفر فأمتعه قليلا) يقول ومن كفر فأرزقه رزقا قليلا أيضا (ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير) قال محمد بن إسحاق لما عن لإبراهيم الدعوة على من أبى الله أن يجعل له الولاية انقطاعا إلى الله ومحبته ، وفراقا لمن خالف أمره وإن كانوا من ذريته ، حين عرف أنه كائن منهم ظالم لا ينـاله عهده بخبر الله له بذلك قال الله تعالى ومن كفر فإنى أرزق البر والفاجر وأمتعه قليلا وقال حاتم بن إسماعيل عن حميد الخراط عن عمار الدهبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (رب اجعل هذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر) قال ابن عباس كان إبراهيم يحجرها على المؤمنين دون الناس فأنزل الله ومن كفر أيضا أرزقهم كما أرزق المؤمنين ، أأخلق خلقا لا أرزقهم ؟ أمتعهم قليلا ثم أضطرهم إلى عذاب النار وبئس المصير ثم قرأ ابن عباس (كلا نمـد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطـاء ربك محظورا) رواه ابن مردويه وروى عن عكرمة ومجاهـد نحو ذلك أيضا وهذا كقوله تعالى (إن الذين يفترون على الله الـكذب لا يفلحون * متاع فى الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بمـا كانوا يكفرون) وقوله تعالى (ومن كفر فلا يحزنك كفرهم إلينا مرجعهم فننبئهم بمـا عملوا إن الله عليم بذات الصدور * نمتعهم قليلا ثم نضطرهم إلى عذاب غليظ) وقوله (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفـا من فضة ومعارج عليها يظهرون * ولبيوتهم أبوابا وسررا عليهم يتكؤن * وزخرفا وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا والآخرة عند ربك للمتقين) وقوله (ثم أضطره إلى عذاب النـار وبئس المصير) أى ثم ألجئه بعـد متاعه فى الدنيـا وبسطنا عليه من ظلها إلى عذاب النار وبئس المصير ، ومعناه أن الله تعالى ينظرهم ويمهلهم ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر كقوله تعالى (وكأين من قرية أمليت لها وهى ظالمة ثم أخذتها وإلى المصير) وفى الصحيحين « لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم » وفى الصحيح أيضا « إن الله ليملى للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته » ثم قرأ قوله تعالى (وكذلك أخـذ ربك إذا أخذ القرى وهى ظالمة إن أخذه أليم شـديد) وقرأ بعضهم (قال ومن كفر فأمتعه قليلا) الآية جعله من تمـام دعاء إبراهيم وهى قراءة شاذة مخالفه للقراء السبعة وتركيب السياق يأبى معناها والله أعلم فان الضمير فى قال راجع إلى الله تعالى فى قراءة الجمهور والسياق يقتضيه وعلى هذه القراءة الشاذة يكون الضمير فى قال عائدا على إبراهيم وهـذا خلاف نظم الـكلام والله سبحانه هو العلام *

وأما قوله تعالى (واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم * ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) فالقواعد جمع قاعدة وهى السارية والأساس يقول تعالى واذكر يا محمد لقومك بناء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام البيت ورفعهما القواعد منه وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وحكى القرطبى وغيره عن أبى وابن مسعود أنهما كانا يقرآن (واذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ويقولان ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) (قلت) ويدل على هذا قولهما بعده (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) الآية فهما فى عمل صالح وهما يسألان الله تعالى أن يتقبل منهما كما روى ابن أبى حاتم من حديث محمد بن يزيد بن خنيس المكى عن وهيب بن الورد أنه قرأ (وإذ يرفع إبرهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا) ثم يبكى ويقول ياخليل الرحمن ترفع قوائم بيت الرحمن وأنت مشفق أن لا يتقبل منك . وهذا كما حكى الله تعالى عن حال المؤمنين الخلص فى قوله (والذين يؤتون ما آتوا) أى يعطون ما أعطوا من الصدقات والنفقات والقربات (وقلوبهم وجلة) أى خائفة أن لا يتقبل منهم كما جاء به الحديث الصحيح عن عائشة عن رسـول الله ﷺ كما سيأتى فى موضعه . وقال بعض المفسرين الذى كان يرفع القواعد هو إبراهيم والداعى اسماعيل والصحيح

أنهما كانا يرفعان ويقولان كما سيأتى بيانه . وقد روى البخارى ههنا حديثا سنورده ثم نتبعه بآثار متعلقة بذلك. قال البخارى رحمه الله . حدثنا عبد الله بن محمد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب السختياني وكثير بن كثير بن المطلب بن أبى وداعة ـ يزيد أحدهما على الآخر ـ عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضى الله عنهما قال . أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة فوق زمزم فى أعلى المسجد وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه أنيس ؟ ولاشىء فقالت له ذلك مرارا وجعل لا يلتفت إليها ، فقالت آلله أمرك بهذا ؟ قال نعم ،قالت: إذا لا يضيعنا. ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ، ثم دعا بهذه الدعوات ورفع يديه فقال (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) حتى بلغ (يشكرون) وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى ـ أو قال يتلبط ـ فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها فنظرت هل ترى أحدا ، فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس : قال النبى ﷺ « فلذلك سعى الناس بينهما » فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت « صه » ـ تريد نفسها ـ ثم تسمعت فسمعت أيضا ، فقالت : قد أسمعت إن كان عندك غواث فاذا هى بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا وجعلت تغرف من الماء فى سقائها وهو يفور بعد ما تغرف ، قال ابن عباس قال النبى ﷺ « يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم ـ أو قال لو لم تغرف من الماء ـ لكانت زمزم عينا معينا » قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك لا تخافى الضيعة فإن ههنا بيتا لله يبنيه هذا الغلام وأبوه وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء فأرسلوا جريا أو جريين فاذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك قالت نعم : ولكن لا حق لكم فى الماء عندنا قالوا : نعم قال ابن عباس : قال النبى ﷺ « فألفى ذلك أم إسماعيل وهى تحب الأنس » فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك زوجوه امرأة منهم وماتت أم إسماعيل فجاء إبراهيم بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته فلم يجد إسماعيل فسأل امراته عنه فقالت : خرج يبتغى لنا ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر نحن فى ضيق وشدة فشكت إليه قال : فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام وقولى له يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آنس شيئا فقال هل جاءكم من أحد ؟ قالت نعم جاءنا شيخ كذا وكذا فسألنا عنك فأخبرته وسألنى كيف عيشنا ؟ فأخبرته أننا فى جهد وشدة قال فهل أوصاك بشىء ؟ قالت نعم أمرنى أن أقرأ عليك السلام ويقول غير عتبة بابك قال ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك فالحقى بأهلك ، وطلقها وتزوج منهم بأخرى فلبث عنهم إبراهيم ماشاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امراته فسألها عنه فقالت . خرج يبتغى لنا قال كيف أنتم ؟ وسألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بخير وسعة وأثنت على الله عزوجل قال ما طعامكم قالت اللحم قال فما شرابكم ؟ قالت الماء . قال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء قال النبى ﷺ «ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم لدعا لهم فيه » قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة الا لم يوافقاه قال فاذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد ؟ قالت : نعم أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه

فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا ؟ فأخبرته أنا بخير قال . فأوصاك بشيء ؟ قالت . نعم هو يقرأ عليك السلام ويأمرك ان تثبت عتبة بابك . قال ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك ، ثم لبث عنهم ماشاء الله ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم فلما رآه قام اليه وصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ثم قال : يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك قال : وتعينني قال : وأعينك قال : فان الله أمرني أن أبني ههنا بيتاً وأشار الى أكمة مرتفعة على ماحولها قال : فعند ذلك رفعا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وابراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال : فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت وهما يقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) ورواه عبد بن حميد عن عبد الرزاق به مطولا ، ورواه ابن أبي حاتم عن أبي عبد الله محمد بن حماد الطبراني وابن جرير عن أحمد بن ثابت الرازي كلاهما عن عبد الرزاق به مختصراً .

وقال أبو بكر بن مردويه أخبرنا إسماعيل بن علي بن اسماعيل أخبرنا بشر بن موسى أخبرنا أحمد بن محمد الأزرقي أخبرنا مسلم بن خالد الزنجي عن عبد الملك بن جريج عن كثير بن كثير قال : كنت أنا وعثمان بن أبي سليمان وعبد الله ابن عبد الرحمن بن أبي حسين في ناس مع سعيد بن جبير في أعلى المسجد ليلا فقال سعيد بن جبير . سلوني قبل أن لاترونني فسألوه عن المقام فأنشأ يحدثهم عن ابن عباس فذكر الحديث بطوله .

ثم قال البخاري حدثنا عبدالله بن محمد أخبرنا أبو عامر عبد الملك بن عمرو أخبرنا ابراهيم بن نافع عن كثير بن كثير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما قال . لما كان بين ابراهيم وبين أهله ما كان خرج بإسماعيل وأم إسماعيل ومعهم شنة فيها ماء فجعلت أم إسماعيل تشرب من الشنة فيدر لبنها على صبيها حتى قدم مكة فوضعهما تحت دوحة ثم رجع ابراهيم الى أهله فاتبعته أم إسماعيل حتى بلغوا كداء نادته من ورائه يا إبراهيم الى من تتركنا ؟ قال الى الله . قالت رضيت بالله قال . فرجعت فجعلت تشرب من الشنة ويدر لبنها على صبيها حتى لما فنى الماء قالت . لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت هل تحس أحدا فلم تحس أحدا فلما بلغت الوادي سعت حتى أتت المروة وفعلت ذلك أشواطاً حتى أتمت سبعاً ثم قالت لو ذهبت فنظرت مافعل الصبي فذهبت فنظرت فإذا هو على حاله كأنه ينشغ للموت فلم تقرها نفسها فقالت . لو ذهبت فنظرت لعلي أحس أحدا فذهبت فصعدت الصفا فنظرت ونظرت فلم تحس أحدا حتى أتمت سبعا ثم قالت . لو ذهبت فنظرت مافعل فاذا هي بصوت فقالت . أغث إن كان عندك خير فاذا جبريل عليه السلام قال : فقال بعقبه هكذا وغمز عقبه على الأرض قال فانبثق الماء فدهشت أم اسماعيل فجعلت تحفر قال : فقال أبو القاسم صلى الله عليه وسلم « لو تركته لكان الماء ظاهراً » قال فجعلت تشرب من الماء ويدر لبنها على صبيها قال فمر ناس من جرهم ببطن الوادي فاذا هم بطير كأنهم أنكروا ذلك وقالوا ما يكون الطير إلا على ماء فبعثوا رسولهم فنظر فاذا هو بالماء فأتاهم فأخبرهم فأتوا اليها فقالوا . يا أم إسماعيل أتأذنين لنا أن نكون معك ونسكن معك ؟ فبلغ ابنها ونكح منهم امرأة قال ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله . إني مطلع تركتي قال فجاء فسلم فقال أين اسماعيل ؟ قالت امرأته ذهب يصيد قال . قولي له اذا جاء غير عتبة بابك فلما أخبرته قال أنت ذاك فاذهبي الى أهلك ، قال ثم انه بدا لإبراهيم فقال إني مطلع تركتي قال فجاء فقال أين اسماعيل ؟ فقالت امرأته ذهب يصيد فقالت ألا تنزل فتطعم وتشرب فقال ماطعامكم وماشرابكم قالت طعامنا اللحم وشرابنا الماء قال اللهم بارك لهم في طعامهم وشرابهم قال : فقال أبو القاسم ﷺ « بركة بدعوة ابراهيم » قال ثم إنه بدا لإبراهيم ﷺ فقال لأهله إني مطلع تركتي فجاء فوافق اسماعيل من وراء زمزم يصلح نبلا له فقال يا اسماعيل ان ربك عز وجل أمرني ان أبني له بيتاً فقال أطع ربك عز وجل قال انه قد أمرني ان تعينني عليه فقال إذن أفعل - أو كما قال - قال فقام فجعل ابراهيم يبني واسماعيل يناوله الحجارة ويقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) قال حتى ارتفع البناء وضعف الشيخ عن نقل الحجارة فقام على حجر المقام فجعل يناوله الحجارة ويقولان (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) هكذا

رواه من هذين الوجهين فى كتاب الأنبياء

والعجب أن الحافظ أباعبدالله الحاكم رواه فى كتابه المستدرك عن أبى العباس الأصم عن محمد بن سنان القزاز عن أبى على عبيد الله بن عبد المجيد الحنفى عن ابراهيم بن نافع به وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه كذا قال ، وقد رواه البخارى كما ترى من حديث ابراهيم بن نافع وكأن فيه اختصارا فانه لم يذكر فيه شأن الذبح ، وقد جاء فى الصحيح أن قرنى الكبش كانا معلقين بالكعبة وقد جاء أن ابراهيم عليه السلام كان يزور أهله بمكة على البراق سريعاً ثم يعود إلى أهله بالبلاد المقدسة والله أعلم والحديث — والله أعلم — أن مافيه مرفوع أما كن صرح بها ابن عباس عن النبى ﷺ

وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب فى هذا السياق مايخالف بعض هذا كما قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار ومحمد بن المثنى قالا : أخبرنا مؤمل أخبرنا سفيان عن أبى اسحق عن حارثة بن مضرب عن على بن أبى طالب قال : لما أمر ابراهيم ببناء البيت خرج معه إسماعيل وهاجر قال : فلما قدم مكة رأى على رأسه فى موضع البيت مثل الغمامة فيه مثل الرأس فكلمه قال يا ابراهيم : ابن على ظلى أو قال على قدرى ولا تزد ولا تنقص فلما بنى خرج وخلف إسماعيل وهاجر فقالت هاجر يا ابراهيم : الى من تكلنا ؟ قال الى الله قالت . انطلق فانه لايضيعنا قال : فعطش إسماعيل عطشاً شديدا قال . فصعدت هاجر الى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً حتى أتت المروة فلم ترشيئاً ، ثم رجعت الى الصفا فنظرت فلم تر شيئاً ففعلت ذلك سبع مرات فقالت : يا إسماعيل مت حيث لاأراك فأتته وهو يفحص برجله من العطش فناداها جبريل فقال لها . من أنت ؟ قالت . أناهاجر أم ولد ابراهيم قال : فإلى من وكلكما ؟ قالت . وكلنا الى الله ، قال . وكلكما الى كاف قال . ففحص الأرض بأصبعه فنبعت زمزم فجعلت تحبس الماء فقال : دعيه فانه روى[1] فى هذا السياق أنه بنى البيت قبل أن يفارقهما وقد يحتمل أنه كان محفوظاً أن يكون أولا وضع له حوطا وتحجيرا لاأنه بناه إلى أعلاه حتى كبر اسماعيل فبنياه معاً كما قال الله تعالى.

ثم قال ابن جرير أخبر هناد بن السرى حدثنا أبو الأحوص عن سماك عن خالد بن عرعرة أن رجلا قام الى على رضى الله عنه فقال ألا تخبرنى عن البيت أهو أول بيت وضع فى الأرض ؟ فقال لا ، ولكنه أول بيت وضع فى البركة مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا وان شئت أنبأتك كيف بنى ، إن الله أوحى الى ابراهيم أن ابن لى بيتاً فى الأرض فضاق ابراهيم بذلك ذرعا فأرسل الله السكينة وهى ريح خجوج ولها رأسان فاتبع أحدهما صاحبه حتى انتهت الى مكة فتطوت على موضع البيت كطى[2] الحجفة وأمر ابراهيم أن يبنى حيث تستقر السكينة فبنى ابراهيم وبقى الحجر فذهب الغلام يبغى شيئا فقال ابراهيم لأبغنى حجرا كما آمرك قال فانطلق الغلام يلتمس له حجرا فأتاه به فوجده قد ركب الحجر الأسود فى مكانه فقال يا أبت من أتاك بهذا الحجر فقال أتانى به من لم يتكل على بنائك جاء به جبريل عليه السلام من السماء فأتماه .

وقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المقرى أخبرنا سفيان عن بشر بن عاصم عن سعيد بن المسيب عن كعب الأحبار قال . كان البيت غثاءة على الماء قبل أن يخلق الله الأرض بأربعين عاما ومنه دحيت الأرض . قال سعيد . وحدثنا على بن أبى طالب أن ابراهيم أقبل من أرض أرمينية ومعه السكينة تدله على تبوء البيت كما تتبوأ العنكبوت بيتا ، قال . فكشفت عن أحجار لايطيق الحجر إلا ثلاثون رجلا فقلت يا أبا محمد فإن الله يقول (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت وإسماعيل) قال كان ذلك بعد وقال السدى . إن الله عز وجل أمر ابراهيم أن يبنى البيت هو واسماعيل ابنيا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود . فانطلق ابراهيم حتى أتى مكة فقام هو واسماعيل وأخذا المعاول لايدريان أين البيب فبعث الله ريحاً يقال لها الريح الخجوج لها جناحان ورأس فى صورة حية فكشفت لهما ما حول الكعبة عن أساس البيت الأول واتبعاها بالمعاول يحفران حتى وضعا الأساس فذلك حين يقول تعالى (وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت) (واذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) فلما بنيا القواعد فبلغا مكان الركن . قال ابراهيم لإسماعيل يابنى اطلب لى حجرا حسنا أضعه ههنا . قال يا أبت انى كسلان لغب . قال على ذلك فانطلق يطلب له حجرا وجاءه جبريل بالحجر الأسود من الهند وكان أبيض ياقوتة بيضاء مثل الثغامة وكان آدم هبط به من الجنة فاسود من خطايا

(١) كذا فى النسخة الأميرية وضبط بتشديد الواو ولعله الياء وفى نسخة خزانة الأزهر : دعيه فإنها رواء . (٢) وفى ابن جرير كتطوى .

الناس فجاءه إسماعيل بحجر فوجده عند الركن ، فقال يا أبت من جاءك بهذا ؟ قال جاء به من هو أنشط منك ، فبنيا وهما يدعوان الكلمات التى ابتلى ابراهيم ربه ، فقال (ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم) وفى هذا السياق مايدل على أن قواعد البيت كانت مبنية قبل ابراهيم وإنما هدى ابراهيم اليها وبوئ لها ، وقد ذهب الى هذا ذاهبون كما قال الإمام عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت) قال القواعد التى كانت قواعد البيت قبل ذلك ، وقال عبد الرزاق أيضاً أخبرنا هشام بن حسان عن سوار ختن عطاء عن عطاء بن أبى رباح قال : لما أهبطالله آدم من الجنة كانت رجلاه فى الأرض ورأسه فى السماء يسمع كلام أهل السماء ودعاءهم يأنس اليهم فهابت الملائكة حتى شكت الى الله فى دعائها وفى صلاتها فخفضه الله تعالى الى الأرض ، فلما فقد ما كان يسمع منهم استوحش حتى شكا ذلك الى الله فى دعائه وفى صلاته فوجه الى مكة فكان موضع قدميه قرية وخطوه مفازة حتى انتهى الى مكة وأنزل الله ياقوتة من ياقوت الجنة فكانت على موضع البيت الآن فلم يزل يطوف به حتى أنزل الله الطوفان فرفعت تلك الياقوتة حتى بعث الله إبراهيم عليه السلام فبناه . وذلك قول الله تعالى (وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت) وقال عبدالرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء قال : قال آدم إنى لا أسمع أصوات الملائكة ، قال بخطيئتك ولكن اهبط الى الأرض فابن لى بيتا ثم احفف به كما رأيت الملائكة تحف بيتى الذى فى السماء فيزعم الناس أنه بناه من خمسة (١) أجبل من حراء وطور زيتا وطور سيناء والجودى ، وكان ربضه من حراء فكان هذا بناء آدم حتى بناه ابراهيم عليه السلام بعد ، وهذا صحيح الى عطاء ولكن فى بعضه نكارة والله أعلم .

وقال عبدالرزاق أيضا أخبرنا معمر عن قتادة قال : وضع الله البيت مع آدم أهبط الله آدم الى الأرض ، وكان مهبطه بأرض الهند وكان رأسه فى السماء ورجلاه فى الأرض فكانت الملائكة تهابه فنقص الى ستين ذراعا فحزن آدم إذ فقد أصوات الملائكة وتسبيحهم ، فشكا ذلك الى الله عز وجل فقال الله يا آدم إنى قد أهبطت لك بيتا تطوف به كما يطاف حول عرشى وتصلى عنده كما يصلى عند عرشى ، فانطلق اليه آدم فخرج ومدله فى خطوه ، فكان بين كل خطوتين مفازة فلم تزل تلك المفازة بعد ذلك ، فأتى آدم البيت فطاف به ومن بعده من الأنبياء .

وقال ابن جرير : أخبرنا ابن حميد أخبرنا يعقوب العمى عن حفص بن حميد عن عكرمة عن ابن عباس قال : وضع الله البيت على أركان الماء على أربعة أركان قبل أن تخلق الدنيا بألفى عام ، ثم دحيت الأرض من تحت البيت . وقال محمد ابن اسحق حدثنى عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد وغيره من أهل العلم ، إن الله لما بوأ إبراهيم مكان البيت خرج اليه من الشام وخرج معه بإسماعيل وأمه هاجر واسماعيل طفل صغير يرضع وحملوا فيما حدثنى على البراق ومعه جبريل يدله على موضع البيت ومعالم الحرم ، وخرج معه جبريل فكان لايمر بقرية إلا قال : أبهذه أمرت ياجبريل ؟ فيقول جبريل امضه ، حتى قدم به مكة وهى إذ ذاك عضاه وسلم وسمر (٢) وبها أناس يقال لهم العماليق خارج مكة وما حولها ، والبيت يومئذ ربوة حمراء مدرة فقال ابراهيم لجبريل : أههنا أمرت أن أضعهما ؟ قال نعم فعمد بهما الى موضع الحجر فأنزلهما فيه وأمر هاجر أم اسماعيل أن تتخذ فيه عريشا فقال (ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم) الى قوله (لعلهم يشكرون) وقال عبدالرزاق أخبرنا هشام بن حسان أخبرنى حميد عن مجاهد قال : خلق الله موضع هذا البيت قبل أن يخلق شيئا بألفى سنة وأركانه فى الأرض السابعة ، وكذا قال ليث بن أبى سليم عن مجاهد القواعد فى الأرض السابعة وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى أخبرنا عمرو بن رافع أخبرنا عبد الوهاب بن معاوية عن عبد المؤمن بن خالد عن علياء بن أحمر أن ذا القرنين قدم مكة فوجد ابراهيم واسماعيل يبنيان قواعد البيت من خمسة أجبل . فقال مالكما ولأرضنا ؟ فقال نحن عبدان مأموران أمرنا ببناء هذه الكعبة . قال فهاتا بالبينة على ما تدعيان . فقامت خمسة أكبش فقلن نحن نشهد ان ابراهيم واسماعيل عبدان مأموران أمرا ببناء هذه الكعبة . فقال قد رضيت وسلمت ، ثم مضى وذكر الأزرقى فى تاريخ مكة ان ذا القرنين طاف مع ابراهيم عليه السلام بالبيت وهذا يدل على تقدم زمانه والله أعلم .

وقال البخارى رحمه الله قوله تعالى (وإذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل) الآية . القواعد أساسه واحدها

---

(١) قوله خمسة المعدود أربعة وحرر (٢) فى نسخة الأزهر وابن جرير : سلم وسمر بدون عطف اه .

قاعدة والقواعد من النساء واحدتها قاعدة . حدثنا إسماعيل حدثني مالك عن ابن شهاب عن سالم بن عبدالله أن عبدالله ابن محمد بن أبي بكر أخبر عبد الله بن عمر عن عائشة زوج النبي ﷺ . أن رسول الله ﷺ قال « ألم ترى أن قومك حين بنوا البيت اقتصروا عن قواعد إبراهيم ؟ » فقلت يا رسول الله ألا تردها على قواعد إبراهيم ؟ قال « لولا حدثان قومك بالكفر » فقال عبد الله بن عمر : لئن كانت عائشة سمعت هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أرى رسول الله ﷺ ترك استلام الركنين اللذين يليان الحجر الا أن البيت لم يتمم على قواعد إبراهيم عليه السلام . وقد رواه في الحج عن القعنبي وفي أحاديث الأنبياء عن عبد الله بن يوسف ومسلم عن يحيى بن يحيى ومن حديث بن وهب والنسائي من حديث عبد الرحمن بن القاسم كلهم عن مالك به . ورواه مسلم أيضاً من حديث نافع قال سمعت عبد الله بن أبي بكر[1] بن أبي قحافة يحدث عبدالله بن عمر عن عائشة عن النبي ﷺ قال « لولا أن قومك حديثو عهد بجاهلية — أو قال بكفر — لأنفقت كنز الكعبة في سبيل الله ولجعلت بابها بالأرض ، ولأدخلت فيها الحجر » وقال البخاري أخبرنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبي إسحق عن الأسود قال : قال لي ابن الزبير كانت عائشة تسر إليك حديثا كثيراً فما حدثتك في الكعبة قال قلت قالت لي قال النبي ﷺ « ياعائشة لولا قومك حديث عهدهم — فقال ابن الزبير — بكفر لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين بابا يدخل منه الناس وبابا يخرجون منه » ففعله ابن الزبير انفرد بإخراجه البخاري فرواه هكذا في كتاب العلم من صحيحه ، وقال مسلم في صحيحه حدثنا يحي بن يحي أخبرنا أبو معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت قال لي رسول الله ﷺ « لولا حداثة عهد قومك بالكفر لنقضت الكعبة ولجعلتها على أساس إبراهيم فان قريشا حين بنت البيت استقصرت ، ولجعلت لها خلفا » قال . وحدثناه أبو بكر بن أبي شيبة وأبو كريب قالا أخبرنا ابن نمير عن هشام بهذا الاسناد انفرد به مسلم : قال وحدثني محمد بن حاتم حدثني محمد بن مهدي أخبرنا سليم بن حيان عن سعيد يعني ابن ميناء قال سمعت عبد الله بن الزبير يقول حدثتني خالتي يعني عائشة رضي الله عنها قالت قال النبي ﷺ « ياعائشة لولا قومك حديثو عهد بشرك لهدمت الكعبة فألزقتها بالأرض ولجعلت لها بابا شرقيا وبابا غربيا وزدت فيها ستة أذرع من الحجر فان قريشا اقتصرتها حيث بنت الكعبة » انفرد به أيضاً :

﴿ ذكر بناء قريش الكعبة بعد إبراهيم الخليل عليه السلام بمدد طويلة وقبل مبعث رسول الله ﷺ بخمس سنين ﴾

وقد نقل معهم في الحجارة وله من العمر خمس وثلاثون سنة صلوات الله وسلامه عليه دائماً الى يوم الدين . قال محمد بن إسحق بن يسار في السيرة . ولما بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبنيان الكعبة وكانوا يهمون بذلك ليسقفوها ويهابون هدمها وإنما كانت رضما فوق القامة فأرادوا رفعها وتسقيفها وذلك أن نفراً سرقوا كنز الكعبة وإنما كان يكون في بئر في جوف الكعبة وكان الذي وجد عنده الكنز دويك مولى بني مليح بن عمرو من خزاعة فقطعت قريش يده ويزعم الناس أن الذين سرقوه وضعوه عند دويك وكان البحر قد رمى بسفينة إلى جدة لرجل من تجار الروم فتحطمت فأخذوا خشبها فأعدوه لتسقيفها وكان بمكة رجل قبطي نجار فهيأ لهم في أنفسهم بعض ما يصلحها وكانت حية تخرج من بئر الكعبة التي كانت تطرح فيها ما يهدى لها كل يوم فتشرف على جدار الكعبة وكانت مما يهابون ، وذلك انه كان لا يدنو منها أحد إلا احزألت[2] وكشت وفتحت فاها فكانوا يهابونها فبينا هي يوما تشرف على جدار الكعبة كما كانت تصنع بعث الله إليها طائراً فاختطفها فذهب بها فقالت قريش إنا لنرجو أن يكون الله قد رضي ما أردنا ، عندنا عامل رفيق وعندنا خشب وقد كفانا الله الحية فلما أجمعوا أمرهم في هدمها وبنيانها قام ابن وهب[3] بن عمرو بن عائذ بن عبد بن عمران بن مخزوم فتناول من الكعبة حجرا فوثب من يده حتى رجع إلى موضعه فقال يامعشر قريش لاتدخلوا في بنيانها من كسبكم إلا طيبا ، لايدخل فيها مهر بغي ، ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد من الناس ، قال ابن إسحق والناس ينتحلون هذا الكلام للوليد بن المغيرة بن عبدالله بن عمرو بن مخزوم

(١) هو عبدالله بن محمد بن أبي بكر كما في رواية أخرى لمسلم أيضا فان عبدالله بن أبي بكر توفي في خلافة أبيه كما في الاصابة اه . (٢) احزألت : ارتفعت واستوفزت للوثوب (٣) في نسخة الأزهر أبو وهب وجاء في حاشيتها أبو وهب خال والد النبي صلى الله عليه وسلم وكان شريفا ممدوحا .

قال ثم إن قريشا تجزأت الكعبة فكان شق الباب لبنى عبد مناف وزهرة وكان مابين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا اليهم وكان ظهر الكعبة لبنى جمح وسهم وكان شق الحجر لبنى عبدالدار بن قصى ولبنى أسد بن عبد العزى بن قصى ولبنى عدى بن كعب بن لؤى وهو الحطيم ثم إن الناس هابوا هدمها وفرقوا منه فقال الوليد بن المغيرة أنا أبدؤكم فى هدمها فأخذ المعول ثم قام عليها وهو يقول اللهم لم ترع اللهم إنا لانريد إلا الخير ثم هدم من ناحية الركنين فتربص الناس تلك الليلة وقالوا ننظر فان أصيب لم نهدم منها شيئا ، ورددناها كما كانت وإن لم يصبه شىء فقد رضى الله ماصنعنا ، فأصبح الوليد من ليلته غاديا على عمله فهدم وهدم الناس معه حتى إذا انتهى الهدم بهم إلى الأساس أساس إبراهيم عليه السلام أفضوا إلى حجارة خضر كالأسنة آخذ بعضها بعضا : قال فحدثنى بعض من يروى الحديث أن رجلا من قريش ممن كان يهدمها أدخل عتلة بين حجرين منها ليقلع بها أيضا أحدها فلما تحرك الحجر انتفضت مكة بأسرها فانتهوا عن ذلك الأساس .

قال ابن إسحق . ثم إن القبائل من قريش جمعت الحجارة لبنائها كل قبيلة تجمع على حدة ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن يعنى الحجر الأسود فاختصموا فيه كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى حتى تحاوروا وتخالفوا وأعدوا للقتال فقربت بنو عبد الدار جفنة مملوءة دما ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب بن لؤى على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم فى تلك الجفنة فسموا « لعقة الدم » فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمسا ثم إنهم اجتمعوا فى المسجد فتشاوروا وتناصفوا فزعم بعض أهل الرواية أن أبا أمية بن المغيرة بن عبد الله بن عمرو بن مخزوم وكان عامئذ أسن قريش كلهم قال : يامعشر قريش اجعلوا بينكم فيما تختلفون فيه أول من يدخل من باب هذا المسجد يقضى بينكم فيه ففعلوا فكان أول داخل رسول الله ﷺ فلما رأوه قالوا : هذا الأمين رضينا هذا محمد . فلما انتهى اليهم وأخبروه الخبر قال ﷺ : هلم إلى ثوبا . فأتى به فأخذ الركن يعنى الحجر الأسود فوضعه فيه بيده ثم قال لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ثم ارفعوه جميعا ففعلوا حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ﷺ ثم بنى عليه وكانت قريش تسمى رسول الله ﷺ قبل أن ينزل عليه الوحى (الأمين) فلما فرغوا من البنيان وبنوها على ما أرادوا . قال الزبير ابن عبد المطلب فيما كان من أمر الحية التى كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها .

عجبت لما تصوبت العقاب * إلى الثعبان وهى لها اضطراب * وقد كانت يكون لها كشيش
وأحيانا يكون لها وثاب * إذا قمنا إلى التأسيس شدت * تهيبنا البناء وقد تهاب
فلما أن خشينا الرجز جاءت * عقاب تتلئب لها انصباب * فضمتها اليها ثم خلت
لنا البنيان ليس له حجاب * فقمنا حاشدين إلى بناء * لنا منه القواعد والتراب
غداة نرفع التأسيس منه * وليس على مساوينا ثياب * أعز به المليك بنى لؤى
فليس لأصله منهم ذهاب * وقد حشدت هناك بنو عدى * ومرة قد تقدمها كلاب
فبوأنا المليك بذاك عزا * وعند الله يلتمس الثواب

قال ابن إسحق وكانت الكعبة على عهد النبى ﷺ ثمانى عشر ذراعا وكانت تكسى القباطى ثم كسيت بعد البرود وأول من كساها الديباج الحجاج بن يوسف (قلت) ولم تزل على بناء قريش حتى احترقت فى أول إمارة عبدالله ابن الزبير بعد سنة ستين وفى آخر ولاية يزيد بن معاوية لما حاصروا ابن الزبير فحينئذ نقضها ابن الزبير إلى الأرض وبناها على قواعد إبراهيم عليه السلام وأدخل فيها الحجر وجعل لها بابا شرقيا وبابا غربيا ملصقين بالأرض كما سمع ذلك من خالته عائشة أم المؤمنين عن رسول الله ﷺ ولم تزل كذلك مدة إمارته حتى قتله الحجاج فردها إلى ما كانت عليه بأمر عبد الملك بن مروان له بذلك كما قال مسلم بن الحجاج فى صحيحه أخبرنا هناد بن السرى أخبرنا ابن أبى زائدة أخبرنا ابن أبى سليمان عن عطاء قال لما احترق البيت زمن يزيد بن معاوية حين غزاها أهل الشام فكان

من أمره ما كان تركه ابن الزبير حتى قدم الناس الموسم يريد أن يحزبهم أو يجيروهم على أهل الشام فلما صدر الناس قال . يا أيها الناس أشيروا علىّ فى الكعبة أنقضها ثم أبنى بناءها أو أصلح ما وهى منها ؟ قال ابن عباس إنه قد خرق لى رأى فيها أرى أن تصلح ما وهى منها وتدع بيتا أسلم الناس عليه ، وأحجار أسلم الناس عليها وبعث عليها النبى ﷺ فقال ابن الزبير لو كان أحدهم احترق بيته مارضى حتى يجدده فكيف بيت ربكم عز وجل ، إنى مستخير ربى ثلاثا ثم عازم على أمرى فلما مضت ثلاث أجمع رأيه على أن ينقضها فتحاماها الناس أن ينزل بأول الناس يصعد فيه أمر من السماء حتى صعده رجل فألقى منه حجارة فلما لم يره الناس أصابه شىء تتابعوا فنقضوه حتى بلغوا به الأرض فجعل ابن الزبير أعمدة يستر عليها الستور حتى ارتفع بناؤ ، وقال ابن الزبير إنى سمعت عائشة رضى الله عنها تقول إن النبى صلى الله عليه وسلم : قال « لولا أن الناس حديث عهدهم بكفر وليس عندى من النفقة ما يقوينى على بنائه لكنت أدخلت فيه من الحجر خمسة أذرع ولجعلت له بابا يدخل الناس منه ، وبابا يخرجون منه » قال فأنا أجد ما أنفق ولست أخاف الناس ، قال : فزاد فيه خمسة أذرع من الحجر حتى أبدى له أسا فنظر الناس اليه فبنى عليه البناء وكان طول الكعبة ثمانية عشر ذراعا فلما زاد فيه استقصره فزاد فى طوله عشرة أذرع وجعل له بابين أحدهما يدخل منه ، والآخر يخرج منه . فلما قتل ابن الزبير كتب الحجاج إلى عبد الملك يستجيزه بذلك ويخبره ان ابن الزبير قد وضع البناء على أس نظر اليه العدول من أهل مكة فكتب اليه عبد الملك إنا لسنا من تلطيخ ابن الزبير فى شىء أما مازاده فى طوله فأقره ، وأما مازاد فيه من الحجر فرده إلى بنائه وسد الباب الذى فتحه فنقضه وأعاده إلى بنائه ، وقد رواه النسائى فى سننه عن هناد عن يحيى بن أبى زائدة عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء عن ابن الزبير عن عائشة بالرفوع منه ولم يذكر القصة وقد كانت السنة إقرارا ما فعله عبد الله بن الزبير رضى الله عنهما لأنه هو الذى وده رسول الله صلى الله عليه وسلم . ولكن خشى أن تنكره قلوب بعض الناس لحداثة عهدهم بالاسلام وقرب عهدهم من الكفر ، ولكن خفيت هذه السنة على عبد الملك بن مروان ولهذا لما تحقق ذلك عن عائشة أنها روت ذلك عن رسول الله ﷺ قال : وددنا أنا تركناه وما تولى ، كما قال مسلم : حدثنى محمد بن حاتم حدثنا محمد بن بكر أخبرنا ابن جريج سمعت عبد الله بن عبيد بن عمير والوليد بن عطاء يحدثان عن الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة قال عبد الله بن عبيد : وفد الحارث بن عبيد الله على عبد الملك بن مروان فى خلافته فقال عبد الملك . ما أظن أباحبيب يعنى ابن الزبير سمع من عائشة ما كان يزعم أنه سمعه منها ، قال الحارث بلى أنا سمعته منها . قال : سمعتها تقول ماذا ؟ قال : قالت قال رسول الله ﷺ « إن قومك استقصروا من بنيان البيت ولولا حداثة عهدهم بالشرك أعدت ما تركوا منه فان بدا لقومك من بعدى أن يبنوه فهلمى لأريك ما تركوا منه » فأراها قريبا من سبعة أذرع هذا حديث عبد الله بن عبيد بن عمير وزاد عليه الوليد بن عطاء قال النبى ﷺ « ولجعلت لها بابين موضوعين فى الأرض شرقيا وغربيا وهل تدرين لم كان قومك رفعوا بابها » ؟ قالت : قلت لا . قال « تعززا أن لا يدخلها إلا من أرادوا فكان الرجل إذا هو أراد أن يدخلها يدعونه حتى يرتقى حتى إذا كاد أن يدخل دفعوه فسقط » قال عبد الملك فقلت للحارث أنت سمعتها تقول هذا ؟ قال نعم قال فنكت ساعة بعصاه ثم قال . وددت أنى تركت وما تحمل . قال مسلم وحدثناه محمد بن عمرو بن جبلة حدثنا أبو عاصم ح وحدثنا عبد بن حميد أخبرنا عبد الرزاق كلاهما عن ابن جريج بهذا الاسناد مثل حديث أبى بكر قال : وحدثنا محمد بن حاتم حدثنا عبد الله بن بكر السهمى حدثنا حاتم ابن أبى صغيرة عن أبى قزعة أن عبد الملك بن مروان بينما هو يطوف بالبيت إذ قال . قاتل الله ابن الزبير حيث يكذب على أم المؤمنين ، يقول سمعتها تقول : قال رسول الله ﷺ « يا عائشة لولا حدثان قومك بالكفر لنقضت الكعبة حتى أزيد فيها من الحجر فإن قومك قصروا فى البناء » فقال الحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة لاتقل هذا يا أمير المؤمنين فانى سمعت أم المؤمنين تحدث هذا . قال لو كنت سمعته قبل أن أهدمه لتركته على ما بنى ابن الزبير ، فهذا الحديث كالمقطوع به إلى عائشة لأنه قد روى عنها من طرق صحيحة متعددة عن الأسود بن يزيد والحارث بن عبد الله بن أبى ربيعة وعبد الله ابن الزبير وعبد الله بن محمد بن أبى بكر وعروة بن الزبير فدل هذا على صواب مافعله ابن الزبير فلو ترك لكان جيداً .

ولكن بعد ما رجع الأمر إلى هذا الحال فقد كره بعض العلماء أن يغير عن حاله كما ذكر عن أمير المؤمنين هرون الرشيد أو أبيه المهدى أنه سأل الإمام مالكا عن هدم الكعبة وردها إلى ما فعله ابن الزبير . فقال له مالك يا أمير المؤمنين لا تجعل كعبة الله ملعبة للملوك لا يشاء أحد أن يهدمها إلا هدمها . فترك ذلك الرشيد ، نقله عياض والنووى ولا تزال — والله أعلم — هكذا إلى آخر الزمان إلى أن يخربها ذو السويقتين من الحبشة كما ثبت ذلك فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة » أخرجاه وعن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « كأنى به أسود أفحج يقلعها حجرا حجرا » رواه البخارى وقال الإمام أحمد بن حنبل فى مسنده أخبرنا أحمد بن عبد الملك الحرانى أخبرنا محمد بن سلمة عن ابن إسحق عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما قال ، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يخرب الكعبة ذو السويقتين من الحبشة ويسلبها حليتها ويجردها من كسوتها ، ولكأنى أنظر إليه أصيلع أفيدع يضرب عليها بمسحاته ومعوله » — الفدع زيغ بين القدم وعظم الساق — وهذا والله أعلم إنما يكون بعد خروج يأجوج ومأجوج لما جاء فى صحيح البخارى عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « ليحجن البيت وليعتمرن بعد خروج يأجوج ومأجوج »

وقوله تعالى حكاية لدعاء إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) قال ابن جرير يعنيان بذلك واجعلنا مستسلمين لأمرك ، خاضعين لطاعتك ، لا نشرك معك فى الطاعة أحدا سواك ، ولا فى العبادة غيرك ، وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا أبى أخبرنا إسماعيل عن رجاء بن حبان الحصينى القرشى أخبرنا معقل بن عبيد الله عن عبد الكريم (واجعلنا مسلمين لك) قال مخلصين لك (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) قال مخلصة وقال أيضاً أخبرنا على بن الحسين أخبرنا المقدمى أخبرنا سعيد ابن عامر عن سلام بن أبى مطيع فى هذه الآية (واجعلنا مسلمين) قال كانا مسلمين ولكنهما سألاه الثبات . وقال عكرمة (ربنا واجعلنا مسلمين لك) قال الله . قد فعلت (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) قال الله قد فعلت . وقال السدى (ومن ذريتنا أمة مسلمة لك) يعنيان العرب . قال ابن جرير : والصواب أنه يعم العرب وغيرهم لأن من ذرية إبراهيم بنى إسرائيل وقد قال الله تعالى (ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون) (قلت) وهذا الذى قاله ابن جرير لا ينفيه السدى فان تخصيصهم بذلك لا ينفى من عداهم والسياق إنما هو فى العرب ولهذا قال بعده (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم) الآية . والمراد بذلك محمد ﷺ ، وقد بعث فيهم كما قال تعالى (هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم) ومع هذا لا ينفى رسالته إلى الأحمر والأسود لقوله تعالى (قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعا) وغير ذلك من الأدلة القاطعة وهذا الدعاء من إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام كما أخبرنا الله تعالى عن عباده المتقين المؤمنين فى قوله (والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين إماما) وهذا القدر مرغوب فيه شرعا فان من تمام محبة عبادة الله تعالى أن يحب أن يكون من صلبه من يعبد الله وحده لا شريك له . ولهذا لما قال الله تعالى لإبراهيم عليه السلام (إنى جاعلك للناس إماما) قال (ومن ذريتى قال لا ينال عهدى الظالمين) وهو قوله (واجنبنى وبنى أن نعبد الأصنام) وقد ثبت فى صحيح مسلم عن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ ، أنه قال « إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعوله » (وأرنا مناسكنا) قال ابن جريج عن عطاء (وأرنا مناسكنا) أخرجها لنا علمناها وقال مجاهد (أرنا مناسكنا) مذابحنا . وروى عن عطاء أيضا وقتادة نحو ذلك . وقال سعيد بن منصور : أخبرنا عتاب بن بشير عن خصيف عن مجاهد قال : قال إبراهيم (أرنا مناسكنا) فأتاه جبرائيل فأتى به البيت ، فقال ارفع القواعد فرفع القواعد وأتم البنيان ثم أخذ بيده فأخرجه فانطلق به إلى الصفا قال هذا من شعائر الله ثم انطلق به إلى المروة فقال وهذا من شعائر الله . ثم انطلق به نحو منى فلما كان من العقبة إذا إبليس قائم عند الشجرة فقال كبر وارمه فكبر ورماه ثم انطلق إبليس فقام عند الجمرة

الوسطى فلما جاز به جبريل وإبراهيم قال له : كبر وارمه ، فكبر ورماه . فذهب الخبيث إبليس وكان الخبيث أراد أن يدخل فى الحج شيئاً فلم يستطع فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به المشعر الحرام فقال هذا المشعر الحرام فأخذ بيد إبراهيم حتى أتى به عرفات قال قد عرفت ماأريتك ؟ قالها ثلاث مرات ، قال نعم . وروى عن أبى مجاز وقتادة نحو ذلك ، وقال أبو داود الطيالسى أخبرنا حماد بن سلمة عن أبى العاصم الغنوى عن أبى الطفيل عن ابن عباس قال إن إبراهيم لما أرى أوامر المناسك عرض له الشيطان عند المسعى فسابقه إبراهيم ثم انطلق به جبريل حتى أتى به منى فقال : هذا مناخ الناس فلما انتهى إلى جمرة العقبة تعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به إلى الجمرة الوسطى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب ثم أتى به إلى الجمرة القصوى فعرض له الشيطان فرماه بسبع حصيات حتى ذهب فأتى به جمعا فقال هذا المشعر ثم أتى به عرفة فقال هذه عرفة فقال له جبريل أعرفت ؟

﴿ رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾

يقول تعالى إخباراً عن تمام دعوة إبراهيم لأهل الحرم أن يبعث الله فيهم رسولا منهم أى من ذرية إبراهيم وقد وافقت هذه الدعوة المستجابة قدر الله السابق فى تعيين محمد صلوات الله وسلامه عليه رسولا فى الأميين إليهم وإلى سائر الأعجميين من الإنس والجن كما قال الإمام أحمد أخبرنا عبد الرحمن بن مهدى عن معاوية بن صالح عن سعيد بن سويد الكلبى عن عبد الأعلى بن هلال السلمى عن العرباض بن سارية : قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنى عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل فى طينته وسأنبئكم بأول ذلك ، دعوة أبى إبراهيم ، وبشارة عيسى بى ، ورؤيا أمى التى رأت وكذلك أمهات النبيين يرين » وكذلك رواه ابن وهب والليث وكاتبه عبد الله بن صالح عن معاوية بن صالح وتابعه أبو بكر بن أبى مريم عن سعيد بن سويد به ، وقال الإمام أحمد أيضا أخبرنا أبو النضر أخبرنا الفرج أخبرنا لقمان بن عامر قال سمعت أبا أمامة قال قلت يا رسول الله ماكان أول بدء أمرك ؟ قال «دعوة أبى إبراهيم ، وبشرى عيسى بى . ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام» والمراد أن أول من نوه بذكره وشهره فى الناس إبراهيم عليه السلام ولم يزل ذكره فى الناس مذكورا مشهورا سائرا حتى أفصح باسمه خاتم أنبياء بنى إسرائيل نسباً وهو عيسى بن مريم عليه السلام حيث قام فى بنى إسرائيل خطيبا وقال (إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشراً برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد) ولهذا قال فى هذا الحديث دعوة أبى إبراهيم وبشرى عيسى بن مريم * وقوله ورأت أمى أنه خرج منها نور أضاءت له قصور الشام قيل كان مناما رأته حين حملت به وقصته على قومها فشاع فيهم واشتهر بينهم وكان ذلك توطئة وتخصيص الشام بظهور نوره إشارة إلى استقرار دينه ونبوته ببلاد الشأم ولهذا تكون الشأم فى آخر الزمان معقلا للاسلام وأهله وبها ينزل عيسى بن مريم إذا نزل بدمشق بالمنارة الشرقية البيضاء منها ، ولهذا جاء فى الصحيحين « لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله وهم كذلك » وفى صحيح البخارى « وهم بالشأم » قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله (ربنا وابعث فيهم رسولا منهم) يعنى أمة محمد صلى الله عليه وسلم فقيل له قد استجيب لك وهو كائن فى آخر الزمان وكذا قال السدى وقتادة * وقوله تعالى (ويعلمهم الكتاب) يعنى القرآن (والحكمة) يعنى السنة قاله الحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وأبو مالك وغيرهم وقيل الفهم فى الدين ولا منافاة (ويزكيهم) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى طاعة الله والإخلاص وقال محمد بن إسحق (ويعلمهم الكتاب والحكمة) قال يعلمهم الخير فيفعلوه والشر فيتقوه ويخبرهم برضا الله عنهم إذا أطاعوه ليستكثروا من طاعته ويجتنبوا ما يسخطه من معصيته ، وقوله (إنك أنت العزيز الحكيم) أى العزيز الذى لا يعجزه شىء وهو قادر على كل شىء الحكيم فى أفعاله وأقواله فيضع الأشياء فى محالها لعلمه وحكمته وعدله .

﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ * وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

يقول تبارك وتعالى ردا على الكفار فيما ابتدعوه وأحدثوه من الشرك بالله المخالف لملة إبراهيم الخليل إمام الحنفاء فانه جرد توحيد ربه تبارك وتعالى فلم يدع معه غيره ولا أشرك به طرفة عين وتبرأ من كل معبود سواه وخالف فى ذلك سائر قومه حتى تبرأ من أبيه فقال (ياقوم إنى برىء مما تشركون * إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) وقال تعالى (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إننى براء مما تعبدون * إلا الذى فطرنى فانه سيهدين) وقال تعالى (وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلاعن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدوّ لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حليم) وقال تعالى (إن إبراهيم كان أمة قانتا لله حنيفا ولم يك من المشركين * شاكرا لأنعمه اجتباه وهداه إلى صراط مستقيم * وآتيناه فى الدنيا حسنة وإنه فى الآخرة لمن الصالحين) ولهذا وأمثاله قال تعالى : (ومن يرغب عن ملة إبراهيم الا من سفه نفسه ؟) أى ظلم نفسه بسفهه وسوء تدبيره بتركه الحق إلى الضلال حيث خالف طريق من اصطفى فى الدنيا للهداية والرشاد من حداثة سنه إلى أن اتخذه الله خليلا وهو فى الآخرة من الصالحين السعداء فمن ترك طريقه هذا ومسلكه وملته واتبع طرق الضلالة والغى فأى سفه أعظم من هذا ؟ أم أى ظلم أكبر من هذا كما قال تعالى إن الشرك لظلم عظيم قال أبو العالية وقتادة نزلت هذه الآية فى اليهود أحدثوا طريقاً ليست من عند الله وخالفوا ملة إبراهيم فيما أحدثوه ويشهد لصحة هذا القول قول الله تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولانصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين * إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه وهذا النبى والذين آمنوا والله ولى المؤمنين *)

وقوله تعالى (إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين) أى أمره الله بالاخلاص له والاستسلام والانقياد فأجاب إلى ذلك شرعا وقدرا وقوله(ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب) أى وصى بهذه الملة وهى الاسلام لله أويعود الضمير على الكلمة وهى قوله (أسلمت لرب العالمين) لحرصهم عليها ومحبتهم لها حافظوا عليها إلى حين الوفاة ووصوا أبناءهم بها من بعدهم كقوله تعالى (وجعلها كلمة باقية فى عقبه) وقد قرأ بعض السلف ويعقوب بالنصب عطفا على بنيه كأن إبراهيم وصى بنيه وابن ابنه يعقوب بن إسحق وكان حاضرا ذلك وقد ادعى القشيرى فيما حكاه القرطبى عنه أن يعقوب إنما ولد بعد وفاة إبراهيم ويحتاج مثل هذا إلى دليل صحيح والظاهر والله أعلم أن إسحق ولده يعقوب فى حياة الخليل وسارة لأن البشارة وقعت بهما فى قوله (فبشرناها باسحق ومن وراء إسحق يعقوب)وقد قرىء بنصب يعقوب ههنا على نزع الخافض فلو لم يوجد يعقوب فى حياتهما لما كان لذكره من بين ذرية إسحق كبير فائدة وأيضا فقد قال الله تعالى فى سورة العنكبوت (ووهبنا له إسحق ويعقوب وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب) الآية وقال فى الآية الأخرى (ووهبنا له إسحق ويعقوب نافلة) وهذا يقتضى أنه وجد فى حياته وأيضا فانه بانى بيت المقدس كما نطقت بذلك الكتب المتقدمة وثبت فى الصحيحين من حديث أبى ذر قلت يارسول الله أى مسجد وضع أول ؟ قال « المسجد الحرام » قلت ثم أى : قال« بيت المقدس» قلت كم بينهما : قال« أربعون سنة » الحديث فزعم ابن حبان أن بين سليمان الذى اعتقد أنه بانى بيت المقدس — وإنما كان جدده بعد خرابه وزخرفه — وبين إبراهيم أربعين سنة وهذا مما أنكر على ابن حبان فان المدة بينهما تزيد على ألوف سنين والله أعلم وأيضا فان وصية يعقوب لبنيه سيأتى ذكرها قريبا وهذا يدل على أنه ههنا من جملة الموصين * وقوله (يابنى إن الله اصطفى لكم الدين فلاتموتن إلا وأنتم مسلمون) أى أحسنوا فى حال الحياة والزموا هذا ليرزقكم الله الوفاة عليه فإن المرء يموت غالبا على ماكان عليه ويبعث على مامات عليه وقد أجرى الله

الكريم عادته بأن من قصد الخير وفق له ويسر عليه ومن نوى صالحا ثبت عليه . وهذا لا يعارض ما جاء فى الحديث الصحيح « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلاباع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل النار حتى مايكون بينه وبينها إلا باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها » لأنه قد جاء فى بعض روايات هذا الحديث ليعمل بعمل أهل الجنة فيما يبدو للناس وبعمل أهل النار فيما يبدو للناس وقد قال الله تعالى (فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسره لليسرى وأما من بخل واستغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى)

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْئَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾

يقول تعالى محتجا على المشركين من العرب أبناء إسماعيل وعلى الكفار من بنى إسرائيل — وهو يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم عليهم السلام — بأن يعقوب لما حضرته الوفاة وصى بنيه بعبادة الله وحده لاشريك له فقال لهم (ماتعبدون من بعدى ؟ قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل وإسحق) وهذا من باب التغليب لأن إسماعيل عمه : قال النحاس والعرب تسمى العم أبا نقله القرطبي وقد استدل بهذه الآية الكريمة من جعل الجدأبا وحجب به الإخوة كما هو قول الصديق حكاه البخارى عنه من طريق ابن عباس وابن الزبير ثم قال البخارى ولم يختلف عليه وإليه ذهبت عائشة أم المؤمنين وبه يقول الحسن البصرى وطاوس وعطاء وهو مذهب أبى حنيفة وغير واحد من السلف والخلف وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه انه يقاسم الإخوة ، وحكى ذلك عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وزيد بن ثابت وجماعة من السلف والخلف واختاره صاحبا أبى حنيفة القاضى أبو يوسف ومحمد بن الحسن ولتقريرها موضع آخر وقوله (إلها واحدا) أى نوحده بالألوهية ولانشرك به شيئا غيره (ونحن له مسلمون) أى مطيعون خاضعون كما قال تعالى (وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) والإسلام هو ملة الأنبياء قاطبة وإن تنوعت شرائعهم واختلفت مناهجهم كما قال تعالى (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه أنه لاإله إلا أنا فاعبدون) والآيات فى هذا كثيرة والأحاديث فمنها قوله ﷺ « نحن معشر الأنبياء أولاد علات ديننا واحد » وقوله تعالى (تلك أمة قد خلت) أى مضت (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) أى إن السلف الماضين من آبائكم من الأنبياء والصالحين لاينفعكم انتسابكم إليهم إذا لم تفعلوا خيرا يعود نفعه عليكم فان لهم أعمالهم التى عملوها ولكم أعمالكم (ولاتسئلون عما كانوا يعملون) وقال أبو العالية والربيع وقتادة (تلك أمة قد خلت) يعنى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط . ولهذا جاء فى الأثر « من أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه[1] »

﴿ وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

قال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد حدثنى سعيد بن جبير أو عكرمة عن ابن عباس قال : قال عبد الله بن صوريا الأعور لرسول الله صلى الله عليه وسلم ما الهدى إلا مانحن عليه فاتبعنا يا محمد تهتد وقالت النصارى مثل ذلك ، فأنزل الله عز وجل (وقالوا كونوا هودا أو نصارى تهتدوا) وقوله (قل بل ملة إبراهيم حنيفا) أى لانريد ما دعوتمونا إليه من اليهودية والنصرانية بل نتبع (ملة إبراهيم حنيفا) أى مستقيما . قاله محمد بن كعب القرظى وعيسى ابن جارية : وقال خصيف عن مجاهد مخلصا . وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس حاجا . وكذا روى عن الحسن والضحاك وعطية والسدى . وقال أبو العالية . الحنيف الذى يستقبل البيت بصلاته ويرى أن حجه عليه إن استطاع

(١) قد يطلق الأثر على مايشمل الحديث المرفوع لانه رواه مسلم مرفوعا من حديث طويل عن أبى هريرة

إليه سبيلا . وقال مجاهد والربيع بن أنس . حنيفا أى متبعا . وقال أبو قلابة : الحنيف الذى يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم وقال قتادة : الحنيفية شهادة أن لا إله إلا الله يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات والعمات وما حرم الله عز وجل والختان

﴿ قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾

أرشد الله تعالى عباده المؤمنين إلى الإيمان بما أنزل إليهم بواسطة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم مفصلا وما أنزل على الأنبياء المتقدمين مجملا ، ونص على أعيان من الرسل وأجمل ذكر بقية الأنبياء وأن لا يفرقوا بين أحد منهم بل يؤمنوا بهم كلهم ولا يكونوا كمن قال الله فيهم (ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا * أولئك هم الكافرون حقا) الآية وقال البخارى حدثنا محمد بن بشار أخبرنا عثمان بن عمرة أخبرنا على بن المبارك عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة بن عبد الرحمن عن أبى هريرة قال : كان أهل الكتاب يقرءون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل الله » . وقد روى مسلم وأبو داود والنسائى من حديث عثمان بن حكيم عن سعيد بن يسار عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أكثر ما يصلى الركعتين اللتين قبل الفجر بـ(آمنا بالله وما أنزل إلينا) الآية والأخرى بـ(آمنا بالله واشهد بأننا مسلمون) وقال أبو العالية والربيع وقتادة : الأسباط بنو يعقوب اثنا عشر رجلا ولد كل رجل منهم أمة من الناس فسموا الأسباط . وقال الخليل بن أحمد وغيره : الأسباط فى بنى إسرائيل كالقبائل فى بنى إسماعيل : وقال الزمخشرى فى الكشاف : الأسباط حفدة يعقوب ذرارى أبنائه الاثنى عشر وقد نقله الرازى عنه وقرره ولم يعارضه . وقال البخارى . الأسباط قبائل بنى إسرائيل ، وهذا يقتضى أن المراد بالأسباط ههنا شعوب بنى إسرائيل وما أنزل الله من الوحى على الأنبياء الموجودين منهم كما قال موسى لهم (اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا) الآية وقال تعالى (وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا) قال القرطبى : : وسموا الأسباط من السبط وهو التتابع فهم جماعة ، وقيل أصله من السبط بالتحريك وهو الشجر أى فى الكثرة بمنزلة الشجر الواحدة سبطة . قال الزجاج : ويبين لك هذا ما حدثنا محمد ابن جعفر الأنبارى حدثنا أبو نجيد الدقاق حدثنا الأسود بن عامر حدثنا إسرائيل عن سماك عن عكرمة عن ابن عباس قال كل الأنبياء من بنى إسرائيل إلا عشرة نوح وهود وصالح وشعيب وإبراهيم وإسحق ويعقوب وإسماعيل ومحمد عليهم الصلاة والسلام . قال القرطبى . والسبط الجماعة والقبيلة الراجعون إلى أصل واحد . وقال قتادة . أمر الله المؤمنين أن يؤمنوا به ويصدقوا بكتبه كلها ورسله . وقال سليمان بن حبيب إنما أمرنا أن نؤمن بالتوراة والإنجيل ولا نعمل بما فيهما . وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا محمد بن محمد بن مصعب الصورى أخبرنا مؤمل أخبرنا عبيد الله بن أبى حميد عن أبى المليح عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم« آمنوا بالتوراة والزبور والإنجيل وليسعكم القرآن»

﴿ فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنتُم بِهِ فَقَدِ ٱهْتَدَوا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ * صِبْغَةَ ٱللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَٰبِدُونَ ﴾

يقول تعالى فان آمنوا، يعنى الكفار من أهل الكتاب وغيرهم بمثل ما آمنتم به يأيها المؤمنون من الإيمان بجميع كتب الله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم (فقد اهتدوا) أى فقد أصابوا الحق وأرشدوا إليه . (وإن تولوا) أى عن الحق إلى الباطل بعد قيام الحجة عليهم (فإنما هم فى شقاق فسيكفيكهم الله) أى فسينصرك عليهم ويظفرك بهم (وهو السميع العليم)

قال ابن أبى حاتم قرأ علىّ يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنا زياد بن يونس حدثنا نافع بن أبى نعيم قال أرسل إلى بعض الخلفاء مصحف عثمان بن عفان ليصلحه قال زياد فقلت له إن الناس ليقولون إن مصحفه كان فى حجره حين قتل فوقع الدم على (فسيكفيكهم الله وهو السميع العليم) فقال نافع بصرت عينى بالدم على هذه الآية وقد قدم * وقوله (صبغة الله) قال الضحاك عن ابن عباس دين الله وكذا روى عن مجاهد وأبى العالية وعكرمة وإبراهيم والحسن وقتادة والضحاك وعبد الله بن كثير وعطية العوفى والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك وانتصاب صبغة الله إما على الإغراء كقوله (فطرة الله) أى الزموا ذلك عليكموه وقال بعضهم بدلا من قوله (ملة إبراهيم) وقال سيبويه هو مصدر مؤكد انتصب عن قوله (آمنا بالله) كقوله (وعد الله) وقد ورد فى حديث رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه من رواية أشعث بن إسحق عن سعيد بن جبير عن ابن عباس أن نبى الله ﷺ قال « إن بنى إسرائيل قالوا يا رسول الله هل يصبغ ربك ؟ فقال اتقوا الله . فناداه ربه يا موسى سألوك هل يصبغ ربك ؟ فقل نعم : أنا أصبغ الألوان الأحمر والأبيض والأسود والألوان كلها من صبغى » وأنزل الله على نبيه صلى الله عليه وسلم (صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة) كذا وقع فى رواية ابن مردويه مرفوعا وهو فى رواية ابن أبى حاتم موقوف وهو أشبه إن صح إسناده والله أعلم .

﴿ قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ * أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطَ كَانُوا۟ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ قُلْ ءَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ ٱللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَٰدَةً عِندَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ * تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾

يقول الله تعالى مرشدا نبيه صلوات الله وسلامه عليه إلى درء مجادلة المشركين (قل أتحاجوننا فى الله) أى تناظروننا فى توحيد الله والإخلاص له والانقياد واتباع أوامره وترك زواجره (وهو ربنا وربكم) المتصرف فينا وفيكم المستحق لإخلاص الإلهية له وحده لا شريك له (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم) أى نحن برآء منكم ومما تعبدون وأنتم برآء منا كما قال فى الآية الأخرى (فان كذبوك فقل لى عملى ولكم عملكم . أنتم بريئون مما أعمل وأنا برئ مما تعملون) وقال تعالى (فإن حاجوك فقل أسلمت وجهى لله ومن اتبعنى) إلى آخر الآية وقال تعالى إخبارا عن إبراهيم (وحاجه قومه قال أتحاجونى فى الله) إلى آخر الآية وقال تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) الآية وقال فى هذه الآية الكريمة (ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ونحن له مخلصون) أى نحن برآء منكم كما أنتم برآء منا ونحن له مخلصون أى فى العبادة والتوجه ثم أنكر تعالى عليهم فى دعواهم أن إبراهيم ومن ذكر بعده من الأنبياء والأسباط كانوا على ملتهم إما اليهودية وإما النصرانية فقال (قل أأنتم أعلم أم الله) يعنى بل الله أعلم وقد أخبر أنهم لم يكونوا هودا ولا نصارى كما قال تعالى (ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين) الآية والتى بعدها ، وقوله (ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله) قال الحسن البصرى كانو يقرءون فى كتاب الله الذى أتاهم إن الدين الإسلام وإن محمداً رسول الله وإن إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط كانوا برآء من اليهودية والنصرانية فشهدوا لله بذلك وأقروا على أنفسهم لله فكتموا شهادة الله عندهم من ذلك ، وقوله (وما الله بغافل عما تعملون) تهديد ووعيد شديد أى أن علمه محيط بعلمكم وسيجزيكم عليه . ثم قال تعالى (تلك أمة قد خلت) أى قد مضت (لها ما كسبت ولكم ما كسبتم) أى لهم أعمالهم ولكم أعمالكم (ولا تسئلون عما كانوا يعملون) وليس يغنى عنكم انتسابكم اليهم من غير متابعة منكم لهم ولا تغتروا بمجرد النسبه إليهم حتى تكونوا منقادين مثلهم لأوامر الله واتباع رسله الذين بعثوا

مبشرين ومنذرين فانه من كفر بنبي واحد فقد كفر بسائر الرسل ولاسيما بسيد الأنبياء وخاتم المرسلين ورسول رب العالمين إلى جميع الإنس والجن من المكلفين صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر أنبياء الله أجمعين .

﴿ سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَاءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ * وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِي كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾

قيل المراد بالسفهاء ههنا مشركو العرب قاله الزجاج وقيل أحبار يهود قاله مجاهد وقيل المنافقون قاله السدى والآية عامة فى هؤلاء كلهم والله أعلم . قال البخارى أخبرنا أبو نعيم سمع زهيرا عن أبى إسحق عن البراء رضى الله عنه أن رسول الله ﷺ صلى إلى بيت المقدس ستة عشر شهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه أن تكون قبلته قبل البيت وأنه صلى أول صلاة صلاها صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان صلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال أشهد بالله لقد صليت مع النبى ﷺ قبل مكة ، فداروا كما هم قبل البيت وكان الذى قد مات على القبلة قبل أن تحول قبل البيت رجالا قتلوا لم ندر ماتقول فيهم فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم) انفرد به البخارى من هذا الوجه ورواه مسلم من وجه آخر وقال محمد بن إسحق حدثنى إسماعيل بن أبى خالد عن أبى إسحق عن البراء قال كان رسول الله ﷺ يصلى نحو بيت المقدس ويكثر النظر إلى السماء ينتظر أمر الله فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) فقال رجال من المسلمين وددنا لو علمنا علم من مات منا قبل أن نصرف إلى القبلة وكيف بصلاتنا نحو بيت المقدس فأنزل الله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) وقال السفهاء من الناس وهم أهل الكتاب ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها فأنزل الله (سيقول السفهاء من الناس) إلى آخر الآية ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا الحسن بن عطية حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء قال : كان رسول الله ﷺ قد صلى نحو بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً وكان يحب أن يوجه نحو الكعبة فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) قال فوجه نحو الكعبة وقال السفهاء من الناس وهم اليهود (ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها) فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة أمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً وكان رسول الله ﷺ يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الله وينظر إلى السماء فأنزل الله عزوجل (فولوا وجوهكم شطره) أى نحوه فارتاب من ذلك اليهود وقالوا ماولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ فأنزل الله (قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وقد جاء فى هذا الباب أحاديث كثيرة وحاصل الأمر أنه قد كان رسول الله ﷺ أمر باستقبال الصخرة من بيت المقدس فكان بمكة يصلى بين الركنين فتكون بين يديه الكعبة وهو مستقبل صخرة بيت المقدس فلما هاجر إلى المدينة تعذر الجمع بينهما فأمره الله بالتوجه إلى بيت المقدس قاله ابن عباس والجمهور ثم اختلف هؤلاء هل كان الأمر به بالقرآن أو بغيره على قولين وحكى القرطبى فى تفسيره عن عكرمة وأبى العالية والحسن البصرى أن التوجه إلى بيت المقدس كان باجتهاده عليه السلام . والمقصود أن التوجه إلى بيت المقدس بعد مقدمه ﷺ المدينة واستمر الأمر على ذلك بضعة عشر شهراً وكان يكثر الدعاء والابتهال أن يوجه إلى الكعبة التى هى قبلة إبراهيم عليه السلام فأجيب إلى ذلك وأمر بالتوجه إلى البيت العتيق فخطب رسول الله ﷺ الناس

فأعلمهم بذلك وكان أول صلاة صلاها إليها صلاة العصر كما تقدم فى الصحيحين من رواية البراء ووقع عند النسائى من رواية أبى سعيد بن المعلى أنها الظهر وقال كنت أنا وصاحبى أول من صلى إلى الكعبة وذكر غير واحد من المفسرين وغيرهم أن تحويل القبلة نزل على رسول الله وقد صلى ركعتين من الظهر وذلك فى مسجد بنى سلمة فسمى مسجد القبلتين وفى حديث نويلة بنت مسلم أنهم جاءهم الخبر بذلك وهم فى صلاة الظهر قالت فتحول الرجال مكان النساء والنساء مكان الرجال ذكره الشيخ أبو عمر بن عبد البر النمرى وأما أهل قباء فلم يبلغهم الخبر إلى صلاة الفجر من اليوم الثانى كما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه قال بينما الناس بقباء فى صلاة الصبح إذ جاءهم آت فقال إن رسول الله ﷺ قد أنزل عليه الليلة قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها ، وكانت وجوههم إلى الشام فاستداروا إلى الكعبة . وفى هذا دليل على أن الناسخ لا يلزم حكمه إلا بعد العلم به وإن تقدم نزوله وإبلاغه لأنهم لم يؤمروا بإعادة العصر والمغرب والعشاء والله أعلم ولما وقع هذا حصل لبعض الناس من أهل النفاق والريب والكفرة من اليهود ارتياب وزيغ عن الهدى وتخبيط وشك وقالوا (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها) أى قالوا ما لهؤلاء تارة يستقبلون كذا وتارة يستقبلون كذا فأنزل الله جوابهم فى قوله (قل لله المشرق والمغرب) أى الحكم والتصرف والأمر كله لله (فأينما[1] تولوا فثم وجه الله)و(ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله) أى الشأن كله فى امتثال أوامر الله فحيثما وجهنا توجهنا فالطاعة فى امتثال أمره ولو وجهنا فى كل يوم مرات إلى جهات متعددة فنحن عبيده وفى تصرفه وخدامه حيثما وجهنا توجهنا وهو تعالى له بعبده ورسوله محمد صلوات الله وسلامه عليه وأمته عناية عظيمة إذ هداهم إلى قبلة إبراهيم خليل الرحمن وجعل توجههم إلى الكعبة المبنية على اسمه تعالى وحده لا شريك له أشرف بيوت الله فى الأرض إذ هى بناء إبراهيم الخليل عليه السلام ولهذا قال : (قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم)

وقد روى الإمام أحمد عن على بن عاصم عن حصين بن عبد الرحمن عن عمرو بن قيس عن محمد بن الأشعث عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ، يعنى فى أهل الكتاب « إنهم لا يحسدوننا على شىء كما يحسدوننا على يوم الجمعة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى القبلة التى هدانا الله لها وضلوا عنها وعلى قولنا خلف الإمام آمين »

وقوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) يقول تعالى إنما حولناكم إلى قبلة إبراهيم عليه السلام واخترناها لكم لنجعلكم خيار الأمم لتكونوا يوم القيامة شهداء على الأمم لأن الجميع معترفون لكم بالفضل والوسط ههنا الخيار والأجود كما يقال قريش أوسط العرب نسبا وداراً أى خيرها وكان رسول الله ﷺ وسطا فى قومه ، أى أشرفهم نسبا ومنه الصلاة الوسطى التى هى أفضل الصلوات وهى العصر كما ثبت فى الصحاح وغيرها ولما جعل الله هذه الأمة وسطا خصها بأكمل الشرائع وأقوم المناهج وأوضح المذاهب كما قال تعالى (هو اجتباكم وما جعل عليكم فى الدين من خرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفى هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس) وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد قال: قال رسول الله ﷺ « يدعى نوح يوم القيامة فيقال له هل بلغت ؟ فيقول نعم ، فيدعى قومه فيقال لهم هل بلغكم؟ فيقولون ما أتانا من نذير وما أتانا من أحد ، فيقال لنوح من يشهد لك . فيقول محمد وأمته، قال فذلك قوله (وكذلك جعلناكم أمة وسطا) قال والوسط العدل فتدعون فتشهدون له بالبلاغ ثم أشهد عليكم » رواه البخارى والترمذى والنسائى وابن ماجه من طرق عن الأعمش وقال الإمام أحمد أيضا : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى سعيد الخدرى قال : قال رسول الله ﷺ « يجىء النبى يوم القيامة ومعه الرجلان وأكثر من ذلك فيدعى قومه فيقال هل بلغكم هذا ؟ فيقولون لا فيقال له هل بلغت قومك ؟ فيقول نعم : فيقال من يشهد لك ، فيقول محمد وأمته فيدعى محمد وأمته : فيقال لهم هل بلغ هذا قومه ؟ فيقولون نعم. فيقال وما علمكم ؟ فيقولون جاءنا نبينا فأخبرنا أن الرسل قد بلغوا فذلك قوله عز وجل (وكذلك جعلناكم أمة وسطا)قال عدلا (لتكونوا شهداء على الناس ويكون

(١) كانت فى النسختين المطبوعة والمخطوطة : وحيثما . وهو من الاتفاق الغريب فى الغلط .

الرسول عليكم شهيدا) » وقال أحمد أيضا حدثنا أبومعاوية حدثنا الأعمش عن أبي صالح عن أبي سعيد الخدرى عن النبى ﷺ فى قوله تعالى (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً) قال عدلا . وروى الحافظ أبو بكر بن مردويه وابن أبى حاتم من حديث عبدالواحد بن زياد عن أبى مالك الأشجعى عن المغيرة بن عتيبة بن نباس[1] حدثنى مكاتب لنا عن جابر بن عبد الله عن النبى ﷺ قال « أنا وأمتى يوم القيامة على كوم مشرفين على الخلائق مامن الناس أحد إلا ود أنه منا وما من نبى كذبه قومه إلا ونحن نشهد أنه قدبلغ رسالة ربه عز وجل » وروى الحاكم فى مستدركه وابن مردويه أيضا ، واللفظ له من حديث مصعب بن ثابت عن محمد بن كعب القرظى عن جابر بن عبد الله قال : شهد رسول الله ﷺ جنازة فى بنى مسلمة وكنت إلى جانب رسول الله ﷺ فقال بعضهم والله يارسول الله لنعم المرء كان ، لقد كان عفيفا مسلما وكان وأثنوا عليه خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم . أنت بما تقول . فقال الرجل : الله أعلم بالسرائر ، فأما الذى بدا لنا منه فذاك فقال النبى ﷺ وجبت ، ثم شهد جنازة فى بنى حارثة وكنت إلى جانب رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال بعضهم . يارسول الله بئس المرء كان إن كان لفظا غليظا فأثنوا عليه شرا ، فقال رسول الله ﷺ لبعضهم أنت بالذى تقول . فقال الرجل الله أعلم بالسرائر ، فأما الذى بدا لنا منه فذاك . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت . قال مصعب بن ثابت : فقال لنا عند ذلك محمد بن كعب صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قرأ (وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا) ثم قال الحاكم : هذا حديث صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وقال الإمام أحمد : حدثنا يونس بن محمد حدثنا داود بن أبى الفرات عن عبد الله بن بريدة عن أبى الأسود أنه قال : أتيت المدينة فوافقتها وقد وقع بها مرض فهم يموتون موتا ذريعا ، فجلست إلى عمر بن الخطاب فمرت به جنازة فأثنى على صاحبها خير فقال : وجبت ثم مر بأخرى فأثنى عليها شر ، فقال عمر : وجبت . فقال أبو الأسود ما وجبت يا أمير المؤمنين ؟ قال قلت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أيما مسلم شهد له أربعة بخير أدخله الله الجنة » قال فقلنا وثلاثة قال : فقال « وثلاثة » قال : فقلنا واثنان قال « واثنان » . ثم لم نسأله عن الواحد . وكذا رواه البخارى والترمذى والنسائى من حديث داود ابن أبى الفرات به : وقال ابن مردويه حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى حدثنا أبو قلابة الرقاشى حدثنى أبو الوليد حدثنا نافع ابن عمر حدثنى أمية بن صفوان عن أبى بكر بن أبى زهير الثقفى عن أبيه : قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبناوة يقول « يوشك أن تعلموا خياركم من شراركم » قالوا بم يارسول الله ؟ قال « بالثناء الحسن والثناء السيء أنتم شهداء الله فى الأرض » ورواه ابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن يزيد بن هرون ورواه الإمام أحمد عن يزيد بن هرون وعبد الملك بن عمر وشريح عن نافع عن ابن عمر به .

وقوله تعالى (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله) يقول تعالى إنما شرعنا لك يامحمد التوجه أولا إلى بيت المقدس ثم صرفناك عنها إلى الكعبة ليظهر حال من يتبعك ويطيعك ويستقبل معك حيثما توجهت ممن ينقلب على عقبيه ، أى مرتدا عن دينه وإن كانت لكبيرة ، أى هذه الفعلة وهو صرف التوجه عن بيت المقدس إلى الكعبة ، أى وان كان هذا الأمر عظيما فى النفوس إلا على الذين هدى الله قلوبهم وأيقنوا بتصديق الرسول وأن كل ماجاء به فهو الحق الذى لامرية فيه ، وأن الله يفعل مايشاء ويحكم مايريد فله أن يكلف عباده بماشاء وينسخ مايشاء ، وله الحكمة التامة والحجة البالغة فى جميع ذلك بخلاف الذين فى قلوبهم مرض فإنه كلما حدث أمر أحدث لهم شكا كما يحصل للذين آمنوا إيقان وتصديق ، كما قال الله تعالى (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيماناً ؟ فأما الذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأما الذين فى قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم) وقال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمى) وقال تعالى (ونزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولايزيد الظالمين إلا خسارا) ولهذا كان من ثبت على تصديق الرسول ﷺ واتباعه فى ذلك وتوجه حيث أمره الله من غير شك ولا ريب

(١) فى نسخة فهاس بالفاء والهاء فحرر

من سادات الصحابة : وقد ذهب بعضهم إلى ان السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار هم الذين صلوا لى القبلتين . وقال البخارى فى تفسير هذه الآية : حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن سفيان عن عبدالله بن دينار عن ابن عمر قال : بينا الناس يصلون الصبح فى مسجد قباء إذ جاء رجل فقال : قد أنزل على النبى صلى الله عليه وسلم قرآن وقد أمر أن يستقبل الكعبة فاستقبلوها . فتوجهوا إلى الكعبة . وقد رواه مسلم من وجه آخر عن ابن عمر ورواه الترمذى من حديث سفيان الثورى وعنده أنهم كانوا ركوعا فاستداروا كما هم إلى الكعبة وهم ركوع . وكذا رواه مسلم من حديث حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس مثله ، وهذا يدل على كمال طاعتهم لله ولرسوله وانقيادهم لأوامر الله عزوجل رضى الله عنهم أجمعين:

وقوله (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى صلاتكم إلى بيت المقدس قبل ذلك ما كان يضيع ثوابها عند الله وفى الصحيح من حديث أبى إسحق السبيعى عن البراء قال : مات قوم كانوا يصلون نحو بيت المقدس ؟ فقال الناس ما حالهم فى ذلك : فأنزل الله تعالى (وما كان الله ليضيع إيمانكم) ورواه الترمذى عن ابن عباس وصححه . وقال ابن إسحق حدثنى محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس (وما كان الله ليضيع إيمانكم) أى بالقبلة الأولى وتصديقكم نبيكم واتباعه إلى القبلة الأخرى ، أى ليعطيكم أجرها جميعا (إن الله بالناس لرؤف رحيم) وقال الحسن البصرى (وما كان ليضيع إيمانكم) أى ما كان الله ليضيع محمدا ﷺ وانصرافكم معه حيث انصرف (إن الله بالناس لرءوف رحيم) وفى الصحيح ان رسول الله ﷺ رأى امرأة من السبى قد فرق بينها وبين ولدها فجعلت كلما وجدت صبيا من السبى أخذته فألصقته بصدرها وهى تدور على ولدها ، فلما وجدته ضمته إليها وألقمته ثديها . فقال رسول الله ﷺ « أترون هذه طارحة ولدها فى النار وهى تقدر على أن لا تطرحه» ؟ قالوا : لا يارسول الله . قال : « فوالله لله أرحم بعباده من هذه بولدها » .

﴿ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس . كان أول مانسخ من القرآن القبلة وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لما هاجر إلى المدينة وكان أكثر أهلها اليهود فأمره الله أن يستقبل بيت المقدس ففرحت اليهود فاستقبلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بضعة عشر شهرا وكان يحب قبلة إبراهيم فكان يدعو الى الله وينظر إلى السماء فأنزل الله (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) الى قوله (فولوا وجوهكم شطره) فارتابت من ذلك اليهود وقالوا : (ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب) وقال (فأينما تولوا فثم وجه الله) وقال الله تعالى (وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه) وروى ابن مردويه من حديث القاسم العمرى عن عمه عبيد الله بن عمرو عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس : قال كان النبى ﷺ إذا سلم من صلاته إلى بيت المقدس رفع رأسه الى السماء . فأنزل الله (فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام) إلى الكعبة الى الميزاب يؤم به جبرائيل عليه السلام . وروى الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة عن يعلى بن عطاء عن يحيى بن قطة قال : رأيت عبد الله بن عمرو جالسا فى المسجد الحرام بإزاء الميزاب فتلا هذه الآية (فلنولينك قبلة ترضاها) قال نحو ميزاب الكعبه . ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه . ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن عرفة عن هشام عن يعلى بن عطاء به . وهكذا قال غيره وهو أحد قولى الشافعى رضى الله عنه : إن الغرض إصابة عين الكعبة والقول الآخر وعليه الأكثرون أن المراد المواجهة كما رواه الحاكم من حديث محمد بن إسحق عن عمير بن زياد الكندى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه (فول وجهك شطر المسجد الحرام) قال شطره قبله . ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه . وهذا قول أبى العالية ومجاهد وعكرمه وسعيد بن جبير وقتادة والربيع بن أنس وغيرهم . وكما تقدم فى الحديث الآخر « ما بين المشرق والمغرب قبلة » وقال القرطبى : روى ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس

رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال « البيت قبلة لأهل المسجد والمسجد قبلة لأهل الحرم والحرم قبلة لأهل الأرض فى مشارقها ومغاربها من أمتى » وقال أبو نعيم الفضل بن دكين : حدثنا زهير عن أبى إسحق عن البراء أن النبى صلى الله عليه وسلم صلى قبل بيت المقدس ستة عشرشهرا أو سبعة عشر شهرا وكان يعجبه قبلته قبل البيت ؟ وأنه صلى صلاة العصر وصلى معه قوم فخرج رجل ممن كان يصلى معه فمر على أهل المسجد وهم راكعون فقال : أشهد بالله لقد صليت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل مكة فداروا كما هم قبل البيت .

وقال عبد الرزاق أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء قال : لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهرا أوسبعة عشر شهرا وكان رسول الله ﷺ يحب أن يحول نحو الكعبة فنزلت (قد نرى تقلب وجهك فى السماء) فصرف إلى الكعبة وروى النسائى عن أبى سعيد بن المعلى قال : كنا نغدو إلى المسجد على عهد رسول الله ﷺ فنصلى فيه فمررنا يوما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قاعد على المنبر ، فقلت لقد حدث أمر فجلست فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها) حتى فرغ من الآية ، فقلت لصاحبى تعال نركع ركعتين قبل أن ينزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فنكون أول من صلى فتوارينا فصليناهما . ثم نزل النبى ﷺ وصلى للناس الظهر يومئذ . وكذا روى ابن مردويه عن ابن عمر : أن أول صلاة صلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الكعبة صلاة الظهر وأنها الصلاة الوسطى، والمشهور أن أول صلاة صلاها إلى الكعبة صلاة العصر . ولهذا تأخر الخبر عن أهل قباء إلى صلاة الفجر وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه : حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا الحسين بن إسحق التسترى حدثنا رجاء بن محمد السقطى حدثنا إسحق بن إدريس حدثنا إبراهيم بن جعفر حدثنى أبى عن جدته أم أبيه نويلة بنت مسلم قالت : صلينا الظهر أو العصر فى مسجد بنى حارثة فاستقبلنا مسجد إيلياء فصلينا ركعتين ، ثم جاء من يحدثنا أن رسول ﷺ قد استقبل البيت الحرام فتحول النساء مكان الرجال والرجال مكان النساء فصلينا السجدتين الباقيتين ونحن مستقبلون البيت الحرام ، فحدثنى رجل من بنى حارثة أن النبى صلى الله عليه وسلم قال « أولئك رجال يؤمنون بالغيب » وقال ابن مردويه أيضا : حدثنا محمد بن على بن دحيم حدثنا أحمد بن حازم حدثنا مالك بن إسماعيل النهدى حدثنا قيس عن زياد بن علاقة عن عمارة بن أوس قال : بينما نحن فى الصلاه نحو بيت المقدس ونحن ركوع إذ نادى مناد بالباب ان القبلة قد حولت إلى الكعبة . قال فأشهد على إمامنا أنه انحرف فتحول هو والرجال والصبيان وهم ركوع نحو الكعبة وقوله (وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره) أمر تعالى باستقبال الكعبة من جميع جهات الأرض شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، ولا يستثنى من هذا شىء سوى النافلة فى حال السفر فانه يصليها حيثما توجه قالبه وقلبه نحو الكعبة وكذا فى حال المسايفة فى القتال يصلى على كل حال . وكذا من جهل جهة القبلة يصلى باجتهاده وإن كان مخطئا فى نفس الأمر لأن الله تعالى لا يكلف نفسا إلا وسعها .

﴿ مسئلة ﴾ وقد استدل المالكية بهذه الآية على أن المصلى ينظر أمامه لا إلى موضع سجوده كما ذهب إليه الشافعى وأحمد وأبو حنيفة ، قال المالكية : بقوله (فول وجهك شطر المسجد الحرام) فلو نظر إلى موضع سجوده لاحتاج أن يتكلف ذلك بنوع من الانحناء وهو ينا فى كمال القيام . وقال بعضهم . ينظر المصلى فى قيامه إلى صدره . وقال شريك القاضى : ينظر فى حال قيامه إلى موضع سجوده كما قال جمهور الجماعة لأنه أبلغ فى الخضوع وآكد فى الخشوع وقد ورد به الحديث وأما فى حال ركوعه فإلى موضع قدميه ، وفى حال سجوده إلى موضع أنفه وفى حال قعوده إلى حجره .

وقوله (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم) أى واليهود الذين أنكروا استقبالكم الكعبة وانصرافكم عن بيت المقدس يعلمون أن الله تعالى سيوجهك إليها بما فى كتبهم عن أنبيائهم من النعت والصفة لرسول الله ﷺ وأمته وما خصه الله تعالى به وشرفه من الشريعة الكاملة العظيمة ولكن أهل الكتاب يتكاتمون

ذلك بينهم حسدا وكفراً وعنادا ولهذا تهددهم تعالى بقوله (وما الله بغافل عما يعملون)

﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ﴾

يخبر تعالى عن كفر اليهود وعنادهم ومخالفتهم ما يعرفونه من شأن رسول الله ﷺ وأنه لو أقام عليهم كل دليل على صحة ماجاءهم به لما اتبعوه وتركوا أهواءهم كما قال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنون* ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم) ولهذا قال ههنا (ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ماتبعوا قبلتك) وقوله (وما أنت بتابع قبلتهم) إخبار عن شدة متابعة الرسول ﷺ لما أمره الله تعالى به وأنه كما هم مستمسكون بآرائهم وأهوائهم فهو أيضا مستمسك بأمر الله وطاعته واتباع مرضاته وأنه لايتبع أهواءهم فى جميع أحواله ولا كونه متوجها إلى بيت المقدس لكونها قبلة اليهود ، وإنما ذلك عن أمر الله تعالى ثم حذر تعالى عن مخالفة الحق الذى يعلمه العالم إلى الهوى ، فان العالم الحجة عليه أقوم من غيره . ولهذا قال مخاطباً للرسول والمراد به الأمة (ولئن اتبعت أهواءهم من بعد ماجاءك من العلم إنك إذا لمن الظالمين)

﴿الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ* الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾

يخبر تعالى أن علماء أهل الكتاب يعرفون صحة ما جاءهم به الرسول ﷺ كما يعرف أحدهم ولده والعرب كانت تضرب المثل فى صحة الشىء بهذا كما جاء فى الحديث أن رسول الله ﷺ قال لرجل معه صغير «ابنك هذا» ؟ قال نعم يارسول الله أشهد به ، قال «أما إنه لايخفى عليك ولاتخفى عليه» قال القرطبى :ويروى عن عمر أنه قال لعبد الله بن سلام أتعرف محمدا كما تعرف ولدك ؟ قال نعم وأكثر ، نزل الأمين من السماء على الأمين فى الأرض بنعته فعرفته وإنى لا أدرى ما كان من أمه (قلت) وقد يكون المراد (يعرفونه كما يعرفون أبناءهم) من بين أبناء الناس كلهم . لا يشك أحد ولايمترى فى معرفة ابنه إذا رآه من أبناء الناس كلهم . ثم أخبر تعالى انهم مع هذا التحقق والإتقان العلمى (ليكتمون الحق) أى ليكتمون الناس مافى كتبهم من صفة النبى صلى الله عليه وسلم (وهم يعلمون) ثم ثبت تعالى نبيه ﷺ والمؤمنين وأخبرهم بأن ماجاء به الرسول ﷺ هو الحق الذى لامرية فيه ولاشك فقال (الحق من ربك فلا تكونن من الممترين)

﴿وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾

قال العوفى عن ابن عباس ولكل وجهة هو موليها يعنى بذلك أهل الأديان ،يقول لكل قبيلة قبلة يرضونها ووجهة الله حيث توجه المؤمنون . وقال أبو العالية لليهودى وجهة هو موليها ، وللنصرانى وجهة هو موليها وهداكم أنتم أيتها الأمة إلى القبلة التى هى القبلة . وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع بن أنس والسدى نحو هذا وقال مجاهد فى الرواية الأخرى والحسن أمر كل قوم أن يصلوا إلى الكعبة ، وقرأ ابن عباس وأبو جعفر الباقر وابن عامر (ولكل وجهة هو مولاها) وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات إلى الله مرجعكم جميعا) وقال ههنا (أينما تكونوا يأت بكم الله جميعا إن الله على كل شىء قدير) أى هو قادر على جمعكم من الأرض وإن تفرقت أجسادكم وأبدانكم

﴿وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ*

وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ* ﴾

هذا أمر ثالث من الله تعالى باستقبال المسجد الحرام من جميع أقطار الأرض وقد اختلفوا فى حكمة هذا التكرار ثلاث مرات فقيل تأكيد لأنه أول ناسخ وقع فى الاسلام على ما نص عليه ابن عباس وغيره ، وقيل بل هو منزل على أحوال فالأمر ، الأول لمن هو مشاهد الكعبة ، والثانى لمن هو فى مكة غائبا عنها ، والثالث لمن هو فى بقية البلدان هكذا وجهه فخر الدين الرازى . وقال القرطبي الأول لمن هو بمكة والثانى لمن هو فى بقية الأمصار والثالث لمن خرج فى الأسفار ورجح هذا الجواب القرطبي ، وقيل إنما ذكر ذلك لتعلقه بما قبله أو بعده من السياق : فقال أولا (قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها) الى قوله (وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون) فذكر فى هذا المقام إجابته إلى طلبته وأمره بالقبلة التى كان يود التوجه إليها ويرضاها : وقال فى الأمر الثانى (ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام وإنه للحق من ربك وما الله بغافل عما تعملون) فذكر أنه الحق من الله وارتقاءه المقام الأول حيث كان موافقا لرضا الرسول ﷺ فبين أنه الحق أيضا من الله يحبه ويرتضيه وذكر فى الأمر الثالث حكمة قطع حجة المخالف من اليهود الذين كانوا يتحججون باستقبال الرسول إلى قبلتهم وقد كانوا يعلمون بما فى كتبهم انه سيصرف إلى قبلة إبراهيم عليه السلام إلى الكعبة وكذلك مشركو العرب انقطعت حجتهم لما صرف الرسول ﷺ عن قبلة اليهود إلى قبلة إبراهيم التى هى أشرف وقد كانوا يعظمون الكعبة وأعجبهم استقبال الرسول اليها ، وقيل غيرذلك من الأجوبة عن حكمة التكرار وقد بسطها الرازى وغيره والله أعلم : وقوله (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أى أهل الكتاب فانهم يعلمون من صفة هذه الأمة التوجه إلى الكعبة فاذا فقدوا ذلك من صفتها ربما احتجوابها على المسلمين ولئلا يحتجوا بموافقة المسلمين إياهم فى التوجه إلى بيت المقدس وهذا أظهر قال أبو العالية (لئلا يكون للناس عليكم حجة) يعنى به أهل الكتاب حين قالوا صرف محمد إلى الكعبة . وقالوا اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه وكان حجتهم على النبى ﷺ انصرافه إلى البيت الحرام أن قالوا سيرجع إلى ديننا كما رجع إلى قبلتنا قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وعطاء والضحاك والربيع ابن أنس وقتادة والسدى نحو هذا . وقال هؤلاء فى قوله (إلا الذين ظلموا منهم) يعنى مشركى قريش . ووجه بعضهم حجة الظلمة وهى داحضة ان قالوا إن هذا الرجل يزعم انه على دين إبراهيم فان كان توجهه إلى بيت المقدس على ملة إبراهيم فلم يرجع عنه والجواب أن الله تعالى اختار له التوجه الى بيت المقدس أولا لما له تعالى فى ذلك من الحكمة فأطاع ربه تعالى فى ذلك ثم صرفه إلى قبلة إبراهيم وهى الكعبة فامتثل أمر الله فى ذلك أيضا فهو صلوات الله وسلامه عليه مطيع لله فى جميع أحواله لايخرج عن أمر الله طرفة عين وأمته تبع له ، وقوله (فلاتخشوهم واخشونى) أى لاتخشوا شبه الظلمة المتعنتين وأفردوا الخشية لى ، فانه تعالى هو أهل أن يخشى منه : وقوله (ولأتم نعمتى عليكم) عطف على (لئلا يكون للناس عليكم حجة) أى لأتم نعمتى عليكم فيما شرعت لكم من استقبال الكعبة لتكمل لكم الشريعة من جميع وجوهها (ولعلكم تهتدون) أى الى ماضلت عنه الأمم هدينا كم اليه وخصصنا كم به ولهذا كانت هذه الأمة أشرف الأمم وأفضلها .

﴿ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ * فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلا تَكْفُرُونِ ﴾

يذكر تعالى عباده المؤمنين ما أنعم به عليهم من بعثة الرسول محمد ﷺ اليهم يتلو عليهم آيات الله مبينات

ويزكيهم أى يطهرهم من رذائل الأخلاق ودنس النفوس وأفعال الجاهلية ويخرجهم من الظلمات إلى النور ويعلمهم الكتاب وهو القرآن والحكمة وهى السنة ويعلمهم مالم يكونوا يعلمون ، فكانوا فى الجاهلية الجهلاء يسفهون بالقول الفرا فانتقلوا ببركة رسالته ، وبمن سفارته ، إلى حال الأولياء ، وسجايا العلماء . فصاروا أعمق الناس علما ، وأبرهم قلوبا وأقلهم تكلفا ، وأصدقهم لهجة . وقال تعالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم) الآية وذمّ من لم يعرف قدر هذه النعمة فقال تعالى (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار) قال ابن عباس يعنى بنعمة الله محمدا ﷺ ولهذا ندب الله المؤمنين إلى الاعتراف بهذه النعمة ومقابلتها بذكره وشكره : وقال (فاذكرونى أذكركم واشكروا لى ولا تكفرون) قال مجاهد فى قوله (كما أرسلنا فيكم رسولا منكم) يقول كما فعلت فاذكرونى ، قال عبد الله بن وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم ان موسى عليه السلام قال يارب كيف أشكرك ؟ قال له ربه « تذكرنى ولا تنسانى ، فإذا ذكرتنى فقد شكرتنى ، وإذا نسيتنى فقد كفرتنى » قال الحسن البصرى وأبو العالية والسدى والربيع بن أنس ان الله يذكر من ذكره ويزيد من شكره ويعذب من كفره وقال بعض السلف فى قوله تعالى (اتقوا الله حق تقاته) قال هو أن يطاع فلا يعصى ويذكر فلا ينسى ويشكر فلا يكفر وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح أخبرنا يزيد بن هرون أخبرنا عمارة الصيدلانى أخبرنا مكحول الأزدى قال قلت لابن عمر أرأيت قاتل النفس وشارب الخمر والسارق والزانى يذكر الله ، وقد قال الله تعالى (فاذكرونى أذكركم) قال إذا ذكر الله هذا ذكره الله بلعنته حتى يسكت وقال الحسن البصرى فى قوله (فاذكرونى أذكركم) قال اذكرونى فيما افترضت عليكم أذكركم فيما أوجبت لكم على نفسى وعن سعيد بن جبير اذكرونى بطاعتى أذكركم بمغفرتى ، وفى رواية برحمتى . وعن ابن عباس فى قوله (اذكرونى أذكركم) قال ذكر الله إياكم أكبر من ذكركم إياه وفى الحديث الصحيح «يقول الله تعالى من ذكرنى فى نفسه ذكرته فى نفسى ومن ذكرنى فى ملأ ذكرته فى ملأ خير منه» قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ «قال الله عزوجل يا ابن آدم إن ذكرتنى فى نفسك ذكرتك فى نفسى وإن ذكرتنى فى ملأ ذكرتك فى ملأ من الملائكة ـ أو قال فى ملأ خير منه ـ وإن دنوت منى شبرا دنوت منك ذراعا ، وإن دنوت منى ذراعا دنوت منك باعا ، وإن أتيتنى تمشى أتيتك هرولة » صحيح الاسناد أخرجه البخارى من حديث قتادة وعنده قال قتادة الله أقرب بالرحمة : وقوله (واشكروا لى ولا تكفرون) أمر الله تعالى بشكره ووعد على شكره بمزيد الخير فقال (وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد) وقام الإمام أحمد حدثنا روح حدثنا شعبة عن الفضيل بن فضالة ـ رجل من قيس ـ حدثنا أبو رجاء العطاردى قال خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خز لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده فقال إن رسول الله ﷺ قال « من أنعم الله عليه نعمة فإن الله يحب أن يرى أثر نعمته على خلقه » وقال روح مرة : على عبده .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّٰبِرِينَ * وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَٰتٌ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴾

لما فرغ تعالى من بيان الأمر بالشكر شرع فى بيان الصبر والإرشاد والاستعانة بالصبر والصلاة فان العبد إما أن يكون فى نعمة فيشكر عليها أو فى نقمة فيصبر عليها كما جاء فى الحديث « عجبا للمؤمن لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له : إن أصابته سراء فشكر كان خيرا له وإن أصابته ضراء فصبر كان خيرا له » وبين تعالى ان أجود ما يستعان به على تحمل المصائب الصبر والصلاة كما تقدم فى قوله (واستعينوا بالصبر والصلاة وإنها لكبيرة إلا على الخاشعين) وفى الحديث ان رسول الله ﷺ كان إذا حزبه أمر صلى والصبر صبران فصبر على ترك المحارم والمآثم وصبر على فعل الطاعات والقربات ، والثانى أكثر ثوابا لأنه المقصود . وأما الصبر الثالث وهو الصبر على المصائب والنوائب فذاك أيضا واجب كالاستغفار من المعايب كما قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم الصبر فى بابين الصبر لله بما أحب

وإن ثقل على الأنفس والأبدان والصبر لله عما كره وإن نازعت إليه الأهواء فمن كان هكذا فهو من الصابرين الذين يسلم عليهم إن شاء الله : وقال على بن الحسين زين العابدين إذا جمع الله الأولين والآخرين ينادى مناد أين الصابرون ليدخلوا الجنة قبل الحساب ؟ قال فيقوم عنق من الناس فتتلقاهم الملائكة فيقولون إلى أين يا بنى آدم ؟ فيقولون إلى الجنة فيقولون قبل الحساب ؟ قالوا نعم ، قالوا ومن أنتم، قالوا نحن الصابرون ، قالوا وما كان صبركم ؟ قالوا صبرنا على طاعة الله وصبرنا عن معصية الله حتى توفانا الله ، قالوا أنتم كما قلتم ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين (قلت) ويشهد لهذا قوله تعالى (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقال سعيد بن جبير الصبر اعتراف العبد لله بما أصاب منه واحتسابه عند الله رجاء ثوابه وقد يجزع الرجل وهو متجلد لا يرى منه إلا الصبر

وقوله تعالى (ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحياء) يخبر تعالى أن الشهداء فى برزخهم أحياء يرزقون كما جاء فى صحيح مسلم أن أرواح الشهداء فى حواصل طيور خضر تسرح فى الجنة حيث شاءت ثم تأوى إلى قناديل معلقة تحت العرش فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال ماذا تبغون ؟ فقالوا يا ربنا وأى شىء نبغى وقد أعطيتنا مالم تعط أحدا من خلقك ؟ ثم عاد عليهم بمثل هذا فلما رأوا أنهم لا يتركون من أن يسألوا ، قالوا نريد أن تردنا إلى الدار الدنيا فنقاتل فى سبيلك حتى نقتل فيك مرة أخرى ـ لما يرون من ثواب الشهادة ـ فيقول الرب جل جلاله : إنى كتبت أنهم إليها لا يرجعون .

وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد عن الإمام الشافعى عن الإمام مالك عن الزهرى عن عبد الرحمن بن كعب بن مالك عن أبيه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نسمة المؤمن طائر تعلق فى شجر الجنة حتى يرجعه الله إلى جسده يوم يبعثه » ففيه دلالة لعموم المؤمنين أيضا وإن كان الشهداء قد خصصوا بالذكر فى القرآن تشريفا لهم وتكريما وتعظيما

﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ * الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ * أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴾

أخبرنا تعالى أنه يبتلى عباده : أى يختبرهم ويمتحنهم كما قال تعالى (ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم) فتارة بالسراء وتارة بالضراء من خوف وجوع كما قال تعالى (فأذاقها الله لباس الجوع والخوف) فان الجائع والخائف كل منهما يظهر ذلك عليه . ولهذا قال لباس الجوع والخوف . وقال ههنا (بشىء من الخوف والجوع) أى بقليل من ذلك (ونقص من الأموال) أى ذهاب بعضها (والأنفس) كموت الأصحاب والأقارب والأحباب (والثمرات) أى لا تغل الحدائق والمزارع كعادتها . قال بعض السلف، فكانت بعض النخيل لا تثمر غير واحدة . وكل هذا وأمثاله مما يختبر الله به عباده فمن صبر أثابه ومن قنط أحل به عقابه . ولهذا قال تعالى (وبشر الصابرين) وقد حكى بعض المفسرين أن المراد من الخوف ههنا خوف الله، وبالجوع صيام رمضان ، وبنقص الأموال الزكاة، والأنفس الأمراض، والثمرات الأولاد ، وفى هذا نظر والله أعلم ثم بين تعالى من الصابرون الذين شكرهم فقال (الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله وإنا إليه راجعون) أى تسلوا بقولهم هذا عما أصابهم وعلموا أنهم ملك لله يتصرف فى عبيده بما يشاء ، وعلموا أنه لا يضيع لديه مثقال ذرة يوم القيامة فأحدث لهم ذلك اعترافهم بأنهم عبيده وأنهم إليه راجعون فى الدار الآخرة . ولهذا أخبر تعالى عما أعطاهم على ذلك فقال (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) أى ثناء من الله عليهم . قال سعيد بن جبير : أى أمنة من العذاب (وأولئك هم المهتدون) قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب نعم العدلان ونعمت العلاوة (أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة) فهذان العدلان (وأولئك هم المهتدون) فهذه العلاوة وهى ما توضع بين العدلين وهى زيادة فى الحمل

فكذلك هؤلاء أعطوا ثوابهم وزيدوا أيضاً

وقد ورد فى ثواب الاسترجاع وهو قول (إنا لله وإنا إليه راجعون)عند المصائب أحاديث كثيرة . فمن ذلك مارواه الإمام أحمد حيث قال حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث يعنى ابن سعد عن يزيد بن عبد الله حدثنا أسامة بن الهاد عن عمرو ابن أبى عمرو عن المطلب عن أم سلمة قالت أتانى أبو سلمة يوما من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال. لقد سمعت من رسول الله ﷺ قولا سررت به . قال « لا يصيب أحدا من المسلمين مصيبة فيسترجع عند مصيبته ثم يقول . اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها، إلا فعل ذلك به» ، قالت أم سلمة فحفظت ذلك منه فلما توفى أبو سلمة استرجعت وقلت اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها ، ثم رجعت إلى نفسى . فقلت من أين لى خير من أبى سلمة ؟ فلما انقضت عدتى استأذن علىّ رسول الله ﷺ وانا أدبغ إهابا لى فغسلت يدى من القرظ وأذنت له فوضعت له وسادة أدم حشوها ليف فقعد عليها فخطبنى إلى نفسى ، فلما فرغ من مقالته قلت يا رسول الله مابى أن لا يكون بك الرغبة ولكنى امرأة فىّ غيرة شديدة فأخاف أن ترى منى شيئاً يعذبنى الله به وانا امرأة قد دخلت فى السن وانا ذات عيال ، فقال « أما ما ذكرت من الغيرة فسوف يذهبها الله عز وجل عنك . وأما ما ذكرت من السن فقد أصابنى مثل الذى أصابك ،وأما ما ذكرت من العيال فإنما عيالك عيالى» .قالت . فقد سلمت لرسول الله صلى الله عليه وسلم فتزوجها رسول الله ﷺ فقالت أم سلمة بعد : أبدلنى الله بأبى سلمة خيرا منه : رسول الله ﷺ . وفى صحيح مسلم عنها أنها قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول « ما من عبد تصيبه مصيبة فيقول(إنا لله وإنا إليه راجعون) اللهم أجرنى فى مصيبتى وأخلف لى خيرا منها إلا آجره الله فى مصيبته وأخلف له خيرا منها » . قالت فلما توفى أبو سلمة قلت كما أمرنى رسول الله ﷺ فأخلف الله لى خيرا منه : رسول الله ﷺ . وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد وعباد بن عباد قالا حدثنا هشام بن أبى هشام حدثنا عباد بن زياد عن أمه عن فاطمة ابنة الحسين عن أبيها الحسين بن على عن النبى ﷺ قال: «ما من مسلم ولا مسلمة يصاب بمصيبة فيذكرها وإن طال عهدها ـ وقال عباد قدم عهدها ـ فيحدث لذلك استرجاعا إلا جدد الله له عند ذلك فأعطاه مثل أجرها يوم أصيب». ورواه ابن ماجه فى سننه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن وكيع عن هشام بن زياد عن أمه عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها. وقد رواه إسماعيل بن علية ويزيد بن هرون عن هشام بن زياد عن أبيه (كذا) عن فاطمة عن أبيها. وقال الإمام أحمد أنا يحيى بن إسحق السيلحينى(١) أنا حماد بن سلمة عن أبى سنان قال. دفنت ابنا لى فإنى لفى القبر إذ أخذ بيدى أبو طلحة يعنى الخولانى فأخرجنى وقال لى : ألا أبشرك قلت بلى. قال. حدثنى الضحاك بن عبد الرحمن بن عوزب عن أبى موسى قال : قال رسول الله ﷺ «قال الله : يا ملك الموت قبضت ولد عبدى؟ قبضت قرة عينه وثمرة فؤاده؟ قال نعم . قال فما قال ؟ قال حمدك واسترجع . قال « ابنوا له بيتا فى الجنة وسموه بيت الحمد » ثم رواه عن على بن إسحق عن عبد الله بن المبارك فذكره . وهكذا رواه الترمذى عن سويد بن نصر عن ابن المبارك به ، وقال حسن غريب واسم أبى سنان عيسى بن سنان

﴿ إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا سليمان بن داود الهاشمى أنا إبراهيم بن سعد عن الزهرى عن عروة عن عائشة قال .قالت أرأيت قول الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) قلت فوالله ما على أحد جناح أن لا يتطوف بهما ، فقالت عائشة بئسما قلت يا ابن أختى إنها لو كانت على ما أولتها عليه كانت فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما ، ولكنها إنما أنزلت أن الأنصار كانوا قبل أن يسلموا كانوا يهلون لمناة الطاغية التى كانو يعبدونها عند المشلل ، وكان من أهل لها يتحرج أن يطوّف بالصفا والمروة ، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ

(١) الياء بعد السين المهملة لأجل الإمالة وقد تستبدل ألفا لينة كما فى التقريب .

فقالوا يارسول الله إنا كنا نتحرج أن نطوّف بالصفا والمروة فى الجاهلية . فأنزل الله عز وجل (إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما) قالت عائشة : ثم قد سن رسول الله ﷺ الطواف بهما فليس لأحد أن يدع الطواف بهما أخرجاه فى الصحيحين . وفى رواية عن الزهرى أنه قال فحدثت بهذا الحديث أبا بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام. فقال إن هذا العلم ما كنت سمعته ، ولقد سمعت رجالا من أهل العلم يقولون إن الناس — إلا من ذكرت عائشة — كانوا يقولون إن طوافنا بين هذين الحجرين من أمر الجاهلية . وقال آخرون من الأنصار إنما أمرنا بالطواف بالبيت ولم نؤمر بالطواف بين الصفا والمروة فأنزل الله تعالى (إن الصفا والمروة من شعائر الله) قال أبو بكر بن عبد الرحمن فلعلها نزلت فى هؤلاء وهؤلاء . ورواه البخارى من حديث مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة بنحو ماتقدم . ثم قال البخارى : حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن عاصم بن سليمان قال : سألت أنسا عن الصفا والمروة قال : كنا نرى أنهما من أمر الجاهلية ، فلما جاء الاسلام أمسكنا عنهما فأنزل الله عز وجل (إن الصفا والمروة من شعائر الله) وذكر القرطبي فى تفسيره عن ابن عباس قال : كانت الشياطين تفرق بين الصفا والمروة الليل كله وكانت بينهما آلهة ، فلما جاء الإسلام سألوا رسول الله ﷺ عن الطواف بينهما فنزلت هذه الآية . وقال الشعبي : كان إساف على الصفا وكانت نائلة على المروة ، وكانوا يستلمونهما فتحرجوا بعد الاسلام من الطواف بينهما فنزلت هذه الآية (قلت) ذكر محمد بن إسحق فى كتاب السيرة أن إسافا ونائلة كانا بشرين فزنيا داخل الكعبة فمسخا حجرين فنصبتهما قريش تجاه الكعبة ليعتبر بهما الناس ، فلما طال عهدهما عبدا ثم حولا إلى الصفا والمروة ، فنصبا هنالك فكان من طاف بالصفا والمروة يستلمهما ، ولهذا يقول أبو طالب فى قصيدته المشهورة :

وحيث ينيخ الأشعرون ركابهم * لمفضى السيول من إساف ونائل

وفى صحيح مسلم من حديث جابر الطويل وفيه أن رسول الله ﷺ لما فرغ من طوافه بالبيت عاد إلى الركن فاستلمه ثم خرج من باب الصفا وهو يقول (إن الصفا والمروة من شعائر الله) ثم قال « أبدأ بما بدأ الله به » وفى رواية النسائي « ابدؤا بما بدأ الله به » وقال الإمام أحمد حدثنا شريح حدثنا عبد الله بن المؤمل عن عطاء بن أبى رباح عن صفية بنت شيبة عن حبيبة بنت أبى تجراة قالت رأيت رسول الله ﷺ يطوف بين الصفا والمروة والناس بين يديه وهو وراءهم وهو يسعى حتى أرى ركبتيه من شدة السعى يدور به إزاره وهو يقول « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى » ثم رواه الإمام أحمد عن عبد الرزاق . أنا معمر عن واصل مولى أبى عيينة عن موسى ابن عبيدة عن صفية بنت شيبة ان امرأة أخبرتها انها سمعت النبى ﷺ بين الصفا والمروة يقول « كتب عليكم السعى فاسعوا » وقد استدل بهذا الحديث على مذهب من يرى أن السعى بين الصفا والمروة ركن فى الحج كما هو مذهب الشافعى ومن وافقه ورواية عن أحمد وهو المشهور عن مالك . وقيل إنه واجب وليس بركن فان تركه عمداً أو سهواً جبره بدم وهو رواية عن أحمد وبه يقول طائفة ، وقيل بل مستحب واليه ذهب أبو حنيفة والثورى والشعبي وابن سيرين وروى عن أنس وابن عمر وابن عباس وحكى عن مالك فى العتبية قال القرطبي واحتجوا بقوله تعالى (فمن تطوع خيراً) والقول الأول أرجح لأنه عليه السلام طاف بينهما وقال « لتأخذوا عنى مناسككم » فكل ما فعله فى حجته تلك واجب لابد من فعله فى الحج إلا ماخرج بدليل والله أعلم ، وقد تقدم قوله عليه السلام « اسعوا فإن الله كتب عليكم السعى » فقد بين الله تعالى أن الطواف بين الصفا والمروة من شعائر الله أى مما شرع الله تعالى لإبراهيم فى مناسك الحج وقد تقدم فى حديث ابن عباس أن أصل ذلك مأخوذ من طواف هاجر وترددها بين الصفا والمروة فى طلب الماء لولدها لما نفد ماؤها وزادها حين تركهما إبراهيم عليه السلام هنالك وليس عندها أحد من الناس فلما خافت على ولدها الصيعه هنالك ونفد ما عندها قامت تطلب الغوث من الله عز وجل فلم تزل تتردد فى هذه البقعة المشرفة بين الصفا والمروة متذللة خائفة وجلة مضطرة فقيرة إلى الله عز وجل حتى كشف الله كربتها وآنس غربتها وفرج شدتها وأنبع لها زمزم التى ماؤها «طعام طعم ، وشفاء سقم[1]» فالساعى بينهما ينبغى له أن يستحضر

(١) هذا نص نسخة الأزهر وفى النسخة الأميرية: طعامها طعام طعم. والأصل « زمزم طعام طعم وشفاء سقم » رواه ابن أبى شيبة والبزار من حديث أبى ذر

فقره وذله وحاجته إلى الله فى هداية قلبه وصلاح حاله وغفران ذنبه : وان يلتجئ إلى الله عز وجل لتفريج ماهو به من النقائص والعيوب ، وأن يهديه إلى الصراط المستقيم ، وأن يثبته عليه إلى مماته وأن يحوله من حاله الذى هو عليه من الذنوب والمعاصى إلى حال الكمال والغفران والسداد والاستقامة كما فعل بهاجر عليها السلام .

وقوله (فمن تطوع خيراً) قيل زاد فى طوافه بينهما على قدر الواجب ثامنة وتاسعة ونحو ذلك وقيل يطوف بينهما فى حجة تطوع أو عمرة تطوع وقيل المراد تطوع خيراً فى سائر العبادات حكى ذلك الرازى وعزى الثالث إلى الحسن البصرى والله أعلم وقوله (فإن الله شاكر عليم) أى يثيب على القليل بالكثير عليم بقدر الجزاء فلا يبخس أحدا ثوابه و(لايظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) .

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ * إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ * خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ ﴾

هذا وعيد شديدلمن كتم ماجاءت به الرسل من الدلالات البينة على المقاصد الصحيحة والهدى النافع للقلوب من بعد مابينه الله تعالى لعباده فى كتبه التى أنزلها على رسله قال أبو العالية نزلت فى أهل الكتاب كتموا صفة محمد ﷺ ثم أخبر أنهم يلعنهم كل شىء على صنيعهم ذلك فكما أن العالم يستغفر له كل شىء حتى الحوت فى الماء والطير فى الهواء فهؤلاء بخلاف العلماء فيلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون ، وقدورد فى الحديث المسند من طرائق يشد بعضها بعضا عن أبى هريرة وغيره أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من سئل عن علم فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » والذى فى الصحيح عن أبى هريرة أنه قال لولا آية فى كتاب الله ماحدثت أحدا شيئا (إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى) الآية وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عمار بن محمد عن ليث ابن أبى سليم عن النهال بن عمرو عن زاذان بن عمرو عن البراء بن عازب قال كنا مع النبى ﷺ فى جنازة فقال «إن الكافر يضرب ضربة بين عينيه يسمعها كل دابة غير الثقلين فتلعنه كل دابة سمعت صوته فذلك قول الله تعالى (أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون) يعنى دواب الأرض » ورواه ابن ماجه عن محمد بن الصباح عن عامر بن محمد به ، وقال عطاء بن أبى رباح : كل دابة والجن والإنس وقال مجاهد إذا أجدبت الأرض قال البهائم هذا من أجل عصاة بنى آدم لعن الله عصاة بنى آدم وقال أبو العالية والربيع بن أنس وقتادة (ويلعنهم اللاعنون) يعنى تلعنهم الملائكة والمؤمنون وقد جاء فى الحديث أن العالم يستغفر له كل شىء حتى الحيتان فى البحر وجاء فى هذه الآية أن كاتم العلم يلعنه الله والملائكة والناس أجمعون واللاعنون أيضا وهم كل فصيح وأعجمى إما بلسان المقال أو الحال أن لو كان له عقل ويوم القيامة والله أعلم * ثم استثنى الله تعالى من هؤلاء من تاب اليه فقال (إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا) أى رجعوا عما كانوا فيه وأصلحوا أعمالهم وبينوا للناس ما كانوا يكتمونه (فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم) وفى هذا دلالة على أن الداعية إلى كفر أو بدعة إذا تاب الى الله تاب الله عليه : وقد ورد أن الأمم السابقة لم تكن التوبة تقبل من مثل هؤلاء منهم ولكن هذا من شريعة نبى التوبة ونبى الرحمة صلوات الله وسلامه عليه ، ثم أخبر تعالى عمن كفر به واستمر به الحال إلى مماته بأن (عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين خالدين فيها) أى فى اللعنة التابعة لهم إلى يوم القيامة ثم المصاحبة لهم فى نار جهنم التى (لايخفف عنهم العذاب) فيها أى لاينقص عماهم فيه (ولاهم ينظرون) أى لايغير عنهم ساعة واحدة ولايفتر بل هو متواصل دائم فنعوذ بالله من ذلك : قال أبو العالية وقتادة إن الكافر يوقف يوم القيامة فيلعنه الله ثم تلعنه الملائكة ثم يلعنه الناس أجمعون .

﴿ فصل ﴾ لاخلاف فى جواز لعن الكفار وقد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه ومن بعده من الأئمة يلعنون الكفرة فى القنوت وغيره فأما الكافر المعين فقد ذهب جماعة من العلماء إلى أنه لايعلن لأنا لاندرى بما يختم الله له واستدل بعضهم بالآية (إن الذين كفروا وماتوا وهم كفار أولئك عليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين) وقالت طائفة أخرى بل يجوز لعن الكافر المعين ، واختاره الفقيه أبو بكر بن العربى المالكى ولكنه احتج بحديث فيه ضعف واستدل غيره بقوله عليه السلام فى قصة الذى كان يؤتى به سكران فيحده فقال رجل لعنه الله ما أكثر مايؤتى به فقال رسول الله ﷺ « لاتلعنه فانه يحب الله ورسوله » فدل على أن من لايحب الله ورسوله يلعن والله أعلم

﴿ وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴾

يخبر تعالى عن تفرده بالالهية وأنه لاشريك له ولا عديل له بل هو الله الواحد الأحد الفرد الصمد الذى لا إله إلا هو وأنه الرحمن الرحيم . وقد تقدم تفسير هذين الاسمين فى أول الفاتحة وفى الحديث عن شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن عن رسول الله ﷺ أنه قال « اسم الله الأعظم فى هاتين الآيتين (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) و (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) » ثم ذكر الدليل على تفرده بالالهية بخلق السموات والأرض ومافيهما ومابين ذلك مما ذرأ وبرأ من المخلوقات الدالة على وحدانيته فقال

﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى (إن فى خلق السموات والأرض) تلك فى ارتفاعها ولطافتها واتساعها وكواكبها السيارة والثوابت ودوران فلكها - وهذه الأرض فى كثافتها وانخفاضها وجبالها وبحارها وقفارها ووهادها وعمرانها وما فيها من المنافع واختلاف الليل والنهار هذا يجىء ثم يذهب ويخلفه الآخر ويعقبه لا يتأخر عنه لحظة كما قال تعالى (لاالشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون) وتارة يطول هذا ويقصر هذا وتارة يأخذ هذا من هذا ثم يتعاوضان كما قال تعالى (يولج الليل فى النهار ويولج النهار فى الليل) أى يزيد من هذا فى هذا ومن هذا فى هذا (والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) أى فى تسخير البحر بحمل السفن من جانب إلى جانب لمعايش الناس والانتفاع بما عند أهل ذلك الاقليم ونقل هذا إلى هؤلاء وماعند أولئك إلى هؤلاء (وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها) كما قال تعالى (وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حباً فمنه يأكلون - إلى قوله - ومما لا يعلمون) (وبث فيها من كل دابة) أى على اختلاف أشكالها وألوانها ومنافعها وصغرها وكبرها وهو يعلم ذلك كله ويرزقه لايخفى عليه شىء من ذلك كما قال تعالى (وما من دابة فى الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل فى كتاب مبين) (وتصريف الرياح) أى فتارة تأتى بالرحمة وتارة تأتى بالعذاب وتارة تأتى مبشرة بين يدى السحاب وتارة تسوقه وتارة تجمعه وتارة تفرقه وتارة تصرفه ثم تارة تأتى من الجنوب وهى الشامية وتارة تأتى من ناحية اليمن وتارة صبا وهى الشرقية التى تصدم وجه الكعبة وتارة دبوراً وهى غربية تنفذ من ناحية دبر الكعبة . وقد صنف الناس فى الرياح والمطر والأنواء كتباً كثيرة فيما يتعلق بلغاتها وأحكامها وبسط ذلك يطول ههنا والله أعلم (والسحاب المسخر بين السماء والأرض) أى سائر بين السماء والأرض مسخر إلى ما يشاء الله من الأراضى والأماكن كما يصرفه تعالى (لآيات لقوم يعقلون) أى فى هذه الأشياء دلالات بينة على وحدانية الله تعالى كما قال تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الألباب * الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت

هـذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار) وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه أخبرنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا أبو سعيد الدشتكى حدثنى أبى عن أبيه عن أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : أتت قريش محمداً ﷺ فقالوا يامحمد إنا نريد أن تدعو ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبا فنشترى به الخيل والسلاح فنؤمن بك ونقاتل معك قال « أو تقولوا لى لئن دعوت ربى فجعل لكم الصفا ذهبا لتؤمنن بى » فأوثقوا له فدعا ربه فأتاه جبريل فقال إن ربك قد أعطاهم الصفا ذهبا على أنهم إن لم يؤمنوا بك عذبهم عذابا لم يعذبه أحدا من العالمين قال محمد ﷺ « رب لا بل دعنى وقومى فلأدعهم يوما بيوم » فأنزل الله هذه الآية (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) الآية ورواه ابن أبى حاتم من وجه آخر عن جعفر بن أبى المغيرة به وزاد فى آخره : وكيف يسألونك الصفا وهم يرون من الآيات ماهو أعظم من الصفا ؟ وقال ابن أبى حاتم أيضا حدثنا أبى حدثنا أبو حذيفة حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن عطاء قال نزلت على النبى ﷺ بالمدينة (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) فقال كفار قريش بمكة كيف يسع الناس إله واحد فأنزل الله تعالى (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التى تجرى فى البحر بما ينفع الناس) إلى قوله (لآيات لقوم يعقلون) فبهذا يعلمون أنه إله واحد وأنه إله كل شىء وخالق كل شىء ، وقال وكيع بن الجراح حدثنا سفيان عن أبيه عن أبى الضحى قال لما نزلت (وإلهكم إله واحد) إلى آخر الآية قال المشركون إن كان هكذا فليأتنا بآية فأنزل الله عز وجل (إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار) إلى قوله (يعقلون) ورواه آدم بن أبى إياس عن أبى جعفر هو الرازى عن سعيد بن مسروق والد سفيان عن أبى الضحى به .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ * إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ * وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا مِنَّا كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ اللَّهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرَاتٍ عَلَيْهِمْ وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ ﴾

يذكر تعالى حال المشركين به فى الدنيا ومالهم فى الدار الآخرة حيث(١) جعلوا له أندادا أى أمثالا ونظراء يعبدونهم معه ويحبونهم كحبه وهو الله لا إله إلا هو ولاضد له ولا ندله ولا شريك معه . وفى الصحيحين عن عبد الله بن مسعود قال قلت يارسول الله أى الذنب أعظم ؟ قال « أن تجعل لله ندا وهو خلقك » وقوله (والذين آمنوا أشد حبا لله) ولحبهم لله وتمام معرفتهم به وتوقيرهم وتوحيدهم له لا يشركون به شيئا بل يعبدونه وحده ويتوكلون عليه ويلجأون فى جميع أمورهم إليه . ثم توعد تعالى المشركين به الظالمين لأنفسهم بذلك فقال (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعا) قال بعضهم تقدير الكلام لو عاينوا العذاب لعلموا حينئذ أن القوة لله جميعا أى أن الحكم له وحده لاشريك له وأن جميع الأشياء تحت قهره وغلبته وسلطانه (وأن الله شديد العذاب) كما قال (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) يقول لو يعلمون مايعاينونه هنالك وما يحل بهم من الأمر الفظيع المنكر الهائل على شركهم وكفرهم لانتهوا عما هم فيه من الضلال ثم أخبر عن كفرهم بأوثانهم وتبرى المتبوعين من التابعين فقال (إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا) تبرأت منهم الملائكة الذين كانوا يزعمون أنهم يعبدونهم فى الدار الدنيا فتقول الملائكة (تبرأنا إليك ما كانوا إيانا يعبدون) ويقولون (سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون) والجن أيضا تتبرأ منهم ويتنصلون من عبادتهم لهم كما قال تعالى (ومن

(١) استعمل حيث هنا للتعليل كما شاع فى كتابة متأخرى المولدين ولو حملت على الظرفية المكانية كما هو معناها الأصلى لكان معنى الكلام أنهم جعلوا الأنداد له تعالى فى الآخرة وليس بمراد قطعاً

أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون * وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين) وقال تعالى (واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزا * كلا سيكفرون بعبادتهم ويكونون عليهم ضدا) وقال الخليل لقومه (إنما اتخذتم من دون الله أوثانا مودة بينكم فى الحياة الدنيا ثم يوم القيامة يكفر بعضكم ببعض ويلعن بعضكم بعضا ومأواكم النار وما لكم من ناصرين) وقال تعالى (ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين * قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين * وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أندادا وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال فى أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون) وقال تعالى (وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لى عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لى فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخىّ إنى كفرت بما أشركتمونى من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) وقوله (ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب) أى عاينوا عذاب الله وتقطعت بهم الحيل وأسباب الخلاص ولم يجدوا عن النار معدلا ولا مصرفا . قال عطاء عن ابن عباس (وتقطعت بهم الأسباب) قال المودة: وكذا قال مجاهد فى رواية ابن أبى نجيح : وقوله (وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤا منا) أى لو أن لنا عودة إلى الدار الدنيا حتى نتبرأ من هؤلاء ومن عبادتهم فلا نلتفت اليهم بل نوحد الله وحده بالعبادة : وهم كاذبون فى هذا بل لو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون كما أخبر الله تعالى عنهم بذلك ولهذا قال (كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم) أى تذهب وتضمحل كما قال تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا) وقال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف) الآية . وقال تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء) الآية : ولهذا قال تعالى (وماهم بخارجين من النار) :

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾

لما بين تعالى أنه لا إله إلا هو وأنه المستقل بالخلق شرع يبين أنه الرزاق لجميع خلقه فذكر فى مقام الامتنان أنه أباح لهم أن يأكلوا مما فى الأرض فى حال كونه حلالا من الله طيبا أى مستطابا فى نفسه غير ضار للأبدان ولا للعقول ونهاهم عن اتباع خطوات الشيطان وهى طرائقه ومسالكه فيما أضل أتباعه فيه من تحريم البحائر والسوائب والوصائل ونحوها مما كان زينه لهم فى جاهليتهم كما فى حديث عياض بن حماد الذى فى صحيح مسلم عن رسول الله ﷺ أنه قال « يقول الله تعالى إن كل مال منحته عبادى فهو لهم حلال ـ وفيه ـ وإنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا سليمان بن أحمد حدثنا محمد ابن عيسى بن شيبة المصرى حدثنا الحسين بن عبد الرحمن الاحتياطى حدثنا أبو عبد الله الجوزجانى رفيق إبراهيم ابن أدهم حدثنا ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس قال تليت هذه الآية عند النبى ﷺ (يا أيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا) فقام سعد بن أبى وقاص فقال يارسول الله ادع الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة فقال « ياسعد أطب مطعمك تكن مستجاب الدعوة والذى نفس محمد بيده إن الرجل ليقذف اللقمة الحرام فى جوفه مايتقبل منه أربعين يوما وأيما عبد نبت لحمه من السحت والربا فالنار أولى به » .

وقوله (إنه لكم عدوّ مبين) تنفير عنه وتحذير منه كما قال (إن الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوا إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) وقال تعالى (أفتتخذونه وذريته أولياء من دونى وهم لكم عدوّ بئس للظالمين بدلا) وقال

قتادة والسدى فى قوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) كل معصية لله فهى من خطوات الشيطان وقال عكرمة هى نزغات الشيطان ، وقال مجاهد خطؤه أوقال خطاياه[1] وقال أبو مجاز هى النذور فى المعاصى، وقال الشعبى نذر رجل أن ينحر ابنه فأفتاه مسروق بذبح كبش ، وقال هـذا من خطوات الشيطان وقال أبو الضحى عن مسروق أتى عبد الله بن مسعود بضرع وملح فجعل يأكل فاعتزل رجل من القوم فقال ابن مسعود ناولوا صاحبكم ، فقال لاأريده ، فقال أصائم أنت ؟ قال لا قال ، فماشأنك ؟ قال حرمت أن آكل ضرعا أبدا ، فقال ابن مسعود هذا من خطوات الشيطان فاطعم وكفر عن يمينك رواه ابن أبى حاتم ، وقال أيضا حـدثنا أبى حدثنا حسان بن عبد الله المصرى عن سليمان التيمى عن أبى رافع قال غضبت يوما على امرأتى فقالت هى يوما يهودية ويوما نصرانية وكل مملوك لها حر إن لم تطلق امرأتك . فأتيت عبدالله ابن عمر فقال إنما هذه من خطوات الشيطان ، وكذلك قالت زينب بنت أم سلمة وهى يومئذ أفقه امرأة فى المدينة وأتيت عاصما وابن عمر فقالا مثل ذلك ، وقال عبد بن حميد حدثنا أبو نعيم عن شريك عن عبدالكريم عن عكرمة عن ابن عباس قال ما كان من يمين أو نذر فى غضب فهو من خطوات الشيطان وكفارته كفارة يمين . وقوله (إنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) أى إنما يأمركم عدوكم الشيطان بالأفعال السيئه وأغلظ منها الفاحشة كالزنا ونحوه وأغلظ من ذلك وهو القول على الله بلاعلم فيدخل فى هذا كل كافر وكل مبتدع أيضا .

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ * وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴾

يقول تعالى وإذا قيل لهؤلاء الكفرة من المشركين اتبعوا ما أنزل الله على رسوله واتركوا ما أنتم عليه من الضلال والجهل قالوا فى جواب ذلك بل نتبع ماألفينا أى وجدنا عليه آباءنا أى من عبادة الأصنام والأنداد. قال الله تعالى منكرا عليهم (أولو كان آباؤهم) أى الذين يقتدون بهم ويقتفون أثرهم (لايعقلون شيئا ولا يهتدون) أى ليس لهم فهم ولاهداية . وروى ابن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة أو سعيد بن جبير عن ابن عباس انها نزلت فى طائفة من اليهود دعاهم رسول الله ﷺ إلى الاسلام فقالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا فأنزل الله هذه الآية ثم ضرب لهم تعالى مثلا . كما قال تعالى (للذين لايؤمنون بالآخرة مثل السوء) فقال (ومثل الذين كفروا) أى فيما هم فيه من الغى والضلال والجهل كالدواب السارحة التى لا تفقه ما يقال لهـا بل إذا نعق بها راعيها أى دعاها إلى ما يرشـدها لا تفقه ما يقول ولا تفهمه بل إنما تسمع صوته فقط : هكذا روى عن ابن عباس وأبى العالية ومجاهد وعكرمة وعطاء والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس نحو هذا . وقيل إنما هذا مثل ضرب لهم فى دعائهم الأصنام التى لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل شيئا اختاره ابن جرير والأول أولى لأن الأصنام لا تسمع شيئا ولا تعقله ولا تبصره ولا بطش لها ولا حياة فيها . وقوله (صم بكم عمى) أى صم عن سماع الحق بكم لا يتفوهون به عمى عن رؤية طريقه ومسلكه (فهم لايعقلون) أى لايعقلون شيئا ولا يفهمونه كما قال تعـالى (والذين كذبوا بآياتنا صم وبكم فى الظلمات من يشأ الله يضله ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ * إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بالأكل من طيبات ما رزقهم تعالى وأن يشكروه تعالى على ذلك إن كانوا عبيده

(١) وفى نسخة الأزهر خطاياه .

والأكل من الحلال سبب لتقبل الدعاء والعبادة كما أن الأكل من الحرام يمنع قبول الدعاء والعبادة كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا الفضيل بن مرزوق عن عدى بن ثابت عن أبى حازم عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال (يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحا إنى بما تعملون عليم) وقال (يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات مارزقناكم) ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يارب يارب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذى بالحرام فأنى يستجاب لذلك ؟ » ورواه مسلم فى صحيحه والترمذى من حديث فضيل ابن مرزوق . ولما امتن تعالى عليهم برزقه وأرشدهم إلى الأكل من طيبه ذكر أنه لم يحرم عليهم من ذلك إلا الميتة وهى التى تموت حتف أنفها من غير تذكية وسواء كانت منخنقة أو موقوذة أو متردية أو نطيحة أو عدا عليها السبع وقد خصص الجمهور من ذلك ميتة البحر لقوله تعالى (أحل لكم صيد البحر وطعامه) على ما سيأتى إن شاء الله وحديث العنبر فى الصحيح وفى المسند والموطأ والسنن قوله عليه السلام فى البحر « هو الطهور ماؤه الحل ميتته » وروى الشافعى وأحمد وابن ماجه والدارقطنى حديث بن عمر مرفوعا « أحل لنا ميتتان ودمان السمك والجراد والكبد والطحال » وسيأتى تقرير ذلك إن شاء الله فى سورة المائدة .

﴿ مسئلة ﴾ ولبن الميتة وبيضها المتصل بها نجس عند الشافعى وغيره لأنه جزء منها . وقال مالك فى رواية هو طاهر إلا أنه ينجس بالمجاورة وكذلك انفحة الميتة فيها الخلاف والمشهور عندهم أنها نجسة وقد أوردوا على أنفسهم أكل الصحابة من جبن المجوس فقال القرطبى فى التفسير ههنا يخالط اللبن منها يسير ويعفى عن قليل النجاسة إذا خالط الكثير من المائع . وقد روى ابن ماجه من حديث سيف بن هرون عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن سلمان رضى الله عنه : سئل رسول الله ﷺ عن السمن والجبن والفراء فقال « الحلال ما أحل الله فى كتابه والحرام ما حرم الله فى كتابه وماسكت عنه فهو مما عفا عنه » وكذلك حرم عليهم لحم الخنزير سواء ذكى أم مات حتف أنفه ويدخل شحمه فى حكم لحمه إما تغليبا أو أن اللحم يشمل ذلك أو بطريق القياس على رأى . وكذلك حرم عليهم ما أهل به لغير الله وهو ما ذبح على غير اسمه تعالى من الأنصاب والأنداد والأزلام ونحو ذلك مما كانت الجاهلية ينحرون له . وذكر القرطبى عن ابن عطية أنه نقل عن الحسن البصرى انه سئل عن امرأة عملت عرسا للعبها فنحرت فيه جزورا فقال لا تؤكل لأنها ذبحت لصنم وأورد القرطبى عن عائشة رضى الله عنها أنها سئلت عما يذبحه العجم لأعيادهم فيهدون منه للمسلمين فقالت ماذبح لذلك اليوم فلا تأكلوا منه وكلوا من أشجارهم . ثم أباح تعالى تناول ذلك عند الضرورة والاحتياج اليها عند فقد غيرها من الأطعمة فقال (فمن اضطر غير باغ ولا عاد) أى فى غير بغى ولا عدوان وهو مجاوزة الحد (فلا إثم عليه) أى فى أكل ذلك (إن الله غفور رحيم) وقال مجاهد فمن اضطر غير باغ ولا عاد قاطعاً للسبيل أو مفارقا للأئمة أو خارجا فى معصية الله فله الرخصة ومن خرج باغياً أو عاديا أو فى معصية الله فلا رخصة له وإن اضطر اليه وكذا روى عن سعيد ابن جبير . وقال سعيد فى رواية عنه — ومقاتل بن حيان : غير باغ — يعنى غير مستحله ، وقال السدى غير باغ يبتغى فيه شهوته ، وقال آدم بن أبى إياس حدثنا ضمرة عن عثمان بن عطاء وهو الخراسانى عن أبيه قال لايشوى من الميتة ليشتهيه ولا يطبخه ولا يأكل إلا العلقة ويحمل معه ما يبلغه الحلال فإذا بلغه ألقاه وهو قوله (ولا عاد) ويقول لا يعدو به الحلال وعن ابن عباس لا يشبع منها وفسره السدى بالعدوان وعن ابن عباس (غير باغ ولا عاد) قال (غير باغ) فى الميتة ولا عاد فى أكله وقال قتادة فمن اضطر غير باغ ولا عاد قال غير باغ فى الميتة أى فى أكله أن يتعدى حلالا إلى حرام وهو يجد عنه مندوحة . وحكى القرطبى عن مجاهد فى قوله فمن اضطر أى أكره على ذلك بغير اختياره

﴿ مسئلة ﴾ إذا وجد المضطر ميتة وطعام الغير بحيث لاقطع فيه ولا أذى فإنه لا يحل له أكل الميتة بل يأكل طعام الغير بغير خلاف — كذا قال — ثم قال وإذا أكله والحالة هذه هل يضمن أم لا ؟ فيه قولان هما روايتان عن مالك ثم أورد من سنن ابن ماجه من حديث شعبة عن أبى إياس جعفر بن أبى وحشية سمعت عباد بن شرحبيل العنزى قال

أصابتنا عاما مخمصة فأتيت المدينة فأتيت حائطا فأخذت سنبلا ففركته وأكلته وجعلت منه فى كسائى فجاء صاحب الحائط فضربنى وأخذ ثوبى فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته فقال للرجل « ما أطعمته إذ كان جائعا ولا ساعيا ولا علمته إذ كان جاهلا » فأمره فرد اليه ثوبه وأمر له بوسق من طعام أو نصف وسق إسناد صحيح قوى جيد وله شواهد كثيرة من ذلك حديث عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده سئل رسول الله ﷺ عن الثمر المعلق فقال « من أصاب منه من ذى حاجة بفيه غير متخذ خبنة فلا شىء عليه » الحديث : وقال مقاتل بن حيان فى قوله (فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم) فيما أكل من اضطرار وبلغنا والله أعلم أنه لا يزاد على ثلاث لقم وقال سعيد بن جبير : غفور لما أكل من الحرام ، رحيم إذ أحل له الحرام فى الاضطرار ، وقال وكيع أخبرنا الأعمش عن أبى الضحى عن مسروق قال من اضطر فلم يأكل ولم يشرب ثم مات دخل النار وهذا يقتضى أن أكل الميتة للمضطر عزيمة لا رخصة قال أبو الحسن الطبرى المعروف بالكيا الهراسى رفيق الغزالى فى الاشتغال وهذا هو الصحيح عندنا كالإفطار للمريض ونحو ذلك :

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ * أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابَ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ * ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴾

يقول تعالى (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب) يعنى اليهود الذين كتموا صفة محمد صلى الله عليه وسلم فى كتبهم التى بأيديهم مما تشهد له بالرسالة والنبوة فكتموا ذلك لئلا تذهب رياستهم وما كانوا يأخذونه من العرب من الهدايا والتحف على تعظيمهم آباءهم فخشوا لعنهم الله إن أظهروا ذلك أن يتبعه الناس ويتركوهم فكتموا ذلك إبقاء على ما كان يحصل لهم من ذلك وهو نزر يسير فباعوا أنفسهم بذلك واعتاضوا عن الهدى واتباع الحق وتصديق الرسول والإيمان بما جاء عن الله بذلك النزر اليسير فخابوا وخسروا فى الدنيا والآخرة أما فى الدنيا فان الله أظهر لعباده صدق رسوله بما نصبه وجعله معه من الآيات الظاهرات والدلائل القاطعات فصدقه الذين كانوا يخافون أن يتبعوه وصاروا عونا له على قتالهم وباءوا بغضب على غضب وذمهم الله فى كتابه فى غير موضع فمن ذلك هذه الآية الكريمة (إن الذين يكتمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمنا قليلا) وهو عرض الحياة الدنيا (أولئك ما يأكلون فى بطونهم إلا النار) أى إنما يأكلون ما يأكلونه فى مقابلة كتمان الحق نارا تأجج فى بطونهم يوم القيامة كما قال تعالى (إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) وفى الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « إن الذى يأكل أو يشرب فى آنية الذهب والفضة إنما يجرجر فى بطنه نار جهنم » .

وقوله (ولا يكلمهم الله يوم القيامه ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم) وذلك لأنه تعالى غضبان عليهم لأنهم كتموا وقد علموا فاستحقوا الغضب فلا ينظر اليهم ولا يزكيهم أى يثنى عليهم ويمدحهم بل يعذبهم عذابا أليما . وقد ذكر ابن أبى حاتم وابن مردويه ههنا حديث الأعمش عن أبى حازم عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم شيخ زان وملك كذاب وعائل مستكبر » ثم قال تعالى مخبراً عنهم (أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى) أى اعتاضوا عن الهدى وهو نشر ما فى كتبهم من صفة الرسول وذكر مبعثه والبشارة به من كتب الأنبياء واتباعه وتصديقه استبدلوا عن ذلك واعتاضوا عنه الضلالة وهو تكذيبه والكفر به وكتمان صفاته فى كتبهم (والعذاب بالمغفرة) أى اعتاضوا عن المغفرة بالعذاب وهو ما تعاطوه من أسبابه المذكورة : وقوله تعالى (فما أصبرهم على النار) يخبر تعالى أنهم فى عذاب شديد عظيم هائل يتعجب من رآهم فيها من صبرهم على ذلك مع شدة ما هم فيه من العذاب والنكال والأغلال عياذاً بالله من ذلك وقيل معنى قوله (فما أصبرهم على النار) أى فما أدومهم لعمل المعاصى التى تفضى بهم إلى النار وقوله تعالى (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق) أى إنما استحقوا

هذا العذاب الشديد لأن الله تعالى أنزل على رسوله محمد ﷺ وعلى الأنبياء قبله كتبه بتحقيق الحق وإبطال الباطل وهؤلاء اتخذوا آيات الله هزوا فكتابهم يأمرهم باظهار العلم ونشره فخالفوه وكذبوه وهذا الرسول الخاتم يدعوهم إلى الله تعالى ويأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر وهم يكذبونه ويخالفونه ويجحدونه ويكتمون صفته فاستهزؤا بآيات الله المنزلة على رسله فلهذا استحقوا العذاب والنكال ولهذا قال (ذلك بأن الله نزل الكتاب بالحق وإن الذين اختلفوا فى الكتاب لفى شقاق بعيد)

﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على جمل عظيمة وقواعد عميمة وعقيدة مستقيمة كما قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا عبيد بن هشام الحلبى حدثنا عبيد الله بن عمرو عن عامر بن شفى عن عبد الكريم عن مجاهد عن أبى ذر أنه سأل رسول الله ﷺ ما الايمان ؟ فتلا عليه (ليس البر أن تولوا وجوهكم) إلى آخر الآية قال ثم سأله أيضاً فتلاها عليه ثم سأله فقال : « إذا عملت حسنة أحبها قلبك وإذا عملت سيئة أبغضها قلبك » وهذا منقطع فان مجاهدا لم يدرك أباذر فانه مات قديما وقال السعودى : حدثنا القاسم بن عبد الرحمن قال جاء رجل إلى أبى ذر فقال ما الإيمان ؟ فقرأ عليه هذه الآية (ليس البر أن تولوا وجوهكم) حتى فرغ منها فقال الرجل ليس عن البر سألتك فقال أبو ذر جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فسأله عما سألتنى عنه فقرأ عليه هذه الآية فأبى أن يرضى كما أبيت أن ترضى فقال له رسول الله ﷺ وأشار بيده « المؤمن إذا عمل حسنة سرته ورجا ثوابها وإذا عمل سيئة أحزنته وخاف عقابها » رواه ابن مردويه وهذا أيضاً منقطع والله أعلم

وأما الكلام على تفسير هذه الآية فان الله تعالى لما أمر المؤمنين أولا بالتوجه إلى بيت المقدس ثم حولهم إلى الكعبة شق ذلك على نفوس طائفة من أهل الكتاب وبعض المسلمين فأنزل الله تعالى بيان حكمته فى ذلك وهو أن المراد إنما هو طاعة الله عز وجل وامتثال أوامره والتوجه حيثما وجه واتباع ماشرع فهذا هو البر والتقوى والايمان الكامل وليس فى لزوم التوجه إلى جهة من المشرق أو المغرب بر ولاطاعة إن لم يكن عن أمر الله وشرعه ولهذا قال (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر) الآية كما قال فى الأضاحى والهدايا (لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وقال العوفى عن ابن عباس فى هذه الآية : ليس البر أن تصلوا ولاتعملوا فهذا حين تحول من مكة إلى المدينة ونزلت الفرائض والحدود فأمر الله بالفرائض والعمل بها وروى عن الضحاك ومقاتل نحو ذلك وقال أبو العالية : كانت اليهود تقبل قبل المغرب وكانت النصارى تقبل قبل المشرق فقال الله تعالى (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب) يقول هذا كلام الايمان وحقيقته العمل وروى عن الحسن والربيع بن أنس مثله وقال مجاهد : ولكن البر مائبت فى القلوب من طاعة الله عز وجل وقال الضحاك : ولكن البر والتقوى أن تؤدوا الفرائض على وجوهها وقال الثورى : (ولكن البر من آمن بالله) الآية قال هذه أنواع البر كلها ، وصدق رحمه الله فان من اتصف بهذه الآية فقد دخل فى عرى الاسلام كلها وأخذ بمجامع الخير كله وهو الايمان بالله وانه لا إله إلا هو وصدق بوجود الملائكة الذين هم سفرة بين الله ورسله (والكتاب) وهو اسم جنس يشمل الكتب المنزلة من السماء على الانبياء حتى ختمت بأشرفها وهو

القرآن المهيمن على ماقبله من الكتب الذى انتهى إليه كل خير واشتمل على كل سعادة فى الدنيا والآخرة ونسخ به كل ماسواه من الكتب قبله وآمن بانبياء الله كلهم من أولهم إلى خاتمهم محمد صلوات الله وسلامه عليه وعليهم أجمعين وقوله (وآتى المال على حبه) أى أخرجه وهو محب له راغب فيه نص على ذلك ابن مسعود وسعيد بن جبير وغيرهما من السلف والخلف كما ثبت فى الصحيحين من حديث أبى هريرة مرفوعا « أفضل الصدقة أن تصدق وأنت صحيح شحيح تأمل الغنى وتخشى الفقر » وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث شعبة والثورى عن منصور عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ « (وآتى المال على حبه) أن تعطيه وأنت صحيح شحيح تأمل العيش وتخشى الفقر » ثم قال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه (قلت) وقد رواه وكيع عن الأعمش وسفيان عن زبيد عن مرة عن ابن مسعود موقوفا وهو أصح والله أعلم . وقال تعالى (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً * إنما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولاشكورا) وقال تعالى (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) وقوله (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) نمط آخر أرفع من هذا وهو أنهم آثروا بما هم مضطرون إليه وهؤلاء أعطوا وأطعموا ماهم محبون له وقوله (ذوى القربى) وهم قرابات الرجل وهم أولى من أعطى من الصدقة كما ثبت فى الحديث « الصدقة على المساكين صدقة وعلى ذوى الرحم ثنتان صدقة وصلة فهم أولى الناس بك وبرك وإعطائك » وقد أمر الله تعالى بالاحسان اليهم فى غير موضع من كتابه العزيز (واليتامى) هم الذين لا كاسب لهم وقد مات آباؤهم وهم ضعفاء صغار دون البلوغ والقدرة على التكسب وقد قال عبد الرزاق أنبأنا معمر عن جويبر عن الضحاك عن النزال بن سبرة عن على عن رسول الله ﷺ قال : « لايتم بعد حلم » (والمساكين) وهم الذين لايجدون ما يكفيهم فى قوتهم وكسوتهم وسكناهم فيعطون ما تسد به حاجتهم وخلتهم وفى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال : « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان ولكن المسكين الذى لايجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه » (وابن السبيل) وهو المسافر المجتاز الذى قد فرغت نفقته فيعطى مايوصله إلى بلده وكذا الذى يريد سفرا فى طاعة فيعطى ما يكفيه فى ذهابه وإيابه ويدخل فى ذلك الضيف كما قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس أنه قال . ابن السبيل هو الضيف الذى ينزل بالمسلمين وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير وأبو جعفر الباقر والحسن وقتادة والضحاك والزهرى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان (والسائلين) وهم الذين يتعرضون للطلب فيعطون من الزكوات والصدقات كما قال الامام أحمد حدثنا وكيع وعبد الرحمن قالا حدثنا سفيان عن مصعب بن محمد عن يعلى بن أبى يحيى عن فاطمة بنت الحسين عن أبيها ـ قال عبد الرحمن حسين بن على ـ قال قال رسول الله ﷺ « للسائل حق وإن جاء على فرس » رواه أبو داود (وفى الرقاب) وهم المكاتبون الذين لايجدون ما يؤدونه فى كتابتهم وسيأتى الكلام على كثير من هذه الأصناف فى آية الصدقات من براءة إن شاء الله تعالى . وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا شريك عن أبى حمزة عن الشعبى حدثتنى فاطمة بنت قيس أنها سألت رسول الله ﷺ أفى المال حق سوى الزكاة ؟ قالت فتلا على (وآتى المال على حبه) ورواه ابن مردويه من حديث آدم بن أبى إياس ويحيى بن عبد الحميد كلاهما عن شريك عن أبى حمزة عن الشعبى عن فاطمة بنت قيس قالت . قال رسول الله ﷺ « فى المال حق سوى الزكاة » ثم قرأ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ـ إلى قوله ـ وفى الرقاب) وأخرجه ابن ماجه والترمذى وضعف أبا حمزة ميمونا الأعور وقد رواه سيار وإسماعيل بن سالم عن الشعبى وقوله (وأقام الصلاة) أى وأتم أفعال الصلاة فى أوقاتها بركوعها وسجودها وطمأنينتها وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى وقوله (وآتى الزكاة) يحتمل أن يكون المراد به زكاة النفس وتخليصها من الأخلاق الدنيئة الرذيلة كقوله (قد أفلح من زكاها * وقد خاب من دساها) وقول موسى لفرعون : (هل لك إلى أن تزكى وأهديك إلى ربك فتخشى) وقوله تعالى (وويل للمشركين الذين لايؤتون الزكاة) ويحتمل أن يكون المراد زكاة المال كما قاله سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان

ويكون المذكور من إعطاء هذه الجهات والأصناف المذكورين إنما هو التطوع والبر والصلة ولهذا تقدم فى الحديث عن فاطمة بنت قيس أن فى المال حقا سوى الزكاة والله أعلم

وقوله (والموفون بعهدهم إذا عاهدوا) كقوله (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق) وعكس هذه الصفة النفاق كما صح فى الحديث « آية المنافق ثلاث إذاحدث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان » وفى الحديث الآخر « وإذاحدث كذب وإذا عاهد غدر وإذا خاصم فجر » وقوله (والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس) أى فى حال الفقر وهو البأساء ، وفى حال المرض والأسقام وهو الضراء (وحين البأس) أى فى حال القتال والتقاء الأعداء قاله ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومرة الهمدانى ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وأبو مالك والضحاك وغيرهم وإنما نصب (الصابرين) على المدح والحث على الصبر فى هذه الأحوال لشدته وصعوبته والله أعلم وهو المستعان وعليه التكلان : وقوله (أولئك الذين صدقوا) أى هؤلاء الذين اتصفوا بهذه الصفات هم الذين صدقوا فى إيمانهم لأنهم حققوا الإيمان القلبى بالأقول والأفعال فهؤلاء هم الذين صدقوا (وأولئك هم المتقون) لأنهم اتقوا المحارم وفعلوا الطاعات

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأُنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتِّبَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ * وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الْأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴾

يقول تعالى كتب عليكم العدل فى القصاص أيها المؤمنون حركم بحركم وعبدكم بعبدكم وأنثاكم بأنثاكم ولا تتجاوزوا وتعتدوا كما اعتدى من قبلكم وغيروا حكم الله فيهم ، وسبب ذلك قريظة والنضير كانت بنو النضير قد غزت قريظة فى الجاهلية وقهروهم فكان إذا قتل النضرى القرظى لا يقتل به بل يفادى بمائة وسق من التمر وإذاقتل القرظى النضرى قتل وإن فادوه فدوه بمائتى وسق من التمر ضعف دية القرظى فأمر الله بالعدل فى القصاص ولا يتبع سبيل المفسدين المحرفين المخالفين لأحكام الله فيهم كفرا وبغيا فقال تعالى (كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) وذكر فى سبب نزولها ما رواه الإمام أبو محمد بن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا يحيى بن عبدالله بن بكير حدثنى عبد الله بن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قول الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى) يعنى إذا كان عمدا الحر بالحر وذلك أن حيين من العرب اقتتلوا فى الجاهلية قبل الإسلام بقليل فكان بينهم قتل وجراحات حتى قتلوا العبيد والنساء فلم يأخذ بعضهم من بعض حتى أسلموا فكان أحد الحيين يتطاول على الآخر فى العدة والأموال فحلفوا أن لا يرضوا حتى يقتل بالعبد منا الحر منهم والمرأة منا الرجل منهم فنزل فيهم (الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى) منها منسوخة نسختها النفس بالنفس : وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (والأنثى بالأنثى) وذلك أنهم كانوا لايقتلون الرجل بالمرأة ولكن يقتلون الرجل بالرجل والمرأة بالمرأة فأنزل الله النفس بالنفس والعين بالعين فجعل الأحرار فى القصاص سواء فيما بينهم من العمد رجالهم ونساؤهم فى النفس وفيما دون النفس وجعل العبيد مستويين فيما بينهم من العمد فى النفس وفيما دون النفس رجالهم ونساؤهم وكذلك روى عن أبى مالك أنها منسوخة بقوله النفس بالنفس

﴿ مسئلة ﴾ ذهب أبو حنيفة إلى أن الحر يقتل بالعبد لعموم آية المائدة وإليه ذهب الثورى وابن ابى ليلى وداود وهو مروى عن علىّ وابن مسعود وسعيد بن المسيب وإبراهيم النخعى وقتادة والحكم قال البخارى وعلى بن المدينى وإبراهيم النخعى والثورى فى رواية عنه ويقتل السيد بعبده لعموم حديث الحسن عن سمرة «من قتل عبده قتلناه ومن جدع عبده جدعناه ومن خصاه خصيناه » وخالفهم الجمهور فقالوا لا يقتل الحر بالعبد لأن العبد سلعة لو قتل خطأ لم يجب

فيه دية وإنما تجب فيه قيمته ولأنه لا يقاد بطرفه ففى النفس بطريق الأولى وذهب الجمهور إلى أن المسلم لا يقتل بالكافر لما ثبت فى البخارى عن على قال : قال رسول الله ﷺ « لا يقتل مسلم بكافر » ولا يصح حديث ولا تأويل يخالف هذا وأما أبو حنيفة فذهب إلى أنه يقتل به لعموم آية المائدة

﴿ مسئلة ﴾ قال الحسن وعطاء لا يقتل الرجل بالمرأة لهذه الآية وخالفهم الجمهور لآية المائدة ولقوله عليه السلام « المسلمون تتكافأ دماؤهم » وقال الليث إذا قتل الرجل امرأته لا يقتل بها خاصة

﴿ مسئلة ﴾ ومذهب الأئمة الأربعة والجمهور أن الجماعة يقتلون بالواحد : قال عمر فى غلام قتله سبعة فقتلهم وقال لو تمالأ عليه أهل صنعاء لقتلتهم ، ولا يعرف له فى زمانه مخالف من الصحابة وذلك كالاجماع وحكى عن الإمام أحمد رواية أن الجماعة لا يقتلون بالواحد ولا يقتل بالنفس إلا نفس واحدة وحكاه ابن المنذر عن معاذ وابن الزبير وعبد الملك ابن مروان والزهرى وابن سيرين وحبيب بن أبى ثابت ثم قال ابن المنذر وهذا أصح ولا حجة لمن أباح قتل الجماعة وقد ثبت عن ابن الزبير ما ذكرناه وإذا اختلف الصحابة فسبيله النظر . وقوله (فمن عفى له من أخيه شىء فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان) قال مجاهد عن ابن عباس (فمن عفى له من أخيه شىء) فالعفو أن يقبل الدية فى العمد وكذا روى عن أبى العالية وأبى الشعثاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان وقال الضحاك عن ابن عباس (فمن عفى له من أخيه شىء) يعنى فمن ترك له من أخيه شىء يعنى أخذ الدية بعد استحقاق الدم وذلك العفو (فاتباع بالمعروف) يقول فعلى الطالب اتباع بالمعروف إذا قبل الدية (وأداء إليه بإحسان) يعنى من القاتل من غير ضرر ولا معك يعنى المدافعة وروى الحاكم من حديث سفيان عن عمرو عن مجاهد عن ابن عباس ويؤدى المطلوب باحسان وكذا قال سعيد بن جبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان

﴿ مسئلة ﴾ قال مالك رحمه الله فى رواية ابن القاسم عنه وهو المشهور وأبو حنيفة وأصحابه والشافعى وأحمد فى أحد قوليه ليس لولى الدم أن يعفو على الدية إلا برضا القاتل وقال الباقون له أن يعفو عليها وإن لم يرض

﴿ مسئلة ﴾ وذهب طائفة من السلف إلى أنه ليس للنساء عفو ، منهم الحسن وقتادة والزهرى وابن شبرمة والليث والأوزاعى وخالفهم الباقون وقوله (ذلك تخفيف من ربكم ورحمة) يقول تعالى إنما شرع لكم أخذ الدية فى العمد تخفيفا من الله عليكم ورحمة بكم مما كان محتوما على الأمم قبلكم من القتل أو العفو كما قال سعيد بن منصور حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار أخبرنى مجاهد عن ابن عباس قال كتب على بنى إسرائيل القصاص فى القتلى ولم يكن فيهم العفو فقال الله لهذه الأمة (كتب عليكم القصاص فى القتلى الحر بالحر والعبد بالعبد والأنثى بالأنثى فمن عفى له من أخيه شىء) فالعفو أن يقبل الدية فى العمد ، ذلك تخفيف مما كتب على بنى إسرائيل من كان قبلكم فاتباع بالمعروف وأداء إليه باحسان . وقد رواه غير واحد عن عمرو وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن عمرو بن دينار ورواه جماعة عن مجاهد عن ابن عباس بنحوه : وقال قتادة (ذلك تخفيف من ربكم) رحم الله هذه الأمة وأطعمهم الدية ولم تحل لأحد قبلهم فكان أهل التوراة إنما هو القصاص وعفو ليس بينهم أرش وكان أهل الإنجيل إنما هو عفو أمروا به وجعل لهذه الأمة القصاص والعفو والأرش وهكذا روى عن سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس نحو هذا وقوله (فمن اعتدى بعد ذلك فله عذاب أليم) يقول تعالى فمن قتل بعد أخذ الدية أو قبولها فله عذاب من الله أليم موجع شديد . وهكذا روى عن ابن عباس ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان أنه هو الذى يقتل بعد أخذ الدية كما قال محمد بن إسحق عن الحارث بن فضيل عن سفيان بن أبى العوجاء عن أبى شريح الخزاعى أن النبى ﷺ قال « من أصيب بقتل أو خبل فانه يختار إحدى ثلاث إما أن يقتص وإما أن يعفو وإما أن يأخذ الدية فان أراد الرابعة فخذوا على يديه ومن اعتدى بعد ذلك فله نار جهنم خالدا فيها » رواه أحمد وقال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا أعافى

رجلا قتل بعد أخذ الدية » يعنى لا أقبل منه الدية بل أقتله .

وقوله (ولكم فى القصاص حياة) يقول تعالى وفى شرع القصاص لكم وهو قتل القاتل حكمة عظيمة وهى بقاء المهج وصونها لأنه إذا علم القاتل أنه يقتل انكف عن صنيعه فكان فى ذلك حياة للنفوس ، وفى الكتب المتقدمة القتل أنفى للقتل[1] فجاءت هذه العبارة فى القرآن أفصح وأبلغ وأوجز (ولكم فى القصاص حياة) قال أبو العالية جعل الله القصاص حياة فكم من رجل يريد أن يقتل فتمنعه مخافة أن يقتل . وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وأبى مالك والحسن وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان (يا أولى الألباب لعلكم تتقون) يقول يا أولى العقول والأفهام والنهى لعلكم تنزجرون وتتركون محارم الله ومآثمه ، والتقوى اسم جامع لفعل الطاعات وترك المنكرات

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِن تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * فَمَنْ خَافَ مِن مُّوصٍ جَنَفًا أَوْ إِثْمًا فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على الأمر بالوصية للوالدين والأقربين وقد كان ذلك واجبا على أصح القولين قبل نزول آية المواريث فلما نزلت آية الفرائض نسخت هذه وصارت المواريث المقدرة فريضة من الله يأخذها أهلوها حتما من غير وصية ولا تحمل منة الموصى ولهذا جاء فى الحديث الذى فى السنن وغيرها عن عمرو بن خارجة قال سمعت رسول الله ﷺ يخطب وهو يقول « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلا وصية لوارث » وقال الإمام أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن علية عن يونس بن عبيد عن محمد بن سيرين قال : جلس ابن عباس فقرأ سورة البقرة حتى أتى هذه الآية (إن ترك خيراً الوصية للوالدين والأقربين) فقال نسخت هذه الآية وكذا رواه سعيد بن منصور عن هشيم عن يونس به ورواه الحاكم فى مستدركه وقال صحيح على شرطهما وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (الوصية للوالدين والأقربين) قال : كان لايرث مع الوالدين غيرهما إلا وصية للأقربين فأنزل الله آية الميراث فبين ميراث الوالدين وأقر وصية الأقربين فى ثلث مال الميت وقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج بن محمد أخبرنا ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس فى قوله (الوصية للوالدين والأقربين) نسختها هذه الآية (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضا) ثم قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر وأبى موسى وسعيد بن المسيب والحسن ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير ومحمد بن سيرين وعكرمة وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان وطاوس وإبراهيم النخعى وشريح والضحاك والزهرى أن هذه الآية منسوخة نسختها آية الميراث . والعجب من أبى عبد الله محمد بن عمر الرازى رحمه الله كيف حكى فى تفسيره الكبير عن أبى مسلم الأصفهانى ان هذه الآية غير منسوخة وإنما هى مفسرة بآية المواريث ومعناه كتب عليكم ما أوصى الله به من توريث الوالدين والأقربين من قوله (يوصيكم الله فى أولادكم) قال وهو قول أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء قال ومنهم من قال إنها منسوخة فيمن يرث ثابتة فيمن لايرث وهو مذهب ابن عباس والحسن ومسروق وطاوس والضحاك ومسلم بن يسار والعلاء بن زياد (قلت) وبه قال أيضا سعيد بن جبير والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان ولكن على قول هؤلاء لايسمى هذا نسخا فى اصطلاحنا المتأخر لأن آية المواريث إنما رفعت حكم بعض أفراد ما دل عليه عموم آية الوصاية لأن الأقربين أعم ممن يرث ومن لايرث فرفع حكم من يرث بما عين له وبقى الآخر على ما دلت عليه الآية الأولى وهذا إنما يتأتى على قول بعضهم ان الوصاية فى ابتداء الاسلام إنما كانت ندبا حتى نسخت فأما من يقول إنها كانت واجبة وهو الظاهر من سياق الآية فيتعين أن تكون منسوخة بآيه الميراث كما قاله أكثر المفسرين والمعتبرين من الفقهاء فان

(١) ذكر البغوى أن هذا مثل . والمشهور أنه من كلام فصحاء العرب .

وجوب الوصية للوالدين والأقربين الوارثين منسوخ بالإجماع بل منهى عنه للحديث المتقدم « إن الله قد أعطى كل ذى حق حقه فلاوصية لوارث » فآية الميراث حكم مستقل ووجوب من عندالله لأهل الفروض والعصبات رفع بها حكم هذه بالكلية ، بقى الأقارب الذين لاميراث لهم يستحب له أن يوصى لهم من الثلث استئناسا بآية الوصية وشمولها ولما ثبت فى الصحيحين عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « ماحق امرئ مسلم له شىء يوصى فيه يبيت ليلتين إلا ووصيته مكتوبة عنده » قال ابن عمر مامرت علىّ ليلة منذ سمعت رسول الله ﷺ يقول ذلك إلا وعندى وصيتى . والآيات والأحاديث بالأمر ببر الأقارب والاحسان اليهم كثيرة جدا وقال عبدبن حميد فى مسنده أخبرنا عبدالله عن مبارك بن حسان عن نافع قال : قال عبدالله قال رسول الله ﷺ يقول الله تعالى « يا ابن آدم ثنتان لم يكن لك واحدة منهما : جعلت لك نصيبا فى مالك حين أخذت بكظمك لأطهرك به وأزكيك وصلاة عبادى عليك بعد انقضاء أجلك » وقوله (إن ترك خيراً) أى مالا قاله ابن عباس ومجاهد وعطاء وسعيد بن جبير وأبو العالية وعطية العوفى والضحاك والسدى والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وقتادة وغيرهم ثم منهم من قال الوصية مشروعة سواء قل المال أو كثر كالوراثة ومنهم من قال إنما يوصى إذا ترك مالا جليلا ثم اختلفوا فى مقداره فقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبد الله بن يزيد المقرى أخبرنا سفيان عن هشام بن عروة عن أبيه قال: قيل لعلى رضى الله عنه إن رجلا من قريش قدمات وترك ثلثمائة دينار أو أربعمائة ولم يوص قال ليس بشىء إنما قال الله (إن ترك خيرا) وقال أيضا وحدثنا هرون بن إسحق الهمدانى حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه أن عليا دخل على رجل من قومه يعوده فقال له أوص فقال له على إنما قال الله (إن ترك خيرا الوصية) إنما تركت شيئا يسيرا فاتركه لولدك وقال الحاكم : إن أبان حدثنى عن عكرمة عن ابن عباس (إن ترك خيرا) قال ابن عباس : من لم يترك ستين دينارا لم يترك خيرا قال الحاكم قال طاوس لم يترك خيرا من لم يترك ثمانين دينارا وقال قتادة كان يقال ألفا فما فوقها . وقوله (بالمعروف) أى بالرفق والإحسان كما قال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن أحمد حدثنا إبراهيم بن عبدالله بن بشار حدثنى سرور بن المغيرة عن عباد بن منصور عن الحسن قوله (كتب عليكم إذا حضر أحدكم الموت) فقال نعم الوصية حق على كل مسلم أن يوصى إذا حضره الموت بالمعروف غير المنكر والمراد بالمعروف أن يوصى لأقربيه وصية لا تجحف بورثته من غير إسراف ولا تقتير كما ثبت فى الصحيحين أن سعدا قال يا رسول الله إن لى مالا ولا يرثنى إلا ابنة لى أفأوصى بثلثى مالى ؟ قال «لا» قال فبالشطر ؟ قال «لا» قال فالثلث ؟ قال « الثلث والثلث كثير إنك أن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » وفى صحيح البخارى أن ابن عباس قال : لو أن الناس غضوا من الثلث إلى الربع فان رسول الله ﷺ قال «الثلث والثلث كثير» وروى الإمام أحمد عن أبى سعيد مولى بنى هاشم عن زياد بن عتبة بن حنظلة سمعت حنظلة بن جذيم بن حنيفة أن جده حنيفة أوصى ليتيم فى حجره بمائة من الإبل فشق ذلك على بنيه فارتفعوا إلى رسول الله ﷺ فقال حنيفة إنى أوصيت ليتيم لى بمائة من الإبل كنا نسميها المطية فقال النبى ﷺ « لالا ، الصدقة خمس وإلا فعشر وإلا فخمس عشرة وإلا فعشرون وإلا فخمس وعشرون وإلا فثلاثون وإلا فخمس وثلاثون فإن كثرت فأربعون » وذكر الحديث بطوله .

وقوله (فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه إن الله سميع عليم) يقول تعالى فمن بدل الوصية وحرفها فغير حكمها وزاد فيها أونقص ويدخل فى ذلك الكتمان لها بطريق الأولى (فإنما إثمه على الذين يبدلونه) قال ابن عباس وغير واحد وقد وقع أجر الميت على الله وتعلق الإثم بالذين بدلوا ذلك (إن الله سميع عليم) أى قد اطلع على ما أوصى به الميت وهو عليم بذلك وبما بدله الموصى اليهم وقوله تعالى (فمن خاف من موص جنفا أو إثما) قال ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والضحاك والربيع بن أنس والسدى الجنف الخطأ وهذا يشمل أنواع الخطأ كلها بأن زادوا وارثا بواسطة أووسيلة كما إذا أوصى ببيعة الشىء الفلانى محاباة أو أوصى لابن ابنته ليزيدها أونحو ذلك من الوسائل إما مخطئا غير عامد بل بطبعه وقوة شفقته من غير تبصر أو متعمدا آثما فى ذلك فللموصى والحالة هذه أن يصلح القضية ويعدل

فى الوصية على الوجه الشرعى ، ويعدل عن الذى أوصى به الميت إلى ماهو أقرب الأشياء اليه وأشبه الأمور به جمعا بين مقصود الموصى والطريق الشرعى ، وهـذا الإصلاح والتوفيق ليس من التبديل فى شىء ولهذا عطف هـذا فبينه على النهى عن ذلك ليعلم أن هذا ليس من ذلك بسبيل والله أعلم : وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا العباس بن الوليد بن مزيد قراءة أخبرنى أبى عن الأوزاعى قال الزهرى حدثنى عروة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يرد من صدقة الجانف(١) فى حياته ما يرد من وصية المجنف عند موته » وهكذا رواه أبو بكر بن مردويه من حديث العباس بن الوليد به قال ابن أبى حاتم وقد أخطأ فيه الوليد بن مزيد ، وهذا الكلام إنما هو عن عروة فقط وقد رواه الوليد بن مسلم عن الأوزاعى فلم يجاوز به عروة ، وقال ابن مردويه أيضا حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إبراهيم بن يوسف حدثنا هشام بن عمار حدثنا عمر بن المغيرة عن داود بن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « الجنف فى الوصية من الكبائر » وهـذا فى رفعه أيضا نظر وأحسن ما ورد فى هذا الباب ماقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن أشعث بن عبد الله عن شهر بن حوشب عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة فإذا أوصى حاف فى وصيته فيختم له بشر عمله فيدخل النار . وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الشر سبعين سنة فيعدل فى وصيته فيختم له بخير عمله فيدخل الجنة » قال أبو هريرة : اقرءوا إن شئتم (تلك حدود الله فلا تعتدوها) الآية .

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ فَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَهُوَ خَيْرٌ لَّهُۥ وَأَن تَصُومُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى مخاطبا للمؤمنين من هـذه الأمة وآمرا لهم بالصيام وهو الإمساك عن الطعام والشراب والوقاع بنية خالصة لله عز وجل لما فيه من زكاة النفوس وطهارتها وتنقيتها من الأخلاط الرديئة والأخلاق الرذيلة وذكر انه كما أوجبه عليهم فقد أوجبه على من كان قبلهم فلهم فيه أسوة وليجتهد هؤلاء فى أداء هذا الفرض أكمل مما فعله أولئك كما قال تعالى (لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ولوشاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات) الآية ولهذا قال ههنا (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) لأن الصوم فيه تزكية للبدن وتضييق لمسالك الشيطان ولهذا ثبت فى الصحيحين « يامعشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج ومن لم يستطع فعليه بالصوم فانه له وجاء » ثم بين مقدار الصوم وأنه ليس فى كل يوم لئلا يشق على النفوس فتضعف عن حمله وأدائه بل فى أيام معدودات . وقد كان هذا فى ابتداء الاسلام يصومون من كل شهر ثلاثة أيام ثم نسخ ذلك بصوم شهر رمضان كما سيأتى بيانه . وقد روى أن الصيام كان أولا كما كان عليه الأمم قبلنا من كل شهر ثلاثة أيام عن معاذ وابن مسعود وابن عباس وعطاء وقتادة والضحاك بن مزاحم وزاد لم يزل هذا مشروعا من زمان نوح إلى أن نسخ الله ذلك بصيام شهر رمضان . وقال عباد بن منصور عن الحسن البصرى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون * أياما معدودات) فقال نعم والله لقد كتب الصيام على كل أمة قد خلت كما كتبه علينا شهرا كاملا وأياما معدودات عددا معلوما ، وروى عن السدى نحوه . وروى ابن أبى حاتم من حديث أبى عبد الرحمن المقرى حدثنى سعيد بن أبى أيوب حدثنى عبد الله بن الوليد عن أبى الربيع رجل من أهل المدينة عن عبد الله بن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صيام رمضان كتبه الله على الأمم قبلكم » فى حديث طويل اختصر منه ذلك . وقال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عمن حدثه عن ابن عمر قال أنزلت (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) كتب عليهم إذا صلى أحدهم العتمة ونام حرم عليه الطعام والشراب والنساء إلى مثلها ،

(١) فى نسخة الأزهر الحائف

قال ابن أبي حاتم وروى عن ابن عباس وأبي العالية وعبد الرحمن بن أبي ليلى ومجاهد وسعيد بن جبير ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس وعطاء الخراساني نحو ذلك : وقال عطاء الخراساني عن ابن عباس (كما كتب على الذين من قبلكم) يعني بذلك أهل الكتاب وروى عن الشعبي والسدى وعطاء الخراساني مثله . ثم بين حكم الصيام على ما كان عليه الأمر في ابتداء الإسلام فقال (فمن كان منكم مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) أي المريض والمسافر لا يصومان في حال المرض والسفر لما في ذلك من المشقة عليهما بل يفطران ويقضيان بعدة ذلك من أيام أخر وأما الصحيح المقيم الذي يطيق الصيام فقد كان مخيراً بين الصيام وبين الإطعام إن شاء صام وإن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا فإن أطعم أكثر من مسكين عن كل يوم فهو خير وإن صام فهو أفضل من الإطعام قاله ابن مسعود وابن عباس ومجاهد وطاوس ومقاتل بن حيان وغيرهم من السلف ولهذا قال تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين فمن تطوع خيراً فهو خير له وأن تصوموا خير لكم إن كنتم تعلمون) .

وقال الإمام أحمد حدثنا أبو النضر حدثنا المسعودي حدثنا عمرو بن مرة عن عبد الرحمن بن أبي ليلى عن معاذ بن جبل رضي الله عنه قال أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال وأحيل الصيام ثلاثة أحوال فأما أحوال الصلاة فان النبي صلى الله عليه وسلم قدم المدينة وهو يصلي سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس ثم إن الله عز وجل أنزل عليه (قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها) الآية فوجهه الله إلى مكة هذا حول ، قال وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضاً حتى نقسوا أو كادوا ينقسون ثم إن رجلا من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد بن عبد ربه أتى رسول الله ﷺ : فقال يارسول الله إني رأيت فيما يرى النائم ولو قلت إني لم أكن نائما لصدقت إني بينا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصا عليه ثوبان أخضران فاستقبل القبلة فقال : الله أكبر الله أكبر ، أشهد أن لا إله إلا الله - مثنى - حتى فرغ من الأذان ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال غير أنه يزيد في ذلك : قد قامت الصلاة - مرتين - قال رسول الله ﷺ « علمها بلالا فليؤذن بها » فكان بلال أول من أذن بها : قال وجاء عمر بن الخطاب رضي الله عنه فقال يارسول الله قد طاف بي مثل الذي طاف به غير أنه سبقني ، فهذان حالان ، قال وكانوا يأتون الصلاة وقد سبقهم النبي صلى الله عليه وسلم ببعضها فكان الرجل يشير إلى الرجل إذن كم صلى فيقول واحدة أو اثنتين فيصليهما ثم يدخل مع القوم في صلاتهم قال فجاء معاذ فقال لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها ثم قضيت ما سبقني قال فجاء وقد سبقه النبي ﷺ ببعضها قال فثبت معه فلما قضى رسول الله ﷺ قام فقضى فقال رسول الله ﷺ « إنه قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا » فهذه ثلاثة أحوال ، وأما أحوال الصيام فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم المدينة فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام وصام عاشوراء ثم إن الله فرض عليه الصيام وأنزل الله تعالى (يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم) إلى قوله (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكينا فأجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله عز وجل أنزل الآية الأخرى (شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن) إلى قوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ورخص فيه للمريض والمسافر وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام ، فهذان حالان ، قال وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء مالم يناموا فإذا ناموا امتنعوا ثم إن رجلا من الأنصار يقال له صرمة كان يعمل صائما حتى أمسى فجاء إلى أهله فصلى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى أصبح فأصبح صائما فرآه رسول الله ﷺ وقد جهد جهداً شديدا فقال « مالي أراك قد جهدت جهداً شديدا ؟ » قال يارسول الله إني عملت أمس فجئت حين جئت فألقيت نفسي فنمت فأصبحت حين أصبحت صائما قال وكان عمر قد أصاب من النساء بعد ما نام فأتى النبي ﷺ فذكر له ذلك فأنزل الله عزوجل (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - إلى قوله - ثم أتموا الصيام إلى الليل) وأخرجه أبو داود في سننه والحاكم في مستدركه من حديث المسعودي به وقد أخرجه البخاري ومسلم من حديث الزهري عن عروة عن عائشة أنها قالت كان عاشوراء يصام فلما نزل فرض رمضان كان من شاء صام ومن شاء أفطر وروى

البخارى عن ابن عمر وابن مسعود مثله

وقوله تعالى (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كما قال معاذ رضى الله عنه كان فى ابتداء الأمر من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم عن كل يوم مسكينا ، وهكذا روى البخارى عن سلمة بن الأكوع أنه قال لما نزلت (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) كان من أراد أن يفطر يفتدى حتى نزلت الآية التى بعدها فنسختها وروى أيضا من حديث عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال هى منسوخة: وقال السدى عن مرة عن عبد الله قال لما نزلت هذه الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قال يقول (وعلى الذين يطيقونه) أى يتجشمونه : قال عبد الله فكان من شاء صام ومن شاء أفطر وأطعم مسكينا (فمن تطوع) يقول أطعم مسكينا آخر (فهو خير له وأن تصوموا خير لكم) فكانوا كذلك حتى نسختها (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وقال البخارى أيضا أخبرنا إسحق حدثنا روح حدثنا زكريا بن إسحق حدثنا عمرو بن دينار عن عطاء سمع ابن عباس يقرأ (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) قال ابن عباس ليست منسوخة هو الشيخ الكبير والمرأة الكبيرة لا يستطيعان أن يصوما فيطعمان مكان كل يوم مسكينا وهكذا روى غير واحد عن سعيد بن جبير عن ابن عباس نحوه ، وقال أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا عبد الرحيم بن سليمان عن أشعث بن سوار عن عكرمة عن ابن عباس قال نزلت هذه الآية (وعلى الذين يطيقونه فدية طعام مسكين) فى الشيخ الكبير الذى لا يطيق الصوم ثم ضعف فرخص له أن يطعم مكان كل يوم مسكينا ، وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد حدثنا الحسين بن محمد بن بهرام المخزومى حدثنا وهب بن بقية حدثنا خالد بن عبد الله عن ابن أبى ليلى، قال دخلت على عطاء فى رمضان وهو يأكل فقال: قال ابن عباس نزلت هذه الآية فنسخت الأولى إلا الكبير الفانى إن شاء أطعم عن كل يوم مسكينا وأفطر ـ فحاصل الأمر أن النسخ ثابت فى حق الصحيح المقيم بإيجاب الصيام عليه بقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وأما الشيخ الفانى الهرم الذى لا يستطيع الصيام فله أن يفطر ولا قضاء عليه لأنه ليست له حال يصير إليها يتمكن فيها من القضاء ولكن هل يجب عليه إذا أفطر أن يطعم عن كل يوم مسكينا إذا كان ذا جدة ؟ فيه قولان للعلماء أحدهما لا يجب عليه إطعام لأنه ضعيف عنه لسنه فلم يجب عليه فدية كالصبى لأن الله لا يكلف نفساً إلا وسعها وهو أحد قولى الشافعى والثانى وهو الصحيح وعليه أكثر العلماء أنه يجب عليه فدية عن كل يوم كما فسره ابن عباس وغيره من السلف على قراءة من قرأ (وعلى الذين يطيقونه) أى يتجشمونه كما قاله ابن مسعود وغيره وهو اختيار البخارى فانه قال وأما الشيخ الكبير إذا لم يطق الصيام فقد أطعم أنس بعد ما كبر عاما أو عامين عن كل يوم مسكينا خبزاً ولحما وأفطر وهذا الذى علقه البخارى قد أسنده الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده فقال حدثنا عبد الله بن معاذ حدثنا أبى حدثنا عمران عن أيوب بن أبى تميمة قال ضعف أنس عن الصوم فصنع جفنة من ثريد فدعا ثلاثين مسكينا فأطعمهم ، ورواه عبد بن حميد عن روح بن عبادة عن عمران وهو ابن جرير عن أيوب به . ورواه عبد أيضا من حديث ستة من أصحاب أنس عن أنس بمعناه . ومما يلتحق بهذا المعنى الحامل والمرضع إذا خافتا على أنفسهما أو ولديهما ففيهما خلاف كثير بين العلماء فمنهم من قال يفطران ويفديان ويقضيان وقيل يفديان فقط ولا قضاء وقيل يجب القضاء بلا فدية وقيل يفطران ولا فدية ولا قضاء وقد بسطنا هذه المسألة مستقصاة فى كتاب الصيام الذى أفردناه ولله الحمد والمنة

﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ وَلِتُكْمِلُوا الْعِدَّةَ وَلِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾

يمدح تعالى شهر الصيام من بين سائر الشهور بأن اختاره من بينهن لإنزال القرآن العظيم وكما اختصه بذلك قد ورد الحديث بأنه الشهر الذى كانت الكتب الإلهية تنزل فيه على الأنبياء قال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله حدثنا أبو سعيد

مولى بنى هاشم حدثنا عمران أبو العوام عن قتادة عن أبى فليح عن واثلة يعنى ابن الأسقع أن رسول صلى الله عليه وسلم : قال : « أنزلت صحف إبراهيم فى أول ليلة من رمضان ، وأنزلت التوراة لست مضين من رمضان ، والإنجيل لثلاث عشرة خلت من رمضان، وأنزل الله القرآن لأربع وعشرين خلت من رمضان» وقد روى من حديث جابر بن عبد الله وفيه : أن الزبور أنزل لثنتى عشرة خلت من رمضان والإنجيل لثمانى عشرة والباقى كما تقدم . رواه ابن مردويه وأما الصحف والتوراة والزبور والإنجيل فنزل كل منها على النبي الذى أنزل عليه جملة واحدة وأما القرآن فإنما نزل جملة واحدة إلى بيت العزة من السماء الدنيا وكان ذلك فى شهر رمضان فى ليلة القدر منه كما قال تعالى (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وقال (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) ثم نزل بعد مفرقا بحسب الوقائع على رسول الله صلى الله عليه وسلم هكذا روى من غير وجه عن ابن عباس كما قال إسرائيل عن السدى عن محمد بن أبى المجالد عن مقسم عن ابن عباس أنه سأل عطية بن الأسود فقال وقع فى قلبي الشك : قول الله تعالى (شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن) وقوله (إنا أنزلناه فى ليلة مباركة) وقوله (إنا أنزلناه فى ليلة القدر) وقد أنزل فى شوال وفى ذى القعدة وفى ذى الحجة وفى المحرم وصفر وشهر ربيع فقال ابن عباس : إنه أنزل فى رمضان فى ليلة القدر وفى ليلة مباركة جملة واحدة ثم أنزل على مواقع النجوم ترتيلا فى الشهور والأيام رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه وهذا لفظه وفى رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: أنزل القرآن فى النصف من شهر رمضان إلى سماء الدنيا فجعل فى بيت العزة ثم أنزل على رسول الله ﷺ فى عشرين سنة لجواب كلام الناس وفى رواية عكرمة عن ابن عباس قال : نزل القرآن فى شهر رمضان فى ليلة القدر إلى هذه السماء الدنيا جملة واحدة وكان الله يحدث لنبيه ما يشاء ولا يجيء المشركون بمثل يخاصمون به إلا جاءهم الله بجوابه وذلك قوله(وقال الذين كفروا لولا أنزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا * ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا) وقوله (هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان) هذا مدح للقرآن الذى أنزله الله هدى لقلوب العباد ممن آمن به وصدقه واتبعه (وبينات) أى ودلائل وحجج بينة واضحة جلية لمن فهمها وتدبرها دالة على صحة ما جاء به من الهدى المنافى للضلال والرشد المخالف للغى ومفرقا بين الحق والباطل والحلال والحرام وقد روى عن بعض السلف أنه كره أن يقال إلا شهر رمضان ولا يقال رمضان، قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا محمد بن بكار بن الريان حدثنا أبو معشر عن محمد بن كعب القرظى وسعيد هو المقبرى عن أبى هريرة قال لا تقولوا رمضان فان رمضان اسم من أسماء الله تعالى ولكن قولوا شهر رمضان — قال ابن أبى حاتم وقد روى عن مجاهد ومحمد بن كعب نحو ذلك ورخص فيه ابن عباس وزيد بن ثابت (قلت) أبو معشر هو نجيح بن عبد الرحمن المدنى إمام المغازى والسير ولكن فيه ضعف وقد رواه ابنه محمد عنه فجعله مرفوعا عن أبى هريرة وقد أنكره عليه الحافظ بن عدى وهو جدير بالانكار فإنه متروك وقد وهم فى رفع هذا الحديث وقد انتصر البخارى رحمه الله فى كتابه لهذا فقال : باب يقال رمضان وساق أحاديث فى ذلك منها « من صام رمضان إيمانا واحتسابا غفر له ما تقدم من ذنبه » ونحو ذلك وقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) هذا إيجاب حتم على من شهد استهلال الشهر أى كان مقيما فى البلد حين دخل شهر رمضان وهو صحيح فى بدنه أن يصوم لا محالة ونسخت هذه الآية الاباحة المتقدمة لمن كان صحيحا مقيما أن يفطر ويفدى بإطعام مسكين عن كل يوم كما تقدم بيانه[1] ولما ختم الصيام أعاد ذكر الرخصة للمريض وللمسافر فى الافطار بشرط القضاء فقال (ومن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر) معناه ومن كان به مرض فى بدنه يشق عليه الصيام معه أو يؤذيه أو كان على سفر أى فى حالة السفر فله أن يفطر فإذا أفطر فعليه عدة ما أفطره فى السفر من الأيام ولهذا قال (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) أى إنما رخص لكم فى الفطر فى حال المرض والسفر مع تحتمه فى حق المقيم الصحيح تيسيرا عليكم ورحمة بكم

وههنا مسائل تتعلق بهذه الآية (إحداها) أنه قد ذهب طائفة من السلف إلى أن من كان مقيما فى أول الشهر ثم سافر فى أثنائه فليس له الافطار بعذر السفر والحالة هذه لقوله (فمن شهد منكم الشهر فليصمه) وإنما يباح

(١) هذا على القول بنسخه والأرجح ماروا البخارى عن ابن عباس من عدم نسخه وأن الفدية على من يطيقه بمشقة وحرج كالزمن والهرم

الإفطار لمسافر استهل الشهر وهو مسافر وهذا القول غريب نقله أبو محمد بن حزم فى كتابه المحلى عن جماعة من الصحابة والتابعين وفيما حكاه عنهم نظر والله أعلم فانه قد ثبتت السنة عن رسول الله ﷺ أنه خرج فى شهر رمضان لغزوة الفتح فسار حتى بلغ الكديد ثم أفطر وأمر الناس بالفطر أخرجه صاحبا الصحيح (الثانية) ذهب آخرون من الصحابة والتابعين إلى وجوب الإفطار فى السفر لقوله (فعدة من أيام أخر) والصحيح قول الجمهور أن الأمر فى ذلك على التخيير وليس بحتم لأنهم كانوا يخرجون مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان قال: فمنا الصائم ومنا المفطر فلم يعب الصائم على المفطر ولا المفطر على الصائم فلو كان الافطار هو الواجب لأنكر عليهم الصيام بل الذى ثبت من فعل رسول الله ﷺ أنه كان فى مثل هذه الحالة صائما لما ثبت فى الصحيحين عن أبى الدرداء قال: خرجنا مع رسول الله ﷺ فى شهر رمضان فى حر شديد حتى إن كان أحدنا ليضع يده على رأسه من شدة وما فينا صائم إلا رسول الله ﷺ وعبد الله بن رواحة (الثالثة) قالت طائفة منهم الشافعى: الصيام فى السفر أفضل من الافطار لفعل النبى ﷺ كما تقدم وقالت طائفة بل الافطار أفضل أخذاً بالرخصة ولما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه سئل عن الصوم فى السفر فقال: «من أفطر فحسن ومن صام فلا جناح عليه» وقال فى حديث آخر «عليكم برخصة الله التى رخص لكم» وقالت طائفة هما سواء لحديث عائشة ان حمزة بن عمرو الأسلمى قال يارسول الله إنى كثير الصيام أفأصوم فى السفر؟ فقال «إن شئت فصم وإن شئت فأفطر» وهو فى الصحيحين وقيل إن شق الصيام فالإفطار أفضل لحديث جابر ان رسول الله ﷺ رأى رجلا قد ظلل عليه فقال: «ماهذا»؟ قالوا صائم فقال «ليس من البر الصيام فى السفر» أخرجاه فأما إن رغب عن السنة ورأى أن الفطر مكروه اليه فهذا يتعين عليه الإفطار ويحرم عليه الصيام والحالة هذه لما جاء فى مسند الإمام أحمد وغيره عن ابن عمر وجابر وغيرهما: من لم يقبل رخصة الله كان عليه من الإثم مثل جبال عرفة (الرابعة) القضاء هل يجب متتابعا أو يجوز فيه التفريق فيه قولان: (أحدهما) أنه يجب التتابع لأن القضاء يحكى الأداء (والثانى) لا يجب التتابع بل إن شاء فرق وإن شاء تابع وهذا قول جمهور السلف والخلف وعليه تبت الدلائل لأن التتابع إنما وجب فى الشهر لضرورة أدائه فى الشهر فأما بعد انقضاء رمضان فالمراد صيام أيام عدة ما أفطر ولهذا قال تعالى (فعدة من أيام أخر) ثم قال تعالى (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر) قال الإمام أحمد حدثنا أبو سلمة الخزاعى حدثنا أبو هلال عن حميد بن هلال العدوى عن أبى قتادة عن الأعرابى الذى سمع النبى ﷺ يقول «إن خير دينكم أيسره إن خير دينكم أيسره» وقال أحمد أيضا حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا عاصم بن هلال حدثنا عامر بن عروة الفقيمى حدثنى أبى عروة قال كنا ننتظر النبى ﷺ فخرج يقطر رأسه من وضوء أو غسل فصلى فلما قضى الصلاة جعل الناس يسألونه علينا حرج فى كذا؟ فقال رسول الله ﷺ «إن دين الله فى يسر» - ثلاثا يقولها - ورواه الإمام أبو بكر بن مردويه فى تفسير هذه الآية من حديث مسلم بن أبى تميم عن عاصم بن هلال به. وقال الإمام أحمد: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال حدثنا أبو التياح سمعت أنس بن مالك يقول إن رسول الله ﷺ قال «يسروا ولا تعسروا وسكنوا ولا تنفروا» أخرجاه فى الصحيحين وفى الصحيحين أيضا أن رسول الله ﷺ قال لمعاذ وأبى موسى حين بعثهما إلى اليمن «بشرا ولا تنفرا ويسرا ولا تعسرا وتطاوعا ولا تختلفا» وفى السنن والمسانيد أن رسول الله ﷺ قال: «بعثت بالحنيفية السمحة» وقال الحافظ أبو بكر بن مردويه فى تفسيره حدثنا عبد الله بن إسحق بن إبراهيم حدثنا يحيى بن أبى طالب حدثنا عبد الوهاب بن عطاء حدثنا أبو مسعود الحريرى عن عبد الله بن شقيق عن محجن بن الأدرع أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى رجلا يصلى فتراءاه ببصره ساعة فقال «أتراه يصلى صادقا؟» قال قلت يارسول الله: هذا أكثر أهل المدينة صلاة، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا تسمعه فتهلكه» وقال «إن الله إنما أراد بهذه الأمة اليسر ولم يرد بهم العسر» ومعنى قوله (يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة) أى إنما أرخص لكم فى الإفطار للمرض والسفر ونحوهما من الأعذار لإرادته بكم اليسر وإنما أمركم بالقضاء لتكملوا عدة شهركم وقوله (ولتكبروا الله على ماهداكم) أى ولتذكروا الله عند انقضاء عبادتكم كما قال (فإذا قضيتم مناسككم فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) وقال (فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) وقال (فسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب * ومن الليل فسبحه وأدبار السجود) ولهذا جاءت السنة باستحباب التسبيح والتحميد والتكبير بعد الصلوات المكتوبات وقال ابن عباس: ما كنا نعرف انقضاء صلاة رسول الله صلى الله عليه وسلم

إلا بالتكبير ولهذا أخذ كثير من العلماء مشروعية التكبير فى عيد الفطر من هذه الآية (ولتكملوا العدة ولتكبروا الله على ماهداكم) حتى ذهب داود بن على الأصبهانى الظاهرى إلى وجوبه فى عيد الفطر لظاهر الأمر فى قوله (ولتكبروا الله على ماهداكم) وفى مقابلته مذهب أبى حنيفة رحمه الله انه لا يشرع التكبير فى عيد الفطر والباقون على استحبابه على اختلاف فى تفاصيل بعض الفروع بينهم وقوله (ولعلكم تشكرون) أى إذا قمتم بما أمركم الله من طاعته بأداء فرائضه وترك محارمه وحفظ حدوده فلعلكم ان تكونوا من الشاكرين بذلك ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾

قال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة أخبرنا جرير عن عبدة بن أبى برزة[1] السختيانى عن الصلت بن حكيم بن معاوية ابن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده ان اعرابيا قال يارسول الله صلى الله عليك وسلم أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه ؟ فسكت النبى ﷺ فأنزل الله (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى) إذا أمرهم ان يدعونى فدعونى استجبت ، ورواه ابن جرير عن محمد بن حميد الرازى عن جرير به ورواه ابن مردويه وأبو الشيخ الأصبهانى من حديث محمد بن أبى حميد عن جرير به وقال عبد الرزاق أخبرنا جعفر بن سليمان عن عوف عن الحسن قال سأل أصحاب رسول الله ﷺ أين ربنا ؟ فأنزل الله عز وجل (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى) الآية وقال ابن جريج عن عطاء انه بلغه لما نزلت (وقال ربكم ادعونى أستجب لكم) قال الناس لو نعلم أى ساعة ندعو ؟ فنزلت (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى) وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفى حدثنا خالد الحذاء عن أبى عثمان النهدى عن أبى موسى الأشعرى قال كنا مع رسول الله ﷺ فى غزوة فجعلنا لا نصعد شرفا ولا نعلو شرفا ولا نهبط واديا إلا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال فدنا منا فقال « يا أيها الناس اربعوا على أنفسكم فانكم لا تدعون أصم ولا غائبا إنما تدعون سميعا بصيرا إن الذين تدعون أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته ياعبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لا حول ولا قوة إلا بالله » أخرجاه فى الصحيحين وبقية الجماعة من حديث أبى عثمان النهدى واسمه عبد الرحمن بن على عنه بنحوه : وقال الإمام أحمد حدثنا سليمان بن داود حدثنا شعبة حدثنا قتادة عن أنس رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدى بى وأنا معه إذا دعانى » وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا على بن إسحق أنبأنا عبد الله أنبأنا عبد الرحمن بن يزيد بن جابر حدثنا إسماعيل بن عبيد الله عن كريمة بنت ابن خشخاش المزنية قالت حدثنا أبو هريرة أنه سمع رسول الله ﷺ يقول « قال الله تعالى أنا مع عبدى ماذكرنى وتحركت بى شفتاه » (قلت) وهذا كقوله تعالى (إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسنون) وقوله لموسى وهرون عليهما السلام (إننى معكما أسمع وأرى) والمراد من هذا انه تعالى لا يخيب دعاء داع ولا يشغله عنه شىء بل هو سميع الدعاء ففيه ترغيب فى الدعاء وأنه لا يضيع لديه تعالى كما قال الإمام أحمد حدثنا يزيد حدثنا رجل أنه سمع أبا عثمان هو النهدى يحدث عن سلمان يعنى الفارسى رضى الله عنه عن النبى ﷺ أنه قال « إن الله تعالى ليستحى أن يبسط العبد اليه يديه يسأله فيهما خيرا فيردهما خائبتين » — قال يزيد سموا لى هذا الرجل فقالوا : جعفر بن ميمون — وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث جعفر بن ميمون صاحب الانباط به : وقال الترمذى حسن غريب ورواه بعضهم ولم يرفعه قال الشيخ الحافظ أبو الحجاج المزى رحمه الله فى أطرافه : وتابعه أبو همام محمد بن أبى الزبرقان عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى به : وقال الإمام أحمد أيضا حدثنا أبو عامر حدثنا على بن أبى التوكل الناجى عن أبى سعيد أن النبى ﷺ قال « ما من مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى ثلاث خصال إما أن يعجل له دعوته ، وإما أن يدخرها له فى الأخرى ، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها » قالوا إذا نكثر قال « الله أكثر » وقال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنا إسحق بن منصور الكوسج أنبأنا محمد بن يوسف حدثنا ابن ثوبان عن أبيه عن مكحول عن جبير بن نفير أن عبادة بن الصامت حدثهم أن النبى ﷺ قال « ما على ظهر الأرض من رجل مسلم يدعو الله عز وجل بدعوة إلا آتاه الله إياها أو كف عنه من السوء مثلها مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم » ورواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن محمد بن يوسف الفريابى عن ابن ثوبان وهو عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان به وقال حسن صحيح غريب من هذا الوجه ، وقال الإمام مالك عن ابن شهاب عن أبى عبيد مولى ابن أزهر عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يستجاب لأحدكم مالم

(١) وفى النسخة الأميرية عن ابن أبى برزة وهو غلط

يعجل يقول دعوت فلم يستجب لى » أخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك به وهذا لفظ البخارى رحمه الله وأثابه الجنة وقال مسلم فى صحيحه حدثنى أبو الطاهر حدثنا ابن وهب أخبرنى معاوية بن صالح عن ربيعة عن يزيد عن أبى إدريس الخولانى عن أبى هريرة عن النبى ﷺ أنه قال « لا يزال يستجاب للعبد مالم يدع بإثم أو قطيعة رحم مالم يستعجل» قيل يا رسول الله وماالاستعجال قال «يقول قد دعوت وقد دعوت فلم أر يستجاب لى فيستحسر عند ذلك ويدع الدعاء » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا أبو هلال عن قتادة عن أنس أن رسول الله ﷺ قال «لا يزال العبد بخير مالم يستعجل» قالوا وكيف يستعجل قال « يقول قد دعوت ربى فلم يستجب لى » وقال الإمام أبو جعفر الطبرى فى تفسيره حدثنى يونس ابن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب حدثنى أبو صخر أن يزيد بن عبد الله بن قسيط حدثه عن عروة بن الزبير عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت مامن عبد مؤمن يدعو الله بدعوة فتذهب حتى تعجل له فى الدنيا أو تؤخر له فى الآخرة إذا لم يعجل أو يقنط قال عروة قلت يا أماه كيف عجلته وقنوطه ؟ قالت يقول سألت فلم أعط ودعوت فلم أجب . قال ابن قسيط وسمعت سعيد بن المسيب يقول كقول عائشة سواء وقال الإمام أحمد حدثنا حسن حدثنا ابن لهيعة حدثنا بكر بن عمرو عن أبى عبد الرحمن الجيلى عن عبد الله بن عمرو أن رسول الله ﷺ قال « القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض فإذا سألتم الله أيها الناس فأسألوه وأنتم موقنون بالإجابة فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل » وقال ابن مردويه حدثنا محمد بن إسحق ابن أيوب حدثنا إسحق بن إبراهيم بن أبى نافع بن معد يكرب ببغداد حدثنى ابن أبى نافع بن معد يكرب قال كنت أنا وعائشة سألت رسول الله ﷺ عن آية (أجيب دعوة الداعى إذا دعانى) قال « يارب مسئلة عائشة» فهبط جبريل فقال « الله يقرؤك السلام هذا عبدى الصالح بالنية الصادقة وقلبه نقى يقول يارب فأقول لبيك فأقضى حاجته » وهذا حديث غريب من هذا الوجه. وروى ابن مردويه من حديث الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس حدثنى جابر بن عبد الله أن النبى ﷺ قرأ (وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانى) الآية فقال رسول الله ﷺ « اللهم أمرت بالدعاء وتوكلت بالإجابة لبيك اللهم لبيك لبيك لاشريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لاشريك لك ، أشهد أنك فرد أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، وأشهد أن وعدك حق ولقاءك حق والجنة حق والنار حق والساعة آتية لاريب فيها وأنت تبعث من فى القبور » وقال الحافظ أبو بكر البزار وحدثنا الحسن بن يحيى الأزدى ومحمد بن يحيى القطعى قالا حدثنا الحجاج بن منهال حدثنا صالح المزى عن الحسن عن أنس عن النبى ﷺ قال «يقول الله تعالى يا ابن آدم واحدة لك وواحدة لى وواحدة فيما بينى وبينك فأما التى لى فتعبدنى لا تشرك بى شيئا وأما التى لك فما عملت من شىء أو من عمل وفيتكه وأما الذى بينى وبينك فمنك الدعاء وعلى الإجابة وفى ذكره تعالى هذه الآية الباعثة على الدعاء متخللة بين أحكام الصيام إرشاد إلى الاجتهاد فى الدعاء عند إكمال العدة بل وعند كل فطر كما رواه الإمام أبو داود الطيالسى فى مسنده حدثنا أبو محمد المليكى عن عمرو هو ابن شعيب بن محمد بن عبد الله بن عمرو عن أبيه عن جده عبد الله بن عمرو قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « للصائم عند إفطاره دعوة مستجابة فكان عبد الله بن عمرو إذا أفطر دعا أهله وولده ودعا، وقال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه فى سننه حدثنا هشام بن عمار أخبرنا الوليد بن مسلم عن إسحق بن عبد الله المدنى عن عبيد الله بن أبى مليكة عن عبد الله بن عمرو قال قال النبى ﷺ « إن للصائم عند فطره دعوة ماترد» قال عبيد الله بن أبى مليكة سمعت عبد الله بن عمرو يقول إذا أفطر اللهم إنى أسألك برحمتك التى وسعت كل شىء أن تغفر لى وفى مسند الإمام أحمد وسنن الترمذى والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ترد دعوتهم الإمام العادل والصائم حتى يفطر ودعوة المظلوم يرفعها الله دون الغمام يوم القيامة وتفتح لها أبواب السماء ويقول بعزتى لأنصرنك ولو بعد حين »

﴿ أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴾

هذه رخصة من الله تعالى للمسلمين ورفع لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام فإنه كان إذا أفطر أحدهم إنما يحل له الأكل والشرب والجماع إلى صلاة العشاء أو ينام قبل ذلك فمتى نام أو صلى العشاء حرم عليه الطعام والشراب والجماع إلى الليلة القابلة فوجدوا من ذلك مشقة كبيرة والرفث هنا هو الجماع قاله ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وطاوس وسالم بن عبد الله وعمرو بن دينار والحسن وقتادة والزهرى والضحاك وإبراهيم النخعى والسدى وعطاء الخراسانى ومقاتل بن حيان : وقوله (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان يعنى هن سكن لكم وأنتم سكن لهن ، وقال الربيع بن أنس هن لحاف لكم وأنتم لحاف لهن وحاصله أن الرجل والمرأة كل منهما يخالط الآخر ويماسه ويضاجعه فناسب أن يرخص لهم فى المجامعة فى ليل رمضان لئلا يشق ذلك عليهم ويحرجوا قال الشاعر : إذا ما الضجيع ثنى جيدها * تداعت فكانت عليه لباسا

وكان السبب فى نزول هذه الآية كما تقدم فى حديث معاذ الطويل وقال أبو إسحق عن البراء بن عازب قال : كان أصحاب النبى ﷺ إذا كان الرجل صائما فنام قبل أن يفطر لم يأكل إلى مثلها وان قيس بن صرمة الأنصارى كان صائما(١) وكان يومه ذلك يعمل فى أرضه فلما حضر الافطار أتى امرأته فقال : هل عندك طعام ؟ قالت لا ولكن أنطلق فأطلب لك فغلبته عينه فنام وجاءت امرأته فلما رأته نائما قالت : خيبة لك أنمت ؟ فلما انتصف النهار غشى عليه فذكر ذلك للنبى ﷺ فنزلت هذه الآية (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ـ إلى قوله ـ وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر) ففرحوا بها فرحاً شديداً ولفظ البخارى ههنا من طريق أبى إسحق سمعت البراء قال : لما نزل صوم رمضان كانوا لا يقربون النساء رمضان كله وكان رجال يخونون أنفسهم فأنزل الله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كان المسلمون فى شهر رمضان إذا صلو العشاء حرم عليهم النساء والطعام إلى مثلها من القابلة ثم إن أناسا من المسلمين أصابوا من النساء والطعام فى شهر رمضان بعد العشاء منهم عمر بن الخطاب فشكوا ذلك إلى رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن) الآية وكذا روى العوفى عن ابن عباس وقال موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس قال : إن الناس كانوا قبل أن ينزل فى الصوم ما نزل فيهم يأكلون ويشربون ويحل لهم شأن النساء فإذا نام أحدهم لم يطعم ولم يشرب ولا يأتى أهله حتى يفطر من القابلة فبلغنا أن عمر بن الخطاب بعدما نام ووجب عليه الصوم وقع على أهله ثم جاء إلى النبى ﷺ فقال أشكو إلى الله وإليك الذى صنعت قال « وما صنعت » ؟ قال إنى سولت لى نفسى فوقعت على أهلى بعد ما نمت وأنا أريد الصوم فزعموا أن النبى ﷺ قال: «ما كنت خليقاً أن تفعل» فنزل الكتاب (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وقال سعيد بن أبى عروبة عن قيس بن سعد عن عطاء بن أبى رباح عن أبى هريرة فى قول الله تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم ـ إلى قوله ـ ثم أتموا الصيام إلى الليل) قال كان المسلمون قبل أن تنزل هذه الآية إذا صلوا العشاء الآخرة حرم عليهم الطعام والشراب والنساء حتى يفطروا وان عمر بن الخطاب أصاب أهله بعد صلاة العشاء وان صرمة بن قيس الأنصارى غلبته عيناه بعد صلاة المغرب فنام ولم يشبع من الطعام ولم يستيقظ حتى صلى رسول الله ﷺ العشاء فقام فأكل وشرب فلما أصبح أتى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك فأنزل الله عند ذلك (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) يعنى بالرفث مجامعة النساء (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم) يعنى تجامعون النساء وتأكلون وتشربون بعد العشاء (فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن) يعنى جامعوهن (وابتغوا ما كتب الله لكم) يعنى الولد (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) فكان ذلك عفوا من الله ورحمة وقال هشام عن حصين بن عبد الرحمن عن عبد الرحمن بن أبى ليلى قال قام عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال يارسول الله إنى أردت أهلى البارحة على ما يريد الرجل أهله فقالت إنها قد نامت فظننتها تعتل فواقعتها فنزل فى عمر (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وهكذا رواه شعبة عن عمرو بن مرة عن ابن أبى ليلى به

(١) اختلف فى اسمه لاختلاف الروايات فقيل صرمة بن قيس أو ابن أنس وقيل ضمرة بن أنس وذكر هذا فى حاشية نسخة الازهر فراجع هذه الاسماء فى الاصابة .

وقال أبو جعفر بن جرير حدثنى المثنى حدثنا سويد أخبرنا ابن المبارك عن أبى لهيعة حدثنى موسى بن جبير مولى بنى سلمة أنه سمع عبد الله بن كعب بن مالك يحدث عن أبيه قال : كان الناس فى رمضان إذا صام الرجل فأمسى فنام حرم عليه الطعام والشراب والنساء حتى يفطر من الغد فرجع عمر بن الخطاب من عند النبى صلى الله عليه وسلم ذات ليلة وقد سمر عنده فوجد امرأته قد نامت فأرادها فقالت إنى قد نمت فقال ما نمت ثم وقع بها وصنع كعب بن مالك مثل ذلك فغدا عمر بن الخطاب إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فأنزل الله (علم الله أنكم كنتم تختانون أنفسكم فتاب عليكم وعفا عنكم فالآن باشروهن) الآية وهكذا روى عن مجاهد وعطاء وعكرمة وقتادة وغيرهم فى سبب نزول هذه الآية فى عمر بن الخطاب ومن صنع كما صنع وفى صرمة بن قيس فأباح الجماع والطعام والشراب فى جميع الليل رحمة ورخصة ورفقا وقوله (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال أبو هريرة وابن عباس وأنس وشريح القاضى ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والربيع بن أنس والسدى وزيد بن أسلم والحكم بن عتبة ومقاتل بن حيان والحسن البصرى والضحاك وقتادة وغيرهم يعنى الولد وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : (وابتغوا ما كتب الله لكم) يعنى الجماع وقال عمرو بن مالك البكرى عن أبى الجوزاء عن ابن عباس (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال ليلة القدر رواه ابن أبى حاتم وابن جرير . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر قال : قال قتادة ابتغوا الرخصة التى كتب الله لكم يقول ما أحل الله لكم : وقال عبد الرزاق أيضا أخبرنا ابن عيينة عن عمرو ابن دينار عن عطاء بن أبى رباح قال قلت لابن عباس كيف تقرأ هذه الآية (وابتغوا ما كتب الله لكم) قال أيتهما شئت عليك بالقراءة الأولى واختار ابن جرير أن الآية أعم من هذا كله .

قوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) أباح تعالى الأكل والشرب مع ما تقدم من إباحة الجماع فى أى الليل شاء الصائم إلى أن يتبين ضياء الصباح من سواد الليل وعبر عن ذلك بالخيط الأبيض من الخيط الأسود ورفع اللبس بقوله (من الفجر) كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أبو عبد الله البخارى حدثنى ابن أبى مريم حدثنا أبو غسان محمد بن مطرف حدثنا أبو حازم عن سهل بن سعد قال أنزلت (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) ولم ينزل (من الفجر) وكان رجال إذا أرادوا الصوم ربط أحدهم فى رجليه الخيط الأبيض والخيط الأسود فلا يزال يأكل حتى يتبين له رؤيتهما فأنزل الله بعد (من الفجر) فعلموا أنما يعنى الليل والنهار . وقال الإمام أحمد حدثنا هشام أخبرنا حصين عن الشعبى أخبرنى عدى بن حاتم قال لما نزلت هذه الآية (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود) عمدت إلى عقالين أحدهما أسود والآخر أبيض قال فجعلتهما تحت وسادتى ، قال فجعلت أنظر اليهما فلا تبين لى الأبيض من الأسود أمسكت فلما أصبحت غدوت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته بالذى صنعت فقال « إن وسادك إذاً لعريض إنما ذلك بياض النهار من سواد الليل » أخرجاه فى الصحيحين من غير وجه عن عدى . ومعنى قوله إن وسادك إذا لعريض أى إن كان ليسع الخيطين الخيط الأسود والأبيض المرادين من هذه الآية تحتها فانهما بياض النهار وسواد الليل فيقتضى أن يكون بعرض المشرق والمغرب وهكذا وقع فى رواية البخارى مفسرا بهذا حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا أبو عوانة عن حصين عن الشعبى عن عدى قال أخذ عدى عقالا أبيض وعقالا أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستبينا فلما أصبح قال يا رسول الله جعلت تحت وسادتى قال « إن وسادك إذا لعريض إن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك » وجاء فى بعض الألفاظ « إنك لعريض القفا » ففسره بعضهم بالبلادة وهو ضعيف بل يرجع إلى هذا لأنه إذا كان وساده عريضا فقفاه أيضا عريض والله أعلم : ويفسره رواية البخارى أيضا حدثنا قتيبة حدثنا جرير عن مطرف عن الشعبى عن عدى بن حاتم قال : قلت يا رسول الله ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود أهما الخيطان ؟ قال « إنك لعريض القفا إن أبصرت الخيطين ثم قال لا بل هو سواد الليل وبياض النهار » .

وفى إباحته تعالى جواز الأكل إلى طلوع الفجر دليل على استحباب السحور لأنه من باب الرخصة والأخذ بها محبوب ولهذا وردت السنة الثابتة عن رسول الله ﷺ بالحث على السحور ففى الصحيحين عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ « تسحروا فإن فى السحور بركة » وفى صحيح مسلم عن عمرو بن العاص رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إن فصل ما بين صيامنا وصيام أهل الكتاب أكلة السحور » وقال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى هو ابن الطباع حدثنا عبد الرحمن بن زيد عن أبيه عن عطاء بن يسار عن أبى سعيد قال : قال رسول الله ﷺ « السحور أكلة بركة فلا تدعوه ولو أن أحدكم تجرع

جرعة ماء فإن الله وملائكته يصلون على المتسحرين » ، وقد ورد فى الترغيب فى السحور أحاديث كثيرة حتى ولو بجرعة من ماء تشبها بالآكلين ويستحب تأخيره إلى وقت انفجار الفجر كما جاء فى الصحيحين عن أنس بن مالك عن زيد بن ثابت ، قال تسحرنا مع رسول الله ﷺ ثم قمنا إلى الصلاة قال أنس قلت لزيد كم كان بين الأذان والسحور ؟ قال قدر خمسين آية . وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا ابن لهيعة عن سالم بن غيلان عن سليمان بن أبى عثمان عن عدى بن حاتم الحمصى عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « لا تزال أمتى بخير ما عجلوا الافطار وأخروا السحور » وقد ورد أحاديث كثيرة أن رسول الله ﷺ سماه الغداء المبارك وفى الحديث الذى رواه الإمام أحمد والنسائى وابن ماجه من رواية حماد بن سلمة عن عاصم بن بهدلة عن زيد ابن حبيش عن حذيفة قال تسحرنا مع رسول الله ﷺ وكان النهار إلا أن الشمس لم تطلع وهو حديث تفرد به عاصم بن أبى النجود قاله النسائى وحمله على أن المراد قرب النهار كما قال تعالى (فإذا بلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو فارقوهن بمعروف) أى قاربن انقضاء العدة فإما إمساك بمعروف أو ترك للفراق وهذا الذى قاله هو المتعين حمل الحديث عليه أنهم تسحروا ولم يتيقنوا طلوع الفجر حتى ان بعضهم ظن طلوعه وبعضهم لم يتحقق ذلك وقد روى عن طائفة كثيرة من السلف أنهم تساهلوا فى السحور عند مقاربة الفجر روى مثل هذا عن أبى بكر وعمر وعلى وابن مسعود وحذيفة وأبى هريرة وابن عمر وابن عباس وزيد بن ثابت وعن طائفة كثيرة من التابعين منهم محمد بن على بن الحسين وأبو مجلز وإبراهيم النخعى وأبو الضحى وأبو وائل وغيره من أصحاب ابن مسعود وعطاء والحسن والحاكم بن عيينة ومجاهد وعروة بن الزبير وأبو الشعثاء جابر بن زيد واليه ذهب الأعمش وجابر بن راشد وقد حررنا أسانيد ذلك فى كتاب الصيام المفرد ولله الحمد وحكى أبو جعفر بن جرير فى تفسيره عن بعضهم أنه إنما يجب الإمساك من طلوع الشمس كما يجوز الافطار بغروبها (قلت) وهذا القول ما أظن أحدا من أهل العلم يستقر له قدم عليه لمخالفته نص القرآن فى قوله (وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر ثم أتموا الصيام إلى الليل) وقد ورد فى الصحيحين من حديث القاسم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال « لا يمنعكم أذان بلال عن سحوركم فانه ينادى بليل فكلوا واشربوا حتى تسمعوا أذان ابن أم مكتوم فانه لا يؤذن حتى يطلع الفجر » لفظ البخارى وقال الإمام أحمد حدثنا موسى بن داود حدثنا محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه أن رسول الله ﷺ قال : « ليس الفجر المستطيل فى الأفق ولكن المعترض الأحمر » ورواه الترمذى ولفظهما « كلوا واشربوا ولا يهيدنكم الساطع المصعد فكلوا واشربوا حتى يعترض لكم الأحمر » وقال ابن جرير حدثنا محمد بن المثنى حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا شعبة عن شيخ من بنى قشير سمعت سمرة بن جندب يقول : قال رسول الله ﷺ « لا يغرنكم نداء بلال وهذا البياض حتى ينفجر الفجر أو يطلع الفجر » ثم رواه من حديث شعبة وغيره عن سواد بن حنظلة عن سمرة قال : قال رسول الله ﷺ . « لا يمنعكم من سحوركم أذان بلال ولا الفجر المستطيل ولكنه الفجر المستطير فى الأفق » قال وحدثنى يعقوب بن إبراهيم بن علية عن عبد الله بن سودة القشيرى عن أبيه عن سمرة بن جندب قال : قال رسول الله ﷺ « لا يغرنكم أذان بلال ولا هذا البياض لعمود الصبح حتى يستطير » رواه مسلم فى صحيحه عن زهير بن حرب عن إسماعيل ابن إبراهيم هو ابن علية مثله سواء وقال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا ابن المبارك عن سليمان التيمى عن أبى عثمان النهدى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « لا يمنعن أحدكم أذان بلال عن سحوره أو قال نداء بلال فان بلالا يؤذن بليل أو قال ينادى لينبه نائمكم وليرجع قائمكم وليس الفجر أن يقول هكذا وهكذا حتى يقول هكذا » ورواه من وجه آخر عن التيمى به وحدثنى الحسن بن الزبرقان النخعى حدثنى أبو أسامة عن محمد بن أبى ذئب عن الحارث بن عبد الرحمن عن محمد بن عبد الرحمن ابن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « الفجر فجران فالذى كأنه ذنب السرحان لا يحرم شيئا وإنما هو المستطير الذى يأخذ الأفق فانه يحل الصلاة ويحرم الطعام » وهذا مرسل جيد وقال عبد الرزاق أخبرنا ابن جريج عن عطاء سمعت ابن عباس يقول : هما فجران فأما الذى يسطع فى السماء فليس يحل ولا يحرم شيئا ولكن الفجر الذى يستنير على رءوس الجبال هو الذى يحرم الشراب وقال عطاء فأما إذا سطع سطوعا فى السماء وسطوعه أن يذهب فى السماء طولا فانه لا يحرم به شراب للصائم ولا صلاة ولا يفوت به الحج ولكن إذا انتشر على رءوس الجبال حرم الشراب للصيام وفات الحج وهذا إسناد صحيح إلى ابن عباس وعطاء وهكذا روى عن غير واحد من السلف رحمهم الله (مسألة) ومن جعله تعالى الفجر غاية لإباحة الجماع والطعام والشراب لمن أراد الصيام يستدل على أنه من أصبح جنبا فليغتسل وليتم صومه ولا حرج عليه وهذا مذهب الأئمة

الأربعة وجمهور العلماء سلفا وخلفا لما رواه البخارى ومسلم من حديث عائشة وأم سلمة رضى الله عنهما أنهما قالتا كان رسول الله ﷺ يصبح جنبا من جماع غير احتلام ثم يغتسل ويصوم وفى حديث أم سلمة عندها ثم لا يفطر ولا يقضى وفى صحيح مسلم عن عائشة أن رجلا قال يارسول الله تدركنى الصلاة وأنا جنب فأصوم ؟ فقال رسول الله ﷺ « وأنا تدركنى الصلاة وأنا جنب فأصوم » فقال لست مثلنا يا رسول الله قد غفر الله لك ماتقدم من ذنبك وما تأخر فقال « والله إنى لأرجو أن أكون أخشاكم لله وأعلمكم بما أتقى » فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق عن معمر عن همام عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال « إذا نوى للصلاة صلاة الصبح وأحدكم جنب فلا يصم يومئذ » فإنه حديث جيد الإسناد على شرط الشيخين كما ترى وهو فى الصحيحين عن أبى هريرة عن الفضل بن عباس عن النبى ﷺ وفى سنن النسائى عنه عن أسامة بن زيد والفضل بن عباس ولم يرفعه فمن العلماء من علل هذا الحديث بهذا ومنهم من ذهب إليه ويحكى هذا عن أبى هريرة وسالم وعطاء وهشام بن عروة والحسن البصرى ومنهم من ذهب إلى التفرقة بين أن يصبح جنبا نائما فلا عليه لحديث عائشة وأم سلمة أو مختارا فلا صوم له لحديث أبى هريرة يحكى هذا عن عروة وطاوس والحسن ، ومنهم من فرق بين الفرض فيتم فيقضيه وأما النفل فلا يضره رواه الثورى عن منصور عن إبراهيم النخعى وهو رواية عن الحسن البصرى أيضاً ومنهم من ادعى نسخ حديث أبى هريرة بحديثى عائشة وأم سلمة ولكن لا تاريخ معه وادعى ابن حزم أنه منسوخ بهذه الآية وهو بعيد أيضا إذ لا تاريخ بل الظاهر من التاريخ خلافه ومنهم من حمل حديث أبى هريرة على نفى الكمال فلا صوم له لحديث عائشة وأم سلمة الدالين على الجواز وهذا المسلك أقرب الأقوال وأجمعها والله أعلم (ثم أتموا الصيام إلى الليل) يقتضى الافطار عند غروب الشمس حكما شرعيا كما جاء فى الصحيحين عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « إذا أقبل الليل من ههنا وأدبر النهار من ههنا فقد أفطر الصائم » وعن سهل بن سعد الساعدى رضى الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ « لا يزال الناس بخير ماعجلوا الفطر » أخرجاه وقال الإمام أحمد : حدثنا الوليد بن مسلم حدثنا الأوزاعى حدثنا قرة بن عبد الرحمن عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة عن النبى ﷺ « يقول الله عز وجل إن أحب عبادى إلى أعجلهم فطرا » ورواه الترمذى من غير وجه عن الأوزاعى به وقال هذا حديث حسن غريب وقال أحمد أيضا حدثنا عفان حدثنا عبيد الله بن إياد سمعت إياد بن لقيط سمعت ليلى امرأة بشير بن الخصاصية قالت أردت أن أصوم يومين مواصلة فمنعنى بشير وقال إن رسول الله ﷺ نهى عنه وقال « يفعل ذلك النصارى ولكن صوموا كما أمركم الله (ثم أتموا الصيام إلى الليل فإذا كان الليل فأفطروا) » ولهذا ورد فى الأحاديث الصحيحة النهى عن الوصال وهو أن يصل يوما بيوم آخر ولا يأكل بينهما شيئا قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن الزهرى عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « لا تواصلوا » قالوا يا رسول الله إنك تواصل قال « فإنى لست مثلكم إنى أبيت يطعمنى ربى ويسقينى » قال فلم ينتهوا عن الوصال فواصل بهم النبى ﷺ يومين وليلتين ثم رأوا الهلال فقال « لو تأخر الهلال لزدتكم » كالمنكل لهم وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى به وكذلك أخرجا النهى عن الوصال من حديث أنس وابن عمر ، وعن عائشة رضى الله عنها قالت : نهى رسول الله ﷺ عن الوصال رحمة لهم فقالوا إنك تواصل قال « إنى لست كهيئتكم إنى يطعمنى ربى ويسقينى » فقد ثبت النهى عنه من غير وجه وثبت أنه من خصائص النبى ﷺ وأنه كان يقوى على ذلك ويعان والأظهر أن ذلك الطعام والشراب فى حقه إنما كان معنويا لا حسيا وإلا فلا يكون مواصلا مع الحسى ولكن كما قال الشاعر :

لها أحاديث من ذكراك تشغلها * عن الشراب وتلهيها عن الزاد

وأما من أحب أن يمسك بعد غروب الشمس إلى وقت السحر فله ذلك كما فى حديث أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « لا تواصلوا فأيكم أراد أن يواصل فليواصل إلى السحر » قالوا فإنك تواصل يارسول الله قال « إنى لست كهيئتكم إنى أبيت لى مطعم يطعمنى وساق يسقينى » أخرجاه فى الصحيحين أيضاً وقال ابن جرير ، حدثنا أبو كريب حدثنا أبو نعيم حدثنا أبو إسرائيل العنسى عن أبى بكر بن حفص عن أم ولد حاطب بن أبى بلتعة أنها مرت برسول الله ﷺ وهو يتسحر فدعاها إلى الطعام فقالت إنى صائمة قال وكيف تصومين فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال أين أنت من وصال آل محمد من السحر إلى السحر » وقال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا إسرائيل عن عبد الأعلى عن محمد بن على عن على أن النبى ﷺ

كان يواصل من السحر إلى السحر وقد روى ابن جرير عن عبد الله بن الزبير وغيره من السلف أنهم كانوا يواصلون الأيام المتعددة وحمله منهم على أنهم كانو يفعلون ذلك رياضة لأنفسهم لا أنهم كانوا يفعلونه عبادة والله أعلم. ويحتمل أنهم كانوا يفهمون من النهى أنه إرشاد من باب الشفقة كما جاء فى حديث عائشة رحمة لهم فكان ابن الزبير وابنه عامر ومن سلك سبيلهم يتجشمون ذلك ويفعلونه لأنهم كانوا يجدون قوة عليه وقد ذكر عنهم أنهم كانوا أول مايفطرون على السمن والصبر لئلا تتخرق الأمعاء بالطعام أولا . وقد روى عن ابن الزبير أنه كان يواصل سبعة أيام ويصبح فى اليوم السابع أقوامهم وأجلدهم ، وقال أبو العالية إنما فرض الله الصيام بالنهار فإذا جاء بالليل فمن شاء أكل ومن شاء لم يأكل . وقوله تعالى (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس هذا فى الرجل يعتكف فى المسجد فى رمضان أو فى غير رمضان فحرم الله عليه أن ينكح النساء ليلا أو نهارا حتى يقضى اعتكافه وقال الضحاك كان الرجل إذا اعتكف فخرج من المسجد جامع إن شاء فقال الله تعالى (ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد) أى لا تقربوهن مادمتم عاكفين فى المسجد ولا فى غيره . وكذا قال مجاهد وقتادة وغير واحد أنهم كانوا يفعلون ذلك حتى نزلت هذه الآية قال ابن أبى حاتم روى عن ابن مسعود ومحمد بن كعب ومجاهد وعطاء والحسن وقتادة والضحاك والسدى والربيع بن أنس ومقاتل : قالوا لا يقربها وهو معتكف وهذا الذى حكاه عن هؤلاء هو الأمر المتفق عليه عند العلماء أن المعتكف يحرم عليه النساء مادام معتكفا فى مسجده ولو ذهب إلى منزله لحاجة لا بد له منها فلا يحل له أن يثبت فيه إلا بمقدار ما يفرغ من حاجته تلك من قضاء الغائط أو الأكل وليس له أن يقبل امرأته ولا أن يضمها إليه ولا يشتغل بشىء سوى اعتكافه ولا يعود المريض لكن يسأل عنه وهو مار فى طريقه وللاعتكاف أحكام مفصلة فى بابها منها ماهو مجمع عليه بين العلماء ومنها ماهو مختلف فيه . وقد ذكرنا قطعة صالحة من ذلك فى آخر كتاب الصيام ولله الحمد والمنة ولهذا كان الفقهاء المصنفون يتبعون كتاب الصيام بكتاب الاعتكاف اقتداء بالقرآن العظيم فانه نبه على ذكر الاعتكاف بعد ذكر الصوم . وفى ذكره تعالى الاعتكاف بعد الصيام إرشاد وتنبيه على الاعتكاف فى الصيام أو فى آخر شهر الصيام كما ثبتت فى السنة عن رسول الله ﷺ أنه كان يعتكف العشر الأواخر من شهر رمضان حتى توفاه الله عز وجل ثم اعتكف أزواجه من بعده أخرجاه من حديث عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها وفى الصحيحين أن صفية بنت حيى كانت تزور النبى ﷺ وهو معتكف فى المسجد فتحدثت عنده ساعة ثم قامت لترجع إلى منزلها وكان ذلك ليلا فقام النبى ﷺ ليمشى معها حتى تبلغ دارها وكان منزلها فى دار أسامة بن زيد فى جانب المدينة فلما كان ببعض الطريق لقيه رجلان من الأنصار فلما رأيا النبى ﷺ أسرعا وفى رواية تواريا أى حياء من النبى ﷺ لكون أهله معه فقال لهما ﷺ «على رسلكما إنها صفية بنت حيى » أى لا تسرعا واعلما أنها صفية بنت حيى أى زوجتى فقالا سبحان الله يارسول الله فقال ﷺ « إن الشيطان يجرى من ابن آدم مجرى الدم وإنى خشيت أن يقذف فى قلوبكما شيئاً أو قال شرا» قال الشافعى رحمه الله أراد عليه السلام أن يعلم أمته التبرى من التهمة فى محلها لئلا يقعا فى محذور وهما كانا أتقى لله من أن يظنا بالنبى ﷺ شيئا والله أعلم ثم المراد بالمباشرة إنما هو الجماع ودواعيه من تقبيل ومعانقة ونحو ذلك فأما معاطاة الشىء ونحوه فلا بأس به فقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدنى إلى رأسه فأرجله وأنا حائض وكان لا يدخل البيت إلا لحاجة الإنسان قالت عائشة ولقد كان المريض يكون فى البيت فما أسأل عنه إلا وأنا مارة وقوله (تلك حدود الله) أى هذا الذى بيناه وفرضناه وحددناه من الصيام وأحكامه وما أبحنا فيه وما حرمنا وذكرنا غاياته ورخصه وعزائمه حدود الله أى شرعها الله وبينها بنفسه فلا تقربوها أى لا تجاوزوها وتتعدوها وكان الضحاك ومقاتل يقولان فى قوله (تلك حدود الله) أى المباشرة فى الاعتكاف، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يعنى هذه الحدود الأربعة ويقرأ (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم - حتى بلغ - ثم أتموا الصيام إلى الليل) قال وكان أبى وغيره من مشيختنا يقولون هذا ويتلونه علينا (كذلك يبين الله آياته للناس) أى كما بين الصيام وأحكامه وشرائعه وتفاصيله كذلك يبين سائر الأحكام على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ (للناس لعلهم يتقون) أى يعرفون كيف يهتدون وكيف يطيعون كما قال تعالى (هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور وإن الله بكم لرؤف رحيم)

﴿ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ وَتُدْلُوا بِهَا إِلَى الْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَالِ النَّاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾

قال على ابن أبى طلحة وعن ابن عباس هذا فى الرجل يكون عليه مال وليس عليه فيه بينة فيجحد المال ويخاصم إلى الحكام وهو يعرف أن الحق عليه وهو يعلم أنه آثم آكل الحرام وكذا روى عن مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم أنهم قالوا : لا تخاصم وأنت تعلم أنك ظالم وقد ورد فى الصحيحين عن أم سلمة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ؟ « ألا إنما أنا بشر وإنما يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض فأقضى له فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من نار فليحملها أو ليذرها » فدلت هذه الآية الكريمة وهذا الحديث على أن حكم الحاكم لا يغير الشىء فى نفس الأمر فلا يحل فى نفس الأمر حراما هو حرام ولا يحرم حلالا هو حلال[1] وإنما هو ملزم فى الظاهر فان طابق فى نفس الأمر فذاك وإلا فللحاكم أجره وعلى المحتال وزره ولهذا قال تعالى (ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون) أى تعلمون بطلان ما تدعونه وتروجونه فى كلامكم قال قتادة : اعلم يا ابن آدم أن قضاء القاضى لا يحل لك حراما ولا يحق لك باطلا وإنما يقضى القاضى بنحو ما يرى وتشهد به الشهود والقاضى بشر يخطىء ويصيب واعلموا أن من قضى له بباطل أن خصومته لم تنقص حتى يجمع الله بينهما يوم القيامة فيقضى على المبطل للمحق بأجود مما قضى به للمبطل على المحق فى الدنيا

﴿ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾

قال العوفى عن ابن عباس سأل الناس رسول الله ﷺ عن الأهلة فنزلت هذه الآية (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس) يعلمون بها حل دينهم وعدة نسائهم ووقت حجهم وقال أبو جعفر عن الربيع عن أبى العالية بلغنا أنهم قالوا يا رسول الله لم خلقت الأهلة ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس) يقول جعلها الله مواقيت لصوم المسلمين وإفطارهم وعدة نسائهم ومحل دينهم وكذا روى عن عطاء والضحاك وقتادة والسدى والربيع بن أنس نحو ذلك وقال عبد الرزاق عن عبد العزيز بن أبى رواد عن نافع عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « جعل الله الأهلة مواقيت للناس فصوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته فان غم عليكم فعدوا ثلاثين يوما » ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث ابن أبى رواد به وقال كان ثقة عابدا مجتهدا شريف النسب فهو صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقال محمد بن جابر عن قيس بن طلق عن أبيه قال : قال رسول ﷺ : « جعل الله الأهلة فإذا رأيتم الهلال فصوموا وإذا رأيتموه فأفطروا فان أغمى عليكم فأكملوا العدة ثلاثين » وكذا روى من حديث أبى هريرة ومن كلام على بن أبى طالب رضى الله عنه

وقوله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) قال البخارى : حدثنا عبيد الله بن موسى عن إسرائيل عن أبى إسحق عن البراء قال : كانوا إذا أحرموا فى الجاهلية أتوا البيت من ظهره فأنزل الله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من أتقى وأتوا البيوت من أبوابها) وكذا رواه أبو داود الطيالسى عن شعبة عن أبى إسحق عن البراء قال . كانت الأنصار إذا قدموا من سفرهم لم يدخل الرجل من قبل بابه فنزلت هذه الآية وقال الأعمش . عن أبى سفيان عن جابر كانت قريش تدعى الحمس وكانوا يدخلون من الأبواب فى الاحرام وكانت الأنصار وسائر العرب لا يدخلون من باب فى الاحرام فبينا رسول الله ﷺ فى بستان إذ خرج من بابه وخرج معه قطبة بن عامر من الأنصار فقالوا يا رسول الله . إن قطبة بن عامر رجل تاجر وإنه خرج معك من الباب فقال له . ما حملك على ما صنعت ؟ قال . رأيتك فعلته ففعلت كما فعلت فقال . إنى أحمس قال له . فان

(١) هذه عبارة نسخة الأزهر ، وفى النسخة الأميرية فلا يحل فى نفس الأمر حراماً هو حلال ولا يحرم باطلا هو حلال اهـ وهو خطأ ظاهر .

دينى دينك فأنزل الله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها) رواه ابن أبى حاتم ورواه العوفى عن ابن عباس بنحوه وكذا روى عن مجاهد والزهرى وقتادة وإبراهيم النخعى والسدى والربيع بن أنس وقال الحسن البصرى : كان أقوام من أهل الجاهلية إذا أراد أحدهم سفراً وخرج من بيته يريد سفره الذى خرج له ثم بدا له بعد خروجه أن يقيم ويدع سفره لم يدخل البيت من بابه ولكن يتسوره من قبل ظهره فقال الله تعالى : (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) الآية : وقال محمد بن كعب : كان الرجل إذا اعتكف لم يدخل منزله من باب البيت فأنزل الله هذه الآية وقال عطاء بن أبى رباح : كان أهل يثرب إذا رجعوا من عيدهم دخلوا منازلهم من ظهورها ويرون أن ذلك أدنى إلى البر فقال الله (وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها) ولا يرون أن ذلك أدنى إلى البر وقوله (واتقوا الله لعلكم تفلحون) أى اتقوا الله فافعلوا ما أمركم به واتركوا مانهاكم عنه (لعلكم تفلحون) غدا إذا وقفتم بين يديه فيجازيكم على التمام والكمال

﴿ وَقَٰتِلُوا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ * وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ * فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾

قال أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية فى قوله تعالى (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم) قال هذه أول آية نزلت فى القتال بالمدينة فلما نزلت كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقاتل من قاتله ويكف عمن كف عنه حتى نزلت سورة براءة وكذا قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم حتى قال هذه منسوخة بقوله (فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم) وفى هذا نظر لأن قوله (الذين يقاتلونكم) إنما هو تهييج وإغراء بالأعداء الذين همتهم قتال الإسلام وأهله أى كما يقاتلونكم فاقتلوهم أنتم كما قال (وقاتلوا المشركين كافة كما يقاتلونكم كافة) ولهذا قال فى هذه الآية (واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم) أى لتكون همتكم منبعثة على قتالهم كما همتهم منبعثة على قتالكم وعلى اخراجهم من بلادهم التى أخرجوكم منها قصاصا

وقوله (ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) أى قاتلوا فى سبيل الله ولا تعتدوا فى ذلك ويدحل فى ذلك ارتكاب المناهى كما قاله الحسن البصرى من المثلة والغلول وقتل النساء والصبيان والشيوخ الذين لا رأى لهم ولا قتال فيهم والرهبان وأصحاب الصوامع وتحريق الأشجار وقتل الحيوان لغير مصلحة كما قال ذلك ابن عباس وعمر بن عبد العزيز ومقاتل بن حيان وغيرهم ولهذا جاء فى صحيح مسلم عن بريدة أن رسول الله ﷺ كان يقول : « اغزوا فى سبيل الله قاتلوا من كفر بالله اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الوليد ولا أصحاب الصوامع » رواه الإمام أحمد وعن ابن عباس قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا بعث جيوشه قال اخرجوا باسم الله قاتلوا فى سبيل الله من كفر بالله لا تعتدوا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع » رواه الإمام أحمد ولأبى داود عن أنس مرفوعا نحوه وفى الصحيحين عن ابن عمر قال وجدت امرأة فى بعض مغازى النبى ﷺ مقتولة فأنكر رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل النساء والصبيان . وقال الإمام أحمد حدثنا مصعب بن سلام حدثنا الأجلح عن قيس بن أبى مسلم عن ربعى بن حراش قال سمعت حذيفة يقول ضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمثالا واحد وثلاثة وخمسة وسبعة وتسعة وأحد عشر فضرب لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم منها مثلا وترك سائرها قال « إن قوما كانوا أهل ضعف ومسكنة قاتلهم أهل تجبر وعداوة فأظهر الله أهل الضعف عليهم فعمدوا إلى عدوهم فاستعملوهم وسلطوهم فأسخطوا الله عليهم إلى يوم القيامة » هذا حديث حسن الإسناد ومعناه أن هؤلاء الضعفاء لما قدروا على الأقوياء فاعتدوا عليهم فاستعملوهم فيما لا يليق بهم أسخطوا الله عليهم بسبب هذا الإعتداء والأحاديث والآثار فى هذا

كثيرة جدا . ولما كان الجهاد فيه إزهاق النفوس وقتل الرجال نبه تعالى على أن ماهم مشتملون عليه من الكفر بالله والشرك به والصد عن سبيله أبلغ وأشد وأعظم وأطم من القتل ولهذا قال (والفتنة أشد من القتل) قال أبو مالك أى ما أنتم مقيمون عليه أكبر من القتل . وقال أبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك والربيع بن أنس فى قوله (والفتنة أشد من القتل) يقول الشرك أشد من القتل وقوله (ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام) كما جاء فى الصحيحين « إن هذا البلد حرمه الله يوم خلق السموات والأرض فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة ولم يحل إلا ساعة من نهار وإنها ساعتى هذه حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة لا يعضد شجره ولا يختلى خلاه فان أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ فقولوا إن الله أذن لرسوله ولم يأذن لكم » يعنى بذلك صلوات الله وسلامه عليه قتاله أهله يوم فتح مكة فانه فتحها عنوة وقتلت رجال منهم عند الخندمة وقيل صلحا لقوله « من أغلق بابه فهو آمن ومن دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن » وقوله (حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين) يقول تعالى ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام إلا أن يبدأوكم بالقتال فيه فلكم حينئذ قتالهم وقتلهم دفعا للصائل كما بايع النبى ﷺ أصحابه يوم الحديبية تحت الشجرة على القتال لما تألبت عليه بطون قريش ومن والاهم من أحياء ثقيف والأحابيش عام ئذ ثم كف الله القتال بينهم فقال (وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم) وقال (ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطئوهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم ليدخل الله فى رحمته من يشاء ، لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذابا أليما) وقوله (فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم) أى فان تركوا القتال فى الحرم وأنابوا إلى الاسلام والتوبة فان الله يغفر ذنوبهم ولو كانوا قد قتلوا المسلمين فى حرم الله فانه تعالى لا يتعاظمه ذنب أن يغفره لمن تاب منه اليه ثم أمر الله بقتال الكفار (حتى لا تكون فتنة) أى شرك قاله ابن عباس وأبو العالية ومجاهد والحسن وقتادة والربيع ومقاتل بن حيان والسدى وزيد بن أسلم (ويكون الدين لله) أى يكون دين الله هو الظاهر العالى على سائر الأديان كما ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء أى ذلك فى سبيل الله ؟ فقال « من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله » وفى الصحيحين « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فاذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله » .

وقوله (فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين) يقول تعالى فإن انتهوا عما هم فيه من الشرك وقتال المؤمنين فكفوا عنهم فإن من قاتلهم بعد ذلك فهو ظالم ولا عدوان إلا على الظالمين وهذا معنى قول مجاهد أن لا يقاتل إلا من قاتل أو يكون تقديره فان انتهوا فقد تخلصوا من الظلم وهو الشرك فلا عدوان عليهم بعد ذلك والمراد بالعدوان ههنا المعاقبة والمقاتلة كقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) وقوله (وجزاء سيئة سيئة مثلها) (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) ولهذا قال عكرمة وقتادة الظالم الذى أبى أن يقول لا إله إلا الله وقال البخارى قوله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) الآية حدثنا محمد بن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال أتاه رجلان فى فتنة ابن الزبير فقالا : إن الناس ضيعوا وأنت ابن عمر وصاحب النبى ﷺ فما يمنعك أن تخرج ؟ فقال يمنعنى أن الله حرم دم أخى قالا : ألم يقل الله (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) ؟ فقال : قاتلنا حتى لم تكن فتنة وكان الدين لله وأنتم تريدون أن تقاتلوا حتى تكون فتنة وحتى يكون الدين لغير الله ، وزاد عثمان بن صالح عن ابن وهب أخبرنى فلان وحيوة بن شريح عن بكر بن عمر المغافرى أن بكير بن عبد الله حدثه عن نافع أن رجلا أتى ابن عمر فقال : يا أبا عبد الرحمن ما حملك على أن تحج عاما وتقيم عاما وتترك الجهاد فى سبيل الله عز وجل وقد علمت ما رغب الله فيه ؟ فقال يا ابن أخى بنى الاسلام على خمس : الإيمان بالله ورسوله والصلاة الخمس وصيام رمضان وأداء الزكاة وحج البيت . قالوا يا أبا عبد الرحمن ألا تسمع ما ذكر الله فى كتابه (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله) (وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة) قال فعلنا على عهد رسوله صلى الله عليه وسلم

وكان الاسلام قليلا فكان الرجل يفتن فى دينه إما قتلوه أوعذبوه حتى كثر الاسلام فلم تكن فتنة ، قال فما قولك فى على وعثمان ؟ قال أما عثمان فكان الله عفا عنه وأما أنتم فكرهتم أن يعفو عنه ، وأما على فابن عم رسول الله ﷺ وختنه فأشار بيده فقال هذا بيته حيث ترون .

﴿ الشَّهْرُ الْحَرَامُ بِالشَّهْرِ الْحَرَامِ وَالْحُرُمَاتُ قِصَاصٌ فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾

قال عكرمة عن ابن عباس والضحاك والسدى وقتادة ومقسم والربيع بن أنس وعطاء وغيرهم لما سار رسول الله ﷺ معتمراً فى سنة ست من الهجرة وحبسه المشركون عن الدخول والوصول إلى البيت وصدوه بمن معه من المسلمين فى ذى القعدة وهو شهر حرام حتى قاضاهم على الدخول من قابل فدخلها فى السنة الآتية هو ومن كان من المسلمين وأقصه الله منهم فنزلت فى ذلك هذه الآية (الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص) وقال الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى حدثنا ليث بن سعد عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله قال لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يغزو فى الشهر الحرام إلا أن يغزى وتغزوا فاذا حضره أقام حتى ينسلخ . هذا إسناد صحيح . ولهذا لما بلغ النبى صلى الله عليه وسلم وهو محرم بالحديبية أن عثمان قتل وكان قد بعثه فى رسالة إلى المشركين بايع أصحابه وكانوا ألفا وأربعمائة تحت الشجرة على قتال المشركين فلما بلغه أن عثمان لم يقتل كف عن ذلك وجنح إلى المسالمة والمصالحة فكان ما كان . وكذلك لما فرغ من قتال هوازن يوم حنين وتحصن فلهم بالطائف عدل اليها فحاصرها ودخل ذوالقعدة وهو محاصرلها بالمنجنيق واستمر عليها إلى كمال أربعين يوماً كما ثبت فى الصحيحين عن أنس فلما كثر القتل فى أصحابه انصرف عنها ولم تفتح ثم كر راجعا إلى مكة واعتمر من الجعرانة حيث قسم غنائم حنين . وكانت عمرته هذه فى ذى القعدة أيضا عام ثمان صلوات الله وسلامه عليه : وقوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) أمر بالعدل حتى فى المشركين كما قال (وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به) وقال (وجزاء سيئة سيئة مثلها) وروى على بن أبى طلحة عن ابن عباس أن قوله (فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم) نزلت بمكة حيث لاشوكة ولا جهاد ثم نسخ بآية القتال بالمدينة وقد رد هذا القول ابن جرير وقال بل الآية مدنية بعد عمرة القضية وعزا ذلك إلى مجاهد رحمه الله وقوله (واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين) أمرلهم بطاعة الله وتقواه وإخبار بأنه تعالى مع الذين اتقوا بالنصر والتأييد فى الدنيا والآخرة .

﴿ وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾

قال البخارى حدثنا إسحق أخبرنا النضر أخبرنا شعبة عن سلمان سمعت أباوائل عن حذيفة (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال نزلت فى النفقة ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن محمد بن الصباح عن أبى معاوية عن الأعمش به مثله قال وروى عن ابن عباس ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وعطاء والضحاك والحسن وقتادة والسدى ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال الليث بن سعد عن يزيد بن أبى حبيب عن أسلم أبى عمران قال حمل رجل من المهاجرين بالقسطنطينية على صف العدو حتى خرقه ومعنا أبو أيوب الأنصارى فقال ناس ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب نحن أعلم بهذه الآية إنما نزلت فينا : صحبنا رسول الله ﷺ وشهدنا معه المشاهد ونصرناه فلما فشا الاسلام وظهر اجتمعنا معشر الأنصار تحبباً فقلنا قد أكرمنا الله بصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم ونصره حتى فشا الاسلام وكثر أهله وكنا قد آثرناه على الأهلين والأموال والأولاد وقد وضعت الحرب أوزارها فنرجع إلى أهلينا وأولادنا فنقيم فيهما فنزل فينا (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) فكانت التهلكة فى الاقامة فى الأهل والمال وترك الجهاد رواه أبو داود والترمذى والنسائى وعبد بن حميد فى تفسيره وابن أبى حاتم

وابن جرير وابن مردويه والحافظ أبو يعلى فى مسنده وابن حبان فى صحيحه والحاكم فى مستدركه كلهم من حديث يزيد ابن أبى حبيب به وقال الترمذى حسن صحيح عريب وقال الحاكم على شرط الشيخين ولم يخرجاه . ولفظ أبى داود عن أسلم أبى عمران كنا بالقسطنطينية وعلى أهل مصر عقبة بن عامر وعلى أهل الشام رجل يزيد بن فضالة بن عبيد فخرج من المدينة صف عظيم من الروم فصففنا لهم فحمل رجل من المسلمين على الروم حتى دخل فيهم ثم خرج إلينا فصاح الناس اليه فقالوا سبحان الله ألقى بيده إلى التهلكة فقال أبو أيوب : يا أيها الناس إنكم لتتأولون هذه الآية على غير التأويل وإنما نزلت فينا معشر الأنصار إنا لما أعز الله دينه وكثر ناصروه قلنا فيما بيننا . لو أقبلنا على أموالنا فأصلحناها فأنزل الله هذه الآية وقال أبو بكر بن عياش عن أبى إسحق السبيعى قال : قال رجل للبراء بن عازب إن حملت على العدو وحدى فقتلونى أكنت ألقيت بيدى إلى التهلكة ؟ قال لا قال الله لرسوله (فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك) وإنما هذه فى النفقة رواه ابن مردويه وأخرجه الحاكم فى مستدركه من حديث إسرائيل عن أبى إسحق وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه ورواه الترمذى وقيس بن الربيع عن أبى إسحق عن البراء فذكره وقال بعد قوله (لا تكلف إلا نفسك) ولكن التهلكة أن يذنب الرجل الذنب فيلقى بيده إلى التهلكة ولا يتوب وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثنى الليث حدثنا عبد الرحمن بن خالد بن مسافر عن ابن شهاب عن أبى بكر ابن نمير بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام أن عبد الرحمن الأسود بن عبد يغوث أخبره أنهم حاصروا دمشق فانطلق رجل من أزد شنوءة فأسرع إلى العدو وحده ليستقبل فعاب ذلك عليه المسلمون ورفعوا حديثه إلى عمرو بن العاص فأرسل اليه عمرو فرده وقال عمرو قال الله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله تعالى (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال ليس ذلك فى القتال إنما هو فى النفقة أن تمسك بيدك عن النفقة فى سبيل الله ولا تلق بيدك إلى التهلكة قال حماد بن سلمة عن داود عن الشعبى عن الضحاك بن أبى جبير قال كانت الأنصار يتصدقون وينفقون من أموالهم فأصابتهم سنة فأمسكوا عن النفقة فى سبيل الله فنزلت (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وقال الحسن البصرى (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) قال هو البخل ، وقال سماك بن حرب عن النعمان بن بشير فى قوله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) أن يذنب الرجل الذنب فيقول لا يغفر لى فأنزل الله (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) رواه ابن مردويه : وقال ابن أبى حاتم وروى عن عبيدة السلمانى والحسن وابن سيرين وأبى قلابة نحو ذلك يعنى نحو قول النعمان بن بشير انها فى الرجل يذنب الذنب فيعتقد أنه لا يغفر له فيلقى بيده إلى التهلكة أى يستكثر من الذنوب فيهلك . ولهذا روى على بن أبى طلحة عن ابن عباس التهلكة عذاب الله وقال ابن أبى حاتم وابن جرير جميعا حدثنا يونس حدثنا ابن وهب أخبرنى أبو صخر عن القرظى [محمد بن كعب] أنه كان يقول فى هذه الآية (ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة قال كان القوم فى سبيل الله فيتزود الرجل فكان أفضل زادا من الآخر أنفق البائس[1] من زاده حتى لا يبقى من زاده شىء أحب أن يواسى صاحبه فأنزل الله (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وبه قال ابن وهب أيضا أخبرنى عبد الله بن عياش عن زيد ابن أسلم فى قول الله (وأنفقوا فى سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة) وذلك ان رجالا كانوا يخرجون فى بعوث يبعثها رسول الله ﷺ بغير نفقة فاما أن يقطع بهم وإما كانوا عيالا فأمرهم الله ان يستنفقوا مما رزقهم الله ولا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة والتهلكة أن يهلك رجال من الجوع والعطش أو من المشى . وقال لمن بيده فضل (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) ومضمون الآية الأمر بالانفاق فى سبيل الله فى سائر وجوه القربات ووجوه الطاعات وخاصة صرف الأموال فى قتال الأعداء وبذلها فيما يقوى به المسلمون على عدوهم والاخبار عن ترك فعل ذلك بأنه هلاك ودمار لمن لزمه ثم عطف بالأمر بالإحسان وهو أعلى مقامات الطاعة فقال (وأحسنوا إن الله يحب المحسنين) .

﴿ وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ

(١) فى الدر المنثور اليابس ، وفى نسخة الأزهر . والنسخة الأميرية أنفقوا الباقين فليحرر .

مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾

لما ذكر تعالى أحكام الصيام وعطف بذكر الجهاد شرع فى بيان المناسك فأمر بإتمام الحج والعمرة وظاهر السياق إكمال أفعالهما بعد الشروع فيهما . ولهذا قال بعده فإن أحصرتم أى صددتم عن الوصول إلى البيت ومنعتم من إتمامهما ، ولهذا اتفق العلماء على أن الشروع فى الحج والعمرة ملزم سواء قيل بوجوب العمرة أو باستحبابها كما هما قولان للعلماء وقد ذكرناهما بدلائلهما فى كتابنا الأحكام مستقصى ولله الحمد والمنة : وقال شعبة عن عمرو بن مرة عن عبد الله بن سلمة عن على أنه قال فى هذه الآية (وأتموا الحج والعمرة لله) قال أن تحرم من دويرة أهلك وكذا قال ابن عباس وسعيد بن جبير وطاوس ، وعن سفيان الثورى أنه قال فى هذه الآية إتمامهما أن تحرم من أهلك لا تريد إلا الحج والعمرة وتهل من الميقات ليس أن تخرج لتجارة ولا لحاجة حتى إذا كنت قريباً من مكة قلت لو حججت أو اعتمرت . وذلك يجزئ ولكن التمام أن تخرج له ولا تخرج لغيره : وقال مكحول إتمامهما إنشاؤهما جميعا من الميقات ، وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى قال بلغنا أن عمر قال فى قول الله (وأتموا الحج والعمرة لله) من تمامهما أن تفرد كل واحد منهما من الآخر وأن تعتمر فى غير أشهر الحج إن الله تعالى يقول (الحج أشهر معلومات) وقال هشام عن ابن عون سمعت القاسم بن محمد يقول إن العمرة فى أشهر الحج ليست بتامة فقيل له فالعمرة فى المحرم قال كانوا يرونها تامة وكذا روى عن قتادة بن دعامة رحمهما الله وهذا القول فيه نظر لأنه قد ثبت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم اعتمر أربع عمر كلها فى ذى القعدة عمرة الحديبية فى ذى القعدة سنة ست وعمرة القضاء فى ذى القعدة سنة سبع وعمرة الجعرانة فى ذى القعدة سنة ثمان وعمرته التى مع حجته أحرم بهما معا فى ذى القعدة سنة عشر وما اعتمر فى غير ذلك بعد هجرته ولكن قال لأم هانئ « عمرة فى رمضان تعدل حجة معى » وماذاك إلا لأنها قد عزمت على الحج معه عليه السلام فاعتاقت عن ذلك بسبب الطهر كما هو مبسوط فى الحديث عند البخارى ونص سعيد بن جبير على أنه من خصائصها والله أعلم .

وقال السدى فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) أى أقيموا الحج والعمرة وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) يقول من أحرم بحج أو بعمرة فليس له ان يحل حتى يتمهما تمام الحج يوم النحر إذا رمى جمرة العقبة وطاف بالبيت وبالصفا والمروة فقد حل . وقال قتادة عن زرارة عن ابن عباس انه قال الحج عرفة والعمرة الطواف وكذا روى الأعمش عن إبراهيم عن علقمة فى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) قال هى قراءة عبد الله وأتموا الحج والعمرة إلى البيت لا يجاوز[1] بالعمرة البيت . قال إبراهيم فذكرت ذلك لسعيد بن جبير فقال كذلك قال ابن عباس : وقال سفيان عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة انه قال : وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت . وكذا روى الثورى أيضا عن إبراهيم عن منصور عن إبراهيم انه قرأ وأقيموا الحج والعمرة إلى البيت . وقرأ الشعبى (وأتموا الحج والعمرة لله) برفع العمرة وقال ليست بواجبة . وروى عنه خلاف ذلك وقد وردت أحاديث كثيرة من طرق متعددة عن أنس وجماعة من الصحابة أن رسول الله ﷺ جمع فى إحرامه بحج وعمرة وثبت عنه فى الصحيح أنه قال لأصحابه «من كان معه هدى فليهل بحج وعمرة» وقال فى الصحيح أيضا « دخلت العمرة فى الحج الى يوم القيامة » .

وقد روى الإمام أبو محمد بن أبى حاتم فى سبب نزول هذه الآية حديثا غريبا فقال حدثنا على بن الحسين حدثنا أبو عبد الله الهروى حدثنا غسان الهروى حدثنا إبراهيم بن طهمان عن عطاء عن صفوان بن أمية أنه قال جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم متضمخ بالزعفران عليه جبة فقال كيف تأمرنى يارسول الله فى عمرتى ؟ قال فأنزل الله

(١) فى نسخة الأزهر تجاوز بالمثناة الفوقية .

(وأتموا الحج والعمرة لله) فقال رسول الله ﷺ « أين السائل عن العمرة » فقال ها أنا ذا فقال له « ألق عنك ثيابك ثم اغتسل واستنشق ما استطعت ثم ما كنت صانعا فى حجك فاصنعه فى عمرتك » هذا حديث غريب وسياق عجيب والذى ورد فى الصحيحين عن يعلى بن أمية فى قصة الرجل الذى سأل النبى صلى الله عليه وسلم وهو بالجعرانة فقال كيف ترى فى رجل أحرم بالعمرة وعليه جبة وخلوق فسكت رسول الله ﷺ ثم جاءه الوحى ثم رفع رأسه فقال أين السائل فقال ها أنا ذا فقال « أما الجبة فانزعها وأما الطيب الذى بك فاغسله ثم ما كنت صانعا فى حجك فاصنعه فى عمرتك » ولم يذكر فيه الغسل والاستنشاق ولا ذكر نزول هذه الآية وهو عن يعلى بن أمية لا صفوان ابن أمية فالله أعلم .

وقوله (فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) ذكروا أن هذه الآية نزلت فى سنة ست أى عام الحديبية حين حال المشركون بين رسول الله ﷺ وبين الوصول إلى البيت وأنزل الله فى ذلك سورة الفتح بكمالها وأنزل لهم رخصة أن يذبحوا ما معهم من الهدى وكان سبعين بدنة وأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا من إحرامهم فعند ذلك أمرهم عليه السلام بأن يحلقوا رءوسهم وأن يتحللوا فلم يفعلوا انتظارا للنسخ حتى خرج فحلق رأسه ففعل الناس وكان منهم من قصر رأسه ولم يحلقه فلذلك قال ﷺ « رحم الله المحلقين » قالوا والمقصرين يا رسول الله . فقال فى الثالثة « والمقصرين » وقد كانوا اشتركوا فى هديهم ذلك كل سبعة فى بدنة وكانوا ألفا وأربعمائة وكان منزلهم بالحديبية خارج الحرم وقيل بل كانوا على طرف الحرم فالله أعلم . ولهذا اختلف العلماء هل يختص الحصر بالعدو فلا يتحلل إلا من حصره عدو لا مرض ولا غيره على قولين فقال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن ابن عباس ، وابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس ، وابن أبى نجيح عن ابن عباس أنه قال لا حصر إلا حصر العدو فأما من أصابه مرض أو وجع أو ضلال فليس عليه شىء إنما قال الله تعالى (فإذا أمنتم) فليس الأمن حصرا قال : وروى عن ابن عمر وطاوس والزهرى وزيد بن أسلم نحو ذلك. والقول الثانى أن الحصر أعم من أن يكون بعدو أو مرض أو ضلال وهو التوهان عن الطريق أو نحو ذلك، قال الإمام أحمد حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حجاج بن الصواف عن يحيى بن أبى كثير عن عكرمة عن الحجاج بن عمرو الأنصارى قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من كسر أو وجع أو عرج فقد حل وعليه حجة أخرى » قال فذكرت ذلك لابن عباس وأبى هريرة فقالا صدق[1] وأخرجه أصحاب الكتب الأربعة من حديث يحيى بن أبى كثير به وفى رواية لأبى داود وابن ماجه من عرج أو كسر أو مرض فذكر معناه . ورواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن عرفة عن إسماعيل بن علية عن الحجاج ابن أبى عثمان الصواف به ثم قال وروى عن ابن مسعود وابن الزبير وعلقمة وسعيد بن المسيب وعروة بن الزبير ومجاهد والنخعى وعطاء ومقاتل بن حيان أنهم قالوا الاحصار من عدو أو مرض أو كسر ، وقال الثورى الاحصار من كل شىء آذاه وثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ دخل على ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب فقالت يارسول الله إنى أريد الحج وأنا شاكية فقال « حجى واشترطى أن محلى حيث حبستنى » ورواه مسلم عن ابن عباس بمثله فذهب من ذهب من العلماء إلى صحة الاشتراط فى الحج لهذا الحديث وقد علق الإمام محمد بن إدريس الشافعى القول بصحة هذا المذهب على صحة هذا الحديث ، قال البيهقى وغيره من الحفاظ وقد صح ولله الحمد .

وقوله (فما استيسر من الهدى) قال الإمام مالك عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على بن أبى طالب أنه كان يقول (فما استيسر من الهدى) شاة وقال ابن عباس الهدى من الأزواج الثمانية من الإبل والبقر والمعز والضأن : وقال الثورى عن حبيب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (فما استيسر من الهدى) قال شاة وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وأبو العالية ومحمد بن على بن الحسين وعبدالرحمن بن القاسم والشعبى والنخعى والحسن وقتادة والضحاك ومقاتل ابن حيان وغيرهم مثل ذلك وهو مذهب الأئمة الأربعة : وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن يحيى بن سعيد عن القاسم عن عائشة وابن عمر أنهما كانا لا يريان ما استيسر من الهدى إلا من الإبل والبقر

(١) يعنيان الحجاج بن عمرو الراوى .

قال وروى عن سالم والقاسم وعروة بن الزبير وسعيد بن جبير نحو ذلك (قلت) والظاهر أن مستند هؤلاء فيما ذهبوا اليه قصة الحديبية فانه لم ينقل عن أحد منهم أنه ذبح فى تحلله ذلك شاة وإنما ذبحوا الإبل والبقر ففى الصحيحين عن جابر قال أمرنا رسول الله ﷺ أن نشترك فى الإبل والبقر كل سبعة منا فى بقرة : وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن عباس فى قوله (فما استيسر من الهدى) قال بقدر يسارته ، وقال العوفى عن ابن عباس إن كان موسرا فمن الإبل وإلا فمن البقر وإلا فمن الغنم ، وقال هشام بن عروة عن أبيه (فما استيسر من الهدى) قال إنما ذلك فيما بين الرخص والغلاء والدليل على صحة قول الجمهور فيما ذهبوا اليه من إجزاء ذبح الشاة فى الاحصار أن الله أوجب ذبح ما استيسر من الهدى أى مهما تيسر مما يسمى هديا والهدى من بهيمة الأنعام وهى الإبل والبقر والغنم كما قاله الحبر البحر ترجمان القرآن وابن عم رسول الله ﷺ وقد ثبت فى الصحيحين عن عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها قالت أهدى النبى ﷺ مرة غنما .

وقوله (ولا تحلقوا رءوسكم حتى يبلغ الهدى محله) معطوف على قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) وليس معطوفا على قوله (فإن أحصرتم فما استيسر من الهدى) كما زعمه ابن جرير رحمه الله لأن النبى صلى الله عليه وسلم وأصحابه عام الحديبية لما حصرهم كفار قريش عن الدخول إلى الحرم حلقوا وذبحوا هديهم خارج الحرم فأما فى حال الأمن والوصول إلى الحرم فلا يجوز الحلق (حتى يبلغ الهدى محله) ويفرغ الناسك من أفعال الحج والعمرة إن كان قارنا أو من فعل أحدهما إن كان مفردا أو متمتعا كما ثبت فى الصحيحين عن حفصة انها قالت : يارسول الله ما شأن الناس حلوا من العمرة ولم تحل أنت من عمرتك ؟ فقال . « إنى لبدت رأسى وقلدت هدى فلا أحل حتى أنحر »

وقوله (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال البخارى : حدثنا آدم حدثنا شعبة عن عبد الرحمن بن الاصبهانى سمعت عبد الله بن معقل قال قعدت إلى كعب بن عجرة فى هذا المسجد يعنى مسجد الكوفة فسألته عن فدية من صيام فقال : حملت إلى النبى صلى الله عليه وسلم والقمل يتناثر على وجهى فقال . «ما كنت أرى أن الجهد بلغ بك هذا أما تجد شاة»؟ قلت : لا قال :«صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين لكل مسكين نصف صاع من طعام واحلق رأسك » فنزلت فىّ خاصة وهى لكم عامة وقال الإمام أحمد : حدثنا إسماعيل حدثنا أيوب عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة قال : أتى علىّ النبى ﷺ وأنا أوقد تحت قدر والقمل يتناثر على وجهى أوقال حاجبى فقال « يؤذيك هوام رأسك ؟ » قلت نعم قال « فاحلقه وصم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين أو انسك نسيكة » قال أيوب لا أدرى بأيتهن بدأ وقال أحمد أيضا حدثنا هشام حدثنا أبو بشر عن مجاهد عن عبد الرحمن ابن أبى ليلى عن كعب ابن عجرة قال : كنا مع رسول الله ﷺ بالحديبية ونحن محرمون وقد حصره المشركون وكانت لى وفرة فجعلت الهوام تساقط على وجهى فمر علىّ النبى ﷺ فقال : « أيؤذيك هوام رأسك » فأمره أن يحلق قال : ونزلت هذه الآية (فمن كان منكم مريضا أو به أذى من رأسه ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) وكذا رواه عثمان عن شعبة عن أبى بشر وهو جعفر بن إياس به ، وعن شعبة عن الحكم عن عبد الرحمن بن أبى ليلى به. وعن شعبة عن داود عن الشعبى عن كعب بن عجرة نحوه ، ورواه الإمام مالك عن حميد بن قيس عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة فذكر نحوه وقال سعد بن إسحق بن كعب بن عجرة عن أبان بن صالح عن الحسن البصرى انه سمع كعب بن عجرة يقول فذبحت شاة ورواه ابن مردويه ، وروى أيضا من حديث عمر ابن قيس وهو ضعيف عن عطاء عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ « النسك شاة والصيام ثلاثة أيام والطعام فرق بين ستة » وكذا روى عن على ومحمد بن كعب وعلقمة وإبراهيم ومجاهد وعطاء والسدى والربيع بن أنس وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا عبد الله بن وهب أن مالك بن أنس حدثه عن عبد الكريم بن مالك الجزرى عن مجاهد عن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن كعب بن عجرة أنه كان مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فآذاه القمل فى رأسه فأمره رسول الله ﷺ أن يحلق رأسه وقال « صم ثلاثة أيام أو أطعم ستة مساكين مدين مدين لكل إنسان

أو انسك شاة أى ذلك فعلت أجزأ عنك » وهكذا روى ليث ابن أبى سليم عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال إذا كان أو ، فأية أخذت أجزأ عنك قال ابن أبى حاتم وروى عن مجاهد وعكرمة وعطاء وطاوس والحسن وحميد الأعرج وإبراهيم النخعى والضحاك نحو ذلك (قلت) وهو مذهب الأئمة الأربعة وعامة العلماء أنه يخير فى هـذا المقام إن شاء صام وإن شاء تصدق بفرق وهو ثلاثة آصع لكل مسكين نصف صاع وهو مدان وإن شاء ذبح شاة وتصدق بها على الفقراء أى ذلك فعل أجزأه ولما كان لفظ القرآن فى بيان الرخصة جاء بالأسهل فالأسهل (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) ولما أمر النبى صلى الله عليه وسلم كعب بن عجرة بذلك أرشده إلى الأفضل فالأفضل فقال : انسك شاة أو أطعم ستة مساكين أو صم ثلاثة أيام فكل حسن فى مقامه ولله الحمد والمنة . وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا أبو بكر بن عياش قال : ذكر الأعمش قال : سأل إبراهيم سعيد بن جبير عن هذه الآية (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) فأجابه بقول يحكم عليه طعام فإن كان عنده اشترى شاة وإن لم يكن قومت الشاة دراهم وجعل مكانها طعام فتصدق وإلا صام لكل نصف صاغ يوما قال إبراهيم كذلك سمعت علقمة يذكر قال : لما قال لى سعيد بن جبير من هذا ما أظرفه ؟ قال: قلت هذا إبراهيم فقال ما أظرفه كان يجالسنا قال : فذكرت ذلك لإبراهيم قال : فلما قلت يجالسنا انتفض منها وقال ابن جرير أيضا حدثنا ابن أبى عمران حدثنا عبيد الله بن معاذ عن أبيه عن أشعث عن الحسن فى قوله (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال إذا كان بالمحرم أذى من رأسه حلق وافتدى بأى هذه الثلاثة شاء والصيام عشرة أيام والصدقة على عشرة مساكين كل مسكين مكوكين مكوكا من تمر ومكوكا من بر والنسك شاة وقال قتادة عن الحسن وعكرمة فى قوله (ففدية من صيام أو صدقة أو نسك) قال : إطعام عشرة مساكين وهـذان القولان من سعيد بن جبير وعلقمة والحسن وعكرمة قولان غريبان فيهما نظر لأنه قد ثبتت السنة فى حديث كعب بن عجرة الصيام ثلاثة أيام لاستة أو إطعام ستة مساكين أو نسك شاة وأن ذلك على التخيير كما دل عليه سياق القرآن وأما هذا الترتيب فإنما هو معروف فى قتل الصيد كما هو نص القرآن وعليه أجمع الفقهاء هناك بخلاف هذا والله أعلم . وقال هشام . أخبرنا ليث عن طاوس أنه كان يقول ما كان من دم أو طعام فبمكة وما كان من صيام فحيث شاء ، وكذا قال مجاهد وعطاء والحسن ، وقال هشام أخبرنا حجاج وعبد الملك وغيرهما عن عطاء أنه كان يقول : ما كان من دم فبمكة وما كان من طعام وصيام فحيث شاء ، وقال هشيم أخبرنا يحيى بن سعيد عن يعقوب بن خالد أخبرنا أبو أسماء مولى ابن جعفر قال حج عثمان بن عفان ومعه على والحسين بن على فارتحل عثمان قال أبو أسماء وكنت مع ابن جعفر فاذا نحن برجل نائم وناقته عند رأسه قال فقلت أيها النائم فأستيقظ فإذا الحسين بن على قال فحمله ابن جعفر حتى أتينا به السقيا قال : فأرسل إلى على ومعه أسماء بنت عميس قال : فمرضناه نحوا من عشرين ليلة قال: قال على للحسين ما الذى تجد ؟ قال فأومأ بيده إلى رأسه قال: فأمر به على فحلق رأسه ثم دعا ببدنة فنحرها فان كانت هذه الناقة عن الحلق ففيه أنه نحرها دون مكة . وإن كانت عن التحلل فواضح

وقوله (فاذا أمنتم فمن تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فاذا تمكنتم من أداء المناسك فمن كان منكم متمتعا بالعمرة إلى الحج وهو يشمل من أحرم بهما أو أحرم بالعمرة أولا فلما فرغ منها أحرم بالحج وهذا هو التمتع الخاص وهو المعروف فى كلام الفقهاء والتمتع العام يشمل القسمين كما دلت عليه الأحاديث الصحاح فان من الرواة من يقول تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم وآخر يقول قرن ولا خلاف أنه ساق هديا وقال تعالى فمن (تمتع بالعمرة إلى الحج فما استيسر من الهدى) أى فليذبح ما قدر عليه من الهدى وأقله شاة وله أن يذبح البقر لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذبح عن نسائه البقر ، وقال الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ ذبح البقر عن نسائه وكن متمتعات رواه أبو بكر بن مردويه وفى هـذا دليل على مشروعية التمتع كما جاء فى الصحيحين عن عمران بن حصين قال: نزلت آية المتعة فى كتاب الله وفعلناها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم لم ينزل قرآن يحرمها ولم ينه عنها حتى مات قال رجل برأيه ما شاء . قال البخارى يقال إنه عمر

وهذا الذى قاله البخارى قد جاء مصرحا به أن عمر كان ينهى الناس عن التمتع ويقول إن نأخذ بكتاب الله فإن الله يأمر بالتمام يعنى قوله (وأتموا الحج والعمرة لله) وفى نفس الأمر لم يكن عمر رضى الله عنه ينهى عنها محرما لها إنما كان ينهى عنها ليكثر قصد الناس للبيت حاجين ومعتمرين كما قد صرح به رضى الله عنه

وقوله (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم تلك عشرة كاملة) يقول تعالى فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام فى الحج أى فى أيام المناسك قال العلماء : والأولى أن يصومها قبل يوم عرفة فى العشر قاله عطاء أو من حين يحرم قاله ابن عباس وغيره لقوله فى الحج ومنهم من يجوز صيامها من أول شوال قاله طاوس ومجاهد وغير واحد وجوز الشعبى صيام يوم عرفة وقبله يومين وكذا قال مجاهد وسعيد بن جبير والسدى وعطاء وطاوس والحكم والحسن وحماد وإبراهيم وأبو جعفر الباقر والربيع ومقاتل بن حيان وقال العوفى عن ابن عباس إذا لم يجد هديا فعليه صيام ثلاثة أيام فى الحج قبل يوم عرفة فاذا كان يوم عرفة الثالث فقد تم صومه وسبعة إذا رجع إلى أهله وكذا روى أبو إسحق عن وبرة عن ابن عمر قال . يصوم يوما قبل يوم التروية ويوم التروية ويوم عرفة وكذا روى جعفر بن محمد عن أبيه عن على أيضا فلو لم يصمها أو بعضها قبل العيد فهل يجوز أن يصومها فى أيام التشريق ؟ فيه قولان للعلماء وهما للامام الشافعى أيضا القديم منهما أنه يجوز له صيامها لقول عائشة وابن عمر فى صحيح البخارى لم يرخص فى أيام التشريق أن يصمن إلا لمن لا يجد الهدى هكذا رواه مالك عن الزهرى عن عروة عن عائشة وعن سالم عن ابن عمر وقد روى من غير وجه عنهما ورواه سفيان عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على أنه كان يقول من فاته صيام ثلاثة أيام فى الحج صامهن أيام التشريق وبهذا يقول عبيد بن عمير الليثى عن عكرمة والحسن البصرى وعروة بن الزبير وإنما قالوا ذلك لعموم قوله (فصيام ثلاثة أيام فى الحج) والجديد من القولين أنه لا يجوز صيامها أيام التشريق لما رواه مسلم عن قتيبة الهذلى رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ «أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل »

وقوله (وسبعة إذا رجعتم) فيه قولان : (أحدهما) إذا رجعتم إلى رحالكم ولهذا قال مجاهد هى رخصة إذا شاء صامها فى الطريق وكذا قال عطاء بن أبى رباح والقول (الثانى) إذا رجعتم إلى أوطانكم قال عبد الرزاق : أخبرنا الثورى عن يحيى بن سعيد عن سالم سمعت ابن عمر قال : (فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجعتم) قال إذا رجع إلى أهله وكذا روى عن سعيد بن جبير وأبى العالية ومجاهد وعطاء وعكرمة والحسن وقتادة والزهرى والربيع بن أنس وحكى على ذلك أبو جعفر بن جرير الإجماع وقد قال البخارى حدثنا يحيى بن بكير حدثنا الليث عن عقيل عن ابن شهاب عن سالم بن عبد الله أن ابن عمر قال : تمتع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع بالعمرة إلى الحج وأهدى فساق معه الهدى من ذى الحليفة فأهل بعمرة ثم أهل بالحج فتمتع الناس مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وبدأ رسول الله صلى الله عليه وسلم بالعمرة إلى الحج فكان من الناس من أهدى فساق الهدى ومنهم من لم يهد فلما قدم النبى صلى الله عليه وسلم مكة قال للناس : « من كان منكم أهدى فإنه لا يحل لشىء حرم منه حتى يقضى حجه ومن لم يكن منكم أهدى فليطف بالبيت وبالصفا والمروة وليقصر وليحلل ثم ليهل بالحج فمن لم يجد هديا فليصم ثلاثة أيام فى الحج وسبعة إذا رجع إلى أهله » وذكر تمام الحديث قال الزهرى وأخبرنى عروة عن عائشة بمثل ما أخبرنى سالم عن أبيه والحديث مخرج فى الصحيحين من حديث الزهرى به وقوله (تلك عشرة كاملة) قيل تأكيد كما تقول العرب رأيت بعينى وسمعت بأذنى وكتبت بيدى وقال الله تعالى (ولا طائر يطير بجناحيه) وقال (ولا تخطه بيمينك) وقال (وواعدنا موسى ثلاثين ليلة وأتممناها بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة) وقيل معنى كاملة الأمر بكمالها وإتمامها اختاره ابن جرير وقيل معنى كاملة أى مجزئة عن الهدى قال هشام عن عباد بن راشد عن الحسن البصرى فى قوله (تلك عشرة كاملة) قال من الهدى

وقوله (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) قال ابن جرير واختلف أهل التأويل فيمن عنى بقوله (لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) بعد إجماع جميعهم على أن أهل الحرم معنيون به وأنه لا متعة لهم فقال بعضهم عنى

بذلك أهل الحرم خاصة دون غيرهم حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان هو الثورى قال : قال ابن عباس هم أهل الحرم وكذا روى ابن المبارك عن الثورى وزاد الجماعة عليه وقال قتادة : ذكر لنا أن ابن عباس كان يقول يا أهل مكة لامتعة لكم أحلت لأهل الآفاق وحرمت عليكم إنما يقطع أحدكم واديا أو قال يجعل بينه وبين الحرم واديا ثم يهل بعمرة وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه قال : المتعة للناس لا لأهل مكة من لم يكن أهله من الحرم . وكذا قول الله عزوجل (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) قال وبلغنى عن ابن عباس مثل قول طاوس وقال آخرون هم أهل الحرم ومن بينه وبين المواقيت كما قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن عطاء قال : من كان أهله دون المواقيت فهو كأهل مكة لا يتمتع وقال عبد الله بن المبارك عن عبد الرحمن بن يزيد عن جابر عن مكحول فى قوله (ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام) قال من كان دون الميقات وقال ابن جريج عن عطاء ذلك لمن لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام قال عرفة ومزدلفة وعرنة والرجيع وقال عبد الرزاق : حدثنا معمر سمعت الزهرى يقول من كان أهله على يوم أو نحوه تمتع وفى رواية عنه اليوم واليومين واختار ابن جرير فى ذلك مذهب الشافعى أنهم أهل الحرم ومن كان منه على مسافة لا يقصر فيها الصلاة لأن من كان كذلك يعد حاضرا لا مسافرا والله أعلم

وقوله (واتقوا الله) أى فيما أمركم ونهاكم (واعلموا أن الله شديد العقاب) أى لمن خالف أمره وارتكب ماعنه زجره ﴿ ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ ٱلزَّادِ ٱلتَّقْوَىٰ وَٱتَّقُونِ يَٰٓأُولِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾

اختلف أهل العربية فى قوله (الحج أشهر معلومات) فقال بعضهم تقديره الحج حج أشهر معلومات فعلى هذا التقدير يكون الاحرام بالحج فيها أكمل من الاحرام فيما عداها وإن كان ذلك صحيحاً والقول بصحة الاحرام بالحج فى جميع السنة مذهب مالك وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وبه يقول إبراهيم النخعى والثورى والليث بن سعد واحتج لهم بقوله تعالى (يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج) وبأنه أحد النسكين فصح الاحرام به فى جميع السنة كالعمرة . وذهب الشافعى رحمه الله إلى أنه لا يصح الاحرام بالحج إلا فى أشهره فلو أحرم به قبلها لم ينعقد إحرامه به وهل ينعقد عمرة ، فيه قولان عنه . والقول بأنه لا يصح الاحرام بالحج إلا فى أشهره مروى عن ابن عباس وجابر وبه يقول عطاء وطاوس ومجاهد رحمهم الله والدليل عليه قوله (الحج أشهر معلومات) وظاهره التقدير الآخر الذى ذهب إليه النحاة وهو أن وقت الحج أشهر معلومات فخصصه بها من بين سائر شهور السنة فدل على أنه لا يصح قبلها كميقات الصلاة : وقال الشافعى رحمه الله أخبرنا مسلم بن خالد عن ابن جريج أخبرنى عمر بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال لا ينبغى لأحد أن يحرم بالحج إلا فى شهور الحج من أجل قول الله تعالى (الحج أشهر معلومات) وكذا رواه ابن أبى حاتم عن أحمد بن يحيى بن مالك السوسى[1] عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج به ورواه ابن مردويه فى تفسيره من طريقين عن حجاج بن أرطاة عن الحاكم بن عتيبة عن مقسم عن ابن عباس أنه قال من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج وقال ابن خزيمة فى صحيحه حدثنا أبو كريب حدثنا أبو خالد الأحمر عن شعبة عن الحكم عن مقسم عن ابن عباس قال لا يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج فان من سنة الحج أن يحرم بالحج فى أشهر الحج وهذا سناد صحيح وقول الصحابى من السنة كذا فى حكم المرفوع عند الأكثرين ولا سيما قول ابن عباس تفسيراً للقرآن وهو ترجمانه . وقد ورد فيه حديث مرفوع ، قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقى حدثنا نافع حدثنا الحسن ابن المثنى حدثنا أبو حذيفة حدثنا سفيان عن أبى الزبير عن جابر عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « لا ينبغى لأحد أن يحرم بالحج إلا فى أشهر الحج » وإسناده لا بأس به لكن رواه الشافعى والبيهقى من طرق عن ابن جريج عن أبى الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يسأل أيهل بالحج قبل أشهر الحج ؟ فقال لا وهذا الموقوف أصح وأثبت من المرفوع ويبقى

[1] فى نسخة الأزهر السرسى .

حينئذ مذهب صحابى يتقوى بقول ابن عباس من السنة أن لا يحرم بالحج إلا فى أشهره والله أعلم

وقوله (أشهر معلومات) قال البخارى قال ابن عمر هى شوال وذوالقعدة وعشر من ذى الحجة وهذا الذى علقه البخارى بصيغة الجزم رواه ابن جرير موصولا : حدثنا أحمد بن حازم بن أبى زغرة حدثنا أبو نعيم حدثنا ورقاء عن عبد الله بن دينار عن ابن عمر (الحج أشهر معلومات) قال شوال وذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، إسناد صحيح وقد رواه الحاكم أيضاً فى مستدركه عن الأصم عن الحسن بن على بن عفان عن عبد الله بن نمير عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر فذكره وقال هو على شرط الشيخين (قلت) وهو مروى عن عمر وعلى وابن مسعود وعبد الله بن الزبير وابن عباس وعطاء وطاوس ومجاهد وإبراهيم النخعى والشعبى والحسن وابن سيرين ومكحول وقتادة والضحاك بن مزاحم والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان وهو مذهب الشافعى وأبى حنيفة وأحمد بن حنبل وأبى يوسف وأبى ثور رحمهم الله واختار هذا القول ابن جرير قال وصح إطلاق الجمع على شهرين وبعض الثالث للتغليب كما تقول العرب رأيته العام ورأيته اليوم وإنما وقع ذلك فى بعض العام واليوم (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه) وإنما تعجل فى يوم ونصف يوم ، وقال الإمام مالك بن أنس والشافعى فى القديم هى شوال وذو القعدة وذو الحجة بكماله وهو رواية عن ابن عمر أيضا قال ابن جرير حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد عن ابن عمر قال : شوال وذو القعدة وذوالحجة وقال ابن أبى حاتم فى تفسيره حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا ابن وهب أخبرنى ابن جريج قال قلت لنافع أسمعت عبد الله بن عمر يسمى شهور الحج قال نعم كان عبد الله يسمى شوالا وذوا القعدة وذا الحجة قال ابن جريج وقال ذلك ابن شهاب وعطاء وجابر بن عبد الله صاحب النبى ﷺ وهذا إسناد صحيح إلى ابن جريج وقد حكى هذا أيضاً عن طاوس ومجاهد وعروة بن الزبير والربيع بن أنس وقتادة وجاء فيه حديث مرفوع لكنه موضوع ، رواه الحافظ بن مردويه من طريق حصين بن مخارق وهو متهم بالوضع عن يونس بن عبيد عن شهر بن حوشب عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « الحج أشهر معلومات شوال وذو القعدة وذو الحجة » وهذا كما رأيت لا يصح رفعه والله أعلم . وفائدة مذهب مالك أنه إلى آخر ذى الحجة بمعنى أنه مختص بالحج فيكره الاعتمار فى بقية ذى الحجة لا أنه يصح الحج بعد ليلة النحر قال ابن أبى حاتم : حدثنا أحمد بن سنان حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن قيس ابن مسلم عن طارق بن شهاب قال : قال عبد الله الحج أشهر معلومات ليس فيها عمرة وهذا إسناد صحيح . قال ابن جرير. وإنما أراد من ذهب إلى أن أشهر الحج شوال وذو القعدة وذو الحجة أن هذه الأشهر ليست أشهر العمرة إنما هى للحج وإن كان عمل الحج قد انقضى بانقضاء أيام منى كما قال محمد بن سيرين ما أحد من أهل العلم يشك فى أن عمرة فى غير أشهر الحج أفضل من عمرة فى أشهر الحج وقال ابن عون . سألت القاسم بن محمد عن العمرة فى أشهر الحج فقال كانوا لا يرونها تامة (قلت) وقد ثبت عن عمر وعثمان رضى الله عنهما أنهما كان يحبان الاعتمار فى غير أشهر الحج وينهيان عند ذلك فى أشهر الحج والله أعلم

وقوله (فمن فرض فيهن الحج) أى أوجب باحرامه حجا فيه دلالة على لزوم الاحرام بالحج والمضى فيه قال ابن جرير. أجمعوا على أن المراد من الفرض ههنا الإيجاب والالزام وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فمن فرض فيهن الحج) يقول من أحرم بحج أو عمرة وقال عطاء . الفرض الاحرام . وكذا قال إبراهيم والضحاك وغيرهم وقال ابن جريج . أخبرنى عمر بن عطاء عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال (فمن فرض فيهن الحج) فلا ينبغى أن يلبى بالحج ثم يقيم بأرض قال ابن أبى حاتم. وروى عن ابن مسعود وابن عباس وابن الزبير ومجاهد وعطاء وإبراهيم النخعى وعكرمة والضحاك وقتادة وسفيان الثورى والزهرى ومقاتل بن حيان نحو ذلك وقال طاوس والقاسم بن محمد هو التلبية وقوله (فلا رفث) أى من أحرم بالحج أو العمرة فليجتنب الرفث وهو الجماع كما قال تعالى (أحل لكم ليلة الصيام الرفث إلى نسائكم) وكذلك يحرم تعاطى دواعيه من المباشرة والتقبيل ونحو ذلك وكذلك التكلم به بحضرة النساء قال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا بن وهب أخبرنى يونس أن نافعا أخبره أن عبد الله بن عمر كان يقول الرفث إتيان النساء والتكلم بذلك للرجال والنساء إذا ذكروا ذلك بأفواههم قال ابن وهب وأخبرنى أبو صخر عن محمد بن كعب

مثله قال ابن جرير وحدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن قتادة عن رجل عن أبي العالية الرياحي عن ابن عباس أنه كان يحدو وهو محرم وهو يقول :

وهنّ يمشين بنا هميسا * إن تصدق الطير ننك لميسا

قال أبو العالية : فقلت تكلم بالرفث وأنت محرم ؟ قال : إنما الرفث ماقيل عند النساء : ورواه الأعمش عن زياد ابن حصين عن أبي العالية عن ابن عباس فذكره وقال ابن جرير أيضا حدثنا محمد بن بشار حدثنا ابن أبي عدي عن عوف حدثني زياد بن حصين حدثني أبي حصين بن قيس قال : أصعدت مع ابن عباس في الحاج وكنت خليلاله فلما كان بعد إحرامنا قال ابن عباس : فأخذ بذنب بعيره فجعل يلويه ويرتجز ويقول :

وهنّ يمشين بنا هميسا * إن تصدق الطير ننك لميسا

قال : فقلت أترفث وأنت محرم ؟ فقال إنما الرفث ماقيل عند النساء . وقال عبدالله بن طاوس عن أبيه سألت ابن عباس عن قول الله عز وجل (فلارفث ولا فسوق) قال الرفث التعريض بذكر الجماع وهي العرابة في كلام العرب وهو أدنى الرفث وقال عطاء بن أبي رباح الرفث الجماع وما دونه من قول الفحش وكذا قال عمرو بن دينار وقال عطاء كانوا يكرهون العرابة وهو التعريض وهو محرم وقال طاوس : هو أن يقول للمرأة إذا حللت أصبتك وكذا قال أبو العالية وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس الرفث غشيان النساء والقبلة والغمز وأن تعرض لها بالفحش من الكلام ونحو ذلك وقال ابن عباس أيضا وابن عمر الرفث غشيان النساء وكذا قال سعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد وإبراهيم وأبو العالية عن عطاء ومكحول وعطاء الخراساني وعطاء بن يسار وعطية وإبراهيم النخعي والربيع والزهري والسدي ومالك بن أنس ومقاتل بن حيان وعبد الكريم بن مالك والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم

وقوله (ولا فسوق) قال مقسم وغير واحد عن ابن عباس هي المعاصي وكذا قال عطاء ومجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة وإبراهيم النخعي والزهري والربيع بن أنس وعطاء بن يسار وعطاء الخراساني ومقاتل بن حيان وقال محمد بن إسحق عن نافع عن ابن عمر قال : الفسوق ما أصيب من معاصي الله صيدا أوغيره وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع أن عبدالله بن عمر كان يقول : الفسوق إتيان معاصي الله في الحرم وقال آخرون الفسوق ههنا السباب قاله ابن عباس وابن عمر وابن الزبير ومجاهد والسدي وإبراهيم النخعي والحسن وقد يتمسك لهؤلاء بما ثبت في الصحيح « سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » ولهذا رواه ههنا الحبر أبو محمد بن أبي حاتم من حديث سفيان الثوري عن زبيد عن أبي وائل عن عبد الله عن النبي ﷺ قال : «سباب المسلم فسوق وقتاله كفر » وروى من حديث عبد الرحمن بن عبدالله بن مسعود عن أبيه ومن حديث أبي إسحق عن محمد بن سعد عن أبيه وقال عبدالرحمن ابن زيد بن أسلم الفسوق ههنا الذبح للأصنام قال الله تعالى (أوفسقاً أهل لغير الله به) وقال الضحاك : الفسوق التنابز بالألقاب . والذين قالوا الفسوق ههنا هو جميع المعاصي الصواب معهم كما نهى تعالى عن الظلم في الأشهر الحرم وإن كان في جميع السنة منهيا عنه إلا أنه في الأشهر الحرم آكد ولهذا قال : (منها أربعة حرم ذلك الدين القيم فلا تظلموا فيهن أنفسكم) وقال في الحرم : (ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نذقه من عذاب أليم) واختار ابن جرير أن الفسوق ههنا هو ارتكاب مانهى عنه في الاحرام من قتل الصيد وحلق الشعر وقلم الأظفار ونحو ذلك كما تقدم عن ابن عمر وما ذكرناه أولى والله أعلم : وقد ثبت في الصحيحين من حديث أبي حازم عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من حج هذا البيت فلم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه[1] » .

وقوله (ولا جدال في الحج) فيه قولان : (أحدهما) ولا مجادلة في وقت الحج في مناسكه وقد بينه الله أتم بيان ووضحه أكمل إيضاح كما قال وكيع عن العلاء بن عبدالكريم سمعت مجاهدا يقول (ولا جدال في الحج) قد بين الله أشهر الحج فليس فيه جدال بين الناس وقال ابن أبي نجيح عن مجاهد (ولا جدال في الحج) قال لاشهر ينسأ ولاجدال في الحج قد تبين ثم ذكر كيفية ما كان المشركون يصنعون في النسيء الذي ذمهم الله به . وقال الثوري عن عبد العزيز ابن رفيع عن مجاهد في قوله (ولا جدال في الحج) قال قد استقام الحج فلا جدال فيه وكذا قال السدي وقال هشام :

(١) رواية الصحيحين « رجع كيوم ولدته أمه » وليس فيهما خرج من ذنوبه ولفظ مسلم في أوله « من أتى هذا البيت » وفي رواية للبخاري « من حج لله » .

أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس (ولا جدال فى الحج) قال المراء فى الحج وقال عبدالله بن وهب قال مالك قال الله تعالى (ولا جدال فى الحج) فالجدال فى الحج والله أعلم أن قريشاً كانت تقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة وكانت العرب وغيرهم يقفون بعرفة وكانوا يتجادلون يقول هؤلاء : نحن أصوب، ويقول هؤلاء : نحن أصوب فهذا فيما نرى والله أعلم وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم كانوا يقفون مواقف مختلفة يتجادلون كلهم يدعى أن موقفه موقف إبراهيم فقطعه الله حين أعلم نبيه بالمناسك . وقال ابن وهب عن أبى صخر عن محمد بن كعب قال كانت قريش إذا اجتمعت بمنى قال هؤلاء حجنا أتم من حجكم وقال هؤلاء حجنا أتم من حجكم . وقال حماد بن سلمة عن جبير ابن حبيب عن القاسم بن محمد أنه قال : الجدال فى الحج أن يقول بعضهم الحج غداً ويقول بعضهم الحج اليوم وقد اختار ابن جرير مضمون هذه الأقوال وهو قطع التنازع فى مناسك الحج والله أعلم .

(والقول الثانى) أن المراد بالجدال ههنا المخاصمة قال ابن جرير : حدثنا عبدالحميد بن حسان حدثنا إسحق عن شريك عن أبى إسحق عن أبى الأحوص عن عبدالله بن مسعود فى قوله (ولا جدال فى الحج) قال أن تمارى صاحبك حتى تغضبه وبهذا الاسناد إلى أبى إسحق عن التيمى : سألت ابن عباس عن الجدال قال : المراء تمارى صاحبك حتى تغضبه . وكذلك روى مقسم والضحاك عن ابن عباس وكذا قال أبو العالية وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة وجابر ابن زيد وعطاء الخراسانى ومكحول والسدى ومقاتل بن حيان وعمرو بن دينار والضحاك والربيع بن أنس وإبراهيم النخعى وعطاء بن يسار والحسن وقتادة والزهرى ، وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس ولا جدال فى الحج المراء والملاحاة حتى تغضب أخاك وصاحبك فنهى الله عن ذلك ، وقال إبراهيم النخعى (ولا جدال فى الحج) قال كانوا يكرهون الجدال ، وقال محمد بن إسحق عن نافع عن ابن عمر ، قال الجدال فى الحج السباب والمنازعة وكذا روى ابن وهب عن يونس عن نافع أن ابن عمر كان يقول الجدال فى الحج السباب والمراء والخصومات ، وقال ابن أبى حاتم وروى عن ابن الزبير والحسن وإبراهيم وطاوس ومحمد بن كعب قالوا الجدال المراء : وقال عبدالله بن المبارك عن يحيى بن بشير عن عكرمة (ولا جدال فى الحج) والجدال الغضب أن تغضب عليك مسلما إلا أن تستعتب مملوكا فتغضبه من غير أن تضربه فلا بأس عليك إن شاء الله (قلت) ولو ضربه لكان جائزا سائغا . والدليل على ذلك ماروواه الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن إدريس حدثنا محمد بن إسحق عن يحيى بن عباد بن عبدالله بن الزبير عن أبيه عن أسماء بنت أبى بكر قالت خرجنا مع رسول الله ﷺ حجاجا حتى إذا كنا بالعرج نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلست عائشة إلى جنب رسول الله ﷺ وجلست إلى جنب أبى وكانت زمالة أبى بكر وزمالة رسول الله صلى الله عليه وسلم واحدة مع غلام أبى بكر فجلس أبو بكر ينتظره إلى أن يطلع عليه فاطلع وليس معه بعيره فقال : أين بعيرك ؟ فقال أضللته البارحة ، فقال أبو بكر بعير واحد تضله ، فطفق يضربه ورسول الله ﷺ يتبسم ويقول « انظروا إلى هذا المحرم مايصنع » وهكذا أخرجه أبوداود وابن ماجه من حديث ابن إسحق ومن هذا الحديث حكى بعضهم عن بعض السلف أنه قال من تمام الحج ضرب الجمال ولكن يستفاد من قول النبى ﷺ عن أبى بكر رضى الله عنه « انظروا إلى هذا المحرم مايصنع » كهيئة الانكار اللطيف أن الأولى ترك ذلك والله أعلم .

وقد قال الإمام عبد بن حميد فى مسنده حدثنا عبيدالله بن موسى عن موسى بن عبيدة عن أخيه عبد الله بن عبيد الله عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من قضى نسكه وسلم المسلمون من لسانه ويده غفر له ما تقدم من ذنبه » .

وقوله (وما تفعلوا من خير يعلمه الله) لما نهاهم عن إتيان القبيح قولا وفعلا حثهم على فعل الجميل وأخبرهم أنه عالم به وسيجزيهم عليه أوفر الجزاء يوم القيامة : وقوله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) قال العوفى عن ابن عباس كان أناس يخرجون من أهليهم ليست معهم أزودة يقولون نحج بيت الله ولا يطعمنا ؟ فقال الله تزودوا ما يكف وجوهكم عن الناس . وقال بن أبى حاتم حدثنا محمد بن عبدالله بن يزيد المقرى حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن

عكرمة أن ناسا كانوا يحجون بغير زاد فأنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وكذا رواه ابن جرير عن عمرو وهو الفلاس عن ابن عيينة قال ابن أبي حاتم: وقد روى هذا الحديث ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس ، قال وما يرويه عن ابن عيينة أصح (قلت) قد رواه النسائي عن سعيد بن عبد الرحمن المخزومي عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس كان ناس يحجون بغير زاد فأنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) وأما حديث ورقاء فأخرجه البخاري عن يحيى بن بشر عن شبابة وأخرجه أبوداود عن أبي مسعود أحمد بن الفرات الرازي ومحمد بن عبدالله المخزومي عن شبابة عن ورقاء عن عمرو بن دينار عن عكرمة عن ابن عباس قال كان أهل اليمن يحجون ولا يتزودون ويقولون نحن المتوكلون فأنزل الله (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) ورواه عبد بن حميد في تفسيره عن شبابة . ورواه ابن حبان في صحيحه من حديث شبابة به، وروى ابن جرير وابن مردويه من حديث عمرو بن عبد الغفار عن نافع عن ابن عمر قال كانوا إذا أحرموا ومعهم أزوادهم رموا بها واستأنفوا زادا آخر فأنزل الله تعالى (وتزودوا فإن خير الزاد التقوى) فنهوا عن ذلك وأمروا أن يتزودوا الدقيق والسويق والكعك . وكذا قال ابن الزبير وأبو العالية ومجاهد وعكرمة والشعبي والنخعي وسالم بن عبدالله وعطاء الخراساني وقتادة والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان : وقال سعيد بن جبير فتزودوا الدقيق والسويق والكعك . وقال وكيع بن الجراح في تفسيره حدثنا سفيان عن محمد بن سوقة عن سعيد بن جبير (وتزودوا) قال الخشكنانج والسويق وقال وكيع أيضا حدثنا إبراهيم المكي عن ابن أبي نجيح عن مجاهد عن ابن عمر قال إن من كرم الرجل طيب زاده في السفر وزاد فيه حماد بن سلمة عن أبي ريحانة أن ابن عمر كان يشترط على من صحبه الجودة(١) .

وقوله (فإن خير الزاد التقوى) لما أمرهم بالزاد للسفر في الدنيا أرشدهم إلى زاد الآخرة وهو استصحاب التقوى اليها كما قال (وريشاً ولباس التقوى ذلك خير) لما ذكر اللباس الحسي نبه مرشدا إلى اللباس المعنوي وهو الخشوع والطاعة والتقوى وذكر أنه خير من هذا وأنفع قال عطاء الخراساني في قوله (فان خير الزاد التقوى) يعني زاد الآخرة . وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني حدثنا عبدان حدثنا هشام بن عمار حدثنا مروان بن معاوية عن إسماعيل عن قيس عن جرير بن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «من يتزود في الدنيا ينفعه في الآخرة» وقال مقاتل بن حيان لما نزلت هذه الآية (وتزودوا) قام رجل من فقراء المسلمين فقال يارسول الله مانجد ماتزوده فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تزود ما تكفّ به وجهك عن الناس وخير ما تزودتم التقوى » رواه ابن أبي حاتم وقوله (واتقون يا أولي الألباب) يقول واتقوا عقابي ونكالي وعذابي لمن خالفني ولم يأتمر بأمري يا ذوي العقول والأفهام .

﴿ لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ وَاذْكُرُوهُ كَمَا هَدَاكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِ لَمِنَ الضَّالِّينَ ﴾

قال البخاري حدثنا محمد أخبرني ابن عيينة عن عمرو عن ابن عباس قال كانت عكاظ ومجنة وذوالمجاز أسواقا في الجاهلية فتأثموا أن يتجروا في الموسم فنزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) في مواسم الحج . وهكذا رواه عبد الرزاق وسعيد بن منصور وغير واحد عن سفيان بن عيينة به ولبعضهم فلما جاء الاسلام تأثموا أن يتجروا فسألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ذلك فأنزل الله هذه الآية وكذا رواه ابن جريج عن عمرو ابن دينار عن ابن عباس قال كان متجر الناس في الجاهلية عكاظ ومجنة وذوالمجاز فلما كان الاسلام كأنهم كرهوا ذلك حتى نزلت هذه الآية وروى أبوداود وغيره من حديث يزيد بن أبي زياد . عن مجاهد عن ابن عباس قال . كانوا يتقون البيوع والتجارة في الموسم والحج يقولون أيام ذكر فأنزل الله (ليس جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم)

(١) وفي نسخة الأزهر الجوزة .

وقال ابن جرير . حدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا هشام أخبرنا حجاج عن عطاء عن ابن عباس انه قال (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى هذه الآية لا حرج عليكم فى الشراء والبيع قبل الإحرام وبعده وهكذا روى العوفى عن ابن عباس وقال وكيع . حدثنا طلحة بن عمرو الحضرمى عن عطاء عن ابن عباس أنه كان يقرأ (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج وقال عبد الرحمن عن ابن عيينة عن عبد الله بن أبى يزيد . سمعت ابن الزبير يقرأ (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فى مواسم الحج وهكذا فسرها مجاهد وسعيد بن جبير وعكرمة ومنصور بن المعتمر وقتادة وإبراهيم النخعى والربيع بن أنس وغيرهم . وقال ابن جرير . حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا شبابة بن سوار حدثنا شعبة عن أبى أميمة قال . سمعت ابن عمر سئل عن الرجل يحج ومعه تجارة فقرأ ابن عمر (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) وهذا موقوف وهو قوى جيد وقد روى مرفوعا قال أحمد حدثنا أسباط حدثنا الحسن ابن عمرو الفقيمى عن أبى أمامة التيمى قال . قلت لابن عمر إنا نكرى فهل لنا من حج ؟ قال أليس تطوفون بالبيت وتأتون المعرف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم قال قلنا بلى فقال ابن عمر جاء رجل إلى النبى صلى الله عليه وسلم فسأله عن الذى سألتنى فلم يجبه حتى نزل عليه جبرائيل بهذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فدعاه النبى صلى الله عليه وسلم فقال « أنتم حجاج » وقال عبد الرزاق أخبرنا الثورى عن العلاء بن المسيب عن رجل من بنى تميم قال . جاء رجل إلى عبد الله بن عمر فقال . يا أبا عبد الرحمن إنا قوم نكرى ويزعمون أنه ليس لنا حج قال ألستم تحرمون كما يحرمون وتطوفون كما يطوفون وترمون كما يرمون قال. بلى قال فأنت حاج ثم قال ابن عمر. جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عما سألت عنه فنزلت هذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) ورواه عبد ابن حميد فى تفسيره عن عبد الرزاق به ، وهكذا روى هذا الحديث أبو حذيفة عن الثورى مرفوعا وهكذا روى من غير هذا الوجه مرفوعا فقال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا عباد بن العوام عن العلاء بن المسيب عن أبى أمامة التيمى قال قلت لابن عمر : إنا أناس نكرى فى هذا الوجه إلى مكة وإن أناسا يزعمون أنه لاحج لنا فهل ترى لنا حجا ؟ قال ألستم تحرمون وتطوفون بالبيت وتقضون المناسك قال : قلت بلى ، قال « فأنتم حجاج » ثم قال : جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألت فلم يدر ما يعود عليه أو قال . فلم يرد عليه شيئا حتى نزلت (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) فدعا الرجل فتلاها عليه وقال « أنتم حجاج » وكذا رواه مسعود بن سعد وعبد الواحد بن زياد وشريك القاضى عن العلاء بن المسيب به مرفوعا . وقال ابن جرير . حدثنى طليق بن محمد الواسطى حدثنا أسباط هو ابن محمد أخبرنا الحسن بن عمر وهو الفقيمى عن أبو أمامة التيمى قال قلت لابن عمر إنا قوم نكرى فهل لنا من حج ؟ فقال : أليس تطوفون بالبيت وتأتون المعرف وترمون الجمار وتحلقون رءوسكم ؟ قلنا بلى ، قال جاء رجل إلى النبى ﷺ فسأله عن الذى سألتنى عنه فلم يدر ما يقول له حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآية (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلا من ربكم) إلى آخر الآية . وقال النبى ﷺ « أنتم حجاج » وقال ابن جرير حدثنى أحمد ابن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا غندر عن عبد الرحمن بن المهاجر عن أبى صالح مولى عمر قال . قلت يا أمير المؤمنين كنتم تتجرون فى الحج ؟ قال . وهل كانت معايشهم إلا فى الحج ؟

وقوله تعالى (فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) إنما صرف عرفات وإن كان علما على مؤنث لأنه فى الأصل جمع كمسلمات ومؤمنات سمى به بقعة معينة فروعى فيه الأصل فصرف اختاره ابن جرير وعرفة موضع الوقوف فى الحج وهى عمدة أفعال الحج ولهذا روى الإمام أحمد وأهل السنن باسناد صحيح عن الثورى عن بكير عن عطاء عن عبد الرحمن بن يعمر الديلى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « الحج عرفات — ثلاثا — فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك . وأيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » ووقت الوقوف من الزوال يوم عرفة إلى طلوع الفجر الثانى من يوم النحر لأن النبى صلى الله عليه وسلم وقف

فى حجة الوداع بعد أن صلى الظهر إلى أن غربت الشمس وقال . « لتأخذوا عنى مناسككم » وقال فى هذا الحديث « فمن أدرك عرفة قبل أن يطلع الفجر فقد أدرك » وهذا مذهب مالك وأبى حنيفة والشافعى رحمهم الله وذهب الإمام أحمد إلى أن وقت الوقوف من أول يوم عرفة واحتجوا بحديث الشعبي عن عروة بن مضرس بن حارثة بن لام الطائى قال : أتيت رسول الله ﷺ بالمزدلفة حين خرج إلى الصلاة فقلت يا رسول الله إنى جئت من جبل طيء أكللت راحلتى وأتعبت نفسى والله ما تركت من جبل إلا وقفت عليه فهل لى من حج ؟ فقال رسول الله ﷺ « من شهد صلاتنا هذه فوقف معنا حتى ندفع وقد وقف بعرفة قبل ذلك ليلا أو نهاراً فقد تم حجه وقضى تفثه » رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى ثم قيل إنما سميت عرفات لما رواه عبد الرزاق أخبرنى ابن جريج قال : قال ابن المسيب قال على بن أبى طالب بعث الله جبريل عليه السلام إلى إبراهيم ﷺ فحج به حتى إذا أتى عرفة قال عرفت وكان قد أتاها مرة قبل ذلك فلذلك سميت عرفة وقال ابن المبارك عن عبد الملك بن أبى سليمان عن عطاء قال : إنما سميت عرفة أن جبريل كان يرى إبراهيم المناسك فيقول عرفت عرفت فسميت عرفات وروى نحوه عن ابن عباس وابن عمر وأبى مجلز فالله أعلم وتسمى عرفات المشعر الحرام والمشعر الأقصى وإلال على وزن هلال ويقال للجبل فى وسطها جبل الرحمة قال أبو طالب فى قصيدته المشهورة .

وبالمشعر الأقصى إذا قصدوا له * إلال إلى تلك الشراج القوابل

وقال ابن أبى حاتم . حدثنا حماد بن الحسن بن عيينة حدثنا أبو عامر عن زمعة هو ابن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : كان أهل الجاهلية يقفون بعرفة حتى إذا كانت الشمس على رءوس الجبال كأنها العمائم على رءوس الرجال دفعوا فأخر رسول الله صلى عليه وسلم الدفعة من عرفة حتى غربت الشمس ورواه ابن مردويه من حديث زمعة بن صالح وزاد ثم وقف بالمزدلفة وصلى الفجر بغلس حتى إذا أسفر كل شيء وكان فى الوقت الآخر دفع وهذا أحسن الإسناد وقال ابن جريج عن محمد ابن قيس عن المنور بن مخرمة قال . خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو بعرفات فحمد الله وأثنى عليه ثم قال « أما بعد — وكان إذا خطب خطبة قال أما بعد — فان هذا اليوم الحج الأكبر ألا وإن أهل الشرك والأوثان كانوا يدفعون فى هذا اليوم قبل أن تغيب الشمس وإذا كانت الشمس فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها وإنا ندفع بعد أن تغيب الشمس وكانوا يدفعون من المشعر الحرام بعد أن تطلع الشمس إذا كانت الشمس فى رءوس الجبال كأنها عمائم الرجال فى وجوهها وإنا ندفع قبل أن تطلع الشمس مخالفا هدينا هدى أهل الشرك » هكذا رواه ابن مردويه وهذا لفظه والحاكم فى مستدركه كلاهما من حديث عبد الرحمن بن المبارك العيشى عن عبد الوارث بن سعيد عن ابن جريج وقال الحاكم . صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقد صح وثبت بما ذكرناه سماع المسور من رسول الله ﷺ لا كما يتوهمه رعاع أصحابنا أنه ممن له رؤية بلا سماع ، وقال وكيع عن شعبة عن إسماعيل بن رجاء الزبيدى عن المعرور بن سويد قال . رأيت عمر رضى الله عنه حين دفع من عرفة كأنى أنظر إليه رجل أصلع على بعير له يوضع وهو يقول إنا وجدنا الإفاضة هى الإيضاع وفى حديث جابر بن عبد الله الطويل الذى فى صحيح مسلم قال فيه — فلم يزل واقفا يعنى بعرفة حتى غربت الشمس وبدت الصفرة قليلا حتى غاب القرص وأردف أسامة خلفه ودفع رسول الله ﷺ وقد شنق للقصواء الزمام حتى إن رأسها ليصيب مورك رحله ويقول بيده اليمنى « أيها الناس السكينة السكينة » كلما أتى جبلا من الجبال أرخى لها قليلا حتى تصعد حتى أتى المزدلفة فصلى بها المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً ثم اضطجع حتى طلع الفجر فصلى الفجر حين تبين له الصبح بأذان وإقامة ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام فاستقبل القبلة فدعا الله وكبره وهلله ووحده فلم يزل واقفا حتى أسفر جداً فدفع قبل أن تطلع الشمس ، وفى الصحيحين عن أسامة بن زيد أنه سئل كيف كان يسير رسول الله ﷺ حين دفع ؟ قال . كان يسير العنق فإذا وجد فجوة نص . والعنق هو انبساط السير والنص فوقه وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا أبو محمد بن بنت الشافعى فيما كتب إلى عن أبيه أو عمه عن سفيان بن عيينة قوله (فاذا أفضتم من عرفات فاذكروا الله عند المشعر الحرام) وهى الصلاتين(١) جميعا وقال أبو إسحق السبيعى عن عمرو بن ميمون سألت عبد الله بن عمرو عن المشعر الحرام فسكت حتى

(١) كذا فى النسختين ولعل أصله جمع الصلاتين

إذا هبطت أيدى رواحلنا بالمزدلفة قال . أين السائل عن المشعر الحرام ، هـذا المشعر الحرام وقال عبـد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن سالم قال : قال ابن عمر . المشعر الحرام المزدلفة كلها وقال هشام عن حجاج عن نافع عن ابن عمر أنه سئل عن قوله (فاذكروا الله عند المشعر الحرام) قال: فقال هذا الجبل وما حوله وقال عبـد الرزاق أخبرنا معمر عن المغيرة عن إبراهيم قال رآهم بن عمر يزدحمون على قزح فقال على ما[1] يزدحم هؤلاء كل ما ههنا مشعر وروى عن ابن عباس وسعيد بن جبير وعكرمة ومجاهد والسدى والربيع بن أنس والحسن وقتادة أنهم قالوا . هو ما بين الجبلين وقال ابن جريج . قلت لعطاء أين المزدلفة ؟ قال . إذا أفضت من مأزمى عرفة فذلك إلى محسر قال وليس المأزمان مأزما عرفة من المزدلفة ولـكن مفضاها قال . فقف بينهما إن شئت قال وأحب أن تقف دون قزح هلم إلينا من أجل طريق الناس (قلت) والمشاعر هى المعالم الظاهرة وإنما سميت المزدلفة المشعر الحرام لأنها داخل الحرم وهل الوقوف بها ركن فى الحج لا يصح إلا به كما ذهب إليه طائفة من السلف وبعض أصحاب الشافعى منهم القفال وابن خزيمة لحديث عروة بن مضرس ! أو واجب كما هو أحد قولى الشافعى يجبر بدم ! أو مستحب لا يجب بتركه شىء كما هو القول الآخر ؟ فى ذلك ثلاثة أقوال للعلماء لبسطها موضع آخر غير هذا والله أعلم وقال عبـد الله ابن المبارك عن سفيان الثورى عن زيد بن أسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « عرفة كلها موقف وارفعوا عن عرفة وجمع كلها موقف إلا محسراً » هـذا حديث مرسل وقد قال الإمام أحمـد حدثنا أبو المغيرة حدثنا سعيد ابن عبد العزيز حدثنى سليمان بن موسى عن جبير بن مطعم عن النبى ﷺ قال . « كل عرفات موقف وارفعوا عن عرفات وكل مزدلفة موقف وارفعوا عن محسر وكل فجاج مكة منحر وكل أيام التشريق ذبح » وهـذا أيضاً منقطع فان سليمان بن موسى هذا وهو الأشدق لم يدرك جبير بن مطعم ولـكن رواه الوليد بن مسلم وسويد بن عبد العزيز عن سعيد بن عبد العزيز عن سليمان فقال الوليد عن جبير بن مطعم عن أبيه وقال سويد عن نافع بن جبير عن أبيه عن النبى ﷺ فذكره والله أعلم .

وقوله (واذكروه كما هداكم) تنبيه لهم على ما أنعم الله به عليهم من الهداية والبيان والإرشاد إلى مشاعر الحج على ما كان عليه من الهـداية إبراهيم الخليل عليـه السلام ولهـذا قال (وإن كنتم من قبله لمن الضالين) قيل من قبـل هذا الهدى وقبل القرآن وقبل الرسول والـكل متقارب ومتلازم وصحيح

﴿ ثُمَّ أَفِيضُوا مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُوا ٱللَّهَ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

ثم ههنا لعطف خبر على خبر وترتيبه عليـه كأنه تعـالى أمر الواقف بعرفات أن يدفع إلى المزدلفة ليذكر الله عند المشعر الحرام وأمره أن يكون وقوفه مع جمهور الناس بعرفات كما كان جمهور الناس يصنعون يقفون بها إلا قريشاً فانهم لم يكونوا يخرجون من الحرم فيقفون فى طرف الحرم عند أدنى الحل ويقولون نحن أهل الله فى بلدته وقطان بيته قال البخارى . حدثنا على بن عبد الله حدثنا محمد بن حازم حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة قالت كان قريش ومن دان دينها يقفون بالمزدلفة وكانوا يسمون الحمس وسائر العرب يقفون بعرفات فلما جاء الإسلام أمر الله نبيه ﷺ أن يأتى عرفات ثم يقف بها ثم يفيض منها فذلك قوله (من حيث أفاض الناس) وكذا قال ابن عباس ومجاهد وعطاء وقتادة والسدى وغيرهم واختاره ابن جرير وحكى عليه الاجماع . وقال الإمام أحمد حدثنا سفيان عن عمرو عن مجاهد عن محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال أضللت بعيراً لى بعرفة فذهبت أطلبه فاذا النبى ﷺ واقف قلت إن هـذا من الحمس ما شأنه ههنا ! أخرجاه فى الصحيحين ثم رواه البخارى من حديث موسى بن عقبة عن كريب عن ابن عباس ما يقتضى أن المراد بالإفاضة ههنا هى الإفاضة من المزدلفة إلى منى لرمى الجمار فالله أعلم . وحكاه ابن جرير عن الضحاك بن مزاحم فقط . قال والمراد بالناس إبراهيم عليه السلام ،وفى رواية عند الإمام، قال ابن جرير ولولا إجماع الحجة على خلافه لـكان هو الأرجح

وقوله (واستغفروا الله إن الله غفور رحيم) كثيراً ما يأمر الله بذكره بعد قضاء العبادات ولهذا ثبت فى صحيح

---

[1] هكذا فى النسخة الأميرية ولـكن الفصيح حذف الف ما الاستفهامية إن جرت وأن تكتب هكذا (علام) اه

مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا فرغ من الصلاة يستغفر الله ثلاثا وفى الصحيحين أنه ندب إلى التسبيح والتحميد والتكبير ثلاثا وثلاثين . وقد روى ابن جرير ههنا حديث ابن عباس بن مرداس السلمى فى استغفاره صلى الله عليه وسلم لأمته عشية عرفة وقد أوردناه فى جزء جمعناه فى فضل يوم عرفة وأورد ابن مردويه ههنا الحديث الذى رواه البخارى عن شداد بن أوس قال : قال رسول الله ﷺ « سيد الاستغفار أن يقول العبد . اللهم أنت ربى لا إله إلا أنت خلقتنى وأنا عبدك وأنا على عهدك ووعدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت أبوء لك بنعمتك على وأبوء بذنبى فاغفر لى فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت . من قالها فى ليلة فمات فى ليلته دخل الجنة ومن قالها فى يومه فمات دخل الجنة » وفى الصحيحين عن عبد الله بن عمر أن أبا بكر قال يا رسول الله علمنى دعاء أدعو به فى صلاتى فقال « قل اللهم إنى ظلمت نفسى ظلماً كثيراً ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لى مغفرة من عندك وارحمنى إنك أنت الغفور الرحيم » والأحاديث فى الاستغفار كثيرة

﴿ فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا فَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ * وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ * أُولَٰئِكَ لَهُمْ نَصِيبٌ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾

يأمر تعالى بذكره والإكثار منه بعد قضاء المناسك وفراغها وقوله (كذكركم آباءكم) اختلفوا فى معناه فقال ابن جريج عن عطاء هو كقول الصبى أبه أمه يعنى كما يلهج الصبى بذكر أبيه وأمه فكذلك أنتم فالهجوا بذكر الله بعد قضاء النسك وكذا قال الضحاك والربيع بن أنس ، وروى ابن جرير من طريق العوفى عن ابن عباس نحوه . وقال سعيد ابن جبير عن ابن عباس : كان أهل الجاهلية يقفون فى الموسم فيقول الرجل منهم كان أبى يطعم ويحمل الحمالات ويحمل الديات ليس لهم ذكر غير فعال آبائهم فأنزل الله على محمد ﷺ (فاذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشد ذكراً) قال ابن أبى حاتم : وروى السدى عن أنس بن مالك وأبى وائل وعطاء بن أبى رباح فى أحد قوليه وسعيد بن جبير وعكرمة فى أحد رواياته ومجاهد والسدى وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس والحسن وقتادة ومحمد بن كعب ومقاتل ابن حيان نحو ذلك ، وهكذا حكاه ابن جرير عن جماعة والله أعلم . والمقصود منه الحث على كثرة الذكر لله عز وجل ولهذا كان انتصاب قوله أو أشد ذكرا على التمييز تقديره - كذكركم آباءكم أو أشد ذكرا وأوهمنا لتحقيق المماثلة فى الخبر كقوله (فهى كالحجارة أو أشد قسوة) وقوله (يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية) (فأرسلناه إلى مائة ألف أو يزيدون) (فكان قاب قوسين أو أدنى) فليست ههنا للشك قطعا وإنما هى لتحقيق الخبر عنه كذلك أو أزيد منه ثم إنه تعالى أرشد إلى دعائه بعد كثرة ذكره فانه مظنة الإجابة وذم من لا يسأله إلا فى أمر دنياه وهو معرض عن أخراه فقال (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وماله فى الآخرة من خلاق) أى من نصيب ولا حظ وتضمن هذا الذم والتنفير عن التشبه بمن هو كذلك قال سعيد بن جبير عن ابن عباس كان قوم من الأعراب يجيئون إلى الموقف فيقولون اللهم اجعله عام غيث وعام خصب وعام ولاد حسن لا يذكرون من أمر الآخرة شيئاً فأنزل الله فيهم (فمن الناس من يقول ربنا آتنا فى الدنيا وما له فى الآخرة من خلاق) وكان يجىء بعدهم آخرون من المؤمنين فيقولون (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فأنزل الله (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) ولهذا مدح من يسأله الدنيا والأخرى فقال (ومنهم من يقول ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) فجمعت هذه الدعوة كل خير فى الدنيا وصرفت كل شر فان الحسنة فى الدنيا تشمل كل مطلوب دنيوى من عافية ودار رحبة وزوجة حسنة ورزق واسع وعلم نافع وعمل صالح ومركب هين وثناء جميل إلى غير ذلك مما اشتملت عليه عبارات المفسرين ولا منافاة بينها فانها كلها مندرجة

فى الحسنة فى الدنيا . وأما الحسنة فى الآخرة فأعلى ذلك دخول الجنة وتوابعه من الأمن من الفزع الأكبر فى العرصات وتيسير الحساب وغير ذلك من أمور الآخرة الصالحة وأما النجاة من النار فهو يقتضى تيسير أسبابه فى الدنيا من اجتناب المحارم والآثام وترك الشبهات والحرام . وقال القاسم أبو عبد الرحمن: من أعطى قلبا شاكراً ولساناً ذاكرا وجسداً صابرا فقد أوتى فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووقى عذاب النار . ولهذا وردت السنة بالترغيب فى هذا الدعاء . فقال البخارى : حدثنا معمر حدثنا عبد الوارث عن عبد العزيز عن أنس بن مالك قال :كان النبى صلى الله عليه وسلم يقول « اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وقال أحمد حدثنا إسماعيل بن إبراهيم حدثنا عبد العزيز بن صهيب قال : سأل قتادة أنسا أى دعوة كان أكثر مايدعوها النبى صلى الله عليه وسلم قال : يقول «اللهم ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار » وكان أنس إذا أراد أن يدعو بدعوة دعا بها وإذا أراد أن يدعو بدعاء دعا بها فيه ورواه مسلم وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد السلام بن شداد يعنى أبا طالوت قال كنت عند أنس بن مالك فقال له ثابت إن إخوانك يحبون أن تدعو لهم ، فقال « اللهم آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار» وتحدثوا ساعة حتى إذا أرادوا القيام قال ياأبا حمزة : إن إخوانك يريدون القيام فادع الله لهم فقال : أتريدون أن أشقق لكم الأمور إذا آتاكم الله فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة ووقاكم عذاب النار فقد آتاكم الخير كله وقال أحمد أيضاً حدثنا محمد بن أبى عدى عن حميد عن ثابت عن أنس أن رسول الله ﷺ عاد رجلا من المسلمين قد صار مثل الفرخ فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدعو الله بشىء أو تسأله إياه ؟ قال نعم : كنت أقول اللهم ما كنت معاقبى به فى الآخرة فعجله لى فى الدنيا . فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم سبحان الله لا تطيقه أولا تستطيعه فهلا قلت (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) » قال فدعا الله فشفاه انفرد باخراجه مسلم فرواه من حديث ابن أبى عدى به. وقال الإمام الشافعى: أخبرنا سعيد ابن سالم القداح عن ابن جريج عن يحيى بن عبيد مولى السائب عن أبيه عن عبد الله بن السائب أنه سمع النبى ﷺ يقول فيما بين ركن بنى جمح والركن الأسود (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) ورواه الثورى عن ابن جريج كذلك وروى ابن ماجه عن أبى هريرة عن النبى ﷺ نحو ذلك وفى سنده ضعف والله أعلم وقال ابن مردويه حدثنا عبد الباقى أخبرنا أحمد بن القاسم بن مساور حدثنا سعيد بن سليمان عن عبد الله بن هرمز عن مجاهد عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «ما مررت على الركن إلا رأيت عليه ملكا يقول آمين فإذا مررتم عليه فقولوا (ربنا آتنا فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة وقنا عذاب النار) » وقال الحاكم فى مستدركه حدثنا أبو زكريا العنبرى حدثنا محمد بن عبد السلام حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا جرير عن الأعمش عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير قال : جاء رجل إلى ابن عباس فقال : إنى أجرت نفسى من قوم على أن يحملونى ووضعت لهم من أجرتى على أن يدعونى أحج معهم أفيجزى ذلك ؟ فقال أنت من الذين قال الله (أولئك لهم نصيب مما كسبوا والله سريع الحساب) ثم قال الحاكم صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه

﴿ وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَنْ تَأَخَّرَ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ لِمَنِ اتَّقَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾

قال ابن عباس : الأيام المعدودات أيام التشريق والأيام المعلومات أيام العشر وقال عكرمة (واذكروا الله فى أيام معدودات) يعنى التكبير فى أيام التشريق بعد الصلوات المكتوبات الله أكبر الله أكبر. وقال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا موسى بن على عن أبيه قال . سمعت عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم عرفة ويوم النحر وأيام التشريق عيدنا أهل الإسلام وهى أيام أكل وشرب » وقال أحمد أيضاً . حدثنا هشام أخبرنا

خالد عن أبي المليح عن نبيشة الهذلى قال : قال رسول الله ﷺ « أيام التشريق أيام أكل وشرب وذكر الله » ورواه مسلم أيضا وتقدم حديث جبير بن مطعم « عرفة كلها موقف وأيام التشريق كلها ذبح » وتقدم أيضا حديث عبد الرحمن بن يعمر الديلى « وأيام منى ثلاثة فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه » وقال ابن جرير حدثنا يعقوب بن إبراهيم وخلاد بن أسلم قالا حدثنا هشام عن عمرو بن أبي سلمة عن أبيه عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال « أيام التشريق أيام طعم وذكر الله » وحدثنا خالد بن أسلم حدثنا روح حدثنا صالح حدثنى ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ بعث عبد الله بن حذافة يطوف فى منى « لا تصوموا هذه الأيام فانها أيام أكل وشرب وذكر الله عز وجل » وحدثنا يعقوب حدثنا هشام عن سفيان بن حسين عن الزهرى قال بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن حذافة فنادى فى أيام التشريق فقال « إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله إلا من كان عليه صوم من هدى » زيادة حسنة ولكن مرسلة . وبه قال هشام عن عبد الملك ابن أبي سليمان عن عمرو بن دينار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث بشر بن سحيم فنادى فى أيام التشريق فقال « إن هذه أيام أكل وشرب وذكر الله » وقال هشيم عن ابن أبي ليلى عن عطاء عن عائشة قالت : نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن صوم أيام التشريق قال « وهى أيام أكل وشرب وذكر الله » وقال محمد بن إسحق عن حكيم بن حكيم عن مسعود بن الحكم الزرقى عن أمه قالت : لكأنى أنظر إلى على على بغلة رسول الله ﷺ البيضاء حتى وقف على شعب الأنصار وهو يقول : يا أيها الناس إنها ليست بأيام صيام إنما هى أيام أكل وشرب وذكر الله . وقال مقسم عن ابن عباس . الأيام المعدودات أيام التشريق أربعة أيام يوم النحر وثلاثة بعده ، وروى عن ابن عمر وابن الزبير وأبي موسى وعطاء ومجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير وأبي مالك وإبراهيم النخعى ويحيى ابن أبي كثير والحسن وقتادة والسدى والزهرى والربيع بن أنس والضحاك ومقاتل بن حيان وعطاء الخراسانى ومالك بن أنس وغيرهم مثل ذلك ، وقال على بن أبي طالب هى ثلاثة يوم النحر ويومان بعده اذبح فى أيهن شئت وأفضلها أولها والقول الأول هو المشهور وعليه دل ظاهر الآية الكريمة حيث قال (فمن تعجل فى يومين فلا إثم عليه ومن تأخر فلا إثم عليه) فدل على ثلاثة بعد النحر ويتعلق بقوله (واذكروا الله فى أيام معدودات) ذكر الله على الأضاحى وقد تقدم أن الراجح فى ذلك مذهب الشافعى رحمه الله وهو ان وقت الأضحية من يوم النحر إلى آخر أيام التشريق ، ويتعلق به أيضا الذكر المؤقت خلف الصلوات والمطلق فى سائر الأحوال وفى وقته أقوال للعلماء أشهرها الذى عليه العمل أنه من صلاة الصبح يوم عرفة إلى صلاة العصر من آخر أيام التشريق وهو آخر النفر الآخر وقد جاء فيه حديث رواه الدارقطنى ولكن لا يصح مرفوعا والله أعلم . وقد ثبت أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه كان يكبر فى قبته فيكبر أهل السوق بتكبيره حتى ترتج منى تكبيرا ويتعلق بذلك أيضا التكبير وذكر الله عند رمى الجمرات كل يوم من أيام التشريق وقد جاء فى الحديث الذى رواه أبو داود وغيره إنما جعل الطواف بالبيت والسعى بين الصفا والمروة ورمى الجمار لإقامة ذكر الله عز وجل . ولما ذكر الله تعالى النفر الأول والثانى وهو تفرق الناس من موسم الحج إلى سائر الأقاليم والآفاق بعد اجتماعهم فى المشاعر والمواقف قال (واتقوا الله واعلموا أنكم اليه تحشرون) كما قال (وهو الذى ذرأكم فى الأرض واليه تحشرون) .

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعْجِبُكَ قَوْلُهُۥ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيُشْهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِى قَلْبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلْخِصَامِ * وَإِذَا تَوَلَّىٰ سَعَىٰ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ ٱلْحَرْثَ وَٱلنَّسْلَ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلْفَسَادَ * وَإِذَا قِيلَ لَهُ ٱتَّقِ ٱللَّهَ أَخَذَتْهُ ٱلْعِزَّةُ بِٱلْإِثْمِ فَحَسْبُهُۥ جَهَنَّمُ وَلَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ * وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾

قال السدى . نزلت فى الأخنس بن شريق الثقفى جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأظهر الاسلام وفى باطنه

خلاف ذلك وعن ابن عباس أنها نزلت فى نفر من المنافقين تكلموا فى خبيب وأصحابه الذين قتلوا بالرجيع وعابوهم فأنزل الله فى ذم المنافقين ومدح خبيب وأصحابه (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله) وقيل بل ذلك عام فى المنافقين كلهم وفى المؤمنين كلهم وهذا قول قتادة ومجاهد والربيع بن أنس وغير واحد وهو الصحيح : وقال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى الليث بن سعد عن خالد بن يزيد عن سعيد بن أبى هلال عن القرظى عن نوف وهو البكالى وكان ممن يقرأ الكتب قال إنى لأجد صفة ناس من هذه الأمة فى كتاب الله المنزل : قوم يحتالون على الدنيا بالدين ، ألسنتهم أحلى من العسل ، وقلوبهم أمر من الصبر ، يلبسون للناس مسوك الضأن ، وقلوبهم قلوب الذئاب ، يقول الله تعالى : فعلىّ يجترئون وبى يغترون حلفت بنفسى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم فيها حيران ، قال القرظى تدبرتها فى القرآن فاذا هم المنافقون فوجدتها (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على مافى قلبه) الآية وحدثنى محمد بن أبى معشر أخبرنى أبو معشر نجيح قال سمعت سعيدا المقبرى يذاكر محمد بن كعب القرظى فقال سعيد إن فى بعض الكتب . إن عبادا ألسنتهم أحلى من العسل وقلوبهم أمر من الصبر لبسوا للناس مسوك الضأن من اللين ، يجترون الدنيا بالدين قال الله تعالى : على تجترئون وبى تغترون ؟ وعزتى لأبعثن عليهم فتنة تترك الحليم منهم حيران فقال محمد بن كعب هذا فى كتاب الله فقال سعيد وأين هو من كتاب الله قال قول الله (ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا) الآية فقال سعيد . قد عرفت فيمن أنزلت هذه الآية فقال محمد بن كعب إن الآية تنزل فى الرجل ثم تكون عامة بعد وهذا الذى قاله القرظى حسن صحيح . وأما قوله (ويشهد الله على ما فى قلبه) فقرأه ابن محيصن (ويشهد الله) بفتح الياء وضم الجلالة (على مافى قلبه) ومعناها أن هذا وإن أظهر لكم الحيل لكن الله يعلم من قلبه القبيح كقوله تعالى (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) وقراءة الجمهور بضم الياء ونصب الجلالة (ويشهد الله على مافى قلبه) ومعناه أنه يظهر للناس الإسلام ويبارز الله بما فى قلبه من الكفر والنفاق كقوله تعالى (يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله) الآية هذا معنى مارواه ابن إسحق عن محمد بن أبى محمد عن عكرمة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس وقيل معناه أنه إذا أظهر للناس الإسلام حلف وأشهد الله لهم أن الذى فى قلبه موافق للسانه وهذا المعنى صحيح ، وقاله عبد الرحمن بن زيد بن أسلم واختاره ابن جرير وعزاه إلى ابن عباس وحكاه عن مجاهد والله أعلم .

وقوله (وهو ألد الخصام) الألد فى اللغة الأعوج (وتنذر به قوما لدا) أى عوجا وهكذا المنافق فى حال خصومته يكذب ويزور عن الحق ولا يستقيم معه بل يفترى ويفجر كما ثبت فى الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر » وقال البخارى . حدثنا قبيصة حدثنا سفيان عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة ترفعه . قال . « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » قال : وقال عبد الله بن يزيد حدثنا سفيان حدثنا ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم » وهكذا رواه عبد الرزاق عن معمر فى قوله (وهو ألد الخصام) عن ابن جريج عن ابن أبى مليكة عن عائشة عن النبى ﷺ قال « إن أبغض الرجال إلى الله الألد الخصم »

وقوله (وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد) أى هو أعوج المقال سيء الفعال فذلك قوله وهذا فعله ، كلامه كذب ، واعتقاده فاسد ، وأفعاله قبيحة ، والسعى ههنا هو القصد كما قال إخبارا عن فرعون (ثم أدبر يسعى فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأولى ، إن فى ذلك لعبرة لمن يخشى) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله) أى اقصدوا واعمدوا ناوين بذلك صلاة الجمعة فان السعى الحسى إلى الصلاة منهى عنه بالسنة النبوية « إذا أتيتم الصلاة فلا تأتوها وأنتم تسعون وأتوها وعليكم السكينة والوقار » فهذا المنافق ليس له همة إلا الفساد فى الأرض وإهلاك الحرث وهو محل نماء الزروع والثمار والنسل وهو نتاج الحيوانات الذين لا قوام للناس إلا بهما . وقال مجاهد إذا

سعى فى الأرض إفسادا منع الله القطر فهلك الحرث والنسل (والله لايحب الفساد) أى لايحب من هذه صفته ولا من يصدر منه ذلك

وقوله (وإذا قيل له اتق الله أخذته العزة بالإثم) أى إذا وعظ هذا الفاجر فى مقاله وفعاله وقيل له اتق الله وانزع عن قولك وفعلك وارجع إلى الحق امتنع وأبى وأخذته الحمية والغضب بالإثم أى بسبب ما اشتمل عليه من الآثام وهذه الآية شبيهة بقوله تعالى (وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير) ولهذا قال فى هذه الآية (فحسبه جهنم ولبئس المهاد) أى هى كافيته عقوبة فى ذلك .

وقوله (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) لما أخبر عن المنافقين بصفاتهم الذميمة ذكر صفات المؤمنين الحميدة فقال (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) قال ابن عباس وأنس وسعيد بن المسيب وأبو عثمان النهدى وعكرمة وجماعة نزلت فى صهيب بن سنان الرومى وذلك أنه لما أسلم بمكة وأراد الهجرة منعه الناس أن يهاجر بماله وإن أحب أن يتجرد منه ويهاجر فعل فتخلص منهم وأعطاهم ماله فأنزل الله فيه هذه الآية فتلقاه عمر بن الخطاب وجماعة إلى طرف الحرة فقالوا له ربح البيع فقال وأنتم فلا أخسر الله تجارتكم وما ذاك فأخبروه أن الله أنزل فيه هذه الآية ويروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له « ربح البيع صهيب » قال ابن مردويه حدثنا محمد بن إبراهيم حدثنا محمد بن عبد الله بن رسته حدثنا سليمان بن داود حدثنا جعفر بن سليمان الضبى حدثنا عوف عن أبى عثمان النهدى عن صهيب قال لما أردت الهجرة من مكة إلى النبى ﷺ قالت لى قريش ياصهيب قدمت الينا ولا مال لك وتخرج أنت ومالك والله لا يكون ذلك أبدا فقلت لهم أرأيتم إن دفعت اليكم مالى تخلون عنى ؟ قالوا نعم ، فدفعت اليهم مالى فخلوا عنى فخرجت حتى قدمت المدينة فبلغ ذلك النبى ﷺ فقال « ربح صهيب ربح صهيب » مرتين وقال حماد بن سلمة عن على بن زيد عن سعيد بن المسيب قال أقبل صهيب مهاجرا نحو النبى ﷺ فاتبعه نفر من قريش فنزل عن راحلته وانثل ما فى كنانته ثم قال يامعشر قريش قد علمتم أنى من أرماكم رجلا وأنتم والله لاتصلون إلى حتى أرمى بكل سهم فى كنانتى ثم أضرب بسيفى مابقى فى يدى منه شىء ثم افعلوا ما شئتم وإن شئتم دللتكم على مالى وتنيق بمكة وخليتم سبيلى قالوا نعم فلما قدم على النبى صلى الله عليه وسلم قال « ربح البيع » قال ونزلت (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد) وأما الأكثرون فحملوا ذلك على أنها نزلت فى كل مجاهد فى سبيل الله كما قال تعالى (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون فى سبيل الله فيقتلون ويقتلون وعدا عليه حقا فى التوراة والإنجيل والقرآن ، ومن أوفى بعهده من الله ؟ فاستبشروا ببيعكم الذى بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم) ولما حمل هشام بن عامر بين الصفين أنكر عليه بعض الناس فرد عليهم عمر بن الخطاب وأبو هريرة وغيرهما وتلوا هذه الآية (ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضات الله والله رؤف بالعباد) .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * فَإِنْ زَلَلْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْكُمُ الْبَيِّنَاتُ فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

يقول الله تعالى آمرا عباده المؤمنين به المصدقين برسوله أن يأخذوا بجميع عرى الاسلام وشرائعه والعمل بجميع أوامره وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك . قال العوفى عن ابن عباس ومجاهد وطاوس والضحاك وعكرمة وقتادة والسدى وابن زيد فى قوله (ادخلوا فى السلم) يعنى الاسلام وقال الضحاك عن ابن عباس وأبو العالية والربيع بن أنس (ادخلوا فى السلم) يعنى الطاعة . وقال قتادة أيضا الموادعة وقوله (كافة) قال ابن عباس ومجاهد

وأبو العالية وعكرمة والربيع بن أنس والسدى ومقاتل بن حيان وقتادة والضحاك جميعا ، وقال مجاهد أى اعملوا بجميع الأعمال ووجوه البر .

وزعم عكرمة أنها نزلت فى نفر ممن أسلم من اليهود وغيرهم كعبد الله بن سلام وأسد بن عبيد وثعلبة وطائفة استأذنوا رسول الله ﷺ فى أن يسبتوا وأن يقوموا بالتوراة ليلا فأمرهم الله بإقامة شعائر الإسلام والاشتغال بها عما عداها وفى ذكر عبد الله بن سلام مع هؤلاء نظر إذ يبعد أن يستأذن فى إقامة السبت وهو مع تمام إيمانه يتحقق نسخه ورفعه وبطلانه والتعويض عنه بأعياد الاسلام .

ومن المفسرين من يجعل قوله (كافة) حالا من الداخلين أى ادخلوا فى الاسلام كلكم والصحيح الأول وهو أنهم أمروا كلهم أن يعملوا بجميع شعب الإيمان وشرائع الاسلام وهى كثيرة جدا ما استطاعوا منها كما قال ابن أبى حاتم أخبرنا على بن الحسين أخبرنا أحمد بن الصباح أخبرنى الهيثم بن يمان حدثنا إسماعيل بن زكريا حدثنى محمد بن عون عن عكرمة عن ابن عباس (يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة) كذا قرأها بالنصب يعنى مؤمنى أهل الكتاب فانهم كانوا مع الإيمان بالله مستمسكين ببعض أمور التوراة والشرائع التى أنزلت فيهم فقال الله (ادخلوا فى السلم كافة) يقول ادخلوا فى شرائع دين محمد ﷺ ولا تدعوا منها شيئا وحسبكم الإيمان بالتوراة وما فيها . وقوله (ولا تتبعوا خطوات الشيطان) أى اعملوا بالطاعات واجتنبوا ما يأمركم به الشيطان فإنما يأمركم بالسوء والفحشاء وأن تقولوا على الله مالا تعلمون) ، و(إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير) ، ولهذا قال (إنه لكم عدو مبين) : قال مطرف : أغش عباد الله لعبيد الله الشيطان ؟ وقوله (فإن زللتم من بعد ماجاءتكم البينات) أى عدلتم عن الحق بعد ماقامت عليكم الحجج فاعلموا أن الله عزيز أى فى انتقامه لايفوته هارب ولا يغلبه غالب حكيم فى أحكامه ونقضه وإبرامه ولهذا قال أبو العالية وقتادة والربيع بن أنس . عزيز فى نقمته حكيم فى أمره وقال محمد بن إسحق : العزيز فى نصره ممن كفر به إذا شاء الحكيم فى عذره وحجته إلى عباده .

﴿ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَن يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِّنَ الْغَمَامِ وَالْمَلَائِكَةُ وَقُضِيَ الْأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ ﴾

يقول تعالى مهددا للكافرين بمحمد صلوات الله وسلامه عليه (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) يعنى يوم القيامة لفصل القضاء بين الأولين والآخرين فيجزى كل عامل بعمله إن خيرا فخير وإن شرا فشر ولهذا قال تعالى (وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور) كما قال الله تعالى (كلا إذا دكت الأرض دكا دكا * وجاء ربك والملك صفا صفا * وجىء يومئذ بجهنم يومئذ يتذكر الإنسان وأنى له الذكرى) وقال (هل ينظرون إلا أن تأتيهم الملائكة أو يأتى ربك أو يأتى بعض آيات ربك) الآية . وقد ذكر الإمام أبو جعفر بن جرير ههنا حديث الصور بطوله من أوله عن أبى هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث مشهور ساقه غير واحد من أصحاب المسانيد وغيرهم وفيه — أن الناس إذا اهتموا لموقفهم فى العرصات تشفعوا إلى ربهم بالأنبياء واحدا واحدا من آدم فمن بعده فكلهم يحيد عنها حتى ينتهوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فاذا جاءوا اليه قال « أنا لها أنا لها » فيذهب فيسجد لله تحت العرش ويشفع عند الله فى أن يأتى لفصل القضاء بين العباد فيشفعه الله ويأتى فى ظلل من الغمام بعد ماتنشق السماء الدنيا وينزل من فيها من الملائكة ثم الثانية ثم الثالثة إلى السابعة وينزل حملة العرش والكروبيون قال وينزل الجبار عز وجل فى ظلل من الغمام والملائكة ولهم زجل من تسبيحهم يقولون : سبحان ذى الملك والملكوت سبحان ذى العزة والجبروت ، سبحان الحى الذى لا يموت ، سبحان الذى يميت الخلائق ولا يموت ، سبوح قدوس رب الملائكة والروح ، سبوح قدوس سبحان ربنا الأعلى ، سبحان ذى السلطان والعظمة سبحانه سبحانه أبداً أبدا . وقد أورد الحافظ أبو بكر بن مردويه ههنا أحاديث فيها غرابة والله أعلم . فمنها ما رواه من حديث المنهال بن عمرو عن أبى عبيدة بن عبد الله بن ميسرة عن مسروق عن ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « يجمع الله الأولين

والآخرين لميقات يوم معلوم قياما شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء وينزل الله فى ظلل من الغمام من العرش إلى الكرسى » وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا أبو بكر بن عطاء بن مقدم حدثنا معتمر بن سليمان سمعت عبد الجليل القيسى يحدث عن عبد الله بن عمرو (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) الآية . قال يهبط حين يهبط وبينه وبين خلقه سبعون ألف حجاب منها النور والظلمة والماء فيصوت الماء فى تلك الظلمة صوتا تنخلع له القلوب . قال : وحدثنا أبى حدثنا محمد بن الوزير الدمشقى حدثنا الوليد قال . سألت زهير بن محمد عن قول الله (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام) قال. ظلل من الغمام منظوم من الياقوت مكلل بالجوهر والزبرجد وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد فى ظلل من الغمام قال . هو غير السحاب ولم يكن قط إلا لبنى إسرائيل فى تيههم حين تاهوا وقال : أبو جعفر الرازى عن الربيع بن أنس عن أبى العالية . (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة) يقول والملائكة يجيئون فى ظلل من الغمام والله تعالى يجىء فيما يشاء وهى فى بعض القراءات (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله والملائكة فى ظلل من الغمام) وهى كقوله (ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا)

﴿ سَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ كَمْ آتَيْنَاهُم مِّنْ آيَةٍ بَيِّنَةٍ وَمَن يُبَدِّلْ نِعْمَةَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ * زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ اتَّقَوْا فَوْقَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَاللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن بنى إسرائيل كم شاهدوا مع موسى من آية بينة أى حجة قاطعة بصدقه فيما جاءهم به كيده وعصاه وفلقه البحر وضربه الحجر وما كان من تضليل الغمام عليهم فى شدة الحر ومن إنزال المن والسلوى وغير ذلك من الآيات الدالات على وجود الفاعل المختار وصدق من جرت هذه الخوارق على يديه ومع هذا أعرض كثير منهم عنها وبدلوا نعمة الله كفراً أى استبدلوا بالإيمان بها الكفر بها والاعراض عنها (ومن يبدل نعمة الله من بعد ماجاءته فان الله شديد العقاب) كما قال تعالى إخباراً عن كفار قريش (ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفراً وأحلوا قومهم دار البوار * جهنم يصلونها وبئس القرار) ثم أخبر تعالى عن تزيينه الحياة الدنيا للكافرين الذين رضوا بها واطمأنوا إليها وجمعوا الأموال ومنعوها عن مصارفها التى أمروا بها مما يرضى الله عنهم وسخروا من الذين آمنوا الذين أعرضوا عنها وأنفقوا ما حصل لهم منها فى طاعة ربهم وبذلوه ابتغاء وجه الله فلهذا فازوا بالمقام الأسعد والحظ الأوفر يوم معادهم فكانوا فوق أولئك فى محشرهم ومنشرهم ومسيرهم ومأواهم فاستقروا فى الدرجات فى أعلى عليين وخلد أولئك فى الدركات فى أسفل سافلين ؟ ولهذا قال تعالى (والله يرزق من يشاء بغير حساب) أى يرزق من يشاء من خلقه ويعطيه عطاء كثيراً جزيلا بلا حصر ولا تعداد فى الدنيا والآخرة كما جاء فى الحديث « ابن آدم أنفق أنفق عليك » وقال النبى صلى الله عليه وسلم « أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلالا » وقال تعالى (وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه) وفى الصحيح « أن ملكين ينزلان من السماء صبيحة كل يوم فيقول أحدهما. اللهم أعط منفقا خلفا ويقول الآخر . اللهم أعط ممسكا تلفا » وفى الصحيح « يقول ابن آدم . مالى مالى . وهل لك من مالك إلا ما أكلت فأفنيت ومالبست فأبليت وما تصدقت فأمضيت وما سوى ذلك فذاهب وتاركه للناس » وفى مسند الإمام أحمد عن النبى ﷺ أنه قال « الدنيا دار من لا دار له ومال من لا مال له ولها يجمع من لا عقل له »

﴿ كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ

ءامَنُوا لِمَا ٱخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَٱللَّهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾

قال ابن جرير . حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو داود أخبرنا همام عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس قال كان بين نوح وآدم عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين قال . وكذلك هى فى قراءة عبد الله (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا) ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث بندار عن محمد بن بشار ثم قال . صحيح الإسناد ولم يخرجاه وكذا روى أبو جعفر الرازى عن أبى العالية عن أبى بن كعب أنه كان يقرؤها (كان الناس أمة واحدة فاختلفوا فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) وقال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن قتادة فى قوله (كان الناس أمة واحدة) قال . كانوا على الهدى جميعاً (فاختلفوا فبعث الله النبيين) فكان أول من بعث نوحا . وهكذا قال مجاهد كما قال ابن عباس أولا . وقال العوفى عن ابن عباس (كان الناس أمة واحدة) يقول . كانوا كفارا (فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين) والقول الأول عن ابن عباس أصح سندا ومعنى لأن الناس كانوا على ملة آدم حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض،

ولهذا قال تعالى (وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بغيا بينهم) أى من بعد ما قامت الحجج عليهم وما حملهم على ذلك إلا البغى من بعضهم على بعض(فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم) وقال عبد الرزاق حدثنا معمر عن سليمان الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة فى قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) الآية قال : قال النبى صلى الله عليه وسلم « نحن الآخرون الأولون يوم القيامه نحن أول الناس دخولا الجنة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا وأوتيناه من بعدهم فهدانا الله لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه فهذا اليوم الذى اختلفوا فيه فهدانا الله له فالناس لنا فيه تبع فغداً لليهود وبعد غدا للنصارى » ثم رواه عبد الرزاق عن معمر عن ابن طاوس عن أبيه عن أبى هريرة . وقال ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه فى قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) فاختلفوا فى يوم الجمعة فاتخذوا اليهود يوم السبت والنصارى يوم الأحد فهدى الله أمة محمد (ﷺ) ليوم الجمعة واختلفوا فى القبلة فاستقبلت النصارى المشرق واليهود بيت المقدس فهدى الله أمة محمد للقبلة واختلفوا فى الصلاة فمنهم من يركع ولا يسجد ومنهم من يسجد ولا يركع ومنهم من يصلى وهو يتكلم ومنهم من يصلى وهو يمشى فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك واختلفوا فى الصيام فمنهم من يصوم بعض النهار ومنهم من يصوم عن بعض الطعام فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك. واختلفوا فى إبراهيم عليه السلام فقالت اليهود كان يهوديا وقالت النصارى كان نصرانيا وجعله الله حنيفا مسلما فهدى الله أمة محمد للحق من ذلك . واختلفوا فى عيسى عليه السلام فكذبت به اليهود وقالوا لأمه بهتانا عظيما وجعلته النصارى إلها وولداً وجعله الله روحه وكلمته فهدى الله أمة محمد صلى الله عليه وسلم للحق من ذلك وقال الربيع بن أنس فى قوله (فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه) أى عند الاختلاف أنهم كانوا على ماجاءت به الرسل قبل الاختلاف أقاموا على الإخلاص لله عز وجل وحده وعبادته لا شريك له وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة فأقاموا على الأمر الأول الذى كان قبل الاختلاف واعتزلوا الاختلاف وكانو شهداء على الناس يوم القيامة شهداء على قوم نوح وقوم هود وقوم صالح وقوم شعيب وآل فرعون أن رسلهم قد بلغوهم وأنهم قد كذبوا رسلهم وفى قراءة أبى بن كعب وليكونوا شهداء على الناس يوم القيامة والله يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم وكان أبو العالية يقول فى هذه الآية المخرج من الشبهات والضلالات والفتن

وقوله (بإذنه) أى بعلمه بهم وبما هداهم له قاله ابن جرير (والله يهدى من يشاء) أى من خلقه (إلى صراط مستقيم) أى وله الحكمة والحجة البالغة وفى صحيح البخارى ومسلم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان إذا قام من الليل يصلى يقول . « اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل فاطر السموات والأرض عالم الغيب والشهادة

أنت تحكم بين عبادك فيما كانو فيه يختلفون اهدنى لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدى من تشاء إلى صراط مستقيم » وفى الدعاء المأثور « اللهم أرنا الحق حقا وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلا وارزقنا اجتنابه ولا تجعله ملتبساً علينا فنضل واجعلنا للمتقين إماما»

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾

يقول تعالى (أم حسبتم أن تدخلوا الجنة) قبل أن تبتلوا وتختبروا وتمتحنوا كما فعل بالذين من قبلكم من الأمم ولهذا قال (ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء) وهى الأمراض والأسقام والآلام والمصائب والنوائب . قال ابن مسعود وابن عباس وأبو العالية ومجاهد وسعيد بن جبير ومرة الهمدانى والحسن وقتادة والضحاك والربيع والسدى ومقاتل بن حيان (البأساء) الفقر (والضراء) السقم (وزلزلوا) خوفوا من الأعداء زلزالا شديداً وامتحنوا امتحانا عظيما كما جاء فى الحديث الصحيح عن خباب بن الأرت قال : قلنا يا رسول الله ألا تستنصر لنا ألا تدعو الله لنا فقال « إن من كان قبلكم كان أحدهم يوضع المنشار على مفرق رأسه فيخلص إلى قدميه لا يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد ما بين لحمه وعظمه لا يصرفه ذلك عن دينه » ثم قال « والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه ولكنكم قوم تستعجلون » وقال الله تعالى (الم . أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون ، ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين) وقد حصل من هذا جانب عظيم للصحابة رضى الله تعالى عنهم فى يوم الأحزاب كما قال الله تعالى (إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا * هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا * وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) الآيات . ولما سأل هرقل أبا سفيان هل قاتلتموه قال : نعم . قال فكيف كانت الحرب بينكم ؟ قال سجالا يدال علينا وندال عليه قال : كذلك الرسل تبتلى ثم تكون لها العاقبة . وقوله (مثل الذين خلوا من قبلكم) أى سنتهم كما قال تعالى (فأهلكنا أشد منهم بطشاً ومضى مثل الأولين) وقوله (وزلزلوا حتى يقول الرسل والذين آمنوا معه متى نصر الله) أى يستفتحون على أعدائهم ويدعون بقرب الفرج والمخرج عند ضيق الحال والشدة ، قال الله تعالى (ألا إن نصر الله قريب) كما قال (فان مع العسر يسراً إن مع العسر يسراً) وكما تكون الشدة ينزل من النصر مثلها ولهذا قال (ألا إن نصر الله قريب) وفى حديث أبى رزين « عجب ربك من قنوط عباده وقرب غيثه فينظر إليهم قنطين فيظل يضحك يعلم أن فرجهم قريب » الحديث

﴿ يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴾

قال مقاتل بن حيان : هذه الآية فى نفقة التطوع . وقال السدى : نسختها الزكاة وفيه نظر ومعنى الآية . يسألونك كيف ينفقون ؟ قاله ابن عباس ومجاهد فبين لهم تعالى ذلك فقال (قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل) أى اصرفوها فى هذه الوجوه . كما جاء الحديث « أمك وأباك وأختك وأخاك ثم أدناك أدناك » وتلا ميمون بن مهران هذه الآية ثم قال . هذه مواضع النفقة ما ذكر فيها طبلا ولا مزماراً ولا تصاوير الخشب ولا كسوة الحيطان . ثم قال تعالى (وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم) أى مهما صدر منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه وسيجزيكم على ذلك أوفر الجزاء فإنه لا يظلم أحداً مثقال ذرة

﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾

هـذا إيجاب من الله تعـالى للجهاد على المسلمين أن يكفوا شر الأعداء عن حوزة الإسـلام وقال الزهرى : الجهاد واجب على كل أحد غزا أو قعدفالقاعدعليه إذا استعين أن يعين وإذا استغيث أن يغيث وإذا استنفر أن ينفر وان لم يحتج إليه قعد (قلت) ولهـذا ثبت فى الصحيح « من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بالغزو مات ميتة جاهلية » وقال عليه السلام يوم الفتح « لا هجرة بعدالفتح ولـكن جهادونية وإذااستنفرتم فانفروا » وقوله (وهو كره لـكم)أى شديد عليكم ومشقة وهو كذلك فإنه إما أن يقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء . ثم قال تعالى (وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لـكم) أى لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعـداء والاستيلاء على بلادهم وأموالهم وذراريهم وأولادهم (وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لـكم) وهـذا عام فى الأمور كلها قد يحب المرء شيئاً وليس له فيه خيرة ولا مصلحة ومن ذلك القعود عن القتال قد يعقبه استيلاء العدو على البلاد والحـكم . ثم قال تعالى (والله يعلم وأنتم لاتعلمون) أى هو أعلم بعواقب الأمور منكم وأخبر بما فيه صلاحكم فى دنياكم وأخراكم فاستجيبوا له وانقادوا لأمره لعلـكم ترشدون

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَـٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ * إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَاجَرُوا۟ وَجَـٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ ٱللَّهِ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا محمد بن أبى بكر المقدمى حدثنا المعتمر بن سليمان عن أبيه حدثنى الحضرمى عن أبى السوار عن جندب بن عبـد الله أن رسـول الله ﷺ بعث رهطا وبعث عليهم أبا عبيدة بن الجراح فلـما ذهب ينطلق بكى صبابة إلى رسـول الله ﷺ فبسه فبعث عليهم مكانه عبـد الله بن جحش وكتب له كتاباً وأمره أن لا يقرأ الـكتاب حتى يبلغ مكان كذا وكذا وقال « لا تـكرهن أحدا على السير معك من أصحابك » فلما قرأ الـكتاب استرجع وقال : سمعا وطاعة لله ولرسوله فخبرهم الخبر وقرأ عليهم الـكتاب فرجع رجلان وبقى بقيتهم فلقوا ابن الحضرمى فقتلوه ولم يدروا أن ذلك اليوم من رجب أو من جمادى فقال المشركون للمسلمين : قتلتم فى الشهر الحرام فأنزل الله (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) الآية : وقال السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود (يسئلونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) الآية . وذلك أن رسـول الله صلى الله عليـه وسلم بعث سرية وكانوا سبعة نفر عليهم عـبد الله بن جحش الأسدى وفيهم عمار ابن ياسر وأبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة وسعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان السلمى حليف لبنى نوفل وسهيل ابن بيضاء وعامر بن فهيرة وواقد بن عبد الله اليربوعى حليف لعمر بن الخطاب وكتب لابن جحش كتابا وأمره أن لايقرأه حتى ينزل بطن نخلة فلما نزل بطن نخلة فتح الـكتاب فاذا فيه « أن سر حتى تنزل بطن نخلة» فقال لأصحابه من كان يريد الموت فليمض وليوص فانى موص وماض لأمر رسول الله ﷺ فسار فتخلف عنه سعد بن أبى وقاص وعتبة أضلا راحلة لهما فتخلفا يطلبانها وسار ابن جحش إلى بطن نخلة فاذا هو بالحـكم بن كيسان وعثمان بن عبد الله بن

المغيرة وانفلت وقتل عمرو قتله واقد بن عبد الله فكانت أولى غنمة غنمها أصحاب رسول الله ﷺ فلما رجعوا إلى المدينة بأسيرين وما أصابوا من المال أراد أهل مكة أن يفادوا الأسيرين عليه المشركون[1] وقالوا إن محمداً يزعم أنه يتبع طاعة الله وهو أول من استحل الشهر الحرام وقتل صاحبنا فى رجب فقال المسلمون إنما قتلناه فى جمادى وقتل فى أول ليلة من رجب وآخر ليلة من جمادى وغمد المسلمون سيوفهم حين دخل شهر رجب وأنزل الله يعير أهل مكة (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) لا يحل وما صنعتم أنتم يامعشر المشركين أكبر من القتل فى الشهر الحرام حين كفرتم بالله وصددتم عن محمد ﷺ وأصحابه وإخراج أهل المسجد الحرام منه حين أخرجوا محمداً ﷺ وأصحابه أكبر من القتل عند الله .

وقال العوفى عن ابن عباس (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير) وذلك أن المشركين صدوا رسول الله ﷺ وردوه عن المسجد فى شهر حرام قال ففتح الله على نبيه فى شهر حرام من العام المقبل فعاب المشركون على رسول الله صلى الله عليه وسلم القتال فى شهر حرام فقال الله (وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله) من القتال فيه وأن محمداً صلى الله عليه وسلم بعث سرية فلقوا عمرو بن الحضرمى وهو مقبل من الطائف فى آخر ليلة من جمادى وأول ليلة من رجب وأن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم كانوا يظنون أن تلك الليلة من جمادى وكانت أول رجب ولم يشعروا فقتله رجل منهم وأخذوا ما كان معه وأن المشركين أرسلوا يعيرونه بذلك فقال الله تعالى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه) إخراج أهل المسجد الحرام أكبر من الذى أصاب أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم والشرك أشد منه وهكذا روى أبو سعيد البقال عن عكرمة عن ابن عباس أنها نزلت فى سرية عبد الله بن جحش وقتل عمرو ابن الحضرمى وقال محمد بن إسحق حدثنى محمد بن السائب الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال نزل فيما كان من مصاب عمرو بن الحضرمى (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه) إلى آخر الآية وقال عبد الملك بن هشام راوى السيرة عن زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن إسحق بن يسار المدنى رحمه الله فى كتاب السيرة له أنه قال وبعث رسول الله صلى الله عليه وسلم عبد الله بن جحش بن رباب الأسدى فى رجب مقفله من بدر الأولى وبعث معه ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد وكتب له كتابا وأمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى كما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحدا وكان أصحاب عبد الله بن جحش من المهاجرين ثم من بنى عبد شمس بن عبد مناف أبو حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس بن عبد مناف ومن حلفائهم عبد الله بن جحش وهو أمير القوم وعكاشة بن محصن أحد بنى أسد بن خزيمة حليف لهم ومن بنى نوفل بن عبد مناف عتبة بن غزوان بن جابر حليف لهم ومن بنى زهرة ابن كلاب سعد بن أبى وقاص ومن بنى كعب عدى بن عامر بن ربيعة حليف لهم من غير ابن وائل وواقد بن عبد الله ابن عبد مناف بن عرس بن ثعلبة بن يربوع أحد بنى تميم حليف لهم وخالد بن البكير أحد بنى سعد بن ليث حليف لهم ومن بنى الحارث بن فهر سهيل بن بيضاء فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فإذا فيه . إذا نظرت فى كتابى فى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف ترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم فلما نظر عبد الله بن جحش الكتاب قال . سمعا وطاعة ثم قال لأصحابه . قد أمرنى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشا حتى آتيه منهم بخبر وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ومن كره ذلك فليرجع فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد فسلك على الحجاز حتى إذا كان بمعدن فوق الفرع يقال له نجران أضل سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان بعيرا لهما كانا يعتقبانه فتخلفا عليه فى طلبه ومضى عبد الله بن جحش وبقية أصحابه حتى نزل نخلة فمرت به عير لقريش تحمل زبيبا وأدما وتجارة من تجارة قريش فيها عمرو بن الحضرمى واسم الحضرمى عبد الله بن عباد أحد الصدف وعثمان بن عبد الله بن المغيرة وأخوه نوفل بن عبد الله المخزوميان والحكم بن كيسان مولى هشام بن المغيرة فلما رآهم القوم هابوهم وقد نزلوا

(١) قوله أن يفادوا الأسيرين عليه المشركون كذا بالنسخ التى بأيدينا وفيه سقط بين الأسيرين وبين عليه الخ يعلم من سياق القصة فليحرر .

قريبا منهم فأشرف لهم عكاشة بن محصن وكان قد حلق رأسه فلما رأوه آمنوا وقالوا : عمار لا بأس عليكم منهم وتشاور القوم فيهم وذلك فى آخر يوم من رجب فقال القوم والله لئن تركتم القوم هذه الليلة ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام فترددالقوم وهابوا الاقدام عليهم ثم شجعوا أنفسهم عليهم وأجمعوا قتل من قدروا عليه منهم وأخذ مامعهم فرمى واقد بن عبد الله التميمى عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله واستأسر عثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان وأفلت القوم نوفل بن عبدالله فأعجزهم وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ المدينة قال ابن إسحق : وقد ذكر بعض آل عبد الله بن جحش أن عبد الله قال لأصحابه إن لرسول الله ﷺ مما غنمنا الخمس وذلك قبل أن يفرض الله الخمس من المغانم فعزل لرسول الله صلى الله عليه وسلم خمس العير وقسم سائرها بين أصحابه قال ابن إسحق : فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال . « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » فوقف العير والأسيرين وأبى أن يأخذ من ذلك شيئا فلما قال ذلك رسول الله ﷺ أسقط أيدى القوم وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا وقالت قريش قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام وسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه الأموال وأسروا فيه الرجال ، فقال من رد عليهم من المسلمين ممن كان بمكة إنما أصابوا ما أصابوا فى شعبان وقالت اليهود تفاءلوا بذلك على رسول الله ﷺ عمرو بن الحضرمى قتله واقد بن عبدالله . عمرو، عمرت الحرب، والحضرمى حضرت الحرب، وواقد بن عبد الله وقدت الحرب، فجعل الله عليهم ذلك لالهم فلما أكثر الناس فى ذلك أنزل الله على رسول الله ﷺ (يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل) أى إن كنتم قتلتم فى الشهر الحرام فقد صدوكم عن سبيل الله مع الكفر به وعن المسجد الحرام وإخراجكم منه وأنتم أهله (أكبر عند الله) من قتل من قتلتم منهم (والفتنة أكبر من القتل) أى قد كانوا يفتنون المسلم فى دينه حتى يردوه إلى الكفر بعد إيمانه فذلك أكبر عند الله من القتل (ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا) أى ثم هم مقيمون على أخبث ذلك وأعظمه غير تائبين ولا نازعين قال ابن إسحق : فلما نزل القرآن بهذا من الأمر وفرج الله عن المسلمين ما كانوا فيه من الشدة قبض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العير والأسيرين وبعث اليه قريش فى فداء عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان فقال رسول الله ﷺ « لا نفديكموهما حتى يقدم صاحبانا » يعنى سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان فانا نخشا كم عليهما فإن تقتلوهما نقتل صاحبكم فقدم سعد وعتبة ففداهما رسول الله ﷺ منهم فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن إسلامه وأقام عند رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى قتل يوم بئر معونة شهيدا وأما عثمان بن عبد الله فلحق بمكة فمات بها كافرا قال ابن إسحق . فلما تجلى عن عبد الله بن جحش وأصحابه ما كان حين نزل القرآن طمعوا فى الأجر فقالوا يارسول الله أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ؟ فأنزل الله عز وجل (إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم) فوضع الله من ذلك على أعظم الرجاء قال ابن إسحق . والحديث فى هذا عن الزهرى ويزيد بن رومان عن عروة وقد روى يونس بن بكير عن محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير قريبا من هذا السياق وروى موسى بن عقبة عن الزهرى نحوه نحو ذلك وروى شعيب بن أبى حمزة عن الزهرى عن عروة بن الزبير نحوا من هذا أيضا وفيه فكان ابن الحضرمى أول قتيل قتل بين المسلمين والمشركين فركب وفد من كفار قريش حتى قدموا على رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمدينة فقالوا . أيحل القتال فى الشهر الحرام ؟ فأنزل الله (يسألونك عن الشهر الحرام) الآية وقد استقصى ذلك الحافظ أبو بكر البيهقى فى كتاب دلائل النبوة ثم قال ابن هشام عن زياد عن ابن إسحق وقد ذكر عن بعض آل عبدالله أن عبد الله قسم الفىء بين أهله فجعل أربعة أخماسه لمن أفاءه وخمسا إلى الله ورسوله فوقع على ما كان عبدالله ابن جحش صنع فى تلك العير قال ابن هشام . وهى أول غنيمة غنمها المسلمون وعمرو بن الحضرمى أول من قتل المسلمون وعثمان بن عبدالله والحكم بن كيسان أول من أسر المسلمون قال ابن إسحق : فقال أبو بكر الصديق

رضى الله عنه فى غزوة عبدالله بن جحش ويقال بل عبدالله بن جحش قالها حين قالت قريش قد أحل محمد وأصحابه الشهر الحرام فسفكوا فيه الدم وأخذوا فيه المال وأسروا فيه الرجال قال ابن هشام : هى لعبد الله بن جحش .

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة * وأعظم منه لو يرى الرشد راشد * صدودكم عما يقول محمد
وكفر به والله راء وشاهد * وإخراجكم من مسجد الله أهله * لئلا يرى لله فى البيت ساجد
فانا وإن عيرتمونا بقتله * وأرجف بالاسلام باغ وحاسد * سقينا من ابن الحضرمى رماحنا
بنخلة لما أوقد الحرب واقد * دما وابن عبدالله عثمان بيننا * ينازعه غل من القيد عائد

﴿ يَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا وَيَسْئَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ * فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا خلف بن الوليد حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن أبى ميسرة عن عمر أنه قال : لما نزل تحريم الخمر قال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت هذه الآية التى فى البقرة (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى النساء (يا أيها الذين آمنوا لاتقربوا الصلاة وأنتم سكارى) فكان منادى رسول الله ﷺ إذا أقام الصلاة نادى : أن لايقربن الصلاة سكران فدعى عمر فقرئت عليه فقال : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا فنزلت الآية التى فى المائدة فدعى عمر فقرئت عليه فلما بلغ (فهل أنتم منتهون ؟) قال عمر انتهينا انتهينا . وهكذا رواه أبوداود والترمذى والنسائى من طرق عن إسرائيل عن أبى إسحق وكذا رواه ابن أبى حاتم وابن مردويه من طريق الثورى عن أبى إسحق عن أبى ميسرة واسمه عمرو ابن شرحبيل الهمدانى الكوفى عن عمر وليس له عنه سواه لكن قد قال أبوزرعة لم يسمع منه والله أعلم . وقال على ابن المدينى هذا إسناد صالح صحيح وصححه الترمذى وزاد ابن أبى حاتم بعد قوله انتهينا إنها تذهب المال وتذهب العقل ، وسيأتى هذا الحديث أيضا مع مارواه أحمد من طريق أبى هريرة أيضا عند قوله فى سورة المائدة (إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون) الآيات فقوله (يسألونك عن الخمر والميسر) أما الخمر فكما قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه انه كل ما خامر العقل كما سيأتى بيانه فى سورة المائدة وكذا الميسر وهو القمار

وقوله (قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس) أما إثمهما فهو فى الدين وأما المنافع فدنيوية من حيث إن فيها نفع البدن وتهضيم الطعام وإخراج الفضلات وتشحيذ بعض الأذهان ولذة الشدة المطربة التى فيها كما قال حسان بن ثابت فى جاهليته

ونشربها فتتركنا ملوكا * وأسدا لا ينهنهنا اللقاء

وكذا بيعها والانتفاع بثمنها وما كان يقمشه بعضهم من الميسر فينفقه على نفسه أو عياله ولكن هذه المصالح لا توازى مضرته ومفسدته الراجحة لتعلقها بالعقل والدين ولهذا قال الله تعالى (وإثمهما أكبر من نفعهما) ولهذا كانت هذه الآية ممهدة لتحريم الخمر على البتات ولم تكن مصرحة بل معرضة ولهذا قال عمر رضى الله عنه لما قرئت عليه : اللهم بين لنا فى الخمر بيانا شافيا حتى نزل التصريح بتحريمها فى سورة المائدة (يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون * إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون) وسيأتى الكلام على ذلك فى سورة المائدة

إن شاء الله تعالى وبه الثقة قال ابن عمر والشعبي ومجاهد وقتادة والربيع بن أنس وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم إن هذه أول آية نزلت فى الخمر (يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير) ثم نزلت الآية التى فى سورة النساء ثم نزلت الآية التى فى المائدة فحرمت الخمر .

وقوله (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قرئ بالنصب وبالرفع وكلاهما حسن متجه قريب قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا موسى ابن إسماعيل حدثنا أبان حدثنا يحيى أنه بلغه أن معاذ بن جبل وثعلبة أتيا رسول الله ﷺ فقالا يارسول الله إن لنا أرقاء وأهلين من أموالنا فأنزل الله (ويسألونك ماذا ينفقون) وقال الحكم عن مقسم عن ابن عباس (ويسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قال مايفضل عن أهلك وكذا روى عن ابن عمر ومجاهد وعطاء وعكرمة وسعيد بن جبير ومحمد بن كعب والحسن وقتادة والقاسم وسالم وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس وغير واحد أنهم قالوا فى قوله (قل العفو) يعنى الفضل وعن طاوس اليسير من كل شىء وعن الربيع أيضا أفضل مالك وأطيبه والكل يرجع إلى الفضل . وقال عبد بن حميد فى تفسيره . حدثنا هوذة بن خليفة عن عوف عن الحسن فى الآية (يسألونك ماذا ينفقون قل العفو) قال ذلك ألا يجهد مالك ثم تقعد تسأل الناس ويدل على ذلك مارواه ابن جرير حدثنا على بن مسلم حدثنا أبو عاصم عن ابن عجلان عن المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رجل يارسول الله عندى دينار قال « أنفقه على نفسك » قال : عندى آخر قال « أنفقه على أهلك » قال عندى آخر قال « أنفقه على ولدك » قال : عندى آخر قال . « فأنت أبصر » وقد رواه مسلم فى صحيحه وأخرجه مسلم أيضا عن جابر أن رسول الله ﷺ قال لرجل « ابدأ بنفسك فتصدق عليها فإن فضل شىء فلأهلك فان فضل شىء عن أهلك فلذى قرابتك فان فضل عن ذى قرابتك شىء فهكذا وهكذا » وعنده عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « خير الصدقة ما كان عن ظهر غنى واليد العليا خير من اليد السفلى وابدأ بمن تعول » وفى الحديث أيضا « ابن آدم إنك أن تبذل الفضل خير لك وإن تمسكه شر لك ولا تلام على كفاف » ثم قد قيل إنها منسوخة بآية الزكاة كما رواه على بن أبى طلحة والعوفى عن ابن عباس وقاله عطاء الخراسانى والسدى وقيل مبينة بآية الزكاة قاله مجاهد وغيره وهو أوجه .

وقوله (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة) أى كما فصل لكم هذه الأحكام وبينها وأوضحها كذلك يبين لكم سائر الآيات فى أحكامه ووعده ووعيده لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة . قال على ابن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى فى زوال الدنيا وفنائها وإقبال الآخرة وبقائها . وقال بن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا على ابن محمد الطنافسى حدثنا أبو أسامة عن الصعق التيمى قال شهدت الحسن وقرأ هذه الآية من البقرة (لعلكم تتفكرون فى الدنيا والآخرة) قال هى والله لمن تفكر فيها ليعلم أن الدنيا دار بلاء ثم دار فناء ، وليعلم أن الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء وهكذا قال قتاده وابن جريج وغيرهما . وقال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة . لتعلموا فضل الآخرة على الدنيا . وفى رواية عن قتادة فآثروا الآخرة على الأولى .

وقوله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم) الآية . قال ابن جرير . حدثنا سفيان بن وكيع حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) و(إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون فى بطونهم نارا وسيصلون سعيرا) انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه وشرابه من شرابه فجعل يفضل له الشىء من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد فاشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ فأنزل الله (ويسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم) فخلطوا طعامهم بطعامهم وشرابهم بشرابهم . وهكذا رواه أبو داود والنسائى وابن أبى حاتم وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طرق عن عطاء بن السائب به . وكذا رواه على ابن أبى طلحة عن ابن عباس ، وكذا رواه السدى عن أبى مالك وعن أبى صالح عن ابن عباس وعن مرة عن ابن مسعود بمثله وهكذا ذكر غير واحد فى سبب نزول هذه الآية كمجاهد وعطاء والشعبى وابن أبى ليلى وقتادة وغير واحد من

السلف والخلف قال وكيع بن الجراح : حدثنا هشام صاحب الدستوائى عن حماد عن إبراهيم قال : قالت عائشة رضى الله عنها إنى لأكره أن يكون مال اليتيم عندى على حدة حتى أخلط طعامه بطعامى وشرابه بشرابى فقوله (قل إصلاح لهم خير) أى على حدة (وإن تخالطوهم فإخوانكم) أى وأن خلطتم طعامكم بطعامهم وشرابكم بشرابهم فلا بأس عليكم لأنهم إخوانكم فى الدين ولهذا قال (والله يعلم المفسد من المصلح) أى يعلم من قصده ونيته الإفساد أو الإصلاح وقوله (ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم) أى ولو شاء الله لضيق عليكم وأحرجكم ولكنه وسع عليكم وخفف عنكم وأباح لكم مخالطتهم بالتى هى أحسن قال تعالى (ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن) بل جوز الأكل منه للفقير بالمعروف إما بشرط ضمان البدل لمن أيسر أو مجانا كما سيأتى بيانه فى سورة النساء إن شاء الله وبه الثقة

﴿ وَلَا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلَا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُولَٰئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾

هذا تحريم من الله عز وجل على المؤمنين أن يتزوجوا المشركات من عبدة الأوثان ثم إن كان عمومها مراداً وأنه يدخل فيها كل مشركة من كتابية ووثنية فقد خص من ذلك نساء أهل الكتاب بقوله (والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم إذا آتيتموهن أجورهن محصنين غير مسافحين) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى قوله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) استثنى الله من ذلك نساء أهل الكتاب وهكذا قال مجاهد وعكرمة وسعيد بن جبير ومكحول والحسن والضحاك وزيد بن أسلم والربيع بن أنس وغيرهم وقيل : بل المراد بذلك المشركون من عبدة الأوثان ولم يرد أهل الكتاب بالكلية والمعنى قريب من الأول والله أعلم . فأما مارواه ابن جرير حدثنى عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى حدثنا أبى حدثنى عبد الحميد بن بهرام الفزارى حدثنا شهر بن حوشب قال سمعت عبد الله بن عباس يقول نهى رسول الله ﷺ عن أصناف النساء إلا ما كان من المؤمنات المهاجرات وحرم كل ذات دين غير الإسلام . قال الله عز وجل (ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله) وقد نكح طلحة بن عبد الله يهودية ونكح حذيفة بن اليمان نصرانية فغضب عمر بن الخطاب غضباً شديداً حتى هم أن يسطو عليهما فقالا : نحن نطلق يا أمير المؤمنين ولا تغضب فقال : لئن حل طلاقهن لقد حل نكاحهن ولكنى أنتزعهن منكم صغرة قمأة — فهو حديث غريب جداً وهذا الأثر غريب عن عمر أيضاً ، قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله بعد حكايته الإجماع على إباحة تزويج الكتابيات وإنما كره عمر ذلك لئلا يزهد الناس فى المسلمات أو لغير ذلك من المعانى كما حدثنا أبو كريب حدثنا ابن إدريس حدثنا الصلت بن بهرام عن شقيق قال تزوج حذيفة يهودية فكتب إليه عمر . خل سبيلها ، فكتب إليه أتزعم أنها حرام فأخلى سبيلها ؟ فقال . لا أزعم أنها حرام ولكنى أخاف أن تعاطوا المؤمنات منهن[1] وهذا إسناد صحيح وروى الخلال عن محمد بن إسماعيل عن وكيع عن الصلت نحوه. وقال ابن جرير حدثنى موسى بن عبد الرحمن المسروقى حدثنا محمد بن بشر حدثنا سفيان بن سعيد عن يزيد بن أبى زياد عن زيد بن وهب قال. قال عمر بن الخطاب: المسلم يتزوج النصرانية ولا يتزوج النصرانى المسلمة قال: وهذا أصح إسنادا من الأول ثم قال : وقد حدثنا تميم بن المنتصر أخبرنا إسحق الأزرقى عن شريك عن أشعث بن سوار عن الحسن عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « تتزوج نساء أهل الكتاب ولا يتزجون نساءنا » ثم قال وهذا الخبر وإن كان فى إسناده ما فيه فالقول به لا جماع الجميع من الأمة عليه كذا قال ابن جرير رحمه الله وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا محمد بن إسماعيل الأحمسى حدثنا وكيع عن جعفر بن برقان عن ميمون بن مهران عن

(١) كذا فى النسخ التى بأيدينا فحرر الرواية اه

ابن عمر أنه كره نكاح أهل الكتاب وتأول (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) وقال البخارى : وقال ابن عمر لا أعلم شركا أعظم من أن تقول : ربها عيسى وقال أبو بكر الحلال الحنبلى حدثنا محمد بن هرون حدثنا إسحق ابن إبراهيم ح وأخبرنى محمد بن على حدثنا صالح بن أحمد أنهما سألا أبا عبد الله أحمد بن حنبل عن قول الله (ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن) قال مشركات العرب الذين يعبدون الأصنام . وقوله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) قال السدى : نزلت فى عبد الله بن رواحة كانت له أمة سوداء فغضب عليها فلطمها ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها فقال له « ماهى ؟ » قال تصوم وتصلى وتحسن الوضوء وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله فقال « يا أبا عبد الله هذه مؤمنة » فقال والذى بعثك بالحق لأعتقنها ولأتزوجنها ، ففعل فطعن عليه ناس من المسلمين وقالوا نكح أمته وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة فى أحسابهم فأنزل الله (ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم) (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) وقال عبد بن حميد حدثنا جعفر بن عون حدثنا عبدالرحمن بن زياد الافريقى عن عبدالله بن يزيد عن عبدالله بن عمر عن النبى ﷺ قال « لا تنكحوا النساء لحسنهن فعسى حسنهن أن يرديهن ولا تنكحوهن على أموالهن فعسى أموالهن أن تطغيهن وانكحوهن على الدين فلأمة سوداء جرداء ذات دين أفضل » والإفريقى ضعيف وقد ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « تنكح المرأة لأربع . لمالها ولحسبها ولجمالها ولدينها فاظفر بذات الدين تربت يداك » ولمسلم عن جابر مثله وله عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « الدنيا متاع وخير متاع الدنيا المرأة الصالحة » وقوله (ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا) أى لا تزوجوا الرجال المشركين النساء المؤمنات كما قال تعالى (لاهن حل لهم ولا هم يحلون لهن) ثم قال تعالى (ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم) أى ولرجل مؤمن ولو كان عبدا حبشيا خير من مشرك ، وإن كان رئيسا سريا (أولئك يدعون إلى النار) أى معاشرتهم ومخالطتهم تبعث على حب الدنيا واقتنائها وإيثارها على الدار الآخرة وعاقبة ذلك وخيمة (والله يدعوا إلى الجنة والمغفرة بإذنه) أى بشرعه وما أمر به ومانهى عنه (ويبين الله آياته للناس لعلهم يتذكرون)

﴿ وَيَسْئَلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ * نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ وَقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ وَٱتَّقُوا ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوا أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾

قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها فى البيوت(١) فسأل أصحاب النبى ﷺ فأنزل الله عز وجل (ويسئلونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن) حتى فرغ من الآية فقال رسول الله ﷺ « اصنعوا كل شىء إلا النكاح » فبلغ ذلك اليهود فقالوا . ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يا رسول الله إن اليهود قالت كذا وكذا أفلا نجامعهن ؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد عليهما فخرجا فاستقبلهما هدية من لبن إلى رسول الله ﷺ فأرسل فى آثارهما فسقاهما فعرفا أنه لم يجد عليهما رواه مسلم من حديث حماد بن زيد بن سلمة فقوله (فاعتزلوا النساء فى المحيض) يعنى الفرج لقوله « اصنعوا كل شىء إلا النكاح » ولهذا ذهب كثير من العلماء أو أكثرهم إلى أنه يجوز مباشرة الحائض فيما عدا الفرج . قال أبو داود أيضاً . حدثنا موسى بن إسماعيل حدثنا حماد عن أيوب عن عكرمة عن بعض أزواج النبى ﷺ كان إذا أراد من الحائض شيئاً ألقى على فرجها ثوبا وقال أبو داود أيضاً حدثنا الشعبى حدثنا عبد الله يعنى ابن عمر بن غانم عن عبد الرحمن يعنى بن زياد عن عمارة بن

(١) المراد بالمجامعة هنا الاجتماع بهن لا الوقاع وهو المعنى الحقيقى واستعماله بالمعنى الآخر كناية اهـ

غراب أن عمة له حدثته أنها سألت عائشة قالت : إحدانا تحيض وليس لها ولزوجها فراش إلا فراش واحد قالت أخبرك بما صنع رسول الله ﷺ دخل فمضى إلى مسجده قال أبو داود : تعنى مسجد بيتها فما انصرف حتى غلبتنى عينى فأوجعه البرد فقال : « ادنى منى » فقلت إنى حائض فقال : « اكشفى عن فخذيك » فكشفت فخذى فوضع خده وصدره على فخذى وحنيت عليه حتى دفىء ونام صلى الله عليه وسلم وقال أبو جعفر بن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا أيوب عن كتاب أبى قلابة أن مسروقا ركب إلى عائشة فقال : السلام على النبى وعلى أهله ، فقالت عائشة مرحبا مرحبا فأذنوا له فدخل : فقال إنى أريد أن أسألك عن شىء وأنا أستحى فقالت إنما أنا أمك وأنت ابنى فقال : ما للرجل من امرأته وهى حائض فقالت له : كل شىء إلا فرجها . ورواه أيضاً عن حميد بن مسعدة عن يزيد بن زريع عن عيينة بن عبد الرحمن بن جوشن عن مروان الأصفر عن مسروق قال قلت لعائشة ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضا ؟ قالت : كل شىء إلا الجماع . وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن وعكرمة وروى ابن جرير أيضا عن أبى كريب عن ابن أبى زائدة عن حجاج عن ميمون بن مهران عن عائشة قالت له ما فوق الإزار (قلت) ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خاف قالت عائشة : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمرنى فأتزر فيباشرنى وأنا حائض وكان يتكىء فى حجرى وأنا حائض فيقرأ القرآن وفى الصحيح عنها قالت : كنت أتعرق العرق[1] وأنا حائض فأعطيه النبى ﷺ فيضع فمه فى الموضع الذى وضعت فمى فيه وأشرب الشراب فأناوله فيضع فمه فى الموضع الذى كنت أشرب منه وقال أبو داود حدثنا مسدد حدثنا يحيى عن جابر بن صبح سمعت خلاسا الهجرى قال سمعت عائشة تقول كنت أنا ورسول الله صلى الله عليه وسلم فى الشعار الواحد وأنا حائض طامث فان أصابه منى شىء غسل مكانه لم يعده[2] وإن أصابه — يعنى ثوبه — شىء غسل مكانه لم يعده وصلى فيه فأما مارواه أبو داود حدثنا سعيد بن الجبار حدثنا عبد العزيز يعنى ابن محمد عن أبى اليمان عن أم ذرة عن عائشة أنها قالت كنت إذا حضت نزلت عن المثال[3] على الحصير فلم تقرب رسول الله ﷺ ولم تدن منه حتى تطهر فهو محمول على التنزه والاحتياط — وقال آخرون إنما تحل له مباشرتها فيما عدا ماتحت الازار كما ثبت فى الصحيحين عن ميمونة بنت الحارث الهلالية قالت كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا أراد أن يباشر امرأة من نسائه أمرها فاتزرت وهى حائض وهذا لفظ البخارى ولهما عن عائشة نحوه وروى الإمام أحمد وأبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث العلاء عن حزام بن حكيم عن عمه عبد الله بن سعد الأنصارى أنه سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يحل لى من امرأتى وهى حائض ؟ قال « ما فوق الازار » ولأبى داود أيضا عن معاذ بن جبل قال : سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عما يحل لى من امرأتى وهى حائض قال : « ما فوق الازار والتعفف عن ذلك أفضل » وهو رواية عن عائشة كما تقدم وابن عباس وسعيد بن المسيب وشريح فهذه الأحاديث وماشابهها حجة من ذهب إلى أنه يحل مافوق الازار منها وهو أحد القولين فى مذهب الشافعى رحمه الله الذى رجحه كثير من العراقيين وغيرهم ومأخذهم أنه حريم الفرج فهو حرام لئلا يتوصل إلى تعاطى ما حرم الله عز وجل الذى أجمع العلماء على تحريمه وهو المباشرة فى الفرج ثم من فعل ذلك فقد أثم فيستغفر الله ويتوب إليه وهل يلزمه مع ذلك كفارة أم لا ؟ فيه قولان (أحدهما) نعم لما رواه الإمام أحمد وأهل السنن عن ابن عباس عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الذى يأتى امرأته وهى حائض يتصدق بدينار أو نصف دينار وفى لفظ للترمذى « إذا كان دما أحمر فدينار وإن كان دما أصفر فنصف دينار » وللامام أحمد أيضاً عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل فى الحائض تصاب دينارا فان أصابها وقد أدبر الدم عنها ولم تغتسل فنصف دينار (والقول الثانى) وهو الصحيح الجديد من مذهب الشافعى وقول الجمهور أنه لا شىء فى ذلك بل يستغفر الله عز وجل لأنه لم يصح عندهم رفع هذا الحديث فانه قد روى مرفوعا كما تقدم وموقوفا وهو الصحيح عند كثير من أئمة الحديث فقوله تعالى (ولا تقربوهن حتى يطهرن) تفسير لقوله (فاعتزلوا النساء فى المحيض) ونهى عن قربانهن بالجماع مادام الحيض موجودا ومفهومه حله إذا انقطع قال الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل فيما أملاه فى الطاعة وقوله (ويسألونك عن المحيض قل

(١) عرق اللحم وتعرقه واعترقه تناوله بفمه من العظم (٢) لم يتجاوزه (٣) هو الفراش

هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فاذا تطهرن فأتوهن من حيث) الآية الطهر يدل على أن يقربها فلما قالت ميمونه وعائشة كانت إحدانا إذا حاضت اتزرت ودخلت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فى شعاره دل ذلك على أنه إنما أراد الجماع

وقوله (فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) فيه ندب وإرشاد إلى غشيانهن بعد الاغتسال وذهب ابن حزم إلى وجوب الجماع بعد كل حيضة لقوله (فاذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله) وليس له فى ذلك مستند لأن هذا أمر بعد الحظر وفيه أقوال لعلماء الأصوال منهم من يقول إنه على الوجوب كالمطلق وهؤلاء يحتاجون إلى جواب ابن حزم ومنهم من يقول إنه للاباحه ويجعلون تقدم النهى عليه قرينة صارفة له عن الوجوب وفيه نظر والذى ينهض عليه الدليل أنه يرد عليه الحكم إلى ما كان عليه الأمر قبل النهى فان كان واجبا فواجب كقوله (فاذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين) أو مباحا فمباح كقوله (وإذا حللتم فاصطادوا) (فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض) وعلى هذا القول تجتمع الأدلة وقد حكاه الغزالى وغيره فاختاره بعض أئمة المتأخرين وهو الصحيح وقد اتفق العلماء على أن المرأة إذا انقطع حيضها لا تحل حتى تغتسل بالماء أو تتيمم إن تعذر ذلك عليها بشرطه إلا أن أبا حنيفة رحمه الله يقول فيما إذا انقطع دمها لأكثر الحيض وهو عشرة أيام عنده إنها تحل بمجرد الانقطاع ولا تفتقر إلى غسل والله أعلم . وقال ابن عباس (حتى يطهرن) أى من الدم (فإذا تطهرن) أى بالماء وكذا قال مجاهد وعكرمة والحسن ومقاتل بن حيان والليث بن سعد وغيرهم

وقوله (من حيث أمركم الله) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد يعنى الفرج قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فأتوهن من حيث أمركم الله) يقول فى الفرج ولا تعدوه إلى غيره فمن فعل شيئاً من ذلك فقد اعتدى وقال ابن عباس ومجاهد وعكرمة (من حيث أمركم الله) أى أن تعتزلوهن وفيه دلالة حينئذ على تحريم الوطء فى الدبر كما سيأتى تقريره قريبا إن شاء الله تعالى وقال أبو رزين وعكرمة والضحاك وغير واحد (فأتوهن من حيث أمركم الله) يعنى طاهرات غير حيض ولهذا قال (إن الله يحب التوابين) أى من الذنب وإن تكرر غشيانه (ويحب المتطهرين) أى المتنزهين عن الأقذار والأذى وهو ما نهوا عنه من إتيان الحائض أو فى غير المأتى

وقوله (نساؤكم حرث لكم) قال ابن عباس : الحرث موضع الولد (فأتوا حرثكم أنى شئتم) أى كيف شئتم مقبلة ومدبرة فى صمام واحد كما ثبتت بذلك الأحاديث قال البخارى : حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن ابن المنكدر قال سمعت جابرا قال : كانت اليهود تقول : إذا جامعها من ورائها جاء الولد أحول فنزلت (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) ورواه مسلم وأبو داود من حديث سفيان الثورى به وقال ابن أبى حاتم حدثنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى مالك بن أنس وابن جريج وسفيان بن سعيد الثورى أن محمد بن المنكدر حدثهم أن جابر بن عبدالله أخبره أن اليهود قالوا للمسلمين من أتى امرأة وهى مدبرة جاء الولد أحول فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال ابن جريج فى الحديث فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مقبلة ومدبرة إذا كان ذلك فى الفرج » وفى حديث بهز بن حكيم بن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده أنه قال يا رسول الله : نساؤنا ما نأتى منها وماندر قال . «حرثك ائت حرثك أنى شئت غير أن لا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » الحديث رواه أحمد وأهل السنن ، حديث آخر قال ابن أبى حاتم : حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن لهيعة عن يزيد بن أبى حبيب عن عامر ابن يحيى عن عبد الله بن حنش عن عبدالله بن عباس قال . أتى ناس من حمير إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فسألوه عن أشياء فقال له رجل إنى أجب النساء فكيف ترى فى فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) ورواه الإمام أحمد حدثنا يحيى بن غيلان حدثنا رشدين حدثنى الحسن بن ثوبان عن عامر بن يحيى المغافرى عن حنش عن ابن عباس قال انزلت هذه الآية (نساؤكم حرث لكم) فى اناس من الأنصار أتوا النبى ﷺ فسألوه فقال النبى ﷺ « ائتها على كل حال إذا كان فى الفرج » (حديث) آخر قال أبو جعفر الطحاوى فى كتابه مشكل الحديث

حدثنا أحمد بن داود بن موسى حدثنا يعقوب بن كاسب حدثنا عبدالله بن نافع عن هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء ابن يسار عن أبي سعيد الخدري أن رجلا أصاب امرأة في دبرها فأنكر الناس عليه ذلك فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم) الآية ورواه ابن جرير عن يونس عن يعقوب ورواه الحافظ أبو يعلى الموصلي عن الحارث بن شريح عن عبد الله بن نافع به (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا عبيد الله بن عثمان بن خيثم عن عبد الله بن سابط قال : دخلت على حفصة بنت عبد الرحمن بن أبي بكر فقلت إني لسائلك عن أمر وأنا أستحي أن أسألك قالت : فلا تستحي يا ابن أخي قال عن إتيان النساء في أدبارهن قالت : حدثتني أم سلمة أن الأنصار كانوا يحبون النساء وكانت اليهود تقول : إنه من أحبى امرأته كان ولده أحول فلما قدم المهاجرون المدينة نكحوا في نساء الأنصار فأحبوهن فأبت امرأة أن تطيع زوجها وقالت : لن تفعل ذلك حتى آتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخلت على أم سلمة فذكرت لها ذلك فقالت : اجلسي حتى يأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم استحت الأنصارية أن تسأل رسول الله ﷺ فخرجت فسألته أم سلمة فقال ادعي « الأنصارية » فدعتها فتلا عليها هذه الآية (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) « صماما واحداً » ورواه الترمذي عن بندار عن ابن مهدي عن سفيان عن أبي خيثم به وقال حسن (قلت) وقد روى من طريق حماد بن أبي حنيفة عن أبيه عن ابن خيثم عن يوسف ابن ماهك عن حفصة أم المؤمنين أن امرأة أتتها فقالت . إن زوجي يأتيني مجبية ومستقبلة فكرهته ، فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه سلم فقال . « لا بأس إذا كان في صمام واحد » (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا حسن حدثنا يعقوب يعني القمي عن جعفر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال . جاء عمر بن الخطاب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يارسول هلكت قال ما الذي أهلكك ؟ قال حولت رحلي البارحة قال فلم يرد عليه شيئا قال فأوحى الله إلى رسول الله ﷺ هذه الآية (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) « أقبل وأدبر واتق الدبر والحيضة » ورواه الترمذي عن عبد بن حميد عن حسن بن موسى الأشيب به وقال حسن غريب وقال الحافظ أبو يعلى . حدثنا الحارث بن شريح حدثنا عبدالله بن نافع حدثنا هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد قال . أتفر رجل امرأته على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالوا . أتفر فلان امرأته فأنزل الله عز وجل (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال أبو داود . حدثنا عبد العزيز بن يحيى أبو الأصبغ قال حدثني محمد يعني ابن سلمة عن محمد بن إسحق عن أبان بن صالح عن مجاهد عن ابن عباس قال . إن ابن عمر قال ـ والله يغفر له ـ أوهم وإنما كان هذا الحي من الأنصار وهم أهل وثن مع هذا الحي من يهود وهم أهل كتاب وكانوا يرون لهم فضلا عليهم في العلم فكانوا يقتدون كثيراً[1] من فعلهم وكان من أمر أهل الكتاب لا يأتون النساء إلا على حرف وذلك أستر ما تكون المرأة فكان هذا الحي من الأنصار قد أخذوا بذلك من فعلهم وكان هذا الحي من قريش يشرحون النساء شرحا منكرا ويتلذذون بهن مقبلات ومدبرات ومستلقيات فلما قدم المهاجرون المدينة تزوج رجل منهم امرأة من الأنصار فذهب يصنع بها ذلك فأنكرته عليه وقالت إنما كنا نؤتى على حرف فاصنع ذلك وإلا فاجتنبني فسرى أمرها فبلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) أي مقبلات ومدبرات ومستلقيات يعني بذلك موضع الولد تفرد به أبو داود ويشهد له بالصحة ماتقدم له من الأحاديث ولاسيما رواية أم سلمة فانها مشابهة لهذا السياق وقد روى هذا الحديث الحافظ أبو القاسم الطبراني من طريق محمد بن إسحق عن أبان بن صالح عن مجاهد قال . عرضت المصحف على ابن عباس من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها حتى انتهيت إلى هذه الآية (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقال ابن عباس . إن هذا الحي من قريش كانوا يشرحون النساء بمكة ويتلذذون بهن فذكر القصة بتمام سياقها وقول ابن عباس إن ابن عمر ـ والله يغفر له ـ أوهم كأنه يشير إلى ما رواه البخاري حدثنا إسحق حدثنا النضر بن شميل أخبرنا ابن عون عن نافع قال كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه فأخذت عنه[2] يوما فقرأ سورة البقرة حتى انتهى إلى مكان قال . أتدري فيم أنزلت ؟ قلت لا قال : أنزلت في كذا وكذا ثم مضى

(١) وفي نسخة الأزهر بكثير (٢) في نسخة الأزهر عليه.

وعن عبد الصمد قال: حدثنى أبى حدثنا أيوب عن نافع عن ابن عمر (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال: أن يأتيها فى[1] ؟ هكذا رواه البخارى وقد تفرد به من هذا الوجه وقال ابن جرير حدثنى يعقوب حدثنا ابن علية حدثنا ابن عون عن نافع قال قرأت ذات يوم (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقال ابن عمر أتدرى فيم نزلت ؟ قلت لا قال نزلت فى إتيان النساء فى أدبارهن . وحدثنى أبو قلابة حدثنا عبد الصمد بن عبد الوارث حدثنى أبى عن أيوب عن نافع عن ابن عمر (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال : فى الدبر . وروى من حديث مالك عن نافع عن ابن عمر ولا يصح وروى النسائى عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم عن أبى بكر بن أبى أويس عن سليمان بن بلال عن زيد بن أسلم عن ابن عمر أن رجلا أتى امرأته فى دبرها فوجد فى نفسه من ذلك وجدا شديداً فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) قال أبو حاتم الرازى . لو كان هذا عند زيد بن أسلم عن ابن عمر لما أولع الناس بنافع وهذا تعليل منه لهذا الحديث وقد رواه عبد الله ابن نافع عن داود بن قيس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن ابن عمر فذكره وهذا الحديث محمول على ما تقدم وهو أنه يأتيها فى قبلها من دبرها لما رواه النسائى عن على بن عثمان النفيلى عن سعيد بن عيسى عن الفضل بن فضالة عبد الله بن سليمان الطويل عن كعب بن علقمة عن أبى النضر أنه أخبره أنه قال لنافع مولى ابن عمر انه قد أكثر عليك القول انك تقول عن ابن عمر إنه أفتى أن تؤتى النساء فى أدبارهن قال . كذبوا علىّ ولكن سأحدثك كيف كان الأمر . إن ابن عمر عرض المصحف يوما وأنا عنده حتى بلغ (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فقال يانافع هل تعلم من أمر هذه الآية ؟ قلت . لا قال . إنا كنا معشر قريش نجبى النساء فلما دخلنا المدينة ونكحنا نساء الأنصار أردنا منهن مثل ما كنا نريد فآذاهن فكرهن ذلك وأعظمنه وكانت نساء الأنصار قد أخذن بحال اليهود إنما يؤتين على جنوبهن فأنزل الله (نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) وهذا إسناد صحيح وقد رواه ابن مردويه عن الطبرانى عن الحسين بن إسحق عن زكريا بن يحيى الكاتب العمرى عن مفضل بن فضالة عن عبد الله بن عياش عن كعب بن علقمة فذكره وقد روينا عن ابن عمر خلاف ذلك صريحا وأنه لا يباح ولا يحل كما سيأتى وإن كان قد نسب هذا القول إلى طائفة من فقهاء المدينة وغيرهم وعزاه بعضهم إلى الإمام مالك فى كتاب السر وأكثر الناس ينكر أن يصح ذلك عن الإمام مالك رحمه الله وقد وردت الأحاديث المروية من طرق متعددة بالزجر عن فعله وتعاطيه فقال الحسن بن عرفة حدثنا إسماعيل بن عياش عن سهيل بن أبى صالح عن محمد بن المنكدر عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « استحيوا إن الله لا يستحى من الحق لا يحل أن تأتوا النساء فى حشوشهن » وقال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرحمن حدثنا سفيان عن عبد بن شداد عن خزيمة بن ثابت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يأتى الرجل امرأته فى دبرها (طريق أخرى) قال أحمد . حدثنا يعقوب سمعت أبى يحدث عن يزيد بن عبد الله بن أسامة بن الهاد أن عبيد الله بن الحصين الوالبى حدثه أن عبد الله الواقفى حدثه أن خزيمة بن ثابت الخطمى حدثه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال . « استحيوا إن الله لا يستحى من الحق لا تأتوا النساء فى أعجازهن » ورواه النسائى وابن ماجه من طرق عن خزيمة بن ثابت وفى إسناده اختلاف كثير (حديث آخر) قال أبو عيسى الترمذى والنسائى حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا أبو خالد الأحمر عن الضحاك بن عثمان عن مخرمة بن سليمان عن كريب عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا ينظر الله إلى رجل أتى رجلا أو امرأة فى الدبر » ثم قال الترمذى هذا حديث حسن غريب وهكذا أخرجه ابن حبان فى صحيحه وصححه ابن حزم أيضا ولكن رواه النسائى أيضا عن هناد عن وكيع عن الضحاك به موقوفا . وقال عبد أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن ابن طاوس عن أبيه أن رجلا سأل ابن عباس عن إتيان المرأة فى دبرها قال . تسألنى عن الكفر إسناده صحيح وكذا رواه النسائى من طريق ابن المبارك عن معمر به نحوه وقال عبد أيضا فى تفسيره حدثنا إبراهيم بن الحاكم عن أبيه عن عكرمة قال . جاء رجل إلى ابن عباس وقال . كنت آتى أهلى فى دبرها وسمعت قول الله نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم) فظننت أن ذلك لى حلال فقال. يالكع إنما قوله (فأتوا حرثكم أنى شئتم) قائمة وقاعدة ومقبلة ومدبرة فى أقبالهن لا تعدوا ذلك إلى غيره (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد

(١) لم يذكر المجرور تنزها وهو جائز للعلم به وفى نسخة الأزهر نقطة فى دائرة وهى تصلح إشارة إلى الكلمة الساقطة

حدثنا همام حدثنا قتادة عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « الذى يأتى امرأته فى دبرها هى اللوطية الصغرى » وقال عبدالله بن أحمد : حدثنى هدبة حدثنا همام قال : سئل قتادة عن الذى يأتى امرأته فى دبرها فقال قتادة أخبرنا عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « هى اللوطية الصغرى » قال قتادة وحدثنى عقبة بن وساج عن أبى الدرداء قال . وهل يفعل ذلك إلا كافر ؟ وقد روى هذا الحديث يحيى بن سعيد القطان عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن أبى أيوب عن عبد الله بن عمرو بن العاص قوله(١) وهذا أصح والله أعلم وكذلك رواه عبد بن حميد عن يزيد بن هرون عن حميد الأعرج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن عبدالله بن عمرو موقوفا من قوله (طريق أخرى) قال جعفر الفريابى حدثنا قتيبة حدثنا ابن لهيعة عن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم عن أبى عبدالرحمن الحبلى عن عبدالله بن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « سبعة لاينظر الله اليهم يوم القيامة ولا يزكيهم ويقول ادخلوا النار مع الداخلين : الفاعل والمفعول به والناكح يده وناكح البهيمة وناكح المرأة فى دبرها وجامع بين المرأة وابنتها والزانى بحليلة جاره ومؤذى جاره حتى يلعنه » ابن لهيعة وشيخه ضعيفان (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن عاصم عن عيسى بن حطان عن مسلم بن سلام عن على بن طلق قال نهى رسول الله ﷺ أن تؤتى النساء فى أدبارهن فان الله لايستحى من الحق ، وأخرجه أحمد أيضا عن أبى معاوية وأبى عيسى الترمذى من طريق أبى معاوية أيضا عن عاصم الأحول به وفيه زيادة وقال : هو حديث حسن ومن الناس من يورد هذا الحديث فى مسند على بن أبى طالب كما وقع فى مسند الإمام أحمد بن حنبل والصحيح أنه على بن طلق (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عبدالرزاق أخبرنا معمر عن سهيل بن أبى صالح عن الحارث بن مخلد عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال « إن الذى يأتى امرأته فى دبرها لاينظر الله اليه » وقال أحمد أيضا : حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا سهيل عن الحارث بن مخلد عن أبى هريرة يرفعه قال « لاينظر الله إلى رجل جامع امرأته فى دبرها » وكذا رواه ابن ماجه من طريق سهيل ، وقال أحمد أيضا . حدثنا وكيع عن سهيل بن أبى صالح عن الحارث بن مخلد عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ملعون من أتى امرأته فى دبرها » وهكذا رواه أبو داود والنسائى من طريق وكيع به «طريق أخرى» قال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى ، أخبرنا أحمد بن القاسم بن الريان ، حدثنا أبو عبد الرحمن النسائى حدثنا هناد ومحمد ابن إسماعيل واللفظ له قالا : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن سهيل بن أبى صالح عن أبيه عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ملعون من أتى امرأة فى دبرها » ليس هذا الحديث هكذا فى سنن النسائى وإنما الذى فيه عن سهيل عن الحارث بن مخلد كما تقدم : قال شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبي . ورواية أحمد بن القاسم بن الزيان هذا الحديث بهذا السند وهم منه وقد ضعفوه (طريق أخرى) رواها مسلم بن خالد الزنجى عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ملعون من أتى النساء فى أدبارهن » ومسلم بن خالد فيه كلام والله أعلم (طريق أخرى) رواها الإمام أحمد وأهل السنن من حديث حماد بن سلمة عن حكيم الأثرم عن أبى تميمة الهجيمى عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « من أتى حائضاً أو امرأة فى دبرها أو كاهنا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد » وقال الترمذى ضعف البخارى هذا الحديث والذى قاله البخارى فى حكيم الترمذى عن أبى تميمة لايتابع على حديثه (طريق أخرى) قال النسائى . حدثنا عثمان بن عبدالله حدثنا سليمان بن عبدالرحمن من كتابه عن عبدالملك بن محمد الصنعانى عن سعيد بن عبدالعزيز عن الزهرى عن أبى سلمة رضى الله عنه عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال « استحيوا من الله حق الحياء لا تأتوا النساء فى أدبارهن » تفرد به النسائى من هذا الوجه . قال حمزة بن محمد الكنانى الحافظ هذا حديث منكر باطل من حديث الزهرى ومن حديث أبى سلمة ومن حديث سعيد فان كان عبد الملك سمعه من سعيد فانما سمعه بعد الاختلاط وقد رواه الترمذى عن أبى سلمة أنه كان ينهى عن ذلك فأما عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم فلا انتهى كلامه وقد أجاد وأحسن الانتقاد إلا أن عبد الملك بن محمد الصنعانى لايعرف أنه اختلط ولم يذكر ذلك أحد غير حمزة عن الكنانى وهو ثقة

(١) لعلها من قوله كالرواية التى بعدها وقوله : وهذا أصح يعنى أن الموقوف عليه أصح سندا من المرفوع .

ولكن تكلم فيه دحيم وأبو حاتم وابن حبان وقال : لايجوز الاحتجاج به والله أعلم . وقد تابعه زيد بن يحيى بن عبيد عن سعيد بن عبد العزيز . وروى من طريقين آخرين عن أبى سلمة ولا يصح منها شيء (طريق أخرى) قال النسائى: حدثنا إسحق بن منصور حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان الثورى عن ليث بن أبى سليم عن مجاهد عن أبى هريرة قال : إتيان الرجال النساء فى أدبارهن كفر ثم رواه عن بندار عن عبد الرحمن به قال : من أتى امرأة فى دبرها وتلك كفر، هكذا رواه النسائى من طريق الثورى عن ليث عن مجاهد عن أبى هريرة موقوفا وكذا رواه من طريق على بن نديمة عن مجاهد عن أبى هريرة موقوفا ورواه بكر بن خنيس عن ليث عن مجاهد عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال « من أتى شيئاً من الرجال والنساء فى الأدبار فقد كفر » والموقوف أصح وبكر بن خنيس ضعفه غير واحد من الأئمة وتركه آخرون (حديث آخر) قال محمد بن أبان البلخى حدثنا وكيع حدثنى زمعة بن صالح عن ابن طاوس عن أبيه وعن عمرو بن دينار عن عبد الله بن يزيد بن الهاد قالا : قال عمر بن الخطاب . قال رسول الله ﷺ « إن الله لايستحى من الحق لاتأتوا النساء فى أدبارهن » وقد رواه النسائى حدثنا سعيد بن يعقوب الطالقانى عن عثمان بن الهيثم عن زمعة بن صالح عن ابن طاوس عن أبيه عن ابن الهاد عن عمر قال : لاتأتوا النساء فى أدبارهن . وحدثنا إسحق بن إبراهيم حدثنا يزيد بن أبى حكيم عن زمعة بن صالح عن عمرو بن دينار عن طاوس عن عبدالله بن الهاد الليثى قال : قال عمر رضى الله عنه . استحيوا من الله فان الله لا يستحى من الحق لاتأتوا النساء فى أدبارهن والموقوف أصح (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا غندر ومعاذ بن معاذ قالا . حدثنا شعبة عن عاصم الأحول عن عيسى بن حطان عن مسلم بن سلام عن طلق بن يزيد أو يزيد بن طلق عن النبى ﷺ قال « إن الله لايستحى من الحق لاتأتوا النساء فى أستاههن » وكذا رواه غير واحد عن شعبة ورواه عبد الرزاق عن معمر عن عاصم الأحول عن عيسى ابن حطان عن مسلم بن سلام عن طلق بن على والأشبه أنه على بن طلق كما تقدم والله أعلم (حديث آخر) قال أبو بكر الأثرم فى سننه . حدثنا أبو مسلم الجرمى حدثنا أخو أنيس بن إبراهيم أن أباه إبراهيم بن عبد الرحمن بن القعقاع أخبره عن أبيه أبى القعقاع عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال « محاش النساء حرام » وقد رواه إسماعيل بن علية وسفيان الثورى وشعبة وغيرهم عن أبى عبد الله الشقرى واسمه سلمة بن تمام ثقة عن أبى القعقاع عن ابن مسعود موقوفا وهو أصح (طريق أخرى) قال ابن عدى حدثنا أبو عبدالله المحاملى حدثنا سعيد بن يحيى الثورى حدثنا محمد بن حمزة عن زيد بن رفيع عن أبى عبيدة عن عبدالله قال : قال رسول الله ﷺ « لاتأتوا النساء فى أعجازهن » محمد بن حمزة هو الجزرى وشيخه فيهما مقال . وقد روى من حديث أبى بن كعب والبراء بن عازب وعقبة بن عامر وأبى ذر وغيرهم وفى كل منها مقال لا يصح معه الحديث والله أعلم وقال الثورى عن الصلت بن بهرام عن أبى المعتمر عن أبى جويرة قال : سأل رجل عليا عن إتيان المرأة فى دبرها فقال . سفلت سفل الله بك ألم تسمع قول الله عز وجل (أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين) ، وقد تقدم قول ابن مسعود وأبى الدرداء وأبى هريرة وابن عباس وعبدالله ابن عمرو فى تحريم ذلك وهو الثابت بلا شك عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما أنه يحرمه . قال أبو محمد عبد الرحمن بن عبدالله الدارمى فى مسنده حدثنا عبد الله بن صالح حدثنا الليث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار أبى الحباب قال . قلت لابن عمر ماتقول فى الجوارى أيحمض لهن ؟ قال وما التحميض ؟ فذكر الدبر فقال وهل يفعل ذلك أحد من المسلمين ؟ وكذا رواه ابن وهب وقتيبة عن الليث به وهذا إسناد صحيح ونص صريح منه بتحريم ذلك فكل ماورد عنه مما يحتمل ويحتمل فهو مردود إلى هذا المحكم ، قال ابن جرير . حدثنى عبد الرحمن ابن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم حدثنا أبو زيد أحمد بن عبد الرحمن بن أحمد بن أبى العمر حدثنى عبد الرحمن ابن القاسم عن مالك ابن أنس أنه قيل له يا أبا عبد الله إن الناس يروون عن سالم بن عبد الله أنه قال : كذب العبد أو العلج على أبى عبد الله ، قال مالك . أشهد على يزيد بن رومان أنه أخبرنى عن سالم بن عبد الله عن ابن عمر مثل ما قال نافع . فقيل له فان الحارث بن يعقوب يروى عن أبى الحباب سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر فقال له يا أبا

عبد الرحمن إنا نشترى الجوارى أفنحمض لهن فقال وما التحميض ؟ فذكر له الدبر فقال ابن عمر : أف أف وهل يفعل ذلك مؤمن أو قال مسلم ؟ فقال مالك أشهد على ربيعة لأخبرنى عن أبى الحباب عن ابن عمر مثل ما قال نافع . وروى النسائى عن الربيع بن سليمان عن أصبغ بن الفرج الفقيه حدثنا عبد الرحمن بن القاسم قال : قلت لمالك إن عندنا بمصر الليث بن سعد يحدث عن الحارث بن يعقوب عن سعيد بن يسار قال قلت لابن عمر إنا نشترى الجوارى أفنحمض لهن ؟ قال : وما التحميض ؟ قلت نأتيهن فى أدبارهن فقال . أف أف أو يعمل هـذا مسلم ؟ فقال لى مالك فأشهد على ربيعة لحدثنى عن سعيد بن يسار أنه سأل ابن عمر فقال لا بأس به وروى النسائى أيضاً من طريق يزيد بن رومان عن عبيد الله ابن عبد الله أن ابن عمر كان لا يرى بأسا أن يأتى الرجل المرأة فى دبرها. وروى معمر بن عيسى عن مالك أن ذلك حرام. وقال أبو بكر بن زياد النيسابورى حدثنى إسماعيل بن حسين حدثنى إسرائيل بن روح سألت مالك بن أنس ما تقول فى إتيان النساء فى أدبارهن قال. ما أنتم إلا قوم عرب هل يكون الحرث إلا موضع الزرع ، لا تعدوا الفرج ، قلت يا أبا عبد الله إنهم يقولون إنك تقول ذلك . قال يكذبون على يكذبون على فهذا هو الثابت عنه وهو قول أبى حنيفة والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم قاطبة وهو قول سعيد بن المسيب وأبى سلمة وعكرمة وطاوس وعطاء وسعيد بن جبير وعروة بن الزبير ومجاهد بن جبر والحسن وغيرهم من السلف أنهم أنكروا ذلك أشد الانكار ومنهم من يطلق على فعله الكفر وهو مذهب جمهور العلماء ، وقد حكى فى هذا شىء عن بعض فقهاء المدينة حتى حكوه عن الإمام مالك وفى صحته نظر قال الطحاوى روى أصبغ بن الفرج عن عبد الرحمن بن القاسم قال ما أدركت أحدا أقتدى به فى دينى يشك أنه حلال يعنى وطء المرأة فى دبرها ثم قرأ (نساؤكم حرث لكم) ثم قال فأى شىء أبين من هذا ؟ هذه حكاية الطحاوى وقد روى الحاكم والدار قطنى والخطيب البغدادى عن الإمام مالك من طرق ما يقتضى إباحة ذلك ولكن فى الاسانيد ضعف شديد وقد استقصاها شيخنا الحافظ أبو عبد الله الذهبى فى جزء جمعه فى ذلك والله أعلم وقال الطحاوى : حكى لنا محمد ابن عبد الله بن عبد الحكم أنه سمع الشافعى يقول ما صح عن النبى ﷺ فى تحليله ولا تحريمه شىء والقياس أنه حلال وقد روى ذلك أبو بكر الخطيب عن أبى سعيد الصيرفى عن أبى العباس الأصم سمعت محمد بن عبد الله بن عبد الحكم سمعت الشافعى يقول فذكره قال أبو نصر الصباغ . كان الربيع يحلف بالله الذى لا إله إلا هو لقد كذب — يعنى ابن عبد الحكم — على الشافعى فى ذلك لأن الشافعى نص على تحريمه فى ستة كتب من كتبه والله أعلم

وقوله (وقدموا لأنفسكم) أى من فعل الطاعات مع امتثال ما أنهاكم عنه من ترك المحرمات ولهذا قال (واتقوا الله واعلموا أنكم ملاقوه) أى فيحاسبكم على أعمالكم جميعها (وبشر المؤمنين) أى المطيعين لله فيما أمرهم التاركين ما عنه زجرهم وقال ابن جرير حدثنا القاسم حدثنا الحسين حدثنى محمد بن كثير عن عبد الله بن واقد عن عطاء قال . أراه عن ابن عباس (وقدموا لأنفسكم) قال . تقول باسم الله التسمية عند الجماع وقد ثبت فى صحيح البخارى عن ابن عباس قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لو أن أحدكم إذا أراد أن يأتى أهله قال باسم الله اللهم جنبنا الشيطان وجنب الشيطان ما رزقتنا فانه إن يقدر بينهما ولد فى ذلك لم يضره الشيطان أبدا »

﴿ وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَكِنْ يُؤَاخِذُكُمْ بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى لا تجعلوا أيمانكم بالله تعالى مانعة لكم من البر وصلة الرحم إذا حلفتم على تركها كقوله تعالى (ولا يأتل أولوا الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى والمساكين والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم) فالاستمرار على اليمين آثم لصاحبها من الخروج منها بالتكفير كما قال البخارى . حدثنا إسحق بن إبراهيم أخبرنا عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال . هـذا ما حدثنا أبو هريرة عن النبى ﷺ قال «نحن

الآخرون السابقون يوم القيامة » وقال رسول الله ﷺ « والله لأن يلج أحدكم بيمينه فى أهله آثم له عند الله من أن يعطى كفارته التى افترض الله عليه» وهكذا رواه مسلم عن محمد بن رافع عن عبدالرزاق به ورواه أحمد عنه به ثم قال البخارى . حدثنا إسحق بن منصور حدثنا يحيى بن صالح حدثنا معاوية هو ابن سلام عن يحيى وهو ابن أبى كثير عن عكرمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من استلج فى أهله بيمين فهو أعظم إثما ليس تغنى[1] الكفارة » وقال على بن طلحة عن ابن عباس فى قوله (ولا تجعلوا الله عرضة لأيمانكم) قال لا تجعلن عرضة ليمينك أن لا تصنع الخير . ولكن كفر عن يمينك واصنع الخير وكذا قال مسروق والشعبى وإبراهيم النخعى ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير وعطاء وعكرمة ومكحول والزهرى والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والضحاك وعطاء الخراسانى والسدى رحمهم الله ويؤيد ما قاله هؤلاء الجمهور ما ثبت فى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه قال . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنى والله إن شاء الله لا أحلف على يمين فأرى غيرها خيرا منها إلا أتيت الذى هو خير وتحللتها» وثبت فيهما أيضاً أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لعبد الرحمن بن سمرة « يا عبدالرحمن ابن سمرة لا تسأل الإمارة فإنك إن أعطيتها من غير مسئلة أعنت عليها وإن أعطيتها عن مسألة وكلت إليها ، وإذا حلفت على يمين فرأيت غيرها خيرا منها فأت الذى هو خير وكفر عن يمينك » وروى مسلم عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فليكفر عن يمينه وليفعل الذى هو خير » . وقال الإمام أحمد . حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا خليفة بن خياط حدثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فتركها كفارتها » ورواه أبو داود من طريق أبى عبيد الله بن الأخنس عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا نذر ولا يمين فيما لا يملك ابن آدم ولا فى معصية الله ولا فى قطيعة رحم ومن حلف على يمين فرأى غيرها خيراً منها فليدعها وليأت الذى هو خير فإن تركها كفارتها» ثم قال أبو داود والأحاديث عن النبى ﷺ كلها « فليكفر عن يمينه » وهى الصحاح

وقال ابن جرير : حدثنا على بن سعيد الكندى حدثنا على بن مسهر عن حارثة بن محمد عن عمرة عن عائشة قالت: قال رسول الله ﷺ « من حلف على يمين قطيعة رحم ومعصية فبره أن يحنث فيها ويرجع عن يمينه » وهذا حديث ضعيف لأن حارثة هذا هو ابن أبى الرجال محمد بن عبد الرحمن متروك الحديث ضعيف عند الجميع ثم روى ابن جرير عن ابن عباس وسعيد بن المسيب ومسروق والشعبى أنهم قالوا لا يمين فى معصية ولا كفارة عليها

وقوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) أى لا يعاقبكم ولا يلزمكم بما صدر منكم من الأيمان اللاغية وهى التى لا يقصدها الحالف بل تجرى على لسانه عادة من غير تعقيد ولا تأكيد كما ثبت فى الصحيحين من حديث الزهرى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من حلف فقال فى حلفه باللات والعزى فليقل لا إله إلا الله » فهذا قاله لقوم حديثى عهد بجاهلية قد أسلموا وألسنتهم قد ألفت ما كانت عليه من الحلف باللات من غير قصد فأمروا أن يتلفظوا بكلمة الإخلاص كما تلفظوا بتلك الكلمة من غير قصد لتكون هذه بهذه ولهذا قال تعالى (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) الآية وفى الآية الأخرى (بما عقدتم الأيمان) قال أبو داود . ﴿ باب لغو اليمين ﴾ حدثنا حميد بن مسعدة الشامى حدثنا حيان يعنى ابن إبراهيم حدثنا إبراهيم يعنى الصائغ عن عطاء . اللغو فى اليمين قال قالت عائشة إن رسول الله ﷺ قال : « اللغو فى اليمين هو كلام الرجل فى بيته كلا والله وبلى والله » ثم قال أبو داود رواه داود بن الفرات عن إبراهيم الصائغ عن عطاء عن عائشة موقوفا ورواه الزهرى وعبد الملك ومالك بن مغول كلهم عن عطاء عن عائشة موقوفا أيضاً (قلت) وكذا رواه ابن جريج وابن أبى ليلى عن عطاء عن عائشة موقوفا ورواه ابن جرير عن هناد عن وكيع وعبدة وأبى معاوية عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) لا والله وبلى والله ثم رواه عن محمد بن حميد عن سلمة

(١) وفى رواية ليبر موضع ليس وهو أمر من البر وبعده يعنى الكفارة وهو تفسير للبر المأمور به لحقائه .

عن ابن إسحق عن هشام عن أبيه عنها وبه عن ابن إسحق عن الزهرى عن القاسم عنها وبه عن ابن إسحق عن ابن أبى نجيح عن عطاء عنها وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة فى قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) قالت هم القوم يتدارءون فى الأمر فيقول هذا لا والله وبلى والله وكلا والله يتدارءون فى الأمر لا تعقد عليه قلوبهم وقد قال ابن أبى حاتم حدثنا هرون بن إسحق الهمدانى حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة فى قول الله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) قالت : هو قول الرجل لا والله وبلى والله . وحدثنا أبى حدثنا أبو صالح كاتب الليث حدثنى ابن لهيعة عن أبى الأسود عن عروة قال كانت عائشة تقول إنما اللغو فى المزاحة والهزل وهو قول الرجل لا والله وبلى والله فذاك لا كفارة فيه إنما الكفارة فيما عقد عليه قلبه أن يفعله ثم لا يفعله ثم قال ابن أبى حاتم وروى عن ابن عمر وابن عباس فى أحد قوليه والشعبى وعكرمة فى أحد قوليه وعروة بن الزبير وأبى صالح والضحاك فى أحد قوليه وأبى قلابة والزهرى نحو ذلك (الوجه الثانى) قرئ على يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى الثقة عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أنها كانت تتأول هذه الآية يعنى قوله (لا يؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم) وتقول هو الشىء يحلف عليه أحدكم لا يريد منه إلا الصدق فيكون على غير ما حلف عليه ثم قال وروى عن أبى هريرة وابن عباس فى أحد قوليه وسليمان بن يسار وسعيد بن جبير ومجاهد فى أحد قوليه وإبراهيم النخعى فى أحد قوليه والحسن وزرارة بن أوفى وأبى مالك وعطاء الخراسانى وبكر بن عبد الله وأحد قولى عكرمة وحبيب بن أبى ثابت والسدى ومكحول ومقاتل وطاوس وقتادة والربيع بن أنس ويحيى بن سعيد وربيعة نحو ذلك وقال ابن جرير حدثنا محمد بن موسى الجرشى حدثنا عبد الله بن ميمون المرادى حدثنا عوف الأعرابى عن الحسن ابن أبى الحسن قال مر رسول الله ﷺ بقوم ينتضلون يعنى يرمون ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل من أصحابه فقام رجل من القوم فقال أصبت والله وأخطأت والله فقال الذى مع النبى ﷺ للنبى ﷺ حنث الرجل يارسول الله قال « كلا أيمان الرماة لغو لا كفارة فيها ولا عقوبة » هذا مرسل حسن عن الحسن وقال ابن أبى حاتم وروى عن عائشة القولان جميعا حدثنا عصام بن رواد أنبأنا آدم حدثنا شيبان عن جابر عن عطاء ابن أبى رباح عن عائشة قالت : هو قوله لا والله وبلى والله وهو يرى أنه صادق ولا يكون كذلك (أقوال أخر) قال عبد الرزاق عن هشيم عن مغيرة عن إبراهيم هو الرجل يحلف على الشىء ثم ينساه وقال زيد بن أسلم هو قول الرجل أعمى الله بصرى إن لم أفعل كذا وكذا أخزنى الله من مالى إن لم آتك غدا فهو هذا قال ابن أبى حاتم وحدثنا على بن الحسين حدثنا مسدد بن خالد حدثنا خالد حدثنا عطاء عن طاوس عن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحلف وأنت غضبان وأخبرنى أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا سعيد بن بشير حدثنى أبو بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : لغو اليمين أن تحرم ما أحل الله لك فذلك ما ليس عليك فيه كفارة وكذا روى عن سعيد بن جبير . وقال أبو داود ﴿باب اليمين فى الغضب﴾ حدثنا محمد بن المنهال أنبأنا يزيد بن زريع حدثنا حبيب المعلم عن عمرو بن شعيب عن سعيد بن المسيب أن أخوين من الأنصار كان بينهما ميراث فسأل أحدهما صاحبه القسمة فقال : إن عدت تسألنى عن القسمة فكل مالى فى رتاج الكعبة فقال له عمر : إن الكعبة غنية عن مالك كفر عن يمينك وكلم أخاك سمعت رسول الله ﷺ يقول « لا يمين عليك ولا نذر فى معصية الرب عز وجل ولا فى قطيعة الرحم ولا فيما لا تملك » وقوله (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) قال ابن عباس ومجاهد وغير واحد : هو أن يحلف على الشىء وهو يعلم أنه كاذب قال مجاهد وغيره . وهى كقوله تعالى (ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان) الآية (والله غفور حليم) أى غفور لعباده حليم عليهم .

﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِنْ فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝ وَإِنْ عَزَمُوا ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

الإيلاء الحلف فإذا حلف الرجل أن لايجامع زوجته مدة فلا يخلو إما أن يكون أقل من أربعة أشهر أو أكثر منها فان كانت أقل فله أن ينتظر انقضاء المدة ثم يجامع امرأته وعليها أن تصبر وليس لها مطالبته بالفيئة فى هذه المدة وهذا كما ثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله ﷺ آلى من نسائه شهرا فنزل لتسع وعشرين وقال « الشهر تسع وعشرون » ولهما عن عمر بن الخطاب نحوه فأما إن زادت المدة على أربعة أشهر فللزوجة مطالبة الزوج عند انقضاء أربعة أشهر إما أن يفىء أى يجامع وإما أن يطلق فيجبره الحاكم على هذا وهذا لئلا يضر بها ولهذا قال تعالى (للذين يؤلون من نسائهم) أى يحلفون على ترك الجماع من نسائهم فيه دلالة على أن الإيلاء يختص بالزوجات دون الإماء كما هو مذهب الجمهور (تربص أربعة أشهر) أى ينتظر الزوج أربعة أشهر من حين الحلف ثم يوقف ويطالب بالفيئة أو الطلاق ولهذا قال (فإن فاؤا) أى رجعوا إلى ما كانوا عليه وهو كناية عن الجماع قاله ابن عباس ومسروق والشعبي وسعيد بن جبير وغير واحد ومنهم ابن جرير رحمه الله (فإن الله غفور رحيم) لما سلف من التقصير فى حقهن بسبب اليمين وقوله (فان فاؤا فان الله غفور رحيم) فيه دلالة لأحد قولى العلماء وهو القديم عن الشافعى أن المولى إذا فاء بعد الأربعة الأشهر أنه لا كفارة عليه ويعتضد بما تقدم فى الحديث عند الآية التى قبلها عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال : « من حلف على يمين فرأى غيرها خيرا منها فتركها كفارتها » كما رواه أحمد وأبوداود والترمذى والذى عليه الجمهور وهو الجديد من مذهب الشافعى أن عليه التكفير لعموم وجوب التكفير على كل حالف كما تقدم أيضا فى الأحاديث الصحاح والله أعلم .

وقوله (وإن عزموا الطلاق) فيه دلالة على أن الطلاق لايقع بمجرد مضى الأربعة أشهر كقول الجمهور من المتأخرين وذهب آخرون إلى أنه يقع بمضى أربعة أشهر تطليقة وهو مروى بأسانيد صحيحة عن عمر وعثمان وعلى وابن مسعود وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه يقول ابن سيرين ومسروق والقاسم وسالم والحسن وأبوسلمة وقتادة وشريح القاضى وقبيصة بن ذؤيب وعطاء وأبوسلمة بن عبد الرحمن وسليمان بن طرخان التيمى وإبراهيم النخعى والربيع بن أنس والسدى ثم قيل انها تطلق بمضى الأربعة أشهر طلقة رجعية قاله سعيد بن المسيب وأبوبكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام ومكحول وربيعة والزهرى ومروان بن الحكم وقيل انها تطلق طلقة بائنة روى عن على وابن مسعود وعثمان وابن عباس وابن عمر وزيد بن ثابت وبه يقول عطاء وجابر بن زيد ومسروق وعكرمة والحسن وابن سيرين ومحمد بن الحنفية وإبراهيم وقبيصة بن ذؤيب وأبو حنيفة والثورى والحسن بن صالح فكل من قال إنها تطلق بمضى الأربعة أشهر أوجب عليها العدة إلا ماروى عن ابن عباس وأبى الشعثاء إنها إن كانت حاضت ثلاث حيض فلا عدة عليها وهو قول الشافعى والذى عليه الجمهور من المتأخرين ان يوقف فيطالب إما بهذا وإما بهذا ولا يقع عليها بمجرد مضيها طلاق وروى مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه قال . إذا آلى الرجل من امرأته لم يقع عليه طلاق وإن مضت أربعة أشهر حتى يوقف فإما ان يطلق وإما أن يفىء وأخرجه البخارى وقال الشافعى رحمه الله أخبرنا سفيان بن عيينة عن يحيى بن سعيد عن سليمان بن يسار قال أدركت بضعة عشر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم كلهم يوقف المولى . قال الشافعى وأقل ذلك ثلاثة عشر ورواه الشافعى عن على رضى الله عنه أنه يوقف المولى ثم قال وهكذا نقول وهو موافق لما رويناه عن عمر وابن عمر وعائشة وعثمان وزيد بن ثابت وبضعة عشر من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم . هكذا قال الشافعى رحمه الله قال ابن جرير حدثنا ابن أبى مريم حدثنا يحيى ابن أيوب عن عبيد الله بن عمر عن سهيل ابن أبى صالح عن أبيه قال سألت اثنى عشر رجلا من الصحابة عن الرجل يولى من امرأته فكلهم يقول ليس عليه شىء حتى تمضى الأربعة الأشهر فيوقف فان فاء وإلا طلق ورواه الدارقطنى من طريق سهيل (قلت) وهو يروى عن عمر وعثمان وعلى وأبى الدرداء وعائشة أم المؤمنين وابن عمر وابن عباس وبه يقول سعيد بن المسيب وعمر بن عبد العزيز ومجاهد وطاوس ومحمد بن كعب والقاسم وهو مذهب مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وأصحابهم رحمهم الله وهو اختيار ابن جرير أيضا وهو قول الليث وإسحق بن راهويه وأبى عبيد وأبى ثور وداود وكل هؤلاء قالوا إن لم يفىء

ألزم بالطلاق فان لم يطلق طلق عليه الحاكم والطلقة تكون رجعية له رجعتها فى العدة وانفرد مالك بأن قال : لا يجوز له رجعتها حتى يجامعها فى العدة وهذا غريب جداً

وقد ذكر الفقهاء وغيرهم فى مناسبة تأجيل المولى بأربعة أشهر الأثر الذى رواه الإمام مالك بن أنس رحمه الله فى الموطأ عن عبد الله بن دينار قال : خرج عمر بن الخطاب من الليل فسمع امرأة تقول :

تطاول هذا الليل واسود جانبه وأرقنى أن لاخليل ألاعبه

فوالله لولا الله أنى أراقبه لحرك من هذا السرير جوانبه

فسأل عمر ابنته حفصة رضى الله عنها كم أكثر ما تصبر المرأة عن زوجها ! فقالت . ستة أشهر أو أربعة أشهر فقال عمر لا أحبس أحدا من الجيوش أكثر من ذلك وقال محمد بن إسحق عن السائب بن جبير مولى ابن عباس وكان قد أدرك أصحاب النبى ﷺ قال : مازلت أسمع حديث عمر أنه خرج ذات ليلة يطوف بالمدينة وكان يفعل ذلك كثيراً إذ مر بامرأة من نساء العرب مغلقة بابها تقول .

تطاول هذا الليل وازورّ جانبه * وأرقنى أن لا ضجيع ألاعبه * ألاعبه طورا وطورا كأنما

بدا قمراً فى ظلمة الليل حاجبه * يسر به من كان يلهو بقربه * لطيف الحشا لا يحتويه أقاربه

فوالله لولا الله لا شىء غيره * لنقض من هذا السرير جوانبه * ولكننى أخشى رقيبا موكلا

بأنفاسنا لا يفتر الدهر كائبه * مخافة ربى والحياء يصدنى * وإكرام بعلى أن تنال مراكبه(١)

ثم ذكر بقية ذلك كما تقدم أو نحوه وقد روى هذا من طرق وهو من المشهورات

﴿ وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوا إِصْلَاحًا وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله سبحانه وتعالى للمطلقات المدخول بهن من ذوات الأقراء بأن يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء أى بأن تمكث إحداهن بعد طلاق زوجها لها ثلاثة قروء ثم تتزوج إن شاءت وقد أخرج الأئمة الأربعة من هذا العموم الأمة إذا طلقت فانها تعتد عندهم بقرأين لأنها على النصف من الحرة والقرء لا يتبعض فكمل لها قرآن ولما رواه ابن جرير عن مظاهر بن أسلم المخزومى المدنى عن القاسم عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « طلاق الأمة تطليقتان وعدتها حيضتان » رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه ولكن مظاهر هذا ضعيف بالكلية وقال الحافظ الدارقطنى وغيره الصحيح أنه من قول القاسم بن محمد نفسه ورواه ابن ماجه من طريق عطية العوفى عن ابن عمر مرفوعا قال الدار قطنى والصحيح ما رواه سالم ونافع عن ابن عمر قوله(٢) وهكذا روى عن عمر بن الخطاب قالوا . ولم يعرف بين الصحابة خلاف وقال بعض السلف . بل عدتها كعدة الحرة لعموم الآية ولأن هذا أمر جبلى فكان الحرائر والإماء فى هذا سواء حكى هذا القول الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن محمد بن سيرين وبعض أهل الظاهر وضعفه وقد قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو اليمان حدثنا إسماعيل يعنى ابن عياش عن عمرو بن مهاجر عن أبيه أن أسماء بنت يزيد بن السكن الأنصارية قالت : طلقت على عهد رسول الله ﷺ ولم يكن للمطلقة عدة فأنزل الله عز وجل حين طلقت أسماء العدة للطلاق فكانت أول من نزلت فيها العدة للطلاق يعنى (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء) وهذا حديث غريب من هذا الوجه . وقد اختلف السلف والخلف والأئمة فى المراد بالأقراء ما هو على قولين . (أحدهما) أن المراد بها الأطهار وقال مالك فى الموطأ عن ابن شهاب عن عروة عن عائشة أنها انتقلت حفصة بنت عبد الرحمن بن أبى بكر حين دخلت فى الدم من الحيضة الثالثة فذكرت ذلك لعمرة

(١) وفى نسخة مراتبه (٢) أى من قوله لا مرفوعا .

بنت عبد الرحمن فقالت صدق عروة وقد جادلها فى ذلك ناس فقالوا إن الله تعالى يقول فى كتابه (ثلاثة قروء) فقالت عائشة صدقتم وتدرون ما الأقراء ؟ إنما الأقراء الأطهار وقال مالك عن ابن شهاب سمعت أبا بكر بن عبد الرحمن يقول ما أدركت أحداً من فقهائنا إلا وهو يقول ذلك يريد قول عائشة وقال مالك عن نافع عن عبد الله بن عمر أنه كان يقول إذا طلق الرجل امرأته فدخلت فى الدم من الحيضة الثالثة فقد برئت منه وبرئ منها وقال مالك وهو الأمر عندنا وروى مثله عن ابن عباس وزيد بن ثابت وسالم والقاسم وعروة وسليمان بن يسار وأبى بكر بن عبد الرحمن وأبان بن عثمان وعطاء بن أبى رباح وقتادة والزهرى وبقية الفقهاء السبعة وهو مذهب مالك والشافعى وغير واحد وداود وأبى ثور وهو رواية عن أحمد واستدلوا عليه بقوله تعالى (فطلقوهن لعدتهن) أى فى الأطهار ولما كان الطهر الذى يطلق فيه محتسباً دل على أنه أحد الأقراء الثلاثة المأمور بها ولهذا قال هؤلاء . إن المعتدة تنقضى عدتها وتبين من زوجها بالطعن فى الحيضة الثالثة وأقل مدة تصدق فيها المرأة فى انقضاء عدتها اثنان وثلاثون يوما ولحظتان واستشهد أبو عبيد وغيره على ذلك بقول الشاعر وهو الأعشى

ففى كل عام أنت جاشم غزوة تشد لأقصاها عزيم عزائكا
مورثة مالا وفى الأصل رفعة لما ضاع فيها من قروء نسائكا

يمدح أميرا من أمراء العرب آثر الغزو على المقام حتى ضاعت أيام الطهر من نسائه لم يواقعهن فيها. (والقول الثانى) أن المراد بالأقراء الحيض فلا تنقضى العدة حتى تطهر من الحيضة الثالثة زاد آخرون وتغتسل منها وأقل وقت تصدق فيه المرأة فى انقضاء عدتها ثلاثة وثلاثون يوما ولحظة قال الثورى عن منصور عن إبراهيم عن علقمة قال كنا عند عمر بن الخطاب رضى الله عنه فجاءته امرأة فقالت إن زوجى فارقنى بواحدة أو اثنتين فجاءنى وقد نزعت ثيابى وأغلقت بابى فقال عمر لعبد الله بن مسعود : أراها امرأته ما دون أن تحل لها الصلاة قال وأنا أرى ذلك . وهكذا روى عن أبى بكر الصديق وعمر وعثمان وعلى وأبى الدرداء وعبادة بن الصامت وأنس بن مالك وابن مسعود ومعاذ وأبى بن كعب وأبى موسى الأشعرى وابن عباس وسعيد بن المسيب وعلقمة والأسود وإبراهيم ومجاهد وعطاء وطاوس وسعيد بن جبير وعكرمة ومحمد بن سيرين والحسن وقتادة والشعبى والربيع ومقاتل بن حيان والسدى ومكحول والضحاك وعطاء الخراسانى أنهم قالوا . الأقراء : الحيض وهذا مذهب أبى حنيفة وأصحابه وأصح الروايتين عن الإمام أحمد بن حنبل وحكى عنه الأثرم أنه قال الأكابر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون الأقراء الحيض وهو مذهب الثورى والأوزاعى وابن أبى ليلى وابن شبرمة والحسن بن صالح بن حى وأبى عبيد وإسحق ابن راهويه ويؤيد هذا ماجاء فى الحديث الذى رواه أبو داود والنسائى من طريق المنذر بن المغيرة عن عروة بن الزبير عن فاطمة بنت أبى حبيش أن رسول الله ﷺ قال لها « دعى الصلاة أيام أقرائك » فهذا لو صح لكان صريحا فى أن القرء هو الحيض ولكن المنذر هذا قال فيه أبو حاتم مجهول ليس بمشهور وذكره ابن حبان فى الثقات وقال ابن جرير أصل القرء فى كلام العرب الوقت لمجىء الشىء المعتاد مجيئه فى وقت معلوم ولإدبار الشىء المعتاد إدباره لوقت معلوم وهذه العبارة تقتضى أن يكون مشتركا بين هذا وهذا وقد ذهب إليه بعض الأصوليين والله أعلم . وهذا قول الأصمعى أن القرء هو الوقت . وقال أبو عمرو بن العلاء . العرب تسمى الحيض قرءا وتسمى الطهر قرءا وتسمى الطهر والحيض جميعا قرءا . وقال الشيخ أبو عمر بن عبد البر لا يختلف أهل العلم بلسان العرب والفقهاء أن القرء يراد به الحيض ويراد به الطهر وإنما اختلفوا فى المراد من الآية ماهو على قولين

وقوله (ولا يحل لهن أن يكتمن ما خلق الله فى أرحامهن) أى من حبل أو حيض . قاله ابن عباس وابن عمر ومجاهد والشعبى والحكم بن عيينة والربيع بن أنس والضحاك وغير واحد وقوله (إن كن يؤمن بالله واليوم الآخر) تهديد لهن على خلاف الحق ودل هذا على أن المرجع فى هذا إليهن لأنه أمر لا يعلم إلا من جهتهن ويتعذر إقامة البينة غالبا على ذلك فرد الأمر إليهن وتوعدن فيه لئلا يخبرن بغير الحق إما استعجالا منها لانقضاء العدة أو رغبة منها فى تطويلها لمالها فى

ذلك من المقاصد فأمرت أن تخبر بالحق فى ذلك من غير زيادة ولا نقصان

وقوله (وبعولتهن أحق بردهن فى ذلك إن أرادوا إصلاحا) أى وزوجها الذى طلقها أحق بردها مادامت فى عدتها إذا كان مراده بردها الاصلاح والخير وهذا فى الرجعيات فأما المطلقات البوائن فلم يكن حال نزول هذه الآية مطلقة بائن وإنما كان ذلك لما حصروا فى الطلاق(١) الثلاث فأما حال نزول هذه الآية فكان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة فلما قصروا فى الآية التى بعدها على ثلاث تطليقات صار للناس مطلقة بائن وغير بائن وإذا تأملت هذا تبين لك ضعف ما سلكه بعض الأصوليين من استشهادهم على مسئلة عود الضمير هل يكون مخصصا لما تقدمه من لفظ العموم أم لا بهذه الآية الكريمة فان التمثيل بها غير مطابق لما ذكروه والله أعلم

وقوله (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) أى ولهن على الرجال من الحق مثل ما للرجال عليهن فليؤد كل واحد منهما إلى الآخر ما يجب عليه بالمعروف كما ثبت فى صحيح مسلم عن جابر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فى خطبته فى حجة الوداع « فاتقوا الله فى النساء فانكم أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحدا تكرهونه فان فعلن ذلك فاضربوهن ضربا غير مبرح ولهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف » وفى حديث بهز بن حكيم عن معاوية بن حيدة القشيرى عن أبيه عن جده أنه قال يارسول الله ماحق زوجة أحدنا قال « أن تطعمها إذا طعمت وتكسوها إذا اكتسيت ولا تضرب الوجه ولا تقبح ولا تهجر إلا فى البيت » وقال وكيع عن بشير بن سليمان عن عكرمة عن ابن عباس قال : إنى لأحب أن أتزين للمرأة كما أحب أن تتزين لى المرأة لأن الله يقول (ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف) رواه ابن جرير وابن أبى حاتم وقوله (وللرجال عليهن درجة) أى فى الفضيلة فى الخلق والخلق والمنزلة وطاعة الأمر والانفاق والقيام بالمصالح والفضل فى الدنيا والآخرة كما قال تعالى (الرجال قوامون على النساء بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم)

وقوله (والله عزيز حكيم) أى عزيز فى انتقامه ممن عصاه وخالف أمره حكيم فى أمره وشرعه وقدره

﴿ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُوا۟ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ * فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾

هذه الآية الكريمة رافعة لما كان عليه الأمر فى ابتداء الإسلام من أن الرجل كان أحق برجعة امرأته وإن طلقها مائة مرة مادامت فى العدة فلما كان هذا فيه ضرر على الزوجات قصرهم الله إلى ثلاث طلقات وأباح الرجعة فى المرة والثنتين وأبانها بالكلية فى الثالثة . فقال (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) قال أبو داود رحمه الله فى سننه (باب نسخ المراجعة بعد الطلقات الثلاث) حدثنا أحمد بن محمد المروزى حدثنى على بن الحسين بن واقد عن أبيه عن يزيد النحوى عن عكرمة عن ابن عباس (والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ولا يحل لهن أن يكتمن ماخلق الله فى أرحامهن) الأية وذلك أن الرجل كان إذا طلق امرأته فهو أحق برجعتها وإن طلقها ثلاثا فنسخ ذلك فقال (الطلاق مرتان) الآية ورواه النسائى عن زكريا بن يحيى عن إسحق بن إبراهيم عن على بن الحسين به وقال ابن أبى حاتم حدثنا هرون بن إسحق حدثنا عبدة يعنى ابن سليمان عن هشام بن عروة عن أبيه أن رجلا قال لامرأته : لاأطلقك أبدا ولا آويك أبدا قالت: وكيف ذلك؟ قال: أطلق حتى إذا دنا أجلك راجعتك فأتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكرت ذلك له فأنزل الله عز وجل (الطلاق مرتان) وهكذا رواه ابن جرير فى تفسيره من طريق جرير بن عبد الحميد وابن إدريس ورواه

(١) فى نسخة الأزهر الطلقات .

عبد بن حميد فى تفسيره عن جعفر بن عون كلهم عن هشام عن أبيه قال . كان الرجل أحق برجعة امرأته وإن طلقها ما شاء مادامت فى العدة وإن رجلا من الأنصار غضب على امرأته فقال : والله لا آويك ولا أفارقك قالت وكيف ذلك قال أطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك ثم أطلقك فاذا دنا أجلك راجعتك فذكرت ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فأنزل الله عز وجل (الطلاق مرتان) قال فاستقبل الناس الطلاق من كان طلق ومن لم يكن طلق وقد رواه أبو بكر بن مردويه من طريق محمد بن سليمان عن يعلى بن شبيب مولى الزبير عن هشام عن أبيه عن عائشة فذكره بنحو ما تقدم ورواه الترمذى عن قتيبة عن يعلى بن شبيب به ثم رواه عن أبى كريب عن ابن إدريس عن هشام عن أبيه مرسلا وقال هذا أصح ورواه الحاكم فى مستدركه من طريق يعقوب بن حميد بن كاسب عن يعلى بن شبيب به وقال صحيح الإسناد ثم قال ابن مردويه . حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا إسماعيل بن عبد الله حدثنا محمد بن حميد حدثنا سلمة بن الفضل عن محمد بن إسحق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت لم يكن للطلاق وقت يطلق الرجل امرأته ثم يراجعها ما لم تنقض العدة وكان بين رجل من الأنصار وبين أهله بعض ما يكون بين الناس فقال والله لأتركنك لا أيما ولا ذات زوج ، فجعل يطلقها حتى إذا كادت العدة أن تنقضى راجعها ففعل ذلك مرارا فأنزل الله عز وجل فيه (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) فوقت الطلاق ثلاثا لارجعة فيه بعد الثالثة حتى تنكح زوجا غيره وهكذا روى عن قتادة مرسلا ذكره السدى وابن زيد وابن جرير كذلك واختار أن هذا تفسير هذه الآية وقوله (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) أى إذا طلقتها واحدة أواثنتين فأنت مخير فيها ما دامت عدتها باقية بين أن تردها إليك ناويا الاصلاح بها والإحسان إليها وبين أن تتركها حتى تنقضى عدتها فتبين منك وتطلق سراحها محسنا إليها لا تظلمها من حقها شيئاً ولا تضاربها . وقال ابن أبى طلحة عن ابن عباس قال إذا طلق الرجل امرأته تطليقتين فليتق الله فى ذلك أى فى الثالثة فإما أن يمسكها بمعروف فيحسن صحابتها أو يسرحها بإحسان فلا يظلمها من حقها شيئاً وقال ابن أبى حاتم أخبرنا يونس بن عبد الأعلى قراءة أخبرنا ابن وهب أخبرنى سفيان الثورى حدثنى إسماعيل بن سميع قال سمعت أبا رزين يقول جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله أرأيت قول الله عز وجل (فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) أين الثالثة قال . « التسريح بإحسان » ورواه عبد بن حميد فى تفسيره ولفظه أخبرنا يزيد بن أبى حكيم عن سفيان عن إسماعيل بن سميع أن أبا رزين الأسدى يقول: قال رجل يا رسول الله أرأيت قول الله (الطلاق مرتان) فأين الثالثة؟ قال « التسريح بإحسان الثالثة » ورواه الإمام أحمد أيضاً . وهكذا رواه سعيد بن منصور عن خالد بن عبد الله عن إسماعيل ابن زكريا وأبى معاوية عن إسماعيل بن سميع عن أبى رزين به وكذا رواه ابن مردويه أيضاً من طريق قيس بن الربيع عن إسماعيل بن سميع عن أبى رزين به مرسلا ورواه ابن مردويه أيضاً من طريق عبد الواحد بن زياد عن إسماعيل بن سميع عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وسلم فذكره ثم قال : حدثنا عبد الله بن أحمد بن عبد الرحيم حدثنا أحمد ابن يحيى حدثنا عبيد الله بن جرير بن جبلة حدثنا ابن عائشة حدثنا حماد بن سلمة عن قتادة عن أنس بن مالك قال. جاء رجل إلى النبى ﷺ فقال يا رسول الله ذكر الله الطلاق مرتين فأين الثالثة ؟ قال « (إمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) »

وقوله (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً) أى لا يحل لكم أن تضاجروهن وتضيقوا عليهن ليفتدين منكم بما أعطيتموهن من الأصدقة أو ببعضه كما قال تعالى (ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة) فأما إن وهبته المرأه شيئاً عن طيب نفس منها فقد قال تعالى (فإن طبن لكم عن شىء منه نفسا فكلوه هنيئاً مريئاً) وأما إذا تشاقق الزوجان ولم تقم المرأة بحقوق الرجل وأبغضته ولم تقدر على معاشرته فلها أن تفتدى منه بما أعطاها ولا حرج عليها فى بذلها له ولا حرج عليه فى قبول ذلك منها ولهذا قال تعالى (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فان خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) الآية فأما إذا لم يكن لها عذر وسألت الافتداء منه فقد قال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب ح وحدثنى يعقوب بن

إبراهيم حدثنا ابن علية قالا جميعا : حدثنا أيوب عن أبي قلابة عمن حدثه عن ثوبان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «أيما امرأة سألت زوجها طلاقها في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » وهكذا رواه الترمذي عن بندار عن عبد الوهاب بن عبد المجيد الثقفي به وقال حسن قال ويروى عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان ورواه بعضهم عن أيوب بهذا الإسناد ولم يرفعه : وقال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرحمن حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة قال وذكر أبا أسماء وذكر ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس فحرام عليها رائحة الجنة » وهكذا رواه أبو داود وابن ماجه وابن جرير من حديث حماد بن زيد به (طريق أخرى) قال ابن جرير . حدثني يعقوب بن إبراهيم حدثنا المعتمر بن سليمان عن ليث بن أبي إدريس عن ثوبان مولى رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ أنه قال « أيما امرأة سألت زوجها الطلاق في غير ما بأس حرم الله عليها رائحة الجنة » وقال « المختلعات هن المنافقات » ثم رواه ابن جرير والترمذي جميعا عن أبي كريب عن مزاحم بن داود بن علية عن أبيه عن ليث هو ابن أبي سليم عن أبي الخطاب عن أبي زرعة عن أبي إدويس عن ثوبان قال : قال رسول الله ﷺ « المختلعات هن المنافقات » : ثم قال الترمذي : غريب من هذا الوجه وليس إسناده بالقوي (حديث آخر) قال ابن جرير . حدثنا أيوب حدثنا حفص بن بشر حدثنا قيس بن الربيع عن أشعث ابن سوار عن الحسن عن ثابت بن يزيد عن عقبة بن عامر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المختلعات المنتزعات هن المنافقات » غريب من هذا الوجه ضعيف (حديث آخر) قال الإمام أحمد . حدثنا عفان حدثنا وهيب حدثنا أيوب عن الحسن عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « المختلعات والمنتزعات هن المنافقات » (حديث آخر) قال ابن ماجه حدثنا بكر بن خلف أبو بشر حدثنا أبو عاصم عن جعفر بن يحيى بن ثوبان عن عمه عمارة بن ثوبان عن عطاء عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لا تسأل امرأة زوجها الطلاق في غير كنهه فتجد ريح الجنة وإن ريحها ليوجد من مسيرة أربعين عاما » *ثم قد قال طائفة كثيرة من السلف وأئمة الخلف إنه لا يجوز الخلع إلا أن يكون الشقاق والنشوز من جانب المرأة فيجوز للرجل حينئذ قبول الفدية واحتجوا بقوله تعالى (ولا يحل لكم أن تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله) قالوا : فلم يشرع الخلع إلا في هذه الحالة فلا يجوز في غيرها إلا بدليل والأصل عدمه وممن ذهب إلى هذا ابن عباس وطاوس وإبراهيم وعطاء والحسن والجمهور حتى قال مالك والأوزاعي . لو أخذ منها شيئاً وهو مضار لها وجب رده إليها وكان الطلاق رجعيا قال مالك وهو الأمر الذي أدركت الناس عليه وذهب الشافعي رحمه الله إلى أنه يجوز الخلع في حال الشقاق وعند الاتفاق بطريق الأولى والأحرى وهذا قول جميع أصحابه قاطبة وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستذكار له عن بكر بن عبد الله المزني أنه ذهب إلى أن الخلع منسوخ بقوله (وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً) ورواه ابن جرير عنه وهذا قول ضعيف ومأخذ مردود على قائله وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن هذه الآية نزلت في شأن ثابت بن قيس بن شماس وامرأته حبيبة بنت عبد الله بن أبي ابن سلول ولنذكر طرق حديثها واختلاف ألفاظه : قال الإمام مالك في موطئه عن يحيى بن سعيد عن عمرة بنت عبد الرحمن بن سعيد بن زرارة أنها أخبرته عن حبيبة بنت سهل الأنصاري أنها كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس وأن رسول الله صلى الله عليه وسلم خرج إلى الصبح فوجد حبيبة بنت سهل عند بابه في الغلس فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من هذه ؟ » قالت أنا حبيبة بنت سهل « فقال ما شأنك » فقالت . لا أنا ولا ثابت بن قيس لزوجها فلما جاء زوجها ثابت بن قيس قال له رسول الله ﷺ « هذه حبيبة بنت سهل قد ذكرت ما شاء الله أن تذكر » فقالت حبيبة . يا رسول الله كل ما أعطاني عندي فقال رسول الله ﷺ « خذ منها » فأخذ منها وجلست في أهلها . وهكذا رواه الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن مهدي عن مالك بإسناده مثله ورواه أبو داود عن القعنبي عن مالك والنسائي عن محمد بن مسلمة عن ابن القاسم عن مالك (حديث آخر) عن عائشة قال أبو داود وابن جرير حدثنا محمد بن معمر حدثنا أبو عامر

حدثنا أبو عمرو السدوسى عن عبدالله بن أبى بكر عن عمرة عن عائشة أن حبيبة بنت سهل كانت تحت ثابت بن قيس بن شماس فضربها فانكسر(١) بعضها فأتت رسول الله ﷺ بعد الصبح فاشتكته إليه فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثابتا فقال « خذ بعض مالها وفارقها » قال ويصلح ذلك يا رسول الله ؟ قال «نعم» قال . إنى أصدقتها حديقتين فهما بيدها فقال النبى ﷺ « خذهما وفارقها » ففعل وهذا لفظ ابن جرير وأبو عمرو السدوسى هو سعيد بن سلمة بن أبى الحسام (حديث آخر) فيه عن ابن عباس رضى الله عنه . قال البخارى : حدثنا أزهر بن جميل أخبرنا عبد الوهاب الثقفى حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس بن شماس أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت يا رسول الله . ما أعيب عليه فى خلق ولا دين ولكن أكره الكفر فى الإسلام فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتردين عليه حديقته » قالت : نعم قال رسول الله ﷺ « اقبل الحديقة وطلقها تطليقة » وكذا رواه النسائى عن أزهر بن جميل بإسناده مثله ورواه البخارى أيضاً به عن إسحق الواسطى عن خالد هو ابن عبد الله الطحاوى عن خالد هو ابن مهران الحذاء عن عكرمة عن ابن عباس به نحوه، وهكذا رواه البخارى أيضا من طرق عن أيوب عن عكرمة عن ابن عباس وفى بعضها أنها قالت لا أطيقه يعنى بغضا . وهذا الحديث من إفراد البخارى من هذا الوجه . ثم قال حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن زيد عن أيوب عن عكرمة أن جميلة رضى الله عنها ـ كذا قال ـ والمشهور أن اسمها حبيبة كما تقدم لكن قال الإمام أبو عبد الله بن بطة حدثنى أبو يوسف يعقوب بن يوسف الطباخ حدثنا أبو القاسم عبد الله بن محمد بن عبد العزيز البغوى حدثنا عبيد الله بن عمر القواريرى حدثنى عبد الأعلى حدثنا سعيد عن قتادة عن عكرمة عن ابن عباس أن جميلة بنت سلول أتت النبى صلى الله عليه وسلم فقالت : والله ما أعتب على ثابت بن قيس فى دين ولا خلق ولكننى أكره الكفر فى الإسلام لا أطيقه بغضا فقال لها النبى صلى الله عليه وسلم « تردين عليه حديقته ؟ » قالت نعم . فأمره النبى ﷺ أن يأخذ ما ساق ولا يزداد وقد رواه ابن مردويه فى تفسيره عن موسى بن هرون حدثنا أزهر بن مروان حدثنا عبد الأعلى مثله وهكذا رواه ابن ماجه عن أزهر بن مروان بإسناده مثله سواء وهو إسناد جيد مستقيم وقال ابن جرير : حدثنا ابن حميد حدثنا يحيى بن واضح حدثنا الحسين بن واقد عن ثابت عن عبد الله بن رباح عن جميلة بنت عبدالله بن أبى ابن سلول أنها كانت تحت ثابت بن قيس فنشزت عليه فأرسل إليها النبى ﷺ فقال « يا جميلة ما كرهت من ثابت ؟ » قالت . والله ما كرهت منه دينا ولا خلقا إلا أنى كرهت دمامته فقال لها : « أتردين عليه الحديقة » قالت نعم فردت الحديقة وفرق بينهما .وقال ابن جرير أيضاً حدثنا محمد بن عبد الأعلى حدثنا المعتمر بن سليمان قال قرأت على فضيل عن أبى جرير أنه سأل عكرمة هل كان للخلع أصل قال . كان ابن عباس يقول إن أول خلع كان فى الإسلام فى أخت عبد الله بن أبى أنها أتت رسول الله ﷺ فقالت يا رسول الله لا يجمع رأسى ورأسه شىء أبداً إنى رفعت جانب الخباء فرأيته قد أقبل فى عدة فإذا هو أشدهم سواداً وأقصرهم قامة وأقبحهم وجها فقال زوجها يا رسول الله إنى قد أعطيتها أفضل مالى فإن ردت على حديقتى قال «ماتقولين» ؟ قالت نعم وإن شاء زدته . قال ففرق بينهما (حديث آخر) قال ابن ماجه : حدثنا أبو كريب حدثنا أبو خالد الأحمر عن حجاج عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال . كانت حبيبة بنت سهل تحت ثابت بن قيس بن شماس وكان رجلا دميما فقالت . يا رسول الله والله لولا مخافة الله إذا دخل علىّ بصقت فى وجهه فقال رسول الله ﷺ « اتردين عليه حديقته ؟» قالت نعم فردت عليه حديقته قال ففرق بينهما رسول الله ﷺ

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فى أنه هل يجوز للرجل أن يفاديها بأكثر مما أعطاها فذهب الجمهور إلى جواز ذلك لعموم قوله تعالى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) وقال ابن جرير. حدثنا يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية أخبرنا أيوب عن كثير مولى ابن سمرة أن عمر أتى بامرأة ناشز فأمر بها إلى بيت كثير الزبل ثم دعا بها فقال كيف وجدت فقالت ماوجدت راحة منذ كنت عنده إلا هذه الليلة التى كنت حبستنى فقال لزوجها اخلعها ولو من قرطها ورواه عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن كثير مولى ابن سمرة فذكر مثله وزاد فحبسها فيه ثلاثة أيام قال سعيد بن أبى عروبة

(١) فى نسخة الأزهر فكسر .

عن قتادة عن حميد بن عبد الرحمن أن امرأة أتت عمر بن الخطاب فشكت زوجها فأباتها فى بيت الزبل فلما أصبحت قال لها كيف وجدت مكانك ؟ قالت ما كنت عنده ليلة أقر لعينى من هذه الليلة . فقال خذ ولو عقاصها، وقال البخارى وأجاز عثمان الخلع دون عقاص رأسها وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن عبد الله بن محمد بن عقيل أن الربيع بنت معوّذ ابن عفراء حدثته قالت : كان لى زوج يقل على الخير إذا حضرنى ويحرمنى إذا غاب عنى قالت فكانت منى زلة يوما فقلت له أختلع منك بكل شىء أملكه قال . نعم قالت ففعلت قالت فخاصم عمى معاذ بن عفراء إلى عثمان بن عفان فأجاز الخلع وأمره أن يأخذ عقاص رأسى فما دونه أو قالت مادون عقاص الرأس ومعنى هذا أنه يجوز أن يأخذ منها كل مابيدها من قليل وكثير ولا يترك لها سوى عقاص شعرها وبه يقول ابن عمر وابن عباس ومجاهد وعكرمة وإبراهيم النخعى وقبيصة بن ذؤيب والحسن بن صالح وعثمان البتى وهذا مذهب مالك والليث والشافعى وأبى ثور واختاره ابن جرير وقال أصحاب أبى حنيفة إن كان الاضرار من قبلها جاز أن يأخذ منها ما أعطاها ولا يجوز الزيادة عليه فان ازداد جاز فى القضاء وإن كان الاضرار من جهته لم يجز أن يأخذ منها شيئا فان أخذ جاز فى القضاء وقال الإمام أحمد وأبو عبيد وإسحق بن راهويه لايجوز أن يأخذ أكثر مما أعطاها وهذا قول سعيد بن المسيب وعطاء وعمرو بن شعيب والزهرى وطاوس والحسن والشعبى وحماد بن أبى سليمان والربيع بن أنس وقال معمر والحكم كان على يقول لا يأخذ من المختلعة فوق ما أعطاها وقال الأوزاعى القضاة لايجيزون أن يأخذ منها أكثر مما ساق اليها (قلت) ويستدل لهذا القول بما تقدم من رواية قتادة عن عكرمة عن ابن عباس فى قصة ثابت بن قيس فأمره رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأخذ منها الحديقة ولا يزداد وبما روى عبد بن حميد حيث قال : أخبرنا قبيصة عن سفيان عن ابن جريج عن عطاء أن النبى صلى الله عليه وسلم كره أن يأخذ منها أكثر مما أعطاها يعنى المختلعة وحملوا معنى الآية على معنى (فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى من الذى أعطاها لتقدم قوله (ولا تأخذوا مما آتيتموهن شيئاً إلا أن يخافا ألا يقيما حدود الله فإن خفتم ألا يقيما حدود الله فلا جناح عليهما فيما افتدت به) أى من ذلك وهكذا كان يقرؤها الربيع بن أنس (فلا جناح عليهما فيما افتدت به منه) رواه ابن جرير ولهذا قال بعده (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) ﴿ فصل ﴾ قال الشافعى : اختلف أصحابنا فى الخلع فأخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس فى رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه بعد . يتزوجها إن شاء لأن الله تعالى يقول (الطلاق مرتان ـ قرأ إلى ـ أن يتراجعا) قال الشافعى : وأخبرنا سفيان عن عمرو عن عكرمة قال : كل شىء أجازه المال فليس بطلاق وروى غير الشافعى عن سفيان بن عيينة عن عمرو بن دينار عن طاوس عن ابن عباس أن إبراهيم بن سعد بن أبى وقاص سأله فقال رجل طلق امرأته تطليقتين ثم اختلعت منه أيتزوجها ؟ قال : نعم ليس الخلع بطلاق ذكر الله الطلاق فى أول الآية وآخرها والخلع فيما بين ذلك فليس الخلع بشىء ثم قرأ (الطلاق مرتان فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان) وقرأ (فان طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) وهذا الذى ذهب اليه ابن عباس رضى الله عنهما من أن الخلع ليس بطلاق وإنما هو فسخ هو رواية عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان وابن عمر وهو قول طاوس وعكرمة وبه يقول أحمد بن حنبل وإسحق بن راهويه وأبو ثور وداود بن على الظاهرى وهو مذهب الشافعى فى القديم وهو ظاهر الآية الكريمة والقول الثانى فى الخلع إنه طلاق بائن إلا أن ينوى أكثر من ذلك قال مالك عن هشام بن عروة عن أبيه عن جهمان مولى الأسليين عن أم بكر الأسلمية أنها اختلعت من زوجها عبد الله بن خالد بن أسيد فأتيا عثمان بن عفان فى ذلك فقال تطليقة إلا أن تكون سميت شيئاً فهو ماسميت قال الشافعى ولا أعرف جهمان وكذا ضعف أحمد بن حنبل هذا الأثر والله أعلم . وقد روى نحوه عن عمر وعلى وابن مسعود وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب والحسن وعطاء وشريح والشعبى وإبراهيم وجابر بن زيد واليه ذهب مالك وأبو حنيفة وأصحابه والثورى والأوزاعى وأبو عثمان البتى والشافعى فى الجديد غير أن الحنفية عندهم أنه متى نوى المخالع بخلعه تطليقة أو اثنتين أو أطلق فهو واحدة بائنة وإن نوى ثلاثا فثلاث وللشافعى قول آخر فى الخلع وهو أنه متى لم يكن بلفظ الطلاق وعرى عن البينة فليس هو بشىء بالكلية

﴿ مسألة ﴾ وذهب مالك وأبو حنيفة والشافعي وأحمد وإسحق بن راهويه في رواية عنهما وهي المشهورة إلى أن المختلعة عدتها عدة المطلقة بثلاثة قروء إن كانت ممن تحيض وروى ذلك عن عمر وعلي وابن عمر وبه يقول سعيد بن المسيب وسليمان بن يسار وعروة وسالم وأبو سلمة وعمر بن عبد العزيز وابن شهاب والحسن والشعبي وإبراهيم النخعي وأبو عياض وخلاس بن عمر وقتادة وسفيان الثوري والأوزاعي والليث بن سعد وأبو العبيد قال الترمذي وهو قول أكثر أهل العلم من الصحابة وغيرهم ومأخذهم في هذا أن الخلع طلاق فتعتد كسائر المطلقات والقول الثاني انها تعتد بحيضة واحدة تستبرئ بها رحمها قال ابن أبي شيبة حدثنا يحيى بن سعيد عن نافع عن ابن عمر أن الربيع اختلعت من زوجها فأتى عمها عثمان رضي الله عنه فقال تعتد بحيضة قال وكان ابن عمر يقول تعتد ثلاث حيض حتى قال هذا عثمان فكان ابن عمر يفتي به ويقول عثمان خيرنا وأعلمنا . وحدثنا عبدة عن عبيد الله عن نافع عن ابن عمر قال : عدة المختلعة حيضة . وحدثنا عبد الرحمن بن محمد المحاربي عن ليث عن طاوس عن ابن عباس قال : عدتها حيضة وبه يقول عكرمة وأبان بن عثمان وكل من تقدم ذكره ممن يقول إن الخلع فسخ يلزمه القول بهذا واحتجوا لذلك بما رواه أبو داود والترمذي حيث قال كل منهما حدثنا محمد بن عبد الرحيم البغدادي ، حدثنا علي بن يحيى أخبرنا هشام بن يوسف عن معمر عن عمرو ابن مسلم عن عكرمة عن ابن عباس أن امرأة ثابت بن قيس اختلعت من زوجها على عهد النبي صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أن تعتد بحيضة ثم قال الترمذي حسن غريب وقد رواه عبد الرزاق عن معمر عن عمرو ابن مسلم عن عكرمة مرسلا (حديث آخر) قال الترمذي حدثنا محمود بن غيلان حدثنا الفضل بن موسى عن سفيان حدثنا محمد بن عبد الرحمن وهو مولى آل طلحة عن سليمان بن يسار عن الربيع بنت معوذ بن عفراء أنها اختلعت على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمرها النبي صلى الله عليه وسلم أو أمرت أن تعتد بحيضة قال الترمذي . الصحيح أنها أمرت أن تعتد بحيضة (طريق أخرى) قال ابن ماجه . حدثنا علي بن سلمة النيسابوري حدثنا يعقوب بن إبراهيم ابن سعد حدثنا أبي عن ابن إسحق أخبرني عبادة بن الوليد بن عبادة بن الصامت عن الربيع بنت معوذ بن عفراء قال . قلت لها حدثيني حديثك قالت . اختلعت من زوجي ثم جئت عثمان فسألت عثمان ماذا علي من العدة ؟ قال لا عدة عليك إلا أن يكون حديث عهد بك فتمكثين عنده حتى تحيضي حيضة قالت . وإنما أتبع في ذلك قضاء رسول الله صلى الله عليه وسلم في مريم المغالية وكانت تحت ثابت بن قيس فاختلعت منه وقد روى ابن لهيعة عن أبي الأسود عن أبي سلمة ومحمد بن عبد الرحمن بن ثوبان عن الربيع بنت معوذ قالت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر امرأة ثابت ابن قيس حين اختلعت منه أن تعتد بحيضة .

﴿ مسئلة ﴾ وليس للمخالع أن يراجع المختلعة في العدة بغير رضاها عند الأئمة الأربعة وجمهور العلماء لأنها قد ملكت نفسها بما بذلت له من العطاء وروى عن عبد الله بن أبي أوفى وماهان الحنفي وسعيد بن المسيب والزهري أنهم قالوا . إن رد اليها الذي أعطاها جاز له رجعتها في العدة بغير رضاها وهو اختيار أبي ثور رحمه الله وقال سفيان الثوري . إن كان الخلع بغير لفظ الطلاق فهو فرقة ولا سبيل له عليها . وإن كان يسمى طلاقا فهو أملك لرجعتها مادامت في العدة وبه يقول داود بن علي الظاهري واتفق الجميع على أن للمختلع أن يتزوجها في العدة وحكى الشيخ أبو عمر بن عبد البر عن فرقة أنه لا يجوز له ذلك كما لا يجوز لغيره وهو قول شاذ مردود .

﴿ مسئلة ﴾ وهل له أن يوقع عليها طلاقا آخر في العدة ؟ فيه ثلاثة أقوال للعلماء . (أحدها) ليس له ذلك لانها قد ملكت نفسها وبانت منه وبه يقول ابن عباس وابن الزبير وعكرمة وجابر بن زيد والحسن البصري والشافعي وأحمد بن حنبل وإسحق ابن راهويه وأبو ثور ، (والثاني) قال مالك . إن أتبع الخلع طلاقا من غير سكوت بينهما وقع وإن سكت بينهما لم يقع قال ابن عبد البر : وهذا يشبه ما روى عن عثمان رضي الله عنه . والثالث أنه يقع عليها الطلاق بكل حال مادامت في العدة وهو قول أبي حنيفة وأصحابه والثوري والأوزاعي وبه يقول سعيد بن المسيب وشريح وطاوس وإبراهيم والزهري والحاكم والحكم وحماد بن أبي سليمان وروى ذلك عن ابن مسعود وأبي الدرداء قال ابن عبد البر : وليس ذلك بثابت عنهما

وقوله (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) أى هذه الشرائع التى شرعها لكم هى حدوده فلا تتجاوزوها كما ثبت فى الحديث الصحيح « إن الله حد حدوداً فلا تعتدوها وفرض فرائض فلا تضيعوها وحرم محارم فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة لكم غير نسيان فلا تسألوا عنها » وقد يستدل بهذه الآية من ذهب إلى أن جمع الطلقات الثلاث بكلمة واحدة حرام كما هو مذهب المالكية ومن وافقهم وإنما السنة عندهم أن يطلق واحدة لقوله (الطلاق مرتان) ثم قال (تلك حدود الله فلا تعتدوها ومن يتعد حدود الله فأولئك هم الظالمون) ويقوون ذلك بحديث محمود بن لبيد الذى رواه النسائى فى سننه حيث قال : حدثنا سليمان بن داود أخبرنا ابن وهب عن مخرمة بن بكير عن أبيه عن محمود بن لبيد قال : أخبر رسول الله ﷺ عن رجل طلق امرأته ثلاث تطليقات جميعا فقام غضبان ثم قال : « أيلعب بكتاب الله وأنا بين أظهركم » حتى قام رجل فقال يارسول الله ألا أقتله ؟ ـ فيه انقطاع ـ

وقوله تعالى (فإن طلقها فلا تحل له من بعد حتى تنكح زوجا غيره) أى أنه إذا طلق الرجل امرأته طلقة ثالثة بعد ما أرسل عليها الطلاق مرتين فانها تحرم عليه حتى تنكح زوجا غيره أى حتى يطأها زوج آخر فى نكاح صحيح فلو وطئها واطئ فى غير نكاح ولو فى ملك اليمين لم تحل للأول لأنه ليس بزوج وهكذا لو تزوجت ولكن لم يدخل بها الزوج لم تحل للأول واشتهر بين كثير من الفقهاء أن(١) سعيد بن المسيب رحمه الله أنه يقول : يحصل المقصود من تحليلها للأول بمجرد العقد على الثانى وفى صحته عنه نظر على أن الشيخ أبا عمر بن عبد البر قد حكاه عنه فى الاستذكار والله أعلم . وقد قال أبو جعفر بن جرير رحمه الله : حدثنا ابن بشار حدثنا محمد بن جعفر عن شعبة عن علقمة بن مرثد عن سالم بن رزين عن سالم بن عبد الله عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الرجل يتزوج المرأة فيطلقها قبل أن يدخل بها البتة فيتزوجها زوج آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أترجع إلى الأول ؟ قال « لا حتى تذوق عسيلته ويذوق عسيلتها » هكذا وقع فى رواية ابن جرير وقد رواه الإمام أحمد فقال : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن علقمة بن مرثد قال : سمعت سالم بن رزين يحدث عن سالم بن عبد الله يعنى ابن عمر عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن النبى صلى الله عليه وسلم فى الرجل تكون له المرأة فيطلقها ثم يتزوجها رجل فيطلقها قبل أن يدخل بها فترجع إلى زوجها الأول فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « حتى تذوق العسيلة » وهكذا رواه النسائى عن عمرو بن على الفلاس وابن ماجه عن محمد بن بشار بندار كلاهما عن محمد ابن جعفر غندر عن شعبة به كذلك فهذا من رواية سعيد بن المسيب عن ابن عمر مرفوعا على خلاف مايحكى عنه فبعيد أن يخالف ما رواه بغير مستند والله أعلم . وقد روى أحمد أيضا والنسائى وابن جرير هذا الحديث من طريق سفيان الثورى عن علقمة بن مرثد عن رزين بن سليمان الأحمرى عن ابن عمر قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن الرجل يطلق امرأته ثلاثا فيتزوجها آخر فيغلق الباب ويرخى الستر ثم يطلقها قبل أن يدخل بها هل تحل للأول ؟ قال : « لا حتى تذوق العسيلة » وهذا لفظ أحمد وفى رواية لأحمد سليمان بن رزين (حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا عفان حدثنا محمد ابن دينار حدثنا يحيى بن يزيد الهنائى عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ سئل عن رجل كانت تحته امرأة فطلقها ثلاثا فتزوجت بعده رجلا فطلقها قبل أن يدخل بها أتحل لزوجها الأول ؟ فقال رسول الله ﷺ « لا حتى يكون الآخر قد ذاق من عسيلتها وذاقت من عسيلته » وهكذا رواه ابن جرير عن محمد بن إبراهيم الأنماطى عن هشام بن عبد الملك حدثنا محمد بن دينار فذكره (قلت) ومحمد بن دينار بن صندل أبو بكر الأزدى ثم الطائى البصرى ويقال له ابن أبى الفرات اختلفوا فيه فمنهم من ضعفه ومنهم من قواه وقبله وحسن له وذكر أبو داود أنه تغير قبل موته فالله أعلم . (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا عبيد بن آدم بن أبى إياس العسقلانى حدثنا أبى حدثنا شيبان حدثنا يحيى بن أبى كثير عن أبى الحارث الغفارى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فى المرأة يطلقها زوجها ثلاثا فتتزوج غيره فيطلقها قبل أن يدخل بها فيريد الأول أن يراجعها قال : « لا حتى يذوق الآخر

(١) ولعله عن .

عسيلتها » ثم رواه من وجه آخر عن شيبان وهو ابن عبد الرحمن به ـ وأبو الحارث غير معروف ـ (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنا يحيى عن عبيد الله حدثنا القاسم عن عائشة أن رجلا طلق امرأته ثلاثا فتزوجت زوجا فطلقها قبل أن يمسها فسئل رسول الله ﷺ أتحل للأول ؟ فقال « لا حتى يذوق من عسيلتها كما ذاق الأول » أخرجه البخارى ومسلم والنسائى من طرق عن عبيد الله بن عمر العمرى عن القاسم بن أبى بكير عن عمته عائشة به (طريق أخرى) قال ابن جرير : حدثنا عبيد الله بن إسماعيل الهبارى وسفيان بن وكيع وأبو هشام الرفاعى قالوا : حدثنا أبو معاوية عن الأعمش عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت : سئل النبى ﷺ عن رجل طلق امرأته فتزوجت رجلا غيره فدخل بها ثم طلقها قبل أن يواقعها أتحل لزوجها الأول ؟ فقال رسول الله ﷺ : « لا تحل لزوجها الأول حتى يذوق الآخر عسيلتها وتذوق عسيلته » وكذا رواه أبو داود عن مسدد والنسائى عن أبى كريب كلاهما عن أبى معاوية وهو محمد بن حازم الضرير به (طريق أخرى) قال مسلم فى صحيحه : حدثنا محمد بن العلاء الهمدانى حدثنا أبو أسامة عن هشام عن أبيه عن عائشة أن رسول الله ﷺ سئل عن المرأة يتزوجها الرجل فيطلقها فتتزوج رجلا آخر فيطلقها قبل أن يدخل بها أتحل لزوجها الأول قال : « لا حتى يذوق عسيلتها » قال مسلم : وحدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أبو فضيل وحدثنا أبو كريب حدثنا أبو معاوية جميعا عن هشام بهذا الاسناد وقد رواه البخارى من طريق أبى معاوية محمد بن حازم عن هشام به وتفرد به مسلم من الوجهين الآخرين وهكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الله بن المبارك عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة مرفوعا بنحوه أو مثله ـ وهذا إسناد جيد ـ وكذا رواه ابن جرير أيضا من طريق على بن زيد بن جدعان عن امرأة أبيه أمينة أم محمد عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم بمثله وهذا السياق مختصر من الحديث الذى رواه البخارى حدثنا عمرو بن على حدثنا يحيى عن هشام بن عروة حدثنى أبى عن عائشة مرفوعا عن النبى صلى الله عليه وسلم ، وحدثنا عثمان بن أبى شيبة حدثنا عبدة عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن رفاعة القرظى تزوج امرأة ثم طلقها فأتت النبى ﷺ فذكرت له أنه لا يأتيها وأنه ليس معه إلا مثل هدبة الثوب فقال . « لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » تفرد به من هذا الوجه (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا عبد الأعلى عن معمر عن الزهرى عن عروة عن عائشة قالت : دخلت امرأة رفاعة القرظى وأنا وأبو بكر عند النبى صلى الله عليه وسلم فقالت إن رفاعة طلقنى البتة وإن عبد الرحمن بن الزبير تزوجنى وإنما عنده مثل الهدبة وأخذت هدبة من جلبابها وخالد بن سعيد بن العاص بالباب لم يؤذن له فقال . يا أبا بكر ألا تنهى هذه عما تجهر به بين يدى رسول الله ﷺ فما زاد رسول الله صلى الله عليه وسلم عن التبسم فقال رسول الله ﷺ « كأنك تريدين أن ترجعى إلى رفاعة ، لا حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك » وهكذا رواه البخارى من حديث عبد الله بن المبارك ومسلم من حديث عبد الرزاق والنسائى من حديث يزيد بن زريع ثلاثتهم عن معمر به وفى حديث عبد الرزاق عند مسلم أن رفاعة طلقها آخر ثلاث تطليقات وقد رواه الجماعة إلا أبو داود من طريق سفيان بن عيينة والبخارى من طريق عقيل ومسلم من طريق يونس بن يزيد وعنده آخر ثلاث تطليقات والنسائى من طريق أيوب بن موسى ورواه صالح بن أبى الأخضر كلهم عن الزهرى عن عروة عن عائشة به . وقال مالك عن المسور بن رفاعة القرظى عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير أن رفاعة بن سموأل طلق امرأته تميمة بنت وهب فى عهد رسول الله ﷺ ثلاثا فنكحت عبد الرحمن بن الزبير فاعترض عنها فلم يستطع أن يمسها ففارقها فأراد رفاعة بن سموأل أن ينكحها وهو زوجها الأول الذى كان طلقها فذكر ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم فنهاه عن تزويجها وقال « لا تحل لك حتى تذوق العسيلة » هكذا رواه أصحاب الموطأ عن مالك وفيه انقطاع وقد رواه إبراهيم بن طهمان وعبد الله بن وهب عن مالك عن رفاعة عن الزبير بن عبد الرحمن بن الزبير عن أبيه فوصله

﴿فصل﴾ والمقصود من الزوج الثانى أن يكون راغباً فى المرأة قاصداً لدوام عشرتها كما هو المشروع من التزويج واشترط الإمام مالك مع ذلك أن يطأها الثانى وطأ مباحا فلو وطئها وهى محرمة أو صائمة أو معتكفة أو حائض

أو نفساء أوالزوج صائم أو محرم أو معتكف لم تحل للأول بهذا الوطء وكذا لو كان الزوج الثانى ذميا لم تحل للمسلم بنكاحه لأن أنكحة الكفار باطلة عنده واشترط الحسن البصرى فيما حكاه عنه الشيخ أبو عمر بن عبد البر أن ينزل الزوج الثانى وكأنه تمسك بما فهمه من قوله عليه الصلاة والسلام «حتى تذوقى عسيلته ويذوق عسيلتك» ويلزم على هذا أن تنزل المرأة أيضاً وليس المراد بالعسيلة المنى لما رواه الإمام أحمد والنسائى عن عائشة رضى الله عنها أن رسول الله ﷺ قال « ألا إن العسيلة الجماع » فأما إذا كان الثانى إنما قصده أن يحلها للأول فهذا هو المحلل الذى وردت الأحاديث بذمه ولعنه ومتى صرح بمقصوده فى العقد بطل النكاح عند جمهور الأئمة

﴿ ذكر الأحاديث الواردة فى ذلك ﴾

(الحديث الأول) عن ابن مسعود رضى الله عنه . قال الإمام أحمد : حدثنا الفضل بن دكين حدثنا سفيان عن أبى قيس عن الهزيل عن عبد الله قال : لعن رسول الله ﷺ : الواشمة والمستوشمة والواصلة والمستوصلة والمحلل والمحلل له وآكل الربا وموكله . ثم رواه أحمد والترمذى والنسائى من غير وجه عن سفيان وهو الثورى عن أبى قيس واسمه عبد الرحمن بن ثروان الأودى عن هذيل بن شرحبيل الأودى عن عبد الله بن مسعود عن النبى ﷺ به ثم قال الترمذى هذا حديث حسن صحيح . قال . والعمل على هذا عند أهل العلم من الصحابة منهم عمر وعثمان وابن عمر وهو قول الفقهاء من التابعين ويروى ذلك عن على وابن مسعود وابن عباس (طريق أخرى) عن ابن مسعود. قال الإمام أحمد حدثنا زكريا بن عدى حدثنا عبيد الله عن عبد الكريم عن أبى الواصل عن ابن مسعود عن رسول الله ﷺ قال «لعن الله المحلل والمحلل له » (طريق أخرى) روى الإمام أحمد والنسائى من حديث الأعمش عن عبد الله بن مرة عن الحارث الأعور عن عبد الله بن مسعود قال . آكل الربا وموكله وشاهداه وكاتبه إذا علموا به والواصلة والمستوصلة ولاوى الصدقة والمتعدى فيها والمرتد على عقبيه أعرابيا بعد هجرته والمحلل والمحلل له ملعونون على لسان محمد ﷺ يوم القيامة

(الحديث الثانى) عن على رضى الله عنه قال الإمام أحمد : حدثنا عبد الرزاق أخبرنا سفيان عن جابر عن الشعبى عن الحارث عن على قال . لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه والواشمة والمستوشمة للحسن ومانع الصدقة والمحلل والمحلل له وكان ينهى عن النوح وكذا رواه عن غندر عن شعبة عن جابر وهو ابن يزيد الجعفى عن الشعبى عن الحارث عن على به وكذا رواه من حديث إسماعيل بن أبى خالد وحصين بن عبد الرحمن ومجالد بن سعيد وابن عون عن عامر الشعبى به وقد رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من حديث الشعبى به . ثم قال أحمد أخبرنا محمد بن عبد الله أخبرنا إسرائيل عن أبى إسحق عن الحارث عن على قال لعن رسول الله ﷺ صاحب الربا وآكله وكاتبه وشاهده والمحلل والمحلل له

(الحديث الثالث) عن جابر رضى الله عنه قال الترمذى . أخبرنا أبو سعيد الأشج أخبرنا أشعث بن عبد الرحمن ابن يزيد الأيامى حدثنا مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله وعن الحارث عن على أن رسول الله ﷺ لعن الله المحلل والمحلل له ثم قال . وليس إسناده بالقائم ومجالد ضعفه غير واحد من أهل العلم منهم أحمد بن حنبل قال . ورواه ابن نمير عن مجالد عن الشعبى عن جابر بن عبد الله عن على قال : وهذا وهم من ابن نمير والحديث الأول أصح (الحديث الرابع) عن عقبة بن عامر رضى الله عنه . قال أبو عبد الله محمد بن يزيد بن ماجه حدثنا يحيى بن عثمان ابن صالح المصرى أخبرنا أبى سمعت الليث بن سعد يقول : قال أبو المصعب مسرح هو ابن عاهان(١) قال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بالتيس المستعار » قالوا . بلى يا رسول الله قال « هو المحلل ، لعن الله المحلل والمحلل له » تفرد به ابن ماجه وكذا رواه إبراهيم بن يعقوب الجوزجانى عن عثمان بن صالح عن الليث به ، ثم قال : كانوا ينكرون على عثمان فى هذا الحديث إنكاراً شديداً (قلت) عثمان هذا أحد الثقات روى عنه البخارى فى

(١) فى نسخة الأزهر أبو المصعب سرح بن عاهان .

صحيحه ثم قد تابعه غيره فرواه جعفر الفريابي عن العباس المعروف بابن فريق عن أبي صالح عبد الله بن صالح عن الليث به فبرئ من عهدته والله أعلم

(الحديث الخامس) عن ابن عباس رضى الله عنهما . قال ابن ماجه : حدثنا محمد بن بشار حدثنا أبو عامر عن زمعة بن صالح عن سلمة بن وهرام عن عكرمة عن ابن عباس قال : لعن رسول الله ﷺ المحلل والمحلل له (طريق أخرى) قال الإمام الحافظ خطيب دمشق أبو إسحق إبراهيم بن يعقوب الجوزجاني السعدى حدثنا ابن أبي مريم حدثنا إبراهيم بن إسماعيل بن أبي حنيفة عن داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس قال . سئل رسول الله ﷺ عن نكاح المحلل قال « لا ، إلا نكاح رغبة لا نكاح دلسة ولا استهزاء بكتاب الله ثم يذوق عسيلتها » ويتقوى هذان الإسنادان بما رواه أبو بكر بن أبي شيبة عن حميد بن عبد الرحمن عن موسى بن أبي الفرات عن عمرو بن دينار عن النبي ﷺ بنحو من هذا فيتقوى كل من هذا المرسل والذى قبله بالآخر والله أعلم

(الحديث السادس) عن أبي هريرة رضى الله عنه . قال الإمام أحمد : حدثنا أبو عامر حدثنا عبد الله هو ابن جعفر عن عثمان بن محمد المقبرى عن أبي هريرة قال : لعن رسول الله صلى الله عليه وسلم المحلل والمحلل له . وهكذا رواه أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني البيهقي من طريق عبد الله بن جعفر القرشي وقد وثقه أحمد بن حنبل وعلى بن المديني ويحيى ابن معين وغيرهم وأخرج له مسلم فى صحيحه عن عثمان بن محمد الأخنسى وثقه ابن معين عن سعيد المقبرى وهو متفق عليه

(الحديث السابع) عن ابن عمر رضى الله عنهما . قال الحاكم فى مستدركه : حدثنا أبو العباس الأصم حدثنا محمد بن إسحق الصنعانى حدثنا سعيد بن أبي مريم حدثنا أبو يمان محمد بن مطرف المدنى عن عمر بن نافع عن أبيه أنه قال : جاء رجل إلى ابن عمر فسأله عن رجل طلق امرأته ثلاثا فتزوجها أخ له من غير مؤامرة منه ليحلها لأخيه هل تحل للأول فقال : لا إلا نكاح رغبة كنا نعد هذا سفاحا على عهد رسول الله ﷺ ثم قال : هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقد رواه الثورى عن عبد الله بن نافع عن أبيه عن ابن عمر به وهذه الصيغة مشعرة بالرفع وهكذا روى أبو بكر بن أبي شيبة والجوزجاني وحرب الكرمانى وأبو بكر الأثرم من حديث الأعمش عن المسيب بن رافع عن قبيصة بن جابر عن عمر أنه قال لا أوتى بمحلل ولا محلل له إلا رجمتهما وروى البيهقي من حديث ابن لهيعة عن بكير بن الأشج عن سليمان بن يسار أن عثمان بن عفان رفع إليه رجل تزوج امرأة ليحلها لزوجها ففرق بينهما وكذا روى عن على وابن عباس وغير واحد من الصحابة رضى الله عنهم

وقوله (فان طلقها) أى الزوج الثانى بعد الدخول بها (فلا جناح عليهما أن يتراجعا) أى المرأة والزوج الأول (إن ظنا أن يقيما حدود الله) أى يتعاشرا بالمعروف . قال مجاهد : إن ظنا أن نكاحهما على غير دلسة (وتلك حدود الله) أى شرائعه وأحكامه (يبينها) أى يوضحها (لقوم يعلمون)

وقد اختلف الأئمة رحمهم الله فيما إذا طلق الرجل امرأته طلقة أو طلقتين وتركها حتى انقضت عدتها ثم تزوجت بآخر فدخل بها ثم طلقها فانقضت عدتها ثم تزوجها الأول هل تعود إليه بما بقى من الثلاث كما هو مذهب مالك والشافعى وأحمد بن حنبل وهو قول طائفة من الصحابة رضى الله عنهم أو يكون الزوج الثانى قد هدم ما قبله من الطلاق فإذا عادت إلى الأول تعود بمجموع الثلاث كما هو مذهب أبي حنيفة وأصحابه رحمهم الله وحجتهم أن الزوج الثانى إذا هدم الثلاث فلأن يهدم مادونها بطريق الأولى والأحرى والله أعلم

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ سَرِّحُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ وَلَا تُمْسِكُوهُنَّ ضِرَارًا لِّتَعْتَدُوا وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ وَلَا تَتَّخِذُوٓا ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَٱذْكُرُوا نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ

عَلَيْكُم مِّنَ الْكِتَٰبِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾

هذا أمر من الله عز وجل للرجال إذا طلق أحدهم المرأة طلاقا له عليها فيه رجعة أن يحسن فى أمرها إذا انقضت عدتها ولم يبق منها إلا مقدار ما يمكنه فيه رجعتها ، فإما أن يمسكها أى يرتجعها إلى عصمة نكاحه بمعروف وهو أن يشهد على رجعتها وينوى عشرتها بالمعروف أو يسرحها أى يتركها حتى تنقضى عدتها ويخرجها من منزله بالتى هى أحسن من غير شقاق ولا مخاصمة ولا تقابح قال الله تعالى (ولا تمسكوهن ضراراً لتعتدوا) قال ابن عباس ومجاهد ومسروق والحسن وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان وغير واحد : كان الرجل يطلق المرأة فإذا قاربت انقضاء العدة راجعها ضراراً لئلا تذهب إلى غيره ثم يطلقها فتعتد فإذا شارفت على انقضاء العدة طلق لتطول عليها العدة فنهاهم الله عن ذلك وتوعدهم عليه فقال (ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه) أى بمخالفته أمر الله تعالى

وقوله تعالى (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) قال ابن جرير : عند هذه الآية أخبرنا أبو كريب أخبرنا إسحق ابن منصور عن عبد السلام بن حرب عن يزيد بن عبد الرحمن عن أبى العلاء الأودى عن حميد بن عبد الرحمن عن أبى موسى أن رسول الله ﷺ غضب على الأشعريين فأتاه أبو موسى فقال يا رسول الله أغضبت على الأشعريين ؟ فقال « يقول أحدكم قد طلقت قد راجعت ليس هذا طلاق المسلمين طلقوا المرأة فى قبل عدتها » ثم رواه من وجه آخر عن أبى خالد الدلال وهو يزيد بن عبد الرحمن وفيه كلام . وقال مسروق : هو الذى يطلق فى غير كنهه ويضار امرأته بطلاقها وارتجاعها لتطول عليها العدة . وقال الحسن وقتادة وعطاء الخراسانى والربيع ومقاتل بن حيان : هو الرجل يطلق ويقول : كنت لاعبا أو يعتق أو ينكح ويقول كنت لاعبا فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فألزم الله بذلك : وقال ابن مردويه : حدثنا إبراهيم بن محمد حدثنا أبو أحمد الصيرفى حدثنى جعفر بن محمد السمسار عن إسماعيل بن يحيى عن سفيان عن ليث عن مجاهد عن ابن عباس قال : طلق رجل امرأته وهو يلعب لا يريد الطلاق فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فألزمه رسول الله ﷺ الطلاق . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا عصام بن رواد حدثنا آدم حدثنا المبارك بن فضالة عن الحسن هو البصرى قال كان الرجل يطلق ويقول: كنت لاعبا ويعتق ويقول : كنت لاعبا وينكح ويقول : كنت لاعبا فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من طلق أو أعتق أو نكح أو أنكح جادا أو لاعبا فقد جاز عليه » وكذا رواه ابن جرير من طريق الزهرى عن سليمان بن أرقم عن الحسن مثله وهذا مرسل وقد رواه ابن مردويه من طريق عمرو بن عبيد عن الحسن عن أبى الدرداء موقوفا عليه . وقال أيضاً حدثنا أحمد بن الحسن بن أيوب حدثنا يعقوب بن أبى يعقوب حدثنا يحيى بن عبد الحميد حدثنا أبو معاوية عن إسماعيل بن سلمة عن الحسن عن عبادة بن الصامت فى قول الله تعالى (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) قال : كان الرجل على عهد النبى صلى الله عليه وسلم يقول للرجل زوجتك ابنتى ثم يقول : كنت لاعبا ويقول : قد أعتقت ويقول: كنت لاعبا فأنزل الله (ولا تتخذوا آيات الله هزوا) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث من قالهن لاعبا أو غير لاعب فهن جائزات عليه الطلاق والعتاق والنكاح » والمشهور فى هذا الحديث الذى رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه من طريق عبد الرحمن ابن حبيب بن أدرك عن عطاء عن ابن ماهك عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاث جدهن جد وهزلهن جد النكاح والطلاق والرجعة » وقال الترمذى . حسن غريب

وقوله (واذكروا نعمة الله عليكم) أى فى إرساله الرسول بالهدى والبينات إليكم (وما أنزل عليكم من الكتاب والحكمة) أى السنة (يعظكم به) أى يأمركم وينهاكم ويتوعدكم على ارتكاب المحارم (واتقوا الله) أى فيما تأتون وفيما تذرون (واعلموا أن الله بكل شىء عليم) أى فلا يخفى عليه شىء من أموركم السرية والجهرية وسيجازيكم على ذلك

﴿ وَإِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَاجَهُنَّ إِذَا تَرَاضَوْا بَيْنَهُم بِالْمَعْرُوفِ ذَٰلِكَ

يُوعَظُ بِهِ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ وَاللهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾

قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس نزلت هذه الآية فى الرجل يطلق امرأته طلقة أو طلقتين فتنقضى عدتها ثم يبدو له أن يتزوجها وأن يراجعها وتريد المرأة ذلك فيمنعها أولياؤها من ذلك فنهى الله أن يمنعوها . وكذا روى العوفى عنه عن ابن عباس أيضاً ، وكذا قال مسروق وإبراهيم النخعى والزهرى والضحاك انها أنزلت فى ذلك وهذا الذى قالوه ظاهر من الآية وفيها دلالة على أن المرأة لا تملك أن تزوج نفسها وأنه لابد فى النكاح من ولى كما قاله الترمذى وابن جرير عند هذه الآية كما جاء فى الحديث « لا تزوج المرأة المرأة ولا تزوج المرأة نفسها فان الزانية هى لا تزوج نفسها » وفى الأثر الآخر « لانكاح إلا بولى مرشد وشاهدى عدل » وفى هذه المسألة نزاع بين العلماء محرر فى موضعه من كتب الفروع وقد قررنا ذلك فى كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة

وقد روى أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار المزنى وأخته فقال البخارى رحمه الله فى كتابه الصحيح عند تفسير هذه الآية : حدثنا عبيد الله بن سعيد حدثنا أبو عامر العقدى حدثنا عباد بن راشد حدثنا الحسن قال حدثنى معقل بن يسار قال : كانت لى أخت تخطب الى قال البخارى وقال إبراهيم عن يونس عن الحسن حدثنى معقل بن يسار وحدثنا أبو معمر وحدثنا عبد الوارث حدثنا يونس عن الحسن أن أخت معقل بن يسار طلقها زوجها فتركها حتى انقضت عدتها فخطبها فأبى معقل فنزلت (فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن) وهكذا رواه أبو داود والترمذى وابن ماجه وابن أبى حاتم وابن جرير وابن مردويه من طرق متعددة عن الحسن عن معقل بن يسار به وصححه الترمذى أيضاً ولفظه عن معقل بن يسار أنه زوج أخته رجلا من المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فكانت عنده ما كانت ثم طلقها تطليقة لم يراجعها حتى انقضت عدتها فهويها وهويته ثم خطبها مع الخطاب فقال له يالكع ابن لكع أكرمتك بها وزوجتكها فطلقتها والله لا ترجع إليك أبداً آخر ما عليك قال فعلم الله حاجته إليها وحاجتها إلى بعلها فأنزل الله (وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن) إلى قوله (وأنتم لا تعلمون) فلما سمعها معقل قال : سمع لربى وطاعة ثم دعاه ، فقال أزوجك وأكرمك زاد ابن مردويه ، وكفرت عن يمينى . وروى ابن جرير عن ابن جريج قال : هى جميل[1] بنت يسار كانت تحت أبى البداح. وقال سفيان الثورى . عن أبى إسحق السبيعى قال هى فاطمة بنت يسار وهكذا ذكر غير واحد من السلف أن هذه الآية نزلت فى معقل بن يسار وأخته . وقال السدى نزلت فى جابر بن عبد الله وابنة عم له والصحيح الأول والله أعلم

وقوله (ذلك يوعظ به من كان منكم يؤمن بالله واليوم الآخر) أى هذا الذى نهيناكم عنه من منع الولايا أن يتزوجن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف يأتمر به ويتعظ به وينفعل له (من كان منكم) أيها الناس (يؤمن بالله واليوم الآخر) أى يؤمن بشرع الله ويخاف وعيد الله وعذابه فى الدار الآخرة وما فيها من الجزاء (ذلكم أزكى لكم وأطهر) أى اتباعكم شرع الله فى رد المولیات إلى أزواجهن وترك الحمية فى ذلك أزكى لكم وأطهر لقلوبكم (والله يعلم) أى من المصالح فيما يأمر به وينهى عنه (وأنتم لا تعلمون) أى الخيرة فيما تأتون ولا فيما تذرون

﴿ وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ الرَّضَاعَةَ وَعَلَى الْمَوْلُودِ لَهُ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا لَا تُضَارَّ وَالِدَةٌ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُ بِوَلَدِهِ وَعَلَى الْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوا أَوْلَادَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّا آتَيْتُم بِالْمَعْرُوفِ وَاتَّقُوا اللهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

(١) جميل بضم الجيم مصغر جمل بوزن قفل .

هذا إرشاد من الله تعالى للوالدات أن يرضعن أولادهن كمال الرضاعة وهى سنتان فلا اعتبار بالرضاعة بعد ذلك ولهذا قال (لمن أراد أن يتم الرضاعة) وذهب أكثر الأئمة إلى أنه لا يحرم من الرضاعة إلا ما كان دون الحولين فلو ارتضع المولود وعمره فوقهما لم يحرم . قال الترمذى . ﴿باب ماجاء أن الرضاعة لا تحرم إلا فى الصغر دون الحولين﴾ حدثنا قتيبة حدثنا أبو عوانة عن هشام بن عروة عن فاطمة بنت المنذر عن أم سلمة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يحرم من الرضاع إلا ما فتق الأمعاء فى الثدى وكان قبل الفطام » هذا حديث حسن صحيح والعمل على هذا عند أكثر أهل العلم من أصحاب رسول الله ﷺ وغيرهم أن الرضاعة لا تحرم إلا ما كان دون الحولين وما كان بعد الحولين الكاملين فانه لا يحرم شيئا وفاطمة بنت المنذر بن الزبير بن العوام وهى امرأة هشام بن عروة (قلت) تفرد الترمذى برواية هذا الحديث ورجاله على شرط الصحيحين ومعنى قوله « إلا ما كان فى الثدى » أى فى محال الرضاعة قبل الحولين كما جاء فى الحديث الذى رواه أحمد عن وكيع وغندر عن شعبة عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب قال : لما مات إبراهيم ابن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن ابنى مات فى الثدى إن له مرضعا فى الجنة » وهكذا أخرجه البخارى من حديث شعبة وإنما قال عليه السلام ذلك لأن ابنه إبراهيم عليه السلام مات وله سنة وعشرة أشهر فقال إن له مرضعا يعنى تكمل رضاعه ويؤيده ما رواه الدارقطنى من طريق الهيثم بن جميل عن سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ : «لا يحرم من الرضاع إلا ما كان فى الحولين » ثم قال ولم يسنده عن ابن عيينة غير الهيثم بن جميل وهو ثقة حافظ (قلت) وقد رواه الإمام مالك فى الموطأ عن ثور بن يزيد عن ابن عباس مرفوعا ورواه الدراوردى عن ثور عن عكرمة عن ابن عباس وزاد «وما كان بعد الحولين فليس بشىء» وهذا أصح

وقال أبو داود الطيالسى عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ « لا رضاع بعد فصال ولا يتم بعد احتلام » وتمام الدلالة من هذا الحديث فى قوله تعالى (وفصاله فى عامين أن اشكرلى) وقال (وحمله وفصاله ثلاثون شهرا) والقول بأن الرضاعة لا تحرم بعد الحولين يروى عن على وابن عباس وابن مسعود وجابر وأبى هريرة وابن عمر وأم سلمة وسعيد بن المسيب وعطاء والجمهور وهو مذهب الشافعى وأحمد وإسحق والثورى وأبى يوسف ومحمد ومالك فى رواية وعنه أن مدته سنتان وشهران وفى رواية وثلاثة أشهر وقال أبو حنيفة سنتان وستة أشهر وقال زفر بن الهذيل مادام يرضع فإلى ثلاث سنين وهذا رواية عن الأوزاعى قال مالك : ولو فطم الصبى دون الحولين فأرضعته امرأة بعد فصاله لم يحرم لأنه قد صار بمنزلة الطعام وهو رواية عن الأوزاعى وقد روى عن عمر وعلى أنهما قالا : لا رضاع بعد فصال فيحتمل أنهما أرادا الحولين كقول الجمهور سواء فطم أولم يفطم ويحتمل أنهما أرادا الفعل كقول مالك والله أعلم . وقد روى فى الصحيحين عن عائشة رضى الله عنها أنها كانت ترى رضاع الكبير يؤثر فى التحريم وهو قول عطاء بن أبى رباح والليث بن سعد وكانت عائشة تأمر بمن تختار أن يدخل عليها من الرجال لبعض نسائها فترضعه وتحتج فى ذلك بحديث سالم مولى أبى حذيفة حيث أمر النبى ﷺ امرأة أبى حذيفة أن ترضعه وكان كبيرا فكان يدخل عليها بتلك الرضاعة وأبى ذلك سائر أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ورأين ذلك من الخصائص وهو قول الجمهور وحجة الجمهور وهم الأئمة الأربعة والفقهاء السبعة والأكابر من الصحابة وسائر أزواج رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى عائشة ماثبت فى الصحيحين عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انظرن من إخوانكن فانما الرضاعة من المجاعة » وسيأتى الكلام على مسائل الرضاع وفيما يتعلق برضاع الكبير عند قوله تعالى (وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم)

وقوله (وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف) أى وعلى والد الطفل نفقة الوالدات وكسوتهن بالمعروف أى بما جرت به عادة أمثالهن فى بلدهن من غير إسراف ولا إقتار بحسب قدرته فى يساره وتوسطه وإقتاره كما قال تعالى (لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها سيجعل الله بعد عسر يسرا) قال الضحاك : إذا طلق زوجته وله منها ولد فأرضعت له ولده وجب على الوالد نفقتها وكسوتها بالمعروف .

وقوله (لاتضار والدة بولدها) أى بأن تدفعه عنها لتضر أباه بتربيته ولكن ليس لها دفعه إذا ولدته حتى تسقيه اللبأ الذى لايعيش بدون تناوله غالبا ثم بعد هذا لها دفعه عنها إذا شاءت ولكن إن كانت مضارة لأبيه فلايحل لها ذلك كما لايحل له انتزاعه منها لمجرد الضرار لها ولهذا قال (ولا مولود له بولده) أى بأن يريد أن ينتزع الولد منها اضرارا بها قاله مجاهد وقتادة والضحاك والزهرى والسدى والثورى وابن زيد وغيرهم.

وقوله تعالى (وعلى الوارث مثل ذلك) قيل فى عدم الضرار لقربه قاله مجاهد والشعبى والضحاك وقيل عليه مثل ما على والد الطفل من الإنفاق على والدة الطفل والقيام بحقوقها وعدم الإضرار بها وهوقول الجمهور وقد استقصى ذلك ابن جرير فى تفسيره وقد استدل بذلك من ذهب من الحنفية والحنبلية إلى وجوب نفقة الأقارب بعضهم على بعض وهو مروى عن عمر بن الخطاب وجمهور السلف ويرشح ذلك بحديث الحسن عن سمرة مرفوعا « من ملك ذا رحم محرم عتق عليه » وقد ذكر أن الرضاعة بعد الحولين ربما ضرت الولد إما فى بدنه أوفى عقله وقال سفيان الثورى عن الأعمش عن إبراهيم عن علقمة أنه رأى امرأة ترضع بعد الحولين فقال لاترضعيه.

وقوله (فان أرادا فصالا عن تراض منهما وتشاور فلا جناح عليهما) أى فان اتفق والدا الطفل على فطامه قبل الحولين ورأيا فى ذلك مصلحة له وتشاورا فى ذلك وأجمعا عليه فلا جناح عليهما فى ذلك فيؤخذ منه أن انفراد أحدهما بذلك دون الآخر لا يكفى ولا يجوز لواحد منهما أن يستبد بذلك من غير مشاورة الآخر قاله الثورى وغيره وهذا فيه احتياط للطفل وإلزام للنظر فى أمره وهو من رحمة الله بعباده حيث حجر على الوالدين فى تربية طفلهما وأرشدهما إلى ما يصلحهما ويصلحه كما قال فى سورة الطلاق (فان أرضعن لكم فآتوهن أجورهن وأتمروا بينكم بمعروف وإن تعاسرتم فسترضع له أخرى).

وقوله تعالى (وإن أردتم أن تسترضعوا أولادكم فلا جناح عليكم إذا سلمتم ما آتيتم بالمعروف) أى إذا اتفقت الوالدة والوالد على أن يسترضع منها الولد إما لعذر منها أولعذر له فلا جناح عليهما فى بذله ولا عليه فى قبوله منها إذا سلمها أجرتها الماضية بالتى هى أحسن واسترضع لولده غيرها بالأجرة بالمعروف قاله غيرواحد. وقوله (واتقوا الله) أى فى جميع أحوالكم (واعلموا أن الله بما تعملون بصير) أى فلا يخفى عليه شىء من أحوالكم وأقوالكم.

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

هذا أمر من الله للنساء اللاتى يتوفى عنهن أزواجهن أن يعتددن أربعة أشهر وعشر ليال وهذا الحكم يشمل الزوجات المدخول بهن وغير المدخول بهن بالإجماع ومستنده فى غير المدخول بها عموم الآية الكريمة وهذا الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن وصححه الترمذى أن ابن مسعود سئل عن رجل تزوج امرأة فمات عنها ولم يدخل بها ولم يفرض لها فترددوا إليه مرارا فى ذلك فقال أقول فيها برأيى فان يك صوابا فمن الله وإن يك خطأ فمنى ومن الشيطان والله ورسوله بريئان منه : لها الصداق كاملا وفى لفظ لها صداق مثلها لاوكس ولا شطط وعليها العدة ولها الميراث فقام معقل بن يسار الأشجعى فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به فى بروع بنت واشق ففرح عبدالله بذلك فرحا شديدا وفى رواية فقام رجال من أشجع فقالوا : نشهد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قضى به فى بروع بنت واشق. ولا يخرج من ذلك إلا المتوفى عنها زوجها وهى حامل فان عدتها بوضع الحمل. ولولم تمكث بعده سوى لحظة لعموم قوله (وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن) وكان ابن عباس يرى أن عليها أن تتربص بأبعد الأجلين من الوضع أو أربعة أشهر وعشر للجمع بين الآيتين وهذا مأخذ جيد ومسلك قوى لولا ما ثبتت به السنة فى حديث سبيعة الأسلمية المخرج فى الصحيحين من غير وجه أنها توفى عنها زوجها سعد بن خولة وهى حامل فلم تنشب أن وضعت حملها بعد وفاته وفى رواية فوضعت حملها بعده بليال فلما تعلت من نفاسها تجملت للخطاب فدخل

عليها أبو السنابل بن بعكك فقال لها : مالى أراك متجملة لعلك ترجين النكاح ؟ والله ما أنت بناكح حتى يمر عليك أربعةأشهر وعشر . قالتسبيعة، فلماقال لىذلك جمعت على ثيابى حين أمسيت فأتيترسول اللهصلى الله عليه وسلم فسألته عن ذلك فأفتانى بأنى قد حللت حين وضعت حملى وأمرنى بالتزويج إن بدالى ، قال أبو عمر بن عبد البر : وقد روى أن ابن عباس رجع إلى حديث سبيعة يعنى لما احتج عليه به قال ويصحح ذلك عنه أن أصحابه أفتوا بحديث سبيعة كما هو قول أهل العلم قاطبة . وكذلك يستثنى من ذلك الزوجة إذا كانت أمة فان عدتها على النصف من عدة الحرة شهران وخمس ليال على قول الجمهور لأنها لما كانت على النصف من الحرة فى الحد فكذلك فلتكن على النصف منها فى العدة . ومن العلماء كمحمد بن سيرين وبعض الظاهرية من يسوى بين الزوجات الحرائر والإماء فى هذا المقام لعموم الآية ولأن العدة من باب الأمور الجبلية التى تستوى فيها الخليقة وقد ذكر سعيد بن المسيب وأبو العالية وغيرهما أن الحكمة فى جعل عدة الوفاة أربعة أشهر وعشراً لاحتمال اشتمال الرحم على حمل فإذا انتظر به هذه المدة ظهر إن كان موجوداً كما جاء فى حديث ابن مسعود الذى فى الصحيحين وغيرهما « إن خلق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما نطفة ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعثإليه الملك فينفخ فيه الروح » فهذه ثلاث أربعينات بأربعة أشهر والاحتياط بعشر بعدها لما قد ينقص بعض الشهور ثم لظهور الحركة بعد نفخ الروح فيه والله أعلم . قال سعيد بن أبى عروبة عن قتادة سألت سعيد بن المسيب ما بال العشر ؟ قال : فيه ينفخ الروح وقال الربيع بن أنس : قلت لأبى العالية لم صارت هذه العشر مع الأشهر الأربعة ؟ قال : لأنه ينفخ فيه الروح رواهما ابن جرير ومن ههنا ذهب الإمام أحمد فى رواية عنه إلى أن عدة أم الولد عدة الحرة ههنا لأنها صارت فراشا كالحرائر وللحديث الذى رواه الإمام أحمد عن يزيد بن هرون عن سعيد بنأبى عروبة عن قتادة عن رجاء بن حيوة عن قبيصة ابن ذؤيب عن عمرو بن العاص أنه قال : لا تلبسوا علينا سنة نبينا : عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها أربعة أشهر وعشر ورواهأبو داود عن قتيبة عن غندر وعن ابن المثنى عن عبدالأعلى ، وابن ماجه عن على بن محمد عن الربيع ثلاثتهم عن سعيد بن أبى عروبة عن مطر الوراق عن رجاء بن حيوة عن قبيصة عن عمرو بن العاص فذكره وقد روى عن الإمام أحمد أنه أنكر هذا الحديث وقيل إن قبيصة لم يسمع عمرا وقد ذهب إلى القول بهذا الحديث طائفة من السلف منهم سعيد بن المسيب ومجاهد وسعيد بن جبير والحسن وابن سيرين وأبو عياض والزهرىوعمر بن عبدالعزيز وبه كان يأمر يزيد بن عبد الملك بن مروان وهو أمير المؤمنين وبه يقول الأوزاعى وإسحق بن راهويه وأحمد بن حنبل فى رواية عنه وقال طاوس وقتادة : عدة أم الولد إذا توفى عنها سيدها نصف عدة الحرة شهران وخمس ليال وقال أبو حنيفة وأصحابهوالثورى والحسن بن صالح بن حي تعتد بثلاث حيض وهو قول على وابن مسعود وعطاء وإبراهيم النخعى وقال مالك والشافعى وأحمد فى المشهور عنه عدتها حيضة وبه يقول ابن عمر والشعبي ومكحول والليث وأبو عبيد وأبو ثور والجمهور وقال الليث : ولو مات وهى حائض أجزأتها وقال مالك : فلو كانت ممن لا تحيض فثلاثة أشهر وقال الشافعى والجمهور : شهر وثلاثة أحب إلى والله أعلم

وقوله (فإذا بلغن أجلهن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف والله بما تعملون خبير) يستفاد من هذا وجوب الإحداد على المتوفى عنها زوجها مدة عدتها لما ثبت فى الصحيحين من غير وجه عن أم حبيبة وزينب بنت جحش أمى المؤمنين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « لايحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » وفى الصحيحين أيضاً عن أم سلمة أن امرأة قالت يا رسول الله إن ابنتى توفى عنها زوجها وقد اشتكت عينها أفنكحلها ؟ فقال « لا » كل ذلك يقول ـ لا ـ مرتين أو ثلاثا ثمقال «إنما هى أربعة أشهر وعشر وقد كانت إحداكن فى الجاهلية تمكث سنة » قالت زينب بنت أم سلمة : كانت المرأة إذا توفى عنها زوجها دخلت حفشا ولبست شر ثيابها ولم تمس طيبا ولا شيئاً حتى تمر بها سنة ثم تخرج فتعطى بعرة فترمى بها ثم تؤتى بدابة حمار أو شاة أو طيرفتفتض به فقلماتفتض بشىء إلامات[1] ومن ههنا ذهب كثيرون من

(١ أى من نتنها والافتضاض مسح الفرج به .

العلماء إلى أن هذه الآية ناسخة للآية التى بعدها وهى قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) الآية كما قاله ابن عباس وغيره وفى هذا نظر كما سيأتى تقريره . والغرض أن الإحداد هو عبارة عن ترك الزينة من الطيب ولبس ما يدعوها إلى الأزواج من ثياب وحلى وغير ذلك وهو واجب فى عدة الوفاة قولا واحداً ولا يجب فى عدة الرجعية قولا واحداً وهل يجب فى عدة البائن فيه قولان . ويجب الاحداد على جميع الزوجات المتوفى عنهن أزواجهن سواء فى ذلك الصغيرة والآيسة والحرة والأمة والمسلمة والكافرة لعموم الآية وقال الثورى وأبو حنيفة وأصحابه لا إحداد على الكافرة وبه يقول أشهب وابن نافع من أصحاب مالك وحجة قائل هذه المقالة قوله صلى الله عليه وسلم « لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً » قالوا فجعله تعبداً وألحق أبو حنيفة وأصحابه والثورى الصغيرة بها لعدم التكليف وألحق أبو حنيفة وأصحابه الأمة المسلمة لنقصها ومحل تقرير ذلك كله فى كتب الأحكام والفروع والله الموفق للصواب

وقوله (فإذا بلغن أجلهن) أى انقضت عدتهن قاله الضحاك والربيع بن أنس (فلا جناح عليكم) قال الزهرى أى على أوليائها (فيما فعلن) يعنى النساء اللاتى انقضت عدتهن قال الونى عن ابن عباس إذا طلقت المرأة أو مات عنها زوجها فإذا انقضت عدتها فلا جناح عليها أن تتزين وتتصنع وتتعرض للتزويج فذلك المعروف وروى عن مقاتل بن حيان نحوه وقال ابن جريج عن مجاهد (فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن بالمعروف) قال النكاح الحلال الطيب وروى عن الحسن والزهرى والسدى ونحو ذلك

﴿ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ أَوْ أَكْنَنتُمْ فِي أَنفُسِكُمْ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّا أَن تَقُولُوا قَوْلًا مَّعْرُوفًا وَلَا تَعْزِمُوا عُقْدَةَ النِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْكِتَابُ أَجَلَهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي أَنفُسِكُمْ فَاحْذَرُوهُ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (ولا جناح عليكم) أن تعرضوا بخطبة النساء فى عدتهن من وفاة أزواجهن من غير تصريح قال الثورى وشعبة وجرير وغيرهم عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله (ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) قال التعريض أن يقول إنى أريد التزويج وإنى أحب امرأة من امرها ومن امرها - يعرض لها بالقول بالمعروف - وفى رواية ووددت أن الله رزقنى امرأة ونحو هذا ولا ينتصب للخطبة وفى رواية إنى لا أريد أن أتزوج غيرك إن شاء الله ولوددت أنى وجدت امرأة صالحة ولا ينتصب لها مادامت فى عدتها ورواه البخارى تعليقا فقال . وقال لى طلق بن غنام عن زائدة عن منصور عن مجاهد عن ابن عباس(ولا جناح عليكم فيما عرضتم به من خطبة النساء) هو أن يقول إنى أريد التزويج وإن النساء لمن حاجتى ولوددت أن ييسر لى امرأة صالحة .وهكذا قال مجاهد وطاوس وعكرمة وسعيد بن جبير وإبراهيم النخعى والشعبى والحسن وقتادة والزهرى ويزيد بن قسيط ومقاتل بن حيان والقاسم بن محمد وغير واحد من السلف والأئمة فى التعريض إنه يجوز للمتوفى عنها زوجها من غير تصريح لها بالخطبة وهكذا حكم المطلقة المبتوتة يجوز التعريض لها كما قال النبى صلى الله عليه وسلم لفاطمة بنت قيس حين طلقها زوجها أبو عمرو بن حفص آخر ثلاث تطليقات فأمرها أن تعتد فى بيت ابن أم مكتوم وقال لها فاذا حللت فآذنينى فلما حلت خطب عليها أسامة بن زيد مولاه فزوجها إياه فأما المطلقة فلا خلاف فى أنه لا يجوز لغير زوجها التصريح بخطبتها ولا التعريض لها والله أعلم

وقوله (أو أكننتم فى أنفسكم) أى أضمرتم فى أنفسكم من خطبتهن وهذا كقوله تعالى (وربك يعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون) وكقوله (وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم) ولهذا قال (علم الله أنكم ستذكرونهن) أى

فى أنفسكم فرفع الحرج عنكم فى ذلك ثم قال (ولكن لا تواعدوهن سراً) قال أبو مجلز وأبو الشعثاء جابر بن زيد والحسن البصرى وإبراهيم النخعى وقتادة والضحاك والربيع بن أنس وسليمان التيمى ومقاتل بن حيان والسدى يعنى الزنا وهو معنى رواية العوفى عن ابن عباس واختاره ابن جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ولكن لا تواعدوهن سراً) لا تقل لها إنى عاشق وعاهدينى أن لا تتزوجى غيرى ونحو هذا وكذا روى عن سعيد بن جبير والشعبى وعكرمة وأبى الضحى والضحاك والزهرى ومجاهد والثورى هو أن يأخذ ميثاقها أن لا تتزوج غيره وعن مجاهد هو قول الرجل للمرأة لا تفوتينى بنفسك فانى ناكحك وقال قتادة : هو أن يأخذ عهد المرأة وهى فى عدتها أن لا تنكح غيره فنهى الله عن ذلك وقدم فيه وأحل الخطبة والقول بالمعروف وقال ابن زيد (ولكن لا تواعدون سراً) هو أن يتزوجها فى العدة سراً فاذا حلت أظهر ذلك وقد يحتمل أن تكون الآية عامة فى جميع ذلك ولهذا قال (إلا أن تقولوا قولا معروفا) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير والسدى والثورى وابن زيد : يعنى به ما تقدم من إباحة التعريض كقوله : إنى فيك لراغب ونحو ذلك وقال محمد بن سيرين قلت لعبيدة : ما معنى قوله (إلا أن تقولوا قولا معروفا) قال : يقول لوليها: لا تسبقنى بها ، يعنى لا تزوجها حتى تعلمنى ، رواه ابن أبى حاتم .

وقوله (ولا تعزموا عقدة النكاح حتى يبلغ الكتاب أجله) يعنى ولا تعقدوا العقدة بالنكاح حتى تنقضى العدة . قال ابن عباس ومجاهد والشعبى وقتادة والربيع بن أنس وأبو مالك وزيد بن أسلم ومقاتل بن حيان والزهرى وعطاء الخراسانى والسدى والثورى والضحاك (حتى يبلغ الكتاب أجله) يعنى ولا تعقدوا العقد بالنكاح حتى تنقضى العدة وقد أجمع العلماء على أنه لا يصح العقد فى مدة العدة .. واختلفوا فيمن تزوج امرأة فى عدتها فدخل بها فانه يفرق بينهما وهل تحرم عليه أبدا ؟ على قولين : الجمهور على أنها لا تحرم عليه بل له أن يخطبها إذا انقضت عدتها . وذهب الإمام مالك إلى أنها تحرم عليه على التأبيد واحتج فى ذلك بما رواه عن ابن شهاب وسليمان بن يسار أن عمر رضى الله عنه قال : أيما امرأة نكحت فى عدتها فان كان زوجها الذى تزوج بها لم يدخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول وكان خاطبا من الخطاب وإن كان دخل بها فرق بينهما ثم اعتدت بقية عدتها من زوجها الأول ثم اعتدت من الآخر ثم لم ينكحها أبدا ، قالوا . ومأخذ هذا أن الزوج لما استعجل ما أجل الله عوقب بنقيض قصده فحرمت عليه على التأبيد كالقاتل يحرم الميراث . وقد روى الشافعى هذا الأثر عن مالك . قال البيهقى . وذهب اليه فى القديم ورجع عنه فى الجديد لقول على انها تحل له (قلت) قال . ثم هو منقطع عن عمر . وقد روى الثورى عن أشعث عن الشعبى عن مسروق أن عمر رجع عن ذلك وجعل لها مهرها وجعلهما يجتمعان .

وقوله (واعلموا أن الله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه) توعدهم على ما يقع فى ضمائرهم من أمور النساء وأرشدهم إلى إضمار الخير دون الشر ثم ليؤيسهم من رحمته ولم يقنطهم من عائدته فقال (واعلموا أن الله غفور رحيم) .

﴿ لَّا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ مَا لَمْ تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا لَهُنَّ فَرِيضَةً وَمَتِّعُوهُنَّ عَلَى الْمُوسِعِ قَدَرُهُ وَعَلَى الْمُقْتِرِ قَدَرُهُ مَتَاعًا بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُحْسِنِينَ ﴾

أباح تبارك وتعالى طلاق المرأة بعد العقد عليها وقبل الدخول بها . قال ابن عباس وطاوس وإبراهيم والحسن البصرى : المس النكاح بل ويجوز أن يطلقها قبل الدخول بها والفرض لها إن كانت مفوضة وإن كان فى هذا انكسار لقلبها ولهذا أمر تعالى بامتاعها وهو تعويضها عما فاتها بشىء تعطاه من زوجها بحسب حاله على الموسع قدره وعلى المقتر قدره . وقال سفيان الثورى عن إسماعيل بن أمية عن عكرمة عن ابن عباس قال . متعة الطلاق أعلاه الخادم ودون ذلك الورق ودون ذلك الكسوة . وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس . إن كان موسرا متعها بخادم أو نحو ذلك وإن كان معسرا أمتعها بثلاثة أثواب . وقال الشعبى أوسط ذلك درع وخمار وملحفة وجلباب قال . وكان شريح يمتع

بخمسمائة . وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن أيوب بن سيرين قال . كان يمتع بالخادم أو بالنفقة أو بالكسوة . قال . ومتع الحسن بن على بعشرة آلاف ويروى أن المرأة قالت* متاع قليل من حبيب مفارق * وذهب أبو حنيفة إلى أنه متى تنازع الزوجان فى مقدار المتعة وجب لها عليه نصف مهر مثلها . وقال الشافعى فى الجديد . لا يجبر الزوج على قدر معلوم إلا على أقل مايقع عليه اسم المتعة وأحب ذلك إلىّ أن يكون أقله ماتجزىء فيه الصلاة وقال فى القديم لا أعرف فى المتعة قدراً إلا أنى أستحسن ثلاثين درهما كما روى عن ابن عمر رضى الله عنهما . وقد اختلف العلماء أيضاً هل تجب المتعة لكل مطلقة أو إنما تجب المتعة لغير المدخول بها التى لم يفرض لها على أقوال : أحدها أنها تجب المتعة لكل مطلقة لعموم قوله تعالى (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) ولقوله تعالى (يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميعا) وقد كن مفروضا لهن ومدخولا بهن وهذا قول سعيد بن جبير وأبى العالية والحسن البصرى وهو أحد قولى الشافعى . ومنهم من جعله الجديد الصحيح والله أعلم .

(والقول الثانى) انها تجب للمطلقة إذا طلقت قبل المسيس وإن كانت مفروضا لها لقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها فمتعوهن وسرحوهن سراحا جميلا) قال شعبة وغيره عن قتادة عن سعيد بن المسيب قال نسخت هذه الآية التى فى الأحزاب الآية التى فى البقرة وقد روى البخارى فى صحيحه عن سهل بن سعد وأبى أسيد أنهما قالا تزوج رسول الله صلى الله عليه وسلم أميمة بنت شرحبيل فلما أدخلت عليه بسط يده اليها فكأنها كرهت ذلك فأمر أبا أسيد أن يجهزها ويكسوها ثوبين أزرقين (والقول الثالث) ان المتعة إنما تجب للمطلقة إذا لم يدخل بها ولم يفرض لها فان كان قد دخل بها وجب لها مهر مثلها إذا كانت مفوضة وإن كان قد فرض لها وطلقها قبل الدخول وجب لها عليه شطره فان دخل بها استقر الجميع وكان ذلك عوضا لها عن المتعة وإنما المصابة التى لم يفرض لها ولم يدخل بها فهذه التى دلت هذه الآية الكريمة على وجوب متعتها وهذا قول ابن عمر ومجاهد ومن العلماء من استحبها لكل مطلقة ممن عدا المفوضة المفارقة قبل الدخول وهذا ليس بمنكور وعليه تحمل آية التخيير فى الأحزاب ولهذا قال تعالى (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقا على المحسنين * وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) ومن العلماء من يقول إنها مستحبة مطلقا . قال ابن أبى حاتم . حدثنا كثير بن شهاب القزوينى حدثنا محمد بن سعيد بن سابق حدثنا عمرو - يعنى ابن أبى قيس - عن أبى إسحق عن الشعبى قال . ذكروا له المتعة أيحبس فيها فقرأ (على الموسع قدره وعلى المقتر قدره) قال الشعبى . والله مارأيت أحداً حبس فيها والله لوكانت واجبة لحبس فيها القضاة .

﴿ وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّا أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَ الَّذِي بِيَدِهِ عُقْدَةُ النِّكَاحِ . وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَلَا تَنسَوُا الْفَضْلَ بَيْنَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وهذه الآية الكريمة مما يدل على اختصاص المتعة بما دلت عليه الآية الأولى حيث إنما أوجب فى هذه الآية نصف المهر المفروض إذا طلق الزوج قبل الدخول فانه لو كان ثم واجب آخر من متعة لبينها لاسيما وقد قرنها بما قبلها من اختصاص المتعة بتلك الآية والله أعلم وتشطير الصداق والحالة هذه أمر مجمع عليه بين العلماء لاخلاف بينهم فى ذلك فانه متى كان قد سمى لها صداقا ثم فارقها قبل دخوله بها فانه يجب لها نصف ماسمى من الصداق الا أن عند الثلاثة أنه يجب جميع الصداق إذا خلا بها الزوج وإن لم يدخل بها وهومذهب الشافعى فى القديم وبه حكم الخلفاء الراشدون لكن قال الشافعى : أخبرنا مسلم بن خالد أخبرنا ابن جريج عن ليث بن أبى سليم عن طاوس عن ابن عباس أنه قال فى الرجل يتزوج المرأة فيخلو بها ولا يمسها ثم يطلقها . ليس لها إلا نصف الصداق لان الله يقول (وإن طلقتموهن من قبل تمسوهن وقد فرضتم لهن فريضة فنصف ما فرضتم) قال الشافعى بهذا أقول وهو ظاهر الكتاب قال البيهقى وليث بن

أبى سليم وإن كان غير محتج به فقد رويناه من حديث ابن أبى طلحة عن ابن عباس فهو مقوله

وقوله (إلا أن يعفون) أي النساء عما وجب لها على زوجها فلا يجب لها عليه شيء قال السدى عن أبى صالح عن ابن عباس فى قوله (إلا أن يعفون) قال : إلا أن تعفو الثيب فتدع حقها . قال الإمام أبو محمد بن أبى حاتم رحمه الله وروى عن شريح وسعيد بن المسيب وعكرمة ومجاهد والشعبي والحسن ونافع وقتادة وجابر بن زيد وعطاء الخراسانى والضحاك والزهرى ومقاتل بن حيان وابن سيرين والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك . قال : وخالفهم محمد بن كعب القرظى فقال (إلا أن يعفون) يعنى الرجال وهو قول شاذ لم يتابع عليه انتهى كلامه .

وقوله (أو يعفو الذى بيده عقدة النكاح) قال ابن أبى حاتم . ذكر عن ابن لهيعة حدثنى عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى ﷺ قال « ولىّ عقدة النكاح الزوج » وهكذا أسنده ابن مردويه من حديث عبد الله بن لهيعة به وقد أسنده ابن جرير عن ابن لهيعة عن عمرو بن شعيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم — فذكره ولم يقل عن أبيه عن جده فالله أعلم ثم قال ابن أبى حاتم وحدثنا يونس بن حبيب حدثنا أبو داود حدثنا جابر يعنى ابن أبى حازم عن عيسى يعنى ابن عاصم قال : سمعت شريحا يقول سألنى على بن أبى طالب عن الذى بيده عقدة النكاح فقلت له هو ولى المرأة فقال على : لا بل هو الزوج ثم قال وفى إحدى الروايات عن ابن عباس وجبير بن مطعم وسعيد بن المسيب وشريح فى أحد قوليه وسعيد بن جبير ومجاهد والشعبي وعكرمة ونافع ومحمد بن سيرين والضحاك ومحمد بن كعب القرظى وجابر بن زيد وأبى مجلز والربيع بن أنس وإياس بن معاوية ومكحول ومقاتل بن حيان أنه الزوج (قلت) وهذا هو الجديد من قولى الشافعى ومذهب أبى حنيفة وأصحابه والثورى وابن شبرمة والأوزاعى واختاره ابن جرير ومأخذ هذا القول أن الذى بيده عقدة النكاح حقيقة الزوج فان بيده عقدها وإبرامها ونقضها وانهدامها وكما أنه لا يجوز للولى أن يهب شيئا من مال المولية للغير فكذلك فى الصداق قال والوجه الثانى حدثنا ابن أبى مريم حدثنا محمد بن مسلم حدثنا عمرو بن دينار عن ابن عباس — فى الذى ذكر الله بيده عقدة النكاح — قال ذلك أبوها أو أخوها أو من لا تنكح إلا باذنه وروى عن علقمة والحسن وعطاء وطاوس والزهرى وربيعة وزيد بن أسلم وابراهيم النخعى وعكرمة فى أحد قوليه ومحمد بن سيرين فى أحد قوليه أنه الولى وهذا مذهب مالك وقول الشافعى فى القديم ومأخذه أن الولى هو الذى أكسبها إياه فله التصرف فيه بخلاف سائر مالها وقال ابن جرير : حدثنا سعيد بن الربيع الرازى حدثنا سفيان عن عمرو بن دينار عن عكرمة قال : أذن الله فى العفو وأمر به فأى امرأة عفت جاز عفوها فان شحت وضنت عفا وليها[1] جاز عفوه وهذا يقتضى صحة عفو الولى وإن كانت شديدة وهو مروى عن شريح لكن أنكر عليه الشعبي فرجع عن ذلك وصار إلى أنه الزوج وكان يباهل عليه .

وقوله (وأن تعفوا أقرب للتقوى) قال ابن جرير قال بعضهم : خوطب به الرجال والنساء حدثنى يونس أنبأنا ابن وهب سمعت ابن جريج يحدث عن عطاء بن أبى رباح عن ابن عباس (وأن تعفوا أقرب للتقوى) قال أقربهما للتقوى الذى يعفو وكذا روى عن الشعبي وغيره وقال مجاهد والنخعى والضحاك ومقاتل بن حيان والربيع بن أنس والثورى : الفضل ههنا أن تعفو المرأة عن شطرها أو إتمام الرجل الصداق لها ولهذا قال (ولا تنسوا الفضل بينكم) أى الإحسان قاله سعيد وقال الضحاك وقتادة والسدى وأبو وائل المعروف يعنى لا تهملوه بل استعملوه بينكم وقد قال أبو بكر ابن مردويه حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم حدثنا موسى بن إسحق حدثنا عقبة بن مكرم حدثنا يونس بن بكير حدثنا عبد الله بن الوليد الرصافى عن عبد الله بن عبيد عن على بن أبى طالب أن رسول الله ﷺ قال ليأتين على الناس زمان عضوض يعض المؤمن على ما فى يديه وينسى الفضل وقد قال الله تعالى (ولا تنسوا الفضل بينكم) « شرار يبايعون كل مضطر » وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع المضطر وعن بيع الغرر فان كان عندك خير فعد به على أخيك ولا تزده هلاكا إلى هلاكه فان المسلم أخو المسلم لا يحزنه ولا يحرمه . وقال سفيان عن أبى هرون قال رأيت عون بن عبد الله فى مجلس القرظى فكان عون يحدثنا ولحيته ترش من البكاء ويقول صحبت الأغنياء فكنت من

(١) الظاهر أن أصله : وعفا وليها — وفى نسخة الأزهر : عفا وليها وجاز عفوه .

أكثرهم هما حين رأيتهم أحسن ثيابا وأطيب ريحا وأحسن مركبا وجالست الفقراء فاسترحت بهم وقال (ولا تنسوا الفضل بينكم) إذا أتاه السائل وليس عنده شيء فليدع له رواه ابن أبي حاتم (إن الله بما تعملون بصير) أي لا يخفى عليه شيء من أموركم وأحوالكم وسيجزي كل عامل بعمله .

﴿ حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَوٰةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ * فَإِنْ خِفْتُمْ فَرِجَالًا أَوْ رُكْبَانًا فَإِذَا أَمِنتُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَمَا عَلَّمَكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ ﴾

يأمر تعالى بالمحافظة على الصلوات في أوقاتها وحفظ حدودها وأدائها في أوقاتها كما في الصحيحين عن ابن مسعود قال سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أي العمل أفضل ؟ قال : « الصلاة في وقتها » قلت ثم أي ؟ قال : « الجهاد في سبيل الله » قلت ثم أي ؟ قال « بر الوالدين » قال : حدثني بهن رسول الله ﷺ ولو استزدته لزادني وقال الإمام أحمد حدثنا يونس حدثنا ليث عن عبد الله بن عمر بن حفص بن عاصم عن القاسم بن غنام عن جدته أم أبيه الدنيا عن جدته أم فروة وكانت ممن بايع رسول الله ﷺ أنها سمعت رسول الله صلى الله عليه سلم ذكر الأعمال فقال « إن أحب الأعمال إلى الله تعجيل الصلاة لأول وقتها » وهكذا رواه أبو داود والترمذي وقال لا نعرفه إلا من طريق العمري وليس بالقوي عند أهل الحديث وخص تعالى من بينها بمزيد التأكيد الصلاة الوسطى وقد اختلف السلف والخلف فيها أي صلاة هي فقيل إنها الصبح حكاه مالك في الموطأ بلاغا عن علي وابن عباس وقال هشيم وابن علية وغندر وابن أبي عدي وعبد الوهاب وشريك وغيرهم عن عوف الاعرابي عن أبي رجاء العطاردي قال : صليت خلف ابن عباس الفجر فقنت فيها ورفع يديه ثم قال : هذه الصلاة الوسطى التي أمرنا أن نقوم فيها قانتين رواه ابن جرير ورواه أيضا من حديث عوف عن خلاس بن عمرو عن ابن عباس مثله سواء وقال ابن جرير حدثنا ابن بشار حدثنا عبد الوهاب حدثنا عوف عن أبي المنهال عن أبي العالية عن ابن عباس أنه صلى الغداة في مسجد البصرة فقنت قبل الركوع وقال هذه الصلاة الوسطى التي ذكرها الله في كتابه فقال (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) وقال أيضا حدثنا محمد بن عيسى الدامغاني أخبرنا ابن المبارك أخبرنا الربيع بن أنس عن أبي العالية قال : صليت خلف عبد الله ابن قيس باليصرة صلاة الغداة فقلت لرجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جانبي ما الصلاة الوسطى قال : هذه الصلاة . وروى من طريق أخرى عن الربيع عن أبي العالية أنه صلى مع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الغداة فلما فرغوا قال قلت لهم أيتهن الصلاة الوسطى ؟ قالوا التي قد صليتها قبل . وقال أيضا حدثنا ابن بشار حدثنا ابن عثمة عن سعيد بن بشير عن قتادة عن جابر بن عبد الله قال : الصلاة الوسطى صلاة الصبح وحكاه ابن أبي حاتم عن ابن عمر وأبي أمامة وأنس وأبي العالية وعبيد بن عمير وعطاء ومجاهد وجابر بن زيد وعكرمة والربيع بن أنس ورواه ابن جرير عن عبد الله بن شداد بن الهاد أيضا وهو الذي نص عليه الشافعي رحمه الله محتجا بقوله تعالى (وقوموا لله قانتين) والقنوت عنده في صلاة الصبح ومنهم من قال هي وسطى باعتبار أنها لا تقصر وهي بين صلاتين رباعيتين مقصورتين وتر المغرب وقيل لأنها بين صلاتي ليل جهريتين وصلاتي نهار سريتين وقيل إنها صلاة الظهر قال أبو داود الطيالسي في مسنده حدثنا ابن أبي ذئب عن الزبرقان يعني ابن عمرو عن زهرة يعني ابن معبد قال : كنا جلوسا عند زيد بن ثابت فأرسلوا إلى أسامة فسألوه عن الصلاة الوسطى فقال هي الظهر كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصليها بالهجير وقال أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة حدثني عمرو بن أبي حكيم سمعت الزبرقان يحدث عن عروة بن الزبير عن زيد ابن ثابت قال : كان رسول الله ﷺ يصلي الظهر بالهاجرة ولم يكن يصلي صلاة أشد على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم منها فنزلت (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) وقال إن قبلها صلاتين وبعدها صلاتين . ورواه أبو داود في سننه من حديث شعبة به وقال أحمد أيضا : حدثنا يزيد حدثنا ابن أبي وهب عن الزبرقان أن رهطا من قريش مروا بهم زيد بن ثابت وهم مجتمعون فأرسلوا اليه غلامين لهم يسألانه عن الصلاة الوسطى فقال هي

العصر فقام إليه رجلان منهم فسألاه فقال . هى الظهر . ثم انصرفا إلى أسامة بن زيد فسألاه فقال : هى الظهر إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يصلى الظهر بالهجير فلا يكون وراءه إلا الصف والصفان والناس فى قائلتهم وفى تجارتهم فأنزل الله (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين) قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لينتهين رجال أو لأحرقن بيوتهم » والزبرقان هو ابن عمرو بن أمية الضمرى لم يدرك أحداً من الصحابة والصحيح ما تقدم من روايته عن زهرة بن معبد وعروة بن الزبير وقال شعبة وهمام عن قتادة عن سعيد بن المسيب عن ابن عمر عن زيد بن ثابت قال : الصلاة الوسطى صلاة الظهر . وقال أبو داود الطيالسى وغيره عن شعبة أخبرنى عمر ابن سليمان من ولد عمر بن الخطاب قال سمعت عبدالرحمن بن أبان بن عثمان يحدث عن أبيه عن زيد بن ثابت قال: الصلاة الوسطى هى الظهر ورواه ابن جرير عن زكريا بن يحيى بن أبى زائدة عن عبدالصمد عن شعبة عن عمر بن سليمان عن زيد ابن ثابت فى حديث رفعه قال « الصلاة الوسطى صلاة الظهر » وممن روى عنه أنها الظهر ابن عمر وأبو سعيد وعائشة على اختلاف عنهم وهو قول عروة بن الزبير وعبد الله بن شداد بن الهاد ورواية عن أبى حنيفة رحمهم الله وقيل إنها صلاة العصر قال الترمذى والبغوى رحمهما الله وهو قول أكثر علماء الصحابة وغيرهم وقال القاضى الماوردى هو قول جمهور التابعين وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر هو قول أكثر أهل الأثر وقال أبو محمد بن عطية فى تفسيره وهو قول جمهور الناس وقال الحافظ أبو محمد عبد المؤمن بن خلف الدمياطى فى كتابه المسمى بكشف الغطا فى تبيين الصلاة الوسطى وقد نص فيه أنها العصر وحكاه عن عمر وعلى وابن مسعود وأبى أيوب وعبد الله بن عمرو وسمرة بن جندب وأبى هريرة وأبى سعيد وحفصة وأم حبيبة وأم سلمة وعن ابن عمر وابن عباس وعائشة على الصحيح عنهم وبه قال عبيدة وإبراهيم النخعى ورزين وزر بن حبيش وسعيد بن جبير وابن سيرين والحسن وقتادة والضحاك والكلبى ومقاتل وعبيد بن مريم وغيرهم وهو مذهب أحمد بن حنبل قال القاضى الماوردى والشافعى قال ابن المنذر وهو الصحيح عن أبى حنيفة وأبى يوسف ومحمد واختاره ابن حبيب المالكى رحمهم الله

ذكر الدليل على ذلك — قال الإمام أحمد : حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم عن شتير بن شكل عن على قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الأحزاب « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قلوبهم وبيوتهم ناراً » ثم صلاها بين العشاءين المغرب والعشاء ، وكذا رواه مسلم من حديث أبى معاوية محمد بن حازم الضرير والنسائى من طريق عيسى بن يونس كلاهما عن الأعمش عن مسلم بن صبيح عن أبى الضحى عن شتير بن شكل بن حميد عن على ابن أبى طالب عن النبى صلى الله عليه وسلم مثله ، وقد رواه مسلم أيضاً من طريق شعبة عن الحكم بن عينة عن يحيى ابن الجزار عن على بن أبى طالب وأخرجه الشيخان وأبو داود والترمذى والنسائى وغيرواحد من أصحاب المسانيد والسنن والصحاح من طرق يطول ذكرها عن عبيدة السلمانى عن على به ورواه الترمذى والنسائى من طريق الحسن البصرى عن على به قال الترمذى : ولا يعرف سماعه منه وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن سنان حدثنا عبد الرحمن بن مهدى عن سفيان عن عاصم عن زر قال قلت لعبيدة سل علياً عن الصلاة الوسطى فسأله فقال : كنا نراها الفجر أو الصبح حتى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول يوم الأحزاب «شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر ملأ الله قبورهم وأجوافهم أو بيوتهم ناراً » ورواه ابن جرير عن بندار عن ابن مهدى به . وحديث يوم الأحزاب وشغل المشركين رسول الله ﷺ وأصحابه عن أداء الصلاة العصر يومئذ مروى عن جماعة من الصحابة يطول ذكرهم وإنما المقصود رواية من نص منهم فى روايته أن الصلاة الوسطى هى صلاة العصر . وقد رواه مسلم أيضاً من حديث ابن مسعود والبراء بن عاذب رضى الله عنهما (حديث آخر) قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا همام عن قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال « صلاة الوسطى صلاة العصر » وحدثنا بهز وعفان قالا . حدثنا أبان حدثنا قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) وساها لنا أنها هى صلاة العصر وحدثنا محمد بن جعفر وروح قالا : حدثنا سعيد عن قتادة عن الحسن عن سمرة بن جندب أن رسول الله ﷺ قال « هى

العصر » قال ابن جعفر : سئل عن صلاة الوسطى ورواه الترمذى من حديث سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن الحسن عن سمرة وقال : حسن صحيح : وقد سمع منه حديث آخر وقال ابن جرير : حدثنا أحمد بن منيع حدثنا عبد الوهاب بن عطاء عن التيمى عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الصلاة الوسطى صلاة العصر » (طريق أخرى بل حديث آخر) قال ابن جرير وحدثنى المثنى حدثنا سليمان بن أحمد الجرشى الواسطى حدثنا الوليد بن مسلم قال أخبرنى صدقة بن خالد حدثنى خالد بن دهقان عن خالد بن سيلان عن كهيل بن حرملة قال سئل أبو هريرة عن الصلاة الوسطى فقال . اختلفنا فيها كما اختلفتم فيها ونحن بفناء بيت رسول الله ﷺ وفينا الرجل الصالح أبوهاشم بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فقال : أنا أعلم لكم ذلك فقام فاستأذن على رسول الله ﷺ فدخل عليه ثم خرج إلينا فقال أخبرنا أنها صلاة العصر . غريب من هذا الوجه جداً (حديث آخر) قال ابن جرير . حدثنا أحمد بن إسحق حدثنا أبو أحمد حدثنا عبد السلام عن مسلم مولى أبى جبير حدثنى إبراهيم بن يزيد الدمشقى قال : كنت جالسا عند عبد العزيز بن مروان فقال يا فلان اذهب إلى فلان فقل له : أى شىء سمعت من رسول الله ﷺ فى الصلاة الوسطى ؟ فقال رجل جالس : أرسلنى أبو بكر وعمر وأنا غلام صغير أسأله عن الصلاة الوسطى فأخذ اصبعى الصغيرة فقال « هذه صلاة الفجر » وقبض التى تليها فقال « هذه الظهر » ثم قبض الابهام فقال « هذه المغرب » ثم قبض التى تليها فقال « هذه العشاء » ثم قال « أى أصابعك بقيت » فقلت الوسطى فقال « أى الصلاة بقيت ؟ » فقلت العصر فقال « هى العصر » غريب أيضاً جداً (حديث آخر) قال ابن جرير : حدثنى محمد بن عوف الطائى حدثنا محمد بن إسماعيل ابن عياش حدثنى أبى حدثنى أبو ضمضم بن زرعة عن شريح بن عبيد عن أبى مالك الأشعرى قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة الوسطى صلاة العصر » إسناده لا بأس به (حديث آخر) قال أبو حاتم بن حبان فى صحيحه حدثنا أحمد بن يحيى بن زهير حدثنا الجراح بن مخلد حدثنا عمرو بن عاصم حدثنا همام بن مورق العجلى عن أبى الأحوص عن عبد الله قال : قال رسول الله ﷺ « صلاة الوسطى صلاة العصر » وقد روى الترمذى من حديث محمد ابن طلحة بن مصرف عن زبيد اليامى عن مرة الهمدانى عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « صلاة الوسطى صلاة العصر » ثم قال حسن صحيح وأخرجه مسلم فى صحيحه من طريق محمد بن طلحة به ولفظه « شغلونا عن الصلاة الوسطى صلاة العصر » الحديث فهذه نصوص فى المسألة لا تحتمل شيئاً ويؤكد ذلك الأمر بالمحافظة عليها وقوله ﷺ فى الحديث الصحيح من رواية الزهرى عن سالم عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من فاتته صلاة العصر فكأنما وتر أهله وماله » وفى الصحيح أيضاً من حديث الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن أبى قلابة عن أبى كثير عن أبى المجاهر عن بريدة بن الحصيب عن النبى ﷺ قال « بكروا بالصلاة فى يوم الغيم فانه من ترك صلاة العصر فقد حبط عمله » وقال الإمام أحمد : حدثنا يحيى بن إسحق أخبرنا ابن لهيعة عن عبد الله ابن هبيرة عن أبى تميم عن أبى نضرة الغفارى قال : صلى بنا رسول الله ﷺ فى واد من أوديتهم يقال له الحميص[1] صلاة العصر فقال « إن هذه الصلاة عرضت على الذين من قبلكم فضيعوها ألا ومن صلاها ضعف له أجره مرتين ألا ولا صلاة بعدها حتى تروا الشاهد » ثم قال رواه عن يحيى بن إسحق عن الليث عن جبير بن نعيم عن عبد الله ابن هبيرة به وهكذا رواه مسلم والنسائى جميعاً عن قتيبة عن الليث ورواه مسلم أيضاً من حديث محمد بن إسحق حدثنى يزيد بن أبى حبيب كلاهما عن جبير بن نعيم الحضرمى عن عبد الله بن هبيرة السبائى به فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد أيضاً حدثنا إسحق أخبرنى مالك عن زيد بن أسلم عن القعقاع بن حكيم عن أبى يونس مولى عائشة قال : أمرتنى عائشة أن أكتب لها مصحفا قالت . إذا بلغت هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فآذنى فلما بلغتها آذنتها فأملت على (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) قالت سمعتها من رسول الله ﷺ وهكذا رواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن مالك به . وقال ابن جرير . حدثنى ابن المثنى حدثنا الحجاج حدثنا حماد عن هشام بن عروة عن أبيه قال . كان فى مصحف عائشة (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وهى

(١) فى نسخة الازهر يقال له : المخمص .

صلاة العصر) وهكذا رواه من طريق الحسن البصرى أن رسول الله ﷺ قرأها كذلك وقد روى الامام مالك أيضا عن زيد بن أسلم عن عمرو بن رافع قال كنت أكتب مصحفا لحفصة زوج النبي صلى الله عليه وسلم فقالت إذا بلغت هذه الآية فآذنى (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فلما بلغتها آذنتها فأملت على (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) وهكذا رواه محمد بن إسحق بن يسار فقال حدثنى أبو جعفر محمد بن على ونافع مولى بن عمر أن عمر بن نافع قال فذكر مثله وزاد كما حفظتها من النبى ﷺ (طريق أخرى عن حفصة) قال ابن جرير حدثنا محمد بن بشار حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن أبى بشر عن عبد الله ابن يزيد الأزدى عن سالم بن عبد الله أن حفصة أمرت إنسانا أن يكتب لها مصحفا فقالت إذا بلغت هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فآذنى فلما بلغ آذنها فقالت اكتب (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر) (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثنى ابن المثنى حدثنا عبد الوهاب حدثنا عبيدالله عن نافع أن حفصة أمرت مولى لها أن يكتب لها مصحفا فقالت إذ بلغت هذه الآية (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فلا تكتبها حتى أمليها عليك كما سمعت رسول الله ﷺ يقرؤها فلما بلغتها أمرته فكتبها (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) قال نافع فقرأت ذلك المصحف فوجدت فيه الواو وكذا روى ابن جرير عن ابن عباس وعبيد بن عمير أنهما قرآ كذلك وقال ابن جرير حدثنا أبو كريب حدثنا عبيدة حدثنا محمد بن عمرو حدثنى أبو سلمة عن عمرو بن رافع مولى عمر قال كان فى مصحف حفصة (حافظوا على الصلوات والصلاة الواسطى وصلاة العصر وقوموا لله قانتين) وتقرير المعارضة أنه عطف صلاة العصر على الصلاة الوسطى بواو العطف التى تقتضى المغايرة فدل ذلك على أنها غيرها وأجيب عن ذلك بوجوه (أحدها) أن هذ إن روى على أنه خبر فحديث على أصح وأصرح منه وهذا يحتمل أن تكون الواو زائدة كما فى قوله (وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين * وكذلك نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين) أو تكون لعطف الصفات لا لعطف الذوات كقوله (ولكن رسول الله وخاتم النبيين) وكقوله (سبح اسم ربك الأعلى الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى والذى أخرج المرعى) وأشباه ذلك كثيرة وقال الشاعر :

إلى الملك القرم وابن الهمام ... وليث الكتيبة فى المزدحم

وقال أبو داود الايادى :

سلط الموت والمنون عليهم ... فلهم فى صدى المقابر هام

والموت هو المنون قال عدى بن زيد[1] العبادى :

فقددت الأديم لراهشيه ... فألفى قولها كذبا ومينا

والكذب هو المين وقد نص سيبويه شيخ النحاة على جواز قول القائل مررت بأخيك وصاحبك ويكون الصاحب هو الأخ نفسه والله أعلم وأما إن روى على أنه قرآن فانه لم يتواتر فلا يثبت بمثل خبر الواحد قرآن ولهذا لم يثبته أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضى الله عنه فى المصحف ولا قرأ بذلك أحد من القراء الذين تثبت الحجة بقراءتهم لا من السبعة ولا من غيرهم . ثم قد روى مايدل على نسخ هذه التلاوة المذكورة فى هذا الحديث قال مسلم : حدثنا إسحق بن راهويه أخبرنا يحيى بن آدم عن فضيل بن مرزوق عن شقيق بن عقبة عن البراء بن عازب قال: نزلت (حافظوا على الصلوات وصلاة العصر) فقرأناها على رسول الله ﷺ ماشاء الله ثم نسخها الله عز وجل فأنزل (حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى) فقال له زاهر رجل كان مع شقيق : أفهى العصر ؟ قال قد حدثتك كيف نزلت وكيف نسخها الله عز وجل قال مسلم : ورواه الأشجعى عن الثورى عن الأسود عن شقيق قلت وشقيق هذا لم يرو له مسلم سوى هذا الحديث الواحد والله أعلم فعلى هذا تكون هذه التلاوة وهى تلاوة الجادة ناسخة للفظ رواية عائشة وحفصة ولمعناها إن كانت الواو دالة على المغايرة وإلا فلفظها فقط والله أعلم .

وقيل إن الصلاة الواسطى هى صلاة المغرب رواه ابن أبى حاتم عن ابن عباس وفى إسناده نظر فانه رواه عن أبيه عن أبى الجماهر عن سعيد بن بشير عن قتادة عن أبى الخليل عن عمه عن ابن عباس قال . صلاة الوسطى المغرب

(١) فى نسخة الأزهر زيد بن عدى .

وحكى هذا القول ابن جرير عن قبيصة بن ذؤيب وحكى أيضا عن قتادة على اختلاف عنه ووجه هـذا القول بعضهم بأنها وسطى فى العدد بين الرباعية والثنائية وبأنها وتر المفروضات وبما جاء فيها من الفضيلة والله أعلم .

وقيـل إنها العشاء الأخـيرة اختاره على بن أحمد الواحـدى فى تفسيره المشهور وقيل هى واحدة من الخمس لا بعينها وأبهمت فيهن كما أبهمت ليلة القدر فى الحول أو الشهر أو العشر ويحكى هذا القول عن سعيد بن المسيب وشريح القاضى ونافع مولى ابن عمر والربيع بن خيثم ونقل أيضا عن زيد بن ثابت واختاره إمام الحرمين الجوينى فى نهـايته

وقيل بل الصلاة الوسطى مجموع الصلوات الخمس رواه ابن أبى حاتم عن ابن عمر وفى صحته أيضا نظر والعجب أن هـذا القول اختـاره الشيخ أبو عمرو بن عبد البر النمرى إمام ماوراء البحر وإنها لاحـدى الـكبر إذ اختاره مع اطلاعه وحفظه مالم يقم عليه دليل من كتاب ولا سنة ولاأثر وقيل إنها صلاة العشاء وصـلاة الفجر . وقيـل بل هى صـلاة الجماعة وقيل صلاة الجمعة وقيل صلاة الخوف وقيل بل صلاة عيد الفطر وقيل بل صـلاة الأضحى وقيل الوتر وقيـل الضحى وتوقف فيها آخرون لما تعارضت عندهم الأدلة ولم يظهر لهم وجه الترجيح ولم يقع الإجماع على قول واحد بل لم يزل النزاع فيها موجوداً من زمان الصحابة وإلى الآن قال ابن جرير . حدثنى محمد بن بشار وابن مثنى قالا : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة قال : سمعت قتادة يحدث عن سعيد بن المسيب قال : كان أصحاب رسول الله ﷺ مختلفين فى الصـلاة الوسطى هـكذا وشبك بين أصابعه وكل هـذه الأقوال فيها ضعف بالنسبة إلى التى قبلها وإنمـا المدار ومعترك النزاع فى الصبح والعصر وقد ثبتت السنة بأنها العصر فتعين المصير إليها . وقد روى الامام أبو محمد عبد الرحمن بن أبى حاتم الرازى رحمهما الله فى كتاب الشافعى رحمه الله حدثنا أبى سمعت حرملة ابن يحيى اللخمى يقول قال الشـافعى كل ماقلت فـكان عن النبى ﷺ بخلاف قولى ممـا يصح فحديث النبى ﷺ أولى ولاتقلدونى وكذا روى الربيع والزعفرانى وأحمد بن حنبل عن الشافعى وقال موسى أبو الوليد بن أبى الجارود عن الشافعى إذا صح الحديث وقلت قولا فأنا راجع عن قولى وقائل بذلك فهذا من سيادته وأمانته وهذا نفس إخوانه من الأئمة رحمهم الله ورضى عنهم أجمعين آمين ومن ههنا قطع القاضى الماوردى بأن مذهب الشافعى رحمه الله أن صلاة الوسطى هى صلاة العصر وإن كان قد نص فى الجديد وغيره أنها الصبح لصحة الأحاديث أنها العصر وقد وافقه على هذه الطريقة جماعة من محدثى المذهب ولله الحمد والمنة : ومن الفقهاء فى المذهب من ينكر أن تكون هى العصر مذهب(١) الشافعى وصمموا على أنها الصبح قولا واحدا . قال الماوردى : ومنهم من حكى فى المسألة قولين ولتقرير المعارضات والجوابات موضع آخر غير هذا وقد أفردناه على حدة ولله الحمد والمنة .

وقوله تعالى (وقوموا لله قانتين) أى خاشعين ذليلين مستكينين بين يديه وهـذا الأمر مستلزم ترك الـكلام فى الصلاة لمنـافاته إياها ولهذا لما امتنع النبى ﷺ من الرد على ابن مسعود حين سـلم عليه وهو فى الصـلاة اعتـذر إليه بذلك وقال « إن فى الصلاة لشغلا » وفى صحيح مسلم أنه ﷺ قال لمعـاوية بن الحـكم السلمى حين تكلم فى الصلاة « إن هذه الصلاة لايصلح فيها شىء من كلام الناس إنما هى التسبيح والتكبير وذكر الله » وقال الامام أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن سعيد عن إسماعيل حدثنى الحارث بن شبيل عن أبى عمرو الشيبانى عن زيد بن أرقم قال : كان الرجل يكلم صاحبه فى عهـد النبى ﷺ فى الحاجة فى الصلاة حتى نزلت هـذه الآية (وقوموا لله قانتين) فأمرنا بالسكوت رواه الجماعة سوى ابن ماجه من طرق عن اسماعيل به وقد أشكل هذا الحديث على جمـاعة من العلماء حيث ثبت عندهم أن تحريم الكلام فى الصلاة كان بمكة قبل الهجرة إلى المدينة وبعد الهجرة إلى أرض الحبشة كما دل على ذلك حـديث ابن مسعود الذى فى الصحيح قال : كنا نسلم على النبى ﷺ قبـل أن نهاجر إلى الحبشة وهو فى الصلاة فيرد علينا قال فلما قدمنا سلمت عليه فلم يرد على فأخذنى ماقرب ومابعد فلما سلم قال « إنى لم أرد عليك إلا أنى كنت فى الصلاة وإن الله يحـدث من أمره مايشاء وإن مما أحدث أن لاتكلموا فى الصلاة » وقد كان ابن مسعود ممن أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ثم قدم منها إلى مكة مع من قدم فهاجر إلى المدينة وهذه الآية

(١) فى نسخة الأزهر مذهبا الشافعى .

(وقوموا لله قانتين) مدنيـة بلا خلاف فقال قائلون إنمـا أراد زيد بن أرقم بقوله كان الرجل يكلم أخاه فى حاجته فى الصلاة الاخبار عن جنس الـكلام واستدل على تحريم ذلك بهذه الآية بحسب ما فهمه منها والله أعلم . وقال آخرون إنما أراد أن ذلك قد وقع بالمدينة بعد الهجرة إليها ويكون ذلك قد أبيح مرتين وحرم مرتين كما اختار ذلك قوم من أصحابنا وغيرهم والأول أظهر والله أعلم . وقال الحافظ أبو يعلى : أخبرنا بشر بن الوليد أخبرنا إسحق بن يحيى عن المسيب عن ابن مسعود قال : كنا يسلم بعضنا على بعض فى الصلاة فمررت برسول الله ﷺ فسلمت عليه فلم يرد على فوقع فى نفسى أنه نزل فى شىء فلما قضى النبى ﷺ صلاته قال « وعليك السلام أيها المسلم ورحمة الله إن الله عز وجل يحدث من أمره ما يشاء فإذا كنتم فى الصلاة فاقنتوا ولا تكلموا » وقوله (فان خفتم فرجالا أو ركبانا فإذا أمنتم فاذكروا الله كما علمكم مالم تـكونوا تعلمون) لما أمر تعالى عباده بالمحافظة على الصلوات والقيام بحدودها وشدد الأمر بتأكيدها ذكر الحال الذى يشتغل الشخص فيها عن أدائها على الوجه الأكمل وهى حال القتال والتحام الحرب فقال (فإن خفتم فرجالا أو ركبانا) أى فصلوا على أى حال كان رجالا أو ركبانا يعنى مستقبلى القبلة وغير مستقبليها كما قال مالك عن نافع أن ابن عمر كان إذا سئل عن صلاة الخوف وصفها ثم قال فان كان خوف أشد من ذلك صلوا رجالا على أقدامهم أو ركبانا مستقبلى القبلة أو غير مستقبليها. قال نافع : لا أرى ابن عمر ذكر ذلك إلا عن النبى ﷺ ورواه البخارى وهذا لفظ مسلم ورواه البخارى أيضاً من وجه آخر عن ابن جريج عن موسى بن عقبة عن نافع عن ابن عمر عن النبى ﷺ نحوه أو قريبا منه ، ولمسلم أيضاً عن ابن عمر قال: فان كان خوف أشد من ذلك فصل راكبا أو قائما توميء إيماء . وفى حديث عبد الله بن أنيس الجهنى لما بعثه النبى ﷺ إلى خالد بن سفيان الهذلى ليقتله وكان نحو عرفة أو عرفات فلما واجهه حانت صلاة العصر قال فخشيت أن تفوتنى فجعلت أصلى وأنا أومىء إيماء — الحديث بطوله رواه أحمد وأبو داود بإسناد جيد وهـذا من رخص الله التى رخص لعباده ووضعه الآصار والأغلال عنهم ، وقد روى ابن أبى حاتم من طريق شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس قال : فى هذه الآية يصلى الركب على دابته والراجل على رجليه. قال وروى عن الحسن ومجاهد ومكحول والسدى والحكم ومالك والأوزاعى والثورى والحسن بن صالح نحو ذلك — وزاد ويومىء برأسه أينما توجه ثم قال : حدثنا أبى حدثنا غسان حدثنا داود يعنى ابن علية عن مطرف عن عطية عن جابر بن عبد الله قال : إذا كانت المسايفة فليومىء برأسه إيماء حيث كان وجهه فذلك قوله (فرجالا أو ركبانا) وروى عن الحسن ومجاهد وسعيد بن جبير وعطاء وعطية والحكم وحماد وقتادة نحو ذلك وقد ذهب الإمام أحمد فيما نص عليه إلى أن صلاة الخوف تفعل فى بعض الأحيان ركعة واحدة إذا تلاحم الجيشان وعلى ذلك ينزل الحديث الذى رواه مسلم وأبو داود والنسائى وابن ماجه وابن جرير من حديث أبى عوانة الوضاح بن عبد الله اليشكرى — زاد مسلم والنسائى وأيوب بن عائذ — كلاهما عن بكير بن الأخنس الـكوفى عن مجاهد عن ابن عباس قال : فرض الله الصلاة على لسان نبيـكم ﷺ فى الحضر أربعا وفى السفر ركعتين وفى الخوف ركعة وبه قال الحسن البصرى وقتادة والضحاك وغيرهم . وقال ابن جرير : حدثنا ابن بشار حدثنا ابن مهدى عن شعبة قال : سألت الحكم وحمادا وقتادة عن صلاة المسايفة فقالوا : ركعة وهكذا روى الثورى عنهم سواء وقال ابن جرير أيضاً حدثنى سعيد بن عمرو السكونى حدثنا بقية بن الوليد حدثنا المسعودى حدثنا يزيد الفقير عن جابر بن عبد الله قال: صلاة الخوف ركعة . واختار هذا القول ابن جرير وقال البخارى (باب الصلاة عند مناهضة الحصون ولقاء العـدو) وقال الأوزاعى : إن كان تهيأ الفتح ولم يقدروا على الصلاة صلوا إيماء كل امرىء لنفسه فان لم يقدروا على الإيماء أخروا الصلاة حتى ينكشف القتال ويأمنوا فيصلوا ركعتين فان لم يقدروا صلوا ركعة وسجدتين فان لم يقدروا لا يجزيهم التكبير ويؤخرونها حتى يأمنوا وبه قال مكحول وقال أنس بن مالك : حضرت مناهضة حصن تستر عند إضاءة الفجر واشتد اشتعال القتال فلم يقدروا على الصلاة فلم نصل إلا بعد ارتفاع النهار فصليناها ونحن مع أبى موسى ففتح لنا قال أنس : وما يسرنى بتلك الصلاة الدنيا وما فيها . هذا لفظ البخارى ثم استشهد على ذلك بحديث تأخيره صلى الله

عليه وسلم صلاة العصر يوم الخندق لعذر المحاربة إلى غيبوبة الشمس ، وبقوله ﷺ بعد ذلك لأصحابه لما جهزهم إلى بنى قريظة « لا يصلين أحد منكم العصر إلا فى بنى قريظة » فمنهم من أدركته الصلاة فى الطريق فصلوا وقالوا لم يردمنا رسول الله ﷺ إلا تعجيل السير ومنهم من أدركته فلم يصل إلى أن غربت الشمس فى بنى قريظة فلم يعنف واحداً من الفريقين وهذا يدل على اختيار البخارى لهذا القول والجمهور على خلافه ويعولون على أن صلاة الخوف على الصفة التى ورد بها القرآن فى سورة النساء ووردت بها الأحاديث لم تكن مشروعة فى غزوة الخندق وإنما شرعت بعد ذلك وقد جاء مصرحا بهذا فى حديث أبى سعيد وغيره وأما مكحول والأوزاعى والبخارى فيجيبون بأن مشروعية صلاة الخوف بعد ذلك لا تنافى جواز ذلك لأن هذا حال نادر خاص فيجوز فيه مثل ما قلنا بدليل صنيع الصحابة زمن عمر فى فتح تستر وقد اشتهر ولم ينكر والله أعلم

وقوله (فإذا أمنتم فاذكروا الله) أى أقيموا صلاتكم كما أمرتم فأتموا ركوعها وسجودها وقيامها وقعودها وخشوعها وهجودها (كما علمكم مالم تكونوا تعلمون) أى مثل ما أنعم عليكم وهداكم للايمان وعلمكم ما ينفعكم فى الدنيا والآخرة فقابلوه بالشكر والذكر كقوله بعد ذكر صلاة الخوف (فإذا اطمأننتم فأقيموا الصلاة إن الصلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا) وستأتى الأحاديث الواردة فى صلاة الخوف وصفاتها فى سورة النساء عند قوله تعالى (وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة) الآية

﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَاجِهِم مَّتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ فَإِنْ خَرَجْنَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِي مَا فَعَلْنَ فِي أَنفُسِهِنَّ مِن مَّعْرُوفٍ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ * وَلِلْمُطَلَّقَاتِ مَتَاعٌ بِالْمَعْرُوفِ حَقًّا عَلَى الْمُتَّقِينَ * كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾

قال الأكثرون هذه الآية منسوخة بالتى قبلها وهى قوله (يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) قال البخارى حدثنا أمية حدثنا يزيد بن زريع عن حبيب عن ابن أبى مليكة قال ابن الزبير : قلت لعثمان بن عفان (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) قد نسختها الآية الأخرى فلم تكتبها أوتدعها قال . يا ابن أخى لا أغير شيئاً منه من مكانه . ومعنى هذا الاشكال الذى قاله ابن الزبير لعثمان إذا كان حكمها قد نسخ بالأربعة الأشهر فما الحكمة فى إبقاء رسمها مع زوال حكمها ، وبقاء رسمها بعد التى نسختها يوهم بقاء حكمها ؟ فأجابه أمير المؤمنين بأن هذا أمر توقيفى وأنا وجدتها مثبتة فى المصحف كذلك بعدها فأثبتها حيث وجدتها : قال ابن أبى حاتم : حدثنا الحسن بن محمد بن الصباح حدثنا حجاج ابن محمد عن ابن جريج وعثمان بن عطاء عن عطاء عن ابن عباس فى قوله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج) فكان للمتوفى عنها زوجها نفقتها وسكناها فى الدار سنة فنسختها آية المواريث فجعل لهن الثمن أو الربع مما ترك الزوج ثم قال: وروى عن أبى موسى الأشعرى وابن الزبير ومجاهد وإبراهيم وعطاء والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك وزيد بن أسلم والسدى ومقاتل بن حيان وعطاء الخراسانى والربيع بن أنس أنها منسوخة وروى من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس قال : كان الرجل إذا مات وترك امرأته اعتدت سنة فى بيته ينفق عليها من ماله ثم أنزل الله بعد (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً) فهذه عدة المتوفى عنها زوجها إلا أن تكون حاملا فعدتها أن تضع مافى بطنها وقال (ولهن الربع مما تركتم إن لم يكن لكم ولد فان كان لكم ولد فلهن الثمن مما تركتم) فبين ميراث المرأة وترك الوصية والنفقة قال : وروى عن مجاهد والحسن وعكرمة وقتادة والضحاك والربيع ومقاتل بن حيان قالوا نسختها (أربعة أشهر وعشرا) قال : وروى عن سعيد ابن المسيب قال نسختها التى فى الأحزاب (يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات) الآية (قلت) وروى عن مقاتل وقتادة أنها منسوخة بآية الميراث وقال البخارى حدثنا إسحق بن منصور حدثنا روح حدثنا شبل عن ابن أبى نجيح عن

مجاهد (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا) قال كانت هذه للمعتدة تعتدعند أهل زوجها واجب فأنزل الله (والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجا وصية لأزواجهم متاعا إلى الحول غير إخراج فإن خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) قال : جعل الله تمام السنة سبعة أشهر وعشرين ليلة وصية إن شاءت سكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت وهو قول الله (غير إخراج فان خرجن فلا جناح عليكم) فالعدة كماهى واجب عليها زعم ذلك عن مجاهد رحمه الله وقال عطاء قال ابن عباس نسخت هذه الآية عدتها عند أهلها فتعتد حيث شاءت وهو قول الله تعالى (غير إخراج) قال عطاء : إن شاءت اعتدت عند أهلها وسكنت فى وصيتها وإن شاءت خرجت لقول الله (فلاجناح عليكم فيما فعلن) قال عطاء . ثم جاء الميراث فنسخ السكنى فتعتد حيث شاءت ولا سكنى لها ثم أسند البخارى عن ابن عباس مثل ما تقدم عنه بهذا القول الذى عول عليه مجاهد وعطاء من أن هذه الآية لم تدل على وجوب الاعتداد سنة كماز عمه الجمهورحتى يكون ذلك منسوخا بالأربعة الأشهر وعشر وإنما دلت على أن ذلك كان من باب الوصاة بالزوجات أن يمكن من السكنى فى بيوت أزواجهن بعد وفاتهم حولا كاملا إن اخترن ذلك ولهذا قال (وصية لأزواجهم) أى يوصيكم الله بهن وصية كقوله (يوصيكم الله فى أولادكم) الآية وقوله (وصية من الله) وقيل إنما انتصب على معنى فلتوصوا لهن وصية وقرأ آخرون بالرفع وصية على معنى كتب عليكم وصية واختارها ابن جرير ولا يمنعن من ذلك لقوله (غير إخراج) فأما إذا انقضت عدتهن بالأربعة أشهر والعشر أو بوضع الحمل واخترن الخروج والانتقال من ذلك المنزل فانهن لا يمنعن من ذلك لقوله (فان خرجن فلا جناح عليكم فيما فعلن فى أنفسهن من معروف) وهذا القول له اتجاه وفى اللفظ مساعدة له وقد اختاره جماعة منهم الإمام أبو العباس بن تيمية ورده آخرون منهم الشيخ أبو عمر بن عبد البر وقول عطاء ومن تابعه على أن ذلك منسوخ بآية الميراث إن أرادوا ما زاد على الأربعة أشهر والعشر فمسلم وإن أرادوا أن سكنى الأربعة أشهر وعشر لا تجب فى تركة الميت فهذا محل خلاف بين الأئمة وهما قولان للشافعى رحمه الله وقد استدلوا على وجوب السكنى فى منزل الزوج بما رواه مالك فى موطئه عن سعد بن إسحق ابن كعب بن عجرة عن عمته زينب بنت كعب بن عجرة أن الفريعة بنت مالك بن سنان وهى أخت أبى سعيد الخدرى رضى الله عنهما أخبرتها أنها جاءت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم تسأله أن ترجع إلى أهلها فى بنى خدرة فان زوجها خرج فى طلب أعبده أبقوا حتى إذا كان بطرف القدوم لحقهم فقتلوه قالت : فسألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن أرجع إلى أهلى فى بنى خدرة فان زوجى لم يتركنى فى مسكن يملكه ولا نفقة ، قالت : فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « نعم » قالت فانصرفت حتى إذا كنت فى الحجرة ناداني رسول الله ﷺ أو أمر بى فنوديت له فقال « كيف قلت ؟ » فرددت عليه القصة التى ذكرت له من شأن زوجى فقال « امكثى فى بيتك حتى يبلغ الكتاب أجله » قالت فاعتددت فيه أربعة أشهر وعشرا قالت : فلما كان عثمان بن عفان أرسل إلى فسألنى عن ذلك فأخبرته فاتبعه وقضى به وكذا رواه أبوداود والترمذى والنسائى من حديث مالك به . ورواه النسائى أيضاً وابن ماجه من طرق عن سعد بن إسحق به وقال الترمذى حسن صحيح .

وقوله (وللمطلقات متاع بالمعروف حقا على المتقين) قال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم لما نزل قوله تعالى (متاعا بالمعروف حقاً على المحسنين) قال رجل : إن شئت أحسنت ففعلت وإن شئت لم أفعل فأنزل الله هذه الآية (وللمطلقات متاع بالمعروف حقاً على المتقين) وقد استدل بهذه الآية من ذهب من العلماء إلى وجوب المتعة لكل مطلقة سواء كانت مفوضة أو مفروضا لها أو مطلقة قبل المسيس أو مدخولا بها وهو قول عن الشافعى رحمه الله وإليه ذهب سعيد بن جبير وغيره من السلف واختاره ابن جرير ومن لم يوجبها مطلقا يخصص من هذا العموم مفهوم قوله تعالى (لاجناح عليكم إن طلقتم النساء مالم تمسوهن أو تفرضوا لهن فريضة ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعا بالمعروف حقاً على المحسنين) وأجاب الأولون بأن هذا من باب ذكر بعض أفراد العموم فلا تخصيص على المشهور المنصور والله أعلم .

وقوله (كذلك يبين الله لكم آياته) أى فى إحلاله وتحريمه وفروضه وحدوده فيما أمركم به ونهاكم عنه بينه ووضحه وفسره ولم يتركه مجملا فى وقت احتياجكم اليه (لعلكم تعقلون) أى تفهمون وتتدبرون

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ * وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ * مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾

روى عن ابن عباس أنهم كانوا أربعة آلاف وعنه كانوا ثمانية آلاف وقال أبو صالح . تسعة آلاف وعن ابن عباس أربعون ألفا . وقال وهب بن منبه وأبو مالك . كانوا بضعة وثلاثين ألفا . وروى ابن أبى حاتم عن ابن عباس قال : كانوا أهل قرية يقال لها ذاوردان . وكذا قال السدى وأبو صالح وزاد من قبل واسط ، وقال سعيد بن عبد العزيز كانوا من أهل أذرعات ، وقال ابن جريج عن عطاء قال : هذا مثل[1] وقال على بن عاصم . كانوا من أهل ذاوردان قرية على فرسخ من قبل واسط . وقال وكيع بن الجراح فى تفسيره ، حدثنا سفيان عن ميسرة بن حبيب النهدى عن المنهال بن عمرو الأسدى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) قال . كانوا أربعة آلاف خرجوا فرارا من الطاعون قالوا : نأتى أرضاً ليس بها موت حتى إذا كانوا بموضع كذا وكذا قال الله لهم (موتوا) فماتوا فمر عليهم نبى من الأنبياء فدعا ربه أن يحييهم فأحياهم فذلك قوله عز وجل (ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت) الآية . وذكر غير واحد من السلف أن هؤلاء القوم كانوا أهل بلدة فى زمان بنى إسرائيل استوخموا أرضهم وأصابهم بها وباء شديد فخرجوا فرارا من الموت هاربين إلى البرية فنزلوا واديا أفيح فملأوا ما بين عدوتيه فأرسل الله اليهم ملكين أحدهما من أسفل الوادى والآخر من أعلاه فصاحا بهم صيحة واحدة فماتوا عن آخرهم موتة رجل واحد فحيزوا إلى حظائر وبنى عليهم جدران وفنوا وتمزقوا وتفرقوا فلما كان بعد دهر مر بهم نبى من أنبياء بنى إسرائيل يقال له حزقيل فسأل الله أن يحييهم على يديه فأجابه إلى ذلك وأمره أن يقول : أيتها العظام البالية إن الله يأمرك أن تجتمعى ، فاجتمع عظام كل جسد بعضها إلى بعض ، ثم أمره فنادى أيتها العظام إن الله يأمرك أن تكتسى لحماً وعصباً وجلدا ، فكان ذلك وهو يشاهده ، ثم أمره فنادى أيتها الأرواح إن الله يأمرك أن ترجع كل روح إلى الجسد الذى كانت تعمره فقاموا أحياء ينظرون . قد أحياهم الله بعد رقدتهم الطويلة وهم يقولون سبحانك لا إله إلا أنت وكان فى إحيائهم عبرة ودليل قاطع على وقوع المعاد الجسمانى يوم القيامة ولهذا قال (إن الله لذو فضل على الناس) أى فيما يريهم من الآيات الباهرة والحجج القاطعة والدلالات الدامغة (ولكن أكثر الناس لا يشكرون) أى لا يقومون بشكر ما أنعم الله به عليهم فى دينهم ودنياهم . وفى هذه القصة عبرة ودليل على أنه لن يغنى حذر من قدر وأنه لا ملجأ من الله إلا إليه فان هؤلاء خرجوا فرارا من الوباء طلباً لطول الحياة فعوملوا بنقيض قصدهم وجاءهم الموت سريعا فى آن واحد . ومن هذا القبيل الحديث الصحيح الذى رواه الإمام أحمد حدثنا إسحق بن عيسى أخبرنا مالك وعبد الرزاق أخبرنا معمر كلاهما عن الزهرى عن عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب عن عبد الله بن الحارث بن نوفل عن عبد الله بن عباس أن عمر بن الخطاب خرج إلى الشام حتى إذا كان بسرغ لقيه أمراء الأجناد أبو عبيدة بن الجراح وأصحابه فأخبروه أن الوباء قد وقع بالشام فذكر الحديث فجاءه عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا لبعض حاجته فقال : إن عندى من هذا علما ، سمعت رسول الله ﷺ يقول . « إذا كان بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه وإذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه » فحمد الله عمر ثم انصرف ، وأخرجاه فى الصحيحين من حديث الزهرى به بطريق أخرى لبعضه قال أحمد حدثنا حجاج ويزيد العمى قالا أخبرنا ابن أبى ذئب عن الزهرى عن سالم عن عبد الله بن عامر بن ربيعة أن عبد الرحمن بن عوف أخبر عمر وهو فى

(١) يعنى أنها ضرب مثل لا قصة وقعت .

الشام عن النبي صلى الله عليه وسلم « إن هذا السقم عذب به الأمم قبلكم فاذا سمعتم به فى أرض فلا تدخلوها وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فراراً » قال فرجع عمر من الشام ، وأخرجاه فى الصحيحين من حديث مالك عن الزهرى بنحوه . وقوله (وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم) أى كما أن الحذر لا يغنى من القدر كذلك الفرار من الجهاد وتجنبه لا يقرب أجلا ولا يبعده بل الأجل المحتوم والرزق المقسوم مقدر مقنن لا يزاد فيه ولا ينقص منه كما قال تعالى (الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا : لو أطاعونا ماقتلوا ، قل فادرؤا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين) وقال تعالى (وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب ، قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلا * أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة) وروينا عن أمير الجيوش ومقدم العساكر وحامى حوزة الاسلام وسيف الله المسلول على أعدائه أبى سليمان خالد بن الوليد رضى الله عنه أنه قال وهو فى سياق الموت : لقد شهدت كذا وكذا موقفا وما من عضو من أعضائى إلا وفيه رمية أو طعنة أو ضربة وها أنا ذا أموت على فراشى كما يموت العير فلا نامت أعين الجبناء — يعنى أنه يتألم لكونه مامات قتيلا فى الحرب ويتأسف على ذلك ويتألم أن يموت على فراشه . وقوله (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) يحث تعالى عباده على الانفاق فى سبيل الله وقد كرر تعالى هذه الآية فى كتابه العزيز فى غير موضع ، وفى حديث النزول أنه يقول تعالى « من يقرض غير عديم ولا ظلوم » وقال ابن أبى حاتم حدثنا الحسن بن عرفة حدثنا خلف بن خليفة عن حميد الأعرج عن عبد الله بن الحارث عن عبد الله بن مسعود قال لما نزلت (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له) قال أبو الدحداح الأنصارى : يارسول الله وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال . « نعم يا أبا الدحداح » قال أرنى يدك يارسول الله . قال فناوله يده قال : فانى قد أقرضت ربى عز وجل حائطى قال وحائط له فيه ستمائة نخلة وأم الدحداح فيه وعيالها قال فجاء أبو الدحداح فناداها يا أم الدحداح قالت لبيك قال اخرجى فقد أقرضته ربى عز وجل وقد رواه ابن مردويه من حديث عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عمر رضى الله عنه مرفوعا بنحوه وقوله (قرضا حسنا) روى عن عمر وغيره من السلف هو النفقة فى سبيل الله وقيل هو النفقة على العيال وقيل هو التسبيح والتقديس وقوله (فيضاعفه له أضعافا كثيرة) كما قال تعالى (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء) الآية وسيأتى الكلام عليها وقال الإمام أحمد حدثنا يزيد أخبرنا مبارك بن فضالة عن على بن زيد عن أبى عثمان النهدى قال أتيت أبا هريرة رضى الله عنه فقلت له إنه بلغنى أنك تقول إن الحسنة تضاعف ألف ألف حسنة قال وما أعجبك من ذلك لقد سمعته من النبى صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة » هذا حديث غريب وعلى بن زيد بن جدعان عنده مناكير لكن رواه ابن أبى حاتم من وجه آخر فقال حدثنا أبو خلاد سليمان بن خلاد المؤدب حدثنا يونس بن محمد المؤدب حدثنا محمد بن عقبة الرفاعى(١) عن زياد الجصاص عن أبى عثمان النهدى قال لم يكن أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى فقدم قبلى حاجا قال وقدمت بعده فإذا أهل البصرة يأثرون عنه أنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة » فقلت ويحكم والله ماكان أحد أكثر مجالسة لأبى هريرة منى فما سمعت هذا الحديث قال فتحملت أريد أن ألحقه فوجدته قد انطلق حاجا فانطلقت إلى الحج أن ألقاه فى هذا الحديث فلقيته لهذا فقلت يا أبا هريرة ماحديث سمعت أهل البصرة يأثرون عنك ؟ قال ماهو قلت زعموا أنك تقول إن الله يضاعف الحسنة ألف ألف حسنة قال يا أبا عثمان وما تعجب من ذا والله يقول (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) ويقول (ومامتاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل) والذى نفسى بيده لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إن الله يضاعف الحسنة ألفى ألف حسنة » وفى معنى هذا الحديث مارواه الترمذى وغيره من طريق عمرو بن دينار عن سالم عن عبد الله بن عمر ابن الخطاب أن رسول الله ﷺ قال « من دخل سوقا من الأسواق فقال لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، له الملك وله الحمد وهو على شىء قدير — كتب الله له ألف ألف حسنة ومحا عنه ألف ألف سيئة » الحديث وقال

(١) فى نسخة الأزهر الرباعى .

ابن أبي حاتم حدثنا أبوزرعة حدثنا إسماعيل بن إبراهيم بن بسام حدثنا أبو إسماعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر قال لما نزلت (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل) إلى آخرها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رب زد أمتى » فنزلت (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) قال « رب زد أمتى » فنزلت (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وروى ابن أبى حاتم أيضا عن كعب الأحبار أنه جاءه رجل فقال إنى سمعت رجلا يقول من قرأ (قل هو الله أحد) مرة واحدة بنى الله له عشرة آلاف ألف غرفة من در وياقوت فى الجنة أفأصدق بذلك ؟ قال نعم أوعجبت من ذلك؟ قال نعم وعشرين ألف ألف وثلاثين ألف ألف وما لا يحصى ذلك إلا الله ثم قرأ (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) فالكثير من الله لا يحصى وقوله (والله يقبض ويبسط) أى أنفقوا ولا تبالوا فالله هو الرزاق يضيق على من يشاء من عباده فى الرزق ويوسعه على آخرين، له الحكمة البالغة فى ذلك (واليه ترجعون) أى يوم القيامة

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا ؟ قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴾

قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة: هذا النبي هو يوشع بن نون قال ابن جرير يعنى ابن أفرايم بن يوسف بن يعقوب وهذا القول بعيد لأن هذا كان بعد موسى بدهر طويل وكان ذلك فى زمان داود عليه السلام كما هو مصرح به فى القصة وقد كان بين داود وموسى ما ينيف عن ألف سنة والله أعلم . وقال السدى هو شمعون وقال مجاهد هو شمويل عليه السلام وكذا قال محمد بن إسحق عن وهب بن منبه وهو شمويل بن بالى بن علقمة بن ترخام بن اليهد[1] بن بهرض بن علقمة ابن ماجب بن عمرصا بن عزريا بن صفية بن علقمة بن أبى ياشف بن قارون بن يصهر بن قاهث بن لاوى بن يعقوب بن إسحق ابن إبراهيم الخليل عليه السلام ، وقال وهب بن منبه وغيره كان بنو إسرائيل بعد موسى عليه السلام على طريق الاستقامة مدة من الزمان ثم أحدثوا الأحداث وعبد بعضهم الأصنام ولم يزل بين أظهرهم من الأنبياء من يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويقيمهم على منهج التوراة إلى أن فعلوا ما فعلوا فسلط الله عليهم أعداءهم فقتلوا منهم مقتلة عظيمة وأسروا خلقا كثيرا وأخذوا منهم بلادا كثيرة ولم يكن أحد يقاتلهم إلا غلبوه وذلك أنهم كان عندهم التوراة والتابوت الذى كان فى قديم الزمان وكان ذلك موروثا لخلفهم عن سلفهم إلى موسى الكليم عليه الصلاة والسلام فلم يزل بهم تماديهم على الضلال حتى استلبه منهم بعض الملوك فى بعض الحروب وأخذ التوراة من أيديهم ولم يبق من يحفظها فيهم إلا القليل وانقطعت النبوة من أسباطهم ولم يبق من سبط لاوى الذى يكون فيه الأنبياء إلا امرأة حامل من بعلها وقد قتل فأخذوها فحبسوها فى بيت واحتفظوا بها لعل الله يرزقها غلاما يكون نبياً لهم ولم تزل المرأة تدعو الله عزوجل أن يرزقها غلاما فسمع الله لها ووهبها غلاما فسمته شمويل أى سمع الله دعائى ومنهم من يقول شمعون وهو بمعناه فشب ذلك الغلام ونشأ فيهم وأنبته الله نباتا حسنا فلما بلغ سن الأنبياء أوحى الله اليه وأمره بالدعوة اليه وتوحيده فدعا بنى إسرائيل فطلبوا منه أن يقيم لهم ملكا يقاتلون معه أعداءهم وكان الملك أيضا قد باد فيهم فقال لهم النبي : فهل عسيتم إن أقام الله لكم ملكا ألا تقاتلوا وتفوا بما التزمتم من القتال معه (قالوا وما لنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من ديارنا وأبنائنا) أى وقد أخذت منا البلاد وسبيت الأولاد قال الله تعالى . (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين) أى ماوفوا بما وعدوا بل نكل عن الجهاد أكثرهم والله عليم بهم

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ

(١) فى نسخة اليهو .

وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

أى لما طلبوا من نبيهم أن يعين لهم ملكا منهم فعين لهم طالوت وكان رجلا من أجنادهم ولم يكن من بيت الملك فيهم لأن الملك كان فى سبط يهوذا ولم يكن هذا من ذلك السبط فلهذا قالوا (أنى يكون له الملك علينا) أى كيف يكون ملكا علينا (ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال) أى هو مع هذا فقير لا مال له يقوم بالملك وقد ذكر بعضهم أنه كان سقاء وقيل دباغا وهذا اعتراض منهم على نبيهم وتعنت وكان الأولى بهم طاعة وقول معروف ثم قد أجابهم النبي قائلا (إن الله اصطفاه عليكم) أى اختاره لكم من بينكم والله أعلم به منكم يقول لست أنا الذى عينته من تلقاء نفسى بل الله أمرنى به لما طلبتم منى ذلك (وزاده بسطة فى العلم والجسم) أى وهو مع هذا أعلم منكم وأنبل وأشكل منكم وأشد قوة وصبراً فى الحرب ومعرفة بها أى أتم علماً وقامة منكم ومن ههنا ينبغى أن يكون الملك ذا علم وشكل حسن وقوة شديدة فى بدنه ونفسه ثم قال (والله يؤتى ملكه من يشاء) أى هو الحاكم الذى ما شاء فعل ولا يسئل عما يفعل وهم يسئلون لعلمه وحكمته ورأفته بخلقه ولهذا قال (والله واسع عليم) أى هو واسع الفضل يختص برحمته من يشاء ، عليم بمن يستحق الملك ممن لا يستحقه

﴿ وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾

يقول لهم نبيهم إن علامة بركة ملك طالوت عليكم أن يرد الله عليكم التابوت الذى كان أخذ منكم (فيه سكينة من ربكم) قيل معناه فيه وقار وجلالة قال عبد الرزاق عن معمر عن قتادة (فيه سكينة) أى وقار وقال الربيع : رحمة وكذا روى عن العوفى عن ابن عباس وقال ابن جريج : سألت عطاء عن قوله (فيه سكينة من ربكم) قال ما تعرفون من آيات الله فتسكنون إليه وكذا قال الحسن البصرى وقيل السكينة طست من ذهب كانت تغسل فيه قلوب الأنبياء أعطاها الله موسى عليه السلام فوضع فيها الألواح ورواه السدى عن أبى مالك عن ابن عباس وقال سفيان الثورى عن سلمة بن كهيل عن أبى الأحوص عن على قال : السكينة لها وجه كوجه الإنسان ثم هى روح هفافة وقال ابن جرير : حدثنى المثنى حدثنا أبو داود حدثنا شعبة وحماد بن سلمة وأبو الأحوص كلهم عن سماك عن خالد بن عرعرة عن علىّ قال : السكينة ريح خجوج ولها رأسان وقال مجاهد لها جناحان وذنب وقال محمد بن إسحق عن وهب بن منبه السكينة رأس هرة ميتة إذا صرخت فى التابوت بصراخ هر أيقنوا بالنصر وجاءهم الفتح وقال عبد الرزاق : أخبرنا بكار بن عبد الله أنه سمع وهب بن منبه يقول السكينة روح من الله تتكلم إذا اختلفوا فى شىء تكلم فتخبرهم ببيان ما يريدون

وقوله (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) قال ابن جرير أخبرنا ابن مثنى حدثنا أبو الوليد حدثنا حماد عن داود ابن أبى هند عن عكرمة عن ابن عباس فى هذه الآية (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) قال عصاه ورضاض الألواح وكذا قال قتادة والسدى والربيع بن أنس وعكرمة وزاد والتوراة وقال أبو صالح (وبقية مما ترك آل موسى) يعنى عصا موسى وعصا هرون ولوحين من التوراة والمن وقال عطية بن سعد : عصا موسى وعصا هرون وثياب موسى وثياب هرون ورضاض الألواح وقال عبد الرزاق : سألت الثورى عن قوله (وبقية مما ترك آل موسى وآل هرون) فقال منهم من يقول قفيز من منّ ورضاض الألواح ومنهم من يقول العصا والنعلان

وقوله (تحمله الملائكة) قال ابن جريج : قال ابن عباس : جاءت الملائكة تحمل التابوت بين السماء والأرض حتى وضعته بين يدى طالوت والناس ينظرون ، وقال السدى : أصبح التابوت فى دار طالوت فآمنوا بنبوة شمعون وأطاعوا

طالوت ،وقال عبد الرزاق عن الثورى عن بعض أشياخه جاءت به الملائكة تسوقه على عجلة على بقرة وقيل على بقرتين وذكر غيره أن التابوت كان بأريحا وكان المشركون لما أخذوه وضعوه فى بيت آلهتهم تحت صنمهم الكبير فأصبح التابوت على رأس الصنم فأنزلوه فوضعوه تحته فأصبح كذلك فسمروه تحته فأصبح الصنم مكسور القوائم ملقى بعيداً فعلموا أن هذا أمر من الله لا قبل لهم به فأخرجوا التابوت من بلدهم فوضعوه فى بعض القرى فأصاب أهلها داء فى رقابهم فأمرتهم جارية من سبى بنى إسرائيل أن يردوه إلى بنى إسرائيل حتى يخلصوا من هذا الداء فحملوه على بقرتين فسارتا به لا يقربه أحد إلا مات حتى اقتربتا من بلد بنى إسرائيل فكسرتا النيرين ورجعتا وجاء بنو إسرائيل فأخذوه فقيل إنه تسلمه داود عليه السلام وإنه لما قام إليهما خجل من فرحه بذلك وقيل شابان منهم فالله أعلم وقيل كان التابوت بقرية من قرى فلسطين يقال لها أزدوه(١)

(وقوله إن فى ذلك لآية لكم) أى على صدق فيما جئتكم به من النبوة وفيما أمرتكم به من طاعه طالوت (إن كنتم مؤمنين) أى بالله واليوم الآخر

﴿ فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُوا اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾

يقول تعالى مخبراً عن طالوت ملك بنى إسرائيل حين خرج فى جنوده ومن أطاعه من ملأ بنى إسرائيل وكان جيشه يومئذ فيما ذكره السدى ثمانين ألفا فالله أعلم أنه قال (إن الله مبتليكم) أى مختبركم بنهر قال ابن عباس وغيره : وهو نهر بين الأردن وفلسطين يعنى نهر الشريعة المشهور (فمن شرب منه فليس منى) أى فلا يصحبنى اليوم فى هذا الوجه (ومن لم يطعمه فإنه منى إلا من اغترف غرفة بيده) أى فلا بأس عليه قال الله تعالى (فشربوا منه إلا قليلا منهم) قال ابن جريج قال ابن عباس : من اغترف منه بيده روى ومن شرب منه لم يرو . وكذا رواه السدى عن أبى مالك عن ابن عباس وكذا قال قتادة وابن شوذب ، وقال السدى . كان الجيش ثمانين ألفا فشرب منه ستة وسبعون ألفا وتبقى معه أربعة آلاف كذا قال وقد روى ابن جرير من طريق إسرائيل وسفيان الثورى ومسعر بن كدام عن أبى إسحق السبيعى عن البراء بن عازب قال : كنا نتحدث أن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم الذين كانوا يوم بدر ثلاثمائة وبضعة عشر على عدة أصحاب طالوت الذين جازوا معه والنهر وما جازه معه إلا مؤمن ورواه البخارى عن عبد الله بن رجاء عن إسرائيل بن يونس عن أبى إسحق عن جده عن البراء بنحوه ولهذا قال تعالى (فلما جاوزه هو والذين آمنوا معه قالوا لا طاقة لنا اليوم بجالوت وجنوده) أى استقلوا أنفسهم عن لقاء عدوهم لكثرتهم فشجعهم علماؤهم العاملون بأن وعد الله حق فان النصر من عند الله ليس عن كثرة عدد ولا عدد . ولهذا قالوا (كم من فئة قليلة غلبت فئة كثير بإذن الله والله مع الصابرين)

﴿ وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ * فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ * تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ

(١) وفى نسخة الأزهر ازدرد .

وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾

أى لما واجه حزب الإيمان وهم قليل من أصحاب طالوت لعدوهم أصحاب جالوت وهم عدد كثير (قالوا ربنا أفرغ علينا صبراً) أى أنزل علينا صبراً من عندك (وثبت أقدامنا) أى فى لقاء الأعداء وجنبنا الفرار والعجز (وانصرنا على القوم الكافرين)

قال الله تعالى (فهزموهم بإذن الله) أى غلبوهم وقهروهم بنصر الله لهم (وقتل داود جالوت)ذكروا فى الإسرائيليات أنه قتله بمقلاع كان فى يده رماه به فأصابه فقتله وكان طالوت قد وعده إن قتل جالوت أن يزوجه ابنته ويشاطره نعمته ويشركه فى أمره ففى له ثم آل الملك إلى داود عليه السلام مع ما منحه الله به من النبوة العظيمة ولهذا قال تعالى (وآتاه الله الملك) الذى كان بيد طالوت (والحكمة) أى النبوة بعد شمويل (وعلمه مما يشاء)أى مما يشاء الله من العلم الذى اختصه به ﷺ ثم قال تعالى (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض)أى لولا الله يدفع عن قوم بآخرين كما دفع عن بنى إسرائيل بمقاتلة طالوت وشجاعة داود لهلكوا كما قال تعالى (ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً) الآية . وقال ابن جرير . حدثنى أبو حميد الحمصى أحد بنى المغيرة حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا حفص بن سليمان عن محمد بن سوقة عن وبرة بن عبد الرحمن عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة أهل بيت من جيرانه البلاء » ثم قرأ ابن عمر (ولو دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض) وهذا إسناد ضعيف فان يحيى بن سعيد هذا هو ابن العطار الحمصى وهو ضعيف جداً ثم قال ابن جرير. حدثنا أبو حميد الحمصى حدثنا يحيى بن سعيد حدثنا عثمان بن عبد الرحمن عن محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله ليصلح بصلاح الرجل المسلم ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون فى حفظ الله عز وجل مادام فيهم » وهذا أيضاً غريب ضعيف لما تقدم أيضاً وقال أبو بكر بن مردويه حدثنا محمد بن أحمد ابن إبراهيم حدثنا على بن إسماعيل بن حماد أخبرنا أحمد بن محمد بن يحيى بن سعيد أخبرنا زيد بن الحباب حدثنى حماد بن زيد عن أيوب عن أبى قلابة عن أبى السمان عن ثوبان رفع الحديث قال: «لا يزال فيكم سبعة بهم تنصرون وبهم تمطرون وبهم ترزقون حتى يأتى أمر الله» ، وقال ابن مردويه أيضاً وحدثنا محمد بن أحمد حدثنا محمد بن جرير بن يزيد حدثنا أبو معاذ نهار بن معاذ بن عثمان الليثى أخبرنا زيد بن الحباب أخبرنى عمر البزار عن عنبسة الخواص عن قتادة عن أبى قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى عن عبادة بن الصامت قال : قال رسول الله ﷺ « الأبدال فى أمتى ثلاثون . بهم ترزقون وبهم تمطرون وبهم تنصرون » قال قتادة . إنى لأرجو أن يكون الحسن منهم

وقوله (ولكن الله ذو الفضل على العالمين) أى ذو من عليهم ورحمة بهم يدفع عنهم ببعضهم بعضا وله الحكم والحكمة والحجة على خلقه فى جميع أفعاله وأقواله

ثم قال تعالى (تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وإنك لمن المرسلين) أى هذه آيات الله التى قصصناها عليك من أمر الذين ذكرناهم بالحق أى بالواقع الذى كان عليه الأمر المطابق لما بأيدى أهل الكتاب من الحق الذى يعلمه علماء بنى إسرائيل (وإنك) يا محمد (لمن المرسلين) وهذا توكيد وتوطئة للقسم

﴿ تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا فَمِنْهُم مَّنْ ءَامَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ ﴾

يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال تعالى (ولقد فضلنا بعض النبيين على بعض وآتينا داود زبورا) وقال ههنا (تلك الرسل فضلنا بعضهم على بعض منهم من كلم الله) يعنى موسى ومحمداً صلى الله عليهما وسلم وكذلك آدم كما ورد به الحديث المروى فى صحيح ابن حبان عن أبى ذر رضى الله عنه (ورفع بعضهم درجات) كما ثبت فى حديث الإسراء حين رأى النبى صلى الله عليه وسلم الأنبياء فى السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله عز وجل (فان قيل) فما الجمع بين هذه الآية وبين الحديث الثابت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : استب رجل من المسلمين ورجل من اليهود فقال اليهودى فى قسم يقسمه . لا والذى اصطفى موسى على العالمين . فرفع المسلم يده فلطم بها وجه اليهودى فقال . أى خبيث ؟ وعلى محمد صلى الله عليه وسلم ؟ فجاء اليهودى إلى النبى صلى الله عليه وسلم فاشتكى على المسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا تفضلونى على الأنبياء فان الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فأجد موسى باطشا بقائمة العرش فلا أدرى أفاق قبلى أم جوزى بصعقة الطور ؟ فلا تفضلونى على الأنبياء » وفى رواية « لا تفضلوا بين الأنبياء » فالجواب من وجوه (أحدها) أن هذا كان قبل أن يعلم بالتفضيل وفى هذا نظر (الثانى) أن هذا قاله من باب الهضم والتواضع (الثالث) أن هذا نهى عن التفضيل فى مثل هذه الحال التى تحاكموا فيها عند التخاصم والتشاجر (الرابع) لا تفضلوا بمجرد الآراء والعصبية (الخامس) ليس مقام التفضيل إليكم وإنما هو إلى الله عز وجل وعليكم الانقياد والتسليم له والإيمان به

وقوله (وآتينا عيسى ابن مريم البينات) أى الحجج والدلائل القاطعات على صحة ماجاء بنى إسرائيل به من أنه عبد الله ورسوله إليهم (وأيدناه بروح القدس) يعنى أن الله أيده بجبريل عليه السلام ثم قال تعالى (ولو شاء الله ما اقتتل الذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينات ولكن اختلفوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شاء الله ما اقتتلوا) أى كل ذلك عن قضاء الله وقدره ولهذا قالوا (ولكن الله يفعل ما يريد)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يَوْمٌ لَّا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَٰعَةٌ وَٱلْكَٰفِرُونَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾

يأمر تعالى عباده بالانفاق مما رزقهم فى سبيله سبيل الخير ليدخروا ثواب ذلك عند ربهم وليكفهم وليبادروا إلى ذلك فى هذه الحياة الدنيا (من قبل أن يأتى يوم) يعنى يوم القيامة (لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة) أى لا يباع أحد من نفسه ولا يفادى بمال لو بذله ولو جاء بملء الأرض ذهبا ولا تنفعه خلة أحد يعنى صداقته بل ولا نسابته كما قال (فإذا نفخ فى الصور فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون) ولا شفاعة . أى ولا تنفعهم شفاعة الشافعين

وقوله (والكافرون هم الظالمون) مبتدأ محصور فى خبره أى ولا ظالم أظلم ممن وافى الله يومئذ كافرا وقد روى ابن أبى حاتم عن عطاء بن دينار أنه قال . الحمد لله الذى قال (والكافرون هم الظالمون) ولم يقل والظالمون هم الكافرون

﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَىْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا وَهُوَ ٱلْعَلِىُّ ٱلْعَظِيمُ ﴾

هذه آية الكرسى ولها شأن عظيم وقد صح الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بأنها أفضل آية فى كتاب الله قال الإمام أحمد . حدثنا عبد الرزاق حدثنا سفيان عن سعيد الجريرى عن أبى السليل عن عبد الله بن رباح عن أبى هو ابن كعب أن النبى صلى الله عليه وسلم سأله « أى آية فى كتاب الله أعظم ؟ قال الله ورسوله أعلم فرددها مرارا ثم قال : آية الكرسى قال : « ليهنك العلم أبا المنذر والذى نفسى بيده إن لها لسانا وشفتين تقدس الملك عند ساق

العرش » وقد رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة عن عبد الأعلى بن عبد الأعلى عن الجريرى به وليس عنده زيادة والذى نفسى بيده الخ

(حديث آخر) عن أبى أيضا فى فضل آية الكرسى قال الحافظ أبو يعلى الموصلى حدثنا أحمد بن إبراهيم الدورقى حدثنا ميسرة عن الأوزاعى عن يحيى بن أبى كثير عن عبيدة بن أبى لبابة عن عبدالله بن أبى بن كعب أن أباه أخبره أنه كان له جرن فيه تمر قال فكان أبى يتعاهده فوجده ينقص قال فحرسه ذات ليلة فاذا هو بدابة شبيه الغلام المحتلم قال : فسلمت عليه فرد السلام قال : فقلت ما أنت ؟ جنى أم إنسى قال . جنى قال : قلت ناولنى يدك قال فناولنى يده فاذا يد كلب وشعر كلب فقلت هكذا خلق الجن ؟ قال لقد علمت الجن مافيهم أشد منى ، قلت فما حملك على ما صنعت ؟ قال بلغنى أنك رجل تحب الصدقة فأحببنا أن نصيب من طعامك قال : فقال له أبى فما الذى يجيرنا منكم ؟ قال هذه الآية آية الكرسى ثم غدا إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال النبى ﷺ « صدق الخبيث » وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى داود الطيالسى عن حرب بن شداد عن يحيى بن أبى كثير عن الحضرمى بن لاحق عن عن محمد بن عمرو بن أبى بن كعب عن جده به وقال الحاكم صحيح الاسناد ولم يخرجاه (طريق أخرى) قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عثمان بن عتاب قال سمعت أبا السليل قال : كان رجل من أصحاب النبى ﷺ يحدث الناس حتى يكثروا عليه فيصعد على سطح بيت فيحدث الناس قال : قال رسول الله ﷺ « أى آية فى القرآن أعظم ؟ » فقال رجل (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) قال فوضع يده بين كتفى فوجدت بردها بين ثدى أو قال فوضع يده بين ثدى فوجدت بردها بين كتفى وقال ليهنك العلم يا أبا المنذر (حديث آخر) عن الأسقع البقرى قال الحافظ أبو القاسم الطبرانى حدثنا أبو يزيد القراطيسى حدثنا يعقوب بن أبى عباد المكى حدثنا مسلم بن خالد عن ابن جريج أخبرنى عمر بن عطاء أن مولى ابن الأسقع رجل صدق أخبره عن الأسقع البكرى أنه سمعه يقول إن النبى ﷺ جاءهم فى صفة المهاجرين فسأله إنسان : أى آية فى القرآن أعظم ! فقال النبى ﷺ (الله لا إله إلا هو الحى القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم) حتى انقضت الآية

(حديث آخر) عن أنس — قال الإمام أحمد حدثنا عبدالله بن الحارث حدثنى سلمة بن وردان أن أنس بن مالك حدثه أن رسول الله ﷺ سأل رجلا من صحابته فقال « أى فلان هل تزوجت ؟ » قال : لا وليس عندى ما أتزوج به قال « أوليس معك . قل هو الله أحد » قال بلى قال « ربع القرآن » قال « أليس معك قل يا أيها الكافرون ؟ » قال : بلى قال : « ربع القرآن » قال : « أليس معك إذا زلزلت ؟ » قال : بلى قال : « ربع القرآن » قال : « أليس معك إذا جاء نصر الله ا » قال بلى قال « ربع القرآن » قال « أليس معك آية الكرسى الله لا إله إلا هو » ! قال بلى قال « ربع القرآن »

(حديث آخر) عن أبى ذر جندب بن جنادة قال الإمام أحمد . حدثنا وكيع بن الجراح حدثنا المسعودى أنبأنى أبو عمر الدمشقى عن عبيد بن الخشخاش عن أبى ذر رضى الله عنه قال : أتيت النبى ﷺ وهو فى المسجد فجلست فقال « يا أبا ذر هل صليت ؟ » قلت لا قال « قم فصل » قال فقمت فصليت ثم جلست فقال : « يا أبا ذر تعوذ بالله من شر شياطين الانس والجن » قال : قلت يارسول الله أو للانس شياطين ! قال نعم قال : قلت يارسول الله الصلاة قال : « خير موضوع من شاء أقل ومن شاء أكثر » قال قلت يارسول الله فالصوم ؟ قال « فرض مجزى وعند الله مزيد » قلت يارسول الله فالصدقه ، قال « أضعاف مضاعفة » قلت يارسول الله فأيها أفضل ، قال « جهد من مقل أو سر إلى فقير » قلت يارسول الله أى الأنبياء كان أول ، قال « آدم » قلت يارسول الله ونبى كان ، قال « نعم نبى مكلم » قلت يارسول الله كم المرسلون ، قال « ثلثمائة وبضعة عشر جما غفيرا » وقال مرة « وخمسة عشر » قلت يارسول الله أى ما أنزل عليك أعظم ، قال « آية الكرسى (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) » ورواه النسائى

(حديث آخر) عن أبى أيوب خالد بن زيد الأنصارى رضى الله عنه وأرضاه قال الإمام أحمد . حدثنا سفيان عن ابن أبى ليلى عن أخيه عبد الرحمن بن أبى ليلى عن أبى أيوب أنه كان فى سهوة له وكانت الغول تجىء فتأخذ فشكاها إلى

النبي ﷺ فقال « فاذا رأيتها فقل باسم الله أجيبي رسول الله» قال فجاءت فقال لها فأخذها فقالت إني لا أعود فأرسلها فجاء فقال له النبي ﷺ «مافعل أسيرك ؟» قال أخذتها فقالت إني لا أعود فأرسلتها فقال إنها عائدة فأخذتها مرتين أو ثلاثا كل ذلك تقول لا أعود وأجيء إلى النبي ﷺ «فيقول مافعل أسيرك» فأقول أخذتها فتقول لا أعود فيقول «إنها عائدة » فأخذتها فقالت أرسلني وأعلمك شيئا تقوله فلا يقربك شيء : آية الكرسي . فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال « صدقت وهي كذوب » ورواه الترمذي في فضائل القرآن عن بندار عن أبي أحمد الزبيري به وقال حسن غريب والغول في لغة العرب : الجان إذا تبدى في الليل

وقد ذكر البخاري هذه القصة عن أبي هريرة فقال في كتاب فضائل القرآن وفي كتاب الوكالة وفي صفة إبليس من صحيحه ، قال عثمان بن الهيثم أبو عمرو حدثنا عوف عن محمد بن سيرين عن أبي هريرة قال وكلني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظ زكاة رمضان فأتاني آت فجعل يحثو من الطعام فأخذته وقلت لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ قال دعني فإني محتاج وعلي عيال ولي حاجة شديدة قال فخليت عنه فأصبحت فقال النبي ﷺ «يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة » قال : قلت يا رسول الله شكا حاجة شديدة وعيالا فرحمته وخليت سبيله قال « أما إنه قد كذبك وسيعود «فعرفت أنه سيعود لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنه سيعود» فرصدته فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال دعني فاني محتاج وعلي عيال لا أعود . فرحمته وخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله ﷺ « يا أبا هريرة ما فعل أسيرك البارحة » قلت يا رسول الله شكا حاجة وعيالا فرحمته فخليت سبيله قال « أما إنه قد كذبك وسيعود » فرصدته الثالثة فجاء يحثو من الطعام فأخذته فقلت لأرفعنك إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهذا آخر ثلاث مرات أنك تزعم أنك لا تعود ثم تعود فقال . دعني أعلمك كلمات ينفعك الله بها ، قلت وما هي . قال إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) حتى تختم الآية فانك لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح فخليت سبيله فأصبحت فقال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما فعل أسيرك البارحة : » قلت يارسول الله زعم أنه يعلمني كلمات ينفعني الله بها فخليت سبيله قال: «ماهي». قال لي إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي من أولها حتى تختم الآية (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) وقال لي لن يزال عليك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح وكانوا أحرص شيء على الخير فقال النبي صلى الله عليه وسلم « أما إنه صدقك وهو كذوب تعلم من تخاطب من ثلاث ليال يا أبا هريرة» قلت لا قال: «ذاك شيطان» كذا رواه البخاري معلقا بصيغة الجزم وقد رواه النسائي في اليوم والليلة عن إبراهيم بن يعقوب عن عثمان بن الهيثم فذكره ـ وقد روى من وجه آخر عن أبي هريرة بسياق آخر قريب من هذا فقال الحافظ أبو بكر بن مردويه في تفسيره حدثنا محمد بن عبد الله بن عمرويه الصفار حدثنا أحمد بن زهير بن حرب أنبأنا مسلم بن إبراهيم أنبأنا إسماعيل بن مسلم العبدي أنبأنا أبو المتوكل الناجي أن أبا هريرة كان معه مفتاح بيت الصدقة وكان فيه تمر فذهب يوما ففتح الباب فوجد التمر قد أخذ منه ملء كف ودخل يوما آخر فاذا قد أخذ منه ملء كف ثم دخل يوما آخر ثالثا فاذا قد أخذ منه مثل ذلك فشكا ذلك أبو هريرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له النبي صلى الله عليه وسلم تحب أن تأخذ صاحبك هذا » قال نعم قال « فاذا فتحت الباب فقل سبحان من سخرك محمد » فذهب ففتح الباب فقال سبحان من سخرك محمد . فاذا هو قائم بين يديه قال ياعدو الله أنت صاحب هذا . قال نعم دعني فاني لا أعود ما كنت آخذا إلا لأهل بيت من الجن فقراء فخلى عنه ثم عاد الثانية ثم عاد الثالثة فقلت أليس قد عاهدتني ألا تعود . لا أدعك اليوم حتى أذهب بك إلى النبي صلى الله عليه وسلم . قال لا تفعل فانك إن تدعني علمتك كلمات إذا أنت قلتها لم يقربك أحد من الجن صغير ولا كبير ذكر ولا أنثى ، قال له لتفعلن ، قال نعم ، قال ماهن قال (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) قرأ آية الكرسي حتى ختمها فتركه فذهب فلم يعد فذكر ذلك أبو هريرة للنبي صلى الله عليه وسلم فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم « أما علمت أن ذلك كذلك » وقد رواه النسائي عن أحمد بن محمد بن عبيد الله عن شعيب بن حرب عن

إسماعيل بن مسلم عن أبى التوكل عن أبى هريرة به وقد تقدم لأبى بن كعب كائنة مثل هذه أيضاً فهذه ثلاث وقائع

﴿ قصة أخرى ﴾ قال أبو عبيد فى كتاب الغريب : حدثنا أبو معاوية عن أبى عاصم الثقفى عن الشعبى عن عبد الله بن مسعود قال : خرج رجل من الإنس فلقيه رجل من الجن فقال : هل لك أن تصارعنى؟ فان صرعتنى علمتك آية إذا قرأتها حين تدخل بيتك لم يدخله شيطان فصارعه فصرعه فقال : إنى أراك ضئيلا شخيتا كأن ذراعيك ذراعا كلب أفهكذا أنتم أيها الجن كلكم أم أنت من بينهم ؟ فقال إنى بينهم لضليع فعاودنى فصارعه فصرعه الانسى فقال تقرأ آية الكرسى فانه لا يقرؤها أحد إذا دخل بيته إلا خرج الشيطان وله خيخ كخيخ الحمار فقيل لابن مسعود أهو عمر ؟ فقال من عسى أن يكون إلا عمر قال أبو عبيد : الضئيل النحيف الجسم والخيخ بالخاء المعجمة ويقال بالحاء المهملة الضراط

(حديث آخر) عن أبى هريرة قال الحاكم أبو عبدالله فى مستدركه حدثنا على بن حشاد حدثنا بشر بن موسى حدثنا الحميدى حدثنا سفيان حدثنى حكيم بن جبير الأسدى عن أبى صالح عن أبى هريرة أن رسول الله صلى عليه وسلم قال : « سورة البقرة فيها آية سيدة آى القرآن لا تقرأ فى بيت فيه شيطان إلا خرج منه: آية الكرسى » وكذا رواه من طريق آخر عن زائدة عن حكيم بن جبير ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه كذا قال وقد رواه الترمذى من حديث زائدة ولفظه « لكل شىء سنام وسنام القرآن سورة البقرة وفيها آية هى سيدة آى القرآن : آية الكرسى» ثم قال غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير وقد تكلم فيه شعبة وضعفه (قلت) وكذا ضعفه أحمد ويحيى بن معين وغير واحد من الأئمة وتركه ابن مهدى وكذبه السعدى

(حديث آخر) قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقى بن نافع أخبرنا عيسى بن محمد المروزى أخبرنا عمر بن محمد البخارى أخبرنا عيسى بن موسى غنجار عن عبد الله بن كيسان حدثنا يحيى أخبرنا يحيى بن عقيل عن يحيى بن يعمر عن ابن عمر عن عمر ابن الخطاب أنه خرج ذات يوم إلى الناس وهم سماطات فقال : أيكم يخبرنى بأعظم آية فى القرآن . فقال ابن مسعود على الخبير سقطت سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : «أعظم آية فى القرآن (الله لا إله إلا هو الحى القيوم)»

(حديث آخر) فى اشتماله على اسم الله الأعظم . قال الإمام أحمد . حدثنا محمد بن بكير أنبأنا عبد الله بن أبى زياد حدثنا شهر بن حوشب عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت : سمعت رسول الله ﷺ يقول فى هاتين الآيتين (الله لا إله إلا هو الحى القيوم) و(الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) « إن فيهما اسم الله الأعظم» وكذا رواه أبو داود عن مسدد والترمذى عن على بن خشرم وابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة ثلاثتهم عن عيسى بن يونس عن عبد الله بن أبى زياد به وقال الترمذى . حسن صحيح

(حديث آخر) فى معنى هذا عن أبى أمامة رضى الله عنه قال ابن مردويه . أخبرنا عبد الله بن نمير أخبرنا إسحق ابن إبراهيم بن إسماعيل أخبرنا هشام بن عمار أنبأنا الوليد بن مسلم أخبرنا عبد الله بن العلاء بن زبر أنه سمع القاسم ابن عبد الرحمن يحدث عن أبى أمامة يرفعه قال « اسم الله الأعظم الذى إذا دعى به أجاب فى ثلاث : سورة البقرة وآل عمران وطه» وقال هشام وهو ابن عمار خطيب دمشق: أما البقرة فـ(الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وفى آل عمران (الم الله لا إله إلا هو الحى القيوم) وفى طه (وعنت الوجوه للحى القيوم)

(حديث آخر) عن أبى أمامة فى فضل قراءتها بعد الصلاة المكتوبة قال أبو بكر بن مردويه. حدثنا محمد بن محرز ابن يناور الأدمى أخبرنا جعفر بن محمد بن الحسن أخبرنا الحسن بن بشر بطرسوس أخبرنا محمد بن حمير أخبرنا محمد ابن زياد عن أبى أمامة قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ دبر كل صلاة مكتوبة آية الكرسى لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت » وهكذا رواه النسائى فى اليوم والليلة عن الحسن بن بشر به وأخرجه ابن حبان فى صحيحه من حديث محمد بن حمير وهو الحمصى من رجال البخارى أيضاً فهو إسناد على شرط البخارى وقد زعم أبو الفرج ابن الجوزى أنه حديث موضوع والله أعلم . وقد روى ابن مردويه من حديث على والمغيرة بن شعبة وجابر بن عبد الله نحو هذا الحديث ولكن فى إسناد كل منهما ضعف . وقال ابن مردويه أيضاً حدثنا محمد بن الحسن بن زياد المقرى

أخبرنا يحيى بن درستويه المروزى أخبرنا زياد بن إبراهيم أخبرنا أبو حمزة السكرى عن المثنى عن قتادة عن الحسن عن أبى موسى الأشعرى عن النبى ﷺ قال : « أوحى الله إلى موسى بن عمران عليه السلام أن اقرأ آية الكرسى فى دبر كل صلاة مكتوبة فانه من يقرؤها فى دبر كل صلاة مكتوبة أجعل له قلب الشاكرين ولسان الذاكرين وثواب النبيين وأعمال الصديقين ولا يواظب على ذلك إلا نبى أو صديق أو عبد امتحنت قلبه للايمان أو أريد قتله فى سبيل الله » وهذا حديث منكر جداً

(حديث آخر) فى أنها تحفظ من قرأها فى أول النهار وأول الليل . قال أبو عيسى الترمذى . حدثنا يحيى بن المغيرة أبو سلمة المخزومى المدينى أخبرنا ابن أبى فديك عن عبد الرحمن المليكى عن زرارة بن مصعب عن أبى سلمة عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من قرأ . حم المؤمن إلى (إليه المصير) وآية الكرسى حين يصبح حفظ بهما حتى يمسى ومن قرأهما حين يمسى حفظ بهما حتى يصبح » ثم قال هذا حديث غريب وقد تكلم بعض أهل العلم فى عبد الرحمن بن أبى بكر بن أبى مليكة المليكى من قبل حفظه

وقد ورد فى فضلها أحاديث أخر تركناها اختصارا لعدم صحتها وضعف أسانيدها كحديث على فى قراءتها عند الحجامة إنها تقوم مقام حجامتين وحديث أبى هريرة فى كتابتها فى اليد اليسرى بالزعفران سبع مرات وتلحس للحفظ وعدم النسيان أوردها ابن مردويه وغير ذلك .

﴿ وهذه الآية مشتملة على عشر جمل مستقلة ﴾

فقوله (الله لا إله إلا هو) إخبار بأنه المتفرد بالإلهية لجميع الخلائق (الحى القيوم) أى الحى فى نفسه الذى لا يموت أبداً القيم لغيره ، وكان عمر يقرأ القيام فجميع الموجودات مفتقرة إليه وهو غنى عنها ولا قوام لها بدون أمره كقوله (ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره) وقوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) أى لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه بل هو قائم على كل نفس بما كسبت شهيد على كل شىء لا يغيب عنه شىء ولا يخفى عليه خافية ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم فقوله (لا تأخذه) أى لا تغلبه سنة وهى الوسن والنعاس ولهذا قال ولا نوم لأنه أقوى من السنة وفى الصحيح عن أبى موسى قال : قام فينا رسول الله ﷺ بأربع كلمات فقال « إن الله لا ينام ولا ينبغى له أن ينام يخفض القسط ويرفعه ، يرفع إليه عمل النهار قبل عمل الليل وعمل الليل قبل عمل النهار حجابه النور أو النار لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه» وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر أخبرنى الحكم بن أبان عن عكرمة مولى ابن عباس فى قوله (لا تأخذه سنة ولا نوم) أن موسى عليه السلام سأل الملائكة هل ينام الله عز وجل ؟ فأوحى الله تعالى إلى الملائكة وأمرهم أن يؤرقوه ثلاثا فلا يتركوه ينام ففعلوا ثم أعطوه قارورتين فأمسكهما ثم تركوه وحذروه أن يكسرهما قال فجعل ينعس وهما فى يده فى كل يد واحدة قال فجعل ينعس وينبه وينعس وينبه حتى نعس نعسة فضرب إحداهما بالأخرى فكسرهما . قال معمر إنما هو مثل ضربه الله عز وجل يقول فكذلك السموات والأرض فى يده . وهكذا رواه ابن جرير عن الحسن بن يحيى عن عبد الرزاق فذكره وهو من أخبار بنى إسرائيل وهو مما يعلم أن موسى عليه السلام لا يخفى عليه مثل هذا من أمر الله عز وجل وأنه منزه عنه وأغرب من هذا كله الحديث الذى رواه ابن جرير : حدثنا إسحق بن أبى إسرائيل حدثنا هشام بن يوسف عن أمية بن شبل عن الحكم بن أبان عن عكرمة عن أبى هريرة قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يحكى عن موسى عليه السلام على المنبر قال « وقع فى نفس موسى هل ينام الله ؟ فأرسل إليه ملكا فأرقه ثلاثا ثم أعطاه قارورتين فى كل يد قارورة وأمره أن يحتفظ بهما . قال فجعل ينام وكادت يداه يلتقيان فيستيقظ فيجبس إحداهما على الأخرى حتى نام نومة فاصطفقت يداه فانكسرت القارورتان ـ قال ـ ضرب الله عز وجل مثلا أن الله لو كان ينام لم تستمسك السماء والأرض» وهذا حديث غريب جداً والأظهر أنه إسرائيلى لا مرفوع والله أعلم. وقال ابن أبى حاتم حدثنا أحمد بن القاسم ابن عطية حدثنا أحمد بن عبد الرحمن الدستكى حدثنى أبى عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عن

سعيد بن جبير عن ابن عباس أن بنى إسرائيل قالوا : ياموسى هل ينام ربك ؟ قال اتقوا الله فناداه ربه عزوجل ياموسى سألوك هل ينام ربك فخذ زجاجتين فى يديك فقم الليلة ففعل موسى فلما ذهب من الليل ثلث نعس فوقع لركبتيه ثم انتعش فضبطهما حتى إذا كان آخر الليل نعس فسقطت الزجاجتان فانكسرتا فقال ياموسى لو كنت أنام لسقطت السموات والأرض فهلكت كما هلكت الزجاجتان فى يديك . فأنزل الله عز وجل على نبيه ﷺ آية الكرسى

وقوله (له مافى السموات ومافى الأرض) إخبار بأن الجميع عبيده وفى ملكه وتحت قهره وسلطانه كقوله (إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا * لقد أحصاهم وعدهم عدا * وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً)

وقوله (من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه) كقوله (وكم من ملك فى السموات لاتغنى شفاعتهم شيئا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى) وكقوله (ولا يشفعون إلا لمن ارتضى) وهذا من عظمته وجلاله وكبريائه عز وجل أنه لا يتجاسر أحد على أن يشفع لأحد عنده إلا باذنه له فى الشفاعة كما فى حديث الشفاعة « آتى تحت العرش فأخر ساجداً فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى . ثم يقال ارفع رأسك وقل تسمع واشفع تشفع ـ قال ـ فيحدلى حدا فأدخلهم الجنة »

وقوله (يعلم مابين أيديهم وما خلفهم) دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها كقوله إخباراً عن الملائكة (وما نتنزل إلا بأمر ربك له مابين أيدينا وماخلفنا ومابين ذلك وما كان ربك نسيا)

وقوله (ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء) أى لايطلع أحد من علم الله على شىء إلا بما أعلمه الله عز وجل وأطلعه عليه . ويحتمل أن يكون المراد لا يطلعون على شىء من علم ذاته وصفاته إلا بما أطلعهم الله عليه كقوله (ولا يحيطون به علما)

وقوله (وسع كرسيه السموات والأرض) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا ابن إدريس عن مطرف ابن طريف عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله (وسع كرسيه السموات والأرض) قال علمه وكذا رواه ابن جرير من حديث عبدالله بن إدريس وهشيم كلاهما عن مطرف بن طريف به قال ابن أبى حاتم : وروى عن سعيد بن جبير مثله : ثم قال ابن جرير : وقال آخرون الكرسى موضع القدمين ثم رواه عن أبى موسى والسدى والضحاك ومسلم البطين . وقال شجاع بن مخلد فى تفسيره : أخبرنا أبو عاصم عن سفيان عن عمار الدهبى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : سئل النبى صلى الله عليه وسلم عن قول الله عز وجل (وسع كرسيه السموات والأرض) قال : « كرسيه موضع قدميه والعرش لايقدر قدره إلا الله عزوجل » كذا أورد هذا الحديث الحافظ أبو بكر بن مردويه من طريق شجاع بن مخلد الفلاس فذكره وهو غلط ، وقد رواه وكيع فى تفسيره حدثنا سفيان عن عمار الدهبى عن مسلم البطين عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : الكرسى موضع القدمين والعرش لايقدر أحد قدره . وقد رواه الحاكم فى مستدركه عن أبى العباس محمد بن أحمد المحبوبى عن محمد بن معاذ عن أبى عاصم عن سفيان وهو الثورى باسناده عن ابن عباس موقوفا مثله وقال : صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه . وقد رواه ابن مردويه من طريق الحاكم بن ظهير الفزارى الكوفى وهو متروك عن السدى عن أبيه عن أبى هريرة مرفوعا ولا يصح أيضا . وقال السدى عن أبى مالك : الكرسى تحت العرش . وقال السدى : السموات والأرض فى جوف الكرسى والكرسى بين يدى العرش . وقال الضحاك عن ابن عباس : لو أن السموات السبع والأرضين السبع بسطن ثم وصلن بعضهن إلى بعض ما كن فى سعة الكرسى إلا بمنزلة الحلقة فى المفازة . ورواه ابن جرير وابن أبى حاتم وقال ابن جرير : حدثنى يونس أخبرنى ابن وهب قال : قال ابن زيد : حدثنى أبى قال : قال رسول الله ﷺ . « ماالسموات السبع فى الكرسى إلا كدراهم سبعة ألقيت فى ترس » قال وقال أبو ذر : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « مالكرسى فى العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهرانى فلاة من الأرض »

وقال أبو بكر بن مردويه أخبرنا سليمان بن أحمد أخبرنا عبدالله بن وهيب المقرى أخبرنا محمد بن أبى اليسرى العسقلانى أخبرنا محمد بن عبد الله التميمى عن القاسم بن محمد الثقفى عن أبى إدريس الخولانى عن أبى ذر الغفارى أنه سأل النبى

صلى الله عليه وسلم عن الكرسى فقال رسول الله ﷺ : « والذى نفسى بيده ما السموات السبع والأرضون السبع عند الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة وإن فضل العرش على الكرسى كفضل الفلاة على تلك الحلقة » وقال الحافظ أبو يعلى الموصلى فى مسنده حدثنا زهير حدثنا ابن أبى بكر حدثنا إسرائيل عن أبى إسحق عن عبدالله بن خليفة عن عمر رضى الله عنه قال : أتت امرأة إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت ادع الله أن يدخلنى الجنة قال فعظم الرب تبارك وتعالى وقال « إن كرسيه وسع السموات والأرض وإن له أطيطا كأطيط الرحل الحديد من ثقله » وقد رواه الحافظ البزار فى مسنده المشهور وعبد بن حميد وابن جرير فى تفسيريهما والطبرانى وابن أبى عاصم فى كتابى السنة لهما والحافظ الضياء فى كتابه المختار من حديث أبى إسحق السبيعى عن عبد الله بن خليفة وليس بذاك المشهور وفى سماعه من عمر نظر . ثم منهم من يرويه عنه عن عمر موقوفا ومنهم من يرويه عنه مرسلا ومنهم من يزيد فى متنه زيادة غريبة ومنهم من يحذفها . وأغرب من هذا حديث جبير بن مطعم فى صفة العرش كما رواه أبوداود فى كتابه السنة من سننه والله أعلم . وقد روى ابن مردويه وغيره أحاديث عن بريدة وجابر وغيرهما فى وضع الكرسى يوم القيامة لفصل القضاء والظاهر أن ذلك غير المذكور فى هذه الآية وقد زعم بعض المتكلمين على علم الهيئة من الاسلاميين أن الكرسى عندهم هو الفلك الثامن وهو فلك الثوابت الذى فوقه الفلك التاسع وهو الفلك الأثير ويقال له الأطلس وقد رد ذلك عليهم آخرون وروى ابن جرير من طريق جويبر عن الحسن البصرى أنه كان يقول: الكرسى هو العرش والصحيح أن الكرسى غير العرش والعرش أكبر منه كما دلت على ذلك الآثار والأخبار وقد اعتمد ابن جرير على حديث عبدالله بن خليفة عن عمر فى ذلك وعندى فى صحته نظر والله أعلم

وقوله (ولا يؤوده حفظهما) أى لا يثقله ولا يكترثه حفظ السموات والأرض ومن فيهما ومن بينهما بل ذلك سهل عليه يسير لديه وهو القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على جميع الأشياء فلا يعزب عنه شىء ولا يغيب عنه شىء والأشياء كلها حقيرة بين يديه متواضعة ذليلة صغيرة بالنسبة اليه محتاجة فقيرة ، وهو الغنى الحميد ، الفعال لما يريد الذى لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون ، وهو القاهر لكل شىء الحسيب على كل شىء . الرقيب العلى العظيم لا إله غيره ولا رب سواه ، فقوله (وهو العلى العظيم) كقوله (وهو الكبير المتعال) وهذه الآيات وما فى معناها من الأحاديث الصحاح الأجود فيها طريقة السلف الصالح أمروها[1] كما جاءت من غير تكيف ولا تشبيه

﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (لا إكراه فى الدين) أى لا تكرهوا أحداً على الدخول فى دين الاسلام فانه بين واضح جلى دلائله وبراهينه لا يحتاج إلى أن يكره أحد على الدخول فيه بل من هداه الله للاسلام وشرح صدره ونور بصيرته دخل فيه على بينة ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره فانه لا يفيده الدخول فى الدين مكرها مقسورا وقد ذكروا أن سبب نزول هذه الآية فى قوم من الأنصار وإن كان حكمها عاما وقال ابن جرير : حدثنا ابن يسار حدثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن أبى بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال كانت المرأة تكون مقلاة فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوده فلما أجليت بنو النضير كان فيهم من أبناء الأنصار فقالوا . لا ندع أبناءنا فأنزل الله عز وجل (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) وقد رواه أبو داود والنسائى جميعا عن بندار به ومن وجوه أخر عن شعبة به نحوه وقد رواه ابن أبى حاتم وابن حبان فى صحيحه من حديث شعبة به وهكذا ذكر مجاهد وسعيد بن جبير والشعبى والحسن البصرى وغيرهم أنها نزلت فى ذلك وقال محمد بن إسحق عن محمد بن أبى محمد الجرشى عن زيد ابن ثابت عن عكرمة أو عن سعيد عن ابن عباس قوله (لا إكراه فى الدين) قال : نزلت فى رجل من الأنصار من

(١) فى نسخة الأزهر امرارها إلخ والمعنى عدم تأويلها بآراء الناس بل نؤمن بها مع تنزيه الله تعالى عن الشبه بشىء من خلقه .

بنى سالم بن عوف يقال له الحصينى كان له ابنان نصرانيان وكان هو رجلا مسلما فقال للنبى ﷺ ألا أستكرههما فانهما قد أبيا إلا النصرانية فأنزل الله فيه ذلك رواه ابن جرير وروى السدى نحو ذلك وزاد وكانا قد تنصرا على أيدى تجار قدموا من الشام يحملون زيبيا فلما عزما على الذهاب معهم أراد أبوهما أن يستكرههما وطلب من رسول الله ﷺ أن يبعث فى آثارهما فنزلت هذه الآية وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى حدثنا عمرو بن عوف أخبرنا شريك عن أبى هلال عن أسبق قال . كنت فى دينهم مملوكا نصرانيا لعمر بن الخطاب فكان يعرض على الاسلام فآبى فيقول (لا إكراه فى الدين) ويقول يا أسبق لو أسلمت لاستعنا بك على بعض أمور المسلمين وقد ذهب طائفة كثيرة من العلماء أن هذه محمولة على أهل الكتاب ومن دخل فى دينهم قبل النسخ والتبديل إذا بذلوا الجزية وقال آخرون. بل هى منسوخة بآية القتال وانه يجب أن يدعى جميع الأمم إلى الدخول فى الدين الحنيف دين الاسلام فإن أبى أحد منهم الدخول فيه ولم ينقد له أو يبذل الجزية قوتل حتى يقتل وهذا معنى الاكراه قال الله تعالى (ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون) وقال تعالى (يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) وقال تعالى (يا أيها الذين آمنوا قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أن الله مع المتقين) وفى الصحيح « عجب ربك من قوم يقادون إلى الجنة فى السلاسل ». يعنى الأسارى الذين يقدم بهم بلاد الاسلام فى الوثاق والأغلال والقيود والأكبال ثم بعد ذلك يسلمون وتصلح أعمالهم وسرائرهم فيكونون من أهل الجنة . فأما الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا يحيى عن حميد عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل « أسلم » قال إنى أجدنى كارها قال « وإن كنت كارها » فانه ثلاثى صحيح ولكن ليس من هذا القبيل فانه لم يكرهه النبى صلى الله عليه وسلم على الاسلام بل دعاه اليه فأخبره أن نفسه ليست قابلة له بل هى كارهة فقال له أسلم وإن كنت كارها فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص

وقوله (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لاانفصام لها والله سميع عليم) أى من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله ووحد الله فعبده وحده وشهد أن لا إله إلا هو (فقد استمسك بالعروة الوثقى) أى فقد ثبت فى أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم قال أبو القاسم البغوى . حدثنا أبو روح البلدى حدثنا أبو الأحوص سلام بن سليم عن أبى إسحق عن حسان هو ابن قائد العبسى قال : قال عمر رضى الله عنه ان الجبت السحر والطاغوت الشيطان وإن الشجاعة والجبن غرائز تكون فى الرجال يقاتل الشجاع عمن لا يعرف ويفر الجبان من أمه وإن كرم الرجل دينه، وحسبه خلقه وإن كان فارسيا أو نبطيا. وهكذا رواه ابن جرير وابن أبى حاتم من حديث الثورى عن أبى إسحق عن حسان بن قائد العبسى عن عمر فذكره ومعنى قوله فى الطاغوت إنه الشيطان قوى جدا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية من عبادة الأوثان والتحاكم اليها والاستنصار بها

وقوله (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) أى فقد استمسك من الدين بأقوى سبب وشبه ذلك بالعروة القوية التى لا تنفصم هى فى نفسها محكمة مبرمة قوية وربطها قوى شديد ولهذا قال (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) الآية ، قال مجاهد : العروة الوثقى يعنى الإيمان وقال السدى : هو الاسلام وقال سعيد بن جبير والضحاك يعنى لا إله إلا الله وعن أنس بن مالك العروة الوثقى القرآن وعن سالم بن أبى الجعد قال هو الحب فى الله والبغض فى الله وكل هذه الأقوال صحيحة ولا تنافى بينها وقال معاذ بن جبل فى قوله (لا انفصام لها) دون دخول الجنة وقال مجاهد وسعيد بن جبير (فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها) ثم قرأ (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) وقال الإمام أحمد . أنبأنا إسحق بن يوسف حدثنا ابن عوف عن محمد بن قيس بن عبادة قال . كنت فى المسجد فجاء رجل فى وجهه أثر من خشوع فصلى ركعتين أوجز فيهما فقال القوم هذا رجل من أهل الجنة فلما خرج اتبعته حتى دخل منزله فدخلت معه فحدثته فلما استأنس قلت له إن القوم لما دخلت المسجد قالوا كذا وكذا

قال سبحان الله ما ينبغى لأحد أن يقول مالا يعلم وسأحدثك لم : إنى رأيت رؤيا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه رأيت كأنى فى روضة خضراء ـ قال ابن عون فذكر من خضرتها وسعتها ـ وفى وسطها عمود حديد أسفله فى الأرض وأعلاه فى السماء فى أعلاه عروة فقيل لى اصعد عليه فقلت لا أستطيع فجاءنى منصف ـ قال ابن عون هو الوصيف ـ فرفع ثيابى من خلفى فقال اصعد فصعدت حتى أخذت بالعروة فقال استمسك بالعروة فاستيقظت وإنها لفى يدى فأتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقصصتها عليه فقال « أما الروضة فروضة الاسلام وأما العمود فعمود الاسلام وأما العروة فهى العروة الوثقى أنت على الاسلام حتى تموت » قال وهو عبد الله ابن سلام . أخرجاه فى الصحيحين من حديث عبد الله بن عون فقمت اليه[1] وأخرجه البخارى من وجه آخر عن محمد بن سيرين به

(طريق أخرى وسياق آخر) قال الإمام أحمد : أنبأنا حسن بن موسى وعثمان قالا أنبأنا حماد بن سلمة عن عاصم ابن بهدلة عن المسيب بن رافع عن خرشة بن الحر قال : قدمت المدينة فجلست إلى مشيخة فى مسجد النبى صلى الله عليه وسلم فجاء شيخ يتوكأ على عصا له فقال القوم : من سره أن ينظر إلى رجل من أهل الجنة فلينظر إلى هذا . فقام خلف سارية فصلى ركعتين فقلت له : قال بعض القوم كذا وكذا فقال الجنة لله يدخلها من يشاء وإنى رأيت على عهد رسول الله ﷺ رؤيا كأن رجلا أتانى فقال انطلق فذهبت معه فسلك بى منهجا عظيما فعرضت لى طريق عن يسارى فأردت أن أسلكها فقال : إنك لست من أهلها ثم عرضت لى طريق عن يمينى فسلكتها حتى انتهيت إلى جبل زلق فأخذ بيدى فدحانى فإذا أنا على ذروته فلم أتقار ولم أتماسك فإذا عمود حديد فى ذروته حلقة من ذهب فأخذ بيدى فدحانى حتى أخذت بالعروة فقال : استمسك فقلت نعم فضرب العمود برجله فاستمسك بالعروة فقصصتها على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال « رأيت خيرا أما المنهج العظيم فالمحشر وأما الطريق التى عرضت عن يسارك فطريق أهل النار ولست من أهلها وأما الطريق التى عرضت عن يمينك فطريق أهل الجنة وأما الجبل الزلق فمنزل الشهداء ، وأما العروة التى استمسكت بها فعروة الاسلام فاستمسك بها حتى تموت » قال فانما أرجو أن أكون من أهل الجنة . قال وإذا هو عبد الله بن سلام وهكذا رواه النسائى عن أحمد بن سليمان عن عفان وابن ماجه عن أبى بكر بن أبى شيبة عن الحسن بن موسى الأشيب كلاهما عن حماد بن سلمة به نحوه وأخرجه مسلم فى صحيحه من حديث الأعمش عن سليمان بن مسهر عن خرشة بن الحر الفزارى به

﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ ءَامَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَٰتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَٰتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يهدى من اتبع رضوانه سبل السلام فيخرج عباده المؤمنين من ظلمات الكفر والشك والريب إلى نور الحق الواضح الجلى المبين السهل المنير وأن الكافرين إنما وليهم الشيطان يزين[2] لهم ماهم فيه من الجهالات والضلالات ويخرجونهم ويحيدون بهم عن طريق الحق إلى الكفر والإفك (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) ولهذا وحد تعالى لفظ النور وجمع الظلمات لأن الحق واحد والكفر أجناس كثيرة وكلها باطلة كما قال (وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون) وقال تعالى (وجعل الظلمات والنور) وقال تعالى (عن اليمين وعن الشمال) إلى غير ذلك من الآيات التى فى لفظها إشعار بتفرد الحق وانتشار الباطل وتفرده وتشعبه وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى حدثنا على بن ميسرة حدثنا عبد العزيز بن أبى عثمان عن موسى بن عبيدة عن أيوب بن خالد قال يبعث أهل الأهواء أو قال تبعث أهل الفتن فمن كان هواه الايمان كانت فتنته بيضاء مضيئة ومن كان هواه الكفر كانت فتنته سوداء مظلمة ، ثم قرأ هذه الآية (الله ولى الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون

(١) هذه الجملة المعترضة ليست فى نسخة الأزهر والله أعلم بأصلها (٢) فى نسخة الأزهر : الشياطين تزين الخ .

﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴾

هذا الذى حاج إبراهيم فى ربه هو ملك بابل نمرود بن كنعان بن كوش بن سام بن نوح ويقال نمرود بن فالخ بن عابر بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح والأول قول مجاهد وغيره . قال مجاهد: وملك الدنيا مشارقها ومغاربها أربعة مؤمنان وكافران ، فالمؤمنان سليمان بن داود وذوالقرنين والكافران نمرود وبختنصر والله أعلم ومعنى قوله (ألم تر) أى بقلبك يا محمد (إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) أى وجود ربه وذلك أنه انكر أن يكون ثم إله غيره كما قال بعده فرعون لملئه (ما علمت لكم من إله غيرى) وما حمله على هذا الطغيان والكفر الغليظ والمعاندة الشديدة إلا تجبره وطول مدته فى الملك وذلك انه يقال انه مكث أربعمائة سنة فى ملكه ولهذا قال (أن آتاه الله الملك) وكان طلب من إبراهيم دليلا على وجود الرب الذى يدعو إليه فقال إبراهيم (ربى الذى يحيى ويميت) أى إنما الدليل على وجوده حدوث هذه الأشياء المشاهدة بعد عدمها وعدمها بعد وجودها ، وهذا دليل على وجود الفاعل المختار ضرورة لأنها لم تحدث بنفسها فلا بدلها من موجد أوجدها وهو الرب الذى أدعو إلى عبادته وحده لا شريك له . فعند ذلك قال الحاج وهو النمرود (أنا أحيى وأميت) قال قتادة ومحمد بن إسحق والسدى وغير واحد ، وذلك أنى أوتى بالرجلين قد استحقا القتل فآمر بقتل أحدهما فيقتل وآمر بالعفو عن الآخر فلا يقتل فذلك معنى الإحياء والإماتة والظاهر والله أعلم أنه ما أراد هذا لأنه ليس جوابا لما قال إبراهيم ولا فى معناه لأنه غير مانع لوجود الصانع وإنما أرادأن يدعى لنفسه هذا المقام عناداً ومكابرة ويوهم أنه الفاعل لذلك وأنه هو الذى يحيى ويميت كما اقتدى به فرعون فى قوله (ما علمت لكم من إله غيرى) ولهذا قال له إبراهيم لما ادعى هذه المكابرة (فإن الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب) أى إذا كنت كما تدعى من أنك تحيى وتميت فالذى يحيى ويميت هو الذى يتصرف فى الوجود فى خلق ذواته وتسخير كواكبه وحركاته فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق فان كنت إلها كما ادعيت تحيى وتميت فأت بها من المغرب ؟ فلما علم عجزه وانقطاعه وأنه لا يقدر على المكابرة فى هذا المقام بهت أى أخرس فلا يتكلم وقامت عليه الحجة قال الله تعالى (والله لا يهدى القوم الظالمين) أى لا يلهمهم حجة ولا برهانا بل حجتهم داحضة عند ربهم وعليهم غضب ولهم عذاب شديد وهذا التنزيل على هذا المعنى أحسن مما ذكره كثير من المنطقيين أن عدول إبراهيم عن المقام الأول إلى المقام الثانى انتقال من دليل إلى أوضح منه ومنهم من قد يطلق عبارة تردية[1] وليس كما قالوه بل المقام الأول يكون كالمقدمة للثانى ويبين بطلان ما ادعاه نمرود فى الأول والثانى ولله الحمد والمنة وقد ذكر السدى أن هذه المناظرة كانت بين إبراهيم ونمرود بعد خروج إبراهيم من النار ولم يكن اجتمع بالملك إلا فى ذلك اليوم فجرت بينهما هذه المناظرة وروى عبد الرزاق عن معمر عن زيد بن أسلم أن النمرود كان عنده طعام وكان الناس يغدون إليه للميرة فوفد إبراهيم فى جملة من وفد للميرة فكان بينهما هذه المناظرة ولم يعط إبراهيم من الطعام كما أعطى الناس بل خرج وليس معه شىء من الطعام فلما قرب من أهله عمد إلى كثيب من التراب فملأ منه عدليه وقال أشغل أهلى عنى إذا قدمت عليهم فلما قدم وضع رحاله وجاء فاتكأ فنام فقامت امرأته سارة إلى العدلين فوجدتهما ملآنين طعاما طيبا فعملت طعاما فلما استيقظ إبراهيم وجد الذى قد أصلحوه فقال : أنى لكم هذا ؟ قالت : من الذى جئت به فعلم أنه رزق رزقهم الله عز وجل قال زيد بن أسلم وبعث الله إلى ذلك الملك الجبار ملكا يأمره بالإيمان بالله فأبى عليه ثم دعاه الثانية فأبى ثم الثالثة فأبى وقال : اجمع جموعك وأجمع جموعى فجمع النمرود جيشه وجنوده وقت طلوع الشمس وأرسل الله عليهم بابا من البعوض بحيث لم يروا عين الشمس وسلطها الله عليهم فأكلت لحومهم ودماءهم وتركتهم عظاما بادية ودخلت واحدة منها فى منخرى الملك فمكثت

(١) وفى نسخة الأزهر ردية .

فى منخرى الملك أربعمائة سنة عذبه الله بها فكان يضرب برأسه [1] بالمرازب فى هذه المدة حتى أهلكه الله بها

﴿ أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُحْيِي هَٰذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِّلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

تقدم قوله تعالى (ألم تر إلى الذى حاج إبراهيم فى ربه) وهو فى قوة قوله هل رأيت مثل الذى حاج إبراهيم فى ربه ولهذا عطف عليه بقوله (أو كالذى مر على قرية وهى خاوية على عروشها) اختلفوا فى هذا المار من هو فروى ابن أبى حاتم عن عصام بن داود عن آدم بن أبى إياس عن إسرائيل عن أبى إسحق عن ناجية بن كعب عن على بن أبى طالب أنه قال: هو عزير، ورواه ابن جرير عن ناجية نفسه وحكاه ابن جرير وابن أبى حاتم عن ابن عباس والحسن وقتادة والسدى وسليمان بن بريدة وهذا القول هو المشهور وقال وهب بن منبه وعبد الله بن عبيد هو ارميا بن حلقيا قال محمد بن إسحق عمن لا يتهم عن وهب بن منبه أنه قال : هو اسم الخضر عليه السلام وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى قال سمعت سليمان ابن محمد اليسارى الجارى من أهل الجارى ابن عم مطرف قال سمعت سلمان يقول إن رجلا من أهل الشام يقول إن الذى أماته الله مائة عام ثم بعثه اسمه حزقيل بن بوار وقال مجاهد بن جبر هو رجل من بنى إسرائيل وأما القرية فالمشهور أنها بيت المقدس مر عليها بعد تخريب بختنصر لها وقتل أهلها (وهى خاوية) أى ليس فيها أحد من قولهم خوت الدار تخوى خويا

وقوله (على عروشها) أى ساقطة سقوفها وجدرانها على عرصاتها فوقف متفكراً فيما آل أمرها إليه بعد العمارة العظيمة وقال (أنى يحيى هذه الله بعد موتها ؟) وذلك لما رأى من دثورها وشدة خرابها وبعدها عن العود إلى ما كانت عليه قال الله تعالى (فأماته الله مائة عام ثم بعثه) قال وعمرت البلدة بعد مضى سبعين سنة من موته وتكامل ساكنوها وتراجع بنو إسرائيل إليها فلما بعثه الله عز وجل بعد موته كان أول شىء أحيا الله فيه عينيه لينظر بهما إلى صنع الله فيه كيف يحيى بدنه فلما استقل سويا (قال) الله له أى بواسطة الملك (كم لبثت ؟ قال لبثت يوما أو بعض يوم) قال وذلك أنه مات أول النهار ثم بعثه الله فى آخر النهار فلما رأى الشمس باقية ظن أنها شمس ذلك اليوم فقال (أو بعض يوم قال بل لبثت مائة عام فانظر إلى طعامك وشرابك لم يتسنه) وذلك أنه كان معه فيما ذكر عنب وتين وعصير فوجده كما تقدم لم يتغير منه شىء ، لا العصير استحال ، ولا التين حمض ولا أنتن ولا العنب نقص (وانظر إلى حمارك) أى كيف يحييه الله عز وجل وأنت تنظر (ولنجعلك آية للناس) أى دليلا على المعاد (وانظر إلى العظام كيف ننشزها) أى نرفعها فيركب بعضها على بعض وقد روى الحاكم فى مستدركه من حديث نافع بن أبى نعيم عن إسماعيل بن حكيم عن خارجة بن زيد بن ثابت عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قرأ (كيف ننشزها) بالزاى ثم قال صحيح الإسناد ولم يخرجاه وقرىء (ننشرها) أى نحييها قاله مجاهد (ثم نكسوها لحماً) وقال السدى وغيره تفرقت عظام حماره حوله يمينا ويساراً فنظر إليها وهى تلوح من بياضها فبعث الله ريحا فجمعتها من كل موضع من تلك المحلة ثم ركب كل عظم فى موضعه حتى صار حماراً قائماً من عظام لا لحم عليها ثم كساها الله لحما وعصبا وعروقا وجلدا وبعث الله ملكا فنفخ فى منخرى الحمار فنهق كله بإذن الله عز وجل وذلك كله بمرأى من العزير فعند ذلك لما تبين له هذا كله (قال أعلم أن الله على كل شىء قدير) أى أنا عالم بهذا وقد رأيته عيانا فأنا أعلم أهل زمانى بذلك وقرأ آخرون « قال اعلم » على أنه أمر له بالعلم

(١) برأسه

﴿ وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَىٰ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي قَالَ فَخُذْ أَرْبَعَةً مِّنَ الطَّيْرِ فَصُرْهُنَّ إِلَيْكَ ثُمَّ اجْعَلْ عَلَىٰ كُلِّ جَبَلٍ مِّنْهُنَّ جُزْءًا ثُمَّ ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا وَاعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾

ذكروا لسؤال إبراهيم عليه السلام أسبابا منها أنه لما قال لنمرود (ربى الذى يحيي ويميت) أحب أن يترقى من علم اليقين بذلك إلى عين اليقين وأن يرى ذلك مشاهدة فقال (رب أرنى كيف تحيي الموتى . قال أو لم تؤمن . قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) فأما الحديث الذى رواه البخارى عند هذه الآية حدثنا أحمد بن صالح حدثنا ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب عن أبى سلمة وسعيد عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ « نحن أحق بالشك من إبراهيم إذ قال رب أرنى كيف تحيي الموتى قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي » وكذا رواه مسلم عن حرملة بن يحيى عن وهب به فليس المراد ههنا بالشك ماقد يفهمه من لاعلم عنده بلا خلاف وقد أجيب عن هذا الحديث بأجوبة أحدها (١)

وقوله (قال فخذ أربعة من الطير فصرهن إليك) اختلف المفسرون فى هذه الأربعة ماهى وإن كان لا طائل تحت تعيينها إذ لو كان فى ذلك مهم لنص عليه القرآن فروى عن ابن عباس أنه قال هى الغرنوق والطاوس والديك والحمامة وعنه أيضاً أنه أخذ وزاً ورألا وهو فرخ النعام وديكا وطاوسا وقال مجاهد وعكرمة كانت حمامة وديكا وطلوسا وغرابا وقوله (فصرهن إليك) أى وقطعهن قاله ابن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير وأبو مالك وأبو الأسود الدؤلى ووهب ابن منبه والحسن والسدى وغيرهم وقال العوفى عن ابن عباس (فصرهن إليك) أوثقهن ، فلما أوثقهن ذبحهن ثم جعل على كل جبل منهن جزءاً فذكروا أنه عمد إلى أربعة من الطير فذبحهن ثم قطعهن ونتف ريشهن ومزقهن وخلط بعضهن ببعض ثم جزأهن أجزاء وجعل على كل جبل منهن جزءاً قيل أربعة أجبل وقيل سبعة قال ابن عباس : وأخذ رءوسهن بيده ثم أمره الله عزوجل أن يدعوهن فدعاهن كما أمره الله عز وجل فجعل ينظر إلى الريش يطير إلى الريش والدم إلى الدم واللحم إلى اللحم والأجزاء من كل طائر يتصل بعضها إلى بعض حتى قام كل طائر على حدته وأتينه يمشين سعياً ليكون أبلغ له فى الرؤية التى سألها وجعل كل طائر يجىء ليأخذ رأسه الذى فى يد إبراهيم عليه السلام فإذا قدم له غير رأسه يأباه فإذا قدم اليه رأسه تركب مع بقية جسده بحول الله وقوته ولهذا قال (واعلم أن الله عزيز حكيم) أى عزيز لا يغلبه شىء ولا يمتنع من شىء وما شاء كان بلا ممانع لأنه القاهر لكل شىء حكيم فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدره قال عبد الرزاق : أخبرنا معمر عن أيوب فى قوله (ولكن ليطمئن قلبي) قال : قال ابن عباس . مافى القرآن آية أرجى

(١) هنا بياض بالنسخ التى بأيدينا ، ونذكر ماقاله البغوى إتماما للفائدة . قال . حكى محمد بن إسحق بن خزيمة عن أبى إبراهيم إسماعيل بن يحيى المزنى أنه قال على هذا الحديث لم يشك النبى ﷺ ولا إبراهيم فى أن الله قادر على أن يحيى الموتى وإنما شكا فى أنه هل يجيبهما إلى ماسألا . وقال أبو سليمان الخطابى ليس فى قوله نحن أحق بالشك من إبراهيم اعتراف بالشك على نفسه ولا على إبراهيم لكن فيه نفى الشك عنهما يقول إذا لم أشك أنا فى قدرة الله تعالى على إحياء الموتى فإبراهيم أولى بأن لا يشك وقال ذلك على سبيل التواضع والهضم من النفس وكذلك قوله «لو لبثت فى السجن طول مالبث يوسف لأجبت الداعى» . وفيه الاعلام أن المسأله من إبراهيم عليه السلام لم تعرض من جهة الشك ولكن من قبل زيادة العلم بالعيان فإن العيان يفيد من المعرفة والطمأنينة مالا يفيده الاستدلال ، وقيل لما نزلت هذه الآية قال قوم شك إبراهيم ولم يشك نبينا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا القول تواضعا منه وتقديما لإبراهيم على نفسه اهـ

عندى منها وقال ابن جرير : حدثنى محمد بن المثنى حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة سمعت زيد بن على يحدث عن رجل عن سعيد بن المسيب قال : اتفق عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص أن يجتمعا قال : ونحن شبيبة . فقال أحدهما لصاحبه أى آية فى كتاب الله أرجى عندك لهذه الأمة فقال عبد الله بن عمرو قول الله تعالى (قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) الآية فقال ابن عباس أما إن كنت تقول هذا فأنا أقول أرجى منها لهذه الأمة قول إبراهيم (رب أرنى كيف تحيى الموتى ؟ قال أولم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبى) وقال ابن أبى حاتم : أخبرنا أبى حدثنا عبد الله بن صالح كاتب الليث حدثنى محمد بن أبى سلمة عن عمرو حدثنى بن المنكدر أنه قال : التقى عبد الله بن عباس وعبد الله بن عمرو بن العاص فقال ابن عباس لابن عمرو بن العاص أى آية فى القرآن أرجى عندك ، فقال عبد الله بن عمرو : قول الله عز وجل (قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا) الآية فقال ابن عباس : لكن أنا أقول قول الله عز وجل (وإذ قال إبراهيم رب أرنى كيف تحيى الموتى قال أولم تؤمن قال بلى) فرضى من إبراهيم قوله (بلى) قال فهذا لما يعترض فى النفوس ويوسوس به الشيطان وهكذا رواه الحاكم فى المستدرك عن أبى عبدالله محمد بن يعقوب بن الأحزم عن إبراهيم بن عبدالله السعدى عن بشر بن عمر الزهرانى عن عبد العزيز بن أبى سلمة باسناده مثله ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه

﴿ مَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّاْئَةُ حَبَّةٍ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾

هذا مثل ضربه الله تعالى لتضعيف الثواب لمن أنفق فى سبيله وابتغاء مرضاته وأن الحسنة تضاعف بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فقال (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قال سعيد بن جبير يعنى فى طاعة الله وقال مكحول يعنى به الانفاق فى الجهاد من رباط الخيل وإعداد السلاح وغير ذلك وقال شبيب بن بشر عن عكرمة عن ابن عباس الجهاد والحج يضعف الدرهم فيهما إلى سبعمائة ضعف ولهذا قال تعالى (كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة) وهذا المثل أبلغ فى النفوس من ذكر عدد السبعمائة فإن هذا فيه إشارة إلى أن الأعمال الصالحة ينميها الله عز وجل لأصحابها كما ينمى الزرع لمن بذره فى الأرض الطيبة وقد وردت السنة بتضعيف الحسنة إلى سبعمائة ضعف قال الإمام أحمد : حدثنا زياد بن الربيع أبو خداش حدثنا واصل مولى ابن عيينة عن بشار بن أبى سيف الجرمى عن عياض ابن غطيف قال : دخلنا على أبى عبيدة نعوده من شكوى أصابه بجنبه وامرأته تحيفة قاعدة عند رأسه قلنا كيف بات أبو عبيدة . قالت : والله لقد بات بأجر قال أبو عبيدة مابت بأجر وكان مقبلا بوجهه على الحائط فأقبل على القوم بوجهه وقال ألا تسألونى عما قلت . قالوا ما أعجبنا ماقلت فنسألك عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أنفق نفقة فاضلة فى سبيل الله فسبعمائة ومن أنفق على نفسه وأهله أوعاد مريضا أو ماز أذى فالحسنة بعشر أمثالها والصوم جنة مالم يخرقها ومن ابتلاه الله عز وجل ببلاء فى جسده فهوله حطة » وقد روى النسائى فى الصوم بعضه من حديث واصل به ومن وجه آخر موقوفا

(حديث آخر) قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سليمان سمعت أبا عمرو الشيبانى عن ابن مسعود أن رجلا تصدق بناقة مخطومة فى سبيل الله فقال رسول الله ﷺ « لتأتين يوم القيامة بسبعمائة ناقة مخطومة » ورواه مسلم والنسائى من حديث سليمان بن مهران عن الأعمش به ولفظ مسلم جاء رجل بناقة مخطومة فقال يارسول الله هذه فى سبيل الله فقال « لك بها يوم القيامة سبعمائة ناقة »

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا عمرو بن مجمع أبو المنذر الكندى أخبرنا إبراهيم الهجرى عن أبى الأحوص عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله جعل حسنة ابن آدم إلى عشر أمثالها إلى سبعمائة

ضعف إلا الصوم والصوم لى وأنا أجزى به وللصائم فرحتان فرحة عند إفطاره وفرحة يوم القيامة ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك »

(حديث آخر) قال أحمد أخبرنا وكيع أخبرنا الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ « كل عمل ابن آدم يضاعف الحسنة بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلى ماشاء الله يقول الله إلا الصوم فانه لى وأنا أجزى به يدع طعامه وشرابه من أجلى ، وللصائم فرحتان فرحة عند فطره وفرحة عند لقاء ربه ، ولخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك ، الصوم جنة، الصوم جنة » وكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى سعيد الأشج كلاهما عن وكيع به

(حديث آخر) قال أحمد حدثنا حسين بن على عن زائدة عن الدكين عن بشر بن عميلة عن حريم بن وائل قال: قال رسول الله ﷺ « من أنفق نفقة فى سبيل الله تضاعف بسبعمائة (١) ضعف »

(حديث آخر) قال أبو داود أنبأنا محمد بن عمرو بن السرح حدثنا ابن وهب عن يحيى بن أيوب وسعيد بن أبى أيوب عن زبان بن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه قال : قال رسول الله ﷺ « إن الصلاة والصيام والذكر يضاعف على النفقة فى سبيل الله بسبعمائة ضعف (٢) »

(حديث آخر) قال ابن أبى حاتم : أنبأنا أبى حدثنا هارون بن عبد الله بن مروان حدثنا ابن أبى فديك عن الخليل ابن عبد الله عن الحسن عن عمران بن حصين عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « من أرسل بنفقة فى سبيل وأقام فى بيته فله بكل درهم سبعمائة درهم يوم القيامة ومن غزا فى سبيل الله وأنفق فى جهة ذلك فله بكل درهم سبعمائة ألف درهم » ثم تلا هذه الآية (والله يضاعف لمن يشاء) وهذا حديث غريب وقد تقدم حديث أبى عثمان النهدى عن أبى هريرة فى تضعيف الحسنة إلى ألفى ألف حسنة عند قوله (من الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة) الآية

(حديث آخر) قال ابن مردويه : حدثنا عبد الله بن عبيد الله بن العسكرى البزار أخبرنا الحسن بن على بن شبيب أخبرنا محمود بن خالد الدمشقى أخبرنا أبى عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر لما نزلت هذه الآية (مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله) قال النبى ﷺ « رب زد أمتى » قال فأنزل الله (من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا) قال « رب زد أمتى » قال فأنزل الله (إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب) وقد رواه أبو حاتم وابن حبان فى صحيحه عن حاجب بن اركين عن أبى عمر حفص بن عمر بن عبد العزيز المقرى عن أبى إسماعيل المؤدب عن عيسى بن المسيب عن نافع عن ابن عمر فذكره وقوله ههنا (والله يضاعف لمن يشاء) أى بحسب إخلاصه فى عمله (والله واسع عليم) أى فضله واسع كثير أكثر من خلقه عليم بمن يستحق ومن لا يستحق سبحانه وبحمده

﴿ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلَا أَذًى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ * قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ * يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالْأَذَىٰ كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴾

يمدح تبارك وتعالى الذين ينفقون فى سبيله ثم لا يتبعون ما أنفقوا من الخيرات والصدقات منا على من أعطوه فلا يمنون به على أحد ولا يمنون به لا بقول ولا فعل

(١) فى نسخة الأزهر : سبعمائة ضعف (٢) سبعمائة

وقوله (ولاأذى) أى لا يفعلون مع من أحسنوا إليه مكروها يحبطون به ما سلف من الإحسان ثم وعدهم الله تعالى الجزاء الجزيل على ذلك فقال (لهم أجرهم عند ربهم) أى ثوابهم على الله لا على أحد سواه (ولا خوف عليهم) أى فيما يستقبلونه من أهوال يوم القيامة (ولا هم يحزنون) أى على ما خلفوه من الأولاد ولا مافاتهم من الحياة الدنيا وزهرتها لا يأسفون عليها لأنهم قد صاروا إلى ماهو خير لهم من ذلك

ثم قال تعالى (قول معروف) أى من كلمة طيبة ودعاء لمسلم (ومغفرة) أى عفو وغفر عن ظلم قولى أو فعلى (خير من صدقة يتبعها أذى) قال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا ابن فضيل قال : قرأت على معقل بن عبد الله عن عمرو ابن دينار قال : بلغنا أن رسول الله ﷺ قال مامن صدقة أحب إلى الله من قول معروف الم تسمع قوله (قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غنى) عن خلقه (حليم) أى يحلم ويغفر ويصفح ويتجاوز عنهم وقد وردت الأحاديث بالنهى عن المن فى الصدقة ففى صحيح مسلم من حديث شعبة عن الأعمش عن سليمان بن «مسهر عن خرشة ابن الحر عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولاينظر إليهم ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : المنان بما أعطى والمسبل إزاره والمنفق سلعته بالحلف الكاذب » وقال ابن مردويه : حدثنا أحمد بن عثمان بن يحيى أخبرنا عثمان بن محمد الدورى أخبرنا هشيم بن خارجة أخبرنا سليمان بن عقبة عن يونس بن ميسرة عن أبى إدريس عن أبى الدرداء عن النبى ﷺ قال « لا يدخل الجنة عاق ولا منان ولا مدمن خمر ولا مكذب بقدر » وروى أحمد وابن ماجه من حديث يونس بن ميسرة نحوه ثم روى ابن مردويه وابن حبان والحاكم فى مستدركه والنسائى من حديث عبد الله بن يسار الأعرج عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ « ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة : العاق لوالديه ومدمن الخمر والمنان بما أعطى» وقد روى النسائى عن مالك بن سعد عن عمه روح بن عبادة عن عتاب بن بشير عن خصيف الجزارى عن مجاهد عن ابن عباس عن النبى ﷺ قال « لا يدخل الجنة مدمن خمر ولا عاق لوالديه ولا منان » وقد رواه ابن أبى حاتم عن الحسن بن المنهال عن محمد بن عبد الله بن عصار الموصلى عن عتاب عن خصيف عن مجاهد عن ابن عباس ورواه النسائى من حديث عبد الكريم بن مالك الحورى عن مجاهد قوله وقد روى عن مجاهد عن أبى سعيد وعن مجاهد عن أبى هريرة نحوه ولهذا قال الله تعالى (ياأيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى) فأخبر أن الصدقة تبطل بما يتبعها من المن والأذى فما بقى ثواب الصدقة بخطيئة المن والأذى ثم قال تعالى (كالذى ينفق ماله رئاء الناس) أى لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كما تبطل صدقة من راءى بها الناس فأظهر لهم أنه يريد وجه الله وإنما قصده مدح الناس له أو شهرته بالصفات الجميلة ليشكر بين الناس أو يقال إنه كريم ونحو ذلك من المقاصد الدنيوية مع قطع نظره عن معاملة الله تعالى وابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ولهذا قال (ولا يؤمن بالله واليوم الآخر) ثم ضرب تعالى مثل ذلك المرائى بانفاقه قال الضحاك : والذى يتبع نفقته منا أو أذى فقال (فمثله كمثل صفوان) وهو جمع صفوانة فمنهم من يقول الصفوان يستعمل مفرداً أيضاً وهو الصفا وهو الصخر الأملس (عليه تراب فأصابه وابل) وهو المطر الشديد (فتركه صلداً) أى فترك الوابل ذلك الصفوان صلداً أى أملس يابساً أى لا شىء عليه من ذلك التراب بل قد ذهب كله أى وكذلك أعمال المرائين تذهب وتضمحل عند الله وإن ظهر لهم أعمال فيما يرى الناس كالتراب ولهذا قال (لايقدرون على شىء مما كسبوا والله لا يهدى القوم الكافرين)

﴿ وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴾

وهذا مثل المؤمنين المنفقين أموالهم ابتغاء مرضات الله عنهم فى ذلك (وتثبيتاً من أنفسهم) أى وهم متحققون ومتثبتون أن الله سيجزيهم على ذلك أوفر الجزاء ونظير هذا فى معنى قوله عليه السلام فى الحديث الصحيح المتفق على صحته « من صام رمضان إيمانا واحتسابا » أى يؤمن أن الله شرعه ويحتسب عند الله ثوابه قال الشعبى : (وتثبيتاً

من أنفسهم) أى تصديقاً ويقيناً وكذا قال قتادة وأبو صالح وابن زيد واختاره ابن جرير وقال مجاهد والحسن أى يتثبتون أين يضعون صدقاتهم

وقوله (كمثل جنة بربوة) أى كمثل بستان بربوة وهو عند الجمهور المكان المرتفع من الأرض وزاد ابن عباس والضحاك وتجرى فيه الأنهار . قال ابن جرير رحمه الله . وفى الربوة ثلاث لغات هن ثلاث قراءات بضم الراء وبها قرأ عامة أهل المدينة والحجاز والعراق وفتحها وهى قراءة بعض أهل الشام والكوفة ويقال انها لغة تميم وكسر الراء ويذكر أنها قراءة ابن عباس

وقوله (أصابها وابل) وهو المطر الشديد كما تقدم فآتت (أكلها) أى ثمرتها (ضعفين) أى بالنسبة إلى غيرها من الجنان (فان لم يصبها وابل فطل) قال الضحاك هو الرذاذ وهو اللين من المطر أى هذه الجنة بهذه الربوة لا تمحل أبداً لأنها إن لم يصبها وابل فطل وأيا ما كان فهو كفايتها وكذلك عمل المؤمن لا يبور أبداً بل يتقبله الله ويكثره وينميه كل عامل بحسبه ولهذا قال (والله بما تعملون بصير) أى لا يخفى عليه من أعمال عباده شىء

﴿ أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴾

قال البخارى عند تفسير هذه الآية : حدثنا إبراهيم بن موسى حدثنا هشام هو ابن يوسف عن ابن جريج سمعت عبد الله بن أبى مليكة يحدث عن ابن عباس وسمعت أخاه أبا بكر بن أبى مليكة يحدث عن عبيد بن عمير قال : قال عمر ابن الخطاب يوماً لأصحاب النبى صلى الله عليه وسلم فيمن ترون هذه الآية نزلت ؟ (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب) قالوا : الله أعلم فغضب عمر فقال : قولوا نعلم أولا نعلم ، فقال ابن عباس : فى نفسى منها شىء يا أمير المؤمنين فقال عمر : يا ابن أخى قل ولا تحقر نفسك فقال ابن عباس رضى الله عنهما ضربت مثلا بعمل قال عمر : أى عمل ؟ قال ابن عباس لرجل غنى يعمل بطاعة الله ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصى حتى أغرق أعماله ثم رواه البخارى عن الحسن بن محمد الزعفرانى عن حجاج بن محمد الأعور عن ابن جريج فذكره وهو من أفراد البخارى رحمه الله وفى هذا الحديث كفاية فى تفسير هذه الآية وتبيين ما فيها من المثل بعمل من أحسن العمل أولا ثم بعد ذلك انعكس سيره فبدل الحسنات بالسيئات عياذا بالله من ذلك فأبطل بعمله الثانى ما أسلفه فيما تقدم من الصالح واحتاج إلى شىء من الأول فى أضيق الأحوال فلم يحصل منه شىء وخانه أحوج ما كان اليه ولهذا قال تعالى (وأصابه الكبر وله ذرية ضعفاء فأصابها إعصار) وهو الريح الشديد (فيه نار فاحترقت) أى أحرق ثمارها وأباد أشجارها فأى حال يكون حاله ؟ وقد روى ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس قال . ضرب الله مثلا حسنا وكل أمثاله حسن قال (أيود أحدكم أن تكون له جنة من نخيل وأعناب تجرى من تحتها الأنهار له فيها من كل الثمرات) يقول صنعه فى شبيبته (وأصابه الكبر) وولده وذريته ضعاف عند آخر عمره فجاءه إعصار فيه نار فاحترق بستانه فلم يكن عنده قوة أن يغرس مثله ولم يكن عند نسله خير يعودون به عليه وكذلك الكافر يكون يوم القيامة إذا رد إلى الله عزوجل ليس له خير فيستعتب كما ليس لهذا قوة فيغرس مثل بستانه ولا يجده قدم لنفسه خيرا يعود عليه كما لم يغن عن هذا ولده وحرم أجره عند أفقر ما كان اليه كما حرم هذا جنته عند ما كان أفقر ما كان اليها عند كبره وضعف ذريته . وهكذا روى الحاكم فى مستدركه أن رسول الله ﷺ كان يقول فى دعائه « اللهم اجعل أوسع رزقك على عند كبرسنى وانقضاء عمرى» ولهذا قال تعالى (كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تتفكرون) أى تعتبرون وتفهمون الأمثال والمعانى وتنزلونها على المراد منها كما قال تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّا أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلَّا أَن تُغْمِضُوا فِيهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدُكُم مَّغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ * يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾

يأمر تعالى عباده المؤمنين بالانفاق والمراد به الصدقة ههنا قاله ابن عباس من طيبات مارزقهم من الأموال التى اكتسبوها قال مجاهد : يعنى التجارة بتيسيره إياهالهم وقال على والسدى (من طيبات ما كسبتم) يعنى الذهب والفضة ومن الثمار والزروع التى أنبتهالهم من الأرض قال ابن عباس أمرهم بالانفاق من أطيب المال وأجوده وأنفسه ونهاهم عن التصدق برذالة المال ودنيئه وهو خبيثه فان الله طيب لايقبل إلا طيباً ولهذا قال (ولا تيمموا الخبيث) أى تقصدوا الخبيث (منه تنفقون ولستم بآخذيه) أى لو أعطيتموه ما أخذتموه إلا أن تتغاضوا فيه فالله أغنى عنه منكم فلا تجعلوا لله ما تكرهون وقيل معناه (ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون) أى لاتعدلوا عن المال الحلال وتقصدوا إلى الحرام فتجعلوا نفقتكم منه . ويذكر ههنا الحديث الذى رواه الامام أحمد حدثنا محمد بن عبيد حدثنا إسحق عن الصباح بن محمد عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله قسم بينكم أخلاقكم كما قسم بينكم أرزاقكم وإن الله يعطى الدنيا من يحب ومن لايحب ولايعطى الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه والذى نفسى بيده لايسلم عبد حتى يسلم قلبه ولسانه ولايؤمن حتى يأمن جاره بوائقه ـ قالوا : وما بوائقه يانبى الله ؟ قال : «غشه وظلمه ولايكسب عبد مالا من حرام فينفق منه فيبارك له فيه ولا يتصدق به فيقبل منه ولايتركه خلف ظهره إلا كان زاده إلى النار ، إن الله لايمحو السيء بالسيء ولكن يمحو السيء بالحسن إن الخبيث لايمحو الخبيث » والصحيح القول الأول قال ابن جرير رحمه الله : حدثنا الحسين بن عمر العبقرى حدثنى أبى عن أسباط عن السدى عن عدى بن ثابت عن البراء بن عازب رضى الله عنه فى قول الله (يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) الآية قال . نزلت فى الأنصار كانت الأنصار إذا كانت أيام جذاذ النخل أخرجت من حيطانها البسر فعلقوه على حبل بين الاسطوانتين فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيأكل فقراء المهاجرين منه فيعمد الرجل منهم إلى الحشف فيدخله مع أقناء البسر يظن أن ذلك جائز فأنزل الله فيمن فعل ذلك (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) ثم رواه ابن جرير وابن ماجه وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من طريق السدى عن عدى بن ثابت عن البراء بنحوه وقال الحاكم صحيح على شرط البخارى ومسلم ولم يخرجاه . وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج حدثنا عبيد الله عن اسرائيل عن السدى عن أبى مالك عن البراء رضى الله عنه (ولا تيمموا الخبيث منهم تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) قال : نزلت فينا كنا أصحاب نخل فكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثرته وقلته فيأتى الرجل بالقنو فيعلقه فى المسجد وكان أهل الصفة ليس لهم طعام فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه فسقط منه البسر والتمر فيأكل وكان أناس ممن لايرغبون فى الخير يأتى بالقنو الحشف والشيص فيأتى بالقنو قد انكسر فيعلقه فنزلت (ولاتيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) قال لو أن أحدكم أهدى له مثل ما أعطى ما أخذه إلا على اغماض وحياء فكنا بعد ذلك يجىء الرجل منا بصالح ماعنده وكذا رواه الترمذى عن عبد الله بن عبد الرحمن الدارمى عن عبيد الله هو ابن موسى العبسى عن إسرائيل عن السدى وهو إسماعيل بن عبد الرحمن عن أبى مالك الغفارى واسمه غزوان عن البراء فذكر نحوه ثم قال وهذا حديث حسن غريب وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا أبو الوليد حدثنا سليمان بن كثير عن الزهرى عن أبى أمامة بن سهل بن حنيف عن أبيه أن رسول الله صلى الله

عليه وسلم نهى عن لونين من التمر الجعرور والحبيق[1] وكان الناس يتيممون شرار ثمارهم ثم يخرجونها فى الصدقة فنزلت (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) ورواه أبو داود من حديث سفيان بن حسين عن الزهرى ثم قال أسنده أبو الوليد عن سليمان بن كثير عن الزهرى ولفظه نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الجعرور ولون الحبيق أن يؤخذ فى الصدقة وقد روى النسائى هذا الحديث من طريق عبد الجليل بن حميد اليحصبى عن الزهرى عن أبى أمامة ولم يقل عن أبيه فذكر نحوه وكذا رواه ابن وهب عن عبد الجليل وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا يحيى بن المغيرة حدثنا جرير عن عطاء بن السائب عن عبد الله بن مغفل فى هذه الآية (ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون) قال كسب المسلم لا يكون خبيثا ولكن لا يصدق بالخشف والدرهم الزيف ومالا خير فيه وقال الإمام أحمد حدثنا أبو سعيد حدثنا حماد بن سلمة عن حماد هو ابن سليمان عن إبراهيم عن الأسود عن عائشة قالت أتى رسول الله ﷺ بضب فلم يأكله ولم ينه عنه قلت : يا رسول الله نطعمه المساكين قال « لا تطعموهم مما لا تأكلون » ثم رواه عن عفان عن حماد بن سلمة به فقلت يا رسول الله ألا أطعمه المساكين ؟ قال « لا تطعموهم مما لا تأكلون » وقال الثورى : عن السدى عن أبى مالك عن البراء (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) يقول لو كان لرجل على رجل[2] فأعطاه ذلك لم يأخذه إلا أن يرى أنه قد نقصه من حقه ؟ رواه ابن جرير وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه) يقول لو كان لكم على أحد حق فجاءكم بحق دون حقكم لم تأخذوه بحساب الجيد حتى تنقصوه قال فذلك قوله (إلا أن تغمضوا فيه) فكيف ترضون لى مالا ترضون لأنفسكم وحق عليكم من أطيب أموالكم وأنفسه ؟ رواه ابن أبى حاتم وابن جرير وزاد وهو قوله (لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون) ثم روى من طريق العوفى وغيره عن ابن عباس نحو ذلك وكذا ذكره غير واحد

وقوله (واعلموا أن الله غنى حميد) أى وإن أمركم بالصدقات وبالطيب منها فهو غنى عنها وما ذاك إلا أن يساوى الغنى الفقير كقوله (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم) وهو غنى عن جميع خلقه وجميع خلقه فقراء إليه وهو واسع الفضل لا ينفد ما لديه فمن تصدق بصدقة من كسب طيب فليعلم أن الله غنى واسع العطاء كريم جواد وسيجزيه بها ويضاعفها له أضعافا كثيرة من يقرض غير عديم ولا ظلوم وهو الحميد أى المحمود فى جميع أفعاله وأقواله وشرعه وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه

وقوله (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا هناد بن السرى حدثنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الهمدانى عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ « إن للشيطان لمة بابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق وأما لمة الملك فايعاد بالخير وتصديق بالحق فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان » ثم قرأ (الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا) الآية وهكذا رواه الترمذى والنسائى فى كتابى التفسير من سننهما جميعا عن هناد بن السرى وأخرجه ابن حبان فى صحيحه عن أبى يعلى الموصلى عن هناد به وقال الترمذى حسن غريب وهو حديث أبى الأحوص يعنى سلام بن سليم لا نعرفه مرفوعا إلا من حديثه ، كذا قال وقد رواه أبو بكر بن مردويه فى تفسيره عن محمد بن أحمد عن محمد بن عبد الله بن مسعود مرفوعا نحوه ولكن رواه مسعر عن عطاء بن السائب عن أبى الأحوص عوف بن مالك بن نضلة عن ابن مسعود فجعله من قوله والله أعلم ، ومعنى قوله تعالى (الشيطان يعدكم الفقر) أى يخوفكم الفقر لتمسكوا ما بأيديكم فلا تنفقوه فى مرضاة الله (ويأمركم بالفحشاء) أى مع نهيه إياكم عن الانفاق خشية الاملاق ، يأمركم بالمعاصى والمآثم والمحارم ومخالفة الخلاق قال تعالى (والله يعدكم مغفرة منه) أى فى مقابلة ما أمركم الشيطان بالفحشاء (وفضلا) أى فى مقابلة ما خوفكم الشيطان من الفقر (والله واسع عليم)

(١) الجعرور بضم الجيم . والحبيق بضم المهملة : نوعان من الدقل وهو بالتحريك : التمر الردىء اليابس (٢) كذا والمراد حق .

وقوله (يؤتى الحكمة من يشاء) قال على بن أبى طلحة عن ابن عباس يعنى المعرفة بالقرآن ناسخه ومنسوخه ومحكمه ومتشابهه ومقدمه ومؤخره وحلاله وحرامه وأمثاله وروى جويبر عن الضحاك عن ابن عباس مرفوعا « الحكمة القرآن » يعنى تفسيره قال ابن عباس فانه قد قرأه البر والفاجر رواه ابن مردويه وقال ابن أبى نجيح عن مجاهد يعنى بالحكمة الاصابة فى القول وقال ليث بن أبى سليم عن مجاهد (يؤتى الحكمة من يشاء) ليست بالنبوة ولكنه العلم والفقه والقرآن وقال أبو العالية . الحكمة خشية الله فان خشية الله رأس كل حكمة وقد روى ابن مردويه من طريق بقية عن عثمان بن زفر الجهنى عن أبى عمار الأسدى عن ابن مسعود مرفوعا « رأس الحكمة مخافة الله » وقال أبو العالية فى رواية عنه الحكمة الكتاب والفهم وقال إبراهيم النخعى : الحكمة الفهم وقال أبو مالك: الحكمة السنة وقال ابن وهب عن مالك قال زيد بن أسلم : الحكمة العقل قال مالك: وإنه ليقع فى قلبى أن الحكمة هو الفقه فى دين الله وأمر يدخله الله فى القلوب من رحمته وفضله ومما يبين ذلك أنك تجد الرجل عاقلا فى أمر الدنيا إذا نظر فيها وتجد آخر ضعيفا فى أمر دنياه عالما بأمر دينه بصيرا به يؤتيه الله إياه ويحرمه هذا فالحكمة الفقه فى دين الله وقال السدى الحكمة النبوة . والصحيح أن الحكمة كما قاله الجمهور لا تختص بالنبوة بل هى أعم منها وأعلاها النبوة والرسالة أخص ولكن لاتباع الأنبياء حظ من الخير على سبيل التبع كما جاء فى بعض الأحاديث « من حفظ القرآن فقد أدرجت النبوة بين كتفيه غير أنه لا يوحى إليه » رواه وكيع بن الجراح فى تفسيره عن إسماعيل بن رافع عن رجل لم يسمه عن عبدالله بن عمرو قوله وقال الإمام أحمد : حدثنا وكيع ويزيد قالا : حدثنا إسماعيل يعنى بن أبى خالد عن قيس وهو ابن أبى حازم عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول « لاحسد إلا فى اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته فى الحق ورجل آتاه الله حكمة(١) فهو يقضى بها ويعلمها » وهكذا رواه البخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه من طرق متعددة عن إسماعيل بن أبى خالد به

وقوله (وما يذكر إلا أولو الألباب) أى وما ينتفع بالموعظة والتذكار إلا من له لب وعقل يعنى به الخطاب ومعنى الكلام

﴿ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن نَّفَقَةٍ أَوْ نَذَرْتُم مِّن نَّذْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُهُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ * إِن تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِيَ وَإِن تُخْفُوهَا وَتُؤْتُوهَا الْفُقَرَاءَ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَيُكَفِّرُ عَنكُم مِّن سَيِّئَاتِكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾

يخبر تعالى بأنه عالم بجميع ما يفعله العاملون من الخيرات من النفقات والمنذورات وتضمن ذلك مجازاته على ذلك أوفر الجزاء للعاملين لذلك ابتغاء وجهه ورجاء موعوده ، وتوعد من لا يعمل بطاعته بل خالف أمره وكذب خبره وعبد معه غيره فقال (وما للظالمين من أنصار) أى يوم القيامة ينقذونهم من عذاب الله ونقمته

وقوله (إن تبدوا الصدقات فنعما هى) أى إن أظهرتموها فنعم شىء هى

وقوله (وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) فيه دلالة على أن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها لأنه أبعد عن الرياء إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة من اقتداء الناس به فيكون أفضل من هذه الحيثية وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الجاهر بالقرآن كالجاهر بالصدقة والمسر بالقرآن كالمسر بالصدقة » والأصل أن الإسرار أفضل لهذه الآية . ولما ثبت فى الصحيحين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « سبعة يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : إمام عادل ، وشاب نشأ فى عبادة الله ، ورجلان تحابا فى الله اجتمعا عليه وتفرقا عليه : ورجل قلبه معلق بالمسجد إذا خرج منه حتى يرجع إليه ، ورجل ذكر الله خاليا ففاضت عيناه ، ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله رب العالمين ، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » وقال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا العوام بن حوشب عن سليمان بن أبى سليمان عن أنس بن مالك عن النبى صلى الله عليه وآله وسلم قال « لما خلق الله الأرض جعلت تميد فخلق الجبال فألقاها عليها فاستقرت

(١) وفى بعض روايات الصحيح الحكمة بالتعريف .

فتعجبت الملائكة من خلق الجبال فقالت : يارب هل فى خلقك شىء أشد من الجبال ؟ قال نعم الحديد قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من الحديد ؟ قال : نعم النار قالت : يارب فهل من خلقك شىء أشد من النار . قال : نعم الماء قالت يارب فهل من خلقك شىء أشدمن الماء . قال : نعم الريح قالت . يارب فهل من خلقك شىء أشد من الريح . قال : نعم ابن آدم يتصدق بيمينه فيخفيها من شماله » وقد ذكرنا فى فضل آية الكرسى عن أبى ذر قال . قلت يا رسول الله أى الصدقة أفضل . قال « سر إلى فقير أو جهد من مقل » رواه أحمد ورواه ابن أبى حاتم من طريق على بن يزيد عن القاسم عن أبى أمامة عن أبى ذر فذكره وزاد ثم شرع فى هذه الآية (إن تبدوا الصدقات فنعماهى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) الآية وفى الحديث المروى « صدقة السر تطفىء غضب الرب عز وجل » وقال ابن أبى حاتم . حدثنا أبى حدثنا الحسين بن زياد المحاربى مؤدب محارب أنا موسى بن عمير عن عامر الشعبى فى قوله (إن تبدوا الصدقات فنعماهى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم) قال أنزلت فى أبى بكر وعمر رضى الله تعالى عنهما أما عمر فجاء بنصف ماله حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ « ماخلفت وراءك لأهلك ياعمر » قال خلفت لهم نصف مالى وأما أبو بكر فجاء بماله كله يكاد أن يخفيه من نفسه حتى دفعه إلى النبى ﷺ فقال له النبى ﷺ « ماخلفت وراءك لأهلك يا أبا بكر » فقال عدة الله وعدة رسوله . فبكى عمر رضى الله عنه وقال بأبى أنت وأمى يا أبا بكر والله ما استبقنا إلى باب خير قط إلا كنت سابقا . وهذا الحديث روى من وجه آخر عن عمر رضى الله عنه وإنما أوردناه ههنا لقول الشعبى إن الآية نزلت فى ذلك ثم إن الآية عامة فى أن إخفاء الصدقة أفضل سواء كانت مفروضة أو مندوبة لكن روى ابن جرير من طريق على بن أبى طلحة عن ابن عباس فى تفسير هذه الآية قال . جعل الله صدقة السر فى التطوع تفضل علانيتها بسبعين ضعفا وجعل صدقة الفريضة علانيتها أفضل من سرها بخمسة وعشرين ضعفا يقال[1]

وقوله (ويكفر عنكم من سيئاتكم) أى بدل الصدقات ولا سيما إذا كانت سراً يحصل لكم الخير فى رفع الدرجات ويكفر عنكم السيئات وقد قرىء ويكفر بالجزم عطفا على محل جواب الشرط وهو قوله (فنعماهى) كقوله فأصدق وأكن وأكن وقوله (والله بما تعملون خبير) أى لايخفى عليه من ذلك شىء وسيجزيكم عليه

﴿ لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنْفُسِكُمْ وَمَا تُنْفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ * لِلْفُقَرَاءِ الَّذِينَ أُحْصِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِي الْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُمْ بِسِيمَاهُمْ لَا يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافًا وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ * الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

قال أبو عبد الرحمن النسائى أنبأنا محمد بن عبد السلام بن عبد الرحيم أنبأنا الفريابى حدثنا سفيان عن الأعمش عن جعفر بن إياس عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : كانوا يكرهون أن يرضخوا لأنسابهم من المشركين فسألوا فرخص لهم فنزلت هذه الآية (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء وما تنفقوا من خير فلأنفسكم وماتنفقون إلا ابتغاء وجه الله وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لاتظلمون) وكذا رواه أبوحذيفة وابن المبارك وأبو أحمد الزبيرى وأبو داود الحضرمى عن سفيان وهوالثورى به وقال ابن أبى حاتم : أنبأنا أحمد بن القاسم بن عطية حدثنى أحمد ابن عبدالرحمن يعنى الدشتكى حدثنى أبى عن أبيه حدثنا أشعث بن إسحق عن جعفر بن أبى المغيرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبى ﷺ أنه كان يأمر بأن لايتصدق إلا على أهل الاسلام حتى نزلت هذه الآية (ليس عليك هداهم) إلى

(١) ليس فى تفسير ابن جرير كلمة يقال هنا بل فيما بعده سقط .

آخرها فأمر بالصدقة بعدها على كل من سألك من كل دين وسيأتى عند قوله تعالى (لاينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم) الآية حديث أسماء بنت الصديق فى ذلك

وقوله (وما تنفقوا من خير فلأنفسكم) كقوله (من عمل صالحا فلنفسه) ونظائرها فى القرآن كثيرة

وقوله (وما تنفقون إلا ابتغاء وجه الله) قال الحسن البصرى : نفقة المؤمن لنفسه ولا ينفق المؤمن إذا أنفق إلا ابتغاء وجه الله وقال عطاء الخراسانى : يعنى إذا أعطيت لوجه الله فلاعليك ما كان عمله وهذا معنى حسن وحاصله أن المتصدق إذا تصدق ابتغاء وجه الله فقد وقع أجره على الله ولا عليه فى نفس الأمر لمن أصاب ألبر أو فاجر أو مستحق أو غيره وهو مثاب على قصده ومستند هذا تمام الآية (وما تنفقوا من خير يوف إليكم وأنتم لا تظلمون) والحديث المخرج فى الصحيحين من طريق أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «قال رجل لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج بصدقته فوضعها فى يد زانية فأصبح الناس يتحدثون تصدق على زانية فقال اللهم لك الحمد على زانية ، لأتصدقن الليلة بصدقة فوضعها فى يد غنى فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على غنى قال : اللهم لك الحمد على غنى ، لأتصدقن الليلة بصدقة فخرج فوضعها فى يد سارق فأصبحوا يتحدثون تصدق الليلة على سارق فقال : اللهم لك الحمد على زانية وعلى غنى وعلى سارق فأتى فقيل له أما صدقتك فقد قبلت وأما الزانية فلعلها أن تستعف بها عن زنا ولعل الغنى يعتبر فينفق مما أعطاه الله ولعل السارق أن يستعف بها عن سرقته »

وقوله (للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله) يعنى المهاجرين الذين قد انقطعوا إلى الله وإلى رسوله وسكنوا المدينة وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم مايغنيهم و (لايستطيعون ضربا فى الأرض) يعنى سفراً للتسبب فى طلب المعاش والضرب فى الأرض هو السفر قال الله تعالى (وإذا ضربتم فى الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة) وقال تعالى (علم أن سيكون منكم مرضى وآخرون يضربون فى الأرض يبتغون من فضل الله وآخرون يقاتلون فى سبيل الله) الآية

وقوله (يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف) أى الجاهل بأمرهم وحالهم يحسبهم أغنياء من تعففهم فى لباسهم وحالهم ومقالهم وفى هذا المعنى الحديث المتفق على صحته عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين بهذا الطواف الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان والأكلة والأكلتان ولكن المسكين الذى لايجد غنى يغنيه ولا يفطن له فيتصدق عليه ولايسأل الناس شيئاً » وقد رواه أحمد من حديث ابن مسعود أيضاً

وقوله (تعرفهم بسيماهم) أى بما يظهر لذوى الألباب من صفاتهم كما قال تعالى (سيماهم فى وجوههم) وقال (ولتعرفنهم فى لحن القول) وفى الحديث الذى فى السنن « اتقوا فراسة المؤمن فانه ينظر بنور الله » ثم قرأ (إن فى ذلك لآيات للمتوسمين)

وقوله (لايسألون الناس إلحافا) أى لايلحون فى المسئلة ويكلفون الناس مالا يحتاجون إليه فإن من سأل وله مايغنيه عن المسئلة فقد ألحف فى المسئلة قال البخارى : حدثنا ابن أبى مريم حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شريك بن أبى نمر أن عطاء بن يسار وعبد الرحمن بن أبى عمرة الأنصارى قالا : سمعنا أبا هريرة يقول : قال رسول الله ﷺ « ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان ولا اللقمة واللقمتان إنما المسكين الذى يتعفف اقرءوا إن شئتم يعنى قوله (لا يسألون الناس إلحافا) وقد رواه مسلم من حديث إسماعيل بن جعفر المدينى عن شريك بن عبد الله ابن أبى نمر عن عطاء بن يسار وحده عن أبى هريرة به ، وقال أبو عبد الرحمن النسائى : أخبرنا على بن حجر حدثنا إسماعيل أخبرنا شريك وهو ابن أبى نمر عن عطاء بن يسار عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : ليس المسكين الذى ترده التمرة والتمرتان واللقمة واللقمتان إنما المسكين المتعفف اقرءوا إن شئتم (لا يسألون الناس إلحافا) وروى البخارى من حديث شعبة عن محمد بن أبى زياد عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم نحوه وقال ابن أبى حاتم . أخبرنا يونس بن عبد الأعلى أخبرنا ابن وهب أخبرنى ابن أبى ذئب عن أبى الوليد عن أبى هريرة أن

رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ليس المسكين بالطواف عليكم فتطعمونه لقمة لقمة إنما المسكين المتعفف الذى لا يسأل الناس إلحافا » وقال ابن جرير : حدثنى معتمر عن الحسن بن مالك عن صالح بن سويد عن أبى هريرة قال: ليس المسكين بالطواف الذى ترده الأكلة والأكلتان ولكن المسكين المتعفف فى بيته لا يسأل الناس شيئاً تصيبه الحاجة اقرءوا إن شئتم (لا يسألون الناس إلحافا) وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا أبو بكر الحنفى حدثنا عبد الحميد بن جعفر عن أبيه عن رجل من مزينة أنه قالت له أمه ألا تنطلق فتسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم كما يسأله الناس فانطلقت أسأله فوجدته قائما يخطب وهو يقول « ومن استعف أعفه الله ومن استغنى أغناه الله ومن يسأل الناس وله عدل خمس أواق فقد سأل الناس إلحافا » فقلت بينى وبين نفسى(١) لناقة لهى خير من خمس أواق ولغلامه ناقة أخرى فهى خير من خمس أواق فرجعت ولم أسأل وقال الإمام أحمد : حدثنا قتيبة حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال عن عمارة ابن عرفة عن عبد الرحمن بن أبى سعيد عن أبيه قال، سرحتنى أمى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أسأله فأتيته فقعدت قال : فاستقبلنى فقال « من استغنى أغناه الله ومن استعف أعفه الله ومن استكف كفاه الله ومن سأل وله قيمة أوقية فقد ألحف » قال فقلت ناقتى الياقوتة خير من أوقية فرجعت فلم أسأله وهكذا رواه أبو داود والنسائى كلاهما عن قتيبة زاد أبو داود وهشام بن عمار كلاهما عن عبد الرحمن بن أبى الرجال بإسناده نحوه وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى حدثنا أبو الجماهر حدثنا عبد الرحمن بن أبى الرجال عن عمارة بن عرفة عن عبد الرحمن بن أبى سعيد قال: قال أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل وله قيمة أوقية فهو ملحف » والأوقية أربعون درهما وقال أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن رجل من بنى أسد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل وله أوقية أو عدلها فقد سأل إلحافا » وقال الإمام أحمد أيضاً : حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن حكيم بن جبير عن محمد بن عبد الرحمن بن يزيد عن أبيه عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سأل وله ما يغنيه جاءت مسئلته يوم القيامة خدوشا أو كدوحا فى وجهه » قالوا يا رسول الله وما غناه ؟ قال : « خمسون درهما أو حسابها من الذهب » وقد رواه أهل السنن الأربعة من حديث حكم بن جبير الأسدى الكوفى وقد تركه شعبة بن الحجاج وضعفه غير واحد من الأئمة من جراء هذا الحديث ، وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى : حدثنا محمد بن عبد الله الحضرمى حدثنا أبو حسين عبد الله بن أحمد بن يونس حدثنى أبى حدثنا أبو بكر بن عياش عن هشام بن حسان عن محمد بن سيرين قال : بلغ الحارث رجلا كان بالشام من قريش أن أباذر كان به عوز فبعث إليه ثلثمائة دينار فقال ما وجد عبد الله رجلا أهون عليه منى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من سأل وله أربعون فقد ألحف » ولآل أبى ذر أربعون درهما وأربعون شاة وماهنان قال أبو بكر بن عياش : يعنى خادمين وقال ابن مردويه . حدثنا محمد بن أحمد بن إبراهيم أخبرنا إبراهيم بن محمد أنبأنا عبد الجبار أخبرنا سفيان عن داود بن سابور عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « من سأل وله أربعون درهما فهو ملحف وهو مثل سف الملة » يعنى الرمل ، ورواه النسائى عن أحمد بن سليمان عن أحمد بن آدم عن سفيان وهو ابن عيينة بإسناده نحوه قوله (وما تنفقوا من خير فان الله به عليم) أى لا يخفى عليه شىء منه وسيجزى عليه أوفر الجزاء وأتمه يوم القيامة أحوج ما يكون إليه

وقوله (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف ولا هم يحزنون) هذا مدح منه تعالى للمنفقين فى سبيله وابتغاء مرضاته فى جميع الأوقات من ليل أو نهار والأحوال من سروجها حتى ان النفقة على الأهل تدخل فى ذلك أيضا كما ثبت فى الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال لسعد بن أبى وقاص حين عاده مريضاً عام الفتح ، وفى رواية عام حجة الوداع « وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا ازددت بها درجة ورفعة حتى ما تجعل فى فى امرأتك» ، وقال الإمام أحمد حدثنا محمد بن جعفر وبهز قالا : حدثنا شعبة عن عدى ابن ثابت قال : سمعت عبد الله بن يزيد الأنصارى يحدث عن أبى مسعود رضى الله عنهما عن النبى صلى الله عليه وسلم

(١) هكذا فى النسخ ولعله لنا ناقة الخ أو نحو ذلك وقوله ولغلامه ناقة الخ كذا فى النسخ وحرر الرواية

أنه قال « إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة يحتسبها كانت له صدقة » أخرجاه من حديث شعبة به وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنا سليمان بن عبد الرحمن حدثنا محمد بن شعيب قال سمعت سعيد بن يسار عن يزيد بن عبد الله بن عريب المليكى عن أبيه عن جده عن النبى صلى الله عليه وسلم قال نزلت هذه الآية « الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم » فى أصحاب الخيل. وقال حبش الصنعانى : عن ابن شهاب عن ابن عباس فى هذه الآية قال هم الذى يعلفون الخيل فى سبيل الله ، رواه ابن أبى حاتم ثم قال وكذا روى عن أبى أمامة وسعيد بن المسيب ومكحول ، وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو سعيد الأشج أخبرنا يحيى بن يمان عن عبد الوهاب بن مجاهد عن ابن جبير عن أبيه قال : كان لعلى أربعة دراهم فأنفق درهما ليلا ودرهما نهاراً ودرهما سراً ودرهما علانية فنزلت (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية) وكذا رواه ابن جرير من طريق عبد الوهاب بن مجاهد وهو ضعيف لكن رواه ابن مردويه من وجه آخر عن ابن عباس أنها نزلت فى على بن أبى طالب ، وقوله (فلهم أجرهم عند ربهم) أى يوم القيامة على ما فعلوا من الانفاق فى الطاعات (ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون) تقدم تفسيره :

﴿ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبٰوا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطٰنُ مِنَ الْمَسِّ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبٰوا وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ وَحَرَّمَ الرِّبٰوا فَمَن جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِ فَانتَهَىٰ فَلَهُ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُ إِلَى اللهِ وَمَنْ عَادَ فَأُولٰئِكَ أَصْحٰبُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خٰلِدُونَ ﴾

لما ذكر تعالى الأبرار المؤدين النفقات المخرجين الزكوات المتفضلين بالبر والصدقات لذوى الحاجات والقرابات فى جميع الأحوال والأوقات شرع فى ذكر أكلة الربا وأموال الناس بالباطل وأنواع الشبهات فأخبر عنهم يوم خروجهم من قبورهم وقيامهم منها إلى بعثهم ونشورهم فقال (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) أى لا يقومون من قبورهم يوم القيامة إلا كما يقوم المصروع حال صرعه وتخبط الشيطان له وذلك أنه يقوم قياما منكراً ، وقال ابن عباس . آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنونا يخنق ، رواه ابن أبى حاتم قال وروى عن عوف ابن مالك وسعيد بن جبير والسدى والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان نحو ذلك وحكى عن عبد الله بن عباس وعكرمة وسعيد بن جبير والحسن وقتادة ومقاتل بن حيان أنهم قالوا . فى قوله (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) يعنى لا يقومون يوم القيامة ، وكذا قال ابن أبى نجيح عن مجاهد والضحاك وابن زيد ، وروى ابن أبى حاتم من حديث أبى بكر بن أبى مريم عن ضمرة بن حنيف عن أبى عبدالله بن مسعود عن أبيه أنه كان يقرأ ـ الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة ـ وقال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا ربيعة بن كلثوم حدثنا أبى عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب وقرأ (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) وذلك حين يقوم من قبره وفى حديث أبى سعيد فى الإسراء كما هو مذكور فى سورة سبحان أنه عليه السلام مر ليلتئذ بقوم لهم أجواف مثل البيوت فسأل عنهم فقيل : هؤلاء أكلة الربا . رواه البيهقى مطولا ، وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا الحسن بن موسى عن حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبى الصلت عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « أتيت ليلة أسرى بى على قوم بطونهم كالبيوت فيها الحيات تجرى من خارج بطونهم فقلت . من هؤلاء يا جبريل ؟ قال هؤلاء أكلة الربا » ورواه الإمام أحمد عن حسن وعفان كلاهما عن حماد ابن سلمة به ، وفى إسناده ضعف وقد روى البخارى عن سمرة بن جندب فى حديث المنام الطويل فأتينا على نهر حسبت أنه كان يقول أحمر مثل الدم وإذا فى النهر رجل سابح يسبح وإذا على شط النهر رجل قد جمع عنده حجارة كثيرة وإذا ذلك السابح يسبح ثم يأتى ذلك الذى قد جمع الحجارة عنده فيفغر له فاه فيلقمه حجراً وذكر فى تفسيره أنه آكل الربا

وقوله (ذلك بأنهم قالوا إنما البيع مثل الربا. وأحل الله البيع وحرم الربا) أى إنما جوزوا بذلك لاعتراضهم على أحكام الله فى شرعه وليس هذا قياسا منهم للربا على البيع لأن المشركين لايعترفون بمشروعية أصل البيع الذى شرعه الله فى القرآن ولو كان هذا من باب القياس لقالوا: إنما الربا مثل البيع وإنما قالوا (إنما البيع مثل الربا) أى هو نظيره فلم حرم هذا وأبيح هذا ؟ وهذا اعتراض منهم على الشرع أى هذا مثل هذا وقد أحل هذا وحرم هذا وقوله تعالى (وأحل الله البيع وحرم الربا) . يحتمل أن يكون من تمام الكلام ردا عليهم أى على ما قالوه من الاعتراض مع علمهم بتفريق الله بين هذا وهذا حكما وهو العليم الحكيم الذى لامعقب لحكمه ولايسئل عما يفعل وهم يسئلون وهو العالم بحقائق الأمور ومصالحها وما ينفع عباده فيبيحه لهم وما يضرهم فينهاهم عنه وهو أرحم بهم من الوالدة بولدها الطفل ولهذا قال (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف وأمره إلى الله) أى من بلغه نهى الله عن الربا فانتهى حال وصول الشرع اليه فله ماسلف من المعاملة لقوله (عفا الله عما سلف) وكما قال النبى ﷺ يوم فتح مكة « وكل ربا فى الجاهلية موضوع تحت قدمىّ هاتين وأول ربا أضع ربا العباس » ولم يأمرهم برد الزيادات المأخوذة فى حال الجاهلية بل عفا عما سلف كما قال تعالى (فله ما سلف وأمره إلى الله) قال سعيد بن جبير والسدى : فله ما سلف ما كان أكل من الربا قبل التحريم . وقال ابن أبى حاتم قرأ على محمد بن عبدالله بن عبد الحكم أخبرنا ابن وهب أخبرنى جرير بن حازم عن أبى إسحق الهمدانى عن أم يونس يعنى امرأته العالية بنت أبقع أن عائشة زوج النبى ﷺ قالت لها أم محبة أم ولد زيد بن أرقم يا أم المؤمنين أتعرفين زيد بن أرقم قالت : نعم قالت : فانى بعته عبدا إلى العطاء بثمانمائة فاحتاج إلى ثمنه فاشتريته قبل محل الأجل بستمائة فقالت بئس ماشتريت وبئس ما اشتريت أبلغى زيداً أنه قد أبطل جهاده مع رسول الله صلى الله عليه وسلم قد بطل إن لم يتب قالت : فقلت أرأيت إن تركت المائتين وأخذت الستمائة قالت : نعم (فمن جاءه موعظة من ربه فانتهى فله ما سلف) وهذا الأثر مشهور وهو دليل لمن حرم مسئلة العينة مع ماجاء فيها من الأحاديث المذكورة المقررة فى كتاب الأحكام ولله الحمد والمنة ، ثم قال تعالى (ومن عاد) أى إلى الربا ففعله بعد بلوغه نهى الله عنه فقد استوجب العقوبة وقامت عليه الحجة ولهذا قال (فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) وقد قال أبو داود : حدثنا يحيى أبو داود حدثنا يحيى بن معين أخبرنا عبدالله بن رجاء المكى عن عبدالله بن عثمان بن خيثم عن أبى الزبير عن جابر قال : لما نزلت (الذين يأكلون الربا لايقومون إلا كما يقوم الذى يتخبطه الشيطان من المس) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من لم يذر المخابرة فليؤذن بحرب من الله ورسوله » ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث أبى خيثم ، وقال : صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه وإنما حرمت المخابرة وهى المزارعة ببعض مايخرج من الأرض والمزابنة وهى اشتراء الرطب فى رؤوس النخل بالتمر على وجه الأرض والمحاقلة وهى اشتراء الحب فى سنبله فى الحقل بالحب على وجه الأرض إنما حرمت هذه الأشياء وما شاكلها حسما لمادة الربا لأنه لا يعلم التساوى بين الشيئين قبل الجفاف ولهذا قال الفقهاء : الجهل بالمماثلة كحقيقة المفاضلة ، ومن هذا حرموا أشياء بما فهموا من تضييق المسالك المفضية إلى الربا والوسائل الموصلة اليه وتفاوت نظرهم بحسب ما وهب الله لكل منهم من العلم وقد قال تعالى (وفوق كل ذى علم عليم) وباب الربا من أشكل الأبواب على كثير من أهل العلم وقد قال أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه ثلاث وددت أن رسول الله ﷺ عهد الينا فيهن عهداً ننتهى اليه : الجد والكلالة وأبواب من أبواب الربا ـ يعنى بذلك بعض المسائل التى فيها شائبة الربا والشريعة شاهدة بأن كل حرام فالوسيلة اليه مثله لأن ما أفضى إلى الحرام حرام كما أن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وقد ثبت فى الصحيحين عن النعمان بن بشير قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « إن الحلال بين والحرام بين وبين ذلك أمور مشتبهات فمن اتقى الشبهات استبرأ لدينه وعرضه ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشك أن يرتع فيه » وفى السنن عن الحسن بن على رضى الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول « دع مايريبك إلى مالا يريبك » وفى الحديث الآخر « الاثم ما حاك فى القلب وترددت فيه النفس وكرهت أن يطلع عليه الناس » وفى رواية « استفت قلبك وإن أفتاك الناس وأفتوك »

وقال الثورى عن عاصم عن الشعبى عن ابن عباس قال : آخر ما نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم آية الربا رواه البخارى عن قبيصة عنه وقال أحمد عن يحيى عن سعيد بن أبى عروبة عن قتادة عن سعيد بن المسيب أن عمر قال من آخر ما نزل آية الربا وإن رسول الله ﷺ قبض قبل أن يفسرها لنا فدعوا الربا والريبة وقال رواه ابن ماجه وابن مردويه من طريق هياج بن بسطام عن داود بن أبى هند عن أبى نضرة عن أبى سعيد الخدرى قال: خطبنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقال إنى لعلى أنهاكم عن أشياء تصلح لكم وآمركم بأشياء لا تصلح لكم وإن من آخر القرآن نزولا آية الربا وإنه قد مات رسول الله ﷺ ولم يبينه لنا فدعوا ما يريبكم إلى مالا يريبكم وقد قال ابن أبى عدى بالاسناد موقوفا فذكره ورده الحاكم فى مستدركه وقد قال ابن ماجه حدثنا عمرو بن على الصيرفى حدثنا ابن أبى عدى عن شعبة عن زبيد عن إبراهيم عن مسروق عن عبد الله هو ابن مسعود عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « الربا ثلاثة وسبعون بابا » ورواه الحاكم فى مستدركه من حديث عمرو بن على الفلاس باسناد مثله وزاد أيسرها أن ينكح الرجل أمه وإن أربى الربا عرض الرجل المسلم وقال صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه وقال ابن ماجه حدثنا عبد الله بن سعيد حدثنا عبد الله بن إدريس عن أبى معشر عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « الربا سبعون جزءا أيسرها أن ينكح الرجل أمه » وقال الإمام أحمد : حدثنا هشيم عن عباد بن راشد عن سعيد ابن أبى خيرة حدثنا الحسن منذ نحو من أربعين أو خمسين سنة عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال « يأتى على الناس زمان يأكلون فيه الربا » قال قيل له الناس كلهم ؟ قال « من لم يأكله منهم ناله من غباره » وكذا رواه أبو داود والنسائى وابن ماجه من غير وجه عن سعيد بن أبى خيرة عن الحسن به ومن هذا القبيل تحريم الوسائل المفضية إلى المحرمات الحديث الذى رواه الإمام أحمد حدثنا أبو معاوية حدثنا الأعمش عن مسلم بن صبيح عن مسروق عن عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا خرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فقرأهن فحرم التجارة فى الخمر وقد أخرجه الجماعة سوى الترمذى من طرق عن الأعمش به وهكذا لفظ رواية البخارى عند تفسير هذه الآية فحرم التجارة وفى لفظ له عن عائشة قالت : لما نزلت الآيات من آخر سورة البقرة فى الربا قرأها رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس ثم حرم التجارة فى الخمر قال بعض من تكلم على هذا الحديث من الأئمة : لما حرم الربا ووسائله حرم الخمر وما يفضى اليه من تجارة ونحو ذلك كما قال عليه السلام فى الحديث المتفق عليه « لعن الله اليهود حرمت عليهم الشحوم فجملوها فباعوها وأكلوا أثمانها » وقد تقدم فى حديث على وابن مسعود وغيرهما عند لعن المحلل فى تفسير قوله (حتى تنكح زوجا غيره) قوله ﷺ « لعن الله آكل الربا وموكله وشاهديه وكاتبه » قالوا وما يشهد عليه ويكتب إلا إذا أظهر فى صورة عقد شرعى ويكون داخله فاسدا فالاعتبار بمعناه لا بصورته لأن الأعمال بالنيات وفى الصحيح « إن الله لا ينظر إلى صوركم ولا إلى أموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » وقد صنف الإمام العلامة أبو العباس بن تيمية كتابا فى إبطال التحليل تضمن النهى عن تعاطى الوسائل المفضية إلى كل باطل وقد كفى فى ذلك وشفى فرحمه الله ورضى عنه

﴿ يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُرْبِي الصَّدَقَاتِ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾

يخبر تعالى أنه يمحق الربا أى يذهبه إما بأن يذهبه بالكلية من يد صاحبه أو يحرمه بركة ماله فلا ينتفع به بل يعدمه به فى الدنيا ويعاقبه عليه يوم القيامة كما قال تعالى (قل لا يستوى الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث) وقال تعالى (ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعا فيجعله فى جهنم) وقال (وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله) الآية وقال ابن جرير : فى قوله (يمحق الله الربا) وهذا نظير الخبر الذى روى عن عبد الله بن مسعود أنه قال

الربا وإن كثر فان عاقبته تصير إلى قل وهـذا الحديث قد رواه الإمام أحمـد فى مسنده فقال : حدثنا حجاج حدثنا شريك عن الركين بن الربيع عن أبيه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الربا وإن كثر فان عاقبته تصير إلى قل » وقد رواه ابن ماجه عن العباس بن جعفر عن عمرو بن عون عن يحيى بن أبى زائدة عن إسرائيل عن الركين ابن الربيع بن عميلة الفزارى عن أبيه عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ما أحد أكثر من الربا إلا كان عاقبة أمره إلى قل » وهـذا من باب المعاملة بنقيض المقصود كما قال الإمام أحمـد حدثنا أبو سعيد مولى بنى هاشم حدثنا الهيثم بن نافع الظاهرى حدثنى أبو يحيى رجل من أهل مكة عن فروخ مولى عثمان أن عمر وهو يومئذ أمير المؤمنين خرج من المسجد فرأى طعاما منشوراً فقال : ما هـذا الطعام ؟ فقالوا : طعام جلب إلينا قال بارك الله فيه وفيمن جلبه قيل يا أمير المؤمنين إنه قد احتكر قال من احتكره ؟ قالوا فروخ مولى عثمان وفلان مولى عمر فأرسل إليهما فقال : ما حملكما على احتكار طعام المسلمين ؟ قالا : يا أمير المؤمنين نشترى بأموالنا ونبيع فقال عمر : سمعت رسول الله ﷺ يقول « من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافـلاس أو بجذام » فقال فروخ عنـد ذلك أعاهـد الله وأعاهدك أن لا أعود فى طعام أبداً وأما مولى عمر فقال إنما نشترى بأموالنا ونبيع قال أبو يحيى فلقد رأيت مولى عمر مجذوما ورواه ابن ماجه من حديث الهيثم بن رافع به ولفظه «من احتكر على المسلمين طعامهم ضربه الله بالافلاس والجذام»

وقوله (ويربى الصدقات) قرىء بضم الياء والتخفيف من ربا الشيء يربو وأرباه يربيه أى كثره ونماه ينميه وقرىء يربى بالضم والتشديد من التربية قال البخارى حدثنا عبد الله بن كثير أخبرنا كثير سمع أبا النضر حدثنا عبد الرحمن بن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبى صالح عن أبى هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يقبل الله إلا الطيب فان الله يتقبلها بيمينه ثم يربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى يكون مثل الجبل » كذا رواه فى كتاب الزكاة وقال فى كتاب التوحيد وقال خالد بن مخلد بن سليمان بن بلال عن عبد الله بن دينار فذكر بإسناده نحوه وقد رواه مسلم فى الزكاة عن أحمـد بن عثمان بن حكيم عن خالد بن مخلد فذكره قال البخارى ورواه مسلم بن أبى مريم وزيد بن أسـلم وسهيل عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قلت أما رواية مسلم ابن أبى مريم فقد تفرد البخارى بذكرها وأما طريق زيد بن أسلم فرواها مسلم فى صحيحه عن أبى الطاهر بن السرح عن أبى وهب عن هشام بن سعيد عن زيد بن أسلم به وأما حديث سهيل فرواه مسلم عن قتيبة عن يعقوب بن عبد الرحمن عن سهيل به والله أعلم قال البخارى وقال ورقاء عن ابن دينار عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم وقد أسند هذا الحديث من هذا الوجه الحافظ أبو بكر البيهقى عن الحاكم وغيره عن الأصم عن العباس المروزى عن أبى الزناد هاشم بن القاسم عن ورقاء وهو ابن عمر اليشكرى عن عبد الله بن دينار عن سعيد بن يسار عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من تصدق بعدل تمرة من كسب طيب ولا يصعد إلى الله إلا الطيب فان الله يقبلها بيمينه فيربيها لصاحبها كما يربى أحدكم فلوه حتى يكون مثل أحد » وهكذا روى هذا الحديث مسلم والترمذى والنسائى جميعاً عن قتيبة عن الليث بن سعد عن سعيد المقبرى وأخرجه النسائى من رواية مالك عن يحيى بن سعيد الأنصارى ومن طريق يحيى القطان عن محمد بن عجلان ثلاثتهم عن سعيد بن يسار أبى الحباب المدنى عن أبى هريرة عن النبي ﷺ فذكره وقد روى عن أبى هريرة من وجه آخر فقال ابن أبى حاتم حدثنا عمرو بن عبـد الله الأودى حدثنا وكيع عن عباد بن منصور حدثنا القاسم بن محمد قال سمعت أبا هريرة يقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله عز وجل يقبل الصدقة ويأخذها بيمينه فيربيها لأحدكم كما يربى أحدكم مهره أو فلوه حتى إن اللقمة لتصير مثل أحد » وتصديق ذلك فى كتاب الله (يمحق الله الربا ويربى الصدقات) وكذا رواه أحمـد عن وكيع وهو فى تفسير وكيع ورواه الترمذى عن أبى كريب عن وكيع به وقال حسن صحيح وكذا رواه الترمذى عن عباد بن منصور به ورواه أحمد أيضاً عن خلف بن الوليد عن ابن المبارك عن عبد الواحد بن ضمرة وعباد بن منصور كلاهما عن أبى نضرة عن القاسم به وقد رواه ابن جرير عن محمـد بن عبد الملك بن إسحق عن عبد الرزاق عن معمر عن أيوب عن القاسم

ابن محمد عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا تصدق من طيب يقبلها الله منه فيأخذها بيمينه ويربيها كما يربى أحدكم مهره أو فصيله وإن الرجل ليتصدق باللقمة فتربو فى يد الله أو قال فى كف الله حتى تكون مثل أحد فتصدقوا» وهكذا رواه أحمد عن عبد الرزاق وهذا طريق غريب صحيح الإسناد ولكن لفظه عجيب والمحفوظ ما تقدم وروى عن عائشة أم المؤمنين فقال الإمام أحمد حدثنا عبد الصمد حدثنا حماد عن ثابت عن القاسم بن محمد عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « إن الله ليربى لأحدكم التمرة واللقمة كما يربى أحدكم فلوه أو فصيله حتى يكون مثل أحد » تفرد به أحمد من هذا الوجه وقال البزار حدثنا يحيى بن المعلى بن منصور حدثنا إسماعيل حدثنى أبى عن يحيى بن سعيد عن عمرة عن عائشة عن النبى صلى الله عليه وسلم وعن الضحاك بن عثمان عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « إن الرجل ليتصدق بالصدقة من الكسب الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب فيتلقاها الرحمن بيده فيربيها كما يربى أحدكم فلوه أو وصيفه » أو قال فصيله ثم قال لا نعلم أحدا رواه عن يحيى بن سعيد عن عمرة إلا أبا أويس

وقوله (والله لا يحب كل كفار أثيم) أى لا يحب كفور القلب أثيم القول والفعل ولا بد من مناسبة فى ختم هذه الآية بهذه الصفة وهى أن المرابى لا يرضى بما قسم الله له من الحلال ولا يكتفى بما شرع له من الكسب المباح فهو يسعى فى أكل أموال الناس بالباطل بأنواع المكاسب الخبيثة فهو جحود لما عليه من النعمة ظلوم آثم بأكل أموال الناس بالباطل — ثم قال تعالى مادحا للمؤمنين بربهم المطيعين أمره المؤدين شكره المحسنين إلى خلقه فى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مخبراً عما أعد لهم من الكرامة وأنهم يوم القيامة من التبعات آمنون فقال (إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَذَرُوا مَا بَقِيَ مِنَ الرِّبَا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ * وَإِن كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ وَأَن تَصَدَّقُوا خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ * وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾

يقول تعالى آمراً عباده المؤمنين بتقواه ناهيا لهم عما يقربهم إلى سخطه ويبعدهم عن رضاه فقال (يا أيها الذين آمنوا اتقو الله) أى خافوه وراقبوه فيما تفعلون (وذروا ما بقى من الربا) أى اتركوا مالكم على الناس من الزيادة على رؤوس الأموال بعد هذا الانذار (إن كنتم مؤمنين) أى بما شرع الله لكم من تحليل البيع وتحريم الربا وغير ذلك . وقد ذكر زيد بن أسلم وابن جريج ومقاتل بن حيان والسدى أن هذا السياق نزل فى بنى عمرو بن عمير من ثقيف وبنى المغيرة من بنى مخزوم كان بينهم ربا فى الجاهلية فلما جاء الإسلام ودخلوا فيه طلبت ثقيف أن تأخذه منهم فتشاوروا وقالت بنو المغيرة لا نؤدى الربا فى الإسلام بكسب الإسلام فكتب فى ذلك عتاب بن أسيد نائب مكة إلى رسول الله ﷺ فنزلت هذه الآية فكتب بها رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين * فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) فقالوا نتوب إلى الله ونذر ما بقى من الربا فتركوه كلهم وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن استمر على تعاطى الربا بعد الانذار قال ابن جريج قال ابن عباس فأذنوا بحرب أى استيقنوا بحرب من الله ورسوله وتقدم من رواية ربيعة بن كلثوم عن أبيه عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: يقال يوم القيامة لآكل الربا خذ سلاحك للحرب ثم قرأ (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله) فمن كان مقيما على الربا لا ينزع عنه كان حقاً على إمام المسلمين أن يستتيبه فان نزع وإلا ضرب عنقه وقال ابن أبى حاتم حدثنا على بن الحسين حدثنا محمد

ابن بشار حدثنا عبد الأعلى حدثنا هشام بن حسان عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا : والله إن هؤلاء الصيارفة لأكلة الربا وإنهم قد أذنوا بحرب من الله ورسوله ولو كان على الناس إمام عادل لاستتابهم فإن تابوا وإلا وضع فيهم السلاح وقال قتادة أوعدهم الله بالقتل كما يسمعون وجعلهم بهرجا أين ما أتوا فإياكم ومخالطة هذه البيوع من الربا فإن الله قد أوسع الحلال وأطابه فلا يلجئنكم إلى معصيته فاقة . رواه ابن أبي حاتم ، وقال الربيع بن أنس : أوعد الله آكل الربا بالقتل رواه ابن جرير وقال السهيلي : ولهذا قالت عائشة لأم محبة مولاة زيد بن أرقم في مسئلة العينة أخبريه أن جهاده مع النبي ﷺ قد أبطل إلا أن يتوب فخصت الجهاد لأنه ضد قوله (فأذنوا بحرب من الله ورسوله) قال وهذا المعنى ذكره كثير قال ولكن هذا إسناده إلى عائشة ضعيف

ثم قال تعالى (وإن تبتم فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون) أي بأخذ الزيادة (ولا تظلمون) أي بوضع رءوس الأموال أيضا بل لكم ما بذلتم من غير زيادة عليه ولا نقص منه وقال ابن أبي حاتم حدثنا محمد بن الحسين بن اشكاب حدثنا عبيد الله بن موسى عن شيبان عن شبيب بن غرقدة البارقي عن سليمان بن عمرو بن الأحوص عن أبيه قال : خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال « ألا إن كل ربا كان في الجاهلية موضوع عنكم كله لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ، وأول ربا موضوع ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله » كذا وجده سليمان بن الأحوص وقد قال ابن مردويه حدثنا الشافعي حدثنا معاذ بن المثنى أخبرنا مسدد أخبرنا أبو الأحوص حدثنا شبيب بن غرقدة عن سليمان بن عمرو عن أبيه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ألا إن كل ربا من ربا الجاهلية موضوع فلكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون » وكذا رواه من حديث حماد بن سلمة عن علي بن زيد عن أبي حمزة الرقاشي عن عمرو هو ابن خارجة فذكره

وقوله (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) يأمر تعالى بالصبر على المعسر الذي لا يجد وفاء فقال (وإن كان ذو عسرة فنظرة إلى ميسرة) لا كما كان أهل الجاهلية يقول أحدهم لمدينه إذا حل عليه الدين إما أن تقضي وإما أن تربي ، ثم يندب إلى الوضع عنه ويعد على ذلك الخير والثواب الجزيل فقال (وأن تصدقوا خير لكم إن كنتم تعلمون) أي وأن تتركوا رأس المال بالكلية وتضعوه عن المدين ، وقد وردت الأحاديث من طرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم بذلك (فالحديث الأول) عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال الطبراني حدثنا عبد الله بن محمد بن شعيب المرجاني حدثنا يحيى بن حكيم المقوم حدثنا محمد بن بكر البرساني حدثنا عبد الله بن أبي زياد حدثني عاصم بن عبيد الله عن أبي أمامة أسعد بن زرارة قال : قال رسول الله ﷺ « من سره أن يظله الله يوم لا ظل إلا ظله فليسر على معسر أو ليضع عنه » (حديث آخر) عن بريدة قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الوارث حدثنا محمد بن جحادة عن سليمان بن بريدة عن أبيه قال سمعت النبي ﷺ يقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة » قال ثم سمعته يقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثلاه صدقة » قلت سمعتك يا رسول الله تقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثله صدقة » ثم سمعتك تقول « من أنظر معسرا فله بكل يوم مثلاه صدقة » قال « له بكل يوم مثله صدقة قبل أن يحل الدين فإذا حل الدين فأنظره فله بكل يوم مثلاه صدقة » (حديث آخر) عن أبي قتادة الحارث بن ربعي الأنصاري قال أحمد حدثنا حماد بن سلمة أخبرنا أبو جعفر الخطمي عن محمد بن كعب القرظي أن أبا قتادة كان له دين على رجل وكان يأتيه يتقاضاه فيختبيء منه فجاء ذات يوم فخرج صبي فسأله عنه فقال نعم هو في البيت يأكل خزيرة فناداه فقال يا فلان اخرج فقد أخبرت أنك ها هنا فخرج اليه فقال ما يغيبك عني ؟ فقال إني معسر وليس عندي شيء ، قال آلله إنك معسر ؟ قال نعم فبكى أبو قتادة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « من نفس عن غريمه أو محا عنه كان في ظل العرش يوم القيامة » ورواه مسلم في صحيحه (حديث آخر) عن حذيفة بن اليمان قال الحافظ أبو يعلى الموصلي حدثنا الأخنس أحمد بن عمران حدثنا محمد بن فضيل حدثنا أبو مالك الأشجعي عن ربعي بن حراش عن حذيفة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى الله بعبد من عبيده يوم القيامة قال ماذا عملت لي في الدنيا ؟

فقال ماعملت لك يارب مثقال ذرة فى الدنيا أرجوك بها ـ قالها ثلاث مرات ـ قال العبد عند آخرها يارب إنك كنت أعطيتنى فضل مال وكنت رجلا أبايع الناس وكان من خلقى الجواز فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر ، قال فيقول الله عز وجل أنا أحق من ييسر ادخل الجنة » وقد أخرجه البخارى ومسلم وابن ماجه من طرق عن ربعى ابن حراش عن حذيفة زاد مسلم وعقبة بن عامر وأبى مسعود البدرى عن النبى صلى الله عليه وسلم بنحوه ولفظ البخارى[1] حدثنا هشام بن عمار حدثنا يحيى بن حمزة حدثنا الزهرى عن عبدالله بن عبد الله أنه سمع أباهريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال « كان تاجر يداين الناس فإذا رأى معسراً قال لفتيانه تجاوزوا عنه لعل الله يتجاوز عنا فتجاوز الله عنه » (حديث آخر) عن سهل بن حنيف قال الحاكم فى مستدركه حدثنا أبو عبدالله محمد بن يعقوب حدثنا يحيى بن محمد بن يحيى حدثنا أبو الوليد هشام بن عبدالملك حدثنا عمرو بن ثابت حدثنا عبدالله بن محمد بن عقيل عن عبدالله بن سهل ابن حنيف أن سهلا حدثه أن رسول الله ﷺ قال «من أعان مجاهدا فى سبيل الله أو غازيا أو غارما فى عسرته أو مكاتبا فى رقبته أظله الله فى ظله يوم لاظل إلا ظله » ثم قال صحيح الاسناد ولم يخرجاه

(حديث آخر) عن عبدالله بن عمر قال الإمام أحمد حدثنا محمد بن عبيد عن يوسف بن صهيب عن زيد العمى عن ابن عمر قال : قال رسول الله ﷺ « من أراد أن تستجاب دعوته وأن تكشف كربته فليفرج عن معسر » انفرد به أحمد (حديث آخر) عن أبى مسعود عقبة بن عمرو قال الإمام أحمد حدثنا يزيد بن هرون أخبرنا أبو مالك عن ربعى ابن حراش عن حذيفة أن رجلا أتى به الله عز وجل فقال ماذا عملت فى الدنيا ؟ فقال له الرجل ماعملت مثقال ذرة من خير فقال له ثلاثا وقال فى الثالثة إنى كنت أعطيتنى فضلا من المال فى الدنيا فكنت أبايع الناس فكنت أيسر على الموسر وأنظر المعسر فقال تبارك وتعالى نحن أولى بذلك منك تجاوزوا عن عبدى ، فغفر له قال أبو مسعود هكذا سمعت من النبى ﷺ وهكذا رواه مسلم من حديث أبى مالك سعد بن طارق به

(حديث آخر) عن عمران بن حصين قال الإمام أحمد حدثنا أسود بن عامر أخبرنا أبو بكر عن الأعمش عن أبى داود عن عمران بن حصين قال : قال رسول الله ﷺ « من كان له على رجل حق فأخره كان له بكل يوم صدقة » غريب من هذا الوجه وقد تقدم عن بريدة نحوه

(حديث آخر) عن أبى اليسر كعب بن عمرو قال الإمام أحمد حدثنا معاوية بن عمرو حدثنا زائدة عن عبد الملك بن عمير عن ربعى قال حدثنا أبو اليسر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله عز وجل فى ظله يوم لاظل إلا ظله » وقد أخرجه مسلم فى صحيحه من وجه آخر من حديث عباد بن الوليد ابن عبادة بن الصامت قال خرجت أنا وأبى نطلب العلم فى هذا الحى من الأنصار قبل أن يهلكوا فكان أول من لقينا أبا اليسر صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه غلام له معه ضمامة من صحف وعلى أبى اليسر بردة ومعافرى وعلى غلامه بردة ومعافرى فقال له أبى ياعم إنى أرى فى وجهك سفعة من غضب قال أجل كان لى على فلان بن فلان الرامى مال فأتيت أهله فسلمت فقلت أثم هو قالوا لا فخرج على ابن له جفر فقلت أين أبوك فقال سمع صوتك فدخل أريكة أمى فقلت اخرج إلى فقد علمت أين أنت فخرج فقلت ماحملك على أن اختبأت منى ؟ قال أنا والله أحدثك ثم لا أكذبك خشيت والله أن أحدثك فأكذبك أو أعدك فأخلفك وكنت صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وكنت والله معسرا قال قلت آلله قال قلت الله ؟ الله ثم قال فأتى بصحيفته فمحاها بيده ثم قال فإن وجدت قضاء فاقضنى وإلا فأنت فى حل ، فأشهد أبصر عيناى هاتان ـ ووضع اصبعيه على عينيه ـ وسمع أذناى هاتان ووعاه قلبى ـ وأشار إلى نياط قلبه ـ رسول الله ﷺ وهو يقول « من أنظر معسرا أو وضع عنه أظله الله فى ظله » وذكر تمام الحديث (حديث آخر) عن أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال عبد الله بن الإمام أحمد حدثنى أبو يحيى البزار محمد ابن عبد الرحمن حدثنا الحسن بن أسيد بن سالم الكوفى حدثنا العباس بن الفضل الأنصارى عن هشام بن زياد القرشى عن أبيه عن محجن مولى عثمان عن عثمان قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « أظل الله عينا فى ظله يوم لاظل

(١) هنا بياض فى النسختين الأميرية والمخطوطة ووقعت هذه الزيادة من قوله حدثنا إلى آخر الحديث فى نسخة أخرى ولعلها نقلت من صحيح البخارى والله أعلم.

إلا ظله من أنظر معسراً أو ترك لغارم »

(حديث آخر) عن ابن عباس قال الإمام أحمد حدثنا عبد الله بن يزيد حدثنا نوح بن جعونة السلمى الخراسانى عن مقاتل ابن حيان عن عطاء عن ابن عباس قال خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد وهو يقول بيده هكذا وأومأ أبو عبد الرحمن بيده إلى الأرض «من أنظر معسراً أو وضع عنه وقاه الله من فيح جهنم ألا إن عمل الجنة حزن بربوة ثلاثا ألا إن عمل النار سهل بسهوة ، والسعيد من وقى الفتن وما من جرعة أحب إلى الله من جرعة غيظ يكظمها عبد ما كظمها عبد لله إلا ملأ الله جوفه إيمانا » تفرد به أحمد ،

(طريق آخر) قال الطبرانى حدثنا أحمد بن محمد البورانى قاضى الحديبية(١) من ديار ربيعة حدثنا الحسن بن على الصدائى حدثنا الحكم بن الجارود حدثنا ابن أبى المتدخال ابن عيينة عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ « من أنظر معسراً إلى ميسرته أنظره الله بذنبه إلى توبته »

ثم قال تعالى يعظ عباده ويذكرهم زوال الدنيا وفناء ما فيها من الأموال وغيرها وإتيان الآخرة والرجوع إليه تعالى ومحاسبته تعالى خلقه على ما عملوا ومجازاته إياهم بما كسبوا من خير وشر ويحذرهم عقوبته فقال (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وقد روى أن هذه الآية آخر آية نزلت من القرآن العظيم فقال ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير قال آخر ما نزل من القرآن كله (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وعاش النبى ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول رواه ابن أبى حاتم وقد رواه ابن مردويه من حديث المسعودى عن حبيب بن أبى ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال آخر آية نزلت (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) وقد رواه النسائى من حديث يزيد النحوى عن عكرمة عن عبد الله بن عباس قال آخر شىء نزل من القرآن (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون) وكذا رواه الضحاك والعوفى عن ابن عباس وروى الثورى عن الكلبى عن أبى صالح عن ابن عباس قال آخر آية نزلت (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) فكان بين نزولها وموت النبى ﷺ واحد وثلاثون يوما وقال ابن جريج قال ابن عباس آخر آية نزلت (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله) الآية قال ابن جريج يقولون إن النبى ﷺ عاش بعدها تسع ليال وبدىء يوم السبت ومات يوم الاثنين رواه ابن جرير ورواه ابن عطية عن أبى سعيد قال آخر آية نزلت (واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون)

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَاكْتُبُوهُ وَلْيَكْتُب بَّيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَن يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا فَإِن كَانَ الَّذِى عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَن يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَن تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا وَلَا تَسْئَمُوا أَن تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ ذَٰلِكُمْ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ وَأَقْوَمُ لِلشَّهَادَةِ وَأَدْنَىٰ أَلَّا تَرْتَابُوا إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً حَاضِرَةً تُدِيرُونَهَا بَيْنَكُمْ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَلَّا تَكْتُبُوهَا وَأَشْهِدُوا إِذَا تَبَايَعْتُمْ وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِن تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾

(١) وفى نسخة الأزهر (الحديثه) ولعلها الصواب والرجل ليس من رواة الجماعة .

هذه الآية الكريمة أطول آية فى القرآن العظيم وقد قال الإمام أبو جعفر بن جرير حدثنا يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى يونس عن ابن شهاب قال حدثنى سعيد بن المسيب أنه بلغه أن أحدث القرآن بالعرش آية الدين وقال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس أنه قال لما نزلت آية الدين قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول من جحد آدم عليه السلام أن الله لما خلق آدم مسح ظهره فأخرج منه ما هو ذار إلى يوم القيامة فجعل يعرض ذريته عليه فرأى فيهم رجلا يزهو فقال أى رب من هذا؟ قال هو ابنك داود قال أى رب كم عمره ؟ قال ستون عاما ، قال رب زد فى عمره قال لا إلا أن أزيده من عمرك وكان عمر آدم ألف سنة فزاده أربعين عاما فكتب عليه بذلك كتاباً وأشهد عليه الملائكة فلما احتضر آدم وأتته الملائكة قال إنه قد بقى من عمرى أربعون عاما فقيل له إنك قد وهبتها لابنك داود قال ، ما فعلت ، فأبرز الله عليه الكتاب وأشهد عليه الملائكة » وحدثنا أسود بن عامر عن حماد بن سلمة فذكره وزاد فيه « فأتمها الله لداود مائة وأتمها لآدم ألف سنة » وكذا رواه ابن أبى حاتم عن يوسف بن أبى حبيب عن أبى داود الطيالسى عن حماد بن سلمة هذا حديث غريب جداً وعلى بن زيد ابن جدعان فى أحاديثه نكارة وقد رواه الحاكم فى مستدركه بنحوه من حديث الحارث بن عبد الرحمن بن أبى وثاب عن سعيد المقبرى عن أبى هريرة ومن رواية أبى داود بن أبى هند عن الشعبى عن أبى هريرة ومن طريق محمد بن عمرو عن أبى سلمة عن أبى هريرة ومن حديث تمام بن سعد عن زيد بن أسلم عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى ﷺ فذكره بنحوه

فقوله (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) هذا إرشاد منه تعالى لعباده المؤمنين إذا تعاملوا بمعاملات مؤجلة أن يكتبوها ليكون ذلك أحفظ لمقدارها وميقاتها وأضبط للشاهد فيها وقد نبه على هذا فى آخر الآية حيث قال (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) وقال سفيان الثورى عن ابن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس فى قوله (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه) قال أنزلت فى السلم إلى اجل معلوم وقال قتادة عن أبى حسان الأعرج عن ابن عباس قال أشهد أن السلف المضمون إلى أجل مسمى أن الله أحله وأذن فيه ثم قرأ (يا أيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى) رواه البخارى وثبت فى الصحيحين من رواية سفيان بن عيينة عن ابن أبى نجيح عن عبد الله بن كثير عن أبى المنهال عن ابن عباس قال: قدم النبى صلى الله عليه وسلم المدينة وهم يسلفون فى الثمار السنة والسنتين والثلاث فقال رسول الله ﷺ « من أسلف فليسلف فى كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم » وقوله (فاكتبوه) أمر منه تعالى بالكتابة للتوثقة والحفظ فان قيل فقد ثبت فى الصحيحين عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إنا أمة أمية لا نكتب ولا نحسب » فما الجمع بينه وبين الأمر بالكتابة فالجواب أن الدين من حيث هو غير مفتقر إلى كتابة أصلا لأن كتاب الله قد سهل الله ويسر حفظه على الناس والسنن أيضاً محفوظة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والذى أمر الله بكتابته إنما هو أشياء جزئية تقع بين الناس فأمروا أمر إرشاد لا أمر إيجاب كما ذهب إليه بعضهم قال ابن جريج من ادان فليكتب ومن ابتاع فليشهد وقال قتادة ذكر لنا أن أبا سليمان المرعشى كان رجلا صحب كعبا فقال ذات يوم لأصحابه هل تعلمون مظلوما دعا ربه فلم يستجب له ؟ فقالوا وكيف يكون ذلك ؟ قال رجل باع بيعا إلى أجل فلم يشهد ولم يكتب فلما حل ماله جحده صاحبه فدعا ربه فلم يستجب له لأنه قد عصى ربه. وقال أبو سعيد والشعبى والربيع بن أنس والحسن وابن جريج وابن زيد وغيرهم كان ذلك واجبا ثم نسخ بقوله (فان أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى اؤتمن أمانته) والدليل على ذلك أيضا الحديث الذى حكى عن شرع من قبلنا مقرراً فى شرعنا ولم ينكر عدم الكتابة والإشهاد قال الإمام أحمد حدثنا يونس بن محمد حدثنا ليث عن جعفر بن ربيعة عن عبد الرحمن بن هرمز عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ أنه ذكر أن رجلا من بنى إسرائيل سأل بعض بنى إسرائيل أن يسلفه ألف دينار فقال ائتنى بشهداء أشهدهم قال كفى بالله شهيداً قال ائتنى بكفيل قال كفى بالله كفيلا قال صدقت ، فدفعها إليه إلى أجل مسمى فخرج فى البحر فقضى حاجته ثم التمس مركبا يقدم عليه للأجل

الذى آجله فلم يجد مركباً فأخذ خشبة فنقرها فأدخل فيها ألف دينار وصحيفة معها إلى صاحبها ثم زجج موضعها ثم أتى بها البحر ثم قال اللهم إنك قد علمت أنى استسلفت فلاناً ألف دينار فسألنى كفيلا فقلت كفى بالله كفيلا فرضى بذلك وسألنى شهيداً فقلت كفى بالله شهيداً فرضى بذلك وإنى قد جهدت أن أجد مركباً أبعث بها اليه بالذى أعطانى فلم أجد مركباً وإنى استودعتكها فرمى بها فى البحر حتى ولجت فيه ثم انصرف وهو فى ذلك يطلب مركباً إلى بلده فخرج الرجل الذى كان أسلفه ينظر لعل مركباً تجيئه بماله فإذا بالخشبة التى فيها المال فأخذها لأهله حطباً فلما كسرها وجد المال والصحيفة ثم قدم الرجل الذى كان تسلف منه فأتاه بألف دينار وقال والله ما زلت جاهداً فى طلب مركب لآتيك بمالك فما وجدت مركباً قبل الذى أتيت فيه . قال هل كنت بعثت إلى بشىء ؟ قال ألم أخبرك أنى لم أجد مركباً قبل هذا الذى جئت فيه ؟ قال فإن الله قد أدى عنك الذى بعثت به فى الخشبة فانصرف بألفك راشداً . وهذا إسناد صحيح وقد رواه البخارى فى سبعة مواضع من طرق صحيحة معلقاً بصيغة الجزم فقال وقال الليث بن سعيد فذكره ويقال إنه رواه فى بعضها عن عبدالله بن صالح كاتب الليث عنه

وقوله تعالى (فليكتب بينكم كاتب بالعدل) أى بالقسط والحق ولا يجر فى كتابته على أحد ولا يكتب إلا ما اتفقوا عليه من غير زيادة ولا نقصان وقوله (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) أى ولا يمتنع من يعرف الكتابة إذا سئل أن يكتب للناس ولا ضرورة عليه فى ذلك فكما علمه الله ما لم يكن يعلم فليتصدق على غيره ممن لا يحسن الكتابة وليكتب كما جاء فى الحديث « إن من الصدقة أن تعين صانعاً أو تصنع لأخرق » وفى الحديث الآخر « من كتم علماً يعلمه ألجم يوم القيامة بلجام من نار » وقال مجاهد وعطاء واجب على الكاتب أن يكتب وقوله (وليملل الذى عليه الحق وليتق الله ربه) أى وليملل المدين على الكاتب ما فى ذمته من الدين وليتق الله فى ذلك (ولا يبخس منه شيئاً) أى لا يكتم منه شيئاً (فإن كان الذى عليه الحق سفيهاً) محجوراً عليه بتبذير ونحوه (أو ضعيفاً) أى صغيراً أو مجنوناً (أو لا يستطيع أن يمل هو) إما لعى أو جهل بموضع صواب ذلك من خطئه (فليملل وليه بالعدل)

وقوله (واستشهدوا شهيدين من رجالكم) أمر بالاشهاد مع الكتابة لزيادة التوثقة (فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان) وهذا إنما يكون فى الأموال وما يقصد به المال وإنما أقيمت المرأتان مقام الرجل لنقصان عقل المرأة كما قال مسلم فى صحيحه حدثنا قتيبة حدثنا إسماعيل بن جعفر عن عمرو بن أبى عمرو عن المقبرى عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال « يامعشر النساء تصدقن وأكثرن الاستغفار فانى رأيتكن أكثر أهل النار » فقالت امرأة منهن جزلة وما لنا يارسول الله أكثر أهل النار ؟ قال « تكثرن اللعن وتكفرن العشير مارأيت من ناقصات عقل ودين أغلب لذى لب منكن » قالت يارسول الله ما نقصان العقل والدين : قال « أما نقصان عقلها فشهادة امرأتين تعدل شهادة رجل فهذا نقصان العقل وتمكث الليالى لا تصلى وتفطر فى رمضان فهذا نقصان الدين »

وقوله (ممن ترضون من الشهداء) فيه دلالة على اشتراط العدالة فى الشهود وهذا مقيد حكم به الشافعى على كل مطلق فى القرآن من الأمر بالاشهاد من غير اشتراط وقد استدل من رد المستور بهذه الآية الدالة على أن يكون الشاهد عدلا مرضياً . وقوله (أن تضل إحداهما) يعنى المرأتين إذا نسيت الشهادة (فتذكر إحداهما الأخرى) أى يحصل لها ذكر بما وقع به من الاشهاد وبهذا قرأ آخرون فتذكر بالتشديد من التذكار ومن قال إن شهادتها معها تجعلها كشهادة ذكر فقد أبعد والصحيح الأول والله أعلم

وقوله (ولا يأب الشهداء إذا مادعوا) قيل معناه إذا دعوا للتحمل فعليهم الاجابة وهو قول قتادة والربيع بن أنس وهذا كقوله (ولا يأب كاتب أن يكتب كما علمه الله فليكتب) ومن ههنا استفيد أن تحمل الشهادة فرض كفاية قيل وهو مذهب الجمهور والمراد بقوله (ولا يأب الشهداء إذا مادعوا) للاداء لحقيقة قوله الشهداء والشاهد حقيقة فيمن تحمل فإذا دعى لأدائها فعليه الاجابة إذا تعينت وإلا فهو فرض كفاية والله أعلم . وقال مجاهد وأبو مجاز وغير واحد إذا دعيت لتشهد فأنت بالخيار وإذا شهدت فدعيت فأجب وقد ثبت فى صحيح مسلم والسنن من طريق مالك عن عبدالله بن أبى بكر بن محمد بن عمرو بن حزم عن أبيه عبد الله بن عمرو بن عثمان

عن عبد الرحمن بن أبي عمرة عن زيد بن خالد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير الشهداء ؟ الذى يأتى بشهادته قبل أن يسئلها » فأما الحديث الآخر فى الصحيحين « ألا أخبركم بشر الشهداء؟ الذين يشهدون قبل أن يستشهدوا » وكذا قوله « ثم يأتى قوم تسبق أيمانهم شهادتهم وتسبق شهادتهم أيمانهم » وفى رواية « ثم يأتى قوم يشهدون ولا يستشهدون » وهؤلاء[1] شهود الزور وقد روى عن ابن عباس والحسن البصرى أنها تعم الحالين التحمل والأداء

وقوله (ولا تسأموا أن تكتبوه صغيرا أو كبيراً إلى أجله) هذا من تمام الإرشاد وهو الأمر بكتابة الحق صغيرا كان أو كبيرا فقال ولا تسأموا أى لا تملوا أن تكتبوا الحق على أى حال كان من القلة والكثرة إلى أجله وقوله (ذلكم أقسط عند الله وأقوم للشهادة وأدنى أن لا ترتابوا) أى هذا الذى أمرناكم به من الكتابة للحق إذا كان مؤجلا هو أقسط عند الله أى أعدل وأقوم للشهادة أى أثبت للشاهد إذا وضع خطه ثم رآه تذكر به الشهادة لاحتمال أنه لو لم يكتبه أن ينساه كما هو الواقع غالبا (وأدنى أن لا ترتابوا) وأقرب إلى عدم الريبة بل ترجعون عند التنازع إلى الكتاب الذى كتبتموه فيفصل بينكم بلا ريبة

وقوله (إلا أن تكون تجارة حاضرة تديرونها بينكم فليس عليكم جناح أن لا تكتبوها) أى إذا كان البيع بالحاضر يدا بيد فلا بأس بعدم الكتابة لانتفاء المحذور فى تركها

فأما الاشهاد على البيع فقد قال تعالى (وأشهدوا إذا تبايعتم) قال ابن أبى حاتم حدثنا أبو زرعة حدثنى يحيى بن عبدالله ابن بكر حدثنى ابن لهيعة حدثنى عطاء بن دينار عن سعيد بن جبير فى قوله تعالى (وأشهدوا إذا تبايعتم) يعنى أشهدوا على حقكم إذا كان فيه أجل أو لم يكن فيه أجل فأشهدوا على حقكم على كل حال قال وروى عن جابر بن زيد ومجاهد وعطاء والضحاك نحو ذلك وقال الشعبى والحسن هذا الأمر منسوخ بقوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته) وهذا الأمر محمول عند الجمهور على الارشاد والندب لا على الوجوب والدليل على ذلك حديث خزيمة بن ثابت الأنصارى وقد رواه الإمام أحمد حدثنا أبو اليمان حدثنا شعيب عن الزهرى حدثنى عمارة بن خزيمة الأنصارى أن عمه حدثه وهو من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم أن النبى صلى الله عليه وسلم ابتاع فرسا من أعرابى فاستتبعه النبى صلى الله عليه وسلم ليقضيه ثمن فرسه فأسرع النبى ﷺ وأبطأ الأعرابى فطفق رجال يعترضون الأعرابى فيساومونه بالفرس ولا يشعرون أن النبى صلى الله عليه وسلم ابتاعه حتى زاد بعضهم الأعرابى فى السوم على ثمن الفرس الذى ابتاعه النبى ﷺ فنادى الأعرابى النبى صلى الله عليه وسلم فقال إن كنت مبتاعا هذا الفرس فابتعه وإلا بعته فقام النبى ﷺ حين سمع نداء الأعرابى قال أوليس قد ابتعته منك قال الأعرابى لا والله ما بعتك فقال النبى ﷺ « بل قد ابتعته منك » فطفق الناس يلوذون بالنبى ﷺ والأعرابى وهما يتراجعان فطفق الأعرابى يقول هلم شهيدا يشهد أنى بايعتك فمن جاء من المسلمين قال للاعرابى ويلك إن النبى ﷺ لم يكن يقول إلا حقا حتى جاء خزيمة فاستمع لمراجعة النبى ﷺ ومراجعة الأعرابى يقول هلم شهيدا يشهد أنى بايعتك قال خزيمة أنا أشهد أنك قد بايعته فأقبل النبى ﷺ على خزيمة فقال « بم تشهد » ؟ فقال بتصديقك يارسول الله فجعل رسول الله ﷺ شهادة خزيمة بشهادة رجلين وهكذا رواه أبو داود من حديث شعيب والنسائى من رواية محمد بن الوليد الزبيدى كلاهما عن الزهرى به نحوه ولكن الاحتياط هو الارشاد لما رواه الإمامان الحافظ أبو بكر بن مردويه والحاكم فى مستدركه من رواية معاذ بن معاذ العنبرى عن شعبة عن فراس عن الشعبى عن أبى بردة عن أبى موسى عن النبى صلى الله عليه وسلم قال « ثلاثة يدعون الله فلا يستجاب لهم : رجل له امرأة سيئة الخلق فلم يطلقها ورجل دفع مال يتيم قبل أن يبلغ ورجل أقرض رجلا مالا فلم يشهد » ثم قال الحاكم صحيح الاسناد على شرط الشيخين قال ولم يخرجاه لتوقيف أصحاب شعبة هذا الحديث على أبى موسى وإنما أجمعوا على سند حديث شعبة بهذا الاسناد « ثلاثة يؤتون أجرهم مرتين »

وقوله تعالى (ولا يضار كاتب ولا شهيد) قيل معناه لا يضار الكاتب ولا الشاهد فيكتب هذا خلاف ما يملى ويشهد هذا بخلاف ما سمع أو يكتمها بالكلية وهو قول الحسن وقتادة وغيرهما وقيل معناه لا يضر بهما قال ابن أبى حاتم حدثنا

(١) لعل الأصل فهؤلاء — لأنه جواب فأما .

أسيد بن عاصم حدثنا الحسين يعنى ابن حفص حدثنا سفيان عن يزيد بن أبى زياد عن مقسم عن ابن عباس فى هذه الآية (ولا يضار كاتب ولا شهيد) قال يأتى الرجل فيدعوهما إلى الكتاب والشهادة فيقولان إنا على حاجة فيقول إنكما قد أمرتما أن تجيبا ، فليس له أن يضارهما ، ثم قال وروى عن عكرمة ومجاهد وطاوس وسعيد بن جبير والضحاك وعطية ومقاتل ابن حيان والربيع بن أنس والسدى نحو ذلك وقوله (وإن تفعلوا فانه فسوق بكم) أى إن خالفتم ما أمرتم به أو فعلتم ما نهيتم عنه فانه فسق كائن بكم أى لازم لكم لا تحدون عنه ولا تنفكون عنه وقوله (واتقوا الله) أى خافوه وراقبوه واتبعوا أمره واتركوا زجره (ويعلمكم الله) كقوله (يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا) وكقوله (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ويجعل لكم نوراً تمشون به) وقوله (والله بكل شىء عليم) أى هو عالم بحقائق الأمور ومصالحها وعواقبها فلا يخفى عليه شىء من الأشياء بل علمه محيط بجميع الكائنات

﴿ وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا كَاتِبًا فَرِهَٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ ۗ وَلَا تَكْتُمُوا الشَّهَادَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُ آثِمٌ قَلْبُهُ ۗ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾

يقول تعالى (وإن كنتم على سفر) أى مسافرين وتداينتم إلى أجل مسمى (ولم تجدوا كاتبا) يكتب لكم قال ابن عباس أو وجدوه ولم يجدوا قرطاسا أودواة أو قلما فرهن مقبوضة أى فليكن بدل الكتابة رهان مقبوضة أى فى يد صاحب الحق وقد استدل بقوله(فرهن مقبوضة) على أن الرهن لا يلزم إلا بالقبض كما هو مذهب الشافعى والجمهور واستدل بها آخرون على أنه لابد أن يكون الرهن مقبوضا فى يد المرتهن وهو رواية عن الإمام أحمد وذهب إليه طائفة واستدل آخرون من السلف بهذه الآية على أنه لا يكون الرهن مشروعا إلا فى السفر قاله مجاهد وغيره وقد ثبت فى الصحيحين عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توفى ودرعه مرهونة عند يهودى على ثلاثين وسقا من شعير رهنها قوتا لأهله وفى رواية من يهود المدينة . وفى رواية الشافعى عند أبى الشحم اليهودى وتقرير هذه المسائل فى كتاب الأحكام الكبير ولله الحمد والمنة وبه المستعان

وقوله (فإن أمن بعضكم بعضا فليؤد الذى ائتمن أمانته) روى ابن أبى حاتم بإسناد جيد عن أبى سعيد الخدرى أنه قال هذه نسخت ما قبلها. وقال الشعبى : إذا ائتمن بعضكم بعضا فلا بأس أن لا تكتبوا أو لا تشهدوا وقوله (وليتق الله ربه) يعنى المؤتمن كما جاء فى الحديث الذى رواه الإمام أحمد وأهل السنن من رواية قتادة عن الحسن عن سمرة أن رسول الله ﷺ قال «على اليد ما أخذت حتى تؤديه »

وقوله (ولا تكتموا الشهادة) أى لا تخفوها وتغلوها ولا تظهروها قال ابن عباس وغيره : شهادة الزور من أكبر الكبائر وكتمانها كذلك ولهذا قال (ومن يكتمها فإنه آثم قلبه) قال السدى يعنى فاجر قلبه وهذه كقوله تعالى (ولا تكتم شهادة الله إنا إذاً لمن الآثمين) وقال تعالى(يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء الله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين إن يكن غنيا أو فقيراً فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو تعرضوا فان الله كان بما تعملون خبيراً) وهكذا قال ههنا (ولا تكتموا الشهادة ومن يكتمها فإنه آثم قلبه والله بما تعملون عليم)

﴿ لِّلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾

يخبر تعالى أن له ملك السموات والأرض وما فيهن وما بينهن وأنه المطلع على ما فيهن لا تخفى عليه الظواهر ولا السرائر والضمائر وإن دقت وخفيت ، وأخبر أنه سيحاسب عباده على ما فعلوه وما أخفوه فى صدورهم كما قال تعالى (قل إن تخفوا ما فى صدوركم أو تبدوه يعلمه الله ويعلم ما فى السموات وما فى الأرض والله على كل شىء قدير) وقال (يعلم السر

وأخفى) والآيات فى ذلك كثيرة جداً وقد أخبر فى هذه بمزيد على العلم وهو المحاسبة على ذلك ولهذا لما نزلت هـذه الآية اشتد ذلك على الصحابة رضى الله عنهم وخافوا منها ومن محاسبة الله لهم على جليل الأعمال وحقيرها وهذا من شدة إيمانهم وإيقانهم قال الإمام أحمد حدثنا عفان حدثنا عبد الرحمن بن إبراهيم حدثنى أبو عبد الرحمن يعنى العلاء عن أبيه عن أبى هريرة قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله على كل شىء قدير) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ فأتوا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله كلفنا من الأعمال ما نطيق الصلاة والصيام والجهاد والصدقة وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم : سمعنا وعصينا ؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير » فلما أقرها القوم وذلت بها ألسنتهم أنزل الله فى أثرها (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله .

(لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) إلى آخره ورواه مسلم متفرداً به من حديث يزيد بن زريع عن روح بن القاسم عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة فذكر مثله ولفظه . فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل الله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ، ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال نعم (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) قال نعم (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) قال نعم (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال نعم ﴿ حديث ابن عباس فى ذلك ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا وكيع حدثنا سفيان عن آدم بن سليمان سمعت سعيد بن جبير عن ابن عباس قال لما نزلت هـذه الآية (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) قال دخل قلوبهم منها شىء لم يدخل قلوبهم من شىء قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « قولوا سمعنا وأطعنا وسلمنا » فألقى الله الإيمان فى قلوبهم فأنزل الله (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) إلى قوله (فانصرنا على القوم الكافرين) وهكذا رواه مسلم عن أبى بكر بن أبى شيبة وأبى كريب وإسحق بن إبراهيم ثلاثتهم عن وكيع به وزاد (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) قال قد فعلت (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) قال قد فعلت (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) قال قد فعلت (واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين) قال قد فعلت (طريق أخرى) عن ابن عباس قال الإمام أحمد حدثنا عبد الرزاق حدثنا معمر عن حميد الأعرج عن مجاهد قال دخلت على ابن عباس فقلت يا أبا عباس كنت عند ابن عمر فقرأ هذه الآية فبكى قال : أية آية ؟ قلت (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه) قال ابن عباس إن هذه الآية حين أنزلت غمت أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم غماً شديداً وغاظتهم غيظ شديد يعنى وقالوا يا رسول الله هلكنا إن كنا نؤاخذ بما تكلمنا وبما نعمل فأما قلوبنا فليست بأيدينا فقال لهم رسول صلى الله عليه وسلم « قولوا سمعنا وأطعنا » فقالوا سمعنا وأطعنا ، قال فنسختها هذه الآية (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله) إلى (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت) فتجوز لهم عن حديث النفس وأخذوا بالأعمال (طريق أخرى) عنه قال ابن جرير حدثنى يونس أخبرنا ابن وهب أخبرنى يونس بن يزيد عن ابن شهاب عن سعيد بن مرجانة سمعه يحدث أنه بينما هو جالس مع عبد الله بن عمر تلا هذه الآية (لله مافى السموات ومافى الأرض وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله فيغفر لمن يشاء) الآية فقال والله لئن واخذنا الله بهذا لنهلكن ، ثم بكى ابن عمر حتى سمع نشيجه قال ابن مرجانة فقمت حتى أتيت ابن عباس فذكرت له ما قال ابن عمر وما فعل حين تلاها فقال ابن عباس يغفر الله لأبى عبد الرحمن لعمرى لقد وجد المسلمون منها حين أنزلت مثل ما وجد

عبد الله بن عمر فأنزل الله بعدها (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) إلى آخر السورة قال ابن عباس فكانت هذه الوسوسة مما لا طاقة للمسلمين بها وصار الأمر إلى أن قضى الله عز وجل أن للنفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فى القول والفعل (طريق أخرى) قال ابن جرير حدثنى المثنى حدثنا إسحق حدثنا يزيد بن هرون عن سفيان بن حسين عن الزهرى عن سالم أن أباه قرأ (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فدمعت عيناه فبلغ صنيعه ابن عباس فقال يرحم الله أبا عبد الرحمن لقد صنع كما صنع أصحاب رسول الله ﷺ حين أنزلت فنسختها الآية التى بعدها (لا يكلف الله نفساً إلا وسعها) فهذه طرق صحيحة عن ابن عباس ، وقد ثبت عن ابن عمر كما ثبت عن ابن عباس قال البخارى حدثنا إسحق حدثنا روح حدثنا شعبة عن خالد الحذاء عن مروان الأصغر عن رجل من أصحاب النبى ﷺ أحسبه ابن عمر (وإن تبدوا مافى أنفسكم أو تخفوه) قال نسختها الآية التى بعدها وهكذا روى عن على وابن مسعود وكعب الأحبار والشعبى والنخعى ومحمد بن كعب القرظى وعكرمة وسعيد بن جبير وقتادة أنها منسوخة بالتى بعدها ، وقد ثبت بما رواه الجماعة فى كتبهم الستة من طريق قتادة عن زرارة بن أبى أوفى عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « إن الله تجاوز لى عن أمتى ماحدثت به أنفسها مالم تكلم أو تعمل »

وفى الصحيحين من حديث سفيان بن عيينة عن أبى الزناد عن الأعرج عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ «قال الله إذا هم عبدى بسيئة فلا تكتبوها عليه فإن عملها فاكتبوها سيئة وإذا هم بحسنة فلم يعملها فاكتبوها حسنة فإن عملها فاكتبوها عشراً » . لفظ مسلم وهو فى إفراده من طريق إسماعيل بن جعفر عن العلاء عن أبيه عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ قال: «قال الله : إذا هم عبدى بحسنة ولم يعملها كتبتها له حسنة فإن عملها كتبتها له عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بسيئة فلم يعملها لم أكتبها عليه فإن عملها كتبتها سيئة واحدة » وقال عبد الرزاق أخبرنا معمر عن همام بن منبه قال هذا ما حدثنا أبو هريرة عن محمد رسول الله ﷺ قال : « قال الله إذا تحدث عبدى بأن يعمل حسنة فأنا أكتبها له حسنة مالم يعمل فإذا عملها فأنا أكتبها بعشر أمثالها وإذا تحدث بأن يعمل سيئة فأنا أغفرها له مالم يعملها فإن عملها فأنا أكتبها له بمثلها » وقال رسول الله ﷺ « قالت الملائكة رب وذاك أن عبدك(١) يريد أن يعمل سيئة وهو أبصر به فقال ارقبوه فإن عملها فاكتبوها له بمثلها وإن تركها فاكتبوها له حسنة وإنما تركها من جراى » وقال رسول الله ﷺ « إذا أحسن أحد إسلامه فان له بكل حسنة يعملها تكتب له بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف وكل سيئة تكتب بمثلها حتى يلقى الله عز وجل » تفرد به مسلم عن محمد بن رافع عن عبد الرزاق بهذا السياق واللفظ وبعضه فى صحيح البخارى وقال مسلم أيضا حدثنا أبو كريب حدثنا خالد الأحمر عن هشام عن ابن سيرين عن أبى هريرة قال : قال رسول الله ﷺ « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة ومن هم بحسنة فعملها كتبت له عشرا إلى سبعمائة ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب له وإن عملها كتبت » تفرد به مسلم دون غيره من أصحاب الكتب وقال مسلم أيضا حدثنا شيبان بن فروخ حدثنا عبد الوارث عن الجعد أبى عثمان حدثنا أبو رجاء العطاردى عن ابن عباس عن رسول الله ﷺ فيما يروى عن ربه تعالى قال « إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة وان هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة » ثم رواه مسلم عن يحيى بن يحيى عن جعفر بن سليمان عن الجعد أبى عثمان فى هذا الاسناد بمعنى حديث عبد الرزاق زاد «ومحاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك » وفى حديث سهيل عن أبيه عن أبى هريرة قال جاء ناس من أصحاب رسول الله ﷺ فسألوه فقالوا إنا نجد فى أنفسنا مايتعاظم أحدنا أن يتكلم به قال «وقد وجدتموه ؟» قالوا نعم قال « ذاك صريح الإيمان » لفظ مسلم وهو عند مسلم أيضاً من طريق الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن رسول الله ﷺ به وروى مسلم أيضاً من حديث مغيرة عن إبراهيم عن علقمة عن عبد الله قال سئل رسول الله ﷺ عن الوسوسة قال «تلك صريح الإيمان»

(١) وفى نسخة الأزهر وإن عبدك .

وقال على بن أبى طلحة عن ابن عباس (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فإنها لم تنسخ ولكن الله إذا جمع الخلائق يوم القيامة يقول إنى أخبركم بما أخفيتم فى أنفسكم مما لم يطلع عليه ملائكتى فأما المؤمنون فيخبرهم ويغفر لهم ماحدثوا به أنفسهم وهو قوله (يحاسبكم بهالله) يقول يخبركم وأما أهل الشك والريب فيخبرهم بما أخفوا من التكذيب وهو قوله (فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء) وهو قوله (ولكن يؤاخذكم بما كسبت قلوبكم) أى من الشك والنفاق وقد روى العوفى والضحاك عنه قريباً من هذا

وروى ابن جرير عن مجاهد والضحاك نحوه وعن الحسن البصرى أنه قال هى محكمة لم تنسخ واختار ابن جرير ذلك واحتج على أنه لا يلزم من المحاسبة المعاقبة وأنه تعالى قد يحاسب ويغفر وقد يحاسب ويعاقب بالحديث الذى رواه عند هذه الآية قائلا حدثنا ابن بشار حدثنا ابن أبى عدى عن سعيد بن هشام (ح) وحدثنى يعقوب بن إبراهيم حدثنا ابن علية حدثنا ابن هشام قالا جميعا فى حديثهما عن قتادة عن صفوان بن محرز قال بينا نحن نطوف بالبيت مع عبد الله ابن عمر وهو يطوف إذ عرض له رجل فقال يا ابن عمر ماسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فى النجوى ؟ قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يدنو المؤمن من ربه عز وجل حتى يضع عليه كنفه فيقرره بذنوبه فيقول له هل تعرف كذا فيقول رب أعرف مرتين حتى إذا بلغ به ماشاء الله أن يبلغ قال فإنى قد سترتها عليك فى الدنيا وإنى أغفرها لك اليوم قال فيعطى صحيفة حسناته أو كتابه بيمينه وأما الكفار والمنافقون فينادى بهم على رءوس الأشهاد (هؤلاء الذين كذبوا على ربهم ألا لعنة الله على الظالمين) وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين وغيرهما من طرق متعددة عن قتادة به وقال ابن أبى حاتم حدثنا أبى حدثنا سليمان بن حرب حدثنا حماد بن سلمة عن على بن زيد عن أبيه قال سألت عائشة عن هذه الآية (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) فقالت ماسألنى عنها أحد منذ سألت رسول الله ﷺ عنها فقالت هذه مبايعة الله العبد وما يصيبه من الحمى والنكبة والبضاعة يضعها فى يدكمه فيفقدها فيفزع لها ثم يجدها فى ضبنته[1] حتى إن المؤمن ليخرج من ذنوبه كما يخرج التبر الأحمر وكذا رواه الترمذى وابن جرير من طريق حماد بن سلمة به وقال الترمذى غريب لا نعرفه إلا من حديثه (قلت) وشيخه على بن زيد بن جدعان ضعيف يغرب فى رواياته وهو يروى هذا الحديث عن امرأة أبيه أم محمد أمية بنت عبدالله عن عائشة وليس لها عنها فى الكتب سواه

﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ * لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾

﴿ ذكر الأحاديث الواردة فى فضل هاتين الآيتين الكريمتين نفعنا الله بهما ﴾

﴿ الحديث الأول ﴾ قال البخارى حدثنا محمد بن كثير أخبرنا شعبة عن سليمان عن إبراهيم عن عبد الرحمن عن ابن مسعود عن النبى ﷺ قال « من قرأ الآيتين ـ وحدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن بن يزيد عن ابن مسعود قال : قال رسول الله ﷺ : « من قرأ بالآيتين ـ من آخر سورة البقرة فى ليلة كفتاه » وقد أخرجه بقية الجماعة من طريق سليمان بن مهران الأعمش باسناده مثله وهو فى الصحيحين من طريق الثورى عن منصور عن إبراهيم عن عبد الرحمن عنه به وهو فى الصحيحين أيضاً عن عبد الرحمن عن علقمة عن ابن مسعود قال عبد الرحمن ثم لقيت أبا مسعود فحدثنى به وهكذا رواه أحمد بن حنبل حدثنا يحيى بن آدم حدثنا شريك

(١) قوله ثم يجدها فى ضبنته ، هذا ليست فى رواية الترمذى وقوله التبر الأحمر فى النسخة الأميرية (البسر) والظاهر أنه تحريف .

عن عاصم عن المسيب بن رافع عن علقمة عن ابن مسعود عن النبي ﷺ قال « من قرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فى ليلته كفتاه »

﴿ الحديث الثانى ﴾ قال الإمام أحمد حدثنا حسين حدثنا شيبان عن منصور عن ربعى عن خرشة بن الحر عن المعرور ابن سويد عن أبى ذر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش لم يعطهن نبي قبلى » وقد رواه ابن مردويه من حديث الأشجعي عن الثورى عن منصور عن ربعى عن زيد بن ظبيان عن أبى ذر قال : قال رسول الله ﷺ « أعطيت خواتيم سورة البقرة من كنز تحت العرش »

﴿ الحديث الثالث ﴾ قال مسلم حدثنا أبو بكر بن أبى شيبة حدثنا أبو أسامة حدثنا مالك بن مغول (ح) وحدثنا ابن نمير وزهير بن حرب جميعاً عن عبد الله بن نمير وألفاظهم متقاربة قال ابن نمير حدثنا أبى حدثنا مالك بن مغول عن الزبير بن عدى عن طلحة عن مرة عن عبد الله قال لما أسرى برسول الله ﷺ انتهى به إلى سدرة المنتهى وهى فى السماء السابعة إليها ينتهى ما يعرج من الأرض فيقبض منها وإليها ينتهى ما يهبط من فوقها فيقبض منها قال (إذ يغشى السدرة ما يغشى) قال فراش من ذهب قال وأعطى رسول الله ﷺ ثلاثا أعطى الصلوات الخمس وأعطى خواتيم سووة البقرة وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئاً المقحمات

﴿ الحديث الرابع ﴾ قال أحمد حدثنا إسحق بن إبراهيم الرازى حدثنا سلمة بن الفضل حدثنى محمد بن إسحق عن يزيد بن أبى حبيب عن مرثد بن عبد الله اليزنى عن عقبة بن عامر الجهنى قال: قال رسول الله ﷺ « اقرأ الآيتين من آخر سورة البقرة فإنى أعطيتهما من كنز تحت العرش » هذا إسناد حسن ولم يخرجوه فى كتبهم

﴿ الحديث الخامس ﴾ قال ابن مردويه حدثنا أحمد بن كامل حدثنا إبراهيم بن إسحق الحربى أخبرنا مروان أنبأنا ابن عوانة عن أبى مالك عن ربعى عن حذيفة قال : قال رسول الله ﷺ « فضلنا على الناس بثلاث أوتيت هذه الآيات من آخر سورة البقرة من بيت كنز تحت العرش لم يعطها أحد قبلى ولا يعطاها أحد بعدى » ثم رواه من حديث نعيم بن أبى هند عن ربعى عن حذيفة بنحوه

﴿ الحديث السادس ﴾ قال ابن مردويه حدثنا عبد الباقى بن نافع أنبأنا إسماعيل بن الفضل أخبرنا محمد بن حاتم بن بزيع أخبرنا جعفر بن عون عن مالك بن مغول عن أبى إسحق عن الحارث عن على قال : لا أرى أحداً عقل الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة فانها من كنز أعطيه نبيكم ﷺ من تحت العرش ورواه وكيع فى تفسيره عن إسرائيل عن أبى إسحق عن عمير بن عمرو المخارقى عن على قال ما أرى أحداً يعقل بلغه الإسلام ينام حتى يقرأ آية الكرسى وخواتيم سورة البقرة فانها من كنز تحت العرش

﴿ الحديث السابع ﴾ قال أبو عيسى الترمذى حدثنا بندار حدثنا عبد الرحمن بن مهدى حدثنا حماد بن سلمة عن أشعث ابن عبد الرحمن الجرمى عن أبى قلابة عن أبى الأشعث الصنعانى عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال « إن الله كتب كتابا قبل أن يخلق السموات والأرض بألفى عام أنزل منه آيتين ختم بهما سورة البقرة ولا يقرأ بهن فى دار ثلاث ليال فيقربها شيطان » ثم قال هذا حديث غريب وهكذا رواه الحاكم فى مستدركه من حديث حماد بن سلمة به وقال صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه

﴿ الحديث الثامن ﴾ قال ابن مردويه حدثنا عبد الرحمن بن محمد بن مدين أخبرنا الحسن بن الجهم أخبرنا إسماعيل بن عمرو أخبرنا ابن مريم حدثنى يوسف بن أبى الحجاج عن سعيد عن ابن عباس قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قرأ آخر سورة البقرة وآية الكرسى ضحك وقال « إنهما من كنز الرحمن تحت العرش » وإذا قرأ (من يعمل سوءا يجز به) (وأن ليس للانسان إلا ما سعى ، وأن سعيه سوف يرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى) استرجع واستكان

﴿ الحديث التاسع ﴾ قال ابن مردويه حدثنا عبد الله بن محمد بن كوفى حدثنا أحمد بن يحيى بن حمزة حدثنا محمد بن بكر حدثنا مكى بن إبراهيم حدثنا عبد الله بن أبى حميد عن أبى مليح عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله ﷺ

« أعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش والمفصل نافلة »

﴿ الحديث العاشر ﴾ قد تقدم فى فضائل الفاتحة من رواية عبد الله بن عيسى بن عبد الرحمن بن أبى ليلى عن سعيد ابن جبير عن ابن عباس قال بينا رسول الله ﷺ وعنده جبريل إذ سمع نقيضا فوقه فرفع جبريل بصره إلى السماء فقال هذا باب قد فتح من السماء ما فتح قط قال فنزل منه ملك فأتى النبى صلى الله عليه وسلم فقال له أبشر بنورين قد أوتيتهما لم يؤتهما نبى قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة لن تقرأ حرفا منهما إلا أوتيته رواه مسلم والنسائى وهذا لفظه

فقوله تعالى (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) إخبار عن النبى ﷺ بذلك قال ابن جرير حدثنا بشر حدثنا يزيد حدثنا سعيد عن قتادة قال ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لما نزلت عليه هذه الآية « ويحق له أن يؤمن » وقد روى الحاكم فى مستدركه حدثنا أبو النضر الفقيه حدثنا معاذ بن نجدة القرشى حدثنا خلاد بن يحيى حدثنا أبو عقيل عن يحيى بن أبى كثير عن أنس بن مالك قال لما نزلت هذه الآية على النبى ﷺ (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه) قال النبى ﷺ « حق له أن يؤمن » ثم قال الحاكم صحيح الإسناد ولم يخرجاه

وقوله (والمؤمنون) عطف على الرسول ثم أخبر عن الجميع فقال (كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله) فالمؤمنون يؤمنون بأن الله واحد أحد ، فرد صمد ، لا إله غيره ولا رب سواه . ويصدقون بجميع الأنبياء والرسل والكتب المنزلة من السماء على عباد الله المرسلين والأنبياء لا يفرقون بين أحد منهم فيؤمنون ببعض ويكفرون ببعض بل الجميع عندهم صادقون بارون راشدون مهديون هادون إلى سبيل الخير ، وإن كان بعضهم ينسخ شريعة بعض بإذن الله حتى نسخ الجميع بشرع محمد صلى الله عليه وسلم خاتم الأنبياء والمرسلين الذى تقوم الساعة على شريعته ولا تزال طائفة من أمته على الحق ظاهرين وقوله (وقالوا سمعنا وأطعنا) أى سمعنا قولك يا ربنا وفهمناه وقمنا به وامتثلنا العمل بمقتضاه (غفرانك ربنا) سؤال للمغفرة والرحمة واللطف . قال ابن أبى حاتم حدثنا على بن حرب الموصلى حدثنا ابن فضل عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قول الله (آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ـ إلى قوله ـ غفرانك ربنا) قال قد غفرت لكم (وإليك المصير) أى المرجع والمآب يوم الحساب . قال ابن جرير حدثنا ابن حميد حدثنا جرير عن سنان عن حكيم عن جابر قال لما نزلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم (آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير) قال جبريل إن الله قد أحسن الثناء عليك وعلى أمتك فسل تعطه فسأل (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) إلى آخر الآية وقوله (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) أى لا يكلف أحدا فوق طاقته وهذا من لطفه تعالى بخلقه ورأفته بهم وإحسانه إليهم وهذه هى الناسخة الرافعة لما كان أشفق منه الصحابة فى قوله (وإن تبدوا ما فى أنفسكم أو تخفوه يحاسبكم به الله) أى هو وإن حاسب وسأل لكن لا يعذب إلا بما يملك الشخص دفعه فأما مالا يملك دفعه من وسوسة النفس وحديثها فهذا لا يكلف به الإنسان ، وكراهية الوسوسة السيئة من الإيمان ، وقوله (لها ما كسبت) أى من خير (وعليها ما اكتسبت) أى من شر وذلك فى الأعمال التى تدخل تحت التكليف . ثم قال تعالى مرشداً عباده إلى سؤاله وقد تكفل لهم بالإجابة كما أرشدهم وعلمهم أن يقولوا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا) أى إن تركنا فرضا على جهة النسيان أو فعلنا حراما كذلك أو أخطأنا أى الصواب فى العمل جهلا منا بوجهه الشرعى . وقد تقدم فى صحيح مسلم من حديث أبى هريرة قال: « قال الله نعم » ولحديث ابن عباس قال الله « قد فعلت » وروى ابن ماجه فى سننه وابن حبان فى صحيحه من حديث أبى عمرو الأوزاعى عن عطاء قال ابن ماجه فى روايته عن ابن عباس وقال الطبرانى وابن حبان عن عطاء عن عبيد بن عمير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله وضع عن أمتى الخطأ والنسيان وما استكرهوا

عليه » وقد روى من طريق آخر وأعله أحمد وأبو حاتم والله أعلم . وقال ابن أبي حاتم حدثنا أبي حدثنا مسلم بن إبراهيم حدثنا أبو بكر الهذلي عن شهر عن أم الدرداء عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن الله تجاوز لأمتي عن ثلاث عن الخطأ والنسيان والاستكراه » قال أبو بكر فذكرت ذلك للحسن فقال أجل أما تقرأ بذلك قرآنا (ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا)

وقوله (ربنا ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا) أي لا تكلفنا من الأعمال الشاقة وإن أطقناها كما شرعته للامم الماضية قبلنا من الأغلال والآصار التي كانت عليهم التي بعثت نبيك محمداً صلى الله عليه وسلم نبي الرحمة بوضعه(١) في شرعه الذي أرسلته به من الدين الحنيفي السهل السمح وقد ثبت في صحيح مسلم عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قال الله نعم » وعن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: « قال الله قد فعلت » وجاء في الحديث من طرق عن رسول الله ﷺ أنه قال « بعثت بالحنيفية السمحة »

وقوله (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) أي من التكليف والمصائب والبلاء لا تبتلنا بما لا قبل لنا به وقد قال مكحول في قوله (ربنا ولا تحملنا مالا طاقة لنا به) قال العزبة والغلمة رواه ابن أبي حاتم قال الله نعم وفي الحديث الآخر قال الله قد فعلت

وقوله (واعف عنا) أي فيما بيننا وبينك مما تعلمه من تقصيرنا وزللنا (واغفر لنا) أي فيما بيننا وبين عبادك فلا تظهرهم على مساوينا وأعمالنا القبيحة (وارحمنا) أي فيما يستقبل فلا توقعنا بتوفيقك في ذنب آخر ولهذا قالوا إن المذنب محتاج إلى ثلاثة أشياء أن يعفو الله عنه فيما بينه وبينه وأن يستره عن عباده فلا يفضحه به بينهم وأن يعصمه فلا يوقعه في نظيره . وقد تقدم في الحديث أن الله قال نعم وفي الحديث الآخر قال الله قد فعلت

وقوله (أنت مولانا) أي أنت ولينا وناصرنا وعليك توكلنا وأنت المستعان وعليك التكلان ولا حول لنا ولا قوة إلا بك (فانصرنا على القوم الكافرين) أي الذين جحدوا دينك وأنكروا وحدانيتك ورسالة نبيك وعبدوا غيرك وأشركوا معك من عبادك : فانصرنا عليهم ، واجعل لنا العاقبة عليهم في الدنيا والآخرة قال الله نعم وفي الحديث الذي رواه مسلم عن ابن عباس قال الله قد فعلت . وقال ابن جرير حدثني مثنى بن إبراهيم حدثنا أبو نعيم حدثنا سفيان عن أبي إسحق أن معاذا رضي الله عنه كان إذا فرغ من هذه السورة (وانصرنا على القوم الكافرين) قال آمين ورواه وكيع عن سفيان عن أبي إسحق عن رجل عن معاذ بن جبل أنه كان إذا ختم البقرة قال آمين

﴿ تفسير سورة آل عمران وهي مدنية ﴾

لأن صدرها إلى ثلاث وثمانين آية منها نزل في وفد نجران وكان قدومهم في سنة تسع من الهجرة كما سيأتي بيان ذلك عند تفسير آية المباهلة منها إن شاء الله تعالى وقد ذكرنا ما ورد في فضلها مع سورة البقرة أول البقرة

﴿ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ * الم * اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ * نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ * مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ .

قد ذكرنا الحديث الوارد في أن اسم الله الأعظم في هاتين الآيتين (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) و (الم الله لا إله إلا هو الحي القيوم) عند تفسير آية الكرسي وقد تقدم الكلام على قوله (الم) في أول سورة البقرة بما أغنى عن إعادته وتقدم الكلام على قوله (الله لا إله إلا هو الحي القيوم) في تفسير آية الكرسي

وقوله تعالى (نزل عليك الكتاب بالحق) يعني نزل عليك القرآن يا محمد بالحق أي لاشك فيه ولا ريب بل هو منزل

(١) كذا في النسختين بتذكير الضمير .